

مكتبة مدرسة دار فؤاد

تاريخ
الجنس
العربي

إبراهيم القاسم

المكتبة المصرية
مكتبة - بيروت

تاريخ الجنس العربي

في

مختلف الأطوار والأدوار والأقطار

تأليف
محمد عزة دروزة

الجزء الثامن

العروبة الصريحة في الاسلام
تحت راية الخلفاء الامويين

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الاولى

١٩٨٣ - ١٩٦٤

الناشر - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢.٦٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة اولى بين يدي الكتاب



لقد كنا نرسمنا ان يحتوي هذا الجزء تاريخ العرب الاسلامي تحت راية الامويين في الشام والاندلس .

ولقد كانت الدولة الاموية الشامية اعظم الدول العربية الجنس قبل الاسلام وبعده ومن اعظم دول الارض عامة في القديم والحديث من حيث الرقعة والسلطان . وقد جرى فيها احداث متنوعة وهامة جداً داخلية وخارجية وسياسية وغير سياسية . وكان لبعضها آثار بعيدة المدى في تاريخ العرب والاسلام . وكان بعضها وسيلة الى تشويه سيرة هذه الدولة وخلفائها ورجالها في الوقت نفسه . وكان بعضها مما كثر الكلام في خطاه وصوابه واثره وسيره وصحته وكذبه . فرأينا من واجبا من الناحية القومية ومن الناحية العلمية التاريخية معاً ان نتوسع في عرض احداث واعمال هذه الدولة من مختلف النواحي من جهة ، وان تستقصي ماورد في صدد سيرة خلفائها وعظماؤها ولائها وقوادها وما جرى في عهدهم من الاحداث الداخلية التي كانت وسيلة الى تشويه سيرتهم وسيرة الدولة بالتالي وان نخضع الامور فيه في نصابها الحق بقدر المستطاع من جهة اخرى ، فطال بنا النفس حتى استغرق الحيز الذي قدرناه لاجبار الامويين الشاميين والاندلسيين معاً بل وزاد عن معدل الجزئين السابقين مما جعلنا نقصر هذا الجزء على الامويين الشاميين ونفرد للامويين الاندلسيين ومن شغل محلهم بعدهم جزءاً مستقلاً .

على اننا لا ندعي مع ذلك اننا اطلعنا على كل ما ورد في الكتب العربية واحطنا به او اننا اصبنا في كل قول .

فالأحاطة بكل الكتب والاطلاع عليها ليس بمقدور أحد والعصمة لله وحده . ولقد بذلنا الجهد في سبيل القيام بذلك الواجب المزدوج مدفوعين بالشعور به وحسب دور هوى ولا جموح ولا تهيب . فان نكن حققنا ما قصدنا اليه فذلك من توفيق الله والا فالضعف البشري عذره . وفوق كل ذي علم عليم .

ولقد كتبنا في مطلع الجزء السادس نبذة في مصادر تاريخ الجنس العربي في الدور الاسلامي . وهي شاملة لتاريخ الامويين فلم نر ضرورة الى كتابة نبذة جديدة في مصادر هذا التاريخ . ومن الله نستمد العون والسداد .

شعبان ١٣٨٣

كانون اول ١٩٦٣

المؤلف

موجز فهرست فصول الكتاب^(١)

الفصل الاول	سيرة الخلفاء الامويين
الفصل الثاني	الحركات والاحداث الخارجية وسير الفتوح في عهد الدولة الاموية
الفصل الثالث	الحركات المعكرة الداخلية في زمن الدولة الاموية
الفصل الرابع	فذلكة عامة في احوال الدولة الاموية

(١) انظر الفهرست المفصل في آخر الجزء .

الفصل الأول

سيرة الخلفاء الأمويين

تمهيد في أسماء خلفاء بني أمية وفي صدد خلافتهم وما روي في ذلك وتعليق عليه



شرحنا في الجزء السابق كيفية استتباب السلطان العربي الاسلامي لمعاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه بتنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما له فلا نرى حاجة للاعادة . فكان ذلك بداية عهد الدولة العربية الكبرى التي كانت اعظم امپراطوريات الجنس العربي اتساع رقعة وانبساط سلطان .

وقد امتد عمرها نحو تسعين عاماً . ولي خلالها اربعة عشر خليفة وهم :

سنة الحكم	نهاية الحكم	
٤٠	٦٠	١ - معاوية بن ابي سفيان بن حرب بن أمية
٦٠	٦٣	٢ - يزيد بن معاوية
٦٣	٦٣	٣ - معاوية الثاني بن يزيد
٦٣	٦٤	٤ - مروان بن الحكم بن العاص بن أمية
٦٤	٨٦	٥ - عبد الملك بن مروان
٨٦	٩٦	٦ - الوليد بن عبد الملك
٩٦	٩٩	٧ - سليمان بن عبد الملك
٩٩	١٠١	٨ - عمر بن عبد العزيز بن مروان
١٠١	١٠٥	٩ - يزيد الثاني بن عبد الملك
١٠٥	١٢٥	١٠ - هشام بن عبد الملك
١٢٥	١٢٦	١١ - الوليد الثاني بن يزيد الثاني
١٢٦	١٢٦	١٢ - يزيد الثالث بن الوليد الاول
١٢٦	١٢٧	١٣ - ابراهيم بن الوليد الاول
١٢٧	١٣٢	١٤ - مروان الثاني بن محمد بن مروان بن الحكم

وخلفاء بني أمية من فرعين كما هو ظاهر . فرع أبي سفيان بن حرب بن أمية . وكانت منه الثلاثة الأولون . وفرع الحكم بن أبي العاص بن أمية وكان منه الباقيون . وملوك الأمويين في الاندلس من هذا الفرع . ومنه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وقد استمروا يطلقون على انفسهم ويطلق الناس عليهم على اختلاف فئاتهم وفيهم اصحاب رسول الله ﷺ وتابعوهم ممن عرفوا بالعلم والورع والتقوى لقي خليفة وامير المؤمنين كما كان الامر بالنسبة للخلفاء الراشدين .

ولقد ظلوا على سنة هؤلاء الخلفاء في امامة الناس وبخاصة ايام الجمع وفي خطبتهم . وقد اثر عن معظمهم مأثورات كثيرة في صدد التزامهم احكام كتاب الله وسنة رسوله والحث على ذلك مما سوف يأتي نماذج منه بعد .

وكانوا الى هذا يحرصون على اخذ البيعة لانفسهم من اهل الحل والعقد من المسلمين وموافقتهم ايضاً كما كان الامر في عهد الخلفاء الراشدين ويحصلون عليها من مختلف الفئات والامصار فكان كل هذا على ما هو المتبادر بما سوغ لهم وسوغ للمسلمين على اختلاف فئاتهم استمرار اطلاق اللقبين المذكورين . وقد يكون بعضهم قد استعمل الترغيب والترهيب في الحصول على البيعة .

غير ان سياق الروايات والاحداث يفيد ان هذه البيعة كانت تعطى من جميع اولي الحل والعقد في مختلف الامصار . وان الجمهور الاعظم من المسلمين وفي مقدمتهم معظم الاحياء من اصحاب رسول الله ومعظم الهاشميين ومعظم اهل الحل والعقد كانوا يعترفون بسلطانهم ويتعاونون معهم ويندجون في مختلف الشؤون العامة تحت لوائهم . ولا يعقل ان يكون الترغيب والترهيب عاماً شاملاً وان لا تكون البيعة قد اخذت من الناس جميعهم الا به . وعلى كل حال فهي بيعة شرعية لزمّت المسلمين واعتبرها الجمهور الاعظم منهم كذلك بدون ريب .

ولقد روي ^(١) ان اهل المدينة لما اعترفوا ان يخلعوا يزيد بن معاوية جاء عبد الله بن عمر رضي الله عنه الى عبد الله بن مطيع قائد الحركة فقال له جئتك لاحدثك حديثاً سمعته

(١) البداية والنهاية لابن كثير مطبعة السعادة بصر ج ٨ ص ٢٣٢ و ٢٣٣ .

من رسول الله ﷺ يقول : « من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت مودة جاهلية » كما روي انه جمع بينه واهله وقال لهم « إنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله واني سمعت رسول الله ﷺ يقول ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان وان من اعظم الغدر بعد الشرك بالله ان يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم يتكث بيعته . فلا يخلعن احد منكم يزيد ولا يسرفن احد منكم في الامر فيكون الفصل بيني وبينه » .

ويروى بضعة احاديث نبوية في صدد الخلافة منها حديث عن ابن عمر رواه الشيخان جاء فيه (لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم اثنان)^(١) وحديث عن معاوية رواه البخاري جاء فيه (ان هذا الامر في قريش لا يعاديه احد الا كبه الله في النار على وجهه ما اقاموا الدين)^(٢) وحديث عن جابر بن سمرة رواه الشيخان والترمذي جاء فيه (لا يزال الاسلام عزيزاً الى اثني عشر خليفة كلهم من قريش)^(٣) وحديث عن معاذ بن جبل وابي عبيدة رواه ابن كثير . ولم يرد في الصحاح جاء فيه (قال رسول الله ﷺ ان هذا الامر بدأ رحمة ونبوة ثم يكون رحمة وخلافة ثم كائن ملكاً عضواً ثم كائن عتواً وجبرية وفساداً في الارض . يستحلون الحرير والفروج ويرزقون على ذلك وينصرون الى ان يلقوا الله عز وجل)^(٤) وحديث عن سفينة رواه اصحاب السنن عن النبي ﷺ (الخلافة في امي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك . ثم قال سفينة - والكلام للراوي عنه سعيد بن جهمان - امسك خلافة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي فوجدناها ثلاثين سنة . قال سعيد قلت ان بني امية يزعمون ان الخلافة فيهم قال كذبوا بنو الزرقاء . بل هم ملوك شر الملوك)^(٥) .

والى جانب هذه الاحاديث هناك احاديث مروية ضد بني امية بالذات ايضاً منها ما هو عام ومنها ما هو خاص . فمن ذلك حديث عن ثوبان مولى رسول الله قال (كان رسول الله ﷺ نائماً واضعاً رأسه على فخذه ام المؤمنين ام حبيبة بنت ابي سفيان فنحب ثم تبسم فقالوا

(١) التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) و(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠ .

(٥) التاج ج ٣ ص ٣٦ وسفينة مولى رسول الله .

يا رسول الله رأيتك نجت ثم تبست فقال رأيت بني امية يتعاورون على منبري فساء في ذلك ثم رأيت بني العباس يتعاورون على منبري فسرني ذلك (١) .

وحديث عن ابي هريرة قال (قال رسول الله ﷺ إذا بلغ بنو العاص اربعين رجلا اتخذوا دين الله دغلا وعباد الله خولا ومال الله دولا (٢) .

وحديث عن ابي وعب (انه كان عند معاوية فدخل عليه مروان بن الحكم فتكلم في حاجة فقال اقتصر لي حاجتي فاني لأبو عشرة واخو عشرة وعم عشرة فلما أدير قال معاوية لابن عباس وهو معه على السرير اما تعلم ان رسول الله قال إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله بينهم دولا وعباد الله خولا وكتاب الله دغلا . فاذا بلغوا سبعة وتسعين واربعمئة كان هلاكهم اسرع من لوك ثمره فقال اللهم نعم . فقال يا ابن عباس انشدك الله ألا تعلم ان رسول الله قال عن مروان هذا ابو الجبابرة . فقال اللهم نعم (٣) .

وحديث عن سعيد بن المسيب قال (رأى النبي ﷺ ناساً من بني امية على المنابر فساء ذلك فقليل له انما هي دنيا يعطونها وتضمحل عن قليل فسري عنه) (٤) .

وحديث عن عمرو بن مرة قال جاء الحكم بن العاص يستأذن على رسول الله ﷺ فعرف كلامه فقال انذنوا له صبت عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين وقليل ما هم يشرفون في الدنيا ويروضون في الآخرة ذوو دهاء وخديعة . يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق (٥) .

وحديث عن ابي هريرة جاء فيه ان رسول الله صلعم رأى في المنام ان بني الحكم يرقون على منبره فأصبح كالتغيظ وقال رأيت بني الحكم ينزون على منبري نزو القردة فما روي رسول الله مستجمعاً ضاحكاً حتى مات) .

وباستثناء حديث سفينة في صدد مدة الخلافة بعد النبي فان بقية الاحاديث لم ترد في كتب الاحاديث الصحيحة . وقد وصفها ابن كثير الذي نقلناها عنه بالضعف والانتقطاع وقال انه ورد في معناها احاديث كثيرة موضوعة فضر بنا صفحاً عن إيرادها . وقد قال ابن الاثير فيها

ان في اسانيدھا كلاماً^(١) .

والمرجح انه كان للخلافات الحزبية والمنافسات التي نشبت بعد عثمان رضي الله عنه أثر في هذه الاحاديث وقد سقت لتسوية بني امية وبني مروان بخافة الذين كانت لهم الحكم في معظم مدة الخلافة الاموية وكانت الدعايات والحركات نشيطة خدھم من قبل منافسيھم من الهاشمين علويين وعباسيين . فالحديث الذي فيه خبر استيلاء النبي صلعم من تعاور بني امية على منبره يقال في حضرة ام حبيبة بنت ابي سفيان رضي الله عنه وهذا عجيب .

وشطره الثاني بسرور النبي صلعم من تعاور بني العباس بعدهم على منبره يجعل احتمال دونه هو الاقوى . ومروان بن الحكم الذي روي ان النبي صلعم قال عنه انه (ابو الجبابرة) مات سنة ٦٥ هـ وعمره ٦١ أو ٦٣ سنة^(٢) . اي انه كان طفلاً وربما لم يكن قد ولد حينما هاجر النبي صلعم إلى المدينة . وكان ما يزال صبيّاً حينما مات . ولم يكن قد ظهر منه ما يجعل النبي صلعم يقول عنه هذا القول كما هو المتبادر . ولم يتول الملك من اولاده إلا واحد وهو عبد الملك . وتولى الملك من اولاد عبد الملك اربعة وواحد كان حفيداً آخر لمروان . وجميعهم كانوا من اقوى واحصاف خلفاء بني امية واكثرهم نشاطاً في سبيل نشر رايات العرب والاسلام في مشارق الارض ومغاربها ثم في سبيل مشاريع عظيمة عمرانية دينية ومدنية ومبشرات كثيرة اخرى مما جعلهم يعدون من اعظم رجالات العرب والاسلام وملوكهم على ما . وف يأتي شرحه لا ان يكونوا محل تنديد وتثريب

وجواب سفينة باستثناء ما رواه عن النبي صلعم عجيب يبعث الشك . فهو يعلم ان معاوية من ملوك بني امية . ويعلم انه من اصحاب رسول الله وان رسول الله نبى عن سب اصحابه ولعنهم . ويعلم انه صهر رسول الله وكاتبه ايضاً فلا يمكن ان يعقل ان يلعنه . ولقد مات سنة ٧١ هـ ولم يكن ولي من بني امية بعد معاوية إلا اربعة حيث يتبادر من هذا انه لم يكن الكلامه ولعنته ملوك بني امية محل وبالتالي يقوي الشك فيما روي عنه .

ولقد شرحنا في مطلع الجزء السابق ظروف تسمية ابي بكر بالخليفة وتسمية عمر بأمر

(١) ج ٤ ص ٧٨

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٣

المؤمنين . ولم يكن ذلك بناء على هذه الاحاديث . او احاديث اخرى . وانما كان من وحي الموقف ومعنى العمل والصفة . ولم يكن لأحد الثقبين المعنى القدسي الديني الذي صار لهما في بعد . فلما انتقل الامر إلى معاوية بعد تنازل الحسن عنه واجماع المسلمين عليه تلقب بالثقبين استمراراً لما كان وخاطبه المسلمون بها ثم استمر الامر على هذا بعده .

ومن الجدير بالذكر ان هناك احاديث نبوية مروية في مصلحة بني امية ودولتهم أيضاً منها حديث اورده ابن كثير مروباً عن ابي سلمة بن عبد الرحمن عن ابيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فيه (ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومئة) (١) وهي السنة التي مات فيها هشام بن عبد الملك ، والتي اضطرب امر بني امية بعدها وصارت الخلافة للعباسيين بعد سبع سنين .

ومنها حديث اورده ابن كثير ايضاً مروباً عن ثوبان مولى رسول الله جاء فيه (لا تزال الخلافة في بني امية يتلقفونها تنفق الغلات الكرة اذا خرجت من ايديهم فلا خير في عيش) (٢) .

وهذه الاحاديث ليست كذلك من الاحاديث الصحيحة . ونرجح انها من وضع انصار الامويين كقابلة للاحاديث الموضوعة ضدهم .

هذا ، وقد يكون من المناسب ان ننبه على نقطة متصلة بالانقلاب وهي ان خلفاء بني امية كانوا يعتبرون انفسهم ملوكاً بالمعنى العام المتعارف لهذه الكلمة وكان الناس يعتبرونهم كذلك ايضاً ويخاطبونهم بلقب الملك ولم يكونوا يستنكفون عن هذا الاعتبار والخطاب على ما تفيد المأثورات . وهذا المعنى والاعتبار ملموحان في ابیات الشاعر عبد الله بن قيس الرقيات هذه مثلاً :

ما نقموا من بني امية إلا انهم يحملون ان غضوا
وانهم سادة الملوك فما تصلح إلا عليهم العرب

(٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٥٥

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٤٧

نبذة عن ولاية العهد

باستثناء معاوية ومروان بن الحكم ويزيد الثالث ومروان بن محمد فان بقية الخلفاء الامويين تولوا الحكم نتيجة لتسميتهم اولياء عهد من قبل الجالس على العرش قبلهم . وكان الجالسون على العرش يحرصون على اخذ البيعة لاولياء عهدهم من اهل الحل والعقد بل ومن جمهور المسلمين في مختلف الامصار ويحصلون عليها .

وباستثناء امتناع اربعة او خمسة من اصحاب رسول الله وهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابي بكر عن الموافقة على البيعة بولاية عهد يزيد بن معاوية لم يرو انه كان ترمد وامتناع عن اعطاء البيعة لاولياء العهد كما كان شأن البيعة للخلفاء .

وما قلناه قبل من ان الترغيب والترهيب قد يكون وقع في بيعة الخلفاء نقول انه قد يكون وقع في بيعة اولياء العهد ولكنه لا يعقل ان يكون شاملاً وعماماً وان لا تكون البيعة حصلت إلا به . وكانت تعتبر على كل حال شرعية لازمة في اعناق المسلمين لا يصح التحلل منها إلا بتخلي صاحبها .

هذا مع التنبيه على ان اولياء العهد كانوا يحرصون على اخذ البيعة لانفسهم مجدداً حينما يصير الحكم اليهم بل بعد موت الجالس على العرش .

وولاية العهد في حد ذاتها ليست بدعة اموية كما يتبادر . فقد فعل ذلك ابو بكر رضي الله عنه حيث عهد بالامر من بعده الى عمر رضي الله عنه وفعل ذلك عمر حيث عهد بالامر لواحد من ستة من اصحاب رسول الله صلعم على ما مر شرحه في الجزء السابق . وقد يكون الابتداء فيها بالنسبة لما كان الامر في عهد الخلفاء الراشدين في انها كانت للابناء والاخوة او بني الامام . اي ان الملك بها صار اسروياً ووراثياً . على ان هذا قد وقع قبل الامويين حيث

بايع اهل العراق الحسن بن علي بعد مقتل ابيه رضي الله عنها .

وقد روت الروايات القديمة ان الناس سألوا علياً عن البيعة بالحسن فقال لا آمركم ولا أنهاكم . وقد ذكر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ان فرقة الجارودية من الشيعة تتمسك برواية تذكر ان علياً نص على امامة الحسن بعده (١) .

ولقد سار على هذه السنة معظم الدول الاسلامية من بعدهم وفي طليعتهم العلويون والعباسيون حيث صار اجماع المسلمين منعقداً على ذلك مما فيه معنى كونهم رأوه مانعاً للفوضى والفتن مساعداً على الاستقرار فلم يبق اي مجال للتجريح والتثريب . وان كنا ومنا زلنا نرى نظام الخلفاء الراشدين هو الافضل كلها امكن ذلك . وقد كان يأخذ به الخوارج على ما سوف يأتي شرحه بعد . لانه اخمن لتوسيد الحكم للصالح في علمه وعمله واخلاقه بدون ريب .

ولقد رافق سنة ولاية العهد سنة اخرى حيث كان الجالسون على العرش يسمون احياناً كثيرة اكثر من ولي عهد واحد ليتولوا الحكم واحد بعد آخر ويأخذون لهم البيعة من الناس . ومع ان هذه السنة كانت تثير ازمات تعكر سماء الدولة فقد كان الخلفاء لا يعتبرون بذلك ولو كانت العبرة في أنفسهم ويظنون على هذه السنة حيث يسيغ هذا القول ان الظروف كانت تلي عليهم اتباع هذه السنة رغم ما يكون من تعكيورها . ولقد كان الاخوة ابناء علات . ولا ندرى اذا كانت لامهاتهم التأثير في هذه السنة ام كان هناك ظروف قاهرة اخرى .

فمروان بن الحكم عين ولديه عبد الملك وعبد العزيز وليين لعهد . وكان اول من سن هذه السنة . واراد عبد الملك صرف الخلافة عن اخيه الى ابنائه حتى كاد يقوم جفاء بين الاخوين لولا ان موت عبد العزيز حل الازمة . ولم يعتبر عبد الملك فعين ولديه الوليد وسليمان وليين لعهد . واراد الوليد صرف الخلافة بدوره عن اخيه الى ابنه وقام بين الاخوين جفاء وقطيعة . ولم يتم للوليد ما اراد فجلس سليمان على العرش فانتقم من كبار رجال اخيه الذين

(١) انظر مختصر الفرق بين الفرق ص ٣١ وفي المجلد الحادي عشر من الاغاني رواية عن خطبة خطبها ابو الاسود الدؤلي عقب مقتل الامام ذكر فيها ان الامام وصى بالامامة بعده لابنه وابن رسول الله الحسن فأقبل الشيعة على مبايعته . انظر في هذا المجلد اخبار ابي الاسود الدؤلي .

حبذوا له خلعه دون ان يراعي ما كان لهم من بلاء وجهد كبيرين . ومع ذلك فقد عين هو الآخر وليين لعهدده هما عمر بن عبد العزيز واخوه يزيد بعده . وسار على السنة يزيد حيث عين اخاه هشاماً ثم ابنه الوليد من بعده وليين لعهدده . واراد هشام ان يصرف الخلافة عن ابن اخيه الى ابنائه هو الآخر فكان جفاء وقطيعة بينه وبين ابن اخيه . ولم يتم لهشام ما اراد فجلس الوليد على العرش فانتقم من ابناء عمه بسبب ما كان من اضطهاد ابيهم له مما جعل هؤلاء يشتركون في الفتنة التي نشبت ضد الوليد وأدت الى مقتله . ومع ذلك فان الوليد عين ابنه الحكم وعثمان وليين لعهدده ايضاً . وقد سجنها يزيد الذي تولى الخلافة نتيجة للفتنة وقتلها . وعين مع ذلك وليين لعهدده هما اخوه ابراهيم وابن عم له اسمه عبد العزيز . ونكتفي هنا بما تقدم على ان نشرح الاحداث المتصلة بهذه المسألة في سيرة الخلفاء .

نبذة في صفات و اخلاق وسيرة خلفاء بني امية

كلمة عامة وتعليقات على بعض الاقوال والمرويات



في الكتب التي وصلت الينا من مدونات القرن الثالث والرابع مثل كتب يعقوبي وابن قتيبة والبلاذري والطبري والمسعودي وابي عبيد بن القاسم وابن عبد ربه ثم في الكتب التي دوت بعد ذلك مثل كتب ابن الاثير وابن عساكر وابن كثير وابي الفداء وابن خلدون والاصفهاني وغيرهم نبذ وروايات كثيرة في صفات و اخلاق وسيرة خلفاء بني امية معزوة الى رواة او مؤلفين أسبق منهم . منها ما فيه مدح وثناء وتنويه واخبار تدل على سيرة صالحة و اخلاق واعمال كريمة . ومنها ما فيه قدح وتسويء واخبار تدل على سيرة سيئة و اخلاق واعمال غير كريمة . ومنها ما فيه تناقض و غرابة . ومنها ما يعقل ويدخل في نطاق الاحتمال ومنها ما لا يعقل . ومن المحتمل كثيراً ان يكون من هذا وذاك ما هو مصنوع ومتأثر بالخلافات والمنافسات السياسية التي قامت بين الامويين والهاشمين بفرعهم العلوي والعباسي بقصد التنويه والدفاع او التجريح والتثريب والتشويه بل من ذلك ما يمكن الجزم بصنعه اذا ما امعن النظر فيه وقيس بالاحوال والظروف القائمة آنذاك وكل هذا يوجب على المؤرخ تحفظاً كبيراً .

غير اننا اذا لاحظنا أن هذه الكتب قد كتبت بعد الامويين ومنها ما كتب في ظروف كان السلطان فيها لخصومهم الهاشمين وكان التجريح والتسويء هو الاروج والاكثر شيوعاً والتزاماً ساغ لنا ان نرجح ان ما احتوى مدحاً وثناء او ما كان فيه تقدير وتنويه ودلالة على الصلاح والمكرمة من اعمالهم و اخلاقهم بما يدخل في نطاق العقل هو الاكثر صحة او الاولى بالأخذ والاعتماد والتصديق إن لم يكن كله فكثير منه .

وقد يدعم هذا ما كان من قرب عهد خلفاء الامويين الى عبد النبي صلعم وخلفاء الراشدين واصحاب رسول الله رضي الله عنهم وتابعيهم حيث يكون اثر الهدى النبوي قوياً وازعاً لهم عن الارتكاس في الموبقات والكبائر والانحرافات الاخلاقية والدينية التي

نسبت اليهم او الى بعضهم .

وفيا روي من اقوالهم و اخلاقهم واعمالهم وتصرفاتهم يلحظ هذا الاثر بكل قوة . كما قد يدعمه ما هو متفق عليه بما وصلت اليه الدولة الاموية في عهدهم من عظمة وقوة وعزة عربية وإسلامية على ماسوف نشرحه بعد وما كان في عهدهم من حركة عمرانية نشيطة ثم من فتوحات عظيمة في مشارق الارض ومغاربها بما لا يمكن ان يتيسر حصوله الا في ظل رجال متحلين باخلاق ومواهب عالية . وهو ما روي عن معظمهم حتى ان المروي عكسه عنهم او عن بعضهم يضيع في غمرة النوع الاول بل وتبدو عليه الصنعة المتأخرة بقصد التسوية والتشويه .

ويظل هو المفسر لكل ما روي عن عهدهم من اعمال كبرى في مختلف الميادين كانت دولتهم بها كما قلنا في مطلع الكلام اقوى واعظم واغزى واوسع دولة عربية .

واننا لنسوغ لانفسنا ان نقول ان اكثر ما روي عن سوء سيرتهم او بعضهم هو من صنع الشعوبيين الذين كانوا يتميزون غيظاً بما وصل اليه العرب في عهدهم . وقد دخل كثير منهم في الاسلام ثم في الفرق الشيعية بنوع خاص فأفسدوا في تاريخه وحياة اهله ودينهم اي افساد .

ولقد روي عن معظمهم كثير من الاقوال والافعال والمواقف تدل على انهم كانوا يخافون الله ويتقونه ويقومون بواجباتهم الدينية المتنوعة ويحثون على ذلك ويلتزمون الحق والعدل واحكام كتاب الله وسنة رسوله . فضلاً عما كانوا عليه من حزم وحسن سياسة واريحية واهتمام لصالح المسلمين العامة والخاصة وعما باشروه او جرى في عهدهم من جهاد في سبيل الله ونشر دينه وتوطيد السلطان العربي الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها بمالم يكذب ضاهيهم فيه احد بعدهم ومن جملتهم الذين حققوا عليهم وتأمرامع الاعاجم على اسقاط دولتهم فضلاً عن التفوق عليهم وبما يجعلهم في طليعة عظماء رجال العرب والاسلام وملوكهم ويوجب على كل مسلم وعربي مخلص للاسلام والعروبة ان يعرف لهم حقهم من التوقير والتكريم والاحلال والحرب والدفاع وان يعتز بهم .

ولقد رويت قصائد ومقطعات شعرية كثيرة جداً لشعراء عديدين من شعراء العصر الاموي عامة وفحولهم خاصة في مدح خلفاء بني امية فرداً فرداً وفي مدح بني امية إجمالاً فيها ثناء على اخلاقهم ودينهم وتقواهم وجهادهم ومروءتهم وعدلهم وبرهم وما اسدود للاسلام

والعرب من خدمات (١) . ومهما كان احتمال المبالغة وقصد التزلف والاستمناح والنفاق وارداً في صدها فان فيها فيما نعتقد ترديداً وتأيداً لهذه المزايال التي تؤيدها المأثورات الكثيرة .

وإذا كان هناك حقاً شعر كثير آخر في ذمهم والحملة عليهم فان هذا انما كان بتأثير خصوصهم الهاشميين والزبيريين الذين كانوا يتوسلون بكل وسيلة الى اثاره الناس عليهم وتجريحهم على ما سوف نشرحه في المناسبات العديدة الآتية .

وننبه الى اننا لا نريد ان ننزه الخلفاء الامويين من النقائص أو الاعمال المستهجنة أو الشذوذ والانحراف عن مقتضى الحق والعدل والمروءة والحلق الكريم وكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين ولا ان ننفي كل ما روته الروايات من ذلك . فالطبع البشري والظروف المختلفة التي اكتنفت الدولة الاموية وخلفاءها والحركات التي قامت في اثنائها مما يجعل بعض ما روته الروايات وارداً وقابلاً للتصديق .

ولكن الذي اردناه هو ايجاب التحفظ والتروي فيما روي من الروايات التي تنقضها روايات اخرى او التي لا تكون معقولة او التي يبرز عليها طابع الصنعة وقصد التشويه والتجريح والاثارة والدعاية قوياً ، والتي من المحتمل ان يكون منها بل كثير منها قد اخترع ونشر في زمن الدولة الاموية لذلك القصد وهو امر مألوف في كل زمن بين الاحزاب المتنافسة والمتناوئة .

نقول هذا لان هناك مؤلفين حديثين وقعوا في المخذور عن قصد او غير قصد . منهم جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي . فالذي يتصفح اجزاء كتابه يجده يأخذ على الاعمال اغلب . بل لا يكاد يكون هناك استثناء الا نادراً جداً — كل رواية مأخذ الصحة ويبنى عليها حكماً دون تمحيص ولا ترو . في حين انه يبرز على كثير من الروايات التي يأخذها هذا المأخذ الصنعة واحتمال الكذب وقصد التسويه والتشويه بكل قوة .

ولا يقف امر هذا المؤلف عند هذا . فانه يقرر احكاماً عامة شاملة لعهد بني امية وخلفائهم استناداً الى حادث فردي في رواية تحتل الكذب والصدق والكذب فيها اكثر احتمالاً . فيقول مثلاً ان الامويين كانوا لا يقفون عند حد جزية او خراج معين بل يأخذون من اهل

(١) الحقنا بالنبذة ملحفاً فيه مقتطفات من هذا الشعر .

البلاد ما يريدون بدون تحديد .

ويسوق على ذلك رواية عسبن عمرو بن العاص معزوة الى المقرئ تذكرو ان صاحب اخنا سأل عمرآ عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال له (لا احدها . انما انتم خزاة لنا . ان كثر علينا كثرنا عليكم وان خفف عنا خففنا عنكم)^(١) ولا يمكن ان يعقل صدور هذا من عمرو الذي عين بنفسه مقدار الجزية على اهل البلاد بعد موثق على ما شرحناه في الجزء السابق . وهذا فضلا عن ان هذا حادث فردي لا يصح ان يبنى عليه حكم شامل فيه ظلم وتجن .

ويقول ان عمال بني امية كانوا يجورون على اصحاب الارضين من اهل الذمة ولا يهمهم ابقى لهم من المحصول شيء ام لا مع انه من شرط الخراج ان يبقى لاصحاب الارضين ما يجبرون به النوائب والحوادث . ويسوق على ذلك رواية معزوة الى الماوردي تذكر ان الحجاج كتب الى عبد الملك يستأذنه في اخذ تلك البقية فأجابه قائلاً (لا تكن على درهمك المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك . وابق لهم لحوماً يعقدون عليها شحوماً)^(٢) . والرواية بعيدة عن احتمال الصحة بالنسبة الى عقل الحجاج وحصافته . فضلا عن انها لم تتحقق حيث رفض الخليفة الاذن بما استؤذن به وفلا عن انها حادثة فردية لا يصح ان يبنى عليها حكم شامل .

ويقول ان خلفاء بني امية ازدادوا انغماساً في الترف واولهم يزيد بن عبد الملك فانه انقطع الى اللهو والخمر واشتغل عن مصالح الدولة بجاريته حباة وسلامة .

وجاء بعده ابنه الوليد وكان مثل ابيه في اللهو والخمر^(٣) هذا في حين انه لم ينسب اللهو والخمر إلا لهذين وليزيد بن معاوية من اصل اربعة عشر خليفة . والتمعن في سياق الروايات الواردة في اخبار هؤلاء الخلفاء الثلاثة على ما سوف يرد في سيرتهم يظهر احتمال كذب ماروي عنهم او المبالغة فيه .

ويقول ان خلفاء بني امية قد انغمسوا في الترف واللهو والخمر واصبحوا لا ينظرون الى ما يؤيد سلطانهم ولا يبالون في انتقاء عمالهم وربما ولوا العامل عملاً بأشارة جارية او مكافأة

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٩ (٢) ص ٢٠

(٣) الجزء السابق الذكر ص ٢٦

وساق مثلاً على ذلك رواية تذكر ان الجنيد بن عبد الرحمن اهدى زوجة هشام قلادة فأعجبته فأهداه قلادة اخرى فولاه خراسان^(١) . والمعروف ان هشاماً من اعقل واحزم وأتقى خلفاء بني امية على ما سوف يأتي شرحه في سيرته بحيث يسوغ القول ان الرواية لا يمكن ان تكون صحيحة وعلى الاقل ان يكون هشام قد ولى الجنيد خراسان بسبب هديته وحسب . ومع ذلك فهذا حادث فردي من الظلم ان يبنى عليه حكم شامل .

ويقول ان خلفاء بني امية قد استخفوا بالدين والنبوة والقرآن والحرمين وقتلوا اهلهم وفيهم كثير من اصحاب رسول الله . وساق على ذلك رواية تروي ان الحجاج كان يقول ان الخليفة افضل من الملائكة المقربين والانبياء المرسلين وان خالداً القسري كان يقول ان خليفة الرجل في اهله افضل من رسوله اليهم يريدان بذلك تفضيل خلفاء بني امية على النبي .

وساق ايضاً رواية تذكر ان الوليد بن يزيد استفتح القرآن فوجد في الصفحة التي فتحها آية (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . فعلق المصحف واخذ يرميه بالنبال حتى مزقه ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد فيها أنا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

وساق رواية تذكر ان عبد الملك حين صار خليفة كان يقرأ في المصحف فأغلقه وقال هذا فراق بيني وبينك^(٢) .

وكل هذا لا يمكن ان يصدق فضلاً عن ان الروايات الفردية لا يصح ان يبنى عليها حكم عام كما حاول المؤلف .

وهناك مأثورات كثيرة تقرر تقوى وإيمان معظم خلفاء بني امية بحيث يكون هذا الحكم الشامل تجنياً ظالماً . ولقد ساق المؤلف حوادث مقتل الحسين وثورة المدينة وقتال اهلها.

(١) الجزء السابق الذكر ص ٢٦ (٢) ج ٤ ص ٧٤ وبعدها

وقتل بن الزبير مكة للتدليل على دعواه مع ان هذه الاحداث لم تقع نتيجة لهذه الدعوى .
وليس من شأنها ان تؤيدها على ما سوف يأتي شرحه بعد فضلاً عن ان ذلك جرى في عهد
خليفتين ولا يصح ان يستخرج منه حكم شامل .

ويقول (١) ان بني امية لم يكن بهم نشر الاسلام وانما كان مهمم الفتح والتغلب وحشد
الاموال فتوقف نشر الاسلام على عهدهم . ولا يسوق روايات على ذلك . مع ان الروايات
المروية في هذا وذاك على ما سوف نوردته بعد تكذب الدعويين تكذيباً شديداً .

ويقول ان بني امية ظلموا واجحفوا كثيراً في اهل الذمة وزادوا في مقدار المرتب عليهم
من الجزية واخذوا معها الحراج واخذوا الجزية من الرهبان وقتلهم وعذبهم وساق في صده
ذلك بعض الروايات الفردية التي كانت في مصر في زمن عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد
العزيز وهشام بن عبد الملك وذكر معها ان عمر وهشام لم يقرأ عمالهما بالتراجع عنه ووبخ عمر
عامله توبيخاً شديداً بحيث يكون الحكم الشامل على بني امية في هذا ظماً وتجنياً كذلك .

ومن التطويل الاسترسال في الاستشهاد . وقد لا يكون جرجي زيدان فريداً في اسلوبه .
وفي ما اوردها كفاية للتدليل على ما قصدنا اليه من ايجاب التروي والتحفظ ازاء الروايات
المروية عن عهد بني امية وخلفائهم .

هذا ولقد حرصنا على ايراد معظم ما روي من صفات كل خليفة واخلاقه واقواله
وسيرته وصور عن الحكم في عهده مقتضياً او مسهباً . وسواء أ كانت له أم عليه . وعلقنا
ونبهنا على ما رأيناه في حاجة الى تعليق وتنبيه . وقد يكون فيما اوردها وما لم نعلق عليه
من روايات مصنوعاً او غريباً او غير وثيق .

غير ان الكثير من ذلك ان لم يكن اكثره محتمل الصحة وجله بل كله منقول من مؤلفات
قديمة . وقد نقله مؤلفوها على الأرجح من مؤلفات لم تصل اليها او عزوه الى رواة سمعهم ومن
هؤلاء من عزاه الى رواة حتى يصل الخبر الى الشاهد العيان او السامع المباشر . وقد رأينا
في ما فعلنا فائدة لتكون الصورة واضحة او كاملة بقدر الامكان .

ملحق ببعض مختارات مقتطعة من قصائد ماثورة

لبعض فحول الشعراء في مدح خلفاء بني امية

من شعر جرير في مدح عبد الملك :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وقوم قد سموت لهم فدانا يدم في ملامة رداح

وابيضاً :

لولا الخليفة والقرآن يقرأه ما قام للناس احكام ولا جمع
انت الامين امين الله لا سرف فيما وليت ولا هيابة ورع
مثل المهند لم تبهر ضريته لم يغش غريبه تفصيل ولا طبع
وارى الزناد من الاعياص في مهل فالعالمون لما يقضي به تبع

ومن شعره في مدح الوليد :

فانت لوب العالمين خليفة ولي لعهد الله بالحق عارف
هداك الذي يهدي الخلائق للتقى واعطيت نصراً لم تنله الخلائف
وادت اليك الهند ما في حصونها ومن ارض صين استان تجبى الطرائف
وارض هرقل قد قهرت وداهراً وتسعى لكم من آل كسرى القواصف

وابيضاً :

ان الوليد خليفة خليفة رفع البناء على البناء الاعظم
فعلا بناؤكم الذي شرفتم ولكم اباطح كل واد مفعم
ان الوليد هو الامام المصطفى بالنصر هز لواؤه والمغنم
ورث الاعنة والاسنة واتسمى في بيت مكرمة رفيع السلم

ومن شعره في مدح سليمان :

هو المهدي وقد وضع السبيل
وأدبت الذي عهد الرسول
فوزن العدل أصبح لا يميل
ومن أمسى وليس به عويل
وعان قد أضر به الكبول
فأحيا الناس والبلد المحول
ربيع الناس والحسب الأثيل
إذا ما حسب في السنة الخليل

سليمان المبارك قد علمت
أجرت من المظالم كل نفس
صفت لك بيعة بثبات عهد
وتدعوك الأرامل واليتامى
ويدعوك المكلف بعد جهد
فرجت لهم والحلقات عنهم
إذا ابتدر المكارم كان فيكم
تبهنون الخاض لكل خيف

وله في مدح عمر بن عبد العزيز :

ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
خبلا من الجن أو خبلا من النشر
كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
بوركت جابر عظم هيض منكسر
تعصي الهوى وتقوم الليل بالسور

كم بالمواسم من شعناء أرملة
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
ممن يعبدك تكفي فقد والده
يرجوك مثل رجاء الغيث تجبرهم
انت المبارك والمهدي سيرته

وله أيضاً فيه :

جعل الخلافة في الامام العادل
مكس العشور على جسور الساحل
فاليك حاجة كل وقد راحل

ان الذي بعث النبي محمداً
ولقد نفعت بما منعت تخرجاً
قد نال عدلك من اقام بأرضنا

وله في مدح يزيد بن عبد الملك :

للطالبين شمائل ونجار
وحى الذمار فما يضاع ذمار
غمر البحور الى العلا سوار
والفرع لا جعد ولا خوار

لما ملكت عصا الخلافة بينت
ساس الخلافة حين قام بحقها
ويزيد قد علمت قريش انه
وعروق نبعتم لها طيب الثرى

ان الخليفة الليثامي عصمة
صلى القبائل من قريش كلهم

وله فيه ايضاً :

اما يزيد فان الله فهمه
يكفي الخليفة ان الله فضله
ما ينبت الفرع نبعا مثل نبتكم
قد اخرج الله قسراً من معالهم

وله في مدح هشام :

فقلت لما الخليفة غير شك
هشام الملك والحكم المصفي
يعم على البرية منك فضل
وان اهل الضلالة خالفوكم
واما من اطاعكم فيرضى
بني مروان بيتك في المعالي

وله فيه ايضاً :

امير المؤمنين قضى بعدل
بحق المستجير يخاف روعاً
عطاء الله ملكك النصاري
الى المهدي نزع ان فرعنا
تباشرت البلاد لكم بحكم
رضينا بالخليفة حين كنا

وله فيه ايضاً :

امير المؤمنين جمعت ديناً
امير المؤمنين على صراط

وابو العيال يشفه الاقتار
بالمومنين عليك والانصار

حكماً واعطاء ملكاً واضح النور
عزم وثيق وعقد غير تغير
عيدانها غير عشات ولا خور
اهل الحصون واصحاب المطامير

هو المهدي والحكم الرشيد
يطيب اذا نزلت به الصعيد
وتطرق من مخافتك الاسود
اصابهم كما لقيت ثود
وذو الاضغان يخضع مستفيد
وعائشة المباركة الولود

احل الحل واجتنب الحراما
اذا امسى بجبلك ان يناما
ومن صلى لقبلته وصاما
ونستقي بعزته الغماما
اقام لنا الفرائض واستقاما
له تبعاً وكان لنا اماما

وحلماً فاضلاً لذوي العلوم
اذا اعوجج المواد مستقيم

ومن شعر الفرزدق في مدح عبد الملك بن مروان :

إذا لاقى بنو مروان سلوا لدين الله أسيفاً غضاباً
صوارم تمنع الاسلام منهم يوكل وقعين بمن أرباباً

وله فيه أيضاً وفي الحجاج معه :

إذا أتيت أمير المؤمنين فقل بالنصح والعلم قولاً غير مكذوب
أما العراق فقد أعطتك طاعتها وعاد يعمر منها كل تخريب
أرض رमित إليها وهي فاسدة بصارم من سيوف الله مشبوب
لا يغمد السيف إلا ما يجرده على قفا محرم بالسوق مصلوب
مجاهد لعداة الله محتسب جهادهم بضراب غير تذبذب

وله في مدح الوليد :

ومن عبد شمس أنت سادس ستة خلائف كانوا منهم العم والاب
هداة ومهدين عثمان منهم ومروان وابن الأبطحين المطيب

وله فيه أيضاً :

بهم ثبتت رضى الاسلام قسراً وضرب بالمهتدة الذكور
توارثها بنو مروان عنه وعن عثمان بعد ثأني كبير
رجاك المشرقان لكل غان وأرملة وأصحاب الثغور
وكنت جعلت للعمال عهداً وفيه العاصمات من الفجور
أمير المؤمنين وانت تشفي بعدل يديك أدواء الصدور

وله فيه أيضاً :

إليك أمير المؤمنين انختها إلى خير من حلت له عقد الرجل
إلى خيرهم فيهم قديماً وحادثاً مع الحلم والایمان والنائل الجزل
يسوس من الحلم الذي كان راجعاً يا جبال سلمى من وفاء ومن عدل

وله في مدح سليمان :

وشفى بعدلك كل ذي غمر
ودرى لم يك قبلها يدري
وقلعت عنا كل ذي كبر

ولقد هدى بك كل ملتبس
حتى استقام لوجه سنته
واخذت عدلا من ابيك لنا

وله فيه ايضاً :

عصا الدين حتى ما تخاف نوارها
بكل طريد ليلها ونهارها
وانت اذا عدت قريش خيارها

لقد امننت وحش البلاد بجامع
به أمن الله البلاد فساكن
رأيت بني مروان خير عمارة

وله فيه ايضاً :

وحسبك فارس الغبراء خالا
اقمت الميل فاعتدل اعتدالا
ومن عثمان كنت لهم مثالا

ألت ابن الائمة من قريش
إمام منهم للناس فيهم
عملت بسة الفاروق فيهم

وله فيه ايضاً :

عن البائس المسكين حلت سلاسله
من العدل اذ صارت اليك محامله
وما قلت من شيء فانك فاعله

سليمان غيث المحلين ومن به
جعلت مكان الجور في الارض مثله
وقد علموا ان لن يميل بك الهوى

وله فيه ايضاً :

وبرءاً لاثار القروح الكوالم
على فترة والناس مثل البهائم
عن ابن مناف عبد شمس وهاشم

جعلت لاهل الارض امناً ورحمة
كما بعث الله النبي محمداً
ورثتم قناة الملك غير كلاله

وله في مدح عمر بن عبد العزيز :

أعبد الله انت احق ماش	وساع بالجماهير الكبار
نمى الفاروق امك وابن اروى	أباك فأنت منصدع النهار
كلا ابويك عبد الله عال	رفيع في المنازل بالخير
هما قمر السماء وانت بدر	به بالليل يدلج كل سار
وهل في الناس من احد يساوي	يديك اذا تنوزع للفخار

وله فيه ايضاً :

وما اصابك من الايام جائحة	للأصل إلا وان جلت ستجبر
وقد حمدت باخلاق خبرت بها	وانما بان ليلى محمد أخبر

وله في مدح يزيد بن عبد الملك :

ارى الله قد اعطى بن عاتكة الذي	له الدين امسى مستقيم السوائف
تقى الله والحكم الذي ليس مثله	ورأفة مهدي على الناس عاطف

وله فيه ايضاً :

حرب ومروان جذاك اللذالهما	من الروابي عظيات الجماهير
ترى وجوه بني مروان تحسبها	عند اللقاء مشوقات الدنانير
الضاربين على حق اذا ضربوا	يوم اللقاء وليسوا بالمعاوير
غلبتم الناس بالحق الذي لكم	عليهم وبضرب غير تعذير

وله فيه ايضاً :

جزى الله خير المسلمين وخيرهم	يدين واغناهم لمن كان افقرا
امام كآين من امام نمى به	وشمس وبدر قد اضاءا فنورا

وله في مدح هشام :

وأيت بني مروان يرفع ملكهم
بهم جمع الله الصلاة فأصبحت
ومن ورث العودين والحاتم الذي
له الملك والأرض الفضاء رحيبها
ملوك شباب كالأسود وشيها
قد اجتمعت بعد اختلاف شعوبها

وله فيه أيضاً :

أبت لهشام عادة يستعيدها
هشام فتى الناس الذي تنتهي المنى
هشام خيار الله للناس والذي
وانت لهذا الناس بعد نبيهم
وانت الذي تلوي الجنود رؤوسها
إليك انتهى الحاجات وانقطع المنى
وكف جواد لا يسد انثلامها
إليه وإن كانت رغاباً جسامها
به ينجلي عن كل أرض ظلامها
سما يرجى للدحول غمامها
إليك وللأيتام أنت طعامها
ومعروفها في راحتك تمامها

وله في مدح الوليد بن يزيد :

إني إلى خير البرية كلها
إلى القائد الميمون والمهتدى به
طبعت على الإسلام والحزم والندى
رحلت وما ضاقت علي المطامع
إذ الناس متبوع وآخر تابع
ألا إنما تبدي الأمور الطبايع

وله فيه أيضاً :

وانت سما الله فيها التي لهم
كلا أبويك استل سيف جماعة
فما اغمد حتى أتابت قلوبهم
لنعم مناخ القوم حلوا رحالهم
بناها أبو العاصي ومروان فوقه
من الأرض يحيط ميت الأرض ماؤها
على فتية تلقى البنين نساؤها
وسمّح للضرب الشامي دماؤها
إلى قبة فوق الوليد سماؤها
ويوسف قد مس النجوم بناؤها

وللشاعر الاخطل في مدح بني امية من قصيدة انشدها لعبد الملك :

ما ان يوازي بأعلى نبتها الشجر	في نبعة من قريش يعصبون بها
اهل الرباء واهل الفخر ان فخروا	تعلو الهضاب وحلوا في ارومتها
اذا المت بهم مكروهة صبروا	حشد على الحق عيافو الحنا أنف
كان لهم مخرج منها ومعتصر	وان ندجت على الآفاق مظلمة
لا جد الا صغير بعد مختقر	اعظام الله جداً ينصرون به
ولو يكون لقوم غيرهم اشروا	لم ياشروا فيه اذ كانوا مواليه
واعظم الناس احلاماً اذا قدروا	شمس العداوة حتى يستقاد لهم

وللشاعر ابي العباس الاعمى في بني امية :

شبا اذا ما التفت الشيع	ابني امية لا ارى لكم
اهل الحلوم فضرها الفزع	سعة واحلاماً اذا فزعت
شباء لا ينهي لها الربع	وحفيظة من كل نائبة
من ذاك انوف معشر ففعا	الله اعطاكم وان رنمت

ولنابغة بني شيبان من قصيدة له في عبد الملك :

وان تلاق النعمى فلا فرح	ان تلق بلوى فانت مصطبر
لم يوده عائر ولا لحو	ترمي بعيني اروي على شرف
غر عتاق بالخير قد نفحوا	آل ابي العاص آل مائرة
في الجدجد وان هم مزحوا	خير قريش وهم افاضلها
اتم اذا القوم في الوغى كلحوا	ارحبها اذرعاً واصبرها

وله فيه ايضا وفي بني مروان عامة :

لبي ابي العاص الامارة	عرفت قريش كلها
عند المشورة بالاشارة	لابرها واحقها

المانعين لما ولوا والنافعين ذوي الضرارة
وهم احقهم بها عند الخلاوة والمرارة

وللشاعر اسماعيل بن يسار في مدح عبد الملك من قصيدة :

ملكتم فزدت الناس ما لم يزدكم امام من المعروف غير مصرده
وقمت فلم تنقص قضاء خليفة ولكن بما ساروا من الفعل تقتدي

للشاعر العبلي في مدح هشام من قصيدة :

تلقه محكم القوى اريجياً ذا قرى عاجل وسيب عتيد
ملكاً يشمل الرعية منه بأباد ليست بذات خمود
اخضر الربع والجناح خصب افصح المستراد للمستريد

ولهذا الشاعر في بني امية عامة من قصيدة :

اهل الرياسة والسياسة والندى واسود حرب لا يخيم لقاءها
غيث البلاد وهم امراؤها سرج يضيء دجا الظلام خباؤها
فبنو امية خير من وطىء الثرى شرفاً وافضل ساسة امراؤها

وللشاعر الكمي من قصيدة يمدح فيها هشاماً وفيها تنويه ببني امية

جميعهم :

ابني امية انكم اهل الوسائل والاوامر
تقني بكل ملة وعشيري دون العشائر
انتم معادن للخلافة كبراً من بعد كبر
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر
والى القيامة لا تزال لشافع منكم وواتر

ونكتفي بهذا القدر اليسير للدلالة على ما اردناه .

١ - معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه^(١)



لقد وصف ابو بكر بن ابي الدنيا معاوية فقال انه كان طويلاً ابيض جميلاً إذا ضحك أنقلبت شفته العليا . وكان يخضب لحية حتى تكون بلون الذهب . والمؤرخون والنقاد يجمعون على انه كان من اعظم دهاة العرب واوفرهم عقلاً وكياسة وحصافة وحكمة واثارة وحاملاً .

وقد ولد في اوائل البعثة النبوية . وبما يرويه الشافعي عن ابي هريرة والمدائني عن صالح بن كيسان ان احد اصحاب الفراسة من العرب نظر اليه وهو صبي مع امه فقال هذا الغلام سيسود قومه فقالت امه ثكلته إن كان لا يسود الا قومه .

والمشهور انه اسلم يوم الفتح . غير ان هناك رواية تروى عنه انه اسلم يوم عمرة القضاء اي يوم ذهب النبي ﷺ والمسلمون الى مكة لزيارة الكعبة بعد سنة من صلح الحديبية وبناء عليه كتم اسلامه على ما روي عنه^(٢) ثم اظهره يوم الفتح . وشهد يوم حنين مع النبي ﷺ مع ابيه ثم هاجر الى المدينة حيث جعله النبي ﷺ من كتابه .

وقد روي في صدد ذلك حديث عن جابر بن عبد الله جاء فيه^(٣) : (ان رسول الله استشار جبريل في استكتاب معاوية فقال له استكتبه فانه امين)^(٤) وحديث عن ابن عباس

«١» هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٥٢ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٤ ص ١٢٨ وبعدها والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٢٩ وبعدها وج ٢ ص ٣٧٤ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٩-٢١ و١١٧ وبعدها وتاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤ وبعدها وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩٢-٢١٤ مطبعة الغرى ١٣٥٨ ومجاضرات الحضري ج ٢ ص ١٨٧ وبعدها ولقد رأينا بعض المؤرخين القدماء يلحقون باسم معاوية جملة «رضي الله عنه» لانه من اصحاب رسول الله فجاريناهم في ذلك في عنوان النبذة .

«٢-٤» البداية و"اية انظر الصحف المذكورة قبل .

جاء فيه : (ان جبريل اتي رسول الله ﷺ فقال له اقريء معاوية السلام واستوص به خيراً فإنه أمين الله على كتابه ووصيه ونعم الامين) (١) .

وحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة : (ان معاوية دق باب اخته ام حبيبة ام المؤمنين والنبي عندهما فقال انظروا فقالوا معاوية فقال ائذنوا له فدخل وعلى اذنه قلم فقال ما هذا يا معاوية قال قلم اعدته لله ولرسوله فقال له جزاك الله عن نبيك خيراً . والله ما استكتبتك الا بوحى الله وما افعل من صغيرة ولا كبيرة الا بوحى الله . كيف بك لو تمصك الله قميصاً فقامت ام حبيبة فجلست بين يديه وقالت يا رسول الله وان الله مقمصه قميصاً قال نعم ولكن فيه هنات وهنات فقال ادع له يا رسول الله فقال اللهم اهد به لهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والاولى) (٢) .

ودعاء النبي ﷺ له مروى في احاديث اخرى منها ما ورد في مسند الترمذي بسند حسن عن عبد الرحمن بن ابي عميرة من اصحاب رسول الله قال : (ان النبي ﷺ دعا لمعاوية فقال اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به) (٣) ومنها حديث عن ابن عباس قال : (قال رسول الله ﷺ اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقره العذاب) (٤) .

وحديث عن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقره العذاب) (٥) .

وقد رويت صيغة مشابهة لهذه الصيغة ايضاً عن ابي عميرة المزني راوي الحديث الذي رواه الترمذي (٦) .

وحديث عن ابي ادريس الحولاني جاء فيه : (ان عمر لما عزل عمير بن سعد عن الشام بولى معاوية قال الناس عزل عميراً وولى معاوية فقال عمر لا تذكروا معاوية الا بخير فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول اللهم اهد به) (٧) .

«١-٢» البداية والنهاية انظر الصحف المذكورة قبل .

«٣» التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٣١ .

«٤-٥» البداية والنهاية ج ٨ .

وروى الطبراني عن عبد الله بن بسر ان رسول الله ﷺ استشار ابا بكر وعمر في امر فقال اشيروا علي فقالا الله ورسوله اعلم فقال ادعوا معاوية فقالا أما في رسول الله ورجلين من قريش ما يتقنون امرهم حتى يبعث رسول الله الى غلام من غلمان قريش فقال ادعوا لي معاوية فدعي له فلما وقف بين يديه قال احضروه أمركم واشهدوه أمركم فانه قوي امين^(١) .

وروى الامام احمد عن يحيى بن سعيد عن جده انه سمعه يحدث (ان معاوية اخذ الأداة بعد ابي هريرة وكان هذا مريضاً فتبع رسول الله بها فيينا هو يوضي رسول الله اذ رفع رأسه اليه مرة او مرتين وهو يتوضأ فقال يا معاوية ان وليت امرأ فأتاك الله واعدل . قال معاوية فما زلت اظن اني سابتلي بعمل لقول النبي ﷺ حتى ابتليت^(٢) .

وروى غالب القطاني عن الحسن قال (سمعت معاوية يخطب ويقول صبيت يوماً على رسول الله وضوءه فرفع رأسه إلي فقال اما انك ستلي امر امتي بعدي . فاذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم . فقال فما زلت ارجو حتى تمت مقامي هذا)^(٣) .

ويقول ابن كثير الذي نقل عنه ان الامام الحافظ ابن عساكر عني بحديث دعاء النبي ﷺ لمعاوية واظن فيه واظرب وانه ساق احاديث كثيرة في فضل معاوية .

وقد يكون في هذه الاحاديث ما هو مصنوع . ولكن كثرتها وتوافقها من جهة وصلة معاوية بالنبي ﷺ من حيث انه اخو ام المؤمنين ام حبيبة وكاتبه من جهة يسوغ القول ان منها ما هو صحيح . وبعضها وارد في مساند الاحاديث الصحيحة على ما مرت الاشارة اليه .

ولقد روى معاوية احاديث عديدة عن رسول الله ﷺ منها حديث جاء فيه (من احب ان يتمثل له الرجال قياماً فليستواً مقعده من النار .) وقد قاله الجماعة خرج عليهم فقاموا له على ما رواه الامام احمد عن ابي مخاز^(٤) . وهذا موقف من المهدي النبوي والراشدي .

ومنها حديث رواه ابو داود والترمذي عن حبيب بن الشهيد قال قال معاوية (قال رسول الله ﷺ انك ان تتبع عورات الناس افسدتهم او كدت ان تفسدهم)^(٥) .

ومنها حديث رواه الشيخان جاء فيه عن معاوية (سمعت رسول الله ﷺ يقول من يرد

الله به خيراً يفقهه في الدين . إنما أنا قاسم . والله يعطي . ولا يزال طائفة من أمي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون) (١) .

ولقد روي عن محمد بن سيرين أحد كبار علماء التابعين قوله ان معاوية كان اذا حدث عن رسول الله لم يتهم (٢) .

ولقد سئل المعافى بن عمران ايها افضل معاوية ام عمر بن عبد العزيز فغضب وقال للسائل (انجعل رجلا من الصحابة مثل رجل من التابعين . معاوية صاحب النبي وكاتبه وامينه على وحي الله : وقد لعن من سب اصحابه) (٣) .

وسئل ابن المبارك نفس السؤال فقال (اتسألني ممن حلى خاف رسول الله وقال حينما كان يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد . ولتراب في منخري معاوية مع رسول الله خير وافضل من عمر بن عبد العزيز) (٤) .

وروي عن الفضل قوله (سمعت ابا عبد الله يسأل عن رجل يتنقص معاوية وعمر بن العاص أيقال له رافضي . فقال انه لم يجزئ عليهما أحد إلا وله خبيثة سوء وما انتقص أحد أحداً من الصحابة الا وله دخيلة سوء) (٥) .

وقد قال ابن خلدون ان دولة معاوية واخباره اولى ان تالحق بدول الخلفاء الراشدين واخبارهم . فهو تأليههم في الفضل والعدالة والصحة (٦) .

ولقد وصف سعد بن ابي وقاص معاوية فقال ما رأيت أحداً بعد عثمان أقضى بحق من معاوية (٧) .

ووصفه ابن عباس بقوله ما رأيت أحداً اخلق بالملك من معاوية . انه كان ليرد الناس منه على ارجاء وادرج (٨) .

وقد وصفه بالفقه على ما جاء في حديث رواه البخاري عن ابن ابي مليكة قال (قيل لابن عباس هل لك في امير المؤمنين معاوية فانه ما اوتر الا بواحدة فقال اصاب انه فقيه) (٩) .

١١ - ٧٠ . البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ .

« ٨ » تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٤٥٨ .

« ٩ » انتاج ج ٣ ص ٣٣١ .

ومن أقواله فيه هل تعلم بمغلب معاوية الناس كانت اذا طاروا وقع . واذا وقع طاروا^(١)
ووصفه قبيصة بن جابر الاسدي بقوله ما رأيت احداً اعظم منه حملاً ولا اكثر سوء دأً ولا
أبعد اناة ولا ألين مخرجاً ولا ارحب باعاً بالمعروف ولا احب رفيقاً ولا اشبه سريرة
بعلاية منه^(٢) .

وروي عن مجاهد انه قال لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي^(٣) .

وروي عن ابن عمرو انه قال ما رأيت اسود من معاوية قيل له ولا ابو بكر وعمر قال
كانا خيراً منه ولكنه كان اسود منهم^(٤) .

وروي عن عبد الله بن الزبير قوله حين بلغه موته (لله در ابن هند . ان كنا لنفرقه وما
الليث على برائه بأجراً منه فيتفارق لنا وإن كنا لنخذه وما ابن ليلة من اهل الارض بأدهى
منه فيتخادع لنا . والله لو ددت انا متعنا به ما دام في هذا الجبل حجر وأشار الى ابي قبيس)^(٥) .

وروي عن علي بن ابي طالب قوله عنه بعد المصالحة التي جرت في سنة ٤٠ هـ والتي اسفرت
عن اعتراف علي بحكمه في الشام واعتراف معاوية بحكم علي في العراق ايما الناس لا تكبرها
امارة معاوية . فانكم لو فقدتموه رأيتم الرؤوس تنذر عن كواهلها كأنها الحنظل)^(٦) .

وروي ان عبد الملك بن مروان ذكر عنده معاوية فقال هو آخذ بثلاث وتارك لثلاث .
آخذ بقلب الناس إذا حدث . وبجسن الاستماع إذا حدث . وبأيسر الامرين إذا خولف .
تارك للماراة . تارك للغيبة . تارك لما يعتذر منه^(٧) .

وقد روي انه ذكر عمر بن عبد العزيز امام الاعمش فقال (كيف لو ادر كم معاوية .
قالوا في حلمه . قال لا والله بل في عدله)^(٨) .

وروي عن ابي الدرداء قوله فيه (ما رأيت احداً اشبه صلاة برسول الله من امامكم
هذا يعني معاوية^(٩) .

«١-٦» البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ . وبعدها .

«٧» مروج الذهب للسعودي ج ٣ ص ٦٠ .

«٨-٩» المتقى من منهاج السنة ص ٣٨٨-٣٨٩ .

ولقد كان من قواد الفتوح الشامية في زمن عمر بن الخطاب . وتولى مع أخيه زياد توجيه قيادة بعض الكتائب وفتح بعض البلاد في فلسطين وسواحل سورية وقد عينه عمر حاكماً في فلسطين وفي الاردن .

وكان ما يزال شاباً لم يكد يتجاوز العشرين من عمره إلا قليلا حيث يدل هذا على مظهر منه من نبوغ وقوة شخصية وبعد همة ومطمح ونشاط واهلية .

ولما توفي زياد اخوه سنة ١٨ هـ وكان والياً للشام عينه مكانه ثم جمع له بعد سنتين جميع بلاد الشام فكان حاكماً مثالياً بحصافته واثاته وحلمه وحسن سياسته والتزامه حدود الله وتقواه مما جعل اهل هذه البلاد تتعلق به اشد تعلق .

واستمرت ولايته لبلاد الشام بقية زمن معاوية ثم طيلة خلافة عثمان فزاده ذلك فيها تمكناً ومحبة . وهو اول من غزا في البحر وفتح جزيرة قبرص كما انه اول من انشأ سنة الغزوات الصيفية والشتوية الى بلاد الروم في زمن ولايته لبلاد الشام .

ولما ثارت حركة النخبة على عثمان بن عفان وقف فيها مواقف تدل على ما كان عليه من قوة شخصية وبصيرة نافذة ودهاء وحسن ادراك لعواقب الامور على ما شرحناه في الجزء السابق .

ومثل كل ذلك ظهر منه كذلك اثناء النزاع بينه وبين علي بعد مقتل عثمان وكانت من اسباب نجاحه وتمكينه على ما شرحناه كذلك في الجزء السابق شرحاً يغني عن التكرار .

ولقد ظهر كل هذا منه كذلك في خلافته فكان به من اعظم خلفاء العرب وملوكهم إن لم يكن اعظمهم وافضلهم بعد الخلفاء الراشدين عقلاً وحلماً وعدلاً وحكمة ودهاء وجهاداً وبعد همة ومطمح واهتماماً لمصلحة المسلمين وبراً بضعفائهم ومظلوميههم واصحاب الحاجات منهم مما سوف يأتي تفصيله في هذه النبذة وفي سياق الاحداث .

وفي مروج الذهب للمسعودي^(١) وصف شائق ورائع ليوم كامل من ايام معاوية ليس فيه ما لا يحتمل بل كل ما فيه طبيعي ومحتمل جداً . وفيه مصداق لما ذكرناه آنفاً من

«١» ج ٢ ص ٣٣٠-٣٣٢ مطبعة دار الرجاء بصر .

سيرته وصور كثيرة عن اخلاقه وبره وقراءه ومعالجته لمختلف الشؤون واهتمله لقضايا عامة الشعب ونجيه للاطلاع على اخبار الامم .

وقد جاء في الوصف : (كان من اخلاق معاوية انه يأذن في اليوم والليلة خمس مرات . كان اذا صلى الفجر جلس للقاص حتى يفرغ من قصه (وهذا يفسر باحد تفسيرين اما ان يكون القاص الراعظ الديني واما ان يكون الذي يقرأ للمعاوية استدعاءات الناس ورقاعهم) ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ جزأه ثم يدخل الى منزله فيأمر وينهى . ثم يصلي اربع ركعات . ثم يخرج الى مجلسه فيأذن خاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه . ويدخل عليه وزرائه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم . ثم يؤتى بالغداء الاصغر . ثم يتحدث طويلا . ثم يدخل منزله لما اراد . ثم يخرج فيأمر الغلام باخراج الكرسي الى المسجد ويخرج اليه فيسند ظهره الى المقصورة ويجلس على الكرسي . ويقوم الاحداث فيتقدم اليه الضعيف والاعراي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول واحد ظلمت فيقول اعزوه . ويقول واحد عدي علي فيقول ابعثوا معه . ويقول واحد صنع بي فيقول انظروا في امره حتى اذا لم يبق احد دخل فجلس على السرير ثم يقول انذروا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني احد عن رد السلام . فيقول واحد كيف اصبح امير المؤمنين اطال الله بقاءه فيقول بنعمة الله . فاذا استوا وجلوساً قال يا هؤلاء انما سميتم اشرافاً لانكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس . ارفعوا الينا حاج من لا يصل الينا فيقوم رجل فيقول استشهد فلان فيقول معاوية افرضوا الولده . ويقول آخر غاب فلان عن اهله فيقول معاوية تعاهدوهم . اعطوهم . اقضوا حوائجهم . اخدموهم . ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه . ويقدم الرجل بكتاب فيقول له اجلس على المائدة فيجلس فيمد يده فيأكل لقمتين او ثلاثاً . والكاتب يقرأ كتابه فيأمر فيه بأمر . فيقال للرجل الذي جلس يا عبد الله اعقب . فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي على اصحاب الحوائج كلهم وربما قدم عليه من اصحاب الحوائج اربعون او نحوهم على قدر الغداء . ثم يرفع الغداء ويقال للناس اجيزوا . فينصرفون فيدخل منزله فلا يطعم فيه طامع . حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلي ثم يدخل فيصلي اربع ركعات . ثم يجلس فيأذن خاصة الخاصة . فان كان الوقت وقت شتاء اتاهم بزاد الحاج من الاخبطة اليابسة والاقراص المعجونة باللبن والسكر من دقيق السميد والعلك المنضد والفواكه اليابسة . وان كان وقت صيف اتاهم بالفواكه الرطبة ويدخل اليه وزرائه فيؤامرونه في ما احتاجوا اليه بقية يومهم . ويجلس الى العصر ثم يخرج فيصلي العصر ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع . حتى اذا كان في آخر اوقات العصر خرج

فجلس على سريره ، ويؤذن للناس على منازلهم فيؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ما ينادى بالمغرب ولا ينادى له بأصحاب الخوانج ثم يرفع العشاء وينادى بالمغرب فيخرج فيصلها ، ثم يصلي بعدها اربع ركعات يقرأ في كل ركعة خمسين آية ، يجهر تارة ويخافت اخرى ، ثم يدخل منزله فلا يطعم فيه طامع حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلها ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما اراد واحدروا من ليلتهم ، ويستمر الى ثلث الليل في اخبار العرب وایامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيها وسائر ملوك الامم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيها وغير ذلك من اخبار الامم السالفة ، ثم تأتيه الطرف المغربية من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المأكّل اللطيفة ثم يدخل فينام نصف الليل . ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكاييد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وانواع السياسات . ثم يخرج فيصلها فيصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم . وهناك مأثورات كثيرة اخرى من اقواله وخطبه ومعالجاته ونظراته تختلف الشؤون غيها مصداقاً لذلك كله .

من ذلك ما رواه عطية بن قيس قال (خطبنا معاوية فقال ان في بيت مالكم فضلاً بعد اعطياتكم . واني قلته عليكم . فان كن ياتيك فضل عاماً قابلاً قسمناه عليكم والافلاعبة علي . فانه ليس بآلي وانما هو مال الله الذي افاء عليكم ^(١) ومن ذلك قوله (ما من شيء الا عندني من غيظ التجرة) ^(٢) .

وقوله لاحد شباب بني امية وكان مولعاً بالشعر (يا ابن اخي انك لهجت بالشعر . فيايك والتشبيب بالنساء فتعر الشريفة . والهجاء فتعر كريماً وتستثير لئماً . والمدح فانه طعمه الوقاع . ولكن افخر بماخر قومك . وقل من الامثال ما تريد به نفسك وتؤدب به غيرك ^(٣) .

وقوله جواباً على سؤال اي اناس احب اليك ، اشد همي تحبياً الى الناس ، وقوله العقل والحلم افضل ما اعطي العبد فاذا ذكر ذكر واذا اعطي شكر . واذا ابتلي صبر . واذا

(١) المنتقى من ٣٨٨ (٢) البداية والنهاية لابن كثير من ١١٧ وبعدها .

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ من ٢٤٨ - ٢٤٩ والبدایة والنهاية ج ٨ .

غضب كظم ، واذا قدر غفر ، واذا اساء استغفر ، واذا وعد انجز (١١) .

وقوله وقد اغلظ رجل له فحلم عنه فقبل له التحمل عن هذا (اني لا احول بين الناس والستهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا) (١٢) .

وقوله لبعض رجال بني امية (فارقوا قريشاً بالحلم ، فما وضع الحلم عن شريف شرفه ، وما زاده الا كرمأ ، ولا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب علمه جهله ، وصبره شهوته) (١٣) .

وقوله (المروءة في اربع ، العفاف في الاسلام ، واستصلاح المال ، وحفظ الاخوان ، وحفظ الجار) (١٤) .

ولقد كان كثيراً ما يتمثل بهذه الايات (١٥) .

فما قتل السفاهة مثل حلم	يعود به على الجبل الحليم
فلا تسفه وان ملث غيظاً	على احد فان الفحش لؤم
ولا تقطع آمالك عند ذنب	فان الذنب يغفره الكريم

وقوله جواباً على سؤال من اسود الناس (اسخامهم نفساً حين يسأل واحسنهم في المجالس خلقاً ، واحلمهم حين يستجبل) .

وقوله (كل الناس يستطيع ان ارضيهم الا حاسد نعمة فانه لا يرضيه الا زوالها) (١٦) .

وقوله في كتاب ارسله الى زياد (لا ينبغي ان نسوس الناس سيامة واحدة ، باللين فيمرحوا ، وبالشدة فنحملهم على المهالك ، ولكن كن انت للشدة والغلظة وانا للين والالفة والرحمة حتى اذا خاف خائف وجد باباً يدخل منه) (١٧) .

وقال رجل له ما احلمك يا امير المؤمنين فقال اني لاستحيي ان يكون جرم احد اعظم من حلمي (١٨) .

(١-٥) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٨-٢٤٩ والبداية والنهاية ج ٨

(٦-٨) ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٧-١٣٥

وأسمع رجل معاوية كلاماً سيئاً شديداً فقبل له لو سطوت عليه فقال اني لاستحيي من الله ان يضيق حلمي عن ذنب احد من رعيتي . وروى الاصمعي عن الثوري قوله (اني لاستحيي ان يكون ذنب اعظم من عفوي . او جهل اكبر من حلمي او عورة لا اواربها بستري) (١) .

وكلمه شخص اسمه ابو الجهم بكلام فيه غمز فأطرق ثم رفع رأسه فقال (يا ابا الجهم اياك والسلطان فانه يغضب غضب الصبيان ، ويأخذ اخذ الاسد ، وان قليله يغلب كثير الناس ثم امر له بال فقال ابو الجهم :

نيل على جوانبه كأنا نيل اذا نيل على ايمننا
نقله لنخبر حالته فنخبر منها كرمأ ولينا (٢)

وشكا اليه ابن اخته من شئمة رجل له فقال له (طاطيء لها فتمر فتجاوزك) (٣) .

وقال له رجل ما رأيت انذل منك فقال (بلى من واجه الرجال بمثل هذا) (٤) .

ولقد اذن للاخنف بن قيس ثم دخل محمد بن الاشعث فجلس بين معاوية والاحنف فقال معاوية (اننا لم نأذن له قبلك إلا لتكون دونه وقد فعلت فعل من احسن من نفسه ذلاً ، اننا كما نملك امورك نملك ادبكم ، فأريدوا منا ما نريد منكم فانه ابقى لكم) (٥) .

وقوله المشهور (لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعت ، اشد اذا ارخوا وارخي اذا شدوا) (٦) .

وبما يروى ان المسور بن مخرمة من اصحاب رسول الله جاء اليه فقال له كلمني بما في نفسك فلم يدع شيئاً تراءى له أنه من عيوب معاوية وذنوبه الا ذكره له وخوفه من عاقبته . فسأله هل لك ذنوب وعيوب تخشى ان يهلكك الله بها ان لم يغفرها لك . قال نعم . قال فما الذي يجعلك أحق بان ترجو المغفرة مني . فوالله لما الي من اصلاح الرعايا واقامة الحدود والاصلاح

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٧-١٣٥

(٢-٦) المصادر السالفة الذكر

بين الناس والجلاء في سبيل الله والامور العظام التي لا يحصيها الا الله اكثر مما تذكر من العيوب والذنوب (١) .

ومن المأثور من خطبة له في المدينة (لقد حاولت ان اتشبه بأبي بكر وعمر وعثمان فما استطعت . هيات يدرك فضلهم من بعدهم . فان لم تجدوني خيراً فانا خير لكم . والله لا احمل السيف على من لا سيف له . ومهما تقدم مما علمتموه فقد جعلته دبر اذني . وان لم تجدوني اقوم بحقكم كله فارضوا مني ببعضه . وان اناكم مني خير فاقبلوه . فان السيل اذا جاء يثرى . وان اقل اغنى . واياكم والفتنة فلا تهموا بها فانها تفسد المعيشة . وتكدر النعمة . وتورث الاستئصال (٢) .

ومن خطبة اخرى له في المدينة (اياها الناس ، انا قدمنا عليكم ، وانا قدمنا على صديق مستبشر وعدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون ويتنظرون ، فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذامهم يسخطون ، ولست واسعاً لكل الناس فان تك حمدة فلا بد من مذمة ، فلو ما هوناً واياكم والتي ان اخفيت اوبقت او ذكرت اوثقت ، ولست احب ان تكونوا كخلق العراق ، يعيرون الشيء وهم فيه ، وكل امر منهم شعبة نفسه فاقبلونا بافئدة ، فان ما وراءنا شر لكم ، وان معروف زماننا منكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق وفي كل بلاغ ، ولا مقام على الرزية (٣) .

ومن خطبة عامة له يوم جمعة (اياها الناس ، اعقلوا اقوالي ، فئن تجددوا اعلم بأمور الدنيا والآخرة مني . خذوا على ايدي سفهائكم او لسلطن الله عليكم عدوكم فليسو منكم سوء العذاب . تصدقوا ولا يقولن رجل اني مقل . فان صدقة المقل افضل من صدقة الغني ، اياكم وقذف المحصنات ، وان يقول الرجل سمعت وبلغني ، فلو قذف احدكم امرأة على عهد نوح لسئل عنها يوم القيامة ثم نزل ليؤم الناس فقال اقيموا وجوهكم وصفوفكم في الصلاة او ليخالفن الله بين قلوبكم (٤) .

ومن خطبة له في اثناء مرضه وقد دخل عليه الناس يعودونه (يا اياها الناس ، انا قد

(١-٢) البداية والنهاية والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٤

(٣-٤) البداية والنهاية والعقد الفريد

اصبحنا في دهر عنود ، وزمن شديد ، يعد فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم فيه عتواً ، لا نتفزع بما علمنا ، ولا نسأل عما جهلنا ، ولا نتخوف قارعة حتى نحل بنا ، فالتاس على اربعة اصناف . منهم من لا يمنع من الفساد في الارض ، الا مهانة نفسه وكلال حده وتقيض وفوه ، ومنهم المصلت لسيفه المجلب برجله المعلن بشره ، قد اشرط نفسه . وابق دينه لحطام يتتزه او مقت يقوده او منه يقرعه ، وليس المتجران تراهما لنفسك ثمناً وبما لك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا . قد طامن من شخصه وقارب من خطوه ، وشمر عن ثوبه ، وزخرف نفسه للامانة ، واتخذ ستر الله ذريعة الى المعصية ، ومنهم من اقعده عن طلب الملك ضوولة نفسه وانقطاع سببه ، فقصرت به الحال عن حاله فتحلى باسم القناعة ، وتربا بلباس الزهادة ، وليس ذلك في مراح ولا مغدى وبقي رجال اغض ابصارهم ذكر المرجع ، وارق دموعهم خوف المضجع ، فهم بين شريد باد ، وبين خائف منقمع ، وساكت معكوم ، وداع مخلص ، وموجع شكلان . وقد املتهم التقية ، وشملتهم الذلة ، فهم في بحر اجاج ، افواهم خامرة وقلوبهم فرحة . قد وعظوا حتى ملوا وقهروا حتى ذلوا ، وقتلوا حتى قلوا ، فلتكن الدنيا في اعينكم اصغر من حثالة القروط وقراة الحليم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل ان يتعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة فقد رفضت من كان اسقى بها منكم (١) .

ولقد اثر عنه موقف يدل على قوة نفسه وبعد مطمحه حيث روي عنه قوله (لقد وضعت رجلي في الركاب وسمعت بالهزيمة يوم صفين ، فامنعني الا قول ابن الاطنابة :

ابن لي عفتي وحياء نفسي	واقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي	واخذي الحمد بالثمن الربيع
وقولي كلما جشأت وجاشت	مكانك فحمدي او تسريحتي (٢)

ومن النوادر المأثورة عنه ما جرى بينه وبين عمر بن الخطاب حينما زاره في الشام في ابان ولايته حيث تلقاه في موكب عظيم فلما دنا منه قال له انت صاحب الموكب . قال نعم يا امير المؤمنين . قال هذا حالك مع ما بلغني من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك . لقد هممت

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٧-٣٧٨

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٦-١٧ وابن كثير يروي هذا بخلاف يسير انظر البداية والنهاية ج ٨

ان آمرك بالمشي حافياً الى بلاد الحجاز . قال له يا امير المؤمنين . انا بارض جواسيس العدو فيها كثيرة فيجب ان نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للاسلام واهله ونزهبهم به . فان امرتني فعلت وان نهيتني انتهيت . فقال له يا معاوية ما سألتك عن شيء الا تركتني في مثل رواجب الضرس . لئن كان ما قلت حقاً انه لرأي رجل لبيب ولئن كان باطلا انه لخدعة رجل اريب فقال له مرني بما ترى فقال لا آمرك ولا انهاك . فقال رجل يا امير المؤمنين ما احسن ما صدر الفتى عما اورده فيه فقال لحسن موارده ومصادره جشمناه ما جشمناه (١) .

وبما اثر من اعماله انه كان يبعث رجلا في كل يوم يقال له ابو الجبش ليسأل هل ولد للاحد مولود او قدم احد من الوفود . فاذا اخبر بذلك اثبت في الديوان واجرى عليه الرزق (٢) .

وكان يغدق العطاء لآل البيت . وروي من ذلك انه قضى عن عائشة ام المؤمنين (١٨٠٠٠) ديناراً ديناً كانت تعدها للناس . وبعث اليها بمئة الف . وقدم عليه الحسن والحسين فأجازهما بمئتي الف . وارسل الحسن وعبدالله بن جعفر اليه يسألانه مالا فبعث الى كل منها بمئة الف . وكان لعبد الله بن جعفر في كل سنة الف الف . مع قضاء مئة حاجة له . وصار عليه خمسمئة الف ديناً فالج عليه غرماؤه فركب اليه يستعجل عطاءه لذلك فقضى دينه وقال له ان الالف الف تأتيك في وقتها بتمامها (٣) .

وبما روي عنه انه لما مات الحسن وكان عبدالله بن عباس في دمشق امر ابنه يزيد ان يذهب فيعزيه به فذهب وجلس بين يديه . واراد ابن عباس ان يرفع مجلسه فأبى وقال انما اجلس مجلس المعزي لا المهني . ثم ذكر الحسن فقال رحم الله ابا محمد اوسع الرحمة وافسحها واعظم الله اجره واحسن عزاك وعوضك من مصابك ما هو خير لك ثواباً وخير عقبى . فلم يسع ابن عباس بعد ان غادره يزيد الا ان قال جلسائه اذا ذهب بنو حرب ذهب علماء الناس ثم انشد متمثلاً :

مغاض عن العوراء لا ينطقونها واصل وراثت الخلوم الاوائل (٤)

وقيل لمعاوية اسرع اليك الشيب فقال كيف لا ولا ازال ارى رجلا من العرب قائماً

(١-٢) البداية والنهاية أيضاً ج ٨ ص ١١٥-١٣٥

(٣-٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٨ و ٢٢٨

على رأس يلقيح لي كلاماً يلزمني جوابه . فان احببت لم احمد . وان اخطأت سارت بهسا
البرود .

وبما روي عزوا الى ابي بكر المذني ان معاوية كان يقول الشعر فلما ولي الخلافة قال له
اماه قد بلغت الغاية فماذا تصنع بالشعر فارتاح يوماً فقال :

صرمت سفاهتي وارحت حلمي وفيّ على نحلي اعتراض
على اني اجيب اذا دعيت الى حاجاتها الحدق المراض

ومن طرائف ما روي عنه انه اتى بلصوص فقطعهم حتى بقي واحد من بينهم فقال :

يميني يا امير المؤمنين اعنّدها بعفوك ان تلقى مكاناً يشينها
يدي كانت الحسناء لو تم سترها ولا تعدم الحسناء عيباً يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة اذا ما شمالي فارقتها يمينا

فقال معاوية كيف اصنع بك . قد قطعنا اصحابك . فقالت ام الرجل يا امير المؤمنين
اجعلها في ذنوبك التي تتوب بها . فخلّى سبيله^(١) .

وبما فعله معاوية وعده خصومه عليه نقصة وعيباً بل موبقة نكراء^(٢) استلحاقه زياداً
بنسبه حيث كان يدعى زياد بن ابيه او زياد بن سمية فصار يدعى زياد بن ابي سفيان . لان ابا
سفيان اصاب امه في الجاهلية فولدت زياداً . وقد نبغ حتى صار خطيباً مصقلاً وشخصاً قوي
النفس والهمة . وقد وقف خطيباً مرة فأعجب به علي بن ابي طالب فقال لو كان ابو هذا
الغلام من قريش لساق العرب بعصاه . فقال ابو سفيان وكان الى جانبه والله اني لاعرف
اباه . فقال له اسكت لا اسمعك عمر فيسرع اليك . ومضى الوقت حتى صارت الخلافة الى
علي فاستعمله على البصرة فقام بأمرها خير قيام واخصه . وحينما تنازل الحسن لمعاوية رضي
الله عنها كان في جهات اضطخر حيث امره علي رضي الله عنه بقمع ثورة كردية فيها .

(١) هذه الثلاث من البداية والنهاية ج ٨ ص ١٣٨-١٤٠

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها و ٢٠٨ واليعقوبي ج ٢ ص ٢١٨-٢١٩ وابن الاثير

ج ٤ ص ١٧٥-١٧٧ ومروج الذهب ج ٢ ص ٣١٠

ومما ترويه الروايات التي يحتمل ان يكون فيها بعض التزويد والتحريف ان معاوية جنح الى التشدد معه في بدء الامر يأساً من ان يكون مخلصاً له فعزله عن البصرة وامر واليه الذي عينه ان يعتقل اولاده رهناً وان يحاسب اباهم على ما في يده من اموال الدولة ففعل ولكن زياداً قابِل الاجراء بغضب وتهديد حتى نعت معاوية بـ ابن آكلة الاكباد ولم يستسلم . وذهب ابو بكره اخو زياد من امه الى معاوية فتشفع بيني امية فشقه . ثم جنح الى الملاينة والرغبة في كسب زياد الى جانبه لما كان من صفاته وحزمه . واستشار المغيرة بن شعبة في ذلك فحبذ له .

ومما يروى في صدد ذلك ان معاوية قال للمغيرة بين يدي استشارته له :

انما موضع سر المرء ان
 باح بالسر اخوه المنتصح
 فاذا بحث بسر فالى
 ناصح يستره او لا يبح

فقال يا امير المؤمنين ان تستودعني تستودع ناصحاً شفيحاً ورعاً وثيقاً . فاستشاره في استلحاق زياد واظهر خوفه من ان ينحاز الى احد ابناء علي فيقلت من يده ويناله كيد . فحبذ له الامر فأرسله اليه ليحبس نبضه فذهب وشجع زياداً على القبول وجعله يقدم على معاوية . ولما قدم عليه لطفه وحاسنه ولم يتشدد معه في المحاسبة على ما كان تحت يده من اموال وصدقه فيما قاله عنها ثم اتى بشهود شهدوا بما علموا من نسبة زياد الى ابي سفيان وحينئذ اعلن نسبه الجديد . وقد عينه والياً على البصرة . ثم جمع له الكوفة وخراسان وسجستان والسند والبحرين وعمان .

ولقد اثر عن بعض الشعراء مع اختلاف الروايات في اسمائهم شعر فيه هجو لمعاوية ووطنه في نسب زياد . من ذلك :

ألا أبلغ معاوية بن حرب
 اتغضب ان يقال ابوك عف
 مغلفة من الرجل اليافي
 وترضى ان يقال ابوك زاني
 فأشهد ان رحمك من زياد
 كرحم الفيل من ولد الاثان

ومن ذلك مخاطباً عباداً بن زياد :

اذا اودى معاوية بن حرب
 فبشر شعب قعبك بانصداع

فاشهد ان امك لم تبائر ابا سفيان واضعة القناع
ولكن كان امر فيه لبس على وجل شديد وارتياح^(١)

غير ان السياق الذي اورده الطبري لهذا الشعر صريح بأن الشاعر قال ما قال غيظاً من
زياد وبنيه لسبب شخصي فلا معول عليه .

وفي رأينا ان استلحاق معاوية لزياد لا يتحمل طعناً ووضعا بأنه موبقة نكراء . فالنطفة
التي جاء منها نطفة جاهلية ليس من شأنها منع استلحاقه بأبيه الحقيقي في زمن الجاهلية .

ونعتقد ان علم وفقه ودين وتقوى معاوية لا يمكن ان تسمح له بأن يفعل ذلك لو علم
ان فيه مطعناً في الدين او المروءة . وقد رأى فيه مصلحة عامة وخاصة للمسلمين وله وكفى .
والتسوية الذي دار حول العمل هو هوى حزبي اكثر منه شيء آخر .

ولقد علم علي بن ابي طالب انه من نطفة سفاح فلم يمنعه ذلك من استعماله والياً على
شؤون المسلمين لانها نطفة جاهلية . والاسلام يجب ما قبله .

ولقد روي ان عبد الله بن عامر والي البصرة في اول خلافة معاوية انتقد الاستلحاق
وقال اني هممت ان آتي بقسامة من قريش يحلفون ان ابا سفيان لم يرسمية . والسياق يفيد
ان قوله كان بسبب انتقاد زياد لاعماله واعمال عماله . وقد ورد في السياق ان معاوية بلغه
ما قاله فقال له اما والله لقد علمت العرب اني كنت اعزها في الجاهلية وان الاسلام لم يزدني
الا عزاً واني لم اتكثر بزياد من قلة ولم اتعزز به من ذلة . ولكن عرفت حقاً له فوضعت
فيه^(٢) .

ولقد ابلى زياد بلاء عظيماً فيما عهد به اليه من عمل كبير في خلافة علي ثم في خلافة معاوية .
وظهر منه من الحزم والعزم والدهاء وقوة الشخصية والعارضة ما يسلكه في عداد عظماء رجال
العرب والمسلمين . وكان خطيباً مصقفاً . وقد اوردنا بعض خطبه في سياق حادث حجر
بن عدي . وقد اثرت عنه خطبة طويلة عرفت بالبراء فيها دلالة على ما كان يتحلى به هذا

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٤-٢٣٥

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٦٣

البطل العربي الاسلامي من قوة عقل ودهاء وبصر في اصول الحكم وحزم في قمع الشغب والانحرافات الاخلاقية وتعلق بأصول الدين وحدوده وتقوى الله والحث على التزام ذلك كله رأينا ان نورد هنا كمأثرة من مأثر احد عظماء هذا العهد . وهذا نصها منقولاً من تاريخ الطبري (١) .

وقد يحبك في الصدر لطولها وتنميقها انها مصنوعة .

وهناك خطب وكتب مأثورة عديدة عن خلفاء بني امية وولاتهم وقوادهم طويلة جداً ومنمقة . ويحبك في الصدر ما يحبك بالنسبة لهذه أيضاً . ولكن احتمال ان تكون منقولة عن مدونات قديمة كتبت في زمن الامويين او احتمال ان تكون مشهورة ولها اصل صحيح وارد أيضاً .

الحمد لله على افضاله واحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه ، اللهم كما رزقتنا نعماً فألهمنا شكراً على نعمتك علينا ، اما بعد فان الجبال الجبال والضلالة العمياء والفجر الموقد لاهله النار الباقي عليهم سعيها ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه ظلماتكم من الامور العظام . ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى منها الكبير ، كأن لم تسمعوا بأبي الله ولم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما اعد الله من الثواب لاهل طاعته والعذاب لاهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول ، اتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدت مسامع السهوات ، واختار الفانية على الباقية ولا تذكرون انكم احدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا به من ترككم هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر والعدد غير قليل . ألم تكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دليج الليل وغارة النهار ، قربتم القرابة وباعدتم الدين . تعتذرون بغير العذر وتغطون على المختلس . كل امرئ منكم يذب عن سفيه صنييع من لا يخاف عقاباً ولا يرجو معاداً ، ما انتم بالحكماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الريب ، حرم علي الطعام والشراب حتى اسويها بالارض هدماً واحراقاً ، اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به وله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير جبرية وعنف ، واني اقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم

أخاه فيقال انج سعد فقد هلك سعيد ، وتستقيم لي قناتكم ، ان كذبة المنبر تبقى مشهورة .
 فاذا تعلقت علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، من بيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له ، إياي
 ودلج الليل ، فاني لا اوتي بدلج الا سفكت دمه ، وقد اجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر
 الكوفة ويرجع الي ، وإياي ودعوى الجاهلية ، فاني لا اجد احداً دعا بها الا قطعت لسانه .
 وقد احدثتم احداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن
 حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حياً ، فكفوا
 عني ايديكم والسنتكم اكف يدي واذاي ، لا يظهر من احد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا
 ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين اقوام إحن فجعلت ذلك دبر اذني ، وتحت قدمي ، فمن
 كان منكم محسناً فليزده احساناً . ومن كان مسيئاً فليزعه عن اساءته ، اني لو علمت ان احداً
 قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ، ولم اهتك له سترأ حتى يبدي لي صفحته . فاذا
 فعل لم اناظره . فاستأنفوا امورك واعينوا على انفسكم ، فرب مبتئس بقدمنا سيسر ،
 ومسرور يبتئس ، ايا الناس انا اصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي
 اعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا لكم وعطينا
 العدل فيما ولينا ، واستوجبوا عدلنا وفيانا بناصرنا ، واعلموا اني مها قصرت عنكم فاني
 لا اقصر عن ثلاث ، لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً
 ورقاً ولا عطاء عن إيتائه ، ولا مجمرأً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لا تتمكم فانهم ساستكم
 المؤدبون لكم . وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم
 بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع انه لو استجيب
 لكم كان شرأً لكم ، اسأل الله ان يعين كلا على كل ، واذا رأيتموني انفذ فيكم الامر
 فانفذوه على اذلاله ، وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم ان
 يكون من صرعاي) .

وماروي ان عبد الله بن الاهتم قام عقب هذه الخطبة فقال اشهد ايا الامير انك قد
 اوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال زياد كذبت ذاك نبي الله داود عليه السلام (١) .

وقام الاحنف بن قيس فقال قد قلت فأحسن ايا الامير ، والثناء بعد البلاء والمحمد بعد

(١) لان آية سورة ص (٢٠) تقول عن داود (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)
 فتأدب زياد ازاء الآية ولم يرد ان يوصف بما وصف الله به نبياً من انبيائه .

العطاء ، وانا لن نثني حتى نبثلي فقال زياد صدقت . وقد امر صاحب شرطته بعد ذلك ليخرج ويتعسس الناس ويأخذ من يراه مدبجاً في ريبة . فخافه الناس وامنوا بعضهم بعضاً حتى كان الشيء يسقط من الرجل او المرأة فلا يعرض له احد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه . وتبتت المرأة فلا تغلق عليها بابها . وساس الناس سياسة لم ير مثلاً وهابه الناس هيبة لم يباوها احداً قبله وادر العطاء وبنى مدينة الرزق ، حتى لقد قال لو ضاع جبل بيني وبين خراسان لعلمت من اخذه . وولى شخصاً امر الفساق يتتبعهم ويكفهم . فقال فيه حارثة بن بدر الغداني :

الا من مبلغ عني زياداً	فنعم اخو الخليفة والامير
فأنت امام معدلة وقصد	وحزم حين يحضرك الامور
اخوك خليفة الله ابن حرب	وانت وزيره نعم الوزير
تصيب على الهوى منه ويأتي	حبك ما يجن لنا الضمير
بأمر الله منصور معان	اذا جار الرعية لا تجور
يدر على يدك لما ارادوا	من الدنيا لهم حلب غزير
وتقسم بالسواء فلا غني	لضم يشتكك ولا فقير
وكنت حيا وجئت على زمان	خبث ظاهر فيه شرور
تقاسمت الرجال به هواها	فما تخفي ضغائنها الصدور
وخاف الحاضرون وكل باد	يقم على الخافة او يسير
فلما قام سيف الله فيهم	زياد قام ابلج مستنير
قوي لا من الحدثان غر	ولا جزع ولا فان كبير

ولقد كان يلي الكوفة حينئذ معاوية زياداً البصرة المغيرة بن شعبة فمات بعد قليل فجمع معاوية له الكوفة ايضاً فكان يقيم ستة اشهر في البصرة وستة اشهر في الكوفة .

وما يروى انه لما جاء الكوفة لاول مرة خطب اهلها فقال : ان هذا الامر اتاني وانا في البصرة فأردت ان اشخص اليكم في الفين من شرطة البصرة ثم ذكرت انكم اهل حق وان حقكم طامساً دفع الباطل فاتيتكم في اهل بيتي فالحمد لله الذي رفع مني ما وضع الناس وحفظ مني ما ضيعوا . فبادر بعض السامعين الى حصبه فامر خاصته باخذ الابواب ثم امر بكرسي وضع له على باب المسجد فدعا الناس اربعة اربعة يحلفهم بالله مامنا من حبك فمن حلف

خلده ومن لم يحلف بحسه وعزله حتى بلغ عدد غير الحالفين ثلاثين في رواية وثمانين في رواية اخرى فقطع ايديهم . واعقب الطبري هذا السياق بكلمة تعقيبية منسوبة الى الشعبي جاء فيها (فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة وما وعدنا خيراً ولا شراً الا انفذه) .

ومع كل هذه الصولة والدولة فقد كان متواضع المظهر زاهداً حتى لقد روى الطبري بطرقه عن جرير بن يزيد انه قال لقد رأيت زياداً عليه قميص مرقوع وهو على بغلة عليها جلامها قد ارسنها^(١) .

ولم يكن المرتب السنوي الذي خصصه لنفسه ليزيد عن خمسة وعشرين الف درهم . وهو مقدار زهيد جداً اذا ما قورن بما روي من ان مرتب ابن هبيرة والي العراق في زمن مروان بن محمد كان (٦٠٠ ٠٠٠) ثم اذا ما قورن بما تأثله ولاية العراق من ثروات طائلة كانت تبلغ عشرات الملايين منهم خالد بن عبد الله ويوسف بن عمر على ما سوف يرد في سيرة هشام وما بعده .

ومما اثر عنه انه كان يفضل استخدام الموالي وبخاصة الدهاقين منهم في جباية الخراج فعاتبه بعض العرب على ذلك فقال له (كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا اغرمت عشيرته او طالبته او غرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه . فوجدت الدهاقين ابصر بالجباية واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم ثم جعلتم امناء عليهم اي رقباء ... لئلا يظلموا احداً)^(٢) .

وفي هذه الصورة ما فيها من دلالة على الحصافة وبعد النظر والاهتمام لحفظ حق الدولة مع عدم اعمال العرب في الوقت نفسه من ذلك .

وفي تاريخ يعقوبي نبذة عنه تدل كذلك على ما كان عليه من عقل راجح وبصر ثاقب ودراية في الامور وجد وصدق وعلى كونه رجل دولة من طراز رفيع . ولقد وصفه بانه كان له دهاء ورجولة وصولة وانه اول من دون الدواوين ووضع النسخ للكتب وافرد

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٤ - ١٧٥ و ٢١٦

(٢) روى هذا جريري زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٣ عزوا الى ابن الاثير.

كتاب الرسائل. من العرب والموالي المتفصحين. ورتب لهاله الف درهم ولفسه خمسة وعشرين ألفاً . ومن أقواله (ملاك السلطان اربع خلال : العفاف عن المال والقرب من المحسن والشدة على المسيء وصدق اللسان) .

ومن ذلك ينبغي للوالي ان يكون اعلم بأهل عمله منهم انفسهم (١) و (ان اعظم الناس كذباً امير يقف على المنبر وتحتة مئة الف نفس فيكذبهم واني والله لا اعدكم اجراً الا انجزته ولا اعاقبكم حتى اتقدم عليكم) و (ليس كل يصل الي ولا كل من وصل الي امكنه الكلام فاستشفعوا لمن وراءكم فاني من ورائكم امنع ان اردت أن امنع) و (ينبغي ان يكون كتاب الحراج من رؤساء الاعاجم العالمين بامور الحراج) و (اربعة اعمال لا يليها الا المسن الذي قد عصى على ناجذه : الثغر والصائفة والشرط والقضاء . وينبغي ان يكون صاحب الشرط شديد الصلوة قليل الغفلة وان يكون صاحب الحرس مسناً عفيفاً مأموناً لا يطعن عليه وان يكون في الكاتب خمس خلال : بعد غور وحسن مواراة . واحكام للعمل والا يؤخر عمل اليوم الى الغد والنصيحة لصاحبه . وان يكون الحاجب عاقلاً فظناً قد خدم الملوكة قبل ان يتولى حجابتهم) .

ولقد كانت بلاد العجم وخراسان وما وراء النهر تابعة لولايتة العامة . وكان هو الذي يولي عمال هذه البلاد ويراقبهم ويوجههم . واليه واليه يعود فضل كبير بما قام به العرب في هذه الانحاء من نشاط في توسيع رقعة السلطان العربي ونشر الاسلام والطابع العربي على ما سوف يأتي تفصيله في نبذة حركة الفتوح في هذه البلاد .

ولقد مات زياد سنة ٤٥ وراثه الشعراء مرأى تتضمن ما كان عليه من همة وعزيمة وما كان له من بلاء .

من ذلك هذه الابيات المروية للبعد بن قيس (٢) .

يوم الثلاثاء الذي كان مضى يوم قضى فيه المليك ما قضى

(١) ذكر اليعقوبي ان رجلاً قام اليه فقال اصلح الله الامير اتعرفني . فقال نعم المعرفة الجامعة . اعرفك باسمك واسم ابيك وكنتك وعريفك وعشيرتك وفصيلتك . ولقد بلغ من معرفتي بكم اني ارى البرد على احدكم ثم آخر عارية فأعرفه (ج ٢ ص ٢٠٩ - ٢١٠)

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٢١

وفاة بر ماجد جلد القوى مر به نوال جعد والتظى
كان زياد جبلا صعب الذرى شها اذا شتم نقيصات ابى
لا يبعد الله زياداً اذ نوى

ولقد روى ابن خلكان في ترجمة القاضي شريح ان زياداً كتب الى معاوية يقول (يا امير المؤمنين) ضببت لك العراق بشامي وفرغت يميني لطاعتك فولني الحجاز) فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وكان مقبلاً في مكة فقال اللهم اشغل عنا يمين زياد . فاصابه الطاعون في يمينه فجمع الاطباء واستشارهم فأشاروا عليه بقطعها فاستدعى القاضي شريحاً وشاوره فقال له (لك رزق معلوم واجل محتوم ، واني اكره ان كانت لك مدة ان تعيش في الدنيا بلا يمين ، وان كان قد دنا اجلك ان تلقى ربك مقطوع اليد فاذا سألك لم قطعتها قلت بغضاً في لقائك وفراراً من قضائك فمات زياد من يومه ، فلام الناس شريحاً على منعه زياداً من قطع يده لبعضهم له فقال انه استشارني والمستشار مؤتمن ، ولولا الامانة في المشورة لوددت انه قطع يده يوماً ورجله يوماً وسائر جسده يوماً) .

والصنعة وقصد التسوية المتأخر قويان على الرواية ، حيث كان خصوم بني امية من الهاشميين وشيعتهم في عهدهم وبعدهم يثيرون نائرة البغضاء والحقد والتسوية حول زياد وبنيه وبني امية . ولقد كان زياد يلي جميع العراق وبلاد الفرس وخراسان ولا يعقل ان يطلب الى ذلك ولاية الحجاز . وهذا الطلب على فرض وقوعه كان بينه وبين معاوية فكيف يصل الى عبد الله بن عمر بصيغته المروية التي جعلت تتلاءم مع دعوته عليه !

ولقد كان زياد من احسن واعقل ولادة العراق ، وليس من موجب لدعاء عبد الله بن عمر عليه ، والقاضي شريح كان من عمال زياد ، فلو كان باغياً ظالماً مبغوضاً من الناس وكان القاضي فاضلاً برّاً قوي الايمان كما تريد ان تقوله الرواية لما كان يرضى ان يتولى القضاء تحت يده .

ولقد توفي زياد في حياة معاوية ، فاستمر اولاده من بعده يخدمون الدولة الاموية بنفس الاخلاص والحزم والبلاء الذي كان لابيهم مما جعلهم يستحقون ان يسلكوا في سلك عظماء رجال العرب في هذا الدور ، وكان اكبرهم عبيد الله هو الذي تولى ولاية العراق وما وراءها في زمن معاوية ثم في زمن ابنه يزيد . وكان عباد والياً على سجستان وعبد الرحمن

والياً على خراسان . وصارت ولاية خراسان بعد هذا لاختيه سلم الذي احبه اهل خراسان حباً لم يحبوه اميراً مثله حتى ان عشرين الفاً منهم سمو ابناءهم باسمه من حبهم على ما رواه الطبري (١) .

ولقد كان حادث مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه في زمن ولاية عبيد الله بن زياد مما سوف يأتي شرحه في نبذة خاصة فأجج النار التي اوقدتها شرارة مقتل حجر بن عدي تأجيجاً عظيماً فكان من آثار ذلك ما يلمح في كتب التاريخ من حملات تسوية وروايات تجريحية ضد بني زياد بالاضافة الى بني امية على ما هو المتبادر .

وبما رواه ابن الاثير وفيه صورة من اساليب معاوية التي تنطوي على الدهاء وكسب القلوب ان عبيد الله بن زياد وفد على معاوية مع وجوه اهل البصرة عام ٥٥٩ وفيهم الاحنف ابن قيس . وكان سيء المنزلة من عبيد الله مع انه كان من كبار الزعماء اليانيين واصحاب العصبية في العراق فلما دخلوا رحب معاوية به واجلسه معه على سريره . وتكلم اعضاء الوفد فأحسنوا الشئ على ابن زياد والاحنف ساكت . فقال معاوية له مالك يا ابا بجر لا تتكلم فقال ان تكلمت خالفت القوم . فقال معاوية انهضوا فقد عزلته عنكم واطلبوا والياً ترضونه . فجعل الوفد يظفون على رجال بني امية واهل الشام يستأمرونهم في الامر والاحنف لم يبرح منزله فلم يتمكنوا من الاتفاق على احد . ثم جمعهم معاوية وقال لهم من اختتم فاختلت كلمتهم . والاحنف ساكت . فقال له مالك لا تتكلم فقال ان كنت تريد ان تولي علينا واحداً من اهل بيتك فلا نعدل بعبيد الله احداً . وان وليت من غيرهم فانظر في ذلك . فحينئذ اقر عبيد الله على ولايته واوصى زياداً بالاحنف خيراً .

وكان من نتائج هذا الموقف ان الفتنة لما هاجت في العراق بقي الاحنف اوفى الناس لبني معاوية ولعبيد الله (٢) .

وبما فعله معاوية تعيينه ابنه يزيد ولياً لعهده واخذه له البيعة من الناس . وكان ذلك

(١) ج ٤ ص ٤٢١

(٢) ج ٣ ص ٢٠٤ - ٢٠٥

قبل وفاته بأربع سنين (١) .

ويروي في صدره رواية ربما كانت مصنوعة مفادها انه كان ليزيد اخ احمق من ام اخرى فسبت هذه الام يزيد وامه فقال لها معاوية انه خير من ابنك فأنكرت فقال سترين ثم استدعى ابنها فقال له بدا لي ان اعطيك ما تسألني في مجلسي هذا فقال له حاجتي ان تشتري لي كلباً وحماراً فارهين . ثم استدعى يزيد فقال له ما قاله لاخته فخر ساجداً ثم رفع رأسه وقال الحمد لله الذي بلغ امير المؤمنين هذه المدة وارهه في هذا الرأي . حاجتي ان تعقد لي العهد من بعده وتوليني صائفة المسلمين هذا العام . قيادة الجهاد في بلاد الروم في الصيف . وتأذن لي بالحج اذا رجعت وتوليني الموسم . امامة الحج . وتريد اهل الشام عشرة دنانير لكل رجل في عطائه وتجعل ذلك بشفاعتي . فقال له قد فعلت ذلك كله .

وهناك رواية تذكر ان المغيرة بن شعبة والي الكوفة هو الذي اقترح على يزيد ان يطلب ذلك من ابيه ففعل فأجابه الى تحقيق امله . والبيعة ليزيد بولاية العهد تمت سنة ٥٧ هـ في حين ان المغيرة توفي سنة ٥٥ هـ فاذا كان للرواية أصل فيكون المغيرة هو المثير للمسألة في نفس يزيد وحسب .

ويروي يعقوبي رواية تذكر ان معاوية كتب الى زياد بن ابني سفيان مستشيراً في امر اخذ البيعة ليزيد فأجابه بناء على اشارة من بعض اخصائه ناصحاً بالتريث وقال له فيما قال : (ماذا نقول للناس إذا دعوناهم الى ذلك وهم يعرفون ان يزيد يلعب بالكلاب والفروخ ويلبس المنصغ ويد من الشراب ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر) واقترح عليه ان يأمره بالتخلق بأخلاق هؤلاء حولاً او بتولين حتى يمكن التمويه على الناس . وان معاوية قد غضب من جواب زياد وقال ويلى على ابن عبيد . لقد بلغني ان الحادي حدا له انه الامير بعدي . والله لأردنه الى امه سمية وإلى ابيه عبيد (٢) .

(١) روايات اخذ البيعة ليزيد مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٤ وبعدها والامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٦٠ وبعدها والبداية والنهاية ج ٨ ص ١١٥ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٣٣ وبعدها .

(٢) ج ٢ ص ١٩٦ مطبعة القوي .

ولقد روى الطبري أيضاً خبر نصيحة زياد بالترث دون الزيادات الأخرى . ورواية
اليعقوبي لا تذكر الحسن وهذا يقتضي أن تكون الاستشارة بعد موت الحسن . وزياد مات
قبل الحسن بثلاثة أعوام حيث يبدو من هذا نهافت الرواية زمناً فضلاً عن نهافتها محتوى كما
هو المتبادر منها .

وما ذكرته رواية اليعقوبي عن شرب يزيد الحمر ولهوه قد ذكر في روايات أخرى
وروي أن أهل المدينة اتخذوه سبباً للشوة على يزيد بعد أن صارت إليه الخلافة .

غير أن هناك رواية تذكر أن محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية نفى لأهل
المدينة ما قالوه من ذلك عن يزيد حيث يمكن أن يقال أن ذلك قد صنع وأثير من قبل
خصوم يزيد للآثرة والدعاية وسيبقى على لسان زياد ليكون أوثق من حيث أنه سبق من
وقت بيعته وخلافته .

وهناك روايات تذكر أن معاوية استشار بعض كبار رجاله حين اعتزم أخذ البيعة لابنه
منهم الضحاك بن قيس الذي قال له (يا أمير المؤمنين انه لا بد للناس من وال بعدك
والأنفس يغدى عليها ويراح . وإن الله قال (كل يوم هو في شأن) ولا ندري ما يختلف به
العصران . ويزيد بن أمير المؤمنين في حسن معدنه وقصد سيرته من أفضلنا حلاً واحكمنا
علماً قوله عهدك . واجعله لنا علماً بعدك . وانا قد باؤنا الجماعسة والإلفة فوجدنا ذلك أحقن
للدماء وآمن للسبل وخيراً في العاقبة والآجلة) .

ومنهم عمرو بن سعيد الذي قال مخاطباً مجلس الاستشارة (ان يزيد امل تأملونه واجل
تأملونه ، طويل الباع ، رحب الذراع ، إذا صرتم الى عدله وسعكم ، وإن طلبتم رفسه
اغناكم ، جذع قارح ، سويق فسق ، وموجد فمجد ، وقورع فقرع . خير خلف لأمير
المؤمنين ولا خلف بعده) .

ومنهم الاخنف بن قيس الذي سأله معاوية عن رأيه فقال (تخاف منكم ان صدقناكم
وتخاف الله ان كذبناكم . فانت اعلم به في ليله ونهاره وسره وعلنه ومدخله ومخرجه . وانما
علينا ان نسمع ونطيع وعليك ان تتصع الامة) .

ومها يكن من امر فالمعقول ان معاوية استشار بعض اخصائه وعقلاء اصحابه فشجعوه

فمضى في عزيمته واخذ البيعة ليزيد من اهل الشام ثم امر ولاة الاقطار فأخذوا البيعة له وارساوا وفوداً للبيعة الرجائية ومن الحملة مكة والمدينة وكان ذلك سنة ٥٧ هـ .

وقد روت الروايات ان خمسة من اصحاب رسول الله في المدينة توقفوا عن البيعة . وهم الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الرحمن بن ابي بكر . وان معاوية خرج معتمراً فمر بالمدينة وتحدث مع هؤلاء على انفراد بسبيل اقناعهم بأهلية يزيد فلم يبايعوا ثم جمع الناس وخطب فيهم مثنيّاً على يزيد معدداً مزاياه وطلب منهم تأكيد البيعة له ففعلوا . وكان ائمة حاضرين فلم يبايعوا ولم يعترضوا فانصرف دون ان يلح عليهم .

والمشهور الذي لا خلاف فيه ان معاوية لم يأخذ لابنه البيعة الا بعد وفاة الحسن بن علي رضي الله عنهما الذي يروى انه جعله ولياً لعهد من بعده .

فاذا صحت الرواية التي انفرد بها ابن قتيبة ^(١) ولم يذكرها زميلاه ومعاصراه الطبري واليعقوبي فيكون معاوية قد رأى نفسه في حل من ذلك العهد فسعى سعيه لتولية يزيد معتقداً كما نرجح انه اذا ترك الامر فوضي فقد تنبعت الفتن ثانية بين المسلمين بعد ان حصنت باجماع الامر عليه بتنازل الحسن فأقدم على ما اقدم عليه وهو يرى في عمله خيراً ومصصلحة للمسلمين بالاضافة الى توثيق امر الدولة التي انشأها بجده وطموحه .

ولقد كان يزيد رجلاً ناضجاً حينما بويع بالعهد ثم بالخلافة . وقد قاد حملة غزوة القسطنطينية الاولى سنة ٤٩ هـ و ٥٠ هـ وكان في الحملة بعض مشاهير اصحاب رسول الله مثل ابي ايوب الانصاري وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير .

وهناك مأثورات عنه من الاقوال والافعال في حياة ابيه وفي خلافته تسوغ القول إنه كان أهلاً للخلافة وان اياه كان يعتقد ذلك فيه . وفي الاقوال المأثورة عن قيس بن الضحاك وعمرو بن سعيد فيه ما يؤيد ذلك .

ولقد روى اليعقوبي ان الحسن بن علي رضي الله عنه قال حين حضرته الوفاة لأخيه (هذه آخر ثلاث سقيت فيها السم ولم اسقه مثل هذه المرة) .
وروى الخبر المسعودي أيضاً وزاد على رواية اليعقوبي ان الحسين سأله عن سقاه إياه فقال

(١) ج ١ ص ١٥٠ الامامة والسياسة .

له وما تريد من ذلك فان كان الذي أظنه فأنه حسيبه وان كان غيره فما أحب ان يؤخذ بريءي .
ثم قال المسعودي دون عزو الى احد ان امرأة الحسن جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندي
سقت السم وكان معاوية دس اليها ووعدها بمئة الف وبثروا بها يزيد اذا دس السم عليه .
ويستند خصوم الامويين الى هذه الروايات ليطعنوا بمعاوية ويحموه اثم قتل الحسن
رضي الله عنها ليخاطو الجو لابنه من بعده والغدر بعهده الذي عاهد عليه برغم ما هي عليه من
تباقت وعدم استنادها الى سند وثيق . ولا يمكن ان تكون صحيحة موضوعاً . فمعاوية
الصحابي الجليل كاتب وحي رسول الله المأثور عنه كثير من الافعال والاقوال الدالة على ورعه
وتقواه اجل من ان يستحل قتل اي نفس بغير حق مباحته شأن صاحبها فضلاً عن نفس الحسن
ابن بنت رسول الله ﷺ وحبيبه والذي تنازل له عن الامر وجمع له بذلك الحكم والسلطان
وحقق دماء المسلمين .

وهذه الصفات والمأثورات نجعلنا نعتقد ان معاوية ما كان يمكن ان يولي ابنه لو لم
يتيقن من اهليته وصلاحه او لو كان في ذلك شذوذ عن دين وغش للمسلمين .

ولقد توثق الامر بمبايعة الكثرة العظمى من المسلمين في جميع الامصار لولاية عهده ثم
خلافته بعد موت ابيه فكان في ذلك اقرار لشرعية ما فعله معاوية وتقرير لأهلية يزيد بالخلافة .

ولقد بايعه ابن عمر واعتبر بيعته قائمة وحذر من نقضها على ما رواه ابن كثير حيث
اورد حديثاً رواه الامام احمد جاء فيه انه جمع بنيه واهله وقال لهم (انا بايعنا هذا الرجل على
بيع الله ورسوله واني سمعت رسول الله ﷺ يقول ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه
غدره فلان وان من اعظم القدر ان يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته
فلا يخلعن احد منكم يزيد ولا يسرفن احد منكم في هذا الامر فيكون الفصل بيني وبينه) (١) .

وحديثاً رواه ابو القاسم البغوي ان ابن عمر دخل على ابن مطيع الذي قاد حركة خلع
معاوية في المدينة فقال له انما جئتك لحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول (من
نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له . ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت
موتة جاهلية) (٢) .

وقد يقال ان معاوية قد شذ عن الخلفاء الراشدين في تولية ابنه وتثبيت السلطان لاسرته

من حيث ان الخلفاء الراشدين كانوا من أسر مختلفة ولم يكونوا يطلبون سلطاناً لأنفسهم فضلاً عن أسرهم . غير ان من الحق ان نذكر ان عمله قد سبق بمثله في تولي الحسن بن علي بعد ابيه رضي الله عنها سواء أكان ذلك بعهد ونص كما تقول فرقة الجارودية من الشيعة وكما روي عن ابي الاسود الدؤلي على ما ذكرناه في نبذة ولاية العهد ام كان باختيار المسلمين بعد ان سألوا اباة فأجابهم إنه لا يأمرهم ولا ينههم على ما اوردناه في الجزء السابق . وان الهاشمين من عباسيين وعلويين ثم معظم ملوك المسلمين قد ساروا على هذه الطريقة حيث يبدو من هذا شبه اجماع من المسلمين في مختلف الظروف والامكنة بعد الخلفاء الراشدين على فائدة هذه الطريقة وصلاحها بالنسبة للاستقرار والطمأنينة فلم يبق فيما فعله معاوية محل لغمز وطعن في مجال الامور الواقعية او سياسة الدولة كما انه ليس في ذلك شذوذ عن دين وهدي رباني ونبوي لان هذه المسألة تركت للمسلمين ليحلوها حسب ما يجمع عليه جمهرة اهل الحل والعقد منهم وتقليه المصلحة والظروف بدليل ان النبي صلعم مات ولم يعهد بالامر بصراحة لاحد ولم يصدر عنه في هذا الصدد تعليم على ما هو المشهور الصحيح وقد انتهينا الى هذا في ما حصناه من الروايات الواردة في هذا الصدد في الجزء السابق .

ولقد قال سيد امير علي الهندي في كتابه مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ان معاوية لم يتردد في نكث العهد مع الحسين بن علي ليضمن لابنه يزيد الخلافة من بعده^(١) . ولا ندري هل هناك غلط مطبعي في الاسم ام لا . فان لم يكن فان احداً لم يرو انه كان للحسين عهود في ما يتصل بالخلافة فنقضها معاوية . وكل ما اثر ان بعض الشيعة انكروا تنازل الحسن وجاؤوا اليه فقال لهم ليكن كل رجل منكم جلس بيته ما دام معاوية حياً فانها بيعة كنت والله كارهاً لها . فان هلك معاوية نظرنا ونظرتم^(٢) . وان كان المقصود هو الحسن فالتواتر ان البيعة بولاية العهد قد جرت كما قلنا بعد موت الحسن المروي انه شرط في صلحه على معاوية ان يكون الامر له من بعده . فلم يبق محل لهذا القول

(١) الترجمة العربية لرياض رافة ص ٢٦

(٢) الامامة والسياسة ص ١٥٢

ومما يرويه زيدان^(١) ان معاوية كان مغيضاً من الانصار لميلهم الى علي وابنائهم دونه فاقترح عليه ابنه ان يحمل كعباً بن جعيل شاغر تغلب على هجومهم فارسل اليه فاعتذر وقال له ادلك على غلام منا نصراني لا يبالي أن يجهوم كأن لسانه لسان ثور وهو الاخطل فدعاه فأمره بهجوم فقال قصيدة جاء فيها :

واذا نسبت ابن القرية خلته	كالجش بين حمارة وحمار
لعن الاله من اليهود عصابة	بالجزع بين صليصل وصرار
قوم اذا هدر العصير رأيتهم	حمراً عيونهم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها	وخذوا مساحيكم بني التجار
إن الفوارس يعلمون ظهورهم	اولاد كل مقبح أكلر
ذهبت قريش بالمكارم والعللا	واللؤم تحت عمائم الانصار

ونحن نشك شكاً كثيراً في صحة الرواية . فلا شك في ان معاوية يعرف منزلة الانصار في الاسلام من نصوص القرآن ومن أحاديث النبي العديدة^(٢) . ولا يمكن في اعتقادنا ان يغري بهم الشاعر وأن يرضى بلغنه لهم ونعته إياهم باليهود واللؤم .

وتذكر بعض الروايات^(٣) أن معاوية كان يلحن غلياً على المنبر بعد خطبة الجمعة ويأمر بلغنه وسبه وذمه . ويذكر بعضها إنه إنما كان يأمر بتقصه . ويذكر بعضها انه إنما كان يأمر بمدح

(١) اورد زيدان هذه الرواية في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ولم يذكر مصدراً . ونعتقد أنه نقلها عن مصدر ما . وفي يدنا ديوان للاخطل بخط يد مكتوب سنة ٥٧٥هـ نشر صورته الفوتوغرافية الحوري السوعي الصالحاني في بيروت سنة ١٩٠٥ فلم نجد هذه الأبيات .

(٢) من ذلك حديث رواه البخاري ومسلم جاء فيه (الأنصار لا يحبهم الا مؤمن ولا يبغضهم الا منافق فن أحبهم أحبه الله ومن ابغضهم أبغضه الله) وحديث رواه البخاري ومسلم كذلك جاء فيه (آية الايمان حب الانصار وآية النفاق بغض الانصار) انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٤١-٣٤٢

(٣) هذه الروايات في مواضع عديدة من الجزء الرابع من تاريخ الطبري . وهذا مثال من ذلك ذكر الطبري ج ٤ ص ١٤٤ أن صعصعة بن صومان طلب من المغيرة ان يبعثه لقتال الخوارج فلم يقبل لانه كان يبلغه انه يعيب عثمان رضي الله عنه ويكثر ذكر علي رضي الله عنه ويفضله . وقد دعاه وحذره وقال له ان كنت ذا كراً ذلك فاذكروه بين اصحابك اما علانية في المسجد فهذا لا يجتمعه معاوية ولا يعذرنا فيه . انظر أيضاً ص ١٨٧ وبعدها وانظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٣١-١٣٢ وانظر أيضاً تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٠ و ٢٣٣

عثمان والتروحم عليه وذم قائله والمعينين على قتله . والى جانب هذا تذكر الروايات أنه صار لعلي وأبنائه في زمن خلافة معاوية شعبة يجبرون بدم بني أمية . ويعتبرون خلافة معاوية غير شرعية ويسحبون ذلك على من بعده بالتبعية ويدعون الى الانتفاض عليهم وان هذا كان بنوع خاص في العراق . والذي نرجحه ان روايات لعن معاوية لعلي وامره بلعنه غير صحيحة . وأنها من الدعايات التسيوية التي نشرت ضده . وترجيحنا يقوم على قرائن أو اذلة عديدة . فالصلح كان قد تم بين علي ومعاوية قبيل وفاة علي على ما شرحناه في الجزء السابق . ثم كان موقف الحسن العظيم حيث تنازل عن حكم العراق الذي صار اليه كخليفة لابيه وجمع السلطان لمعاوية واجتمع بذلك شمل المسلمين تحت راية واحدة . وكانت الصلات بين معاوية وابناء علي وأقاربه الاذنين من الهاشمين حسنة ودية . وكان يحسن استقبالهم ويغدقهم العطاء ويواسيهم في مصائبهم على ما مرت رواياته . ولقد أثر عن الحسن أنه لما تنازل الحسن لمعاوية جاء انصار علي الى الحسين فكلموه منكرين . فقال لهم ليكن كل منكم مجلس بيته ما دام معاوية حياً . فانها بيعة وان كنت لها والله كارهاً^(١) ولقد أثر عن معاوية انه أوصى ابنه يزيد بالحسين خيراً حين حضرته الوفاة فلم يكن هناك سبب ولا محل لان يأمر معاوية بشتن علي أو لعنه . وهذا فضلا عن ان معاوية كان يعلم أن علياً من اجلة اصحاب رسول الله وصبره وحبيبه ومن اعظم المجاهدين في سبيل دينه . ويعلم نبي النبي المتكرر عن سب أصحابه ولعنهم . والمأثور عنه انه كان ممن الاتقياء الذين يخافون الله ويقفون عند حدوده حيث يجعله هذا انزه من ان يفعل ذلك .

ولقد روى ابن الاثير^(٢) أن الحسن رضي الله عنه حينما تفاوض مع معاوية رضي الله عنه على التنازل شرط فيما شرطه ان لا يشتم معاوية اباه وان معاوية لم يوافق على ذلك فشرط ان لا يشتمه وهو يسمع فأجابه الى ذلك . والرواية غير محتملة الصحة مطلقاً فـ كما نعتقد فلا يعقل في حال ان بصر معاوية على شتم علي في ظرف يتفاوض فيه مع الحسن ليتنازل له عن الخلافة وتشكون خلافته عامة شامله !

ولقد روي ان عمر بن عبد العزيز ابطل سب علي او لعنه على المنابر على ما تضمنته ابيات من الشعر معزوة الى كثير عزة جاء فيها فيما جاء :

وليت فلم تشتم علياً ولم تحف
بريئاً ولم تقبل إثارة مجرم

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٥٢

(٢) تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٢ ومن الشروط التي رواها المؤرخ من شروط الحسن ان يأخذ ما في بيت مال الكوفة وهو خمسة آلاف الف وان يكون له خراج دار الجرد .

فان صح هذا فيكون الشتم بعد معاوية ونتيجة للاصطدامات الدامية والثورات العديدة التي وقعت بين الامويين والهاشميين وانصارهم بعد معاوية على ما سوف نذكره بعد.

وكل ما يمكن ان يكون محتملاً في زمن معاوية هو انه وبعض ولاته في العراق بخاصة كانوا يعرضون بعلي وشيعته مقابلة لما كان من هؤلاء من التعريض ببني امية والدعاية ضدهم بل والدعوة الى الانتفاض عليهم .

ولقد ادى ذلك الى اصطدام عنيف بين شيعة علي وابنائهم من ناحية وبين السلطات الاموية في العراق من ناحية . وقتل نتيجة له زعيم من زعماء الشيعة اسمه حجر بن عدي مع بعض رفاقه بأمر معاوية .

وقد شغل هذا الحادث حيزاً واسعاً في كتب التاريخ القديمة واستغله رواية الشيعة وكتبهم استغلالاً واسعاً ضد معاوية ووالي العراق زياد وخذ بني امية عامة . وهو اول اصطدام دموي بين بني امية وشيعة علي وابنائهم . ولعل الشرارة الاولى التي صارت ناراً حامية .

لقد وصف حجر بأنه ممن لقي رسول الله ﷺ وكان له صفة . وانه اشترك في حركة الفتوح وشهد القادسية وشهد صفين مع علي . وكان من قواد كتائبه فيها . وكان شديد الورع والتقوى . فاسبغ كل هذا على حادث قتله ما اسبغ من روعة ^{وسجدة} ومأساة فاجعة .

ولقد رويت في ذلك روايات عديدة من طرق مختلفة فيها تغاير وتناقض . ولقد استوعبها او استوعب معظمها الطبري في الجزء الرابع من تاريخه حتى شغلت منه ستاً وعشرين صفحة^(١) .

وحينما يدقق المنصف في الروايات يقع على اسباب وجيهة للحادث تجعله يراه حادث تمرد على الدولة قوبل بالشدة والحزم وليس حادث تجن من الدولة على من وقعت العقوبة عليهم . وخلاصة ما تطمئن به النفس من الروايات ان المغيرة بن شعبة والي الكوفة كان في خطبه ايام الجمع يمدح عثمان ويحمل على قاتليه حسب توجه معاوية وفي رواية انه كان يعرض بعلي وشيعته في سياق ذلك . فكان حجر يغضب وينكر ذلك بل روى^(٢) انه كان يصعد إلى

(١) ص ١٨٧—٢١٣ انظر ايضاً البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٤٩—٥٥ .

(٢) الدولة العربية الاسلامية لحني الخربوطلي عزوا الى الاخبار الطوال للدينوري .

المنبر فيمدح عبياً ويذم معاوية والمغيرة. وقد وقف مرة يفعل ذلك ثم ذم المغيرة لتأخيرده عن العطاء الناس وتألب معه بعض الناس. وبلغ الأمر الى ان اعترض هو ورفاقه عيراً بعث بها المغيرة الى معاوية وامسكها وقال والله لا نخليها حتى يوفي كل ذي حق حقه .

ولكن المغيرة ومن ورائه معاوية وسع حلمها هذه الافعال فلما مات المغيرة جمع معاوية الكوفة لزياد الذي كان والياً للبصرة ايضاً .

وكان حجر قد قوي امره مع انصاره فصاروا يجاهرون بسب معاوية والتبرؤ منه . وزار زياد الكوفة فخطب مندداً محذراً . وقال فيما قال إنا قد جربنا وجربنا وسنا وساسنا السائسون فوجدنا هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح اوله بالطاعة البينة المشبه سرعاب لانيتها وغيب ادبها بشاهدهم وقلوبهم بالسنتهم ووجدنا الناس لا يصلحهم الا لئ في غير ضعف وشدة في غير عنف وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا امضيته على إذلاله وليس من كذبة الشاهد عليها من انه والناس اكبر من كذبة إمام على المنبر . ثم ذكر عثمان واصحابه فقرظهم وذكر قتله ولعنهم فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة . فاحتمل زياد منه ذلك وحاول ان يأخذه معه الى البصرة لئلا يحدث حدثاً فاعتذر .

وفي الجمعة التالية حصب حجر وانصاره نائب زياد وهو على المنبر بخطب فعلم بذلك زياد فجاء مرة ثانية الى الكوفة وجمع الناس وخطب فيهم يوم الجمعة قائلاً ان غب البغي والغبي وخيم وإن هؤلاء جموا فأشروا وأمنوني فاجترأوا عني ، وايم الله لئن تستقيموا لأداوينكم بدوائكم . وما انا بشيء إن لم امنع باحة الكوفة من حجر وادعه نكالا لمن بعده . ويل امك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان .

وبما روي انه لما اطال الخطبة نادى حجر الصلاة وضرب بيده الى كف من الخصى وقام الى الصلاة فقام الناس معه فاضطر زياد الى انهاء خطبته والنزول والصلاة بالناس ثم كتب الى معاوية فجاءه امر منه بشده في الحديد وحمله اليه .

ويروي الطبري روايتين فيما جرى حينما اراد زياد ان ينفذ امر معاوية . فذكرت احدهما ان اصحاب حجر أرادوا منعه فأبى وقال سمعاً وطاعة وسلم نفسه فشد في الحديد وارسل الى معاوية . وذكرت ثانيتهما ان زياداً ارسل شرطة لاحضاره فمنعهم اصحابه فعادت الشرطة

تقول انهم شتمونا وسبونا وامتنعوا عن المجيء فأرسل زياد شرطة أقوى فقاتلوا وحملوا حجراً ومنعوه بالقوة ثم نقلوه الى مكان أشد حرّاً . وعادت الشرطة مخفقة بجروحة مقتولة .
وحينئذ جد في الامر واخذ ينذر ويتوعد العشائر التي التف بعض افرادها على حجر وطلب من رؤسائها سحب جماعتهم من حوله ففعلوا وحينئذ قل انصاره وتمكن من القبض عليه عنوة وسعه احد عشر رجلاً من اصحابه فشدهم بالحديد وارسلهم الى معاوية مع كتاب قال فيه (إن الله قد احسن عند امير المؤمنين البلاء فكاد له عدوه وكفاه مؤونة من بغى عليه من طواعيت من هذه الترابية السبائية رأسهم حجر بن عدي خالفوا امير المؤمنين وفارقوا جماعة المسلمين ونصبوا لنا الحرس فاظهروا الله عليهم وامكننا منهم وقد دعوت خيار اهل مصر واشرافهم وذوي السن والدين منهم فشهدوا عليهم بما رأوا وعملوا وقد بعثت بهم الى امير المؤمنين وكتبت شهادة صلحاء اهل مصر وخيارهم .

وذكر الطبري الى هذا ان زياداً استدعى رؤساء الارباع الاربعة في الكوفة واخذ منهم شهادات بأن حجراً جمع إليه الجموع واظهر شتم الخليفة ودعا الى حرب امير المؤمنين وزعم ان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب ووثب بالمصر واخرج عامل امير المؤمنين واظهر عذر ابي تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه واهل حربه وان هؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس اصحابه وعلى مثل رأيه وامره .

واورد نص شهادة اقدم ابي بردة بن ابي موسى وهو (هذا ما شهد عليه ابو بردة بن ابي موسى لله رب العالمين شهد ان حجر بن عدي خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا الى الحرب والفتنة وجمع اليه الجموع يدعوم الى نكث البيعة وخلع امير المؤمنين معاوية وكفر بالله عز وجل كفره صلحاء) ولما وردوا على معاوية انزلهم في مرج عذراء لمدة قصيرة ثم امر بضرب رقاب حجر وثمانية من اصحابه فنفذ ذلك .

وبما روي في السياق ان حجراً انكر انه نقض بيعة معاوية وقال انما شهد علينا الاعداء والاظناء . وان واحداً ممن ارسلت شهادتهم انكروا فكتب معاوية الى زياد وشاوره في العفو عنهم فاجابه مصرّاً على وجوب قتلهم وصحة الشهادات المرسلة اليه . وان معاوية طلب من حجر وجماعته ان يعلنوا براءتهم من علي بن ابي طالب ويظهروا لعنه حتى يعفو عنهم فأبوا وقالوا نتولاه ولا نتبرأ منه ونتبرأ ممن تبرأ منه عدا ثلاثة منهم تبرأوا فعفا عنهم وامر بقتل بقيتهم .
ونحس ان يكون بعض ما جاء في السياق قد زيد فيما بعد لتعظيم إثم معاوية وزياد .

فلا يعقل ان يكون حجر قد استجاب وقال سمعاً وطاعة او انكر نقضه لبيعة معاوية واستسلم بدون مقاومة ثم يصير زياد ومعاوية على قتله وقتل رفاقه . كما ان قتلهم بسبب عدم تبرؤهم من علي وعدم لعنهم إياه يبدو بعيداً عن الاحتمال . والاكثر احتمالاً هو رواية امتناعهم ومقاومتهم وشهادة الشهود عليهم التي تجعل قتلهم سائغاً شرعاً وسلطاناً .

وهناك احاديث نبوية كثيرة تحظر الخروج على الائمة ونكث بيعتهم وتأمر بقتل من اراد ان يفرق امر الامة وهي جميع كائنات من كان وتأمر بوجوب السمع والطاعة للامير فيا احب المسلم او كره ما لم يؤمر بعصيته . وتقرر ان من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات ، مات ميتة جاهلية وان من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ^(١) .

ولقد رويت روايات عديدة تحكي محاورة جرت بين معاوية وام المؤمنين عائشة في صدد قتل حجر فيها بعض التقارير . من ذلك انما سأله ابن عذب عنك حملك حين قتلت حجراً فقال حين غاب عني مثلك من قومي . ومن ذلك انه اجابها على سؤالها قائلاً يا ام المؤمنين اني رأيت في قتلهم صلاحاً للامة وفي مقامهم فساداً . ومن ذلك انما روت حديثاً عن النبي ﷺ جاء فيه (سيقتل بعداء اناس يغضب الله لهم واهل السماء) وعذراء هو المرج الذي ضربت فيه اعناق حجر واصحابه ^(٢) . وقد روي كذلك ^(٣) ان معاوية لما حضرته الوفاة جعل يقول (يومي منك يا حجر طويل) .

وقد روي ان عبد الرحمن بن الحارث سأل معاوية ابن غاب عنك حلم ابي سفيان فقال حين غاب عني مثلك من حلماء قومي ^(٤) . وان الحسن البصري احد علماء التابعين المشهورين عد قتل حجر موبقة لمعاوية وقال يا ويلاله من حجريا ويلاه من اصحاب حجر ^(٥) .

ونرجح ان تكون هذه الروايات من المصنوعات المتأخرة للتسوية والتحويل . ولقد روى الطبري ^(٦) شعراً في رثاء حجر نخشى ان يكون من هذا الباب ايضاً وهو منسوب الى

(١) انظر التاج ج ٣ ص ٤٠-٤١ ومنورد نصوص هذه الاحاديث وما في بابها في نبذة المعكرات الاخيلة .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٥٤-٥٥ .

(٣-٥) كتاب معاوية في الميزان للعقاد ص ١٠٨-١١١ .

(٦) الطبري ج ٤ ص ٢٠٨-٢٠٩ .

هند بنت زيد بن محزومة الانصارية وهو :

ترفع ايها القمر المنير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبار بعد حجر	وطاب لها الحورنق والسدير
واصبحت البلاد لها محولا	كأن لم يحيا مزنة مطير
ألا يا حجر حجر بني عدي	تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى عديا	وشبهاً في دمشق له زهير
يرى قتل الحيار عليه حقاً	له من شر امته وزير
الا يا ليت حجراً مات موتاً	ولم ينحر كما نحر البعير
فان يهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا الى هلك يصير

وبما رواه جرجي زيدان^(١) عزوا الى الاغاني ان معاوية بلغه ان رجلاً يمانياً قال يوماً
هممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر . بل هممت ان اخرج كل نزارى منها . فخاف معاوية
باس اليمنية ففرض من وقته لأربعة آلاف من قيس وغيرها .

وفي الخبر اذا صح دلالة على ما كان يعتمل في صدر العرب من النصرة القبلية التي كانت
من معكرات عهد الدولة الاموية على ما سوف نذكره في نبذة خاصة . ثم على بعد نظر
معاوية في اقامة التوازن بين فرعي العرب الكبيرين اليانين والنزاريين او القحطانيين
والعدنانيين .

وبما رواه الطبري ان معاوية رأى ما كان من تعاظم مركز عبد الرحمن بن خالد بن
الوليد بالشام وميل اهله اليه لما كان عندهم من آثار ابيه ولغناؤه عن المسلمين في ارض الروم
وبأسه فخافه وخشي على نفسه منه فأمر نصرانياً من حمص اسمه ابن آثال ان يحتال في قتله
ووعده بأن يوليه جباية خراج حمص ويضع عنه خراج ما عاش . فلما انصرف عبد الرحمن من
غزوة كان يغزوها في بلاد الروم دس ابن آثال له شربة مسمومة فشربها فمات ووفى معاوية
لابن آثال بما وعده . وعرف الناس ذلك فابلغوه الى خالد بن عبد الرحمن فاعترض لابن آثال

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٦٨ .

يوماً يقتله . ورفع امره الى معاوية فحبسه اياماً واغرمه دينه ولم يقتله به ^(١) .

والرواية تتحمل شكاً كبيراً . ولا نعتقد ان معاوية يستبيح قتل هذا المجاهد العظيم .
لجوده كون امره قد تعاضم واحبه الناس . ولا يعقل ان يكون هو الوحيد بذلك .

ولقد روى جرجي زيدان بدون عزو الى مصدر ان الموالي كثروا في زمن معاوية وانه ادرك خطرهم على دولة العرب فبهم بقتلهم كلهم او بعضهم . واستشار في ذلك الاحنف بن قيس وسمره بن جندب . وقال لهما (إني رأيت هذه الحمراء وقد قطعت على السلف وكأني انظر الى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت ان اقتل شطراً وادع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق) فأشار سمره بقتلهم وطلب ان يتولى الامر بنفسه . اما الاحنف فقال له (إن نفسي لا تطيب . اخي لامي وخالي ومولاي وقد شار كناهم وشاركونا في النسب) فاستصوب معاوية رأي الاحنف وكف عما هم به ^(٢) .

ونحن نعتقد ان زيدان نقل الخبر عن مصدر قديم . غير ان صحته محل شك كبير . فالموالي المتحدث عنهم مسلمون . وصاروا يعدون في عهد معاوية بعشرات الالوف فلا يمكن ان يعقل ما روي عنه حتى بالفكر والخطر فضلاً عن التنفيذ . ونرجح بل نكاد نجزم ان يكون الخبر مصنوعاً في زمن الامويين او بعدهم للاثارة والتسوية .

ولقد روى زيدان في جزء آخر من كتابه ان معاوية اول من فرض العطاء للموالي فجعل لكل واحد ١٥ درهماً ^(٣) . وقد يكون في هذا الخبر قرينة ما ضد الخبر السابق .

وتروي الروايات محاورة بين معاوية وعبدالله بن عباس تتحمل كثيراً من الشك . ونرجح انها من المصنوعات المتأخرة حيث روى ان معاوية قال يوماً لابن عباس ان في نفسي منكم حزازات يا بني هاشم . وإني خُليق ان ادرك فيكم النار وانفي العار . فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم . فقال له والله ان رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك اسداً مخدرة وافاعي مطرقة . لا ينأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح . يضعون اسياهم على عواتقهم

(١) ج ٤ ص ١٧١ وروى الخبر يعقوبياً ايضاً ويمكن ان يكون المؤلفان قد رواياه من مصدر واحد .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٧ .

(٣) ج ٢ ص ٢٤٩ عزوا الى العقد الفريد . ولم نر هذا الخبر في النسخة التي في يدنا من العقد .

ويضربون قدماً قدماً من ناوأم . ولتكون من منهم بحيث اعددت ليلة الهريز للهروب فرسك
 وكان اكبر هيكم سلامة حشاشة نفسك . ولو لا طعام من اهل الشام وقوك بأنفسهم وبدلوا
 دونك مهجهم ورفعوا المصاحف مستجيزين بها وعائدين بعصمتها لكنت شلوأ مطروحاً بالعراء .
 وما اقول هذا لاصرفك عن عزيمتك ولا لازيلك عن معقود نيتك . ولكنها الرحم تعطف
 عليك والاواصر توجب صرف النصيحة إليك . فقال معاوية لله درك يا ابن عباس . ما
 تكشفت الايام منك الا عن سيف حليل ورأي اصيل . والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما
 نقص عددهم ولو لم يكن لاهلك سواك لكان الله قد كثروهم ^(١) .

ووجه الشك في الرواية ان ملك معاوية قد استتب بتنازل الحسن الهاشمي له . وكانت
 حالته مع بني هاشم طيلة خلافته حسنة . وكان رؤساؤهم وفي مقدمتهم الحسن والحسين
 وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر يقدون عليه فيحسن استقبالهم ويغدق عليهم الاموال
 ولم يقع بينه وبينهم ما يورث الحزازات في نفسه عليهم ويكون له به قلبهم دماء وظلامات .

ومن هذا القبيل رواية اخرى جاء فيها (ان جارية بن قدامة السعدي قدم عليه فقال له
 انت الساعي مع علي بن ابي طالب والموقد النار تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم . فقال له يا
 معاوية دع عنك علياً فما ابغضنا عنياً منذ احببناه ولا غششناه منذ صجبناه . فقال له معاوية
 ويحك ما كان امرنا على اهلك اذ سموك جارية لا ام لك . فقال ام ما ولدني . وإنك لم
 تملكننا قسرة ولم تفتحنا عنوة . ولكن اعطينا عهداً ومواثيق . فان وفيت لنا وفينا . وإن
 ترغب الى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالاً مداداً واذرعاً شداداً وأسنة حداداً . فان
 يسطت الينا فتراً من غدر دلفنا إليك بباع من ختر . فتكره ينصرف بعد ان قال له لا اكثر
 الله من امثالك ^(٢) . والرواية تتحمل مثل سابقاتها شكاً كبيراً وتبدو الصنعة عليها بقوة .

وهناك روايات عديدة اخرى من هذا الباب مثل محاورة جرت بين معاوية وقيس بن سعد
 وبينه وبين الزرقاء بنت عدي وبينه وبين بكارة الهلالية ^(٣) من هذا القبيل تتحمل كثيراً من
 الشك وتبدو الصنعة عليها بقوة كذلك .

(١) معاوية في الميزان للعقاد ص ٩٥ .

(٢) معاوية في الميزان للعقاد .

(٣) المصدر نفسه .

ولقد روى ابن قتيبة ان معاوية كتب الى عمرو بن العاص يستدعيه اليه حينما قام النزاع بينه وبين علي . وكان عمرو في فلسطين فاستشار بنيه فقال له اكبرهم عبد الله ان نبي الله قد قبض وهو عنك راض واخليفتان من بعده كذلك وقتل عثمان وانت غائب عنه فألم في منزلك وقال محمد الاصغر انك شيخ قريش وصاحب امرها فان ينصرم هذا الأمر وانت فيه حامل يصغر امرك فالحق بجماعة اهل الشام واطلب بدم عثمان فانك به تستميل الى بني امية . فقال عمرو اما انت يا عبد الله فأمرتني بما هو خير لي في ديني وأما انت يا محمد فقد أمرتني بما هو خير لي في دنياي ثم امر مولاه ان يبيء الرواحل وسار الى معاوية . فلما اجتمع الرجلان قال عمرو اعطني مصر فتلك معاوية وقال ألم تعلم ان محمراً كالشام قال بلى ولكننا انما نكون لي اذا كانت لك وإنما تكون لك إذا طلبت علياً على العراق . ودخل في هذه الاشياء عتبة اخو معاوية فقال لاختيه اما ترضى ان تشوي عمرأ بصر ان هي صفت لك فأعطى معاوية لعمرو مصر وكتب له بذلك عهداً وكتب في اسفل الكتاب (ولا ينقض شرط طاعة) فكتب عمرو في حذاء هذه الجملة (ولا تنقض طاعة شرطاً) .

وعقب المؤلف بقوله وهكذا كايده كل واحد منها صاحبه . وكان مع عمرو ابن اخ له فقال له بأي رأي تعيش في قريش وقد اعطيت دينك غيرك فقال له يا ابن اخي انه لا امر الله دون معاوية وعلي ولو كنت مع علي وسعني يتي ولكني مع معاوية فقال الفتى لم ترد معاوية ولكنك اردت دنياه واراد دينك .

وروى ابن قتيبة بعد هذا ان معاوية وعمرأ تحدثا في امر النزاع فقال له عمرو إن علي والله خطأ في الحرب وإنه لصاحب الامر فقال له معاوية صدقت ولكني اقاتله على ما بأيدينا ونلزمه دم عثمان فقال عمرو واسوأناه إن احق الناس أن لا يذكر عثمان أنا وانت فقال معاوية ولم فقال عمرو أما انت فخذلته ومعك اهل الشام واستغاثك فأبطأت عليه وأما انا فتركته عياناً وهربت الى فلسطين . فقال معاوية دعني من هذا وهلم فبايعني فقال عمرو لا والله لا اعطيك من ديني حتى آخذ من دنياك قال معاوية صدقت . سل تعط قال عمرو مصر طعمة فكتب معاوية له بها عهداً ^(١) .

ورائحة الصنعة تفوح بقوة من هذه الروايات من قبل خصوم بني امية لتصوير معاوية

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ٨٨ — ٩١ .

وعمره بصورة طالبي الدنيا ومفضلها على الدين والحق عن علم وبينه . والخادعين لبعضها
وللمسلمين . والرجلان من اصحاب رسول الله واهل السابقة والجهاد في الاسلام . ونعتقد ان
موقفها كان ناجماً عن اجتهاد بقطع النظر عن احتمال الخطأ والصواب فيه .

وليسا هما المنفردان في هذا الموقف . فقد تواترت الروايات بأنه كان في زمن فتنة عثمان
ثم بعده من اصحاب رسول الله من كان مع علي وضده ومع معاوية وضده ومن كان حياًدياً
معتزلاً عن هذا وذلك حيث يصح القول إن الظروف التي قد لا تكون واضحة لنا كل
الوضوح كانت تؤدي الى هذه المواقف الاجتهادية المختلفة . وهذا هو الصحيح المعقول بالنسبة
لأصحاب رسول الله الذي قال رسول الله فيهم اصحابي أمانة امتي .

ونقول من باب المساجلة إن السياق يقتضي ان تكون المحاورات المروية بين عمره وبينه
وابن اخيه وبين عمره ومعاوية سرية . ولا يعقل ان يفضيها احد للناس لأن فيها فضيحة للدين
والاخلاق . وهذا وحده كاف لتكذيبها ورجحان صنعها من قبل الخصوم الحريين .

ومثل هذا يقال في المحاورات والمداورات والمخادعات التي تروى بين معاوية وبين المغيرة
بن شعبة احد اصحاب رسول الله والذي كان والياً للكوفة في زمن معاوية (١) .

ولقد كان عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزباد بن ابي سفيان الذي رويناه في صدره
روايات مماثلة في مناسبة سابقة من كبار رجال العهد الاموي وكان لجهودهم اثر كبير في
توطد الدولة الاموية . وقد يكون في هذا سر حملات التجريح والتثريب التي تسلط عليهم
بنوع خاص .

وفي مروج الذهب والامامة والسياسة وتاريخ يعقوبي والعقد الفريد والاغاني
والفخري حكايات ومحاورات ومكاتبات عديدة اخرى ضربنا الصفح عن ايرادها ويبرز
فيها قصد تجريح معاوية وكبار رجال دولته ووصمهم بالبطل والبغي والكيد والاحتيال
وقلة الدين والشرف ويأبى العقل والمنطق والدين ان تكون صحيحة . ومن الحق والواجب
ان يتحفظ الناشئ العربي ويتروى ازاء ما يقرأه من ذلك .

(١) انظر كتاب معاوية في الميزان للعقاد ص ٥٥-٥٨ .

ولقد روي^(١) ان معاوية لما مرض مرضه الذي مات فيه دعا ابنه يزيد وقال له اني قد كفيتك الرحمة والرجال ووطأت لك الاشياء وذلت لك الاعزاء . واخضعت لك اعناق الرجال : واني لا اتخوف ان ينازحك هذا الامر الا اربعة نفر ، الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر : فاما ابن عمر فهو رجل قد وقفته العبادة واذا لم يبق احد غيره بايعك . واما الحسين فان اهل العراق خلفه : لا يدعونه حتى يخرجوه عليك فان خرج فظفرت به فاصفح عنه فان له رجلاً ماساً وحقاً عظيماً : واما ابن ابي بكر فهو رجل ان رأى صاحبه صنعوا شيئاً صنع مثله : ليست له همة الا في النساء والمهوى : واما الذي يجتم لك جثوم الاسد ويراوغك روغان الثعلب واذا امكنته الفرصة وثب فذاك ابن الزبير : فان فعلها بك فقدرت عليه فقطعه ارباً ارباً : وتوص باهل الحجاز : وان سألك اهل العراق كل يوم ان تعزل عنهم عاملاً فافعل ، فعزل واحد أحب اليك من ان يسلك عليك مائة الف سيف : وتوص باهل الشام واجعلهم انصارك واعرف لهم حقهم : وليكونوا بطانتك وعييتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فان اصبته فاردد اهل الشام^(٢) الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم .

ونحشى ان يكون بعض ما جاء في هذه الروايات من وحي الاحداث التي وقعت بعد مسوت معاوية . وفي الاسماء المذكورة عبد الرحمن بن ابي بكر والمشهور انه توفي في حياة معاوية .

وقد ذكر جرجي زيدان^(٣) في صده ما كان من بني امية من ظلم لاهل الذمة واستكثار لمجباية ، ان معاوية امر عمرو بن العاص واليه في مصر بزيادة قيراط على ما يجبي منهم فابي عمرو التنفيذ .

كذلك ذكر قولاً لمعاوية في صده التدليل على احتقاره للموالي ولذميين جاء فيه (وجدت اهل مصر ثلاثة اصناف فثلث ناس وهم العرب وثلث يشبهون الناس وهم الموالي - اي المسلمين - وثلث ليسوا ناساً وهم الاقباط^(٤)) : وقد عزا زيدان هذا وذاك الى المقرئ من رجال

«١» البداية والنهاية ج ٨ ص ١١٥ . «٢» الراجح ان المقصود من اهل الشام اصحاب العطاء من العرب الذين جاؤوا مع حجة الفتح او ابناهم وهذا ينسحب على الاعم الاغلب على تعبير اهل مصر واهل العراق واهل الكوفة الخ . في مثل هذا المقام «٣» تاريخ ائمة الاسلام ج ٢ ص ٢١ «٤» ج ٤ ص ٩٧

القرن التاسع . ولم تقع عليها في ما اطلعنا عليه من الكتب القديمة .

ولقد توفي معاوية بمرض النفاثات . وما يروى ^(١) انه لما ثقل وتحدث الناس بموته قال لاهله احشوا عيني ائداً واوسعوا راسي دهناً واسندوني ثم ائذنوا للناس فليدخلوا علي وليسلموا قياماً ففعلوا فخرج الناس يقولون ان امير المؤمنين لما به وهو اصح الناس . وجعل معاوية يقول :

وتجلدي للشامتين اريهم أي لريب الدهر لا أتضعع
فقلت له احدى بناته كلا يا أمير المؤمنين يدفع الله عنك فقال :
واذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل نعمة لا تنفع

وما روي ^(٢) عن محمد بن الحكم أن معاوية لما حضرته الوفاة أوصى بنصف ماله بأن يرد الى بيت المال وأمر أهله بأن يتولى لبس غسله ثم يعمدوا الى منديل في خزانة فيها ثوب من ثياب رسول الله صلعم وقراضة من شعره واظفاره فيجعلوا الثوب مما يلي جلده ويضعوا القراضة في أنفه وفمه واذنه وعينه . ثم اخذ يقول

إن تناقش يكن نقاشك يارب عذاباً لا طسوق لي بالعذاب
أو تجاوز تجاوز العفو واصفح عن مسيء ذنوبه كالتراب
واخذ يدعو قائلاً اللهم أقل العثرة ، واعف عن الزلة وتجاوز بملكك عن جبل من لم يرج غيرك فانك واسع المغفرة ، ليس لذي خطيئة من خطيئة مهرب إلا اليك .

وقد روي عن مروان بن سعيد بن المعلى ^(٣) ان معاوية حينما حضرته الوفاة وصى يزيد فقال اتق الله ، فقد وطأت لك هذا الامر ، ووليت من ذلك ما وليت ، فان بك خيراً فأنا أسعد به وان كان غير ذلك شقيت به ، فارفق بالناس وانقض عما بلغك من قول تؤذي وتنقص به ، وطأ عليه بينك عيشك وتصلح لك رعيته . وإياك والمناقشة وحمل الغضب . فانك تهلك نفسك ورعيته . وإياك وخيرة أهل الشرف واستهانتهم والتكبر عليهم . ولن لهم ليناً بحيث لا يرون منك ضعفاً ولا خوراً . واوطئهم فراشك . وقرهم اليك وادبهم منك . فانهم يعرفون لك حقك . ولا تنهم ولا تستخف بحقهم فيينوك ويستخفوا بحقك ويقعوا فيك .

«١» الطبري ج ٤ ص ٢٤١ «٢» ابن كثير ج ٨ ص ١٤١ وانظر الطبري أيضاً الصفحة والجزء المذكورين . «٣» ابن كثير ج ٨ ص ٢٣٩ - ٢٤٠

وإن أردت أمراً فادع أهل السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوى فتشاورهم ولا تخالفهم . وإياك والاستبداد برأيك . فإن الرأي ليس في صدر واحد . وصدق من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف . وشمر أزارك . وتعاهد جندك . وأصلح نفسك يصلح لك الناس . ولا تدع لهم فيك مقالا . فإن الناس سراع إلى الشر . واحضر الصلاة . فانك إذا فعلت ما أوصيك به عرف الناس لك حقك وعظمت مملكتك في أعين الناس . واعرف شرف أهل المدينة ومكة فانهم أصلك وعشيرتك . واحفظ لأهل الشام شرفهم فانهم أهل طاعتك . واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب تعهدهم فيه منك بالمعروف فان ذلك يبسط آمالهم . وإن وفد عليك واخذ من الكور فأحسن إليهم واكرمهم . فانهم لمن وراءهم . ولا تسمع قول قاذف ولا بماحل فإني رأيتهم وزراء سوء .

والوصية كثيرة الشبه بما يروى عن عقل ودهاء وحلم وحصافة معاوية . وفيها من أسس سياسة الملك والحكم ما يبلغ الذروة في البراعة والحكمة .

ومع ما بلغه معاوية من الملك العظيم فإنه كان متواضعاً في مظهره ولباسه إذا صح ما روي عن مبصرة بن جليس حيث يقول انه رآه في سوق دمشق وهو مردف وراءه وصيفاً وعليه قميص مرقوع الجلب .

ولقد كان يهتم لأمر الحج اهتماماً خاصاً . فكان يقيم للناس حججهم بنفسه حيناً يستطيع ويعين لذلك ابنه وأخوته وأبناء أخوته وبني عمومته حيناً لا يستطيع ذلك بنفسه على ما يستفاد من تنبيهات الطبري الذي ذكر في أعقاب أحداث كل سنة من سني حكمه اسم الذي كان يحج بالناس في تلك السنة .

وقد ذكر استاء معاوية ويزيد ابنه وعتبة وعنبسة أخويه والوليد ومحمد ابني أخويه ومروان بن الحكم وسعيد بن عمرو بن العاص من بني عمومته ^(١) .

وقد سار خلفاء بني أمية على هذه السنة فكانوا يقيمون للناس الحج بأنفسهم حيناً يستطيعون ويعهدون إلى أحد أولادهم أو أبناء عمومته أو رجالانهم المعتمدين حيناً لا يستطيعون

(١) انظر الجزء الرابع من تاريخ الطبري ص ١٣٠-٢٣٧ .

باستثناء السنين التي كانت فيها حركة ابن الزبير في الحجاز في زمن يزيد ومروان وشطرو من زمن عبد الملك وحركة تمرد المدينة في زمن يزيد .

وقد حرص الطبري على ذكر اسم الذي يحج كل سنة بالناس في مختلف عهود هؤلاء الخلفاء .

ويروى ان معاوية اشترى من اهل كعب بن زهير البردة التي كان وهبها النبي ﷺ لكعب حين انشده قصيدته المشهورة التي كان مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول
متيم عندها لم يفد مكبول

باربعين الف درهم وكان يلبسها في المناسبات تذكراً بها ثم تداولها الخلفاء الامويون من بعده .

كذلك يروى انه اول من كسا الكعبة بالديباج واشترى لها العبيد . واول من اتخذ ديواناً للخاتم وحرساً على بابه . وختم الكتب بالشمع وخاتم الخلافة . واتخذ مقصورة يصلي فيها ايام الجمع . وقد ممن في اواخر حياته فصار يخطب وهو جالس .

لقد كان له بلاء عظيم في مصالوة الروم سيرد بيانه في نبذة خاصة مع ما يائله من ذلك في عهد الدولة الاموية . وهناك احداث اخرى جرت في عهده سيرد ذكرها ومواقفه فيها كذلك في نبذة خاصة مع ما يائله منها .

ولقد توفي عن ٧٨ سنة في رواية ومتجاوزاً الثمانين في رواية . وقد قال ابن كثير ان القول الاخير هو الاشهر . وفي ذلك نظر لان هذا يقتضي ان يكون عمره يوم الفتح ٢٦ سنة . والمشهور انه كان فتي يافعاً . وكانت وفاته ليلة الخميس لثمان بقين من رجب عام ٥٦٠ هـ . وقد رويت في مكان قبره روايتان واحدة تذكر انه دفن في دار الامارة المسماة بالخضراء واخرى انه دفن بمقابر باب الصغير وهو ما عليه الجمهور على قول ابن كثير .

ولقد روي ^(١) عن عبد الملك بن نوفل انه لما مات سعد الضحاك بن قيس المنبر فقال ان

(١) ابن كثير ج ٨ ص ١٤٤ .

معاوية الذي كان سور العرب وعونهم وحبهم الذي قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد قد مات فمن كان منكم يريد ان يشهد قبره فليحضر . فلما اخرج للدفن قال الضحاك لا يحملن نعش امير المؤمنين إلا قرشي فحملته قریش ساعة . ثم قال اهل الشام اصلح الله الامير اجعل لنا من امير المؤمنين نصيباً في موته كما كان لنا في حياته قال فاحموا فحماوه وازدحموا عليه حتى شقوا البرد الذي كان عليه صدعين (١) .

ولقد كان يزيد غائباً عن الشام فارسل اليه الخبر مع البريد فلم يصل الى دمشق الا بعد عشرة ايام . وقد اثر عنه قصيدة رثائية فيه وهي :

جاء البريد بقرطاس يحب به	فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا في صحيفتكم	قال الخليفة امسى مثقلاً وجعا
فمادت الارض او كادت تيد بنا	كأن اغبر من اركانها انقلعا
ثم انبعثنا الى خوص مضرة	نرمي الفجاج بها ما تأتلي سرعا
فما نبالي اذا بلغن أرجلنا	ما مات منهن بالمرمات او طلعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق	بصوت رملة ريع القلب فانصدعا
من لا تزل نفسه توفي على شرف	نوشك مقاليد تلك النفس ان تقعا
أودى ابن هند واودى المجد يتبعه	كنا جميعاً خليطاً سالمين معا
اغر ابلج يستسقى الغمام به	لو قارع الناس عن احلامهم قرعا
لا يرقع الناس ما اوهى وان جهدوا	ان يرقعوه ولا يوهون ما رقعا (٢)

وقد رثاه ابو الورد العبدي فقال (٣)

ألا أنعى معاوية بن حرب	نعاة الحل للشهر الحرام
نعاة الناعيات بكل فج	خواضع في الازمة كالسهم
فهايك النجوم وهن خرس	ينحن على معاوية الميهم

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) ابن كثير ج ٨ ص ١٤٢-١٤٤ .

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٤ .

ورثاه ائمن بن حريم فقال^(١) :

رمى الحدثان نسوة آل حرب	بمقدار سمدن له سمودا
فرده شعورهن السرد بيضاً	ورد وجوههن البيض سودا
فانك لو شهدت بكاء هند	ورملة إذ يصفقن الحدودا
بكيت بكاء معولة قريح	اصاب الدهر واحدها الفريدا

وقد روى ابن قتيبة^(٢) عن عتبة بن مسعود قال انه لما مر بنا نعي معاوية قمنا فأتينا ابن عباس فوجدناه جالساً قد وضع له اخوان وعنده نفر فأخبرناه الخبر فقال يا غلام ارفع اخوان . وسكت ساعة ثم قال (جبل ترزعزع ثم مال بكلكله . اما والله ما كان كمن كان قبله ولكن لن يكون بعده مثله . وان ابنه خير اهله) .

هذا . وقبل ان نختم هذه النبذة نريد ان نذكر رأياً لابن خلدون في الترتيب التألفي بالنسبة الى دولة معاوية . ونعلق عليه . فقد قال ان دولة معاوية واخباره كان ينبغي ان تلحق بدول الخلفاء الراشدين واخبارهم فهو تأليفهم في الفضل والعدالة والصحة^(٣) .

ولا يخاف هذا القول من وجهة النظر التي ذكرها . ولا سيما ان في اقواله وصفاته واعماله وما روي عنه على لسان كثير من معاصريه ومن اصحاب رسول الله ﷺ ما يمكن ان يجعله من الراشدين .

غير ان ما درج عليه المؤرخون من اعتباره مبدأ عهد جديد هو في محله . هذا بالاضافة الى ان الحق يوجب القول ان هناك فروقاً كثيرة وعظيمة بينه وبين الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً . فبؤلاء قد اختيروا اختياراً دون ان يكون لهم سعي وجهد وكيد ودون ان يتساهلوا في حق من الحقوق او يتوسلوا بترغيب وترهيب في سبيل ولايتهم . في حين ان معاوية قد حارب وتساهل وتوسل بالترغيب والترهيب من اجلها .

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨ ؛ المكتبة التجارية الكبرى .

ولقد التزم كل منهم كتاب الله وسنة رسوله التزاماً صارماً ولم يتمموا لاية الملك ومراسمه ولم يتوخوا انشاء ملك اسروي في حين ان ذلك لا يمكن ان يقال بالنسبة الى معاوية على ما يبدو خلال ما مر من سيرته .

كذلك نريد ان نشير بكلمة الى كتاب (معاوية بن ابي سفيان في الميزان) لعباس محمود العقاد . فقد كتب هذا الكاتب كتابه وهو مترسم مسبقاً ان يكون من شأنه على ما يبدو من كل فصل من فصوله . فجرده من العظمة وجرده مما نسب اليه من حلم وارجحية ومروءة ودعاء وجهاد وعقل وحزم واقوال وافعال او بكلمة اخرى جرد هذا كله من المعاني النبيلة والمقاصد الشريفة وحرفه الى الاغراض والمطالب النفعية الذاتية والاسروية . واورد روايات كثيرة دون تمحيص ورغم ما يبدو عليها من صنعة . وساقها باسلوب يتفق مع ما ترسمه . واغفل روايات كثيرة مغيرة او مناقضة لذلك تحتل الصحة في اسلوبها ومطابقتها للواقع .

والتجوز بارز في كثير مما ادار عليه قلمه القوي ليتفق مع خطته . والشواهد في الكتاب ثم في كتب التاريخ المعتبرة المؤيدة لما نقوله كثيرة لا يمكن ان تغيب عن المتروى فيها . وفي الفصول السابقة طائفة كبيرة منها . وقد علقنا عليها بما رأيناه واجباً وحقاً وواضعا للامر في نصابه الصحيح ان شاء الله .

ورواة الشيعة يوردون احاديث نبوية في حق معاوية . منها حديث جاء فيه (لعن معاوية الطليق بن الطليق . فاذا رأيتموه على منبري فاقتلوه)^(١) .

وحديث جاء فيه (يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية)^(٢) وقام النبي ﷺ خطيباً فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج فقال النبي ﷺ (لعن الله القائد والمقود)^(٣) .

وعلماء الحديث وحفاظه متفقون على ان هذه الاحاديث موضوعة^(٤) شأن كثير من التي يرويها الشيعة لتأييد اهوائهم . وهي متناقضة مع ما ورد من احاديث صحيحة في فضل معاوية رضي الله عنه ودعاء النبي ﷺ على ما سبق بيانه .

(١-٤) المنتقى من منهاج السنة ص ٢٤٨ و٢٤٢ .

ويقال هذا في ما يسوقه رواة الشيعة من مطاعن ومثالب في معاوية وخلافته وسيرته
واخلاقه حيث تكذبها الروايات الكثيرة الواردة عكسها مما اوردنا منه امثلة كثيرة .
ولا نريد ان نزعم ان معاوية كان في كل اعماله فوق مستوى الشبهات . فقد مر منها ما
يحتمل التجريح والتثريب . وكان كثيراً ما يتوسل الى ما يريد بالتوغيب والتوهيب . وكان
كثير من الناس يطيعونه ويؤيدونه وغباً ورهباً ولكن الذي نعتقده ان اعماله واخلاقه الصالحة
هي الاكثر الاغلب .

٢ — يزيد بن معاوية^(١)

اختلف في سنه التي تولى فيها الخلافة بحيث تراوحت الروايات بين ان يكون في الخامسة والخمسين او في الخامسة والثلاثين حيث وردت روايات تذكر انه ولد في السنة الخامسة للهجرة كما وردت رواية تذكر انه ولد في خلافة عثمان بن عفان^(٢). وامه ميسون بنت بحدل الكلبي التي اشتهرت بجألها وعقلها وفصاحتها والتي ينسب اليها الشعر المشهور الذي تقول فيه :

أحب الي من لبس الشفوف	لبس عباءة وتقر عيني
أحب الي من قصر منيف	وبيت تحقق الارباح فيه
أحب الي من بغل زفوف	وبكر تتبع الاطعان صعب
أحب الي من هر ألوف	وكلب ينبج الاضياف دوني
أحب الي من عالج غنيف ^(٣)	وخرق من بني عمي فقير

وقد وصف يزيد بانه كان جميلا طويلا ضخما الهامة كثير الشعر واللحم . كما وصف بالفصاحة والشجاعة وحسن الرأي والمعاشرة . وقد أثرت عنه خطب وكتب تدل على ذلك وتدل في الوقت نفسه على حسن بصرية في أصول الحكم ومراعاة جانب الله وتقواه بما سوف نورد شيئا منه بعد . ولقد كان شاعرا . وقد اوردنا نموذجا من شعره في رثاء ابيه . وهناك مأثورات اخرى من شعره . منها ما روى الاصمعي ان هارون الرشيد كان يشدها له :

إنها بين عامر بن لؤي	حين تنمي وبين عبد مناف
ولها في الطيبين جدود	ثم نالت مكارم الاخلاف
بنت عم الرسول اكرم من	يمشي بنعل على التراب وحافي
لن تراها على التبدل والا	غلظة الا كدرة الاصداف

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج٤ ص ٢٥٠ وبعدها وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥ وبعدها والامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٨٦ وبعدها ج ٢ ص ٣ وبعدها وابن الاثير ج ٤ ص ٦ وبعدها والعقد الفريد ج ٢ ص ١٣٧ وبعدها ج ٣ ص ٣٧٨ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ١٤٦ وبعدها (٢) رجح ابن كثير هذا حيث قال انه ولد بعد العشرين من الهجرة ولم يولد في حياة النبي صلى (٣) مما روي ان معاوية قال لها حينما سمع الشعر ما رضيت يا ابنة بحدل حتي جعلتني علجا غنيفا الخفي باهلك فضئت الى بادية بني كلب ويزيد معا (انظر ابا الفداء ج ١ ص ١٩٣)

ومنه هذه الابيات التي يرويها عنه الزبير بن بكار :

آب هذا لهم فاكتفوا	ثم مر النوم فامتنعوا
راعياً للنجم ارقبه	فاذا ما كوكب طلعا
حام حتى انني لأرى	أنه بالغور قد وقعا
ولها بالمصارون اذا	اكل النمل الذي قد جمعا
زهة حتى اذا بلغت	نزلت من جلق تبععا
في قباب وسط دسكرة	حولها الزيتون قد ينعا

ومنه هذه الابيات :

وقائلة لي حين شبت وجهها	ببدر الدجى يوماً وقد ضاق منهجي
تشبني بالبدر هذا تناقص	بقدري ولكن لست اول من هجي
ألم تر أن البدر عند كماله	اذا بلغ التشبيه عاد كمدجلي
فلا فخر ان شبت بالبدر مبسمي	وبالسحر اجفاني وبالليل مدعجي

ولقد كان يزيد غائباً عن الشام حينما مات ابوه . فلما وصل الى دمشق جددت له البيعة ثم جمع الناس في الجامع وخطب فيهم قائلاً بعد حمد الله والثناء عليه (أيها الناس إن معاوية كان عبداً من عبيد الله أنعم عليه ثم قبضه اليه وهو خير من بعده ودون من قبله . ولا اذكيه على الله عز وجل فانه اعلم به . ان عفا عنه فبرحمته وإن عاقبه فبذنبه . وقد وليت الامر من بعده . ولست آسي على طلب . ولا اعتذر من تقريظ . وإذا اراد الله شيئاً كان . إن معاوية كان يغزيكم البحر وإني لست حاملاً احداً من المسلمين في البحر . وإن معاوية كان يشتيكم بأرض الروم ولست مشتياً احداً بأرض الروم . وإن معاوية كان يخرج لكم العطاء اثلاثاً وأنا اجمعه لكم كله . قال الراوي فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه احداً^(١) .

ولقد جاءت البيعة مجدداً من الامصار ولم يرو المؤرخون خلافاً وشقاقاً في ذلك إلا امتناع

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٤٣ ان صح جميع ما جاء في الخطبة فيفسر ما جاء فيها في شأن البحر والتشبية ان الناس كانوا يشعرون بشيء من العنت من جراء ذلك وان يزيد كان في نفس الوقت مطمئناً بأمن الحدود من الروم .

الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير عن المبايع .

ولقد رويت صيغتان لرسالة ارسلها يزيد الى المدينة بسبيل ذلك واحدة اوردها الطبري هذا نصها : (اما بعد فان معاوية كان عبداً من عباد الله اكرمه واستخلفه وخوله وممكن له فعاش بقدر ومات بأجل فرجه الله فقد عاش محموداً ومات برأً تقياً والسلام ثم كتب في صحيفة كأنها أذن فأرة اما بعد فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) (١) .

وواحدة اوردها ابن قتيبة هذا نصها (اما بعد فان معاوية بن ابي سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد ومكن له في البلاد وكان من حادث قضاء الله جل ثاؤه وتقدست سمائه فيه ما سبق في الاولين والآخرين لم يدفع عنه ملك مقرب ولا نبي مرسل . فعاش حميداً ومات سعيداً . وقد قلدنا الله عز وجل ما كان إليه . فيا لها من مصيبة وما اجلها ونعمة ما اعظمها نقل الخلافة وفقد الخليفة فنستودعه الشكر ونستلهمه الحمد ونسأله الخيرة في النارين معاً ومحمود العقبي في الآخرة والاولى إنه ولي ذلك وكل شيء بيده لا شريك له . وإن اهل المدينة قومنا ورجالنا ومن لم نزل على حسن الرأي فيهم والاستعداد بهم واتباع الخليفة فيهم والاحتذاء على مثاله لديهم من الاقبال عليهم والتقبل من محسنهم والتجاوز عن مسيئتهم . فبايع لنا قومنا ومن قبلك من رجالنا بيعة مشرحة بها صدوركم طيبة عليها أنفسكم . وليكن اول من يبايعك من قومك واهلنا الحسين وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر ويحلفون على ذلك بجميع الايمان اللازمة بصدقة اموالهم غير عشرها وجزية رقيقهم وطلاق نسائهم بالثبات على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ولا قوة الا بالله والسلام) (٢) .

ومها يكن من أمر بالنسبة للصيغتين فالتفق عليه ان الحسين وعبد الله بن الزبير حينما طلب منها عامل المدينة ان يبايعا حاولا التملص ثم تمكنا من الخروج الى مكة دون ان يبايعا . ولقد كان من الحثمة الذين امتنعوا عن البيعة بولاية العهد ليزيد في حياة معاوية عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر على ما ذكرناه في سياق سيرة معاوية .

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٦ .

وقد توفي الاخير في حياة معاوية .

وكان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس في مكة على ما رواه الطبري الذي روى انهما التقيا بالحسن وعبد الله بن الزبير في مكة فلما علما منها بوفاة معاوية ترجعا عليه ولما علما بتنصلها من المبايعة ليزيد قال لهما اتقيا الله ولا تفرقا جماعة الامة ثم قدما الى المدينة وبايعا . وظلا متمسكين ببيعتهما حينما نقض اهل المدينة بعد مقتل الحسين وخلعوا يزيد حيث روى ابن كثير ان ابن عمر جمع اهله وبنيه وقال لهم (إنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله . واني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان وإن من اعظم الغدر - إلا ان يكون الاشرار بالله - ان يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته . فلا يخلفن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم في هذا الامر فيكون الفيصل بيني وبينه)^(١) وان ابن عمر جاء الى عبد الله بن مطيع احد قادة حركة التمرد والخلع ليزيد فقال له (انما جئتك لحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت موة جاهلية)^(٢) .

وواضح من هذا ان البيعة كانت منعقدة ليزيد وان عدداً غير يسير من اصحاب رسول الله كانوا داخلين فيها ومتمسكين بها ويعتبرونها لازمة واجبة الاحترام ويعتبرون الشذوذ عنها تفرقاً لجماعة المسلمين ونقضها مستوجباً لسخط الله تعالى . وتختلف افراد منهم ليس من شأنه أن يخل بذلك .

ومن اخطب المؤثرة ليزيد الدالة على الحصافة وحسن البصيرة وتقوى الله هذه الخطبة التي اوردها مؤلف العقد الفريد^(٣) .

(١) علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله رواه مسلم والترمذي من حديث صخر بن جويريه وقال الترمذي حديث حسن . انظر البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٢-٢٣٣ .

(٢) علق ابن كثير على هذا الحديث بقوله رواه مسلم من حديث هشام بن سعد . انظر البداية والنهاية ج ٨ - ٢٣٣ .

(٣) ج ٢ ص ٣٧٨ .

الحمد لله احمده واستعينه واؤمن به واتوكل عليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا . من يبد الله فلا مضل له . ومن يضل فلا هادي له . واشهد ان لا إله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوجه . واختاره لرسالته بكتاب فضله وفضله . واعزه واكرمه . ونصره وحفظه . ضرب فيه الامثال وحلل فيه الحلال وحرم الحرام ، وشرع فيه الدين إغذاراً وانذاراً ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ويكون بلاغاً لقوم عابدين . اوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الامور بعلمه . وإليه يصير معادها . وانقطاع مدتها وتصرم دارها ، واحذرکم الدنيا فانها حلوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وأينعت بالفاني ، وتحببت بالعاجل لا يدوم نعيمها ولا يؤمن فجيئها أكلة غوالة غرارة ، لا تبقى على حال ولا يبقى لها حال ، لن تعدو الدنيا إذا تناهت الى امنية اهل الرغبة فيها والرضا بها ان تكون كما قال الله عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء الى قوله معتذراً ، نسأل الله ربنا والمنا وخالقنا ومولانا ان يجعلنا واياكم من فرع يومئذ آمنين ، إن احسن الحديث وابلغ الموعظة كتاب الله . بقول الله واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون ، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم لقد جاءكم رسول الله من انفسكم . . الى آخر السورة) .

ومن مواقفه التي تدل على البداهة والحصافة ما اوردها في سياق سيرة معاوية حينما ارسله ابوه الى ابن عباس ليعزيه بالحسن بن علي .

وبما روي من سيرته الشخصية وفيه دلالة على بديته وقوة عارضته ان زياداً قدم باموال كثيرة وبسقط مملوء جواهر فسر بذلك فقام زياد فخطب وافتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية فقام يزيد فقال إن تفعل ذلك فنحن نقلناك من ولاء ثقيف الى قريش ومن القلم الى المنابر ومن زياد بن عبيد الى حرب بن امية . فسر ابوه منه ولم يمنع نفسه ان قال له فذاك ابي وامي .

وبما روي من ذلك ان معاوية غضب على يزيد فهجره فقال له الاحنف يا امير المؤمنين انما هم اولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظلية وارض ذليلة ، إن غضبوا فأرضهم وإن طلبوا فأعطهم . ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملوا حياتك ويتمنوا موتك . فقال له معاوية الله درك يا ابا بجر . يا غلام انت يزيداً فأقرئه مني السلام وقل له إن امير المؤمنين قد امر

لك بمئة ألف ومئة ثوب . فسأل يزيد من عند امير المؤمنين فقال الاحنف فقال لا جرم لأقاسمه .

ولقد روي ان معاوية وصى يزيد باكرام عبد الله بن جعفر ووصفه بأنه خليفه ، فلما وفد عليه بعد موت ابيه رفع جائزته من ستمئة الف إلى الف الف فقال له بأبي انت وامى فاعطاه ألف ألف اخرى ، فقال جعفر والله لا اجمع ابوي لأحد بعدك ، ولما خرج رأى على الباب بخاتي قادمة من خراسان تحمل هدايا ليزيد فرجع فسأله ثلاثاً منها ليوكبها ، ولم يكن له علم بها فسأل الحاجب فأخبره بخبرها وكانت اربعمئة فقال اصرفوها الى ابي جعفر بما عليها ، فكان عبد الله بن جعفر يقول اتلوموني على حسن الرأي في يزيد ^(١) .

ولقد كان يزيد على رأس اول جيش غزا القسطنطينية في سنة ٤٩ او ٥٥٠ وقد اورد ابن كثير في سياق هذا الخبر حديثاً نبوياً جاء فيه (أول جيش يغزو مدينة قيصر مغفور له) . وقد حج بالناس سنة ٦١ هـ وقد كان يغدق العطاء على الوفود التي تغد اليه من الامصار حيث روي هذا عنه في سياق ذكر وفد وفد عليه من المدينة .

وبما روي عن يزيد وفيه صورة من صور الحكم وتصرفات الولاية في ذلك العهد ان والي خراسان عبد الرحمن بن زياد قدم عليه فقال له كم قدمت به من المال قال عشرون الف الف ، فقال له ان شئت حاسبناك وان شئت سوغناكها وغزلناك على ان تعطي لعبد الله بن جعفر خمسمائة ألف قال بل سوغها . واما عبد الله بن جعفر فأعطيه ما قلت ومثله معه ، فعزله عن الولاية ووفى عبد الرحمن فاعطى عبد الله الف الف نصفها باسم امير المؤمنين ونصفها باسمه ^(٢) ، ونحن نورد الرواية مع التحفظ لانها غريبة .

ولقد عزيت الى يزيد نقائص اخلاقية من شرب خمر وولع بالقيان والمعازف ولهو بالصيد والقروء وترك للصلاة ، وروي ان هذه النقائص مما برر اهل المدينة خلعهم له في سنة ٦٣ هـ .

غير انه روي الى جانب ذلك نفي لهذه النقائص عنه على لسان محمد بن الحنفية بن علي بن ابي طالب حيث روي ان عبد الله بن مطيع الذي كان من قواد حركة الخلع مشى مع

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٠ والبخاري هي الابل .

(٢) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٤ وابن كثير ج ٨ ص ٩٤ .

محمد بن الحنفية وارادوه على خلع يزيد فأبى عليهم ، فقال ابن مطيع ان يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب ، فقال لهم ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وامت عنده فوأيتة مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة ، قالوا ذلك كان منه تصنعاً لك ، فقال وما الذي خاف مني او رجاً حتى يظهر لي الخشوع ، افاطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر فلتن كان اطلعكم على ذلك انكم لشركاؤه ، وان لم يكن اطلعكم فما يحيل لكم ان تشهدوا بما لم تعلموا ، قالوا انه عندنا الحق وان لم يكن رأيناه ، فقال لهم ابي الله ذلك على اهل الشهادة فقال (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) ولست من أمركم في شيء ، قالوا لعلك تكره ان يتولى الامر غيرك فنحن نوليكَ امرنا ، قال ما استحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً ، قالوا قد قاتلت مع ابيك ، قال جيئوني بمثل ابي اقاتل على مثل ما قاتل عليه ، فقالوا له فمر ابنك ابا القاسم والقاسم بالقتال معنا ، فقال لو امرنيها قاتلت ، قالوا فقم معنهما مقاماً تحض الناس فيه على القتال ، فقال سبحان الله أأمر الناس بما لا افعله ولا ارضاه ، إذا ما نصحت لله في عبادته ، قالوا اذاً نكرهك قال اذاً أمر الناس بتقوى الله وان لا يرضوا المخلوق بسخط الخالق ثم خرج الى مكة (١) .

وإذا شك احد في صحة هذه الرواية فالشك وارد في صحة التي قبلها ، ولا سببا ان خلع اهل المدينة ليزيد كان بعد حادث الحسين واثراً من آثار الانفعال الذي سببه وبتأثير حركة عبد الله بن الزبير الذي اخذ البيعة لنفسه في الحجاز بعد ذلك على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة ، وقد يكون ما عزي الى يزيد قد عزي عليه افتراء في حياته من قبل خصومه لاثارة الناس عليه بما هو مألوف في كل وقت .

ولقد روي ان معاوية احب ان يعظ ابنه في رفق فيما ولع به من الشراب فقال له يا بني ما اقدرك على ان تصل الى حاجتك من غير تهتك يذهب ببروءتك وقدرتك ويشمت بك عدوك ويسبي بك صديقك ، ثم قال يا بني إني منشذك ابياتاً فتأدب بها واحفظها وانشده :

انصب نهاراً في طلاب العلاء	واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى اذا الليل اتى بالدجاء	واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي	فانما الليل نهار الارب

كم فاسق تحسبه ناسكاً قد باشر الليل بأمر عجيب
 غطى عليه الليل استاره فبات في أمن وعيش خصب
 ولذة الاحمق مكشوفة يسعى بها كل عدو مريب^(١)

ولا نرتاب في ان هذه الروايات كروايات كثيرة في حق ملوك بني امية مصنوعة لتسويء والتجريح . ونحن ننزه معاوية صاحب رسول الله وكاتب وحيه والذي اثرت عنه مخافة الله وتقواه وحرصه على التزام حدوده عن ان يرضى من ابنه الشذوذ عن هذه الحدود بل التشجيع بل نحن نستبعد هذا عن يزيد وقد انكره محمد بن الحنفية .

ويقال هذا بالنسبة لبيتين من الشعر عزيا اليه وهما :

اقول لصحب ختمت الكأس شملهم وداعي صبايات الهوى يتنم
 خذوا بنصيب من نعم ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم^(٢)

فليس من المعقول ان يتنم خليفة وابن خليفة في مثل ذلك العهد جهاراً بشرب الخمر والدعوة الى الله .

ولقد اوردنا في سيرة معاوية رواية ذكرت ان زياداً كتب لمعاوية حين ما استشاره في امر البيعة ليزيد ينبيه الى ما اشتهر به يزيد من مثل هذه النقائص . ونبها على ما في الرواية من نهافت زمنياً وموضوعياً .

ولقد رويت احاديث نبوية في سياق سيرة يزيد منها حديث جاء فيه (قال رسول الله ﷺ لا يزال امر امتي قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني امية يقال له يزيد) . وحديث جاء فيه (قال النبي ﷺ اول من يغير سنتي رجل من بني امية) .

وهذان الحديثان لم يردا في كتب الاحاديث الصحيحة . وقد انكرهما الامام ابن كثير وهو من علماء الحديث وقرر انقطاعها ثم قال ان ابن عساكر اورد احاديث اخرى في ذم يزيد كلها موضوعة لا يصح شيء منها^(٣) .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣١ .

ولا نرتاب في انه كان للاحداث التي جرت في عهد يزيد الاثر الاكبر في هذه الاحاديث التي ينكرها هذا الامام ويقرر انها موضوعة .

والأحداث المذكورة هي مقتل الحسين بن علي وتمرد اهل المدينة وضربهم وعلان عبد الله بن الزبير خلافته في مكة . وقد رأينا ان نورد موجز ما ورد في صدها ونعلق عليها في سلسلة الاحداث الاخرى المشابهة لانها متصلة بكيان الدولة مباشرة .

وليس ما اورده عن يزيد هو كل اعماله ومواقفه واقواله اثناء خلافته . فهناك من ذلك أشياء اخرى صدرت عنه في سياق الاحداث التي جرت في عهده رأينا ايرادها مع التعليق عليها في مناسباتها ايضاً .

وبعضهم يستحل لعن يزيد وبعضهم يميزه ، ويغلو الشيعة في ذلك غلوّاً كبيراً بسبب ما روي عنه في سياق الاحداث ثم بسبب ما روي في حقه من احاديث نبوية وما عزي اليه من نقائص أخلاقية . وقد مر تبيان ما في هذه الاحاديث وما في ما عزي اليه من نقائص من وعن . اما الروايات التي تروى في سياق الاحداث فهي متناقضة حيث يروى عنه ما يستوجب انشاء الى جانب ما يستوجب التثريب ، على ما سوف نسوقه بعد ، وما يوجب التحفظ الشديد ولا يميز لعنه وهو خليفة المسلمين ببيعة عامة وقد ثبت جهاده واسلامه . ولقد انكر الامام ابن تيمية لعنه ودل على عدم جوازه بروايات عديدة وبأدلة نقلية وعقلية قوية ^(١) .

هذا . وقد روي ان يزيد مات في حوارين من قرى دمشق في الرابع عشر من ربيع الاول سنة ٦٤ هـ ثم حمل الى دمشق وصلى عليه ابنه معاوية ودفن بمقابر باب الصغير . وفي أيامه وسع النهر المسمى بيزيد في ذيل جبل قاسيون وكان جدولا صغيراً . وقد اخذ البيعة لابنه معاوية قبل وفاته . فلما توفي خلفه في الخلافة .

وما يرويه ابن كثير انه كان ليزيد خمسة عشر ولداً ذكراً وخمس بنات وقد انقرضوا كافة فلم يبق له عقب . وما يرويه اليعقوبي انه مات عن اربعة اولاد ذكور هم معاوية وخالد وابو سفیان وعبد الله .

(١) انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٢٨٩ — ٢٩٢ .

٣ — معاوية الثاني بن يزيد الاول^(١)

تراوحت الروايات في سنه حين صار له الحكم بين ١٨ و ٢٥ سنة، وامه اموية. وقد وصف بأنه جميل الوجه حسن الجسم شديد البياض كبير العينين أفنى الأقب . وكان ورعاً تقياً . وقد سماه ابوه ولياً لعهد فلهما مات كان مريضاً فتولى الولاية والوكلاء اخذ البيعة له . ونرجح ان اباه حينما سماه ولياً لعهد اخذ البيعة له .

وليس هناك شيء حول ذلك حيث يسوغ القول ان سنة تسمية ولي العهد وبيعته في حياة الذي يسميه ثم تجديد البيعة له بعد وفاته قد استقرت ، وكان قيس بن الضحاك من رجال ابيه وجده من قبل يصلي بالناس ويسد الامور نيابة عنه .

ولقد دعا الناس الى الجامع بعد ايام من وفاة ابيه فخاطبهم قائلاً اني قد وليت امركم وانا ضعيف عنه ، فان احببتم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر وان شئتم تركتها شورى بينكم كما تركها عمر بن الخطاب فخاف بنو امية ان يخرج الامر منهم فقالوا له امهلنا اياماً يا امير المؤمنين فقال لهم لكم ذلك ثم عاد الى منزله فلم يخرج منه حتى مات .

وروي انه سقي سماً وروي انه طعن ، وهناك رواية تذكر انه قال لهم لقد ابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم أجده ، وابتغيت لكم ستة مثل الستة الذين جعل عمر الامر شورى بينهم يختارون واحداً منهم فلم أجدهم فأنتم اولى بأمركم فاختراروا له من احببتم ، ولما ثقل عليه المرض دخل عليه بنو امية وطلبوا منه ان يستخلف واحداً منهم فقال لا والله لا اترودها ، ما سعدت بمحاولتها فكيف اشقى بمرارتها ثم هلك ولم يستخلف .

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٢ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٨٥ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٣٧ وبعدها واليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٦—٢٢٧ .

ولقد روى اليعقوبي نص خطبة اخرى في سياق تنازل معاوية وهو (ايها الناس انا بلينا بكم وبليتم بنا ، فما نجبل كراحتكم لنا وطعنكم علينا ، الا ان جدي معاوية نازع الامر من كان اولى به منه في القرابة برسول الله والسبق في الاسلام فركب منكم ما تعلمون وركبتم منه ما تنكرون حتى اتته منيته ، وصار رهنأ بعمله ، ثم قلده ابي وكان غير خليف للخير فركب هواه واستحسن خطاه ، وعظم رجاءه فأخلفه الامل وقصر عنه الاجل فقلت متعته وانقطعت مدته وصار في حفرة رهنأ بذنبه واسيراً مجرمه ، ثم بكى وقال ان اعظم الامور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه ، وقد قتل عتوة الرسول واباح الحرمه وحرق الكعبة وما انا المتقلد امورك والمتحمل تبعاتكم فشأنكم امركم ، فوالله لئن كانت الدنيا مغنماً لقد نلنا منها حظاً وان تكن شرأً فحسب آل ابي سفيان ما اصابوا منها ، فقال له مروان سنها فينا عمرية يعني وص بالخلافة على الطريقة التي وصى بها عمر) فقال ما كنت اتقلدكم حياً وميتاً ، ومتى صار ابن يزيد مثل عمر ومن لي برجال مثل رجال عمر (١) .

والصنعة بل الكذب يفوحان من هذا النص بكل قوتها ، حيث ينسب الى ابيه وجده اشد ما ينسبه اليها الشيعة وما لم تؤيده اي رواية من الروايات القديمة على ما سوف يأتي شرحه في سياق مقتل الحسين وثورة المدينة وابن الزبير ، ولا يعقل ان يصدر منه في اي حال .

ولقد كان عبد الله ابن الزبير اعلن استقلاله وخلافته في مكة وسيطر على الحجاز وكانت جيوش يزيد محاصرة لمكة حين توفي وانتقل الحكم الى ابنه معاوية ، وسبق ذلك حادثا مقتل الحسين بن علي وثورة المدينة وضربها .

فمن المحتمل ان يكون معاوية قد استهول الموقف بوحي من مرضه وتورعه وزهده فأراد ان يتخلى عن المسؤولية بالنسبة لنفسه وبالنسبة لما بعده ، فاستقال ولم يعين خلفاً .

وقد ادى موقفه هذا الى انتقال الملك الى الفرع الثاني من بني امية الذي بدأ بمروان بن الحكم بن ابي العاص .

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٢٦-٢٢٧ .

٤ — مروان بن الحكم^(١)

ولد في حياة النبي ﷺ وكان عمره حين توفي النبي ثمانين سنوات، ووصف بأنه كان قصيراً أحمر الوجه دقيق العنق كبير الرأس واللحية ، وقد عده بعضهم صحابياً وبعضهم تابعياً ، واثراً عن علي بن أبي طالب وصفه له بسيد من شباب قریش ، ووصفه معاوية بالقاريء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله .

وكان كاتب عثمان بن عفان ومن مستشاريه الاخفاء . وقد دافع عنه اشد دفاع يوم حصره في داره على ما شرحناه في الجزء السابق . وقد اتهمته الروايات بأنه الذي زور كتاباً بلسان عثمان يقتل محمد بن أبي بكر او بعض وفود مصر التي اتت الى المدينة وشاركت في حركة النخبة ضد عثمان .

غير ان هناك روايات تنفي ذلك وتذكر ان الكتاب مزور^(٢) . وإزاء الروايات المتناقضة يجب على المنصف ان يقف موقف المتحفظ .

ولقد كان والياً للمدينة في خلافة معاوية ، ومحل ثقته واعتماده ، ووصفه بذلك الوصف العظيم الذي اورده في سيرة معاوية .

وقد ولاه اماراة الحج مراراً ، وروى ابن الاثير^(٣) ان الحسن والحسين رضي الله عنهما

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٠٨ وبعدها و الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٥ وبعدها والبدابة والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٣٩ وبعدها ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣١ وبعدها وابن الاثير ج ٤ ص ٥٧ وبعدها وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٣ - ١٤ .

(٢) انظر المنتقى من منهاج السنة ص ٣٧٧ وذيلها والعواصم من القواصم لابي بكر العربي ص ١٠٩ و١٢٦-١٢٧ وذيلها وقد محصنا هذه المسألة في الجزء السابق أيضاً .

(٣) ج ٤ ص ٧٥ .

كانا يصليان خلفه حينما كان والياً وان محمداً بن علي سئل عنه فقال هو خير لنا . وانه اعتق في يوم واحد مئة رقبة ، وقد اتخذ المدينة سكناً له ولاولاده الى ان اعلن ابن الزبير خلافته في مكة وثارت المدينة على يزيد بن معاوية فخرج منها ومن كان فيها من اقارب الى الشام .

ولما مات معاوية بن يزيد ارتبكت الامور في الشام وقويت دعوة ابن الزبير فيها حتى لقد اعلن كثير من اهل البيعة له بل روي ان مروان نفسه قد هم بالبيعة له ، وفي هذه الاثناء قدم عبد الله بن زياد فاجتمع عليه بنو امية ومن جملتهم مروان فقال له استحييت لك مما تريد وانت كبير قریش وسيدها ، فقال له ما فات شيء بعد ، فقام معه بنو امية وانصارهم وخاصة البانين في الاردن وفلسطين بزعامة حسان بن مالك وروح بن زنباع .

وكان الضحاك بن قيس قد اظهر البيعة لابن الزبير وخلع بني امية فالتف عليه جل اهل الشام وكتب الى النعمان بن بشير والي حمص وزفر بن الحارث والي قنسرين وناقل بن قيس والي فلسطين فتابعوه على البيعة لابن الزبير وارسلوا اليه مدداً ، مما جراً الضحاك وجعله يقدم على النزول في قصر الامارة في الشام ويعلم نفسه كعامل لابن الزبير ويصلي بالناس .

ولقد اشتد المرح في دمشق حتى تضارب بعض انصار الطرفين وتشاقروا فبعث ذلك الخوف في نفس الضحاك وجعله يتراجع ويبعث الى بني امية فيعتذر اليهم ويطلب منهم زعيم دعوتهم حساناً ليأتي للاجتماع به في الجابية حتى يتفقوا على رجل منهم فيبايعه معهم غير ان زعيماً من انصار ابن الزبير اسمه ثور بن معن جاء اليه فقال دعوتنا الى طاعة ابن الزبير فبايعناك ثم تنكص فرده عن تراجع ، وحينئذ نزل الى مرج راهط قرب دمشق مع من تجمع معه ايذاناً بتمسكه بابن الزبير ، وحينئذ خرج مروان ومن تحشد معه اليه من جماعات الشام والاردن وفلسطين .

وكان على ميمته عمرو بن سعد بن ابي العاص وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد واخذ طرفان يشبكان بالقتال الذي امتد عشرين ليلة ثم دارت الهزيمة على الضحاك وحشوده وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان هو من جملة القتلى .

وبلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير فخرج من حمص فاراً باهله وولده وثقله فطلبه انصار بني امية حتى ادركوه وقتلوه ، وفي اثناء معركة المرج ثار يزيد بن ابي نسر في دمشق وكان عليها عامل من قبل الضحاك بن قيس فغلب عليها واستولى على خزائنها واعلم البيعة لمروان وامده بالاموال والرجال والسلاح فكان ذلك مما ساعد على انتصار مروان وحشوده .

ولقد نشب خلاف بعد النصر في رواية وقبل المعركة في رواية أخرى بين انصار بني امية على من يولونه الامر حيث اراد فريق ان تكون البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية وفريق آخر ان تكون لمروان لانه اكثر اهلية بسنه ونجاربه حتى لقد قال بعض الانصار في مقام الاستسكار أيا تينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام يعنون عبد الله بن الزبير ، فكان ذلك ممن مرجحت مروان ، ومع ذلك فقد تم الاتفاق بين الفريقين على ان يكون الامر من بعده خالد .

ولقد كان بشر بن مروان يحمل راية ابيه ويرتجز قائلا :

ان على الرئيس حقاً حقاً ان يخضب الصعدة او تندقا

وروي ان مروان انشد بعد بيعته او في اثناء الكلام عنها :

لما رأيت الامر امراً نهياً	يسرت غسان لمسم وكلباً
والسكسكين رجالا غلباً	وطيناً تأباه إلا ضرباً
والقين تشي في الحديد نكباً	ومن تنوخ مشمخراً صعباً
لا يأخذون الملك الا غضباً	وإن دنت قيس فقل لا قرباً

ولقد تتابع اهل الشام في البيعة له حتى استتب له الامر، ولقد قدم في هذه الاثناء مصعب بن الزبير الى فلسطين ليقم الدعوة لاختيه ، ولقد قام في مصر عبد الرحمن بن حجوم القرشي يدعو لابن الزبير ، فسير مروان جيشاً للقاء مصعب بقيادة عمرو بن سعيد فهزمه ووطد البيعة لمروان ، وسار مروان بنفسه الى مصر واستطاع ان يوطد الامر فيها لنفسه .

وعكذا اجتمع له بلاد الشام ومصر بينا كان الحكم في الحجاز واليمن والعراق لابن الزبير ، واستمر الامر على ذلك إلى ان مات .

ولقد وجه جيشاً الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ووصل الجيش الى المدينة ، فكتب ابن الزبير الى عامله على البصرة ان يوجه اليهم بجيش ففعل ، وقتل هذا الجيش قائد جيش مروان وعامة رجاله .

وهناك رواية تذكر ان مروان سير عبيد الله بن زياد على رأس جيش الى العراق فخرج اليه الشيعة الذين كانوا تحركوا لاختار الحسين بقيادة سليمان بن مرثد والتقى الجيشان في

مكان اسمه عين الوردة وتقاتلوا فدارت الدائرة على جيش الشيعة .

على ان هناك رواية اخرى تذكر ان عبد الملك بن مروان هو الذي سير جيش عبيد الله بن زياد بعد ان مات ابوه وخلفه على العرش .

وقد روي ان مروان مات مخنوقاً او مسموماً بتدبير زوجته ام خالد زوجة يزيد بن معاوية التي تزوج بها بعد يزيد . والروايات تذكر انه نشب كلام شديد بين خالد ومروان فقال له مروان كلمة فيها سب لامه فنقلها اليها فهاج غضبها واستنحت فرصة فدست له السم او خنقته بوسادة وضعتها على وجهه وقعدت هي او جواربها عليها .

ولقد ذكرت الروايات ان مروان اخذ البيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز ليكونا وليي عهده واحداً بعد الآخر .

فاذا صحت الرواية التي ذكرناها قبل ونحن نرجح صحتها بأن اليانين اخوال يزيد الذين ابدوا مروان وبايعوه استرطوا ان يكون ولي عهده خالد بن يزيد فمن المحتمل ان يكون غذا وامه قد غضبا لصرف الخلافة عنه فتأمروا على قتله ونفذوا مؤامرتها .

ومروان هو اول من سن سنة تعيين ولين للعهد من بعده وكانت لها نتائج سيئة في الدولتين الاموية والعباسية .

وقد ذكرنا في نبذة ولاية العهد ما عن لنا عن اسباب ذلك فلا نرى ضرورة للاعادة . وينبذ مروان بما روي في حق ابيه وحقه من احاديث نبوية فيها لعنها وقد اوردنا هذه الاحاديث في التمديد الاول الذي قدمناه بين يدي نبذة سيرة الخلفاء واوردنا نقد ابن الاثير وابن كثير لها وتقرير الثاني بكونها موضوعة . ونبها على اثر الحزبية السياسية القوي فيها . ينبز كذلك بما روي من ان النبي ﷺ نفى اياه الى الطائف بعد اسلامه يوم الفتح وقدمه الى المدينة لانه كان شديد المناوأة للنبي .

على ان هناك رواية تذكر ان النبي عفا عنه وسمح له بالعودة من منفاه^(١) وحتى لو لم تصح هذه الرواية فليس لهذا النبذ محل ولا مسوغ من دين وعقل .

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٣٨٤ .

هـ — عبد الملك بن مروان^(١)

يجمع المؤرخون على ان هذا الملك كان عالماً فقيهاً حازماً شجاعاً داميةً فصيحاً ، وقد ولد في سنة ٢٦ هـ وكان ربعة بين الرجال اقرب الى القصر، وكان افوه الفم ابيض اللون ليس بالبادن ولا النحيف اشهل كبير العينين دقيق الوجه ، وقد ارسله معاوية الى غزو بلاد الروم وعمره ست عشرة سنة ، ثم عينه والياً على المدينة وما يزال شاباً يافعاً فكان يجالس فقهاءها .
رأى ما رآه من اهلها من رجالاتها ودية علم منهم ويستشيرهم .

وقد روى عنه علماء الحديث ورواته احاديث نبوية عديدة ، منهم خالد بن سعدان وعروة بن الزبير والزهري ورجاء بن حية وجريز بن عثمان .

ولقد روي عن نافع بن عبد الله بن عمر قوله اني لم ار في المدينة شاباً اشد تشميراً ولا افقه ولا اقرا لكتاب الله من عبد الملك بن مروان وعن ابي الزناد انه كان رابع اربعة يعدون فقهاء المدينة والثلاثة الآخرون هم سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة بن ذؤيب ، وعن الشعبي قوله ما جالست احداً الا وجدت لي الفضل عليه الا عبد الملك فاني ما ذا كرت حديثاً ولا شعراً الا زادني منه .

وقال ابن قتيبة انه كان معروفاً بالصدق مشهوراً بالفضل والعلم لا يختلف في دينه ولا ينازل في روعه ، وما اثر عنه من اقوال وافعال مصداق لكل ما وصف به .

وقد خطب بعد بيعته فوعد الناس خيراً ، ودعاهم الى احياء الكتاب والسنة واقامة العدل والحق .

(١) هذه النبهة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٦-٥٤ والطبري ج ٤ ص ٧٤ وبعدها ج ٥ ص ٢ وبعدها والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٧٨ وج ٣ ص ١٥٣ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ٣٦ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٦٠ وبعدها ج ٩ ص ٢-٧٠ وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٧٤ - ٢٠٠ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٤-٢٧ مطبعة الغربى ١٣٥٨ .

ومن خطبه المأثورة «ان اللسان بضعة من الانسان وانا لا نسكت حصرا ولا ننطق هذراً ونحن امرء الكلام فينا رسغت عروقه ، وعلينا تدلت اغصانه » وكان يختم خطبه بقوله « اللهم ان ذنوبي قد عظمت وجلت ان تحصى وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

وخطب مرة خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شديداً وقال يا رب إن ذنوبي عظيمة وإن قليل عفوك اعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي .

فبلغ ذلك الحسن البصري فبكى وقال لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام وكتب الى الحجاج رسالة قال فيها (انك اعز ما تكون بالله احوج ما تكون اليه واذل ما تكون للمخلوق احوج ما تكون اليه ، فاذا عززت بالله فاعف فانك به تعز واليه ترجع) .

وطلب رجل منه خلوة ليحدثه في بعض الامور ففعل ثم قال له قبل ان يتكلم « احذر في كلامك ثلاثاً ، اياك ان تمدحني فاني اعلم بنفسك منك ، او تكذبني فانه لا رأي لكذوب ، او تسعى الي بأحد الرعية ، فانهم الى عدلي وعفوي اقرب منهم الى جورى وظلمي ، وان شئت اقلتك من الكلام » فقال له الرجل اقلني فأقاله .

وكان يقول للرسول التي تقدم عليه من الآفاق مثل هذا مع زيادة هامة وهي ان لا يجيبوا الا على ما يسألهم عنه .

وسئل أي الرجال افضل فقال « من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة وترك النصرة عن قوة » .

ومن اقواله المأثورة « لا طمأنينة قبل الخبرة ، فان ذلك ضد الحزم ، وخير المال ما افاد جمعه او دفع ذمماً » .

وكان يقول لمؤدب اولاده « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم اسوأ الناس رغبة عن الخير واقلهم ادباً ، وجنبهم الحثم فانهم لهم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، واطعمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يجدوا وينجدوا ، ومرهم ان يستاكوا عرضاً ويمصوا الماء مصاً ، واذا احتجت ان تتناولهم بضرب فتناولهم بأدب وليكن ذلك سر لا يعلم به احد من الغاشية فيهنوا عليهم » .

وبلغه عن عامل من عماله انه قبل هدية فاستدعاه فلما دخل عليه سأله (اقبلت هدية منذ

وليت ، قال يا امير المؤمنين بلادك عامرة ، وخراجك موفور ، ورعيتك على افضل حال ، فقال له اجب عما سألتك ، قال له نعم ، فقال ان كنت قبلت ولم تعوض انك للثيم ، ولئن عرضت من غير مالك انك لحائن جائر ، وفيما اتيت امر لا تخاو فيه من دناءة او خيانة فلا تعمل لي بعد الآن) .

ولما بلغه خلع ابن الاشعث له - والحديث عن هذا الحادث يأتي في سلسلة الاحداث العامة - سعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال « ان اهل العراق استعجلوا قدرتي قبل انقضاء اجلي ، اللهم لا تسلطنا على من هو خير منا ، ولا تسلط علينا من نحن خير منه ، اللهم سلط اهل الشام على اهل العراق حتى يبلغ رضاك ، فاذا بلغه فلا يجاوز سخطك » .

وقيل له اسرع اليك الشيب فقال كيف لا وانا اعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة او مرتين .

وقد اثر عنه انه كتب للحجاج يقول جنبني دماء بني عبد المطلب ، وشكا انس بن مالك الحجاج حينما كان والياً على الحجاز وذكر خدمته لرسول الله واضرار الحجاج له وقال له فيما قال لو ان يهودياً او نصرانياً خدم موسى او عيسى لعرف بنو نخلته حقه ما استطاعوا ، فلما جاءت الرسالة بكى وغضب وكتب الى الحجاج كتاباً شديداً امره فيه بالسعي الى صاحب رسول الله وخادمه واسترضائه فصدع الحجاج بما امر^(١) .

ولقد روى المسعودي في سياق سيرة مروان بن محمد ان صاحب افريقية حمل الى عبد الملك جارية ذات بهاء وكال تامة المحاسن شبيهة للمتأمل فلما وقفت بين يديه تأمل حسننها ويده كتاب من الحجاج يخبره بوقوفه مع ابن الاشعث في دير الجماجم فرمى بالكتاب عن يده وقال لها انت والله منية النفس فقالت الجارية ما يمنعك يا امير المؤمنين ان تمنعني بيت

(١) روي عن ابن الاثير ما فيه تعليل لما كان من الحجاج نحو انس رضي الله عنه وهو اغتياله هو وابنه الى حركة قردية ضد الحجاج في البصرة بزعامة عبد الله بن الجار . وسيأتي تفصيل ذلك في النبذة التي يهداناها على الاحداث المعكرة في عهد الدولة الاموية .

قاله الاخطل :

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت بأطهار

أألتذ بالعيش وابن الاشعث مصاف لابي محمد وقد هلكت زعماء العرب ، لاهما الله اذاً .

وقد روى ابن كثير عن عمر بن شبه عن اشياخه رواية مسجلة جرت بين عبد الملك والحجاج بها صورة ادبية طريفة وصورة لما كان يجري بين الخليفة وواليه المشهور نوردها بالنسبة وان كان من المحتمل ان تكون مصنوعة لان فيها تعريضاً للحجاج لاسرافه في صرف المال وسفك الدماء ، فقد كتب عبد الملك للحجاج يعتب عليه في اسرافه في صرف الاموال وسفك الدماء ، ويقول انما المال مال الله ونحن خزانة وسيان منع حق او اعطاء باطل .

وكتب في اسفل الكتاب هذه الايات :

وتطلب رضائي في الذي انا طالبه	اذا انت لم تترك اموراً كرهتها
الى الله منه ضيع الدر حالبه	وتخشى الذي يخشاه مثلك هارباً
فيا ربما قد غص بالماء شاربسه	فات ترمي غفلة قرشية
فهذا وهذا كله انا صاحبه	وانت ترمي وثبة اموية
تقم فاعلمن يوماً عليك نوادبه	فلا تعد ما يأتيك مبني فان تعد

وقد كتب الحجاج جواباً يقول فيه جاءني كتاب امير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الاموال والدماء ، فوالله ما بالغت في عقوبة ، ولا قضيت حق اهل الطاعة فان كان ذلك سرفاً فليحد لي امير المؤمنين حداً انتهي اليه ولا اتجاوزه ، وكتب في اسفل الكتاب :

اذاك فيومي لا توارت كواكبه	اذا انا لم اطلب رضاك واتقي
فقامت عليه في الصباح نوادبه	اذا قارف الحجاج فيك خطيئة
ومن لا تساله فاني محاربه	اسالم من سالم من ذي هودة
واقص الذي تسري اليه عقاربه	اذا انا لم ادن الشفيق لنصحه
على ما ارى والدهر جم عجائبه	فمن بطني بومي ويرجو اذا غدي

ومما يروى انه كان اذا جلس للقضاء بين الناس قام السيفون على رأسه ثم ينشد قبل

البده في الفصل بين الناس :

وانصت السامع للقائل	انا اذا ما نالت دواعي الهوى
نقضي بحكم عادل فاصل	واضطرع الناس بألباسهم
نلفظ دوت الحق بالباطل	لا نجعل الباطل حقاً ولا
فنجعل الحق مع الجاهل	نخاف ان تسفه احلامنا

ومن هذا الباب ما رواه الطبري عن المدائني انه دخل على عبد الملك يوم أسلمه بن زيد بن وهب بن نباته الفهمي فقال له اي الزمان ادركت افضل واي الملوك اكمل فقال اما الملوك فلم ار الا ذاماً وحامداً واما الزمان فيرفع اقواماً ويضع اقواماً وكلهم يذم زمانه لانه يبلى جديدهم ويهرم صغيرهم وكل ما فيه منقطع غير الامل ، قال له فأخبرني عن فهم قال هم كما قال الشاعر :

بن عمرو فأصبحوا كالرميم	دريج الليل والنهار على فهم
بعد عز وثروة ونعيم	وخلت دارهم فأصبحت يباباً
وتبقى ديارهم كالرسوم	وكذاك الزمان يذهب بالناس

قال فمن يقول منكم :

يجبون الغني من الرجال	رأيت الناس مذ خلقوا وكانوا
بخيلاً بالقليل من النوال	وان كان الغني قليل خير
وماذا يرتجون من البخال	فما ادري علام وفيهم هذا
ولا يرجي لحادثة الليالي	اللدنيا فليس هناك دنيا

قال انا (١) .

ومن اقواله المأثورة عن نفسه وعن ابن الزبير خصمه ما اعلم مكان احد اقوى على هذا الامر مني ، وان ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ولكن لبخله لا يصلح ان يكون سائساً (٢) .

ومن القصص الادبية الطريفة المروية عن عبد الملك انه دخل عليه كثير الشاعر فقال
 لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراه فقال حيلاً يا امير المؤمنين . إنما المرء بأصغريه قلبه
 ولسانه فان نطق نطق ببيان وان قاتل قاتل بجنان وأنا الذي أقول :

وجربت الامور وجربتني	وقد أبدت عريكتي الامور
وما تخفى الرجال علي إني	بهم لأخو مثاقفة خبير
تري الرجل النحيف تزدريه	وفي أثوابه أسد زئير
ويعجبك الطير فبتليه	فيخلف ظنك الرجل الطير

قالوا ودخل عليه يوماً وهو يتجهز للخروج الى مصعب بن الزبير فقال له ويحك يا كثير
 ذكرتك الان بشعرك فان أصبتك أعطيتك حكمك فقال يا امير المؤمنين كانك لما ودعت
 زوجتك عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك فبكى لبكاها حشمها فذكرت قولي :

إذا ما اراد الغزو لم تثن عزمه	حصان عليها نظم در يزينا
نهته فلما لم تر النهي عاقه	بكت فبكى بما عراها قطينها

قال اصبت فاحتكم ، قال مئة ناقة من نوقك المختارة فقال : هي لك^(١) .

وبما رواه الطبري عن عهد عبد الملك وفيه صورة من صور الحكم والعهد والحياة العربية
 في البلاد المفتوحة أن مسلماً بن زياد والي خراسان استخلف المهلب بن أبي صفرة بعد موت
 يزيد وتنازل معاوية ابنه فلقبه عبد الله بن خازم ، فقال له ؛ اما وجدت في مضر رجلاً
 تستخلفه حتى استخلفت يمانياً وطلب منه أن يكتب له عهداً على خراسان ففعل فقدم
 اليها وتغلب عليها . فلما استتب حكم العراق في سنة ٦٧ لابن الزبير على ما سوف نشرحه
 بعد دخول في بيعته .

(١) ويروي العقد الفريد في هذا السياق ان عاتكة قد كانت اقبلت عليه متزينة فقالت يا امير المؤمنين
 لو قعدت في ظلال ملكك ووجهت اليه كلباً من كلابك لكفاك امره فقال هيئات أما سمعت قول الشاعر :

قوم إذا ما غزوا شدوا مآزرم دون النساء ولو باتت باظهار
 وظل مصرأ على عزيمته فبكت وبكى معها جوارها . وفي هذه الاثناء وفد عليه كثير فجرى
 بينه وبينه ما روينا في المتن .

فلما قضى عبد الملك على حركة ابن الزبير في سنة ٧٢ او ٧٣ ارسل رأس عبد الله بن الزبير الى عبد الله بن خازم وطلب منه أن يدخل في طاعته على أن تكون له خراسان طعمة لمدة عشر سنين أو سبع على اختلاف الروايات . فغسل ابن خازم الرأس وحنطه وصلى عليه ثم أجبر الرسول الذي جاء بكتاب عبد الملك على أكل الكتاب وقال له أرسلك أبو الذبان - وكان خصوم عبد الملك يلمزونه بهذا اللقب - ولولا حرمة الرسل لقتلتك .

فلما رجع الرسول وأخبر عبد الملك كتب الى صاحب شرطة بن خازم بكير بن وشاح السعدي الثقفي كتاباً عينه فيه على خراسان وطلب منه إزاحة ابن خازم فأعلن خلع ابن خازم وصاولة حتى تمكن من قتله وإرسال رأسه الى عبد الملك .

ولقد نشب بعد قليل نزاع بين بكير هذا وبين زعيم بني تميم بحير الصريمي وتعصبت قبيلة كل منها لصاحبه حتى اقتتل الفريقان ثم سعى الوسطاء فأصلحوا بين الزعيمين فخاف أهل خراسان - ويقصد من هذا التعبير وأمثاله أهل الشام وأهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة الخ . . جيوش الفتح الذين خرجوا من جزيرة العرب الى هذه البلاد واستقروا فيها وابناؤهم الذين صاروا أهل الديوان بعدهم - أن يعود النزاع ثانية فتفسد البلاد ويقوى المشركون اعداء العرب فكتبوا الى عبد الملك سنة ٧٤ إن خراسان لا تصلح بعد الفتنة الا على رجل من قريش يسمعون له ويطيعونه ولا يجسدونه ولا يتعصبون عليه فاستشار بعض رجاله فقال له أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد تداركهم برجل منك فقال له لولا انخيازك عن أبي فديك . وهذا من زعماء الحوارج وستأتي قصته في نبذة ثانية مع قصة الحوارج - كنت ذلك الرجل فقال له والله ما انحزت حتى لم أجد مقاتلاً وخذلني الناس فرأيت أن انخيازي الى فئة افضل من تعريضي عصبة من المسلمين للهلكة فقال رجل حاضر صدق أمية يا امير المؤمنين لقد صبر حتى لم يجد مقاتلاً وخذله الناس فولاه خراسان وكان يحبه ويسميه لدته ^(١) وقد قام بالامر قياماً محموداً وكان له بلاء عظيم في ضبط البلاد وتوسيع رقعة الدولة وإرهاب الاعداء حتى ليعد من أعظم رجال الدولة .

وبما روي عنه انه اول من افرد للظلمات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين (استدعاءاتهم بلغة اليوم) وكان اذا وقف منها على مشكل او احتاج فيها الى حكم منفذ رده إلى

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٨٤ وبعدها ج ٥ ص ٣٨ وبعدها

قاضي ابي ادريس الأودي فنفذ فيه احكامه لرهة التجارب من عبد الملك في علمه بالخال ووقوفه على السبب فكان ابو ادريس هو المباشر وعبد الملك هو الأمر (١) .

ويروي ابن خلدون (٢) وصبة رائعة تدل على بصيرة ثاقبة وعقل المعني وصى بها عبد الملك اخاه عبد العزيز حينما عينه والياً على مصر حيث قال له « ابسط بشرك ، وألن كتفك ، وآثر الرفق في الامور فهو ابلغ لك ، وانظر حاجبك وليكن من خير اهلك فانه وجهك ولسانك ، ولا يقفن احد ببابك الا اعلمك مكانه لتكون انت الذي تأذن له او ترده ، فاذا خرجت الى مجلسك فابدأ جلءاءك بالكلام يأنسوا بك وتثبت في قلوبهم محبتك ، واذا انتهى اليك مشكل فاستظهر عليه بالمشورة ، فانها تفتح مغاليق الامور المبهمة ، واعلم ان لك نصف الرأي ولاخيك نصفه ، ولن يهلك امرؤ عن مشورة ، واذا سخطت على احد فأخر العقوبة فانك على العقوبة بعد التوقف اقدر منك على ردها بعد اصابتها .

وبما يروى انه اختار الشعبي ليكون له نديماً وجليساً ، ووصاه بوصايا فيها حدود ما ينبغي له ازاءه تدل على ما كان من حصافة عقله ولطف ادراكه حيث قال له (لا تساعدني على ما قبح ، ولا ترد علي الخطأ في مجلسي ، ولا تكلفني جواب التسميت والتهنة ولا جواب السؤال والتعزية ، ودع عنك كيف اصبح الامير وكيف امسى ، وكلمني بقدر ما استطعتمك واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع الي ، واعلم ان صواب الاستماع اكثر من صواب القول ، واذا سمعتني اتحدث فلا يفوتك منه شيء وارني فهمك من طرفك وسمعك ، ولا تجهد نفسك في نظرية صوابي ، ولا تستدع بذلك الزيادة في كلامي ، فان اسوأ الناس حالاً من استكد الملوكة بالباطل ، وان اسوأ الناس حالاً منهم من استخف بحقيهم ، واعلم ان اقل من هذا يذهب بسالف الاحسان ، ويسقط حق الحرمة ، فان الصمت في موضعه ربما كانت ابلغ من النطق في موضعه وعند اصابتة وفرصته (٣) .

وبما يروى عنه وفيه دلالة على ما كان من بعد نظره وتقديره للرجال والظروف ان

(١) الاحكام السلطانية للماوردي ص ٦٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٥٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .

الحجاج كان يخوفه من آل المهلب لما كان لهم من عصية ونفوذ واسم داو في البصرة وما والاها ويستأذنه في عزل يزيد بن المهلب كيروهم عن خراسان . وبذكره بما كان من اندماجهم في حركة ابن الزبير ووفائهم له - وهذه من الحركات الكبرى التي كادت تقضي على الدولة الاموية على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة - فكان يقول له اني لا اري طاعة آل المهلب لآل الزبير نقصاً بل وفاء وان وفاءهم لهم يدعوهم الى الوفاء لي ، وان كان في النهاية وافق على عزله لكثرة الحاح الحجاج الذي كان له المنزل العظمى والرأي النافذ عند عبد الملك ^(١) .

ومما يرويه المسعودي ^(٢) كظهر من مظاهر رباطة جأش عبد الملك انه خرج في جيش الشام فتزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه وهزيمة الجيش بالليل .

واتاه في تلك الليلة مقتل جيش ابن دجلة وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ثم جاءه خبر دخول نائل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ومسير مصعب ابن الزبير من المدينة الى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر فساد دمشق وان عبيدها واواباشها ودعارها قد خرجوا على اهلها ونزلوا الجبل وان من في سجنها فتحو السجن وخرجوا مكبرة ، وان خيل الاعراب اغارت على حمص وبعلبك والبقاع وغير ذلك بما غي اليه من المفظعات في تلك الليلة فلم ير في ليلة قبلها اشد ضحكاً ولا احسن وجهاً ولا ابسط لساناً ولا اثبت جناتاً منه تلك الليلة تجلداً وسياسة للملك فتروك اظهار الفشل ، وبعث باموال وهدايا الى ملك الروم فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وبها نائل بن قيس فالتقى به باجنادين فقتله وعامة اصحابه وانهزم الباقون ، ونفي خبر قتله وهزيمة جيشه الى مصعب وهو في الطريق فولى راجعاً .

ومن الاحداث الشخصية المعكرة التي كان عبد الملك فيها حازماً بطاشاً حادث عمرو بن

(١) الطبري ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) ج ٣ ص ٤٢ .

سعيد المعروف بالاشدق من بني ابي العاص بن امية ، وقد كان من نبهاء بني امية ورجالها
البارزين وقد وقف موقفاً قوياً الى جانب مروان حتى استتب له الامر مما جعله يسميه ولياً
لعهد بعد خالد بن يزيد ، ويظهر انه خنق على اخلال ذلك وصرف ولاية العهد الى عبد الملك
فأخذ يتربص به ، ولقد خرج عبد الملك من دمشق عام ٦٩ هـ الى حرب بن الزبير في العراق
وبعض انصاره في الطريق فاستخلفه في دمشق فاستحوذ على ما فيها من خزائن وأعلن حكمه
وخطب في الناس فوعدهم العدل والنصف والعطاء الجزيل والثناء الجميل - وهناك رواية
تذكر انه خرج معه ثم انخذل عنه وعاد الى دمشق ففعل ما روى - وحينئذ رجع عبد الملك
وحاصره وتحصن في حصن رومي حصين حتى اعياه فاضطر الى مسابرة بسبب ثورة ابن الزبير
فصالحه على ان يكون ولياً لعهد وان يكون مع كل عامل لعبد الملك عامل له وان يكون
له حرس مثل حرسه ولهم ارزاقهم في بيت المال، ولقد اثار غدر سعيد نعمة عبد الملك فاعتزم
على البطش به ودعاه يوماً اليه ، ونصحه بعض اخصائه بعدم الاستجابة او الاستعداد والخذل
فقال معتداً بنفسه والله لو كنت نائماً ما تخوفت ان ينهني ابن الزرقاء وما كان ليحتوي علي،
ثم ذهب اليه متسلحاً متدرعاً ومعه طائفة من حرسه وانصاره غير ان حرس عبد الملك احتالوا
عليهم حتى حجزوهم عنه ثم احتال عليه حتى اخذ منه سلاحه وقيد يديه بذريعة انه يريد ان
يبر يمين حلفها ثم اجتذبه من كرسية الى الارض فنashده الرحم فقال له ما اجتمع رجلا
أو فطلان مثلي ومثلك في بلد الا اخرج احدهما الآخر ثم امر اخاه عبد العزيز بالاجهاز عليه
وبنيه فتردد هذا فتولى هو بنفسه ذبحه وهو يقول :

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

ثم أمر بالقاء رأسه على انصاره وبالقاء بدر من المال معه فتسارع الناس الى اختطاف المال ،
وحاول يحيى بن سعيد اخوه ان يقوم بحركة ثأرية لأخيه فأخفق ، ثم استرضى عبد الملك اخاه
واحسن جوارهم .

ثم خطب في الناس فقال انه كان الخلفاء من قبلي يا كلون ويؤكلون
والله اني لا اداوي هذه الامة الا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ،
واننا نتحمل منكم كل الغرمة ما لم يكن عقد راية او وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد ،
حقه حقه وقرابة قرابته ، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا، وان الجامعة التي خلعها من

حقه عندي . وقد اعطيت لله عهداً ان لا اضعها في رأس احد الا اخرجها الصعداء فليبلغ
الشاهد الغائب .

ولقد كان في عهد عبد الملك عملاق تنظيميان بعيدا المدى في صدد تثبيت الطابع العربي
على الدولة . وهما ضرب سكة عربية خالصة من الذهب والفضة . ونقل الدواوين من
الفارسية في العراق والرومية في الشام والقبطية في مصر الى اللغة العربية وجعل الطراز
عربياً اسلامياً^(١) .

ولقد ذكر جرجي زيدان في صدد بيان ما كان في زمن الامويين من ظلم واجحاف على
اهل الذمة ان عبد الملك بدل مقدار الجزية التي كانت تؤخذ منهم . حيث كانت في العراق
ديناراً على كل رأس فاستقل ذلك وامر بعمل حساب جديد بحيث يعتبر كل الناس عمالاً
ويحسب ما يكسبه العامل في السنة وتطرح نفقاته من ذلك فظهر انه يبقى بعد ذلك اربعة
دنانير لكل واحد فالزم جميع الناس بهذا المقدار وجعلهم طبقة واحدة .

والى هذا فانه ذكر في الجزء الثاني^(٢) ان الجزية في العراق كانت ديناراً ومدين قمحاً
وقسطين زيتاً وقسطين خلا فجعلها بعد الحساب المذكور اربعة دنانير^(٣) . وبين الخبرين فرق
واضح . حيث يحتمل ان يكون التعديل في مقام اسقاط القمح والزبيب والحل واخذها
بدلاً نقدياً .

ولقد روى زيدان عزواً الى الماوردي^(٤) ان الحجاج كتب لعبد الملك يستأذنه في اخذ
ما يبقى في يد اهل الخراج بعد نفقاتهم فلم يأذن وكتب له قائلاً (لا تكن على درهمك
المأخوذ احرص منك على درهمك المتروك وابق لهم لحوماً يعقدون عليها شحوماً) فالذي
يروى عنه هذا لا يصح ان يمنح الى مناقضته !

(١) سنود بعض البيانات عن هذه المسائل الثلاثة في الفدلكة العامة في آخر الجزء

(٢) ص ٢١٠

(٣) ص ٢٢ ويعزو هذا الجزء الى البلاذري ص ٧٣ وليس في نسخة البلاذري التي في يدنا شيء من
ذلك اما الخبر الاول فلا يعزوه الى مصدر ما

(٤) ج ٢ ص ٢٠

ولقد روي^(١) كذلك عزوا إلى ابن خلدان أن الحجاج ألزم الذين أسلموا بدفع الجزية بالإضافة إلى الخراج مما جعل الموالي ينضمون إلى ابن الأشعث . وإن عبد الملك أمر أخاه عبد العزيز بأخذ الجزية من أسلم في مصر . ولكن عبد العزيز لم ينفذ ذلك حيث استعظمه بعض مستشاريه ونصحه بعدم التنفيذ . وإن عبد العزيز أول من فرض على الرهبان جزية مقدارها دينار . حيث علم أن بعض النصارى كانوا يتلبسون بثوب الرهبنة فراراً من الجزية . وأنه أحصى الرهبان بسبيل الحيلولة دون هذه الحيلة^(٢) .

وإذا صح الخبر الأخير فالمتبادر أن تكون الجزية هي على الذين يشتبه في أمرهم من الرهبان . أما خبر أخذ الجزية من أسلموا فقد ذكر الطبري شيئاً من ذلك في غير عهد عبد الملك على ما سوف نذكره بعد . ولكننا لم نطلع على ما يؤيد ما رواه زيدان من ذلك في زمن عبد الملك وعمله .

ولقد فكر عبد الملك قبل وفاته بسنة في عزل أخيه عبد العزيز من ولاية العهد بعده وجعل الأمر في عقبه . وحسن له ذلك على ما يروي الحجاج وروح بن زنباع حتى قال له هذا أنه لا ينتطح في ذلك عنزان . واثروا في ذلك قصيدة عن عمران بن عصام جاء فيها :

أُمير المؤمنين اليك نهدي	على النأي التحية والسلاما
أجني في بنيك يكن جوابي	لهم عادة ولنا قواما
فلو أن الوليد أطاع فيه	جعلت له الخلافة والذماما
شبهك حول قبة قريش	به يستمطر الناس الغماما
ومثلك في التقى لم يصب يوماً	لدى خلع القلائد والتاماً
فان تؤثر أخاك بها فانا	وجدك لا نطبق لها اتهاما
ولكننا نحاذر من بينه	بني العلات مأثرة سماما
ونخشى أن جعلت الملك فيهم	سحاباً أن تعود لهم جهاما
فلايك ما حلبت غداً لقوم	وبعد غدك بنوك هم العياما

(١) ج ١ ص ٢١٠ ولا يعزو الخبر إلى مصدر

(٢) ج ٢ ص ٢٠ عزوا إلى القريري

فأقسم لو تخطائي عصام بذلك ما عذرت به عصاما
ولواني حبوت أخا بفضل أريد به المقالة والمقاما
لعقب في بني علي بنيه كذلك أو لمرت له مراما
فمن يك في اقاربه صدوع فصنع الملك أبطاه التامأ

وبما يروى ان عبد الملك طلب من أخيه ان ينزل لابنه الوليد عن ولاية العهد باختياره على أن يكون له الامر من بعده فأبى فأمره ان يحمل اليه خراج مصر حيث كان والياً عليها وكان لا يحمل اليه منه شيئاً فكتب له اني واياك يا امير المؤمنين قد بلغنا سنأ لا يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا واني لا ادري اينأ يأتيه الموت اولا فان رأيت ألا تغنت على بقية عمري فافعل فرق له وكتب اليه يقول لعمري لا أفقت عليك بقية عمرك .

ولم ينشب عبد العزيز ان مات بعد قليل فانحل الاشكال فعين ابنه الوليد وسليمان ولين لعده بالتتابع على سنة ابيه واخذ لها البيعة من الناس .

وبما ترويه الروايات ان سعيد بن المسيب احد علماء المدينة ابى ان يبايع الاثنين بذريعة عدم جواز ذلك لأن هناك حديثاً نبوياً يذكر بطلان البيعة الثانية ويحظرها ولكن الوالي لم يقبل فضرب سعيداً او حبسه فلما بلغ ذلك عبد الملك كتب للوالي مؤنباً وأمره باطلاق سراح سعيد .

وعلى كل حال فذكر هذا الحادث يدل على ان اخذ البيعة لولي العهد مر بدون خلاف وشقاق .

ومن العجيب ان لا يعتبر عبد الملك بنفسه وبأخيه فيكرر عمل أبيه بتعيين ولين لعده حيث يدل هذا على ان الظروف كانت تلي ذلك رغم ما ظهر من سوء اثره .

ولقد روى ابن كثير ان عبد الملك جعل اولا ابنه الوليد ولياً لعده . وانه امتعن أولاده بالقرآن وبالشعر . ثم اقترح عليهم معنى يجعلونه في بيت من الشعر ووعد من نجح في ذلك بأن يعطيه ما يطلب فسمع سليمان بيتاً من اعرابي يطابق المعنى فاعتقل الاعرابي وجاء الى ابيه فأنشده البيت فقال أصبت ثم سأله أنى لك هذا فأخبره خبر الاعرابي فقال سل حاجتك ولا تنس صاحبك . فقال يا امير المؤمنين انك عهدت بالامر بعدك للوليد واني احب

ان اكون ولي العهد من بعده فأجابه إلى ذلك وبعثه على الحج واطلق له مئة الف درهم فأعطاهما
للأعرابي . وعزا ابن كثير هذه القصة إلى أبي بكر الصولي . ونحشى ان تكون مصنوعة .

ولقد ذكر الطبري ان عبد الملك جعل ابنه الوليد وسليان وليي عهده واخذ البيعة لهما
معاً في سنة ٨٥ هـ . وهذا قد يدعم ما قلناه من احتمال الصنعة في القصة لأنها ذكرت ان عبد
الملك قد جعل سليان ولياً ثانياً بعد ان اخذ البيعة للوليد بأمد ما ...

ومما يروى ان عبد الملك خطب بعد قتل ابن الزبير فقال فيما قال (ألا واني لست بالخليفة
المستضعف) يعني عثمان (ولا بالخليفة المداهن) يعني معاوية (ولا بالخليفة المافون) يعني
يزيد (ألا واني لا أداوي هذه الامة إلا بالسيف حتى تستقيم بي قناتكم . وانكم
تحفظون اعمال المهاجرين الاولين ولا تعملون مثل اعمالهم وانكم تأمروننا بتقوى الله وتنسبون
ذلك من أنفسكم . والله لا يأمرني احد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه) . وقد
عقب ابن الاثير الذي يروي الخبر على هذا بقوله : انه بذلك اول من نهى عن المعروف .

كذلك مما يروى عنه انه لما جاءته الخلافة كان يقرأ في المصحف فأغلقه وقال هذا آخر
العهد بك او هذا فراق بيني وبينك .

وقد ساق جرجي زيدان هذين الخبرين عن عبد الملك في صدد التدليل على استخفاف بني
أمية بالدين والقرآن^(١) . والمأثورات التي أوردنا طائفة منها عن عبد الملك والتي تذكر ما كان
من تقواه ومواظبته على قراءة القرآن وفقهه وإيمانه تسوغ التوقف في هذه الروايات او على
الأقل تسوغ حملها على محمل آخر حيث يمكن ان يكون هدد المنافقين الذين يأمرون الناس بالتقوى
شغباً ولا يتقون . وحيث يمكن أن يكون قوله عن القرآن ان شغل الخلافة العظيم سوف
يشغله عما اعتاده من كثرة التلاوة إذا صحت الروايات ولا مانع من صحتها وهذا هو الأكثر
اتساقاً مع المأثورات المذكورة كما هو المتبادر .

وقد وصف باقدامه على سفك الدماء والراجح ان الوصف هو بقصد التسويء لانه لم يرو
عنه ما فيه اسراف في ذلك إلا ما كان بسبيل قمع الحوارج وحركة ابن الزبير وقتله عمر ابن

(١ - ٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ، ص ٧٤ - ٧٥ وعزا زيدان الخبر الاول الى ابن الاثير ج ٤

ص ١٩٠ و ٢٥١ والثاني لابي الفداء ج ١ ص ٢٠٥

سعيد الاشدق . وقد اوردنا قصة هذا . وسنلم بالامرین الآخرين في سلسلة الاحداث العامة وهذا وذلك بما تبرره سياسة الملك والحكم .

وفي زمنه وبأمره بني مسجد صخرة بيت المقدس . وقد وكل بذلك رجاء بن حياء ويزيد ابن سلام وجمع له الصناع من اطراف البلاد وارسل الاموال الجزيلة حتى جاء المسجد على أبهى ما يمكن رونقاً وزخرفة . وجعل له قناديل من ذهب وقضة بسلاسل مثلها . وفرشه بالرخام الملون ثم بأنواع البسط وعين له السدنة والطيب والبخور والماورد والزعفران . وبلغ ما انفق على ذلك (٣٠٠ ٠٠٠) مثقال من الذهب في رواية وضعف ذلك في رواية أخرى . فلم يكن على وجه الارض نظير له بهجة ورونقاً .

وقد قال ابن كثير ان الناس افتنوا به وصاروا يفدون اليه من كل مكان والتهوا به عن الكعبة والحج وكانوا يطوفون حوله . وان عبد الملك قد قصد الى ذلك فيما بذله من مال وعناية حتى جاء ما جاء عليه لان الحجاز كان في حكم ابن الزبير . وكان هذا يتخذ موسم الحج وسيلة للدعوة الى نفسه .

ولقد روى يعقوبي هذا الخبر ببيان اوفى ^(١) فقال ان عبد الملك منع اهل الشام من الحج لان ابن الزبير كان يأخذهم بالبيعة اذا حجوا فضج الناس وقالوا تمنعنا من فرض فرضه الله علينا فقال لهم هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم عن رسول الله قال لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي ومسجد البيت المقدس . وهذا يقوم لكم مقام المسجد الحرام وهذه الصخرة التي يروى ان رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة . فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج واقام لها سدنة واخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة واقام بذلك ايام بني امية .

وقد يبدو التعليل بأن المنع كان بسبب اتخاذ ابن الزبير الحج وسيلة الى الدعوة لنفسه واخذ الناس بالدعوة له سائغاً . الا انه متهافت . ونعتقد ان عبد الملك اورع واتقى من ان يكون اراد اقامة زيارة مسجد الصخرة مقام زيارة الحج والطواف حولها مقام الطواف حول الكعبة لان الحج والطواف ركنان اسلاميان بنص القرآن .

(١) ج ٢ ص ٢٦١ طبعة مصر

ولقد روى الطبري واليعقوبي معاً^(١) انه كان في حج سنة ٦٨ اربعة الوية . لواء لمحمد بن الحنفية وانصاره . وثان لعبد الملك بن مروان وثالث لابن الزبير ورابع لنجدة الخارجي حيث يقيد هذا ان عبد الملك كان يسير ركباً للحج في موسم الحج إبان سلطان ابن الزبير على الحجاز ويجعل التعليل المذكور غير وارد . ويجعل الرواية موضع شك كبير حيث صنعت لتسويء سمعة ودين خلفاء بني امية .

والشطر الاول من عهد عبد الملك مضى في المصاولة مع ابن الزبير ثم مع الخوارج . حتى لقد اضطر بسبيل ذلك الى مهادنة الروم وترتيب جعل اسبوعي لهم مقابل ذلك على ما سوف يأتي بيانه في مناسبة اخرى فلما انتهى مما شغله من الفتن الداخلية التفت إلى الروم الذين عادوا ايضاً الى تحريض البربر وتحالفوا معهم في شمال افريقية فتصاول معهم مصاولة شديدة رجحت فيها كفة العرب والاسلام سواء أفي شمال افريقية ام في بلاد الاناضول وسواحلها . وهذا فضلا عن ما كان في عهده من حركات وفتوح ناجحة في بلاد الترك بعد ان تخلص من الفتن والحركات الداخلية ، وكان له في سياق هذه الاحداث وفي سياق الفتن الداخلية اقوال ومواقف تؤيد ما وصف به من صفات ومواهب مما سوف نلم به في سياق سلسلة الاحداث . ولقد كان عبد الملك مواظباً على حث اولاده على اصطناع المعروف ومكارم الاخلاق . وكان يقول لهم (يا بني عبد الملك صونوا احسابكم ببذل اموالكم) . فما يبالي رجل ما قيل فيه من الهجو بعد قول الاعشى :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خصاصا

وما يبالي قوم ما قيل فيهم من المدح بعد قول زهير :

على مكثريهم حق من يعتريهم وعند المقلين السماحة والبذل

ويروى عنه انه كتب لهم هذه الابيات كوصية كانوا ينشدونها بعده :

انقوا الضغائن عنكم وعليكم	عند المغيب وفي حضور المشهد
بصلاح ذات البين طول بقائكم	ان مد في عمري وات لم يمد
فلمثل ريب الدهر الف بينكم	بتواصل وترحم وتودد

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٩٥ واليعقوبي ج ٣ ص ١٤ مطبعة الفري

حتى تلين جلودكم وقلوبكم بمسود منكم وغير مسود
ان القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حق وبطش باليد
عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

وحين حضرته الوفاة جمع اولاده فوصاهم قائلاً : (اتقوا الله ربكم واصلحوا ذات بينكم وليجل صغيركم كبيركم وليرحم كبيركم صغيركم . انظروا اخاكم مسلمة ^(١) فاستوصوا به خيراً . فانه شيخكم ومجنكم الذي تستجنون وسيفكم الذي به تضربون . وانظروا الى ابن عمكم عمر بن عبدالعزيز فاصدروا عن رأيه ولا تخلوا عن مشورته . اتخذوه صاحباً لا تجفوه ووزيراً لا تقصوه . فانه ما علمتم فضله ودينه وذكاء عقله . فاستعينوا به على كل سهم وشاوروه في كل حادث . »

ووصى عمر بن عبد العزيز قائلاً « يا ابا حفص استوص خيراً بأخويك الوليد وسليمان ان زلا فشلهما . وان مالا فاتمهما . وان عقلاً فذكرهما . وان ناماً فأيقظهما . وقد اوصيتها بك وعهدت اليهما ان لا يقطعاً شيئاً دونك » .

فقال له عمر يا امير المؤمنين اوصها بكتاب الله فليقيمها في عباده وبلاده وسنة رسول الله ﷺ فليحيهاها ويحملا الناس عليها فقال قد فعلت ووليي منكم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين .

ورأى الوليد يبكي حين كان يوصيه فقال له ما هذا . أتحزن حنين الجارية والامة . ولا تعصر عينيك كما تعصران . اذا انامت فشم وأتر . وضع الامور عند اقرانها . واتق الله فيما استغلفك فيه . وانهاك واخوتك عن الفرقة . وكونوا اولاد ام واحدة . وفي الحرب احراراً وللمعروف مناراً . فان الحرب لم تدن منية قبل وقتها والمعروف يشيد ذكر صاحبه ويملاء القلوب بالحبة ويدلل الاسنة بالذكر الجميل .

وهذه الاقوال متسقة مع ما وصف به من عقل ومواهب ولقد اجمل ابنه الوليد وصفه ووصف عهده في الخطبة التي خطبها بعد وفاته فقال انه قد صار إلى منازل الابرار بما لاقاه في

(١) كان مسلمة بن امة فلم يكن له نصيب في الملك . وعرف هو حده فوقف عنده . وكان له بلاء عظيم في مجاهدة الروم والارمن في زمن ابيه ثم في زمن اخوته .

هذه الامة من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل واقامة ما اقام الله من منار الاسلام واعلانه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارات على اعداء الله عز وجل فلم يكن عجزاً ولا مفراطاً .

ولقد اختلفت الروايات في عمره بين ٥٨ و ٦٣ سنة وقد دفن في باب الجابية الصغير .
ويبلغ عدد اولاده من بنين وبنات تسعة عشر . منهم من كان امهاتهم ملك يمين ومنهم من امهاتهم عربيات وقرشيات وغير قرشيات .

ويسميه المؤرخون ابا الاملاك حيث ولي الخلافة والملك اربعة من ابنائه . وهم : الوليد وسليمان وهشام وبزيد . بالاضافة الى ثلاثة آخرين من حفدته وهم الوليد بن يزيد وبزيد بن الوليد الاول واخوه ابراهيم .

٦ — الوليد الاول بن عبد الملك^(١)

كان عمره حين تولى الامر بعد أبيه ٣٦ سنة حيث ولد سنة ٥٥٠ هـ . وما روي عن صفاته الجثمانية انه كان طويلاً اسمر به أثر جدري افطس الانف . واذا مشى توكف في المشية . وكان مواظباً على قراءة القرآن حتى روي أنه كان يجتمه في كل ثلاث . وإنه كان يقرأ في رمضان سبع عشرة ختمة . وكان نقش خاتمه (أؤمن بالله غلصاً) في رواية و (يا وليد انك ميت في رواية) حيث يدل هذا على عمق ايمانه وتقواه . وكان رضىاً حازماً حتى قيل انه لم تعرف له صبرة . وظهر منه هذا في اول خطبة خطبها بعد موت ابيه . فقد عدد مزايده على النحر الذي اوردناه في سياق سيرة ابيه ثم قال « أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة . فان الشيطان مع الواحد . أيها الناس من ابدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي بين عينيه . ومن سكت مات بدائه » .

وكان يذهب الى الغزو بنفسه ويقوم الحج للناس بنفسه كذلك من حين لآخر . وقد عطف على اصحاب العاهات من الفقراء فرتب للمقعدين حدماء وللعميان قواداً وللمجذوبين مرتبات وكفهم عن الخروج وسؤال الناس . وهو اول من عمل البيمارستان للمرضى ودوراً للضيافة . وولع بالبناء والعمران ولعاً شديداً حتى انعدى منه الشعب وصار الرجل يلقي الرجل فيقول له ماذا بنيت وماذا عمرت . وامر ولاته بتسهيل الطرق والثنايا وإقامة العلامات والمنازل وحفر الابار فيها . واهتم لهذا الامر بخاصة بالنسبة لمكة والمدينة وطريق الحج . وهو الذي امر بانشاء الجامع الكبير في دمشق . وقد شرع في ذلك في اوائل خلافته واستمر العمل فيه عشر سنين . وجاء آية في الفخامة

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢١٣ وبعدها والامامة والسياسة ج ٢ ص ٧٠ وبعدها مروج الذهب ج ٣ ص ٩٦ وبعدها والعقد الفريد ج ٢ ص ١٦٧ وبعدها ج ٣ ص ٣٧٩ والبدایة والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٧٠ وبعدها وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٣٤ و ج ٥ ص ٤٨٠ وتاريخ البغوي ج ٣ ص ٢٧ - ٣٦ مطبعة الغري سنة ١٣٥٨ هـ .

والوثنق والبهاء . ويروى انه بقي من العمل شيء لم يتم فأتمه سليمان بن عبد الملك الذي ولي الخلافة بعد أخيه .

وفي البداية والنهاية لابن كثير وصف شائق طويل المسجد وكيفية انشائه وما أُنقِ عليه وزينته وزخارفه وروايات عديدة منها العجيب الغريب عن أولية مكانه وما وجد فيه من آثار قديمة وطلسمات يونانية . . .

ولقد جعل سقف الجامع جملونات وباطنها مسطحةً مقرنصاً بالذهب . وجعل غطاء السطح صفائح من الرصاص . وكانت أرضه مفروشة بالرخام المفضض كما كان الرخام يرتفع الى قنات في الجدران . وكان فوق رخام الجدران كرمة عظيمة من ذهب وفوق الكرمة نقوش مذهبة خضراء وحمرات وزرقاء وبيضاء . وقد صورت على جدران البلدان المشهورة . كعبة فوق المحراب والاقاليم مئة ويسرة . وصور ما اشتهرت به الاقاليم من شجر وقر وزهر . وكانت قناديله وسلاسلها من ذهب وفضة . وبما يرويه ابن كثير ان الوليد طالب من ملك الروم أن يرسل له صناعاً ورخاماً لاجل هذا المسجد وهدهد إن لم يفعل بتشديد اغزو على بلاده وبتخريب كنائس النصارى ومن جعلتها كنيسة القيامة . فأرسل اليه رخاماً وصناعاً كثيرين وفي رواية مثنى صانع . وكتب له يقول إن كان أبوك فهم هذا الخي تصنعه وتركه فإنه لوصمة عليك وإن لم يكن فهمه وفهمته أنت لوصمة عليه .

وقد سأل الناس فيما يجب ان يجاب فقال الفرزدق الجواب من كتاب الله حيث يقول داود وسليمان إذ يحكمان في الحث إذ تفشت فيه غم القوم وكننا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) فاعجب الوليد ذلك فأرسل به جواباً .

والرواية غريبة في أصلها وفرعها لان حالة الحرب كانت قائمة فعلا بين الروم والعرب . وجيوش العرب دائبة على غزو ارض الروم صيفاً وشتاء . .

وبما يرويه ابن كثير أنه كان في جانب المسجد كنيسة للنصارى فاراد ان يدخلها في المسجد فساوم النصارى عليها وأرضاهم وعوضهم عنها في رواية واخذها بحق الفتح لانهم رفضوا التنازل عنها في رواية . وقد امر بكتابة قصة بناء المسجد في ثلاث صفائح مذهبة باللازورد كما امر بكتابة بعض السور القرآنية في صفائح مذهبة اخرى . وكانت الكتابة موجهة الى سنة ٣٣٢ هـ على ما رواه المسعودي بهذا النص (ربنا الله . امر ببناء هذا المسجد وهمدم

الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة ٨٧ هـ . وكانت
السور القرآنية على ما رواه ابن كثير هي - الفاتحة - والنازعات - وعبس - والتكوير^(١)
وبلغ ما أنفقه الوليد على المسجد اربعمئة صندوق في كل صندوق اربعة عشر الف دينار في
رواية وضعفها في رواية أخرى اي خمسة ملايين ونصف او احد عشر مليوناً من الدنانير .

وبما روي ان حاجباً قال للوليد ان الناس يقولون ان امير المؤمنين انفق بيوت الاموال
في غير حقها . فنأدى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس أمر خازن بيت المال أن يحضر اموال
بيت المال وبسط لها الانطاع تحت قبة النسر وافرغت ذهباً صبيحاً وفضة خالصة حتى صارت
كوماً لا يرى الرجل رجل صاحبه اذا كان في الجانب الآخر من الكوم . ثم وزنت فاذا هي
تكفي الناس ثلاث سنين في رواية وست عشرة سنة في رواية لو لم يدخل عليها شيء
جديد . ثم قال والله ما انفقت في عمارة هذا المجد درهماً من بيوت المال ولما هذا كله من
مالي . ولم ارزأكم من أموالكم شيئاً . يا اهل الشام انكم تفخرون على الناس بأربع : هوائكم
ومائكم وفاكهتكم وحمائمكم فأجيب ان ازيدكم خامسة . وهي هذا الجامع .

وقد يكون فيما روي من مقدار النفقة وكوم الذهب والفضة العظيم مبالغة ما . ولكن
ذلك يدل على اي حال على ما كانت عليه الدولة الاموية من عظيم الثراء والرخاء .

وبما ذكره ابن كثير ان المنارة الشمالية التي يقال لها مأذنة العروس هي من بناء الوليد .
اما الشرقية والغربية فانها كانتا موجودتين قبل ذلك بدهور متطاولة .

وبما ذكره ابن كثير عزوا الى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال وكني الوليد على العمال
في بناء جامع دمشق . فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك فلما كان الليل وافانا وبين يديه
الشمع فتزل فاذا هي كنيسة لطيفة ثلاثة اذرع في ثلاثة اذرع . واذا فيها صندوق ففتح فاذا
فيه سبط وفي السبط رأس يحيى بن زكريا عليها السلام مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن
زكريا فأمر به الوليد فرد الى مكانه وقال اجعلوا العمود الذي فوقه مغيراً من بين الاعمدة

(١) انظر مروج الذهب ج ٣ ص ٩٧ والبدایةوالنهاية ج ٩ ص ١٤٩ وقد ذكر ابن كثير ان المأمون
عما الكتابة حين زار دمشق . والمسنودي مات سنة ٣٤٦ وصيغته تدل على انه ما كتبه عن وجوه
الكتابة سنة ٣٣٢ هو معاينة . وعلى هذا اما ان يكون ما رواه ابن كثير عن نحو المأمون للكتابة غير
صحيح واما ان يكون المسنودي قال ما قال بدون معاينة وتحقيق .

فجعل عليه عمود مسقط الرأس .

وروي عن الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد انه قال حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد اخرج من البيطة القبيلة الشرقية التي عند مجلس بجيلة فوضع تحت عمود الكاسية . وقال الاوزاعي والوليد بن مسلم هو العمود الرابع المسقط .

وقد اوردنا هذا لان في الجامع الاموي مقاماً يقال له مقام سيدنا يحيى . والخبر غريب على كل حال لان يحيى قتل في القدس وكانت الوثنية هي السائدة في الشام .

وقد اورد ابن كثير عن الوليد بن مسلم خبراً لا يقل غرابة عن ذلك ان الوليد لما أمر ببناء المسجد وجدوا في حائطه القبلي لوحاً من حجر فيه نقش فبعثه الى الروم فلم يستخرجوه ثم عرض على وهب بن منبه فقرأه فاذا هو :

(بسم الله الرحمن الرحيم . ابن آدم . لو رايت يسير ما بقي من اجلك لزهدت في طول ما ترجو من املك . وانما تلقى ندمك لو قد زل بك قدمك . واسلمك اهلك وحشملك . وانصرف عنك الحبيب واسلمك الصاحب والقريب ثم صرت تدعى فلا تحيب . فلا انت الى اهلك عائد ولا الى عملك زائد . فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة . وقبل الحسرة والندامة . قبل ان يحل بك اجلك وتززع منك روحك . فلا ينفعك مال جمعه ولا ولد ولده . ولا اخ تركته ثم تصير الى برزخ الثرى ومجاورة الموتى . فاغنم الحياة قبل الممات والقوة قبل الضعف والصحة قبل السقم قبل ان تؤخذ بالكمظم ويحال بينك وبين العمل . وكتب في زمن سليمان بن داود عليهما السلام) .

والوليد جدد بناء المسجد النبوي ايضاً حيث امر واليه عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد وتوسيعه حتى يكون مثني ذراع عرضاً ومثلها طولاً وشراء ما يحتاج اليه من اصحاب الاملاك المجاورة واستملاكه بالقيمة اذا لم يرضوا ان يبيعوا وقال له ان لك في ذلك سلف صدق في عمر وعثمان . وقد رضي اصحاب الاملاك واخذوا قيمة املاكهم . وقد امر الوليد بحفر الفوارة قرب المسجد وسوق الماء اليها من ظاهر المدينة فتمم ذلك ايضاً .

ويروي الطبري^(١) ان الوليد طلب من ملك الروم مساعدة على بناء هذا المسجد فأرسل

اليه مئة صانع ومئة الف مثقال من الذهب واربعين حملاً من الفسيفساء . وقد روى اليعقوبي هذه الرواية ايضاً عزواً الى الواقدي ^(١) .

وكما رأينا رواية طلب الوليد رخاماً وصناعاً من ملك الروم لمسجد دمشق نرى هذه الرواية غريبة ايضاً وان كنا لا ننفىها . ولقد جاء الى المدينة بعد ذلك في طريقه الى الحج وخطب بالناس في المدينة ووزع عليهم الهدايا والاموال الجليلة .

وبما روي في سياق ذلك وفيه تواضع من الوليد وتوقير للعلماء المسنين انه دخل المسجد وفي ناحية منه سعيد بن المسيب كبير فقهاء المدينة . فقبل له ثم سلم على امير المؤمنين فأبى وظل في مصلاه . ورآه الوليد وعرف انه سعيد بن المسيب واراد عمر بن عبد العزيز ان يعتذر عنه بكبر سنه وضعف بصره فقال نحن نأتيه ثم اقبل عليه وسأله كيف انت ايها الشيخ فقال وهو جالس بخير والمحمد لله فكيف امير المؤمنين فقال له بخير والحمد لله . ثم انصرف وهو يقول هذا بقية الناس .

وبما يرويه اليعقوبي ان الوليد بعث بثلاثين الف دينار الى عامله في مكة فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الاساطين التي داخلها وعلى الاركان والميزاب فكان اول من ذهب البيت في الاسلام ^(٢) . ولما حج حمل الى الكعبة طيباً وكسوة .

ومن النوادر الماثورة عنه ان رجلاً من بني مخزوم شكاه ديناً لزمه فقال نقضيه عنك ان كنت مستحقاً لذلك فقال يا امير المؤمنين وكيف لا اكون مستحقاً في منزلتي وقرايتي . فقال له هل قرأت القرآن قال لا . قال ادن مني فدنا منه فنزع العمامة عن رأسه بقضيب في يده ثم قرعه قرعة وقال لرجل من جلسائه ضم اليك هذا العلج فلا تفارقه حتى يقرأ القرآن . فقام آخر فقال يا امير المؤمنين اقض ديني فقال انتقرأ القرآن قال نعم فاستقرأه عشراً من الانفال وعشراً من براءة فقرأ فقال نعم نقضي دينك وانت اهل لذلك .

ولقد كان شاعراً ايضاً حيث روي له شعر في سياق مساجلة جرت بينه وبين اخيه سليمان فيها صورة ادبية طريفة . فقد اشتكى فبلغه ان اخاه سليمان تمى موته لما له من ولاية العهد بعده . فكتب اليه يعتب عليه الذي بلغه . وكتب في كتابه هذه الايات :

تمنى رجال ان اموت وان امت
لعل الذي يرجو فثائي ويدعي
فما موت من قدمات قبل بضائري
فقل للذي يرجو خلاف الذي مضى
منية تجري لوقت وحفته
فتلك سبيل لست فيها بأوحد
به قبل موتي ان يكون هو الردي
ولا عيش من قد عاش بعدي بخدي
ترود لاخرى غيرها فكأن قد
سلاحقه يوماً على غير موعد

فأجابه سليمان : فبعت ما قال . امير المؤمنين . والله لئن كنت تمنيت ذلك لما يخطر بالبال
اني لاول لاحق به ومنعي الى اهله فعلازم أتمنى زوال مدة لا يلبث متمنياها الا بقدر ما يحل
السفر بمنزل ثم يظعنون عنه . وقد بلغ امير المؤمنين ما لم يظهر من لفظي ولا يرى من لحظي .

ومتى سمع امير المؤمنين من اهل النعمة ومن ليست له روية او شك ان يسرع في فساد
النسب ويقطع بين ذوي الارحام والقربات . وكتب في اسفل الكتاب :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة
وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فكتب اليه الوليد ما احسن ما اعتذرت به وحذوت عليه وانت الصادق في المقال
والكامل في الفعال . وما شيء اشبه بك من اعتذارك . ولا ابعد بما قيل فيك .

وبما روي وفيه صورة من صور الحكم والعهد ان جماعة من العراق هجروا العراق ولجأوا
الى المدينة في ولاية عمر بن عبد العزيز للمدينة فكتب هذا للوليد يقول له ان الحجاج يتعسف
ياهل العراق ويظلمهم ويضطهدهم وعلم الحجاج بذلك فكتب للوليد بدوره قائلاً ان الجماعات
الذين لجأوا الى المدينة هم من اهل الشقاق والمروق وحذره من التساهل معهم وما في ذلك
من وهن على الدولة فأخذ بتحذيره وعزل عمر عن المدينة وعين مكانه عثمان بن حيان . فلما جاء
هذا خطب في اهل المدينة خطاباً شديداً ندد بتستورهم على اللاجئين العراقيين ووصف اهل
العراق بالشقاق والنفاق وقال لا اوتي بأحد آوى احداً منهم او اكراه منزلاً الا هدمت
عليه منزله . وذكر بما كان من موافقهم وقتهم وبما قاله عمر وعثمان وعلي ومعاوية فيهم . ثم
تعتبهم واعادهم تحت الحراسة الى العراق .

كذلك بما روي " وفيه صورة من صور الحكم ان الحجاج عزل في زمنه يزيد بن المهلب عن ولاية خراسان واخاه المفضل عن ولاية كerman واخاه عبد الملك عن شرطته وجبسهم وعذبهم منها ايامهم بال ادخلوه في ذمتهم وطالبهم بستة آلاف الف . فأقره الوليد على ما فعل . ثم استطاع الثلاثة ان يهربوا من سجن الحجاج ويذهبوا الى فلسطين مستعينين بسليمان بن عبد الملك الذي كان يكثر اقامته فيها . فأعاذهم وامنهم وكتب الى اخيه الوليد بهم وضمن له ما بقي في ذمتهم وهو ثلاثة آلاف الف . فطلب الوليد منه ارسالهم اليه مقيدين فناشده ان لا يفضح جواره وارسل معهم ابنه ايوب موثقاً معهم ومعه كتاب من ابيه يعد طريقة ادبية في اللغة العربية رأينا لذلك ايراد نصه . وقد جاء فيه يا امير المؤمنين . فوالله ان كنت لاظن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزله واجرتك انك لا تذلل جواربي ولا تخفرك بل لم اجر الا سامعاً مطيعاً حسن البلاء والاثر في الاسلام هو وأبوه واهل بيته . وقد بعثت به اليك فان كنت امانتعد قطيعتي واخفار ذمتي والابلاغ في مساءتي فقد قدرت ان انت فعلت . وانا اعيدك بالله من احتراء قطيعتي وانتهاك حرمتي وترك بري واجابتي الى ما سألتك ووصلتي . فوالله يا امير المؤمنين ما تدري ما بقائي وما بقاؤك ولا متى يفرق الموت بيني وبينك فان استطاع امير المؤمنين ادام الله سروره ان لا يأتي اجل الوفاة علينا الا وهو لي واصل . ولحقي مؤد . وعن مساءتي نازع فليفعل . ووالله يا امير المؤمنين ما اصبحت بشيء من امر الدنيا بعد تقوى الله بأسر مني برضاك وسرورك . وان رضاك وسرورك احب الي من رضائي وسروري وبما التمس به رضوان الله عز وجل لصلتي ما بيني وبينك . فان كنت يوماً من الدهر تريد صلتني وكرامتي واعظام حقي فتجاوز لي عنهم وكل ما طلبته منهم فهو علي) .

فلما قرأ الوليد الكتاب قال لقد شققنا على سليمان واستدعى ابن اخيه ومعه يزيد بن المهلب فأمنه ورده الى سليمان وكتب الى الحجاج ان يكف طلبه عن آل المهلب .

ولقد فكر الوليد في اواخر ايامه في صرف ولاية العهد عن اخيه سليمان الى ابنه عبد العزيز واستشار بعض رجاله فحبذ بعضهم له ذلك ومنهم قتيبة بن مسلم والي خراسان والحجاج ابن يوسف والي العراق .

ولقد طلب من اخيه ان يتنازل وعرض عليه اموالا كثيرة فأبى فاستدعاه الى الشام فلم

يستجيب وظل معتصماً برملة فلسطين . واغرى الوليد جريراً فقال :

إذا قيل أي الناس خير خليفة أسارت إلى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق الناس كلهم بها وما ظلموا فبايعوه وسارعوا

وقال أيضاً يحضه على البيعة لعبد العزيز :

إلى عبد العزيز سمت عيون الرعية إذا تحيرت الرعاء
إليه دعت دواعيه إذا ما عناد الملك خرت وساء
وقال أولو الحكومة من قریش علينا البيع أن بلغ الغلاء
رأوا عبد العزيز ولي عهد وما ظلموا بذلك وما أساؤوا
فإذا تنظرون بها وفيكم جسور بالعظام واعتلاء
فرحلتها بأزمها إليه أمير المؤمنين إذا تشاء
فإن الناس قد مدوا إليه اكفهم وقد برح الحفءاء
ولو قد بايعوك ولي عهد لقام الوزن واعتدل البناء

وامر ولاته بأن يأخذوا البيعة لعبد العزيز فسارع قتيبة والحجاج ومحمد بن القاسم إلى التنفيذ . ولكن الوليد لم يلبث أن توفي دون أن تتم البيعة فذهب جده سدى . حيث سارع سليمان إلى دمشق فأقبل الناس على بيعته واستتب له الأمر .

ولقد كان عهد الوليد خالياً تقريباً من الفتن الداخلية فانصرف اهتمامه واهتمام رجال عهده إلى الفتوح وتم في عهده فتوحات عظيمة في بلاد الترك وعلى حدود الهند في المشرق والأندلس في المغرب . وكان عهده من أعظم العهود الأموية والعربية والإسلامية ثروة وعزة وهيبة وسلطاناً .

وقد روي أنه جاءته في يوم واحد بثائر بثلاثة فتوحات في أنحاء مختلفة فكان يسجد لله شاكرًا عند كل بشارة .

ولقد أثرت له أقوال ومواقف أخرى غير ما ذكرنا في سياق الأحداث العامة مما سوف نلم به في مناسباتها .

ولقد خلف من الاولاد ستة عشر . وفيهم يقول جرير .

وبنو الوليد من الوليد ينزل كالبدر حف بواضعات الانجم

وقال رجل من اهل الشام فيهم ليس من ولد الوليد احد الا ومن رآه حسب انه من افضل اهل بيته حيث بدل هذا وذاك على ما كانوا عليه من صفات ومواهب .

ولقد رثى جرير الوليد بهذه الايات :

يا عين جوذي بدمع هاجه الذكر	فما لدمعك بعد اليوم مدخور
ان الخليفة قد وارت شمائله	غبراء ملحدة في جولهها زور
اضحى بنوه وقد جلت مصيبتهم	مثل النجوم هوى من بينها القمر
كانوا جميعا فلم يدفع منيته	عبد العزيز ولا روح ولا عمر

٧ — سليمان بن عبد الملك ^(١)

تولى الامر وهو في نحو الاربعين من عمره ، وما روي عن صفته الجمانية انه كان طويلاً جميلاً ابيض نحيفاً حسن الوجه ، ووصفت اخلاقه ومزاجه بأنه كان فصيحاً بليغاً يحسن العربية ويرجع الى دين وخير ومحبة للحق واهله واتباع القرآن والسنة ، واظهار الشرائع الاسلامية ، ولم يكن صاحب لمر حتى روي انه نفى المغنين . وكان عضد اخيه الوليد القوي ووزيره ومشيره . وهو الذي شجعه على انشاء مسجد الشام واشرف عليه . وقد اطلق حين تولى الامر سراح كثير من المسجونين واعتق كثيراً من الاسرى والمماليك وكساحم حتى روي ان عدد ما اعتقه منهم كان سبعين ألفاً . واتخذ عمر بن عبد العزيز وزيراً له ومشيراً وجعله ولياً لعهده . وكان هذا مشهوراً بالقوى والورع والدين والعقل والعدل ، فعد الناس كل هذا من حسنات سليمان وقالوا عنه انه افتتح بخلافته بخير واختتمها بخير وكانت يمناً وبركة .

ولقد اتته بشائر الخلافة وهو في اللقاء او في الرملة فانتقل الى القدس وجلس في صحن المسجد وقد بسطت البسط ووضع عليها النار والكراسي والى جانبه الاموال والكساوي وآنية الذهب والفضة .

ثم اذن لوفود الاجناد التي جاءت لمبايعته فأخذت تدخل عليه فيوزع عليهم الاموال والكساوي ويستمع لمطالبهم ويقضيها فما طلب احدهم شيئاً الا نوله مرامه ثم انتقل الى دمشق حيث اقبل الناس على بيعته واستتب له الامر .

وكانت اول خطبه بهذا النص الدال على فصاحته وحسن دينه وتقواه :

(١) هذه التنبؤة مقتبسة من الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٧٨ . وبعدها وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٧٢ وبعدها ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١١١ والعقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٣٢٨ وج ٣ ص ١٦٩ وبعدها والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٦٦ وبعدها وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٤-١٥ وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٣٦-٤٣ مطبعة الغربى .

الحمد لله الذي ما شاء وضع . وما شاء رفع . وما شاء صنع . وما شاء اعطى .
وما شاء منع . إن الدنيا دار غرور . ومنزل باطل . وزينة قلب . تضحك باكياً
وتبكي ضاحكاً . وتخيف آمناً وتؤمن خائفاً وتفقّر مثيراً وتثري فقيراً . فهي لآعبة بأهلها
فعليكم ايها الناس ان تجعلوا كتاب الله لكم اماماً وإن ترضوا به حكماً . انه يحلو كيد
الشیطان كما يحلو ضوء الصبح اذا تنفس ادبار الليل اذا عسعس .

ومن اقواله المأثورة : (الصمت منام العقل والطق يقظته ولا يتم هذا الا بهذا) .

ودخل عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقته ثم فتشه فلم يحمد عقله فقال : (فضل منطق
الرجل على عقله خدعة ، وفضل عقله على منطقته هجنة ، وخير ذلك ما اشبه بعضه بعضاً) .

ومن اقواله كذلك (العاقل احرص على اقامة لسانه منه على طلب معاشه . ان من تكلم
فأحسن قادر ان يسكت فيحسن ، وليس كل من سكت فأحسن قادراً على ان يتكلم فيحسن) .

ومنها (أكلنا الطيب ولبسنا اللين . وركبنا الفاره ، ولم يبق لذة الا صديق اطرح معه
فيما بيني وبينه مؤونة التكليف) .

وتوفي ابنه الاكبر ايوب فوق على قبره وقال (اللهم اني ارجوك له واخافك عليك
فحقق رجائي وامن خوفي) .

وله كلمة قوية في الاعتزاز بالدولة الاموية وعز العرب في ظلها فلما لرجل حذره من
رجال تكفوه وترلفوا اليه وكان يعرف ان ميله الى الهاشمين وهي الا تزال العرب بسلطاننا
لا كنف العز متبوة ، ولا تزال دولتنا بكل خير مقبلة ، ولئن ساس لآة غيرنا ليحمدن
ما ما اصبحتم تدمون) .

وكان ينظم الشعر ، ومن مأثور شعره :

وَمِنْ شِعْمِي اِنْ لَا اِفَارِقَ صَاحِبِي	وَإِنْ مَلَنِي إِلَّا سَأَلْتُ لَهُ رَشْدَا
وَإِنْ دَامَ لِي بِالْوَدِّ دَمْتُ وَلَمْ أَكُنْ	كَآخِرٍ لَا يَرْعَى ذِمَامًا وَلَا عَهْدَا

وكان يستمع للموعظة ويبكي لها . فقد روي انه ادخل عليه ابو حازم احد علماء وصالحاء
التابعين من اهل المدينة فدارت بينه وبينه مساجلة طويلة قد لا تخلو من الصنعة لان فيها
تعريضاً لظلم بني امية وحيدتهم على الحق والعدل غير ان هذا لا يمنع ان يكون فيها شيء من

الصحة . فمن ذلك انه سأله اي العمل افضل فقال اداء الفرائض مع اجتناب المحارم فسأله
اي القول اعدل فقال كلمة حق عند من تخاف وترجو . فسأله فاي الناس اعقل فقال من
عمل بطاعة الله . فسأله اي الناس اجهل فقال من باع آخرته بدنياه . فقال له عظمي
واوجز فقال يا امير المؤمنين نزه وبك وعظمه بحيث ان يراك تجتنب ما نهاك عنه ولا
يفقدك من حيث امرك به . فبكى سليمان بكاء شديداً^(١).

وبما يروى ان والي العراق خالد بن عبد الله القسري طلب رجلاً قرشياً فهرب منه ثم
كتب الى سليمان يستجير من الوالي فكتب سليمان للوالي بأن لا يعرض له وحمل
القرشي الكتاب بنفسه فلما دخل عليه امر بضربه مائة سوط قبل ان يقض كتاب سليمان
ثم فضه فلما قرأه قال له هذه نعمة الله اراد ان ينتقم منك فلم اقرأ الكتاب قبل ضربك .
فارجع الرجل الى سليمان فاخبره بما جرى له فلم يكن من سليمان الا ان وجه شخصاً من قبله
امره ان يضرب الوالي مائة سوط . وفي هذا يقول الفرزدق :

لعمرى لقد صبت على ظهر خالد شأبيب ليست من سحاب ولا قطر

أضرب في العصيان من ليس عاصياً

وتعصى أمير المؤمنين أخا قسّر

فخذ بيدك الحزبي حقاً فانما

جزيت قصاصاً بالمرجرجة السم^(٢)

وبما يروى عنه أنه سمع مغنياً في عسكره فطلبه فجاؤوه به فقال اعد ما غنيت فغنى
واحتفل فقال والله لكانها جرجرة الفعل في الشول وما احسب أننى تسمع هذا الا صبت اليه
ثم امر به فمضى

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٩٧ وبعدها ومروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ١١٤
الموقف تمة رائعة فيها صورة لما كان عليه العلماء والوعاظ من جرأة وتعفف . فقد قال بعض الجلساء
اي حازم اسرفت على امير المؤمنين . فقال اسكت فان الله قد اخذ الميثاق على العلماء لبيئته للناس
ولا يكتمونهم . وارسل سليمان اليه مالا . بعد انصرافه فردّه وقال للرسول قل لأمير المؤمنين اني لا
ارضاء لك فكيف ارضى به لنفسى ولست اريد ان آخذ ثمن ما قلت له . ومثل هذه المواقف بين
العلماء والوعاظ وبين الخلفاء كثير .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١١٦

وروي عنه كذلك انه كان في بادية له يسمر على ظهره فدعا بوضوء فجاءت به جارية فبينما هي تصب لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح أخذ يبحث حتى عرف المغني الذي شغلت الجارية بغنائه . ثم أقبل على جلسائه فقال : (صدر الجمل فقبعتنا الناقة ونبت التيس فشقرت الشاة . وهذل الحمام فزاخت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة .) ثم امر به فخصي وسأل عن الغناء ابن اصره فقليل له في المدينة جماعة الخنثين وهم أمته والحدائق فيه فكتب الى عامله هناك أخص من قبلك من الخنثين المغنين فخصام^(١).

ومما يرويه يعقوبي ان سليمان امر عامله على مكة خالد بن عبد الله ان يحفر عن بئر ماء عذب في مكة ويحمره الى الحرم فيحفر في اصل جبل ثبير واستنبط ماء عذبا أجراه الى المسجد الحرام واظهره في فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن والمقام . وانه خطب بعد ذلك في الناس فقال احمدوا الله وادعوا لأمر المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب بعد الملح الأجاج الذي لا يطاق شربه وهو يعني بماء زمزم وان اهل مكة ظلوا مصرين على ورود زمزم وشرب ما بها وان الفسقية ظلت قائمة والماء ينبط منها الى زمن الدولة العباسية فهدمها داود بن علي العباسي اول وال عباسي على مكة .^(٢)

وحج مرة بالناس فاخبر أن طاووس في المسجد وكان من علماء وصلحاء التابعين فارسل اليه فدخل عليه فسكت طويلا ثم قال (أتعلمون من أبغض الخلق الى الله قالوا لا قال عبد أشركه الله في سلطانه فعمل فيه بمعاصيه) ثم نهض وخرج فجزع سليمان جزعا شديداً . وسأل عمر بن عبد العزيز يوماً وقد اعجبه سلطانه كيف ترى ما نحن فيه فقال سرور لولا أنه غرور . وحياة لولا انها موت . وملك لولا انه هلك . وحسن لولا انه حزن . ونعمة لولا انه عذاب أليم فبكى .

ومع ذلك فقد روي عنه انه كان متأنقا في لباسه حيث كان جميع ما يلبسه من الوشي جيا به وعمائه وإزره وسراويله وكان يأمر خدامه وطباخيه بلبس الموشى . ولا يدخل الناس عليه الا وعليهم اللباس الموشى حتى انعدى الشعب بذلك وصار له عادة في زمنه

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٣٥ عزوا الى المسعودي والاغانى وقد اوردنا الروايات لما فيها من صورة ادبية وفنية مع شكتنا في صحتها وبخاصة في امر سليمان بخضي المغنين
(٢) ج ٢ ص ٢٩٤

ومما يروى في هذا الباب انه لبس مرة لباساً موشى اخضر وتعتطر وخرج الى الجامع يوم الجمعة فخطب وصلى بالناس ثم عاد مزهواً ونظر الى نفسه بالمرآة فاعجبه فقال معتداً بنفسه انا الملك الشاب السيد المهاب الكريم الوهاب ، ورأى جارية له يتخطاها تنظر اليه فقال لها كيف ترين امير المؤمنين قالت اراه منى النفس وقرة العين ، لولا ما قال الشاعر ، قال وما قال قالت قال :

انت نعم المتاع لو كنت تبقى
انت من لا يرينا منك شيء
غير ان لا يقساء للناس
علم الله غير انك فانت

فتشاءم ولم يرض عليه قليل حتى توفي .

ويروى انه كان كذلك نهماً كثيراً الاكل وكان ذلك سبب موته لانه اكل فاتخم . وقد رويت روايات عجيبة عن اكله لا يمكن ان تصدق ، من ذلك انه اصطحب يوماً باربعتين دجاجة مشوية واربع وثانين كلوة بشحمها وثنانين جردقة ثم اكل في السباط العام مع الناس كالعادة ، ومن ذلك انه استعجل الطعام في الطائف ولم يكن قد جهز فاتوه برمان فأكل سبعين ثم يجدي وست دجاجات فأكلاً ثم بزبيب فأكل قدراً كبيراً ، ثم نعى فنام فلما افاق اتوه بالغداء فأكل كالعادة ومن ذلك انه اكل مرة جدياً مشوياً ثم دجاجتين هنديتين ثم جريرة ثم نام فلما انتبه صاح بالخدام يا غلام أفرغت من غدائي قال نعم قال وما هو قال ثمانون قدراً قال انتني بها قدراً قدراً فأكل من كل قدر ثلاث لقم واستلقى الى ان حان وقت الغداء فأكل مع الناس كالعادة . ومن ذلك انه اكل مرة اربعمئة بيضة وسلتين من التين فاتخم ولم يلبث ان مات بالتخمة .

ولقد روى السعودي عن الاصمعي انه ذكر للرشد بنهم سليمان وتناوله الفراريج بكمه من السفايد فقال له قاتلك الله ما اعلمك بأخبارهم . فقد عرضت علي جباب بني امية فنظرت الى جباب سليمان واذا في كل كم منها اثر من دهن فلم ادر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث ، ثم قال علي بجباب سليمان فاتي بها فنظرنا في ذلك فاذا تلك الآثار ظاهرة ، فكساني واحدة منها .

ومع كل ذلك فقد روي انه كان نحيف البنية على ما اوردها قبل حيث يبدو من ذلك ان الروايات مصنوعة للتزلف الى العباسيين .

وقصة الاصمعي التي يرويها المسعودي المتوفي في اواسط القرن الرابع دليل قوي على ذلك
فما كان من المعقول ان تصل جباب بني امية الى الخلفاء العباسيين وتحفظ موسومة باسماء
اصحابها وعليها آثار الدهن والشحم .

ولقد سجل على نفسه عملاً شائناً بما كان من معاملته الفظة لموسى بن نصير وابنه عبد العزيز
فاتحى الاندلس بسبب موقف ولائي من موسى نحو اخيه الوليد مس كبرياهه وخالف به
رغبته متجاهلاً ما كان منها من خدمة جلي للاسلام والعروبة والدولة الاموية .

فقد اراد موسى بن نصير ان يقدم على الوليد بن عبد الملك بعدما تيسر له ما تيسر من الفتح
العظيم في الاندلس فتوجه نحو الشام ومعه العجيب من الطرف والمدايا .

وكان الوليد مريضاً ، فأرسل اليه سليمان رسولا يحمل كتاباً منه بأن لا يعجل فان
الوليد في آخر رمقه . فلما قرأ موسى الكتاب قال والله ما اغدر ولا ابطء ولا اعجل
بل اسير بمسيري فان اوافه حياً لم اخلف عنه وان عجلت منيته فأمره الى الله ، فلما بلغ الى
الرسول سليمان قول موسى غضب وآلى على نفسه ليصلبن موسى اذا ظفر به . ووصل موسى
والوليد حي وقدم اليه الطرف والمدايا . وما لبث ان مات ، وحدثت الخلافة الى سليمان . فلما جاء
الى دمشق استدعى موسى وعاقبه واشتد في التنديد به واغلظ له ، فقال موسى والله ما تأخذ
علي ذنباً إلا انني وفيت للخلفاء قبلك وحافظت على حق الولاء والنعمة عندهم . فلم يبال
باعتذاره وامر بايقافه في يوم صائف شديد الحر فظل واقفاً حتى سقط من الحر والعياء ، وتشفع
عمر بن عبد العزيز به فعفا عن دمه ولكنه فرض عليه فدية عظيمة ذكرت بعض الروايات
انها اربعة آلاف دينار ولم يكن له اليها سبيل آنئذ فطاف على الناس يسألهم فيها حتى
أداها .

وكان لهذا الحادث ذيل مرير . فان موسى خلف ابنه عبد العزيز نائباً عنه في الاندلس
وكان من اعظم المساعدين لأبيه فيما تم على يديه من فتوح فلما بلغه ما صنعه سليمان بأبيه اظهر
حنقه وغيظه فبلغ ذلك سليمان فخاف من تمرده فأغرى حبيباً بن ابي عبيدة به فتمرده عليه وقتله
ثم احتز رأسه وأرسله اليه ، ولما جاء الرأس الى سليمان عرضه على ابيه فتجلد للمصيبة وقال
هنيئاً لله بالشهادة وقد قتلتموه والله صواماً قواماً .

وعقب ابن الاثير على هذه العبارة التي رواها ان قتله كان بعد من زلات سليمان ، لأنه كان خيراً فاضلاً .

ولقد روى ابن الاثير مع ذلك رواية اخرى لسبب قتله وهي انه كان تزوج بأرملة العاهل الاسباني المقتول لذريق فغلبت عليه وجعلته يفتح باباً قصيراً الى مجلسه حتى يتطأطأ الناس الداخلون عليه كأنما ير كعون له على طريقة الافرنج وانما عملت له نجاً من ذهب ولؤلؤ فشاغ بين المسلمين انه تنصر فناروا عليه وقتلوه (١) .

وصحة الرواية تتحمل شكاً كبيراً ونرجح انها اشيعت لتبرير قتله اذا كانت صحيحة .

ومن هذا الباب ما كان منه نحو قتيبة فاتح بلاد الترك ومحمد بن القاسم فاتح بلاد السند .

ولقد كان قتيبة ومحمد والحجاج حبذوا الوليد رأيه حينما استشارهم في صرف ولاية العهد عن اخيه سليمان الى ابنه عبد العزيز وايدوه فحقد عليهم حقداً كبيراً ، فلما صارت الخلافة اليه عزل محمداً عن ولاية السند وعين والياً جديداً مكانه وامره باعتقاله وارسله مكبلاً الى واسط حيث عذب هناك مع بعض انصاره ثم قتلوا .

وكان لهذا العمل رنة اسي في بلاد الهند والسند حيث روي انهم بكوا عليه واحتفظوا بصورة وتمثال له عندهم ، وقد رثاه حمزة الحنفي مذكراً ما كان من جهاده العظيم طيلة سبع عشرة سنة :

ان المروءة والسماحة والندی	لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة	يا قرب ذلك سودداً من مولد (٢)

اما ما كان من امر قتيبة فهناك روايات متعددة ، منها واحدة تبدو عجيبة مع انها اكثر الروايات شهرة حيث تذكر ان قتيبة كتب لسليمان حينما صارت اليه الخلافة ثلاثة كتب ارسلها مع رسول يثق به ووصاه ان يسلم الاول اولا فان القاه الى يزيد بن المهلب

(١) انظر خبر موسى وابنه في الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٣-٩٢ والطبري ج ٥ ص ٢٨٦ وتاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٨ .

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ٤٤٥-٤٤٦ .

فيسلمه الثاني فان القاه الى يزيد فيسلمه الثالث ، وانه كتب له في الاول يهنئه ويبايعه .

وفي الثاني يذكر بلاءه بالفتوح وولاءه للخلفاء ويجذره من عزله وتعيين يزيد بن المهلب مكانه . وفي الثالث يعلنه خلعه ويقول له سوف املأ الارض خيلا عليه ، وان سليمان القي الاول والثاني الى يزيد كما قدر قتيبة واحتفظ بالثالث وقد تعر منه وجهه ، واعطى الرسول جائزة وكتب لقتيبة يشبه في الولاية . وان قتيبة لم يطمئن فأعلن خلع سليمان ودعا الناس الى تأييده . وان القسم الاعظم من الجيوش العربية التي كانت تحت يده في خراسان لم تستجب لدعوته ورأت في الخلع فساداً للدين ومصلحة المسلمين والتفت حول زعيم بني تميم وكيع وكانت قتيبة دامية قتل فيها قتيبة وابناؤه واقاربه ، وكتب وكيع بالامر الى سليمان وارسل اليه رأس قتيبة فعينه والياً مكانه .

وعناك رواية اخرى يذكرها الطبري وهي ان قتيبة لم يخلع وان وكيعاً تجنى عليه حين علم بمحمد سليمان عليه طمعاً في منصبه وانتقاماً منه لانه كان عزله عن عمل كان يعمله في ولايته وألب قومه ومن يمت اليهم بالاولشاج القبلية فالتفوا عليه وقام بحركة تمردية ضده فكان ما كان من اشتباك بين وكيع وجماعته من ناحية وقتيبة وذويه من ناحية قتل فيه قتيبة وكثير من ذويه .

وهذه الرواية اكثر احتمالاً للصحة لانها تبدو معقولة اكثر من الاولى ، وقد تكررت حوادث طموح الطامحين الى المناصب وقيامهم بالحركات التمردية بسبيل ذلك مما مر منه بعض الامثلة وما يرد منه امثلة اخرى في نبذ آتية .

ولقد روى الطبري ما يعزز هذه الرواية حيث روى ان سليمان عزل وكيعاً بعد اشهر قليلة لان بعضهم خوفه من غدره وعدم اخلاصه ، وعين مكانه يزيد بن المهلب ، وان بعض من نجا من ذوي قتيبة شكوا الى سليمان بما كان من تجني وكيع وقالوا له ان قتيبة لم يخلع ، وان سليمان امر الوالي الجديد بالتحقيق في المسألة فاذا قامت النية على عدم صحة خلع قتيبة فيوقع القصاص على وكيع لأنه يكون قد قتل قتيبة وجماعته بغير حق ، وان الوالي اعتقل وكيعاً وبعض جماعته وحبسهم وعذبهم^(١) .

(١) تاريخ الطبري ٥- ٢٨١-٢٨٥ .

وقد رأينا مؤلف النجوم الزاهرة يذكر خبر قتيبة بصيغة أخرى حيث قال دون عزو إلى مصدر ان سليمان كان نتماً على قتيبة لانه خلعه في أيام اخيه الوليد - يعني وافق على خلعه من ولاية العهد - فلما ولي الخلافة بعث اليه من قتله بعد امور وحروب (١) . وعلى كل حال فالمبتادر ان قتيبة ذهب ضحية حققد سليمان ونقمته .

ولقد كان قتيبة عظيم الجهاد وقد أدى جهاده الى توسيع رقعة السلطان العربي الاسلامي وتوطيده ونشر الاسلام في المشرق .

وكان من احسن الولاة خبطاً للامور وعدلاً في الرعية وتأميناً للامن حتى كانت الظعينة تخرج من مرو الى بلخ بغير جواز فلا يعترضها احد ، وكانت اعطيات الجند توزع كاملة فضلاً عما كان يلا أيديهم من الغنائم مما اثر في خطبته التي خطبها الناس حيناً ثار عليه بنو تميم بزعامة وكيع (٢) ؛ بحيث يصح ان يعد من اعظم رجال الدولة الاموية والعرب .

ولقد اثار قتله الناس حتى ان احد رجال العجم قال مندداً بالعرب لو كان قتيبة من افات لجعلناه في ثبوت واستصرنا به اذا غزونا واستمطرنا به اذا اجذبنا (٣) .

ولقد رثاه الشعراء ومنهم عبد الرحمن الباهلي الذي روي له فيه هذه الابيات :

كأنت ابا حفص قتيبة لم يسر	بجيش الى جيش ولم يعل منبرا
ولم تحقق الرايات والقوم حوله	وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه	وراح الى الجنات عفأ مطهرا
فما رزىء الاسلام بعد محمد	بمثل ابي حفص فبكىه عبهرا

ومنهم الاصح بن الحجاج الذي روي له هذه الابيات :

ألم يأن للاحياء ان يعرفوا لنا	بلى نحن اولى الناس بالمجد والفخر
تقود تيمماً والموالي ومذججاً	وازد وعبد القيس والحلي من بكر

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢-٣) نفس المصدر السابق .

نقتل من سننا بعزة ملكنا
سليان كم من عسكر قد حوت لكم
وكم من حصون قد اجننا منيعة
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا
مرت على الغزو والجرو ووفرت
وحق لو ان النار شبت واكرهت
تلاعب اطراف الأسنة والقنا
بهن اجننا اهل كل مدينة
ولو لم تعجلنا المنايا لجاوزت
ولكن آجالا قضين ومدة
ونجبر من سننا على الحسف والقسر
أسننا والمقربات بنا تجري
ومن بلد سهل ومن جبل وعر
غزونا نقود الحيل شهراً الى شهر
على النفر حتى ما نبال من النفر
على النار خاضت في الوغى لهب الجمر
بلباتنا والموت في لجج خضر
من الشرك حتى جاوزت مطلع الفجر
بناردم ذي القرنين ذا الصخر والقطر
تناهى اليها الطيبون بنو عمرو^(١)

وبما رواه الطبري ان سبعة آلاف من الموالي بزعامة حيان النبطي - وهو حسب تعريف الطبري خراساني ديلمى سمي نبطي للكنة في لسانه - المجازوا الى وكيع وجماعاته ضد قتيبة . وان حياناً ارسل الى وكيع يقول له هل تجعل لي خراج جانب نهر بلخ ما دمت حياً اذا كففت عنك واعتك ، فأجابه بالايجاب فقال حيان لقومه ان هؤلاء العرب يقتلون على غير دين اي لم تكن غايتهم في القتال نصرة الدين - فدعواهم يقتل بعضهم بعضاً ففعلوا وبايعوا وكيعاً سراً . ولما قتل قتيبة وصارت الولاية لوكيع وفي حيان بما وعده^(٢) . حيث يبدو في الخبر صورة من صور كيد العجم للعرب .

ولقد استمر حيان في مكائده ضد العرب واغتنام فرص اختلافهم للدرس بينهم على ما سوف نذكره في مناسبات اخرى مما جعل سورة بن الحر احد زعماء الجند في خراسان يقول عنه لسعيد خدينه احد من تولوا خراسان ان هذا العبد اعدى الناس للعرب والولاة وانه هو الذي افسد خراسان على قتيبة^(٣) .

(١) ان الطبري قال ان الفصيذة رثاء لقتيبة . ويبدو انها رثاء فخري لتعداد ما كان من جهاد قتيبة وبلاته وفتوحاته . انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٨٥ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) ابن الاثير ج ٥ ص ٣٧ .

ولقد كان الحجاج مات قبل موت الوليد بقليل فنجا من حقد سليمان فصب نغمته على عماله فغزاهم وسلمهم الى يزيد بن المهلب وامره ان يعذبهم ويستخرج الاموال منهم ، وعزل كاتبه يزيد بن مسلم واستحضره مكبلا بالحديد .

وقد روي في سياق ذلك مساجلة طريقة بين سليمان وهذا الكاتب حيث اُقال له سليمان حينما ادخل عليه مكبلا بالحديد ما رأيت كاليوم قط . لعن الله رجلا أجرك رسنه وحكمك في امره فقال له يزيد لا تفعل يا امير المؤمنين . فانك رأيتني والامر عني مدبر وعليك مقبل ولو رأيتني والامر مقبل علي لاستعظمت مني ما استصغرت ولاستجالت مني ما استحققت . قال صدقت لا ام لك اجلس ، ثم قال له عزمت عليك لتخبرني عن الحجاج ماظنك اتراه يوي بعد في جهنم ام قد استقر فيها . قال يا امير المؤمنين لا تقل هذا في الحجاج فقد بذل لكم نصحه . واحقن دونكم دمه . وآمن وليكم واخاف عدوكم . وانه يوم القيامة يكون على بين ابيك عبد الملك ويسار اخيك الوليد ، فاجعله حيث شئت ^(١) . فصاح سليمان ، اخرج عني الى لعنة الله ، ثم التفت الى جلسائه فقال قبحه الله ، ما كان احسن ترتيبه لنفسه ولصاحبه ، ولقد احسن المكافاة ، اطلقوا سبيله .

وبما رواه الطبري ^(٢) وفيه صورة من صور الحكم وصلاحات الولاة والعمال ان سليمان ولى يزيد بن المهلب حين صارت اليه الخلافة حرب العراق وخراجها وصلاحها ، اي جميع السلطات الادارية والعسكرية والمالية فقال يزيد في نفسه ان العراق قد احرقها الحجاج وانا اليوم رجاء اهلها ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبته صرت مثله فادخل عليهم الحرب واعيد عليهم السجون وقد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بما كان يأتي به الحجاج لم يقبل مني . فقال لسليمان ادلك على رجل بصير بالخراج توليه اياه قال نعم فسمى له صالح بن عبد الرحمن فوافق عليه ، فلما قدم يزيد الى العراق خرج صالح للقاء يزيد وبين يديه

(١) روى شارح ديوان الفردوق الصادي كلاماً آخر ليزيد في نفس المعنى (انه اذل لكم الأعز ووقع لكم الأعداء ، ووطأ لكم المناير وزرع لكم المحبة في قلوب الناس) .

(٢) منح جميع السلطات لتكريم والتوسيع . وعلى كل فانقضاء لم يكن داخل في صلاحات الولاة وكان مستقلاً ، وهناك روايات تفيد ان بعض الولاة كانوا ولاية اداريين فقط ، وكان للحرب متول خاص والخراج متول خاص لسوا تعيين للولاة تبعية مطلقة والرواية وروايات اخرى تفيد ان متولي الخراج كان يتولى الجباية والاتفاق معاً (الطبري ج ٥ ص ٢٨٧—٢٨٨) .

اربعمائة من اهل الشام فقال له قد فرغت لك هذه الدار فانزل فيها ففعل ثم صار يضيق على يزيد فلم يملكه شيئاً . واتخذ يزيد الف خوان يطعم الناس عليها فاخذها صالح ، فقال له يزيد اكتب ثمنها علي . واشترى يزيد متاعاً وحك صكا كالأصالح لي دفع ثمنها للبيعة فلم ينفذها فرجعوا الى يزيد فغضب وقال هذا عملي بنفسي . فلم يلبث ان جاء صالح فلما جلس قال له ما هذه الصكاك التي ارسلتها الي . ان الحراج لا يقوم لها ، قد انقضت لك منذ ايام صكا بمئة الف وعجلت لك ارزاقك ، وسألت مالا للجند فأعطيتك ، فهذا لا يقوم له شيء ، ولا يرضى امير المؤمنين به وتؤخذ به ، فقال له يزيد يا ابا الوليد اجز هذه الصكاك هذه المرة وضاحكه فقال اني اجيزها على ان لا تكثرون على فوعده بذلك .

ولقد اخذ سليمان بولاية العهد لابنه ايوب فمات في حياته ، فلما شعر بدنو اجله اراد ان يأخذ البيعة لابن آخر له ما يزال فتى حدثاً فاستشار رجاء بن حياة احد كبار رجاله فقال له ان مما يحفظ الخليفة في قبره ان يولى على المسلمين الرجل الصالح . فاستشاره في ابن آخر له اسمه داود كان مع جيش القسطنطينية فقال له انه غائب عنك لا تدري اهو ميت ام حي فسأله رأيه في عمر بن عبد العزيز فاثني عليه . ولكن خوفه من خلاف اخوته عليه وأشار عليه ان يجعل الولاية من بعده لاخته يزيد حتى يرضوا بذلك .

فعمل برأيه وكتب كتاب العهد وختمه وامر صاحب شرطته ان يستدعي رجال بني امية ويأخذ بيعتهم على ما في الكتاب وان يضرب عنق من يأبى فبايعوا واحداً بعد آخر بدون خلاف .

فلما مات جمع الناس في مسجد دابق وطلب منهم البيعة ثانية على ما في الكتاب ففعلوا ثم فتح الكتاب فقرأه فاغضب هشاماً أخا سليمان واراد ان يتنعم فأنذره صاحب الشرطة بضرب عنقه فوضح وبايع .

وهناك رواية يرويها ابن قتيبة ان عمر بن عبد العزيز دخل على سليمان في مرضه الذي مات فيه فدعا بنين له صغاراً فقلدهم السيوف فوقعوا فقال سليمان قد افلح من كان له بنون كبار ، فقال ليس هذا ولكن الله يقول (قد افلح من تركى وذكر اسم ربه فصلى) فقال سليمان اني اريد ان اعهد اليك واوليك امور الناس بعدي . فقال عمر لا حاجة لي بذلك فقال له ولم فقال لاني لا اريد اخذ اموالهم ، فاذا لم ارد اخذ اموالهم فما الذي يدعوني الى ضرب ظهورهم

فقال سليمان لا بد . من هذا ، فقال له ولم ذلك ولك في ولد عبد الملك سعة فأعفني من هذا يعف الله عنك ، فقال سليمان والله لا اوليها غيرك بعدي فاني رأيت في منامي قائلاً يقول لي ان عمر بن عبد العزيز لك جنة ووقاية وجسر تتخطاه فاولت ذلك ان اوليك الامر بعدي لتكون توليتك جنة لي من النار . وجسراً اركبه ، ثم لي زيد بعدك فانه ارشد ولد عبد الملك . فسكت ثم دعا سليمان بصحيفه فكتب فيها عهده ثم دعا برجاء بن حياة فقال له خذ هذا الكتاب فانه عهدي فأجمع قريشاً وامراء الأجناد وخذ منهم البيعة لمن اسمه فيه فمن نزع عن ذلك واباه فالسيف السيف والقتل . ثم رفع يديه الى السماء فقال اللهم ان ذنوبي قد عظمت وجلت وهي صغيرة يسيرة في جانب عفوك اللهم ان كنت تعلم اني انما اردت بعهدي هذا وجهك ورضاك فاغفر لي ثم تخلخل واغشي عليه ولم يلبث ان مات .

ولقد روى الامام ابن قتيبة نص كتاب عهد سليمان . وقد يلح فيه صنعة لمشايبته لعلم الكلام وما كان يدور في عهد متأخر من الصدر الاسلامي وفي عهد العباسيين بخاجة من مسائل القدر والجبر والحلق والجنة والنار وليس هناك ما يمكن ان يثبت او ينفي ان هذه المسائل مما اخذ يدور في زمن سليمان اي على رأس القرن الثاني للهجرة . وفيه على كل حال صورة من صور التفكير الاسلامي وقوة الإيمان بالله واليوم الآخر والخوف منه في ذلك الزمن . وهذا هو النص :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به عبد الله سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين وخليفة المسلمين عهد انه يشهد بالله ربوبية والوحدانية . وان محمداً عبده ورسوله بعثه الى محسني عباده بشيراً والى مذنبهم نذيراً ، وان الجنة والنار مخلوقتان حق ، خلق الجنة رحمة لمن اطاعه ، والنار عذاباً لمن عصاه . واوجب العفو لمن عفا عنه ، وان سليمان مقرر على نفسه بما يعلم الله من ذنوبه موجباً على نفسه استحقاق ما خلق من النعمة واجباً لنفسه ما خلق من الرحمة ووعد من المغفرة ، راج لما وعد من الرحمة ، وآن المقادير كلها خيرها وشرها من الله ، وانه هو الهادي لم يستطع احد من خلق الله لرحمته غواية ولا لمن خلق لعذابه هداية . وان الفتنة في القبور بالسؤال عن دينه ونبيه الذي أرسل الى امته لا منجى لمن خرج من الدنيا الى الآخرة من هذه المسألة ، وسليمان يسأل بواسع فضله وعظيم منه الثبات على الحق عند تلك المسألة ، والنجاة من هول تلك الفتنة ، وان الميزان حق يقين يضع الموازين القسط ليوم القيامة فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك هم الخاسرون . وان حوض محمد ﷺ يوم الحشر حق عدد آنيته كنجوم السماء ، من شرب منه لم يظمأ ابداً .

وسليمان يسأل الله برحمته ان لا يرده عطشان ، وان ابا بكر وعمر خير هذه الامة بعد نبينا ﷺ ، والله يعلم بعدما حيث الخير وفيمن الخير من هذه الامة ، وان هذه الشهادة المذكورة في عهده هذا يعلمها من سره واعلانه وعقد ضميره . وان بها عبد ربه في سالف ايامه وماضي عمره وعليها ايتاء يقين ربه وتوفاة اجله وعليها يبعث بعد الموت ان شاء الله ، وان سليمان كانت له بين هذه الشهادة بلايا وسيئات لم يكن عنها يحسن ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ في محكم الوحي ، فان يعف ويصفح فذلك ما عرف منه قديماً ونسب اليه حديثاً وذلك الصفة التي وصف بها نفسه في كتابه الصادق وكلامه الناطق ، وان يعاقب وينتقم فيما قدمت يداه وما الله بظلام للعبيد ، واني اخرج من قرأ عهدي وسمع ما فيه من حكمه ان ينتهي اليه في امره ونهيه بالله العظيم وبمحمد ﷺ وان يدع الأحن ويأخذ بالمكارم ويرفع يديه الى السماء بالابتهال الصحيح والدعاء الصريح يسأله العفو غني والمغفرة لي والنجاة من غرعي والمسألة في قبوري ، لعل الودود ان يجعل منكم مجاب الدعوة بما علي من صفحه يعود ان شاء الله ، وان ولي عهدي فيكم وصاحب امري بعد موتي في كل من استخلفني الله عليه الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ابن عمي لما باوت من باطن امره وظاهره ورجوت الله بذلك وارادت رضاه ورحمته ان شاء الله ، ثم لي يزيد بن عبد الملك من بعده فاني ما رأيت منه الا خيراً ولا اطلعت له على مكروه وصغار ولدي وكبارهم الى عمر اذ رجوت ان لا يألوهم رسداً وصلاحاً والله خليفتي عليهم وهو ارحم الراحمين ، واقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ومن ابي عهدي وخالف امري فالسيف ، ورجوت ان لا يخالفه احد ، ومن خالفه فهو ضال مضل يستعقب فان اعتب والا فالسيف ، والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله القديم الاحسان (١) .

ولقد كانت وفاته لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ هـ في معسكر دابق من اعمال قنسرين في ولاية حلب . ويروى في صدد ذلك انه لما جيز الجيوش وارسلها الى القسطنطينية ودعها في هذا المعسكر ثم آلى على نفسه ان لا يرجع حتى يتم الفتح او يموت قبله ، وظل في مكانه فوافته منيته فيه . وهكذا ختم حياته بالرباط في سبيل الله .

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

عمر بن عبد العزيز بن مروان^(١)

•

يجمع المؤرخون على انه اصلح خلفاء بني امية واتقاهم واورعهم واعفهم واتبعهم لكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين ويجعلونه خامس هؤلاء الخلفاء^(٢). والمآثورات القولية والفعلية الكثيرة عنه تبرر ذلك تبريراً قوياً وتجعله مفخرة من مفاخر ملوك العرب والمسلمين على مر الدهور. ولا يمنع هذا من القول انه يلمح شيء من المبالغة والصنعة في بعض الروايات وقصد ابراز نقائص ومظالم غيره من الخلفاء الامويين بالمقارنة به. في حين ان المآثورات القولية والفعلية لهؤلاء الخلفاء تثبت انهم لم يكونوا دونه كثيراً في الدين والورع والتقوى والتزام الحق والانصاف والاتسام بالحق والحكمة والسادات. وقد راينا أن ننبه على ذلك في هذه المناسبة.

ولقد تولى الحكم وعمره ست وثلاثون سنة ونيف. وامه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب وقد روي عن نافع بن عبد الله بن عمر ان جده عمر قال ان من ذريتي رجلاً بوجهه شجة يبي الامر فيملاً الارض عدلاً. وكان عمر بن عبد العزيز أشج نتيجة لرمحة بغل احابته في صغره. فلما تولى وظهر من سيرته ما ظهر قيل انه المقصود.

وقد وصف بأنه كان اسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين.

ومما يروى ان اياه عبد العزيز لماعين والياً على مصر في زمن اخيه عبد الملك بن مروان ان يأخذه معه فقال له لعل غير ذلك انفع لي ولك قال وما هو قال ترحلني الى المدينة فأقعد الى فقهاها واتأدب بأدبهم ففعل فكان لذلك اثر قوي فيما صار اليه من تضح وعلم ورشد وورع وتقوى

(١-٢) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢١٦-٢١٧ والامة والسياسة ج ٢ ص ١٠٤-١١٢ والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ١٨٤-٢١٩ وتاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ١٥-٢٥ واليعقوبي ج ٣ ص ٤٤-٥٢

ولقد كان والياً على المدينة في زمن الوليد وهو الذي باشر بهدم المسجد النبوي وشراء الاملاك التي حوله وتجديده وتوسيعه على ما ذكرناه في سيرة الوليد .

وبما روي انه جمع اعلم واورع عشرة من فقهاء المدينة فقال لهم اني دعوتكم لامر تؤجرون عليه وتكونون فيه اعراناً للحق . ما اريد ان اقطع امراً الا برايكم او رأي من حضر منكم . فان رأيتم احداً يتعدى او بلغكم عن عامل له ظلامة واحرج الله على من بلغه ذلك الا بالغي . ثم صار لا يقطع امراً دونهم او دون من حضر منهم (١) .

وروي عن انس بن مالك قوله عنه (اما صليت وراء امام اشبه صلاة بصلاة رسول الله من هذا الفتى حين كان والياً في المدينة) وروي عن مجاهد وهو من كبار علماء التابعين قوله (أتينا عمر نعلمه فيما برحنا حتى تعلمنا منه) وعن ميمون بن مهران وهو صنود قوله (كان العلماء عند عمر تلامذة وفي رواية كان عمر معلم العلماء) وقال رجل له صجة مع ابن عمر وابن عباس (ما التمسنا علم شيء الا وجدنا عمر بن عبد العزيز اعلم الناس باصله وفرعه)

ولقد قريء كتاب سليمان العهدي أعلى الناس فلما سمع بعض بني امية اسمه ابوا . فقال له رجاء بن حياء انما الفتنة قد فتح بابها فما نحن صانعوه . قال لا ادري ما اقول لاني والله ما وقفت موقفاً لا راي لي فيه ولا بصيرة الا موقفي هذا فاني اجدني قد ذهب روعي وفقدت رأيي . ولو استطعت الفرار لفررت حيث لا ادرك ولا ارى فقال له رجاء فأين نحن يا ابا حفص من المفزع الى الله والرغبة في الصلاح علينا وعلى المسلمين ويعزم الله لنا على ما فيه الخير فقال بلى والله هذا الملبأ . وهكذا قوي عزمه على مواجهة الموقف . وتوعد رجاء كل من تسول له نفسه بالعصيان فرضخوا وبايعوا وانحسم الشر .

ولقد خطب بعد ذلك اولى خطبه في مسجد دابق فقال ايها الناس ان لي نفساً تواقه . لا تعطى شيئاً الا تاقت الى ما هو أعلى منه . ولما اعطيت الخلافة تاقت نفسي الى ما هو أعلى منها وهي الجنة فأعينوني عليها يرحمكم الله . وهناك نص آخر لاولى خطبه قد يكون فيها تأكيد لما رويناه في سياق سيرة سليمان عن اعتذاره حينما قال له هذا اريد ان استخلفك من بعدي حيث قال ايها الناس اني ابتليت بهذا الامر من غير رأيي كان مني ولا طلبة له ولا مشورة من المسلمين . واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي فاخاروا لانفسكم ولا مركم من تريدون . فصاح الناس صيحة واحدة قد اخترناك لانفسنا وأمرنا .

وعينئذ أخذ يوصيهم بتقوى الله ويعدهم بان لا يعطي احداً باطلا ولا يمنع أحداً حقاً .
وليس ما يمنع ان تكون هذه الخطبة وتلك في موقف واحد .

ويروي ابن قتيبة ان الناس لما علموا باستخلاف سليمان لعمر لم يكن يعرف اكثر
دعوة له بالرحمة والبكاء عليه من ذلك اليوم . فلم يبق محب ولا مبغض ولا خارجي ولا
خروري الا اخذ الله له بقلوبهم ورضي الناس اجمعون وبايعوه بيعة جامعة تامة لا
يشوبها غش ولا يخالطها دنس .

وحينما خرج من مسجد دابق بعد البيعة والخطبة قدمت له مراكب الخلافة فقال
مر كبي اوفق لي . وقيل له تعال الى منزل الخلافة فقال فيه عيال ابي ايوب وفي
فسطاطي كفاية حتى يتحولوا . فأقام في منزله حتى فرغوه بعد .

ويروي انه باع تلك المراكب وما وجدته في منزل الخلافة من فرش وصيرغنه الى بيت
المال . ورآه مولاه مغتماً حينما عاد فقال له مالك مغتماً وليس هذا بوقت هذا فقال له ويحك
ومالي لا اغتم وليس من احد من اهل المشرق والمغرب من هذه الامة إلا وهو يطالبني
بحقه ان اؤديه اليه كتب الي بذلك او لم يكتب وطلب شيئاً او لم يطلب ثم امر
منادياً ينادي الا من كانت له مظلمة فليرفعها . وكانت اولى مظلمة رفعت اليه من
ذمي من اهل حمص على العباس بن الوليد باغتصاب ارض له . فسئل العباس فقال
أقطعنيها أمير المؤمنين فقال كتاب الله أولى فقم ورد عليه ضيعته ففعل وتتابع الناس في
رفع مظالمهم فما رفعت مظلمة الا ازالها أكانت على بني أمية أم غيرهم .

وكان يتعقب ما في حوزة بني أمية بنوع خاص من اموال الدولة واملاكها
فيستردها منهم ويسميها المظالم . وقرع هؤلاء الى عمه له كانت كبيرة السن والمقام فيهم
تراجعت وقالت له بنو اخي يمانون في زمانك وتأخذ اموالهم وتعطيها لغيرهم
ويسبون عندك فلا تتكسر فحاول ان يقنعها بما هو عليه من حق وبما يجب عليه من اتباع
سنة رسول الله وخلفائه الراشدين . فخرجت لتقول لهم هذا ما فعلتموه في انفسكم
فروجتم بنات عمر نجاه اولادها شيبين به .

وبما روي وهو تناسب مع هذا الباب أنه جمع وجوه قریش وفيهم اقاربه فقال لهم ان

فذلك كانت بعد رسول الله صلعم فكان يضعها حيث شاء ثم وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فكانوا يجعلونها في مصلحة المسلمين . ثم اقطعت لمروان . واني اشهدكم اني قد رددت نصيبي منها الى ما كنت عليه الامر في زمن الخلفاء الراشدين ثم امر بني مروان ببرد ما في ايديهم منها الى بيت المال . فكان هذا وذلك بما اثار الحرف والنقمة في نفوس بني امية حتى روي انهم رشوا مولى له بدس السم له حتى يخلصوا من عواقب تصرفه (١)

ولقد كانت قبل توليه الخلافة ميسوراً حتى ان دخله كانت اربعين الف دينار . وكان متنعماً حتى انه كان يشتري الحلة بألف دينار وكانت يستخشن أقمشة الحرير اللينة . فرد معظم دخله الى بيت المال واشتفى بثلاثمائة درهم منه وصار يشتري حله بالدرهم المعدودة ويلبس الخشن من الأقمشة . وقيل له ان عمر بن الخطاب كان يأخذ رزقه من بيت المال فقال انه لم يكن له مال وأنا لي مال يغنيني .

وبما روي انه رفض ان يأكل لحماً مشوياً في المطبخ العام وان يغتسل بماء سخن في المطبخ العام . وانه كان له سراج يكتب عليه مسائله الخاصة وسراج يكتب عليه مسائل المسلمين العامة . وانه كان مع ذلك يوسع على عماله في النفقة ويقول انهم اذا كانوا في كفاية تفرغوا لاشغال المسلمين .

وبما يروي أن رجاء بن حياة أحد كبار رجال الدولة سمر عنده ليلة فعمي سراجيه فقال يا امير المؤمنين الا أوقف الغلام ليصلحه . فقال دعه ينأى فاني لا احب أن اجمع عليه عملين . فقال افلا أقوم فاصلحه . فقال لا ليس من المروءة استخدام الضيف ثم قام فاصلحه وصب فيه زيتاً ثم قال تمت وأنا عمر بن عبد العزيز وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز !!

وتشاجر ابن له مع ولد فشج الولد ابنه فأتوا به وامه معه فسألها عنه فقالت إنه يتيم فقال اكتبوه في الذرية في الديوان فقالت زوجته أيشج ابنك وتكتبه في الديوان فقال إنه يتيم وقد اخفتموه .

(١) انغشى ان تكون هذه الروايات من نوع ما قصد به اظهار مظالم بني امية وغدوانهم على فذلك واموال واملاك الدولة على ما نبهنا عليه في مطلع النبذة .

وجاء جرير الشاعر المشهور وكان من عادته ان يفد على خلفاء بني امية فيمدحهم ويأخذ جوائزهم فمدحه بقصيدة متناسبة مع ما عرف من دينه وورعه وعدله وهي :

قد طال قومي اذا ما قمت مبتهلا	يارب أصلح قوام الدين والبشر
إننا ل نرجو اذا ما الغيث اخلفنا	من الخليفة ما نرجو من المطر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت	أم قد كفاني ما بلغت من الخبر
ما زلت بعدك في هم يؤرقني	قد طال في الحل إصعادي ومنحدر
لا ينفع الحاضر المجهود باديه	ولا يعود لنا باد على حضر
كم باليامة من شعناء ارملة	ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به	خبلا من الجن او مساً من البشر
فان تدعهم فمن يرجون بعدكم	أو تنج منها فقد انجيت من ضرر
هذي الارامل قد قضيت حاجتها	فمن حاجة هذا الارمل الذكر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا	لسنا اليكم ولا في دار منتظر
أنت المبارك والمهدي سيرته	تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور

فبكى عمر وقال له ارفع حاجتك الينا . فقال ما عردي الخلفاء . اربعة آلاف دينار وكسوة . فقال له أأنت ممن انشاء المهاجرين أأنت ممن انشاء الانصار فقال لا . فقال له أأنت من فقراء المسلمين قال نعم قال انا اكتب لعامل بلدك يجري عليك ما يجري على فقرائنا فأبى وانصرف . فاستعاده وقال له عندي نفقة وكسوة أعطيك بعضها ثم وصله بأربعة دنانير وكساه بعض كسوته . وقال له والله انها لمن خالص مالي ولقد اجهدت لك نفسي . فقال جرير والله يا امير المؤمنين انها لاحب مال كسبته .

ثم خرج فلقبه الناس فقال جئتكم من عند خليفة يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه راض ثم أنشدهم :

تركت لكم بالشام جبل جماعة	أمين الثوى مستحصد العقد باقيا
وجدت رقى الشيطان لا تستقره	وقد كان شيطاني من الجن راقيا ^(١)

ووفد عليه كذلك من الشعراء كثير والاحوص ونصيب فلم يتعد ما وهبه لكل منهم مئة وخمسين درهماً .

وقد اورد ابن كثير قصيدة كثير دون الآخرين وفيها ثناء عظيم على سيرة عمر و اخلاقه ودينه وبخاصة اشارة تنويية الى منعه شتم علي رضي الله عنه وقد جاء فيها :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف	بريئاً ولم تقبل اشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي	اتيت فأمسى راضياً كل مسلم
ألا انما يكفي الفتى بعد ريعه	من الأود النادي ثقاف المقوم
وقد لبست تسعى اليك ثيابها	ترأى لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض احياناً بعين مريضة	وتبسم عن مثل الجمات المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما	سقتك مذوقاً من سمام وعلقم
وقد كنت من احبالها في منع	ومن مجراها في مزبد الموج مفعم
وما زلت توافاً الى كل غاية	بلغت بها اعلى البناء المقدم
فلما اتاك الملك عفواً ولم تكن	لطالب دنيا بعده في تكلم
تركت الذي كان يقنى وان كان مو	نقاً وآثرت ما يبقى برأي مصمم
واضرت بالغالي وشمرت لسذي	امامك في يوم من الشر مظلم
ومالك اذ كنت الخليفة مانع	سوى الله من مال رعيت ولادم
سما لك هم في الفؤاد مؤرق	بلغت به اعلى المعالي بلم
فما بين شرق الارض والغرب كلها	مناد ينادي من فصيح واعجم
يقول امير المؤمنين ظلمتني	بأخذك ديناري واخذك درهمي
ولا بسط كف لامريء غير مجرم	ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا	لك الشطر من اعمارهم غير ندم
فغشن بها ما حج الله راكب	ملب مطيف بالمقام وزمزم
فاربح بها من صفقة لمبايع	واعظم بها اعظم بها ثم اعظم ^(١)

(١) من المروي أيضاً انه امر بتلاوة هذه الآية بعد خطبة الجمع بدلا من الشتم (إن الله يأمر بالعدل والاحسان الى آخر الآية من سورة النحل) وفي رواية الآية من سورة الحشراني فيها (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا في الايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا .)

ومما يروى انه خير امرأته بين ان تقيم معه على انه لا فراغ له وبين ان تلحق بأهلها فبكت وبكى جواريا ثم اختارت المقام معه على اي حال . وانه كان لها ثوب منسوج بالذهب مطرز بالدر اهداه اليها ابوها عبد الملك وكلفه مئة الف دينار ، فقال لها اختاري بيني وبين هذا الثوب فلم تردداً من ان تتخلي له عن الثوب فباعه وصير ثمنه الى بيت المال .

ودخلت عليه زوجته يوماً وهو جالس في مصلاة ودموعه تسيل على خده فقالت له مالك فقال لها وبحك . اني قد وليت من امر هذه الامة ما وليت ، فتفكرت في الفقير الجائع والمريض الضائع ، والعاري المجهد ، واليتيم المكسور ، والارملة الوحيدة والمظلوم المقهور . والاسير ، والشيخ الكبير ، وذوي العيال الكثير والمال القليل واشباههم في اقطار الارض واطراف البلاد فقلت ان ربي سيسألني عنهم يوم القيامة ، وان خصمي دونهم محمد فضخيت ان لا تثبت لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت .

ولقد اثر عن زوجته قولها فيه : (ما رأيت احداً اكثر صلاة وصياماً منه . ولا احداً اشد فرقاً من ربه منه كان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه . ثم ينتبه فيبكي حتى تغلبه عيناه . ولقد يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من امر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء ويجلس فيبكي فاطرح عليه اللحاف رحمة له . وانا اقول يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وروى ابن كثير عزوا الى ابن عساكر انه كان يعجبه جارية من جوارى زوجته ، وكان سألها اياها اما بيعاً واما هبة فكانت تأبى عليه ، فلما ولي الخلافة وهبتها له والبستها وطبتها وادخلتها عليه فاعرض عنها فقالت له يا سيدي اين ما كان يظهر لي من محبتك ، فقال والله ان محبتك لباقية كما هي . ولكن جاءني امر شغلني فلم يبق لي حاجة في النساء ، ثم سألها عن اصلها فقالت انها من سبي المغرب اتى بها موسى بن نصير . فسألها ان كانت تود الرجوع فقالت بلى فأعتقها وامر بردها مكرمة الى بلادها واهلها .

ومما رواه كذلك انه امر جارية تروحه حتى ينام فروحته ، ثم اخذتها سنة من النوم فاستيقظ فأخذ المروحة من يدها وجعل يروحها ويقول اصابك من الحر ما اصابني .

ومما يروى ان عمر سأل خادمه ماذا يقول الناس ، فقال له كلهم بخير ، وانا وانت بشر .

قال وكيف ذلك فقال عهدتك قبل الحلافة عطراً لباساً فارده المركب طيب الطعمام فلما وليت رجوت ان استريح واتخلص فزاد عملي شدة وصرت انت في بلاء . فقال له اذهب عني فانت حر . ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجاً .

ويروي ان ميمون بن مهران قال كنت عند عمر بن عبد العزيز فكثير بكاؤه ومسألته ربه الموت فقلت له لم تسأل الموت وقد وضع الله على يديك خيراً كثيراً . أحيا سنناً وأمات بدعاً . فقال أفلاً أكون مثل العبد الصالح الذي قال (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين) (١) .

ولقد جاء مولى عمر الى ابنه عبد الملك فقال له ان اياه يعتزم ان يرد كل فيه الى بيت المال . وانه قال له ان هذا يضير به وباخوته وانه نهاه عنه . فقال له عبد الملك بشس وزير الخليفة انت ثم قام فدخل على ابيه وقال له ان مولاه مزاحم اجره بكذا وكذا فقال له اني اردت ان افعله عشية فقال لابيه عجل به فما يؤمنك ألا يحدث ما حدث . فرفع عمر يديه فقال الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على دينه . ثم قام من ساعته فرد نصيبه . وهذا بما يصدق عليه (الولد سرايه) .

ومن هذا الباب ما روي ان عبد الملك قال لابيه يا ابت ما لك لا تنفذ الامور . واني لا ابالي لو ان القدر غلب بي وبك في الحق . فقال له عمر لا تعجل يا بني . فان الله ذم الخمر في القرآن مرتين ثم حرمها في الثالثة . وانا اخاف ان احمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ويكون من ذلك فتنة .

ومن هذا الباب ما روي من ان بني امية جاؤوا الى عمر حين تولى فأخبره الحاجب فقال وما يريدون . قال ما عودهم الخلفاء قبلك فقال له ابنه وهو في الرابعة عشرة إنذن لي في ابلاغهم عنك . قال وما تبلغهم . قال اقول لهم ان ابي يقرئكم السلام ويقول لكم اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

ولقد اثرت عنه نصوص كتب عديدة لعماله متسقة مع ما عرف عنه من ورع وتقوى

(١) هذا القول جاء في آية سورة يوسف (١٠١) على لسان يوسف عليه السلام .

وعدل . ومن كتبه المأثورة كتابه لعبد الرحمن القشيري والي خراسان جاء فيه :

(كن عبداً لله ناصحاً له في عباده . ولا تأخذك فيه لومة لائم . فان الله أولى بك من الناس . وحقه عليك اعظم . ولا تولين من امور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم والتوفير عليهم . وأد الامانة فيما استوعبت فيه . وإياك ان يكون ميلك الى غير الحق . فان الله لا تحفى عليه خافية . ولا تذهبن عن الله مذهباً . فانه لا ملجأ من الله إلا اليه) .

ومنها كتابه لعامل آخر جاء فيه (إذا دعيتك قدرتك على مظالمه فاذا ذكر قدرة الله عليك ونفاذ ما يأتي اليك وبقاء ما يكون عليك . واذا جاءك كتاب مني على غير الحق فاضرب به الارض) .

ومنها كتابه لوالي العراق وقد جاء فيه (اما بعد فان اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنة خبيثة سبها عليهم عملاء السوء . وان قوام الدين العدل والاحسان فلا يكن شيء أهم اليك من نفسك فلا تحملها قليلاً من الاثم ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ما طاق . واصلحه حتى يعمر . ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض . ولا تأخذن اجور الضرايين ولا هدية النوروز والمهرجان . ولا ثمن الصحف ولا اجور الفتوح . ولا اجور البيوت . ولا درهم النكاح . ولا خراج على من اسلم من اهل الذمة . فاتبع في ذلك أمري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله) .

ومن كتبه الطريفة إلى عامله في المدينة وكان يراجع في كل أمر (انه يحيل إلي اني لو كتبت لك ان تعطي رجلاً شاة لكتبت لي اذ كر ام انى . ولو كتبت لك بأحدهما لكتبت لي صغيرة ام كبيرة . ولو كتبت لك بأحدهما لكتبت لي ضأناً ام معزاً . فاذا كتبت اليك فنفذ ولا ترد علي) .

ومن هذا الباب كتاب لعامل من عماله جاء فيه (اما بعد فقد قل شاكر وكثير شاكر فاما اعتدلت واما اعتزلت والسلام) .

ومن ذلك كتابه الى يزيد بن المهلب والي خراسان جاء فيه (اما بعد فان سليمان كان عبداً من عبيد الله انعم عليه ثم قبضه واستخلفني يزيد بن عبد الملك من بعده ان كان . وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس علي بهين . ولو كانت رغبتني في اتخاذ ازواج واعتقاء

اموال كان في الذي اعطاني من ذلك ما قد بلغ بي افضل ما بلغ بأحد من خلقه . وانا خاف
فيما ابتليت به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عافى الله ورحم . وقد بايع من قبلنا فبايع
من قبلك) .

وقد روى الطبري راوي نص الكتاب ان ابن المهلب القى بكتاب عمر الى ابي عينة فلما
قرأه قال لست من عماله . قال ولم . قال ليس هذا كلام من مضى من اهل بيته وليس يريد
ان يسلك مسلكهم . فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا ...

ومن ذلك كتابه الى والي خراسان جاء فيه (لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نذر
صوّلتم عليه . ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار . ولا تجر الشاة إلى مذبحها ولا تحذوا
الشفرة على رأس الذبيحة . ولا تجمعوا بين الصلاتين إلا من عذر)

ومن ذلك كتابه لمتولي الخراج في خراسان وقد جاء فيه (ان للسلطان اركاناً لا يثبت
إلا بها . فالوالي ركن . والقاضي ركن . وصاحب المال ركن وانا ركن . وليس من
تغور المسلمين تغر اهم إلي ولا اعظم عندي من ثغر خراسان . فاستوعب الخراج واحرز
في غير ظلم . فان يك كفافاً لا عطيات الناس فسيل ذلك . والا فاكتب لي حتى احمل اليك
الا وال فتوفر لهم اعطيائهم) وقد وجد المتولي الخراج يفضل عن الاعطيات فكتب الى عمر
فأمره ان يقسم الفضل في اولي الحاجة .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز يكره تجبر الولاة وغطرستهم . وكان يرى ذلك في يزيد بن
المهلب والي خراسان والعراق واخوته ويقول انهم جبابرة . فلما صارت الخلافة اليه عزله .
ثم وقع في يده كتاب منه الى سليمان بن عبد الملك يذكر فيه ان في يده عشرين الف الف^(١)
من الفبيء فطالبه بها فأنكرها فأمر الوالي الجديد الذي عينه مكانه باعتقاله وارساله اليه ففعل
فلما حضر جدد مطالبته بالمال فقال له اني كتبت لسليمان لأسمع الناس وقد علمت ان سليمان
لم يكن ليأخذني بشيء فقال له اتق الله واد ما عليك فانها حقوق المسلمين ولا يغني تركها
وامر بحبسها .

(١) هذا الرقم ذكره اليعقوبي انظر ج ٣ ص ٤٤ ؛ مطبعة الغري اما الطبري فانه ذكر الخبر بدون

رقم انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣١٢

ويلحظ ان يزيد يتهم بمثل هذه التهمة للمرة الثانية وقد اتهمه الحجاج للمرة الاولى وطالبه بستة آلاف الف وجبسه على ما ذكرناه في سيرة الوليد بن عبد الملك .

وفي هذا صورة متكررة من صور الحكم . ولقد مرض عمر مرضه الذي مات فيه فدبر يزيد امره وفر من السجن وكتب الى عمر اني والله لو علمت انك تبقى ما خرجت من محبسي ولكني لم آمن يزيد فقال عمر اللهم ان كان يزيد يريد بهذه الامة شراً فاكفهم شره وان كيده في نحره . وهذه هي المرة الثانية التي يفر فيها يزيد من الحبس . وقد فر المرة الاولى من سجن الحجاج في خلافة الوليد على ما مر ذكره في سيرته .

وبما روي في سياق سيرة عمر بن عبد العزيز انه علم بفشو استعمال النبيذ في العراق فكتب لعامله في البصرة والى اهل البصرة (اما بعد فان من الناس من شاب في هذا الشراب ويفشون عنده اموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم وسفه احلامهم فسفكوا له الدم الحرام وارتكبوا فيه الفروج الحرام والمال الحرام . وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من اشرية حلال . فمن انتبذ فلا ينتبذ الا من اسقيته الادم (الجلد) واستغنوا بما احل الله عما حرمه . فاننا من وجدناه شرب شيئاً مما حرم الله بعد ما تقدمنا اليه جعلنا له عقوبة شديدة . ومن استخف بما حرم الله عليه فالله اشد عقوبة له واشد تنكيلاً) .

وكان يكتب لعمله قائلاً (خذوا الناس بالسنة . فمن لم تصلحه السنة فلا اصلحه الله) .

ولقد كان عدي بن أرطاة عاملاً من عماله في العراق فبلغه عنه ما يكره فكتب اليه (اما بعد فقد غرني بك مجالستك العلماء وعمامتك السوداء وارسالك اياها من وراء ظهرك . وانك احسنت العلانية فأحسننا بك الظن . وقد اطلعنا الله على كثير مما تعملون) ثم عزله وقال استعملنا اقواماً كنا نرى انهم ابرار اخيار فلما استعملناهم اذا هم يعملون عمل الفجار قاتلهم الله .

وبما اثر من اقواله (من عمل على غير علم كان ما يفسد اكثر مما يصلح . ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت ذنوبه . والرضا قليل ومعول المؤمن الصبر . وما انعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه فأعاضه عما انتزع منه بالصبر إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه والله يقول (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) .

ومن ذلك (ان احب الامور الى الله القصد في الجد . والعفو في المقدرة . والرفق في الولاية . وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة) .

ومن ذلك (من علم ان كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . ومن اكثر من ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . ومن لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياہ . ومن عبد الله بغير عزم كان ما يقسده اكثر مما يصلحه) .

ومن ذلك (افضل العبادة اداء الفرائض واجتناب المحارم) . ومنه (لو ان المرء يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يحكم امر نفسه لتواكل الناس الحثير ولذهب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة) . ومنه (الدنيا عدوة اولياء الله . وولية اعداء الله . اما الاولياء فأغتمتهم واحزنتهم . واما الاعداء فغرتهم وشنتهم وابعدتهم عن الله) . ومنه (قد افلح من عصم من المرء والغضب والطمع) . وقال يوماً لرجل من سيد قومك قال انا . قال لو كنت كذلك لم تقله .

وما اثر من دعائه (اللهم ان رجلاً اطاعوك فيما امرتهم وانتهوا عما نهيتهم . اللهم وان توفيقك اياهم كان قبل طاعتهم اياك فوفقي) . ومن ذلك (اللهم ان عمر ليس بأهل ان تناله برحمتك ولكن رحمتك اهل ان تنال عمر) . ومنه (اللهم اصلح من كان في صلاحه صلاح لامة محمد . واهلك من كان في هلاكه هلاك لامة محمد) .

وتوفي رجل من اصحابه فجاء الى اهله ليعزيهم فيه فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه فقال (مه . ان صاحبكم لم يكن يرزقكم . وان الذي يرزقكم حي لا يموت . وان صاحبكم لم يسد شيئاً من حفركم وانما سد حفرة نفسه . ألا وان لكل امرئ منكم حفرة لا بد وانته ان يسدها . ان الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها باخراب وعلى اهلها بالقضاء . وما امتلأت دار خبرة إلا امتلأت عبرة . ولا اجتمعوا إلا تفرقوا حتى يكون الله هو الذي يرث الارض ومن عليها فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه فان الذي صار اليه صاحبكم كل الناس يصيرون اليه غداً) .

ولقد كان يجتمع كل ليلة مع اصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ثم يسكون . وكان كثيراً ما يتمثل بقول الشاعر :

فما تزود مما كان يجمعه سوى حنوط غداة البين في خرق

وغير نفحة أعواد تشب له
بأيما بلد كانت منيته
وقل ذلك من زاد لمنطلق
ان لا يسر طائعاً في قصدها يسق.

وبقول الشاعر :

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له
فان تعجب الدنيا اناساً فانها
من الله في دار القرار نصيب
متاع قليل والزوال قريب

وقد اثر شعر من نظمته في هذه المعاني . منه :

انا ميت وعز من لا يموت
ليس ملك يزيله الموت ملكاً
قد تيقنت انني ساموت
انما الملك ملك من لا يموت.

ومنه :

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى
نهارك يا مغرور مهدو غفلة
كما اعتز بالذات في النوم حالم
وليك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه
كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ومنه :

أيقظان انت اليوم ام انت نائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرق
وكيف يطيق النوم حيران هائم
بل اصبحت في النوم الطويل وقد دنت
محاجر عينيك الدموع السواجم
وتكدح فيما سوف تكره غبه
اليك امور مفطعات عظامم
كذلك في الدنيا تعيش البهائم
ولا انت في الايقاظ يقظان حازم

وقد اثر له خطب عديدة ، غير خطبته الاولى بعد البيعة التي اوردها قبل . منها هذه الخطبة (ايها الناس لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، اني لست بقاض ولكني منقذ ، ولست بمتدع ولكني متبع ، ألا لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، واني لست بخير من احد منكم ولكني اثقلكم حملاً) .

ومنها هذه (ايها الناس ، اصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم ، واصلحوا اسراركم يصلح

لكم علانيتكم ، والله ان عبداً ليس بينه وبين آدم أب إلا قدمات ، انه لمعرق في الموت) .

ومنها هذه (كم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم معتبط عما قليل يظعن . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، فان الدنيا لا تسر بقدر ما تضر) .

ومنها هذه (ايها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا ، يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهد ، ويدلنا على الخير على ما لا نهتدي اليه ، ولا يفتان أحداً عندنا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه) .

وعلق راوي هذا النص عليه فقال (فانقشع عنه الشعراء والخطباء ونبت معه الفقهاء والزهاد) .

ومنها هذه (ان لكل سفر زاداً لا محالة ، فتزودوا من دنياكم لآخرتكم بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فترهبوا وترغبوا ، ولا يطولن عليكم الامد فتفسد قلوبكم وتنقاد لعدوكم ، فانه ما بسط امل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمساؤه او يسي بعد إصابه ، وربما كانت بعد ذلك خطرات المنايا ، وانما يطمئن الى الدنيا من امن عواقبها ، فان من يداوي من الدنيا كلها الا اصاب جراحة من ناحية اخرى فكيف يطمئن اليها ، اعوذ بالله ان أمركم بما انهى عنه نفسي فتخسر صفقتي ، وتظهر عيلتي ، وتبدو مسكنتي في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق) ثم بكى وبكى الناس معه .

ومنها (ايها الناس من وصل اخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دينه فقد احسن صلته وادى واجب حقه ، فاتقوا الله فانها نصيحة لكم في دينكم فاقبلوها وموعظة منجية في العواقب فالزموها ، الرزق مقسوم فلن يغدر المؤمن ما قسم له ، فاجلوا في الطلب فان في القنوع سعة وبلغة وكفافاً ، ان اجل الدنيا في اعتناقكم ، وجهنم امامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكان لم يكن ، وكل اموات عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ويستعجلون اخراجه وقسمة تراثه ، ووجهه مفقود ، وذكره منسي ، وبابه مهجور وكان لم يخالط اخوان الحفاظ ولم يعمر الديار ، فاتقوا هول يوم لا تحقر فيه مثقال ذرة في الموازين .

وكانت آخر خطبه في خناصره وقد جاء فيها (ايها الناس ، انكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وان لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم الجنة التي عرضها السماوات والارض ، ألا واعلموا انما الامان غداً لمن حذر الله وخافه . وباع نافداً بياق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون انكم في اسلاب المالكين . وسيخلفها بعدكم الباقون وكذلك حتى ترد الى خير الوارثين ، وفي كل يوم تشيعون غداً ورائحاً الى الله قد قضى نجه وانقضى اجله فتغيبونه في صدع من الأرض ثم تدعونه غير موسد ولا ممد ، قد فارق الاجبة وخلع الأسباب فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتين بعمله ، فقير الى ما قدم ، غني عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواعقه ، وايم الله اني لاقول لكم هذه المقالة وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندي فاستغفر الله واتوب اليه ، وما منكم من احد تبلغنا عنه حاجة إلا احببت ان اسد من حاجته ما قدرت عليه . وما منكم احد يسعه ما عندنا الا وددت انه ساواني ولحتي حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وايم الله ان لو اردت غير هذا من الغضارة والعيش لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق ، وسنة عادلة يدل فيها على طاعته ، وينهى عن معصيته) . ثم رفع طرف رداءه فلم يخطب بعدها حتى مات .

ويروى انه كان يأمر منادياً ينادي كل يوم ابن الناكحون ، ابن المساكين ، ابن اليتام ، فكان يعطي كل من يأتي من هؤلاء ما هو في حاجة اليه كما روي انه رتب لمن ينقطع للفقه وتلاوة القرآن ونشر العلم مرتباً سنوياً .

ولقد طلب من واليه في خراسان ان يرسل اليه وفداً فيه عرب وموال للسؤال عن حالة البلاد والناس فأرسل اليه الوفد فتكلم العربي والمولى ساكت وعليه علائم الصلاح فطلب منه ان يتكلم فقال له يا امير المؤمنين ان عشرين ألفاً من الموالي المسلمين يغزون بلا عطاء ولا رزق . وان مثلهم قد اسلموا من اهل الذمة لا يزال يؤخذ الخراج اي الجزية منهم . واميرنا عصبي شديد الجفاء لا نجراً على الكلام معه وهو سيف من سيوف الحجاج وهو كثير الاعتداد بقومه . فكتب الى عامله يوجه ويأمره باحسان سلوكه واعطاء المسلمين رزقهم سواء اكانوا عرباً او موالي ويقول له فيما يقول انظر الى من صلى الى القبلة فضع عنه الجزية . فصدع بالامر فسارع الناس الى الاسلام فقلل للوالي ان الناس انما اسلموا نفوراً من الجزية فامتحنهم

بالحثان فكتب لعمر يستأذنه بذلك فكتب له ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً ولا خاتماً . ثم كتب لولائه باعلان سقوط الجزية عن كل من اسلم فكان ذلك سبباً لفشو الاسلام في ما وراء النهر وغيرها^(١) .

ولقد كتب اهل سمرقند الى عمر حينما علموا بعدله وانصافه يستأذنونهم في ارسال وفد يرفع ظلامتهم اليه فأذن لهم فجاء وفدهم وشكوا ان قتيبة بن مسلم أخرجهم من ارضهم وتحامل عليهم وطلب منه العدل والانصاف .

فكتب عمر الى واليه يأمره ان يجلس لهم القاضي وينظر في امرهم فان قضى لهم فأعدهم الى ارضهم كما كان امرهم قبل ان يظهر قتيبة عليهم . فأجلسهم العامل الى القاضي فبسطوا له قضيتهم فقضى القاضي ان يخرج العرب الذين سكنوا في ارضهم الى معسكرهم ويعود اهلها الى ارضهم ثم يتناوبون على سواء فيكون صلحاً جديداً او ظفراً وغنوة ، فحسب الشاكوت حساب العواقب وقنعوا بما صار امرهم إليه .

وكتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام ويبسط لهم مبادئه فاستجابوا واسلموا وتسموا باسماء اسلامية .

ويروى حادث مماثل عن مصر حيث كتب عاملها حيان بن شريح الى عمر بن عبد العزيز (إن الاسلام قد اضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار اتممت بها عطاء اهل الديوان ، فان رأى امير المؤمنين ان يأمر بقضائها فعل) .

(١) ان بعض المغرضين من اعداء الاسلام عدوا مثل هذا الاعلان اغراء وقالوا ان الذين اسلموا انما اسلموا بتأثيره وليس عن صدق وايمان وتصديق .

والروايات تكذب ذلك حيث تروي كما اوردنا ذلك في المتن ان اسلام الذين اسلموا قد سبق رفع الجزية وان الشكوى انما كانت من ابقائها بعد اسلامهم ، وقد تصدى غير واحد من المستشرقين المنصفين مثل ارنولد توماس مؤلف كتاب تاريخ الدعوة في الاسلام وبتر مؤلف كتاب فتح العرب لمصر لهذه المزاعم ففندوها تفنيداً قوياً ، ومما قالوه وهو حق ومفهم ان الذين يتركون دينهم للخلاص من جزية طفيقة لا يكون لهذا الدين في قلوبهم اي جذور وقوة .

وعلى كل حال فليس بضائر للاسلام شيئاً ان يكون اسقاط الجزية عن الذميين سبباً من اسباب اقبالهم على الاسلام بل وان يكون ذلك وسيلة اليه ايضاً .

فكتب اليه عمر (اما بعد فقد بلغني كتابك . وقد وليتك مصر وانا عارف ضعفك وقد امرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عن اسلم قبج الله رأبك . فان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمري لعمر أشقى من ان يدخل الاسلام الناس كلهم على يديه^(١) .

ويروي مؤلف النجوم الزاهرة نص كتاب ارسله ملك الهند والسند الى عمر نرويه على علاته جاء فيه : (من ملك الهند والسند ملك الاملاك الذي هو ابن الف ملك وتحت ابنة الف ملك والذي في مملكته نهران ينبتان العود والكافور والأكرة التي يوجد ربحها من اثني عشر فرسخاً والذي في مربطه الف فيل وتحت يده الف ملك الى ملك العرب عمر بن عبد العزيز . اما بعد فان الله قد هداني الى الاسلام فابعث الي رجلاً يعلمني الاسلام والقرآن وشرائع الاسلام ، وقد اهديت لك هدية من المسك والعنبر والند والكافور فاقبلها فاننا انا اخوك في الاسلام والسلام)^(٢) .

وفي زمن عمر دان كثير من البربر في شمال افريقية بالاسلام . وقد روى ابن الاثير في صدد ذلك ان عمر عين اسماعيل بن عبد الله والياً على افريقية وكان حسن السيرة فأسلم البربر في ايامه جميعهم وكان ذلك سنة ١٠٠ هـ وكانت وفاة عمر في دير سمعان ثمن بقين من رجب سنة ١٠١ ودفن حيث توفي وقد اثرت مراث عديدة فيه منها لكثير عزة قال :

عمت صنائعه فعم هلاكه	فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأثم عليه واحد	في كل دار رنة وزفير
يثني عليك لسان من لم توله	خيراً لأنك بالثناء جدير
ردت صنائعه عليه حياته	فكأنه من نشرها منشور

ومنها لجرير قال :

ينعى النعاة امير المؤمنين لنا	ياخير من حج بيت الله واعتمرا
حملت امرا عظيماً فاضطلعت به	وسرت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة	تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

(١) المفريزي ج ١ ص ٧٨ رواية جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلام ٢٣٣ ص ٢٥ .

(٢) ج ١ ص ٢٤٠ .

ومنها لشاعر لم يذكر اسمه قال :

اقول لما نعى الناعون لي عمرا
قد غادر القوم بالحد الذي لحدوا
لا يبعدن قوام العدل والدين
بدير سمعان قسطاس الموازين

ومنها لمحارب بن دثار قال :

لو اعظم الموت خلقاً ان يواقعـه
كم من شريعة عدل قد بعثت لهم
بالهف نفسي ولهف الواحد من معي
ثلاثة ما رأت عيني لهم شيئاً
وانت تتبعهم لم تأل مجتهداً
لو كنت املك والاقدار غالبـة
صرفت عن عمر الخيرات مصرعه
لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كادت تموت واخرى منك تنتظر
على العدول التي تغتالها الحفر
تضم اعظمهم في المسجد الحفر
سقياً لها سنن بالحق تقتقر
تأتي رواحاً وتبيناً وتبتكر
بدير سمعان لكن يغلب القدر

ومن احسن ما اثني عليه بسبب ما كان عليه من اخلاق ودين وتقوى وسيرة عادلة صالح
ما رواه ابن كثير حيث دخل عليه رجل فقال له يا امير المؤمنين ان من كلن قبلك كانت
الخلافة لهم زين وانت زين الخلافة ، وانما مثلك يا امير المؤمنين كما قال الشاعر :

واذا الدر زان حسن الوجوه
كان للدر حسن وجهك زينا

وبما رواه ابن كثير ان عمر بن الوليد جاء الى يزيد بن عبد الملك الذي خلف عمر فقال له
ان هذا المرائي - يعني عمر بن العزيز - قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر
نفيس ودر ثمين في بيتين في داره مملوئين وهما مقفلان . فأرسل يزيد الى اخته زوجة عمر
يسألها عن ما تركه زوجها فقالت انه لم يترك شيئاً ولا لبدأ الا ما في هذا المنديل وارسلته
اليه فجعله فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً ورداء قشياً وجبة محشوة غليظة واهنة البطانة فأرسل
اليها انما اسأل عما في البيتین فقالت له لم ادخلها منذ ولي الخلافة وارسلت اليه مفاتيحها ففتح
احدهما فاذا فيه كرسي من آدم واربع اجرات مبسوطات عند الكرسي وقمقم ، ثم فتح
الثاني فوجد فيه مسجداً مفروشاً بالحصى وسلسلة معلقة بسقف البيت فيها كهنة الطوق بقدر
ما يدخل الانسان رأسه فيها الى ان تبلغ العنق حيث كان اذا فتر عن العبادة او ذكر بعض

ذنوبه وضعها في رقبته وربما كان يضعها إذا انعس لئلا ينام ووجدوا صندوقاً مقفلاً ففتحوه فاذا فيه دراعة وتبان من مسوح غليظ ، فبكى يزيد ومن معه وقال يرحمك الله يا اخي ان كنت لنقي السريرة نقي العلانية ، وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول يقول استغفر الله انما قلت ما قيل لي .

ومن عجيب ما رواه ابن الاثير ان عمر لما عين السمع بن مالك الحولاني والياً على الأندلس طلب منه تمييز ارضها واخراج ما اخذ منها عنوة . ثم طلب منه ان يصف له بلاد الأندلس ففعل واقترح عليه افعال العرب عنها لا نقطاعها عن المسلمين ، وكاد عمر ان يأخذ باقتراحه ثم عدل عنه ^(١) .

وقد روي انه مات مسموماً وان مولى له دس في شرابه السم مقابل الف دينار اعطيت له وانه شعر بذلك فاستدعى مولاه وسأله ما حملك ويحك على ما صنعت فقال الف دينار اعطيتها فقال هاتهما فأخذها ووضعها في بيت المال ثم قال له اذهب حيث لا يراك احد فهلك .

اما سبب ذلك المروي فهو موقف عمر من جماعة من الخوارج حيث خرجت في زمنه خارجة بزعامة شخص اسمه شاذب او بسطام فكتب الى عامله بالكوفة ان لا يجرهم إلا اذا سفكوا دمأ أو افسدوا في الارض وان يرسل بعضاً لمراقبتهم .

ثم كتب الى زعيمهم يقول له بلغني انك خرجت غضباً لله ولرسوله ولست اولى مني بذلك فلم الي انظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل الناس فيه والا نظرنا في الامر فقال الزعيم لقد انصفنا ثم ارسل اليه رجلين فوافياه في خناصره حيث كان يقيم فسألهم عن مخرجهم وما ينتقمونه فقالوا ما نقمنا سيرتك . إنك تتحرى العدل والاحسان . فهل قمت بهذا الامر عن رضا الناس ومشورة ام ابتزازاً . فقال لهم ما سألت الناس الولاية ولا غلبت عليها ، وانما عهد الي رجل فقامت فلم ينكر علي احد . وانتم ترون الرضا بكل عدل فاتركوني فان خالفت الحق فلا طاعة لي عليكم . فطلبوا منه لعن من سبقه من بني امية والبراءة منه لظلمهم فقال لهم انكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ولكنكم اردتم الآخرة فأخطأتم طريقها . ان الله لم يبعث رسوله لعاناً . وقال ابراهيم (فمن يتبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم) وانا مأمور بالاقتداء بهم . فسألوه اتسلم الامر الي يزيد من بعدك وانت تعرف انه لا يقوم فيه بالحق .

(١) ج ١ من ١٨٠ وبعدها .

فقال انما ولاء غيبي . والمسلمون اولى بما يكون منهم فيه بعدي ، فقالوا ارأيت لو وليت لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه هل تكون اديت الأمانة الى من انتمك فسكت ثم قال انظراني ثلاثاً ، فخرجنا من عنده وخاف بنو مروان ان يخرج ما عندهم وفي ايديهم من الاموال وان يخلع يزيد فسدوا له من سقاء السم فلم يلبث ان مات بعد ثلاثة ايام .

وهذه القصة وردت كما رويناها موجزاً في تاريخي الطبري وابن الاثير ^(١) وخبر المناظرة عمر مع الخوارج مروى في الامامة والسياسة ولكن هذا الكتاب يذكر خبر موت عمر موتاً طبعياً ونتيجة لدعاء رجل صالح الح عليه عمر بأن يدعو الله بقبضه اليه ^(٢) وخبر دس السم له ورد مقتضباً في العقد الفريد ^(٣) وخبر المناظرة وارد في مروج الذهب ^(٤) . دونت السم . وسياق الكتاب يفيد ان عمر مات مودة طيعية بعد خمسة عشر يوماً من المناظرة .

وبما رواه مؤلف مروج الذهب والامامة والسياسة معاً ان احد رجلي وفد الخوارج واسمه الحبسي قال ما سمعت كاليوم قط حجة أبين واقرب مأخذاً من حجتك واشهد انك على الحق ثم بقي الرجل في جوار عمر حتى مات .

ومها يكن من امر فان خبر مكاتبة عمر للخوارج ومحاورته لهم محتمل الصحة . وهو متسق مع ما تواتر عنه من اخلاق وسيرة . اما مسألة دس بني مروان السم له فقد تتحمل التوقف ، ولا سيما ان من الكتب القديمة ما يروي ما يتقضا .

وبما يروي ان بعض اخضاء عمر قالوا له حين عرف انه دس اليه السم تدارك امرك فقال والله لو ان شفائي ان امس شحمة اذني او اوتي بطيب فاشمه ما فعلت فليل له هؤلاء بنوك - وكانوا اثني عشر - الا توصي لهم بشيء فانهم فقراء فقال : (ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) والله لا اعطيهم حق احد . وهم بين رجلين . اما صالح فانه يتولى الصالحين . واما غير صالح فما كنت لاعينه على فسقه ، وحينما حضرته الوفاة قال اجلسوني فأجلسوه فقال الهي انا الذي امرتني فقصرت ونيتني فعصيت ثلاثاً ولكن لا اله الا الله . ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا انك لتنظر نظراً شديداً يا امير المؤمنين فقال اني لارى

(١) الطبري ج ٥ ص ٣١٠-٣١١ وابن الاثير ج ٥ ص ١٧-١٨ .

(٢) ج ٢ ص ١٠٧-١٠٠ . (٣) ج ٣ ص ١٧٨ . (٤) ج ٣ ص ١٢٥-١٢٨ .

حضرة ما هم بانس الآجال . ثم قبض من ساعته . وروي عن رجاء بن حياة قال كان عمرو يوصي
إلي أن اغسله واكفنه فاذا حللت عقدة الكفن أن انظر في وجهه . ففعلت فاذا وجهه مثل
الخرطيس بياضاً ، وكان أخبرني أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فاذا
هي مسودة .

وقد روي عن عبد العزيز بن أبي سلمة أن عمر بن عبد العزيز لما وضع في قبره هبت ريح
شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب فقرأوها فاذا فيها (بسم الله الرحمن الرحيم ، براءة من
الله لعمر بن عبد العزيز من النار فادخلوها بين اكفانه ودفنوها معه .

وروي عن عمير بن حبيب السامي أنه كان أسيراً من بلاد الروم أطلق سراحه وكان رفاق
ه قد قتلوا في بلاد الروم فلما كان في طريق عودته رأى أصحابه على دواب شهب ومعهم
آخرون فقال له أو ليس قد قتلتم . قالوا بلى ولكن الله عز وجل نشر الشهداء وأذن لهم أن
يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز .

ومما روي عن موسى بن أيمن الراعي وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة أنه قال كانت
الأسد والغنم والوحش ترعى في موضع واحد في خلافة عمر بن عبد العزيز فعرض ذات يوم
ذئب لشاة فقلت أنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا هلك ، فحسبنا الأيام فوجدناه قد هلك في
تلك الليلة .

ومن روايات ابن الأثير أن رباح بن عبيدة رأى عمر خرج يوماً وشيخ متوكيء على
يده فلما رجع قال له أصلح الله الأمير من الشيخ . قال رأيته . قال نعم ، قال ذاك أخي
الحضر اعلمني أني سألي أمر هذه الأمة وأني سأعدل فيها .

وفي جيل هذه الروايات أن لم نقل كلها ما لا يصح عقلاً ولا نقلاً . ومنها ما يظهر عليه
تقصيد تسوية سيرة خلفاء بني أمية الآخرين .

٩- يزيد الثاني بن عبد الملك^(١)

تولى الحكم وعمره ٢٩ سنة . وروى ابن كثير عن صفته انه كان طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه . وعن اخلاقه انه كان شاباً مقداماً جميل المأخذ متواضعاً معتدلاً مهذباً يكثر من مجالسة العلماء . وقال ان بعضهم اتهمه في دينه وان هذا غير صحيح وان المقصود من ذلك يزيد الثالث . وقال ابن قتيبة انه تحول عن اخلاقه الحسنة بعد ولايته حتى كرهه الناس وهم بعضهم يخلعه . وقد انتصر له عمه محمد بن مروان واعتقل المتأمرين عليه ودس لهم السم وأغرم ثلاثين شخصاً من قريش كان لهم ضلع في المؤامرة بمائة الف الف وعقر اموالهم . ولعل نعمة الانحراف قد الصقت به واشيعت عنه من قبل المتأمرين عليه .

وبما أثر عنه ان والي المدينة ضرب شخصاً حدين فشكا هذا امره الى يزيد بعد عزل والي فكتب الوليد الى والي الجديد يقول انظر في الامر فان كان ضربه في امر بين فلا تلتفت إليه وان كان ضربه في امر يختلف عليه فلا تلتفت اليه وان كان ضربه في غير ذلك فأقده منه . وهذا الحادث يدل على عقل وانصاف . وكان يود ان يجعل ولاية العهد لابنه الوليد الذي لم يكن قد بلغ الحلم فنصحه اخوه مسامة بجعل اخيه هشاماً ولياً لعهد ويكون ابنه بعده فعمل بالنصيحة .

وهذا ايضاً يدل على رجحان العقل فيه وحسن نظره في مصلحة الدولة والمسلمين . ولقد نسب اليه كتاب كتبه لعماله جاء فيه (اما بعد فان عمر كان مغروراً . غررقوه انتم وأصحابكم . وقد رأيت كتبكم اليه في انكسار الخراج والضريبة . فاذا اتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفونه من عهده . واعيدوا الناس طبقتهم الاولى اخصبوا الماجدوا . احبوا ام كرهوا . حيوا ام ماتوا والسلام .) ونحن نشك في نسبة هذا الكتاب اليه لأنه لا

(١) النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٢ وبعدها تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٢٤ وبعدها والعقد الفردي ج ٣ ص ١٧٩ ومروج الذهب ج ٣ ص ١٣١ وبعدها والبداية والنهاية ج ٩ ص ٣٢٤ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ٢٥-٤٦

يتسق مع عقل وحق ودين ومناقص لما وصف به يزيد من ذلك .

وبما روى ان والي المدينة في زمنه عبد الرحمن الضحاك خطب فاطمة بنت الحسين فقالت
له ما اريد النكاح وقد قعدت على بني فألح عليها وهددها بجلد اكبر ابنائها في الثمر فبعثت
كتاباً الى يزيد تشكو الراي وتذكر قرابتها ورحمها وطلبت من كاتب ديوان المدينة التي
مر عليها ليوذعها لانه ذاهب الى الشام ان يخبر يزيد بنا تلقاه من الضحاك فلما دخل الكاتب
استخبره يزيد عن المدينة واحوالها فسي ان يذكر له شكوى فاطمة . ودخل الحاجب
في هذه اللحظة فاخبر يزيد ان في الباب رسولا من فاطمة فتذكر الكاتب وقال أصلح الله
الامير إن فاطمة حملتني يوم خرجت رسالة اليك وأخبره الخبر . فنزل يزيد من على
فراشه وقال للكاتب لا أم لك هذا الخبر معك ولا تخبرني . فاعتذر بالنسيان ثم اذن
للمرسول فدخل وسلمه الكتاب فلما قرأه جعل يضرب بخيزران في يديه ويقول لقد اجترأ
ابن الضحاك فهل من رجل يسمعي صوته في العذاب وأنا على فراشي فقيل له عبد
الواحد النضري عامل الطائف . فكتب اليه (أما بعد فقد وليتك المدينة فاهبط واعزل
عنك ابن الضحاك واغرمه اربعين الف دينار وعذبه حتى اسمع صوته وانا على فراشي .

وحمل البريد الرسالة . فلما وصل المدينة لم يدخل على ابن الضحاك فأوجس هذا

خيفة فأرسل اليه ووعدته بالف دينار إن هو أخبره بوجهته .

فأخبره فادرك الخطر فاستنظره ثلاثة ايام ثم خرج الى الشام ونزل على مسلمة بن عبد
الملك وقال له أنا في جوارك . فطمأنه ثم غدا على اخيه فقال له لي عندك حاجة فقال له كل
حاجاتك مقضية إلا ابن الضحاك فلا اغفيه ابداً وقد فعل ما فعل ثم رده الى المدينة وأمر
النضري بتنفيذ ما امر به ففعل .

ولقد وصف يزيد بفصاحة اللسان وذكر انه كان ينظم الشعر وقد اثر من
شعره هذا البيت :

إذا انت لم تعص الهوى قaddock الهوى الى كل ما فيه عليك مقال

وفي هذا ما فيه من حكمة وسداد .

ولقد أثرت مساجلة جرت بينه وبين هشام أخيه هي من الطرف الادبية فضلاً عما فيها من صور الحياة . فقد بلغ يزيد ان هشاماً يتنقصه فكتب اليه ان مثلي ومثلك كما قال الشاعر :

تمنى رجال ان اموت وإن امت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذي يبغي رداي ويرنجي به قبل موتي ان يكون هو الردي
فكتب اليه هشام ان مثلي ومثلك كما قال الشاعر :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
ومن يتبع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب
فكتب له يزيد : نحن مغفرون ما كنا . ومكذبون ما بلغنا عنك . مع حفظ وصية ابينا وما حض عليه من صلاح ذات البين . وإني لأعلم انك كما قال معن بن اوس :

لعمري ما ادري ولا انا واجد على اينا تعدو المنيّة - ااول
وإني على اشياء منك تربيّني قديماً ولا صلح على ذاك يجعل
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني بينك فانظراي كف تبدل
إذا سوّيتي يوماً رجعت الى غد ليعقب يوماً منك آخر مقبل
إذا انت لم تنصف اخاك وجدته على طرف المهجر ان كان يعقل
ويركب حد السيف من ان تضيمه إذالم يكن عن شفرة السيف مزحل
وفي الناس ان رثت جبالك واصل وفي الارض عن دار القلي متحول

فلما جاء هشام كتاب يزيد رحل اليه فلم يزل في جواره الى ان مات مخافة اهل البغسي والفساد .

وفي عهده كانت حركة شاذب الخارجي وتمرد يزيد بن المهلب فوق ازاء ذلك موقفاً قوياً حازماً . على ما سوف نذكره في مناسبات اخرى . وقد استمرت في عهده كذلك حركات الجهاد والفتوح فيما وراء النهر من الانحاء التركية .

وبما يروى ان البربر في بلاد المغرب تمردوا على واليهم يزيد بن ابي مسلم لأنه حاول ان يسير فيهم بسيرة الحجاج الذي كانت كاتباً عنده واراد فيما اراد ان يجي الجزية من اسلم

منهم وان يرد من جاء من القرى والرساتيق الى قراهم ورساتيقيهم فقتلوه وولوا مكانه الوالي الذي كان عليهم قبل وهو محمد بن يزيد . وكتبوا ليزيد ان لم تلجع ايدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون فقتلناه واعدنا عاملك . فقابل هذا الحدث بالحكمة والتفهم وكتب اليهم اني لم ارض ما صنع يزيد بن ابي مسلم ثم اقر الوالي الذي اعادوه .

وبما روي عنه وفيه صورة من صور الحكم ان اخاه مسامة بن عبد الملك كان والياً على العراق وخراسان في عهد يزيد فلم يكن يرفع من الخراج شيئاً فاستعظم يزيد ذلك واستحيا في نفس الوقت من ان يكتب اليه بالاعزل فكتب اليه ان استخلف على عملك واقبل علي . ثم عين عمر بن هبيرة وارسله ليتسلم مكانه .

وبما روي عنه انه كتب الى عامله بصر ثم الى عماله في الامصار بكسر الاصنام والتماثيل فكسرت وبحيت من ديار مصر وغيرها ^(١) .

والروايات متفقة على انه كان كلفاً بجاريتين له اسم احدهما سلامة وثانيتهما حبابة . وقد كانتا متأدبتين ظريفتين تجيدان الغناء فضلا عن جمالها فكان يقضي جانباً كبيراً من وقته معها وقد روي ان اخاه مسلمة عدله فارتدع ثم عاد .

وقد روي من امره مع حبابة انه اشتراها في خلافة سليمان باربعة آلاف دينار فلما بلغ سليمان الخبر قال هممت ان احجر على يزيد ، فرد يزيد حبابة فاشتراها رجل من اهل مصر . فلما صار الحكم اليه قالت له زوجته سعدى يا امير المؤمنين هل بقي من الدنيا شيء نتمناه بعد قال نعم (حبابة) فأرسلت رجلاً الى مصر فاشتراها لها ثم هيئتها ووضعتها خلف ستار واعدت عليه السؤال فأعاد عليها الجواب فرفعت الستار وقالت هذه حبابة ، فسر سرورا عظيماً وأعظم فعل زوجته معه فاكرمها وحباها ، وبما يروي ان حبابة غنته يوماً هذا الصوت :

بين التراقي واللهة حرارة ما تطمئن وما تسوغ فتبرد

فطرب طرباً عظيماً حتى قال دعوني اطيرو . فقالت له ان لنا فيك حاجة ، أو على مسن

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٠ .

ترك المسلمين يا امير المؤمنين في رواية اخرى . ولقد مرضت حباة ثم ماتت .

ويروى انها شرقت بجبة عنب رماها بها في جلسة فكان في ذلك حثفا وقد جزع عليها
جزعاً شديدا وظل يلزم جثتها اياماً حتى جيفت ثم ظل يلزم قبرها بعد دفنها حتى برح به
الحزن فألحقه بها .

وبما اثر له في رثاء حباة :

فان تسل عنك النفس او تدع الصبا فبالأس تسلو عنك لا بالتجدد
وكل خليل زارني فهو قائل من اجلك هذا هامة اليوم اوغد
وكان يتمثل بهذا البيت ايضاً :

كفى حزناً بالهائم الصب ان يرى منازل من يهوى معطلة قفرا
وقد روي ان سلامة رثته بهذه الابيات :

لا تلمنا ان خشعنا	او هممنا بالخشوع
قد لعمرى بت ليلي	كأخي الداء الوجيع
ثم بات المم مني	دون من لي من ضجيع
للذي حل بنا اليوم	من الامر الفظيع
كلما ابصرت ربعاً	خالياً فاقت دموعي
قد خلا من سيد	كان لنا غير مضيع

وقد يكون لهذه المرويات اصل وان كنا نرجح انها شئت ببالغة وصنعة . وهي في
اصلها متسقة مع الطبيعة البشرية كما هو المتبادر .

وتروي الروايات انه كان مغرمًا باستماع الغناء وكان يستدعي المغنين من المدينة لسمع
غناهم وكان يغدق عليهم الجوائز ، وانه كان يشرب الشراب في مجالس غناؤه .

ونقول في هذه الروايات ما قلناه في الروايات السابقة :

١٠ - هشام بن عبد الملك ^(١)

تولى الخلافة وعمره ٣٤ سنة . وروي عن صفته أنه كان ابيض جميلا في عينيه حول . وعن أخلاقه أنه كان حازماً مدبراً ذكياً بصيراً بالأمور جليلاً وحقيقياً . وفيه حلم وأناة . وروي عن عقاب بن شبه قوله فيه (دخلت على رجل محشو عقلاً) وعن أبي الحسن المدائني قوله فيه (إنه لم يكن من ولد عبد الملك أكمل من هشام)

وروي عن المدائني أيضاً أن المنصور العباسي كان في أكثر أموره وتدبيره سياسته متبعاً لهشام لما كان عليه من سداد وصواب (وعن غسان بن عبد الحميد قوله (لم يكن أحد من بني مروان أشد حصرًا في أمر أصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام) . وعن عبد الله بن علي العباسي قوله (جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام)

ولقد روى ابن قتيبة وصفاً رائعاً لملك هشام وأخلاقه وسيرته وحياته وعقله وحرصه واعتماده للحق والعدل وبقظته لكل صغيرة وكبيرة حيث روى عن شبيب بن شيبة أن خالد بن صفوان بن الأهم قال أوفدني يوسف بن عمر والي العراق الى هشام في وفد العراق فقدمت عليه وقد خرج منتبذاً في قرابته وحشمه وحاشيته من أهله في وادي الرصافة فنزل في أرض قاع صحصح افصح في يوم قد بصر وسماه وقد ألبست الأرض الزراع زهرتها واخرجت ألوان زينتها . وقد ضرب له سرادقات من جبارات اليمن مزروعة بالذهب والفضة وضرب له فسطاطه في وسطه فيه أربعة أفرشة من خز أحمر مثلها مرافقها

(١) هذه النبذة مقتبسة من الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١١٣ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٤ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ١٨٢ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ١١٣ وبعدها والبداية والنهاية ج ٩ ص ٢٣٣ وبعدها وابن الأثير ج ٥ ص ٤٦ - ٩٧ وتاريخ يعقوبي ج ٣

وعليها دراعة خنز احمر وعمامة مثلها وضربت حجر نساؤه من وراء سرادقه وعنده اشراف
قريش وقد ضربت حجر بنيه وكتابه وحشمه بقرب فسطاطه ثم امر حاجبه الربيع فأذن
للناس إذناً عاماً فدخلوا عليه واخذ الناس مجالسهم فدخلت عليه وكنت حليت عنده ببلاغة وفهم
وحكمة فنظر الى نظر المستنكر فقلت (أقر الله نعمته عليك يا امير المؤمنين وكرامته .
وسوغك شكره ومد لك المزيد بفضله ثم وصله بطول العمر وتتابع الصرامة الباقية التي
لا انقطاع لها ولا نفاذ لشيء منها حتى يكون أجمل ذلك خيراً من عاجله وآخره
أفضل من اوله .

ثم استأذنه بذكر قصة ملك كاث له شيء عظيم من أبهة السلطان ورفاه الحياة اعجبت
نفسه فنصحته ناصح من حكماء قومه بالزهد والتقوى حتى جعله يتخلى عن الملك ويسرح في
الارض متقشفاً ناسكاً . فلما فرغ من الحكاية بكى هشام حتى بل لحيته ثم نبكس رأسه طويلاً
فأقبل الجالسون يعتبرون على ابن الاهتم ويقولون له افسدت على امير المؤمنين لذته
وحياته فيقول لهم لقد عاهدت ابي الا اخلو بملك . إلا ذكرته الله ونبهته ورشدته .

ثم يروي ابن قتيبة هذا الوصف الرائع الثاني لسيرة هشام عن ابن الاهتم جاء فيه إنه لم
يكن في بني امية ملك اعظم من هشام ولا أعظم منه قدراً ولا اعلى صوتاً . دانت له البلاد .
وملك جميع العباد . واديت له الجزية من جميع الجهات من الروم والفرس والترك والافرنج
والزنج والسند والهند . وكانت قريباً من الضعفاء . مهتماً باصلاح الوداء . لم يجترىء احد
معه على ظلامة . ولم يسلك معه احد إلا سبيل الاستقامة .

وكان له موضع في الرصافة افيح من الارض برز فيه فتضرب له السراقات فيكون
فيه بارزاً للناس مباحاً للخلق . لا يعنى ايامه تلك إلا برد المظالم . والاخذ على يد الظالم .
من جميع الناس واطراف البلاد . ويصل الى مخاطبته بذلك الموضع داعي العوام . والامة
السوداء فمن دونها . قد وكل رجالاً ادباء عقلاء باداء الضعفاء والنساء واليتامى منهم وامرهم
بامضاء اهل القوة والكفاية عنه حتى يأتي على اخر ما يكون من امره فيما يرفع اليه .
لا ينضم اليه رجل يريد الوصول اليه فينظروا اوضع منه إلا ادنوا الاوضع وابتعدوا الارفع
حتى ينظر في شأنه . ويعرف امره . وينفذ فيه ما امر . ولا يرفع اليه ضعيف ولا امرأة
امراً وظلامة على غطريف من الناس مرتفع القدر ولا مستخدم به إلا امر باقضاء بينه
واعداء بطلبه . لا يقبل لهم حجة ولا يسمع لهم بينة حتى لربما تربة المرأة والرجل او عابر

سبيل لا حاجة له به فيقال له ما حاجتك وما قصتك وما ظلامتك فيقول انها سلكت اريد موضع كذا وبلد كذا فيقول له لعلك ظلمك احد من آل الخليفة تهاب امره وتتوقع سطوته فذلك الذي منعك عن رفع ظلامتك الى امير المؤمنين فيقول لا والله لا ابغي الا ما قلت فيقال له اذهب بسلام . حتى لربما أتت عليه تارات من الليل وساعات من النهار لا ينظر في شيء ولا يأتيه احد في خصومة . لاستغناء الناس عن المطالب وتعففاً من المظالم ووقاية من سوءاته ونحوها من عقوبته . وقد وسع العباد امنه . واشعرهم عدله . وصارت البلاد المتناية الشاسعة كدار واحدة . ترجع الى حاكم قاض يرقبه الناس في المواضع النائية عنه كما يرقبه من معه . وقد وضع العيون والجواسيس من خيار الناس وفضلاء العباد في سائر الامصار والبلدان . يحصون اقوال الولاة والعمال ويحفظون اعمال الاخيار والاشرار وقد صار هؤلاء اعتقاباً يتعاقبون ينهض قوم بأخبار ما يلوا في المصر الذي كانوا فيه . ويقبل آخرون يدخلون مستترقين ويخرجون متفرقين لا يعلم منهم واحد ولا يرى لهم عابر . فلا خبر يـكـوـر ولا قصة تحدث من مشرق الارض ولا مغربها إلا وهو يتحدث به في الشام وينظر فيه هشام .

وقد اقصر نفسه على هذا الحال وحببت اليه هذه الافعال . فكانت ايامه عند الناس احمد ايام مرت بهم واصفاها وارجاها . قد لبس جلباب الهيئة على اهل العنود والكبود وارتدى برداء التواضع لاهل الخشوع والسكون . وكان قد حجب اليه الكاثر من الدنيا والاستمتاع بالكساء . ولم يلبس ثوباً قط يرماً فعاد اليه حتى لقد كانت كساء ظهره وثياب مهنته لا يستقل بجملها إلا سبعةائة بعير من اجلد ما يكون من الابل .

وخبر الكساء والثياب هو تنمة لسياق ابن قتيبة ولا يظهر ما إذا كانت تنمة للحكام ابن الاهتم ووصف ام لا . وهناك رواية يروها ابن كثير عن الاصمعي عن منذر بن ثور جاء فيها (اصبنا في خزائن هشام اثني عشر الف قميص كلها قد اثر بها) هذا يعني انه لبسها !! وفي هذا وذاك مبالغة ظاهرة .

ولقد وصف كذلك انه اعطى بني امية . ويعزى الى حماد الراوية رواية عنه فيها صورة من حياة الترف والابهة التي كانت يجيها حيث روي انه استحضره من العراق ليسأله عن بيت شعر عن علي بن ابي طالب فادخل عليه في دار قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب ذهب وحيطانه كذلك . وكان جالساً على طنفسة حمراء

وعليه ثياب خز حر . وقد تضمخ بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب يقبله بيده فتفوح روائحها . وبين يديه جاريتان لم ير مثلهما . في اذني كل منهما حلقتان من ذهب فيها لؤلؤتان تتوقدان . فاستدناه وسأله عما اراد فسر من جوابه ثم امر جاريتين واحدة بعد اخرى ان تسقيه فسقاه حتى ذهب عقله ثم سأله عن حاجته فقال له إحدى الجاريتين فوهبه الاثنتين واقام عنده اياماً ينادمه ويروي له الاشعار ثم وصله بمائة الف درهم ^(١) .

ومع ذلك فانه يوصف بانه كان جماعاً للاموال بخيلاً . وقد رويت قصص عديدة عن بخله . من ذلك انه اهدي اليه طائران فاعجب بهما فقال المهدي جازني يا امير المؤمنين . قال وما جائزة طائرين قال ما شئت قال خذ احدهما فأخذ الرجل احسبها فقال له وتختار ايضاً قال نعم والله اختار فقال دعه ثم امر له بدرهميات .

ومنها انه دخل بستاناً له ومعه ندماء فطافوا به وجعلوا يأكلون من ثماره ويقولون بارك الله لا امير المؤمنين فقال وكيف يبارك لي فيه وانتم تأكلونه ثم دعا قيم البستان فأمره بقطع شجره وغرس زيتون فيه حتى لا يأكله الناس .

ومنها ان ابنه طلب بغلة بحجة عجز بغلته فقال له تعهدا بالعلف بنفسك . ومنها انه كان له ضيعة فغلت عاماً غلة عظيمة فجاء بها ابن الناظر اليه فسر هشام بذلك سروراً عظيماً واغتم الولد الفرصة فقال يا امير المؤمنين لي حاجة . قال وما هي قال زيادة عشرة دنانير في العطاء . فقال له ما يخيل لاحدكم ان زيادة عشرة دنانير في العطاء إلا بقدر الجوز لا لعمرى لا افعل . ودخل عليه عقاب بن شبة وكان عليه قباء اخضر من القثك . فجعل عقاب يتأمله فسأله هشام مالك فقال له كنت رأيت عليك قباء اخضر مثل قبائك هذا قبل ان تلي الخلافة فأردت ان اعرف هل هذا ام غيره . فقال له والله الذي لا إله إلا هو إنه هو وما لي قباء غيره . وإن ما ترون من جمعي لهذا المال وصونه إنما هو لكم .

وهذه الرواية خاصة تتناقض مع ما رويناها سابقاً من كثرة اكسيته وقصانه تناقضاً عجيباً .

وبما يروى كذلك من مواقف بخله انه وفد عليه الشاعر علياء بن منظور فأنشده :

(١) انظر اخبار حماد الراوية في كتاب الاغاني . وقد استدرك المؤلف مسألة شرب الخمر واسفاه وقال ان الخبر رواه احمد بن عبيد ولم يرو ان هشاماً اسقى حماداً شيئاً . ثم قال وهذا هو الصحيح لان هشاماً لم يكن يشرب ولا يسقي أحداً بحضرته مسكراً وكان ينكر ذلك ويعيبه ويعاقب عليه

زوراء بالادنين ذات تسدر	قالت عليا واعتزمت لرحلة
كل عليك كبيرهم كالا صغر	ابن الرحيل واهل بيتك كلهم
لا في ثرى مال ولا في معشر	فأصغر امثال سلكان القطا
واليه يرحل كل عبد موقر	اني الى ملك الشام لراحل
بندى الخليفة ذي النعال الازهر	فلأتركك إن حيت غيبة
ومتى يصبه ندى الخليفة ينشر	إنا اناس ميت ديواننا

فلما اتم انشاده قال له هذا الذي كنت تحاول . وقد احسنت المسألة ولم يمنحه الا خمسمائة درهم . وهذه الرواية تتناقض بدورها مع رواية منح هشام مئة الف دينار تناقضاً عجيباً .

ومهما يكن من امر فالذي نرجحه ان هشاماً كان يلتزم جانب الاقتصاد والاعتدال ويتحاشى التبذير فأدى ذلك الى نعته بالبخل واشاعته عنه . وكلامه لشبة بن عقال ينطوي على تأكيد لما نقول وعلى كون الحافظ له على ذلك تفكيره في مصلحة المسلمين واعتباره ما يدخل عليه هو مالهم

واقد اثرت قصة اخرى قال في سياقها قولاً حكيماً ومعقولاً في تبرير اقتصاده واعتداله وتحاشيه التبذير بسبب وغير سبب وفيها صبرة من صور الحكم والعهد والحياة في الوقت نفسه حيث روي ان وفداً من قريش وفد عليه فاستقبله واصغى الى اقوال خطبائه وكان فيهم محمد بن ابي الجهم فوقف بدوره وقال (ارحم الله امير المؤمنين . انت خطباء قريش قد قالت واكثر واظنبت . والله ما بلغ قائلهم قدرك ولا احصى خطيبهم فضلك . وان اذنت في القول قلت فقال له قل واوجز فقال تولاك الله يا امير المؤمنين بالحسن وزينك بالتقوى . وجمع لك خير الآخرة والاولى . ان لي حوائج أفأذكركها . قال هاتيا . قال صبر سني ونال الدهر مني فان رأى امير المؤمنين ان يجبر كسري وينفي فقري فعل . فقال وما الذي ينفي فقرك ويجبر كسرك فقال ألف دينار وألف دينار وألف دينار . فاطرق هشام طويلاً ثم قال يا ابن ابي الجهم بيت المال لا يجتمل ما ذكرت . ثم قال له عيه قال ما عيه اما والله ان الامر لله وحده ولكن الله آثرك لمجلسنا . فان تعطينا فحقنا اديت وان تمنعنا فنسأل الله الذي بيده ما حوت يا امير المؤمنين ان الله جعل العطاء محبة . والمنع مبغضة . والله لأن احبك احب الي من ان أبغضك . قال فألف دينار لماذا قال اقضي بها ديناً قد حنى قضاؤه وقد عناني حمله واخبرني الله قال لا بأس تنفس كربة وتؤدي امانة . والف دينار لماذا . فقال ازوج بها من بلغ من

ولدي . قال نعم المسلك سلكت . اغضضت بصرأً واعففت ذكراً ورفعت نسلاً وألف دينار لماذا ؟ قال اشتري بها أرضاً يعيش بها ولدي واستعين بفضلها على نواب دهمري . وتكون ذخراً لمن بقي . قال فانا قد امرنا لك بما سألت . فقال فالحمد لله على ذلك . وخرج فأتبعه هشام بصره وقال إذا كان القرشي فليكن مثل هذا . ما رأيت رجلاً أوجز في مقال ولا أبلغ في بيان منه ثم قال اما والله إنا لنعرف الحق اذا نزل ونكره الاسراف والبخل . ولا نعطي تبذيراً . ولا نمنع تقثيراً . وما نحن الا خزان الله في بلاده وامناؤه على عباده . فاذا اذن اعطينا واذا منع ابينا . ولو كان كل قائل يصدق . وكل سائل يستحق ما جبهنا قائلًا ولا رددنا سائلًا . ونسأل الله الذي بيده ما استحفظنا ان يجريه على ايدينا . فانه يسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بعباده خير بصير) .

وفي الكلام من السداد والحق والدلالة على عمق الشعور بالمسئولية العظمى وحسن الاخلاق ما فيه .

ولقد رويت بعض الروايات التي تدل على شدة حرصه وتدقيق في كل الامور مهما تفقت فقد بعث اليه بعض عماله بدراقرن فأعجبه فطلب منه الزيادة ثم وصاه ان يستوثق من الوعاء في المرة الثانية . وبعث اليه بعض عماله كمأة فكتب اليه انها وصلت وهي اربعون حبة . وقد تغير بعضها فاذا بعثت شيئاً بعد فأجد حشوها في الظرف بالرمل حتى لا تضرب فيصيب بعضها بعضاً .

ومن اقواله المأثورة التي تتناسب مع ما روي عنه مما تقدم قوله (ثلاثة لا يضعن الشريف تعاهد الصنيعة . وإصلاح المعيشة . وطلب الحق وإن قل) .

ولقد روي انه حج احدى عشرة مرة . وان سعيداً بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان قال له في احدى المرات يا امير المؤمنين . ان اهل بيتك في مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب فالعنه انت ايضاً فقال له انا قدمنا حجاجاً وما قدمنا لشم احد ولعن احد واعرض وقطع كلامه .

ولقد روي - وفي الرواية صورة من صور العهد انه شتم رجلاً من الاشراف في حالة غيظ فقال له هذا أتشتمني وانت خليفة الله في الارض . فاستحيا وقال اقتص مني بمثلها . فقال له إذا اكون سفيهاً مثلك . قال فخذ عوضاً فقال لا افعل فقال اتركها لله فقال هي لله ثم لك

فقال هشام والله لا اعود الى مثلها .

وبما روي كذلك وفيه صورة من صور القضاء الاسلامي وقضاته في ذلك العهد ودليل على احترام هشام للحق والقضاء عن العتيبي قال (إني لقاعد عند قاضي هشام اذ اقبل ابراهيم ابن محمد بن طلحة وصاحب حرس هشام حتى قعدا بين يديه فقال الحرسى إن امير المؤمنين جرائني (الظاهر انها بمعنى وكاني) في خصومة بينه وبين ابراهيم . قال القاضي شاهديك على الجرأة فقال اتراني قلت على امير المؤمنين ما لم يقل وليس بيني وبينه الا هذه السترة . قال لا ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة فقام فلم يلبث حتى قعقت الأبواب وخرج الحرسى فقال هذا امير المؤمنين . فقام القاضي فأشار اليه فقعده وبسط لي مضلي فقعده عليه هو و ابراهيم . فتكلما واحضرت البينة فقضى القاضي على هشام . فتكلم ابراهيم بكلمة فيها بعض الخرق حيث قال الحمد لله الذي ابان للناس ظلمك فقال هشام لقد هممت ان اخربك خربة ينتشر منها لحمك عن عظمك فقال والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق . فقال له استرها علي يا ابراهيم فقال لا ستر الله علي ذنبي اذأ يوم القيامة فقال هشام إني معطيك عليها مئة الف قال ابراهيم فسترتها مئة طول حياته واذعبا عنه بعد موته تزييناً له) .

ولقد روي ان غلاماً لاحد اولاده تشاجر مع نصراني فشح النصراني رأس الغلام فقال له مولى من مواله ارفعه للقاضي الكبير فكبر عليه ذلك فقال خصي له أن اكفيكه ثم ذهب فضرب النصراني فبلغ ذلك هشاماً فأتى بالخصي وبابنه فضربها .

ولقد كان شديداً على اهل البهو . وكان يأمر بتعقيبهم وتأديبهم . ومن النكات المروية في سياق ذلك انه اتي برجل عنده قيان وخمر وبرايط فقال اكسروا الطنبور على راسه ففعلوا فبكي فقال له مرلى لهشام عليك بالصبر فقال اتراني ابكي للضرب . لا والله وانما ابكي لاحتقاره للبرايط إذ سماه طنبورا ، واخذ عسه عشرين ومعهم برايط فقال احبسوهم وبيعوهم واتعاهم وصيروا ثمنه في بيت المال فاذا صلحوا ردوه عليهم .

ولقد كان شديداً على اصحاب المقالات في القدر حيث روي انه استدعى غياذ الذي كان من اوائل من تكلم بالقدر فقال له ان الناس قد اكتروا فيك قبل نناظرك فان كان مذهبك

حقاً تبغناك وان كان باطلا نزعته عنه فوافق فدعا ميمون بن مهران احد مشاهير علماء ذلك العصر لمناظرته فقال ميمون لغيلان سل فسأل اشاء الله ان يعصى . فقال ميمون اعصى الله كارهاً فسكت فقال هشام اجه فلم يجبه فقال لا اقالني الله إن اقلتك ثم امر بقطع يديه ورجليه .

وفي القصة دليل على ان مسائل القدر والكلام قد اخذت تنتشر ويصبح لها مذاهب وانصار في اواخر عهد الدولة الاموية .

وهناك حادث آخر من هذا الباب حيث روى الطبري الذي روى الحادث السابق عن عمرو بن سراحيل الذي كان هو الآخر قدري المذهب ان هشاماً سيره هو ورفاق له الى دهلك منفيين وبقوا فيها الى ان مات .

وبما روي وفيه صورة من صور العهد الجهادية والمالية انه لم يكن احد من بني مروان يأخذ العطاء الا كان عليه ان يخرج للغزو . فمنهم من كان يغزو بنفسه ومنهم من كان يرسل بديلاً . وان هشام كان يعطي عطاءه البالغ مئتي دينار ودينار—والدينار كان يفضل به هشام—لمولى له اسمه يعقوب فكان يغزو عنه .

وكان شديد الاهتمام للصلاة وصلاة الجمعة بخاصة . ومما روي انه تفقد بعض ولده في صلاة جمعة فسأله بعد الصلاة ما منعك من الصلاة فقال نفقت دابتي فقال له افعجزت عن المشي فتوكت الجمعة . ثم منعه من الالبسة سنة وألزمه المشي الى المسجد كل جمعة .

وبما رواه جرجي زيدان^(١) عزوا الى المقرئ ان عامل الحراج في مصر على عهد هشام عبيد الله بن الحبحاب زاد على القبط قيراطاً في كل دينار فثاروا فحاربهم المسلمون وقتلوا منهم كثيراً وان اسامة التنوخي فعل مثله . وان كثيراً من النصارى التجأوا الى الرهبة للخلاص من الجزية فأحصى الديور والرهبان ورسم على ايدي الرهبان حلقة باسمه واسم ديره . وصار يقطع يد كل راهب لا يحمل الوسم . والزم كل نصراني ان يحمل منشوراً بما دفع من الجزية

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢١ .

وكان يأخذ عشرة دنانير ممن لم يوجد معه هذا المنشور . وكبس الديارات وقبض على عدد من الرهبان بغير رسم فضرب اعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب . وانت هشاماً لما بلغه هذه الاخبار لم يرض بها وكتب الى عامله في مصر باجراء النصارى على عوائدهم وما في ايديهم من عهود .

ولم نطلع على هذا الخبر في المصادر القديمة . فاذا صح فيكون فيه صورة من صور انصاف هشام وإبائه انحراف عماله عن الحق والحدود المقررة كما هو واضح .

ولقد كان هشام يكثر الإقامة في بركة الرصافة ^(١) من ارض قنسرين وكان اعتاد ذلك قبل خلافته حيث كان الحلفاء وابناؤهم يتهربون من دمشق خوفاً من الطاعون ويتبذون البرية .

ولقد جاءه البريد بخلافته وهو في الزيتونة في منزله في الرصافة . ثم انشأ قصرين له فيها واستمر على عادته حتى وافته منيته ودفن فيها .

وبما ذكره ابن الاثير ان البريد الذي جاءه بخبر خلافته كان يحمل اليه خاتم الخلافة وقضيتها حيث يبدو ان هذا وذلك من اعلام الخلافة .

ولقد ذكرنا قبل قليل خبر بستان هشام . ولم يكن هذا البستان هو الوحيد الذي كان له حيث روي انه كان له مزارع وضياع وبساتين كثيرة في جزيرة الفرات وانحاء الشام الشمالية الاخرى . ومنها منطقة دورين وقراها .

والرواية تذكر ان هذه المنطقة مقطعة له قبل خلافته . وربما كان بعض الضياع والمزارع في جهات الرصافة له قبل خلافته لانه كان يقيم فيها . وقد اشتق لها الانهار واستخرج خاصة النهر الذي فوق الرقة بسبيل ذلك . وكانت تدر عليه ايراداً ضخماً حتى بالغت الروايات في ذلك فقالت ان غلته من مزارعه وضياعه اكثر من خراج مملكته ^(٢) وقد اشار جرير الى ذلك في احدى القصائد التي مدح فيها هشاماً حيث جاء فيها فيما جاء :

(١) يذكر ابن الاثير انه كان في هذه الناحية مدينة رومية (ج ٥ ص ٩٦) .

(٢) خطط الشام ج ٥ ص ١٦٣ عزوا الى المتنجي .

شقت من الفرات مباركات	جواني قد بلغت كما تريد
وسخرت الجبال وكن خرساً	يقطع في مناصبها الحديد
بها الزيتون في غلل ومالت	عنا قيد الكروم فهن سود
ومن ازواج فاكهة وفخل	يكون بحمله طلع نضيد ^(١)

ولقد اراد ان يحول ولاية العهد عن ابن اخيه الوليد بن يزيد الذي عينه ابوه ولياً للعهد بعد هشام الى ابنه مسلمة وراود الوليد على ذلك على ان يكون الامر له بعد ابنه . فأبى فتكره وصار يضيق عليه ويعمل سراً في البيعة لابنه غير انه لم يتم له ما اراده .

ولما اشتد اذاه وملاحقته للوليد خرج مع خاصته ومواليه الى الازرق ونزل على ماء فيه يقال له الاغدف حيث ظل معتصماً الى ان مات هشام . ولقد روي ان شاعراً قال في مجلس الوليد :

ألم تر للنجم اذ شيعا	يبادر في برجيه المرجعا
تخبر عن قصد مجراته	اتى الغور والتمس المطلعا
فقلت واعجبي شأنه	وقد لاح اذ لاح لي مطعما
لعل الوليد لنا ملكه	فأمسى اليه قد استجمعا
وكنا نؤمل في ملكه	كتأمل ذي الجذب ان يبرعا
عقدنا له محكمات الامور	طوعاً فكان لها موضعاً

فبلغ ذلك هشاماً فقطع عن الوليد ما كان يجربه عليه وابى ان يعيده الا اذا طرد الشاعر ففعل . وكتب إلى هشام يعتذر اليه ويعلمه باخراج الشاعر ويلتمس منه الاذن لصاحب له اسمه ابن سهيل . فاعتقل هشام هذا وضربه ونفاه .

وضرب شخصاً آخر من خاصة الوليد بلغه انه يكتب للوليد بالأخبار فبلغ ذلك الوليد فقال : من يثق بالناس ومن يصطنع المعروف . هذا الاحول المشؤوم قدمه ابى على اهل بيته ثم يصنع بي ما ترون . لا يعلم ان لي في احد هوى الا عبث به ثم جرت بين الرجلين مراسلة

(١) انظر ديوان جرير شرح الصاوي .

تبدلاً فيها التنديد والوعيد ومن ذلك مقطوعة شعرية الوليد فيها تذكار كبير لهشام بفضل أبيه عليه اذ جعله ولياً لعهد وتنديد ووعيد وهي هذه :

كفرت يد آمن منعم لو شكرتها	جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمن
رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي	ولو كنت ذا حزم لهدمت ما تبني
أراك على الباقيين تجني ضغينة	فيا ويحهم ان مت من شر ما تبني
كأني بهم يوماً واكثر قولهم	أيا ليت انا حين يا ليت لا تغني

وظلا على جفاء إلى أن مات هشام وصارت الخلافة إلى الوليد فأظهر الثمالة بموته واضطهد أولاده حتى اثارهم عليه وهجاه هجواً بذيئاً حيث روي عنه قوله فيه :

ليت هشاماً عاش حتى يرى	مكياله الا فر قد طبعا
كلنا بالكيل الذي كاله	وما ظلمناه به اصبعا
وما أتينا ذاك عن بدعة	امله لي الترقان اجمعا

وقوله :

هلك الاحول المشؤوم	وقد أرسل المطر
وملكنا بعد ذاك	وقد أورد الشجر
فأشكر الله انه	زائد كل من شكر

ولقد روي فيما روي في سياق ذلك ان الوليد كان مولعاً باللهو والخمر والقيان وان هشاماً عزله أكثر من مرة . وولاه الحج مرة لعله ينصرف عن لهوه . وان الوليد اخذ معه إلى الحج خمره وقيانه وصنع خيمة بقدر سطح الكعبة لينصبها عليها ويشرب ويلهو فوقها . ولكن اصحابه خوفوه من العواقب فلم يفعل . وان هشاماً قال له مرة ويحك يا وليد والله ما أدري أعلى الاسلام أنت أم لا . ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيت غير متحاش ولا مستتر فكتب اليه :

يا أيها السائل عن ديننا	نحن على دين ابي شاكر
نشرها صرفاً ومزوجة	بالسخر أحياناً وبالفاتر

وابو شاكر كنية مسلمة بن هشام الذي كان ابره يرشحه للخلافة وان هشاماً غضب على

ابنه وقال له يعيرني بك الوليد وانا ارشحك للخلافة . فالزم الادب واحضر الجماعة . ثم ولاه موسم الحج سنة ١١٩هـ فأظهر النسك والوقار واللين ووزع أموالاً في مكة والمدينة حتى مدحه بعضهم رداً على شعر الوليد المذكور آنفاً بقوله :

يا ايها السائل عن ديننا نحن على دين ابي شاكر
الواهب الجرد بأرسانها ليس بزندق ولا كافر

ومن المحتمل ان يكون لهذه الروايات أصل ماغير اننا نرجح انها شئت بصنعة ومبالغة . وما رواه الطبري ان هشاماً عزل الاشرس عن ولاية خراسان . وان الجنيد بن عبد الرحمن اهدى الى زوجة هشام قلادة فيها جوهر فاعجبت هشاماً فأهدى اليه قلادة مثلها فعينه والياً لخراسان مكان الاشرس . والرواية عجيبة . فلا يعقل ان يكون تعيين هشام للجنيد لعمل خطير مثل ولاية خراسان بسبب هذه الهدية .

وما رواه ابن قتيبة ان محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس دخل على هشام متوكئاً على ولديه ابي العباس وابي جعفر وكان شيخاً كبيراً قد غشي بصره فسلم فقال له هشام ما حاجتك ولم يأذن له بالجلوس فذكر قرابته وحاجته . ثم استجده فقال له هشام ما هذا الذي بلغني عنكم يا بني العباس ثم يأتي احدكم وهو يرى انه احق بما في أيأ بنا والله لا اعطيتك شيئاً فخرج محمد فقال هشام كالمستهزىء ان هذا الشيخ يرى هذا الامر سكون لولديه هذين ولأحدهما . فسمع محمد قوله فرجع فقال أما والله اني ارى ذلك على رغم من زعم . فضحك هشام وقال اغضبنا الشيخ .

ومن المحتمل ان تكون هذه الرواية مصنوعة .

ومن الاحداث الشخصية الهامة التي قام بها هشام وفيها صورة من صور الحكم والحكام في ذلك العهد عزله خالد بن عبد الله القسري والى العراق العام بسبب ما بلغه من فاحش ثرائه .

وقد اورد الطبري روايات عديدة في ذلك قد لا تخلو من صنعة ومبالغة مع عدم استبعاد ان يكون لها اصل ما . والمستفاد منها انه نمي لهشام ان خالداً او ابنه قد اتخذ مزارع واسعة واثرى ثراء عظيماً حتى بلغ ايراده في السنة ثلاثة عشر الف الف في رواية وعشرين الف الف في

رواية اخرى . وان متولي خراج العراق ختن ولده فأهدى اليه الف وصيف والف وصيفة سوى الاموال والثياب . وانه كان يتنقصه في مجالسه الخاصة ويفخر بأمه وانه ازدرى شيخاً من شيخ بني امية دخل عليه لحاجة وعضه بلسانه . فكتب هشام كتاباً بخطه الى خالد يربحه فيه توبيخاً شديداً على ما كان منه نحو الشيخ الاموي ويأمره بالسعي اليه واسترضائه رأينا ان نورد نصه لانه طريقة ادبية ونموذج من نماذج مراسلات ذلك العهد ومتصل بالصورة التي أوردنا ابرازها :

(اما بعد فان امير المؤمنين وان كان اطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك امره واستحفظك عليه للذي رجا من كفايتك ووثق به من حسن تدبيرك لم يفترسك غرة اهل بيته لتطأه بقدمك ولا تحد اليه بصرك . فكيف بك وقد بسطت على غرتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ تريد بذلك تصغير خطره واحتقار قدره حتى اخرجك ذلك الى الإغلاط في اللفظ عليه في مجلس العامة غير متحلل له حين رأيته مقبلا من صدر مهادك الذي مهد له الله وفي قومك من يعلوك بحسبه ويغمرك بأوليته فقلت مهادك بما رفع به آل عمرو ممن صنعتك خاصة مساوين بك فروع غرر القبائل وقرومها قبل امير المؤمنين حتى حالت هضبة اصبحت تنحو بها عليهم مفتخراً هذا ان لم يدهده بك قلة شكرك متحطاً وقيداً . فهلا يا ابن جرشة قومك اعظمت رجلهم عليك داخلا ووسعت مجلسه اذ رأيته مقبلا وتحافيت له عن صدر قراشك مكرماً ثم فاوضته مقبلا عليه ببشركا اكراماً لامير المؤمنين فاذا اطمان به مجلسه ازعته بجي السرار معظما لقرباته عارفاً لحقه . فهو سن البيتين وناهم وابن شيخ آل أبي العاص وحرب وغرتهم . وبالله يقسم امير المؤمنين لك لولا ما تقدم من حرمتك وما يكره من شمانية عدوك بك لوضع منك ما رفعك حتى يردك الى حال تفقد بها اهل الحوائج بعراقك وتراحم المواكب ببابك وما اقربني من ان اجعلك تابعاً لمن كان لك تبعاً فانفض على اي حال ألقاك رسول امير المؤمنين وكتابه من ليل او نهار ماشياً على قدمك بمن معك ممن خولك حتى تقف على باب ابن عمرو صاغراً مستأذناً عليه متنصلاً اليه اذن لك او منعك فان حركته عواطف رحمة احتملك وان احتملته انفة وحمية من دخولك عليه فقف ببابه حولاً غير متحلل ولا زائل ثم امرك بعد اليه عزل او ولى انتصر او عفا فلعلك الله ممن متكل عليه بالثقة ما اكثر هفواتك واقذع لاهل الشرف الفاظك التي لا تزال تبلغ امير المؤمنين من اقدامك بها على من هو أولى بما انت فيه من ولاية مصري العراق واقدم واقوم . وقد كتب امير المؤمنين الى ابن عمه بما كتب به اليك من انكاره عليك ليرى في العفو عنك والسخط

عليك رأيه مفوضاً ذلك اليه مبسوطه فيه يده محموداً عند امير المؤمنين على ايها آتي اليك
موفقاً ان شاء الله تعالى) .

ولقد اعتزم مع ذلك على عزله وعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي وامره بمفاجأة خالد
واعتقاله مع اصحابه .

وبما روي ان خالداً ومتولي خراج طارقاً شعرا بتغير قلب الخليفة واحتمال عزله لهما
فنصح طارق خالداً بالمبادرة الى دمشق والاعتذار للخليفة فأبى فاقترح ان يذهب هو الى
دمشق ويعتذر عنه ويضمن جميع ما انكسر على العراق من الخراج في سني حكمه وكان
يبلغ مئة الف الف فاعتذر خالد بعدم قدرته على اداء المال المكسور فقال له طارق نتوزع
المال فيما بيننا فأدفع انا عشرين الف الف ويدفع فلان وفلان وفلان مثلها فأبى وقال
اني اذن للثيم ان كنت قد اعطيتم شيئاً ثم استرجعته منكم .

وبما روي ان الوالي الجديد بعد ان اعتقل خالداً فاوضه اخصاره على المصالحة على المال
المكسور فقبل وصالح على تسعة آلاف الف . فقبل له لو صبرت لآخذت مئة الف فقال ما
كنت لارجع وقد رهننت لساني وان خالداً لم يرض الصلح وقال لا آمن ان يأخذ المال ثم
يعود عليكم فأخبروا الوالي بعدم موافقة خالد على الصلح ففرح وقال فنكم اتى النقض فوائده
لا أرضى بتسعة آلاف الف ولا مثلها ولا مثيلها . فأخذ اكثر من ذلك وقيل انه اخذ
مئة الف الف .

ومع انه قد يكون في القصة والارقام مبالغة فاننا نرجح ان للقصة اصلا ما . ويبدو منها
ان الولاة كانوا اصحاب سيادة وتصرف مطلقين في الاقليم الذي يحكمونه وان ذلك كان
يتيح لهم ان يثروا ثراء فاحشاً بطرق مختلفة . ولقد روي في سيرة يزيد بن معاوية خبراً مماثلاً
عن عبد الرحمن بن زياد وما صار في يده من مبلغ طائل بلغ عشرين الف الف .

وبما روي عن خالد بن صفوان انه دخل على هشام يوماً فقال له هذا يا خالد رب خالد
قعد مقعدك هذا اشهى الي حديثاً منك — وهو يعني خالداً القسري — فقال له الا تعيده
يا امير المؤمنين . فقال هيئات . انه ادل فأمل وارجف فأعجب ولم يدع لمرجع مرجعاً . على
انه ما سألني حاجة قط . فقال له خالد يا امير المؤمنين فلو ادنيته فتفضلت عليه . فقال هيئات
ثم انشد متمثلاً :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن إليه بوجه آخر الدهر تقبل

ونستطرد الى القول ان ولاية خالد للعراق استمرت في خلافة هشام خمس عشرة سنة .
وكان قبل ذلك والياً للحجاز في عهد سليمان والوليد قبله . وكان اخوه اسد والياً لحراسان .
وكان للأخوين بلاء عظيم في خدمة الدولة وما تم في عهد الوليد وسليان وهشام من فتوح
واحداث عامة . وكان مشهوراً بالبرورة والارحية وقوة العارضة .

ولقد توفي هشام بالذبح في الرصافة لست خلون من ربيع الاول عام ١٢٥ هـ ودفن فيها .
وبما روي انه حين حضرته الوفاة رأى ابنائه يبيكون حوله فقال (جاد هشام لكم بالدنيا
وجدتم عليه بالبكاء وترك لكم ما جمع وتركتم له ما كسب . ما اسوأ منقلب هشام ان لم يغفر
الله له) .

ولقد كان هشام ثالث ثلاثة من خلفاء بني امية طالت خلافتهم اكثر من غيرهم . وكان في
خلافته احداث هامة كان له في سياقها مواقف جديرة بالذكر والتنويه ايضاً وهذا ما سوف
يأتي في سياق تلك الاحداث .

ولقد اورد ابن كثير حديثاً مروياً عن ابي سلمة بن عبد الرحمن عن ابيه عن رسول الله ﷺ
انه قال (ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومئة) وهي السنة التي مات فيها هشام . ولقد
اضطرب امر بني امية بعده فعلا واشتدت دعوة الهاشمين ضدهم حتى دالت دولتهم بعد سبع
سنين وانتقل الحكم الى بني العباس . والحديث لم يرد في كتب الاحاديث الصحيحة . ولا
نستبعد ان يكون موضوعاً من قبل بعض اعداء العباسيين وانصار الامويين للتنبيه على ان
زينة الدنيا وبهجة الاسلام قد انقضت بموت هشام .

١١ — الوليد الثاني بن يزيد الثاني بن عبد الملك (١)

•

تولى الخلافة وعمره (٣٤) سنة . وقد كان عمر بن عبد العزيز عهد الى هشام ثم الى الوليد بعده . وهناك رواية يرويها الطبري جاء فيها ان هشاماً سأل احد خاصته عما اذا كان الناس يرضون بالوليد فاجابه ان له يا امير المؤمنين في اعناق الناس بيعة حيث يفيد هذا ان عمر بن عبد العزيز اخذ له ولشام البيعة من الناس حينما اعتزم على ان يعهد اليها الامر من بعده .

ومن صفاته المروية انه كان طويل اصابع الرجلين شديد البطش وكان يوتد له سكة حديد فيها خيط . ويشد الحيط في رجله ثم يشب على الدابة فينزع السكة ويركب مايس الدابة بيده .

وكان فصيحاً شاعراً اثر له شعر كثير في الفخر والتشبيب . من ذلك ما رويناه في سيرة هشام في التنديد بهشام وتهديده . ومنه هذه الابيات في الفخر :

انا الوليد ابو العباس قد علمت	عليا معد مدى كرى واقدامي
اني لفي الذروة العليا اذا انتسبوا	مقابل بين اخوالي واعمامي
بنى لي المجد بان لم يكن وكلا	على منار مضيئات واعلام
حلت من جوهر الاعياص قد علموا	في باذخ مشمخر العز فمقام
صعب المرام يسامي النجم مطلع	يسمو الى فرع طود شامخ سامي

ومنه ما سوف يأتي بعد في سياق الكلام . وكان مبسوط اليد في عمل الخير والقرى قبل ولايته . حيث روي انه كان يطعم من يفد عليه من اهل الصائفة ومن يصدر من الحج ثلاثة ايام

(١) هذه النبهة مقتبسة من الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٩ وبعدها وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢٠ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ١٨٦ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ١٤٥ وبعدها والبداية والنهاية ج ١٠ ص ٢ وبعدها . وابن الاثير ج ٥ ص ٩٧-١٠٨ واليعقوبي ج ٣ ص ٧١-٧٤ مطبعة الفري .

ويعلف دوابهم في زيزاء في البلقاء . وانه لم يقل عن شيء يسأله لا . وكان يعد السائلين بتحقيق مطالبهم حينما تصير اليه الخلافة . وخوطب بسبب كثرة وعوده فقال إني لا اعود لساني شيئاً لم اعتده (اي لن يقول لا) ثم انشد :

ضمنت لكم ان تعقني عوائق ^{لم}	بأن سماء الضر عنكم مستقلع
سيوشك الحاق معاً وزيادة	واعطية مني عليكم تبرع
محرمكم ديوانكم وعطاؤكم	به يكتب الكتاب شهر او تطبع

فلما تولى استمر على كريم عاداته وحقق وعوده . واخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة . وزاد في عطاء اهل العطاء عشرة عشرة . واهل الشام منهم خاصة عشرين عشرين . وضاعف جوائز الرقود وعطف على المقعدين والعميان والمجذومين فارتاح الناس واغتنبوا حسب تعبير الرواية .

ولقد مات عمه وهو في الازرق فحمل اليه البريد البشارة مع البردة والقضيب وخاتم الخلافة على ما سجله في بيتين اثرا عنه وهما :

طال ليلى وبت أسقى السلافة	واتاني نعي من الرصافة
واتاني ببردة وقضيب	واتاني بخاتم للخلافة ^(١)

وبما يروى انه امر بالتحفظ على خزائن عمه وحواسله في الرصافة ودمشق حتى لم يسمح باخراج قمقم يغلي فيه الماء لغسله . وانه قال شامئاً :

هلك الاحول المشؤوم	وقد ارسل المطر
وملكننا بعد ذاك	وقد اوراق الشجر
فاشكر الله انه	زائد كل من شكر

(١) ذكرنا في سيرة معاوية انه اشترى بردة رسول الله وصار خلفاء بني امية يتداولونها ويلبسونها للتبرك . والشعر ان صح مؤيد لذلك ، والشعر يفيد ان القضييب والخاتم كانا مما يتداوله الخلفاء ايضاً ، ولم نطلع على رواية عن اصلها ، ومن المحتمل ان القضييب مما كان ينسب الى النبي ايضاً ، لان هذا هو الذي يكون له معنى في تداوله ، اما الخاتم فليس خاتم النبي حتماً لان خاتم النبي سقط من يد عثمان بن عفان ، وقد اتخذ عثمان خاتماً على نقشه بديلاً منه فلعله هو الذي كان يتداوله خلفاء بني امية ايضاً .

وقال كذلك :

ليت هشاماً كان حياً فيرى محله الاوفر قد اترعا
كلنا له بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به اصعبا

حيث يدل هذا على انه شديد النعمة على عمه لما كان من ملاحقته له واضراره به . ثم انتقل الى دمشق وجاءته البيعة من الآفاق . وقدمت عليه وفود الامصار للبيعة الوجاهية . ولم يكن على خلاف .

وقد اورد الطبري نص كتاب ورد عليه من مروان بن محمد فيه بيعته وبيعة من قبله مع التنويه بصفاته واستعداده لمناصرته رأينا ايراده لان فيه رداً على ما كان من مناوأة للوليد ونسبة صفات واخلاق مذمومة اليه وهذا هو : (بارك الله لامير المؤمنين فيما اصاره اليه من ولاية عبادته ووراثته بلاده . وكان من تغشي غمرة سكرة الولاية ما حمل هشاماً على ما حاول من تصغير ما عظم الله من حق امير المؤمنين ورام من الامر المستصعب عليه الذي اجابه اليه المدخولون في آرائهم وادبايهم فوجدوا ما طمع فيه مستقصياً وزاحمته الاقدار باشد مناكبها ، وكان امير المؤمنين بكان من الله حاطه فيه حتى آزره بأكرم مناطق الخلافة فقام بما اراه الله له اهلاً ونهض مستقلاً بما حمل منها مشبته ولايته في سابق الزبر بالاجل المسمى خصه الله بها على خلقه . وهو يرى حالاتهم فقلده طوقها ورمى اليه بأزمة الخلافة وعصم الامور فالحمد لله الذي اختار امير المؤمنين لخلافته . ووثائق عرى دينه . وذبح له عما كاده فيه الظالمون . فرفعه ووضعهم فمن اقام على تلك الحشية من الامور اوبق نفسه واسخط ربه . ومن عدلته التوبة نازعاً عن الباطل الى حق وجد الله تواباً رحيماً . واني اخبر امير المؤمنين اكرمه الله اني عندما انتهى الي من قيامه بولاية خلافة الله نهضت الى منبري علي سيفان مستعداً بها لاهل الغش حتى اعلمت من قبلي ما امن الله به عليهم من ولاية امير المؤمنين فاستبشروا لذلك ، وقالوا لم تأتنا ولاية خليفة كانت آمالنا فيها اعظم ولا هي لنا اسر من ولاية امير المؤمنين وقد بسطت يدي لبيعتك فجددتها ووكنتها بوثائق العهود وترداد الموائيق وتغليظ الايمان فكلهم حسنت اجابتهم وطاعتهم . فأثبهم يا امير المؤمنين من مال الله الذي آتاك فانك اجودهم جوداً . وابسطهم يداً . وقد انتظروك راجين فضلك قبلهم بالرحم الذي استرحموك . وزدتم زيادة يفضل بها من كان قبلك حتى يظهر بذلك فضلك عليهم) . حيث يفيد هذا النص اذا صح - وليس ما يمنع صحته . ومن المحتمل ان

يكون منقولاً عن مدونات سابقة — حسن رأي مروان في الوليد وسخطه على هشام لمحاولة إسقاطه من ولاية العهد وإيذائه واستبشار الناس بخلافته .

ولقد بادر فور توليه بتعيين ابنه الحكم وعثمان وليين لعهد و أخذ البيعة لهما في الشام ثم كتب للولاة بذلك فأخذوا لهما البيعة بدون خلاف أيضاً .

وقد أورد الطبري نص كتابه للولاة . وهو كتاب طويل جداً استغرق أربع صفحات يدل أن صح — ولا مانع من صحته هو الآخر — على ما كان يتحلى به الوليد من بلاغة وفصاحة وقوة بيان وإيمان بالله ورسوله ووجوب السير فيما فيه مصلحة المسلمين . وفيه تعظيم لطاعة الخلفاء ونصيحتهم وما في ذلك من قوام الدولة . وأورد نص جواب والي خراسان نصر بن سيار جاء فيه (نبايع لعبد الله الوليد أمير المؤمنين والحكم بن أمير المؤمنين إن كان من بعده وعثمان بن أمير المؤمنين إن كان بعد الحكم على السمع والطاعة . وإن حدث بواحد منها حدث فأمير المؤمنين أملك في ولده ورعيته بقدّم من أحب ويؤخر من أحب وعلى ذلك عهد الله وميثاقه) .

ولقد روى الطبري ^(١) أن الوليد استشار في تولية ابنه للعهد فنهاء وقال إنها غلامان لم يحتلما واقترح عليه أن يبايع لعتيق بن عبد العزيز بن الوليد فغضب عليه . والروايات تروي أن إبراهيم الذي ولي بعد يزيد قد حبس الحكم وعثمان ثم قتلها وأن الحكم نظم قصيدة في الحبس يندب نفسه ويوصي بالخلافة أن لم يعيش لمروان بن محمد وأن أهل حمص ثاروا لمقتل الوليد وتمسكوا بحق الحكم وأخيه بالخلافة بعد أبيهما ولا يكون هذا لو كانا غلامين لم يحتلما فيما يتبادر لنا .

ومما روي عن الوليد أنه لاحق بني عمه هشام لملاحقة شديدة فحجز أموالهم وحبس بعضهم وجلد بعضهم ونفى بعضهم واستثنى من ذلك مسلمة لأنه كان يكثر النصح لآبيه بالرفق به فأمروا بأن لا يضاروا ولا تنجز أمواله . ولقد كان اططهاده لابناء عمه حافزاً لهم ولا نصارهم ولبعض أمراء بني أمية على التآمر عليه وخلعه وقتله على ما سوف يأتي تفصيله بعد .

ومما روي عنه أنه كان مغرمًا بالخيول والسباق كعمه هشام وإن لم يبلغ مبلغه المروي أن

(٢) ج ٥ ص ٦٠٦ و٥٣٩ .

لم يكن فيه مبالغة . وانه كان يقيم الحلبة فيجري فيها ألف فرس .

ولقد روى الطبري عن عمرو بن شراحيل الذي كان من المتكلمين بالجبر والقدر والذي رويناه خبر نفيه مع رفاق له من قبل هشام انه لما استخلف الوليد كلمه فيهم بعض أخصائه والتمس منه اطلاقهم فأبى وقال ماعمل هشام عملا ارجى له عندي ان تناله المغفرة به من قتله القدرية ونفيه اياهم حيث يدل الخبر على التزامه سنة النبي والسلف الصالح في هذا الامر وشدته على اهل الاهواء والبدع .

وكذلك روى الطبري انه اغزى اخاه الغمر في البر وامر على جيش البحر الاسود بن بلال المحاربي استمراراً لعادة الغزو للروم من البر والبحر . وانه امر الاسود ان يذهب الى قبرص فيخرج اهلها منها ويخبرهم بين المسير الى الشام او المسير الى ارض الروم فاخترت طائفة منهم الشام وطائفة ارض الروم حيث يبدو انه لوحظ على أهل قبرص مخامرة ما ضد المسلمين ودولتهم وسلطانهم .

ومن الاحداث الهامة التي كانت للوليد وفيها صورة من صور الحكم اعتقاله خالد بن عبد الله والي العراق السابق وتسليمه لوالي العراق اللاحق وتعذيبه وقلته . ولقد رويناه خبر عزل هشام خالد ومصادرة مبلغ كبير منه لقاء المكسور من الخراج في سيرة هشام . ويظهر ان خصومه وشوا به الى الوليد وقالوا له انه لا يزال في ذمته خمسون ألف ألف . فكتب إليه انه قد علم حال الخمسين ألف ألف وطلب منه أن يقدم عليه ابنه يزيد للحاسبة . فاستشار ذريه فمنهم من أشار عليه بخلع الوليد والثورة عليه ومنهم من أشار عليه بالتواري فأبى هذا وذلك لما في الرأي الاول من فتنة وفي الثاني من نذالة وجبن وقدم عليه بدون ابنه الذي كان حينئذ متبدياً في الصحراء فراراً من هشام . فلما دخل خالد على الوليد سأله عن ابنه فأخبره أمره فقال له بل انك خلفته وراءك طلباً للفتنة وأمر باعتقاله وأوعز إلى صاحب شرطته بتعذيبه . وقدم يوسف بن عمر والي العراق على الوليد فقال له انا استري خالداً بخمسين ألف ألف اذا سلمتني اياه . فأرسل الوليد الى خالد في سجنه يقول له اما ان تضمن مبلغ الخمسين ألف ألف واما ان ابيعك ليوسف واسلمك له وهو يدفع المبلغ فقال خالد ما عهدت العرب تباع . والله لو سألتني ان أضمن عوداً ما ضمنته فاصنع ما ترى فسلمه ليوسف بن عمر الذي ضمن المبلغ فأخذ هذا معه الى العراق حيث عذبه وجلده ثم قتله . ولقد اثار هذا اليانية من جند الدولة لان خالداً ياتي وجعلهم يندجون في المؤامرة التي انتهت بقتل الوليد كذلك .

وبما رواة اليعقوبي انه وجد في بيت المال بعد وفاة يزيد سبعة وأربعون ألف ألف دينار^(١). ومهما يمكن ان يكون في الرقم مبالغة فان ذلك لا يمنع ان يكون للخبر اصل ما وان يكون الرقم ترديداً لذكرى حادث وجود مبلغ عظيم المقدار في بيت ماله بعد وفاته . وقد يكون في هذا المقدار ما ورث عن الخلفاء السابقين . وعلى كل حال ففي الخبر صورة من صور ثروة الدولة الضخمة كما هو المتبادر . واذا ذكرنا ان الوليد قد زاد اعطيات الناس عشرة دنانير واعطيات اهل الشام عشرين ديناراً وانه كان سخياً كما روينا قبل ازدادت هذه الصورة قوة وضخامة .

ولقد جرى على يد الوليد حادث شخصي هام آخر فيه كذلك صورة من صور الحكم . فقد ضرب والي قسرين الوليد بن القعقاع وكان يمانياً شخصاً معروفاً من رجالات العرب هو ابن هيرة . فجاء ذوو المضروب الى الوليد يشكون الوالي فعزله وجد في طلبه حتى ظفر به وسلمه مع أخ له وبعض أقاربهم الى ابن هيرة وذويه فعذبوهم فأتوا بالعذاب^(٢) . وقد اثار هذا الحادث كالسابق نقمة اليانين على الوليد وجعلهم ينضمون لحصومه ويتألبون عليه في أواخر خلافته على ما سوف نرده بعد .

وبما روي من اعماله وفيه كذلك صورة من صور الحكم انه اجمع على عزل يوسف بن عمر عن ولاية العراق بعد ان شفى غليله من خالد بن عبد الله فكتب إليه يقول انك كتبت الى امير المؤمنين تذكر تخريب ابن النصرانية يعني الوالي السابق خالد لأن امه كانت نصرانية ثم اسلمت البلاد . وقد كنت على ما ذكرت من ذلك تحمل الى هشام ما تحمل . وقد ينبغي أن تكون قد عمرت البلاد حتى رددتها الى ما كانت عليه . فاشخص الى أمير المؤمنين فصدق ظنه بك فيما تحمل إليه لعهارتك البلاد . وليعرف فضلك على غيرك . لما جعل الله بينك وبين أمير المؤمنين من القرابة فانك خاله واحق الناس بالتوفير عليه ولما قد علمت مما أمر به لاهل الشام وغيرهم من الزيادة في اعطياتهم وما وصل به أهل بيته لطول جفوة هشام نباحهم حتى أضر ذلك ببيوت الاموال فخرج يوسف إلى الشام واستخلص ابن عمه وحمل من الاموال والامتعة والآنية ما لم يحمل من العراق مثله . فلما قدم الشام لقيه حسان التنبطي ليلاً فأخبره ان الوليد عازم على عزله وتولية عبد الملك بن محمد بن الحجاج مكانه . وانه لا بد

(١) ج ٣ ص ٧٥ مطبعة الغري

(٢) ج ٥ الطبري ٤٣ هـ

له من اصلاح امر الوزراء فقال ليس عندي فضل درهم فقال عندي خمسمئة ألف درهم فأتت
شئت فمبي لك وان شئت قاردها اذا تيسرت . فقبل ثم قال له أنت أعرف بالقوم ومنازلهم
من الخليفة مني ففرقها على قدر علمك فيهم ففعل . فقابلته رجلاً حاشية الوليد بالبشاشة
والتعظيم ودخل على الوليد فقدم له ما أتى به فسر وثبته في عمله (١) .

ولقد ذكرنا في سيرة هشام ما روي عن ولع الوليد بالشراب والقيان واللهو قبل ولايته .
ولقد أعاد المؤرخون ذكر ذلك في سياق سيرته ورووا انه استمر عليه بعد ولايته وانه أول
من حمل إليه المغنون من البلاد وجالس الملهين وأظهر الشراب . وانه طلب من والي خراسان
ان يتخذ له برابط وطنابير وأباريق من ذهب وفضة وان يجمع له كل صناجة وكل يازي
وكل برذون فاراه ثم يسير بكل ذلك بنفسه إليه مع وجوه أهل خراسان وان والي هيا
مطلوبه حتى قال أحد الشعراء في ذلك :

أبشر يا أمين الله	أبشر بتباشير
بابل يحمل المال	عليها كالانابير
بغال تحمل الحمر	حقابتها طنابير
ودل البربريات	بصوت البم والوزير
وقرع الدف احيانا	ونفخ بالمزامير
فهذا لك في الدنيا	وفي الجنة تجبير

وانه نظم هذه الابيات الفاجرة البذيئة حينما أتاه البشير بموت هشام :

اني سمعت خليلي	نحو الرصافة رنه
أقبلت اسحب ذيلي	اقول ما مالهنه
إذا بنات هشام	يندن والدهنه
يدعون ويلا وعولاً	والويل حل بهنه
أنا الخنث حقاً	إن لم أنيكهنه

وان بني هاشم رموه بالكفر واللواط والزندقة ومضاجعه امهات ولد ابيه . وانه فتح

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٠٥

المصحف فوقع على الآية (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورأته جهنم ويسقى من ماء صديد) فنصب المصحف غرضاً للشباب واخذ يرميه وينشد :

أتوعد كل جبار عنيد فيها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يارب خرقني الوليد

وانه انكر وحي الله على النبي وقال معرضاً به :

تلعب بالخلقة هاشمي بلا وحي أتاه ولا كتاب

وان صاحباً له اسمه البندار طلب منه ان يشرفه امام الناس بمسارة كلامية لما وقف يريد أن يخطب الناس في موسم حج فأجابه الى سؤاله واستدعاه امام الناس فساره قائلاً :

البندار - وهذا اسم الصاحب - ولد زنا والوليد ولد زنا وكل من ترى حولنا ولد زنا .
اقبمت قال نعم قال فاتزل الان !

وانه دخل عليه بعض حجابيه وكان في مجلس شراب وقيان مع اصحابه امتد اياماً فقال له يا امير المؤمنين ان بالباب جمعاً من وفود العرب من قريش وغيرهم : والخلقة تجل عن هذه المتزلة وتبعد عن هذه الحال فقال اسقوه فأبى فوضع في فمه قمع وجعلوا يسفونه حتى خر ما يعقل مسكراً .

وانه سهر ليلة مع جارتين له لاهياً شارباً حتى مطلع الفجر ثم اخرج احدهما مثلمة تعالت بالناس وهي سكرى جنبه . وانه لما بلغه ان الناس يعيبونه بالشراب والذات قال هذه الابيات :

ولقد قضيت ولم يجلل لمتي شيب على رغم العدو الذاتي
من كآبات كالدّمى ومناصف ومراكب للصيد والنشوات
في فتية تأبى الشمس وجوهمهم شم الانوف ججاج سادات
ان يطلبوا بنوالمهم يعطونها او يطلبوا لا يدركوا بترات

وانه اثر له في الخمر مقطوعات عديدة منها :

علاني واسقياني من شراب اصفهاني
من شراب الشيخ كسرى او شراب الهرمزاني

ان بالكأس لمسكاً او يكفي من سقائي
انما الكاس ربيع يتعاطى بالبنات

ومنها :

وصفراء في الكأس كالزعفران سبأها الدهاقين من عسقلان
لها قاد ربح اذا صفقت تراها كلمة برق يماني

ومنها .

لبت حظي اليوم من كل معاش لي وزاد
قهوة أبذل فيها طارفي بعد تلادي
فيزال القلب منها هائماً في كل وادي
ان في ذاك فلاحي وصلاحي ورشادي

ومنها :

امدح الكأس ومن أعملها واهج قوماً قتلونا بالعطش
انما الكأس ربيع باكر فاذا لم نذقها لم نعش

وانه ولغ بأختين من حفدة عثمان بن عفان هما سعدى وسلمى فتزوج باحداهما ثم طلقها
ليتزوج بالآخرى وقد شبب بسعدى بعد طلاقها قائلاً :

أسعدى ما إليك لنا سبيل ولا حتى القيامة من تلاق
بلى ولعل دهرأ ان يؤاتي بموت من خليلك أو فراق

وانه شبب بسلمى قبل ان يتزوجها قائلاً هذه الايات :

حدثوا ان سليمي خرجت يوم المصلي
فاذا طير مليح فوق غصن يتفلى
قلت يا طير ادن مني فدنا ثم تدلى
قلت هل تعرف سلمى قال لا ثم تولى
فتظامي القلب كلا باطنأ ثم تجلى

ثم هذه الايات :

ورواه كل بدو وحضر	شاع شعري في سليمى وظهر
وتغنين به حتى انتشر	وثباته الغواني بينها
لسجدنا الف الف للأثر	لو رأينا من سليمى أثراً
ولكانت حجبنا والمعتبر	واتخذناها إماماً مرتضى
هل خرجنا ان سجدنا للقمر	انما بنت سعيد قمر

ثم قال المؤرخون ان هذه الافعال والاقوال المنكرة اثارت نقمة الناس على الوليد وكرهيتهم له فثاروا عليه . وتولى كبر ذلك يزيد بن الوليد الذي كان اكثر الناس كلاًماً فيه حتى انتهى الامر إلى قتله وحلول يزيد محله ^(١) .

والمبالغة والتحويل والصنعة بارزة على كل هذه الروايات عن هو يزيد وفسقه وفجوره وكفوره وشرابه ومجونه أو جلها ولا يمكن ان يعقل . وكل ما يحتمل ان يكون انه كان يشرب قبل ولايته واستمر على ذلك فعظم ويبلغ لتشويه اسمه وسيرته . ومن المحتمل شيء من ذلك في حياته ومن قبل خصومه الذين حرصوا على خلعه من ولاية العهد او طمعوا بالخلافة والذين حقدوا عليه بسبب تصرفه معهم بعد ولايته . ومن المحتمل ان تكون المبالغة والتحويل في زمن الدولة العباسية أيضاً .

وكتابه الطويل الى الولاية الذي أُلغنا إليه ملوء بذكر الله تعالى وتعظيم كتبه وانبيائه وتعظيم الاسلام والنبي والخلفاء والخوف من الله والوقوف عنده ويمكن ان يساق كدليل على التحويل والاختلاق . وتشده في امر اصحاب البدع القدريه والجبورية يمكن أن يساق كدليل آخر . ولا يمكن ان يصح ان يكون فاجراً فاسقاً كافراً لاهيماً ويستبشر الناس ويغتبطون بولايتهم كما روته الروايات .

ورواية المدني بأن الهاشمين رموه بالزندقة والكفر واللواط ومضاجعة امهات اولاد أبيه مهمة في هذا الباب . وقد روى معها ان الوليد اتخذ مئة جامعة (القيد الحديدي الذي

(١) في المجلد السادس من الاغانى فصل طويل في اخبار الوليد . فيه كثير مما سبق ايراده . وفيه كثير مماثل . صرفنا النظر عنه .

تغل به الايدي) على كل جامعة اسم رجل من بني هاشم لاعتقالهم وقتلهم . واهميتها آتية من كون الحركة الهاشمية دخلت في مرحلة خطيرة في عهد هشام بنوع خاس . وكانت رسل محمد بن علي العباسي وابنه ابراهيم ودعاتهم تنشط بين بلاد الشام وخراسان ولم تلبث ان اخذت تتفجر حتى انتهت الى نجاحها في خراسان والعراق ثم في بلاد الشام ومصر وزالت بها الدولة الاموية

ولقد قال الطبري عبارة عامة وهي ان اعظم ما جنى به على نفسه افساده عليه بني عميه هشام والوليد مع افساده على نفسه اليانية وهم اعظم جند الشام . ونعتقد ان هذا هو مفتاح النعمة والحركة على يزيد اللتين انتهتا بقتله وان تلك الاقوال كانت على سبيل الدعاية والاثارة ان كانت انتشرت في زمنه حقاً .

ولقد روي انه لما حوضر في حصن النعمان بن بشير في بركة حمص طلب رجلاً شريفاً ليكلمه فكلمه يزيد بن عنبسه السكسكي فقال له الوليد (ألم ادفع الموت عنكم . ألم اخدم نساءكم . ألم اعط فقراءكم) فقال انما ننقم عليك انتهاكك المحارم وشرب الخمر ونكاح امهات اولاد ابيك واستخفافك بالصلاة والدين وامر الله . فقال له حسبك يا اخا السكاسك لقد اكثرنا واغرقنا وان فيما احله الله لسعة عما ذكرته . ثم قال اما والله لئن قتلتموني لا تترقن فتنكم ولا يلم شعثكم ولا تجتمع كلمتكم ثم رجع الى مجلسه ونشر المصحف واقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان حيث يدعم هذا ما قلناه آناً من ان ما عزي إليه من منكرات نشر عنه في حياته من قبل خصومه . واختلاق التهم الفاحشة وبشها بين الناس لاثارتهم ضد الموجهة اليهم امر مألوف في كل وقت كما لا يخفى .

ولقد ذكرنا قبل ما كان في بيت المال بعد وفاة الوليد من مبالغ ضخمة . ولا يمكن ان يصح هذا لو كان هذا الخليفة خليعاً ماجناً مغروراً في الفسق والفجور .

وفي الاغاني ارجوزة له القاها على الناس خطبة منبرية . ان صحت وليس ما يمنع صحتها ففيها دليل على ما كان من قوة ايمانه بالله وتقواه والاستعانة به والتمسك بالقرآن وسنة الرسول ومن شأنها ان تنسف جل ما روي عنه من موبقات ومنكرات وهي :

الحمد لله ولي الحمد	احمده في يسرنا والجهد
وهو الذي في الكرب استعين	وهو الذي ليس له قرين
اشهد في الدنيا وما سواها	أن لا إله غيره إلها

ما ان في خلقه شريك
 أشهد ان الدين دين احمد
 وانه رسول رب العرش
 ارسله في خلقه نذيراً
 ليظهر الله بذاك الدين
 من بطع الله فقد اصابا
 ثم القرآن والهدى والسبيل
 كأنه لما بقي لديكم
 انكم من بعد لن تزلوا
 لا تتركن نصحي فاني ناصح
 من يتق الله يجد غب التقى
 ان التقى افضل شيء في العمل
 خافوا الجحيم اخوتي لعلمكم
 قد قيل في الامثال لو علمتم
 ما يزرع الزراع يوماً يحصده
 فاستغفروا ربكم وتوبوا
 قد خضعت للملك المملوك
 فليس من خالفه بهتد
 القادر الفرد الشديد البطش
 وبالكتاب واعظاً بشيراً
 وقد جعلنا قبل مشركينا
 او يعصه او الرسول خابا
 قد بقيا لما مضى الرسول
 حي صحيح لا يزال فيكم
 عن قصده او نهجه تزلوا
 ان الطريق فاعلمن واضح
 يوم الحساب طائراً الى الهدى
 ارى جماع البر فيه قد دخل
 يوم اللقاء تعرفوا ما سرهم
 فاتفعوا بذاك ان عقلتم
 وما يقدم من صلاح يحده
 فالمت منكم فاعلموا قريب

والروايات تذكر ان آل القعقاع وال خالد وبني الوليد وبني هشام صاروا إلبا واحدا
 عليه . وجاء البانيون الى يزيد بن الوليد الاول الذي كان اكثر الناس كلاماً في حق الوليد
 والذي كان يظهر النسك والورع والتقوى فعرضوا عليه ان يبايعوه .

وفي هذا توضيح اكثر لكلمة الطبري الهامة التي نوهنا بها قبل ودليل على ان الحركة ضد
 الوليد انما كانت منبعثة عن حزازات واحقاد ومطامع شخصية وقبلية .

وقد روي ان يزيد شاور عمراً بن يزيد الحكمي احد رجالات الدولة فقال . شاور
 اخاك العباس فانه سيد بني مروان فان بايعك لا يخالفك احد فشاوره فقال له هلا يا يزيد
 فان في نقض عهد آخر فساد للدين والدنيا .

وينطوي في هذا تكذيب آخر لما كان يشاع عن الوليد من الكفر والزندقة والفجور كما هو المتبادر .

ولكن يزيد لم يرتدع واستمر في سعيه واخذ ينضم اليه الحاقدون من بني امية وغيرهم . وعلم العباس فقال لمن اخبره والله اني لاظنه - ويعني اخاه يزيد - أسألم نحلة في بني مروان ولولا ما اخاف من عجلة الوليد مع تحامله علينا لشددته وثاقاً وسلمته الى الوليد . وكلف من ينصحه بالارعواء والكف فقال يزيد والله لا اكف .

ولقد بلغ مروان بن محمد والي الجزيرة خبر الحركة فكتب الى سعيد بن عبد الملك كتاباً يقول فيه (إن الله جعل لكل اهل بيت اركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها الخواف وانت بمحمد ربك ركن من اركان اهل بيتك . وقد بلغني ان قوماً من سفهاء اهل بيتك قد استنوا امراً ان تمت لهم رؤيتهم فيه على ما اجمعوا عليه من نقض بيعتهم استفتحوا باباً لن يغلقه الله عنهم حتى يسفك دماء كثيرة منهم . وانا مشغول بأعظم ثغور المسلمين فرجاً ولو جمعتي وايهم لرميت فساد امرهم بيدي ولساني ولخفت الله في ترك ذلك لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا . وانه لن ينتقل سلطان قوم قط الا في تشيت كلمتهم . وان كلمتهم إذا تشوشت طمع فيهم عدوهم . وانت اقرب اليهم مني فاحتل لعلم ذلك باظهار المتابعة لهم فاذا صرت الى علم ذلك فتهدهم باظهار اسرارهم وخذهم بلسانك وخوفهم العواقب لعل الله ان يرد اليهم ما قد غزب عنهم من دينهم وعقولهم . فان فيما سعوا فيه تغيير النعم وذهاب الدولة فعاجل الامر وحبل الالفه مشدود والناس سكون . والثغور محفوظة . فان للجماعة دولة من الفرقة والسعة دافعاً من الفقر وللعدد منتقماً . ودول الليالي مخلقة على اهل الدنيا والقلب مع الزيادة والنقصان . وقد امتدت بنا اهل البيت متابعات من النعم قد يعنى بها جميع الامم واعداء النعم واهل الحسد لاهلها . وبمحمد ابليس خرج آدم من الجنة . وقد امل القوم في الفتنة املا لعل انفسهم تهلك دون ما املوا . ولكل اهل بيت مشائم يغير الله النعمة بهم . فاعاذك الله من ذلك واجعلني من امرهم على علم . حفظ الله لك دينك واخرجك بما ادخلك فيه . وغلب لك نفسك على رشدك) .

والكتاب عظيم في بابه وينطوي على تدعيم ما قلناه من كون انبعاث الحركة هو الاحقاد والحزازات والمطامع .

ولقد روى الطبري الذي اورد نص الكتاب ان سعيداً اعظم كتاب مروان وبعث به الى العباس اخي يزيد فدعا هذا اخاه فعذله وتهده . فحذره يزيد وتظاهر بالغفلة والتنصل فقال له يا اخي اخاف ان يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا اراد ان يغري بيننا وحلف له انه لم يفعل .

ولقد روى الطبري كذلك ان بشر بن الوليد دخل على العباس فكلمه في خلسع الوليد وبيعة يزيد فنهاه العباس وقال يا بني مروان اني اظن ان الله قد اذن في هلاككم ومثل قائلا :

اني اعينكم بالله من فتن	مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستم	فاستمسكوا بعمود الدين وارشدوا
لا تلحمن ذناب الناس انفسكم	ان الذناب اذا ما ألهمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم	فتم لا حسرة تغني ولا جزع

وبما رواه ابن قتيبة ان يزيد بن خالد القسري جاء الى دمشق من البادية بعد مقتل ابيه واختفى واخذ يتصل بيزيد ويجرضه على المضي في حركته ويعدده النصر والتأييد . وان الوليد علم بمجيئه واستطاع ان يعتقله . واراد ارساله الى يوسف بن عمر والي العراق فقال له لا ادفع لك يا امير المؤمنين الخمسين الف الف في ثلاث سنين على ان تكتب لي بأمان من كانت لي عنده ودیعة وامان فيها ذمتي وموالي فقبل منه وكتب له ما طلب واحتبس عنده حتى يؤدي ما تعهد به ، فلما اخذت حركة يزيد تقوى بانضمام وتأیید الیانیين راود الوليد يزيد ابن خالد على كف قومه مقابل توليته العراق وتسليمه خصمه يوسف بن عمر اليه ليقته بأبيه . ولقد استطاع يزيد بن خالد ان ينجو من سجنه ثم انضم الى قومه المحتشدين حول يزيد بن الوليد فذهبت المفاوضة سدى .

واستمرت حركة يزيد . وكان الوليد قد تبدى في الاغنف في الازرق فاغتتم الفرصة واقبل على دمشق فباعه كثير من الناس . واستولى على خزائن الدولة وقصور الخلافة ثم أخذ يوزع الأموال على من تحشد حوله . ونصح اولياء الوليد بالانتقال الى حمص او تدمر لان فيها انصاراً اقوياء فانقل الى بادية حمص واتخذ قصر النعمان بن بشير مركزاً لخصائمه .

وجاءت اليه حشود يزيد فأخذت تتصاول مع انصار الوليد وقد انضم اليهم بعض امراء

بني أمية ومن جملتهم العباس بن الوليد ،

غير ان ربح النصر هبت لناحية حشود يزيد فدارت الدائرة على انصار الوليد وقتل منهم خلق كثير . ثم طلب الوليد ان يكلمه احد اشرف جماعة يزيد فابتدر اليه يزيد بن عنبسة السكسكي وجرت بينهما المحاورة التي اوردها قبل .

وبما رواه ابن قتيبة ان الوليد حينما ينس من النصر اعلن استعدادة للانخلاع من الخلافة فأبى الحاقدون عليه إلا رأسه . و يم كيوم عثمان واخذ المصحف وجعل يقرأ فيه فدخلوا عليه وقتلوه واحتزوا رأسه واخذوه الى يزيد فأعطى حامليه الجوائز الستة . وكانت ذلك الليلتين بقيتاً من جمادى الآخرة . سنة ١٢٦ هـ .

وبما رواه ابن كثير ان يزيد امر بنصب رأسه على رمح وبالطواف به في دمشق ثم علقه بجائط جامع دمشق فلم يزل معلقاً حتى انقضت دولة بني أمية . ثم قال وقيل إن الذي بقي في الحائط هو اثر دمه .

والسياق يدعم ما قلناه من ان المطامع والعصبية القبلية واضطهاد الوليد لبني عمه بسبب ما كان من اضطهاد هشام له ومحاولة خلعه من ولاية العهد كان مبعث هذه الحركة الفريدة في تاريخ بني أمية والتي كان لها آثار مشؤومة على دولتهم .

ولقد ثار اهل حمص لمقتل الوليد ثورة عظمية كما ثار مروان بن محمد والي الجزيرة واربينية على ما سوف نذكره في سيرة يزيد ومروان حيث يدعم هذا ما قلناه آنفاً وينبغي كونه وفقه سيبأ .

وقد يكون الوليد مسؤولاً عن ما حل فيه بسبب ما كان منه نحو خالد بن عبد الله وآل القعقاع وبني عمه . غير ان هذا لا يمكن ان يبرر الحركة التي شجها وتخوف من عواقبها غير واحد من عقلاء بني أمية انفسهم الذين كان من جملتهم العباس اخو يزيد ومروان بن محمد وسعيد بن عبد الملك .

ولقد روى ابن كثير ان يزيد ارسل برأس الوليد الى سليمان اخيه فقال مخاطب الرأس (اشهد انك كنت شروباً للخمر ماجناً فاسقاً . ولقد راودني على نفسي هذا الفاسق وانا اخوه

ولم يأنف ذلك) والرواية تتحمل كل الشك .

ولقد روى ابن كثير كذلك حديثاً نبوياً جاء فيه (سيكون من امتي رجل يقال له الوليد هو اشد فساداً لهذه الامة من فرعون لقومه) وحديثاً نبوياً آخر جاء فيه (لا يزال هذا الامر قائماً بالقسط حتى يئله رجل من بني امية) .

وهذان الحديثان مثل كثير غيرهما لم يردا في كتب الاحاديث الصحيحة . ونرجح انها موضوعان للدعاية الحزبية ضد الوليد وبني امية .

ولقد كانت حركة الهاشميين العباسيين مشتدة في هذا الطرف في خراسان ولم تلبث ان انقلبت الى ثورة ناجحة سقطت دولة بني امية وقامت دولة بني العباس نتيجة لها . وهذا قد يدعم ما قلناه ويزيد الامر تفسيراً . ولقد كان يزيد الذي قاد الثورة على الوليد وحل محله فارسي الام .

ولعل هذا يكمن وراء هذه الروايات ضد الوليد التي دونت في عهد الدولة العباسية التي للفرس فيها يد نافذة .

ولقد كان ما وقع من خلاف وقتل بين الامويين مؤثراً لشجن شاعر من شعراء الامويين هو الشاعر العلي فتظم قصيدة يتفجع فيها من ذلك ويجذر من عواقبه كما فعل بشربن الوليد وسعيد بن عبد الملك ومروان بن محمد حيث ينطوي في ذلك تأييد آخر بكون ما وقع لا يمت بصلة الى ما عزي الى الوليد من اخلاق شخصية . ومما جاء في القصيدة وهي طويلة :

شرك العدا في امرهم فتفاقت	منها الفتون وفرقت اهواؤها
ماذا أو مل ان امية ودعت	وبقاء سكات البلاد بقاؤها
اهل الرياسة والسياسة والندى	واسود حرب لا يخيم بقاؤها
غيث البلاد هم وهم امراؤها	سرج بضيء دجا الظلام ضياؤها
فلان امية ودعت وتتابع	لغواية حميت لها حلقاؤها
ليودعن من البرية عزها	ومن البلاد جمالها ورجاؤها
ومن البلية ان بقيت خلفهم	فرداً يبيجك دورهم وخلأؤها

لهفي على حرب العشيرة بينها
هلاهي تهي الغوي عن التي
وتقي واحلام لها مضرية
لما رأيت الحرب توقد بينها
نومت بالملك المهيمن دعوة
لبرد الفتها ويجمع امرها

هلاهي جهالها حلماتها
يخشي على سلطانها غوغاؤها
فيها اذا تدمى الكلوم دماؤها
وتشب نار وقودها وذاؤها
ورواح نفسي في البلاء دعاؤها
بختيارها فختيارها رجاؤها

١٢ — يزيد الثالث بن الوليد الاول بن عبد الملك ^(١)

اختلفت الروايات في عمره حينما برع بالخلافة بين ٣٧ و ٤٦ سنة . وهو ثاني خليفة اموي تولى بدون عهد سابق ^(٢) . وامه فارسية وهي شاه افريد بنت فيروز بن يزدجرد كسرى الفرس الذي قتل في خلافة عثمان . وقد روي ان امه هي بنت قيصر الروم وان ام ابني امه هي بنت خاقان ملك الترك . وان يزيد كان يفخر بذلك ويقول :

انا ابن كسرى وابي مروان وقصر جدي وجدي خاقان

وهو اول خليفة من ام غير عربية . وروي عن صفته انه كان اسمر طويلا جميل الشكل وعرف بالناقص لانه انقص الزيادة التي زادها الوليد في العطاء او ان هذا النعت قد نعت به من قبل مروان بن محمد على اختلاف في الروايات .

وقد عرف بالورع والنسك والعدل والصلاح . وبما روي انه كان قديراً على مذهب تيلان وانه دعا الناس اليه . وحملهم عليه .

وبما روي انه خطب في الناس بعد استتباب الامر له في الشام فقال (ايها الناس ، اما والله ما خرجت اشراً ولا بطراً . ولا حرصاً على الدنيا . ولا رغبة في الملك . وما بي اطراء نفسي . واني لمظلوم ان لم يرجمني ربي فاني هالك . ولكن خرجت غضباً لله ورسوله ودينه يداعياً الى الله وكتابه وسنة نبيه . لما هدمت معالم الدين واطفئ نور اهل التقوى وظهر

(١) هذه النبذة مقتبسة من الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢١ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٣٨ وبعدها ومروج الذهب ج ٣ ص ١٥٢ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ١٩٣ وبعدها والبداية والنهاية ج ١٠ ص ١١ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ١٠٨ — ١١٤ .

(٢) الاول هو مروان بن الحكم .

الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب كل بدعة مع انه والله ما كان مصداقاً بالكتاب ولا مؤمناً بالحساب . وانه لابن عمي في النسب وكفؤي بالحسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله في امره . وسألته ان لا يكلني الى نفسي . ودعوت الى ذلك من اجابني وسعيت فيه حتى اراح الله منه العباد والبلاد . ايا الناس ان لكم علي ان لا اضع حجراً على حجر . ولا لبنة على لبنة ولا اكرى نهراً . ولا اكثر مالا . ولا اعطيه زوجة وولداً . ولا انقل مالا من بلد الى بلد حتى اسد ثغر ذلك البلد وخصاصة اهله بما يغنيهم فان فضل نقلته الى البلد الذي يليه من هو احوج اليه . ولا أجركم في ثغوركم فأفتنكم وافتن اهليكم ولا اغلق بابي دونكم فيا كل قويكم ضعيفكم . ولا احمل على اهل جزيتكم ما يجليهم عن بلادهم ويقطع سبيلهم . وان لكم عندي اعطياتكم في كل سنة . وارزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين اقصاهم كأدناهم . فان انا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المذاكرة . وإلا فلکم ان تحلوني الا ان تستيبوني فان تبت قبلتم مني وان علمتم احداً من اهل الصلاح والدين يعطيكم من نفسه مثل ما اعطيكم فأردتم ان تبايعوه فأنا اول من يبايعه ويدخل في طاعته . ايا الناس انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . انا الطاعة طاعة الله فمن اطاع الله فأطيعوه ، فاذا عصى او دعا الى معصية فهو اهل ان يعصى ولا يطاع بل يقتل ويهان) .

ولئن صحت الخطبة - ولا مانع من صحتها - فان ما جاء فيها من اتهامات الوليد هي تبرير لثورته عليه وليس من شأنها اثبات هذه الاتهامات كما هو المتبادر . وفيها في الوقت نفسه صورة من اخلاقه وورعه وتقواه ورغبة شديدة في كسب قلوب المسلمين .

ولقد اثر له خطبة فيها ذم شديد للغناء خاطب فيها بني امية قائلاً (اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة . وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم لا بد فاعلمون فجنبوه النساء فانه داعية الزنا) .

ولقد غضب اهل حمص لمقتل الوليد واقام النوائح والنوادر عليه وامتنعوا من البيعة ليزيد وقتلوا واليهيم عبيد الله بن عبد الملك وكتبوا الاجناد فأجابهم طائفة كبيرة ، وانفقوا على البيعة للحكم بن الوليد . فلما انتهى الخبر الى يزيد كتب اليهم يدعوهم الى الشورى . فطردوا الرسل ثم خرجوا بقيادة ابي محمد السفياي وخالد بن يزيد بن معاوية الذي ايدهم في تمردهم زاحفين نحو الشام . فسير يزيد قوة بقيادة سليمان بن هشام واخرى بقيادة عبدالعزيز بن الوليد فكانت جولات حربية بين الطرفين ودارت الدائرة على اهل حمص في النهاية وقتل

منهم عدد كبير ثم جنح الطرفان الى المصالحة فبايع اهل حمص يزيد وصفح هذا عنهم واحسن اليهم واطلق لهم الاعطيات. وولى عليهم الوالي الذي نصبوه بعد قتل واليهم الاموي.

ولم تكن ثورة حمص هي كل ما كان مسن رد فعل لقتل الوليد . فقد نهض سليمان بن هشام وكان معتقلا في سجن الوليد بعمان فاستحوذ على امواله وحواصلها . ونهض يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكان في فلسطين فبايعه اهله ، ونهض محمد بن عبد الملك بن مروان في الاردن فبايعه اهله كذلك . غير ان يزيد سير عليهم الجيوش بعد انتصاره على ثورة حمص وعكس من توطيد سلطانه في فلسطين والاردن واخذ البيعه من اهله .

ولقد تمرد مروان بن محمد والي الجزيرة وارمينية واذربيجان ايضاً . وكان بذل جهده في درء الفتنة قبل تفاتها فلم يصل الى نتيجة . وقد كتب الى الغمر بن يزيد اخي الوليد المقتول كتاباً يحثه فيه على النهوض والمطالبة بدم اخيه ويصف عمل يزيد والذين ايدوه بالمرور والفتنة والشك ويغمر يزيد خاصة بما هو عليه من مذهب القدريه غير ان حر كته في عهد يزيد وقفت عند هذا الحد ورضخ في النهاية لسلطان يزيد ودخل في بيعته حينما رآه قد تغلب على حركات حمص وفلسطين والاردن ووطد سلطانه فيها .

ومن الاحداث الشخصية الهامة التي اقدم عليها يزيد عزله والي العراق يوسف بن عمر الشافعي ارضاء لجماعة خالد بن يزيد وقومه البانين انتصاره في حر كته . وقد عين شخصاً مكانه اسمه منصور بن جمهور من مذهب غيلان القدري الذي روي ان يزيد كان عليه . وامره بأخذ يوسف وعمله ليؤخذ الناس مظالمهم من ماله ودمهم . وارسل معه كتاباً لاهل العراق ذكر لهم فيه مساويء يزيد وما كان من حر كته ضده بسببها التي قصد بها مصلحة المسلمين وإقامة عمود الدين وما كان من تأييد الله لها حتى انتهت بقتل (عدو الله) على حسب نعته .

ولما بلغ يوسف خبر عزله اخذ يتعقب البانين ويحبسهم ويستعد للتمرد على يزيد . ولكنه لم يلق التأييد القوي على ذلك فلم يربداً من التواري فقر الى البلقاء واستخفى فيها ، وجد يزيد وعمله في طلبه حتى وجده في لباس امرأة فاعتقلوه وتفقوا لحيته وكان من اعظم الناس حية واقصرهم قامة وارسلوه الى يزيد فأمر بحبسه ثم بارساله الى العراق لتؤخذ الحقوق منه .

ومما روي ان نصر بن سيار والي خراسان خشي العزل لما كان مسن اخلاصه وهدايه لوليد فامتنع عن السمع والطاعة لوالي العراق الجديد لان ولاية خراسان كانت في معظم

هذا العهد تابعة داخلية في شمول ولاية العراق وأن يزيد تفادى الفتنة فكتب اليه بقره في ولاية خراسان مستقلاً فوقف الامر عند هذا الحد .

وبما روي وفيه صورة من صور الحكم والعهد أن يزيد بن حجرة الغساني وكان ديناً فاضلاً ذا قدر في اهل الشام دخل على يزيد فانتقده لتعيينه منصوراً بن جمهور والياً للعراق وما وراءه وقال له انه اعراي جاف واقترح عليه تولية شخص من اهل الدين والصلاح والعلم بالاحكام والحدود . فعزل منصوراً وولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مكانه .

ولقد مرض يزيد بعد بضعة اشهر من ولايته فأخذ البيعة بولاية العهد بعده لاختيه ابراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعد استشارة الامراء والا كبروجاءت البيعة لهم من الامصار والآفاق . وقد روى الطبري أن القدرية الذين هو على مذهبهم حثوه على ذلك وقالوا له لا يحل لك أن تهمل امر الامة ^(١) هذا مع أن الوليد المقتول قد كانت اخذ البيعة من الناس لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده . حيث يبدو أن يزيد لم يعتبر هذه البيعة قائمة . ولم يلبث أن توفي . وكانت وفاته لعشر مضي من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ وقد دفن بين باب الجابية وباب الصغير في رواية وفي باب الفرديس في رواية اخرى وقد روي أنه مات بالطاعون .

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٩٣ .

١٣ - ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك^(١)

تولى الحكم وعمره ٣٧ او ٤٦ سنة على اختلاف الروايات . وهو كاخيه من ام غير عربية غير اننا لم نقع على بيان جنسها واسمها .

وكان اخوه اخذ له البيعة بولاية العهد فلما توفي بايعه اهل الشام عدا اهل حمص . ثم خرج عليه مروان بن محمد والي الجزيرة وارمينية واذربيجان . واقبل في جيش الجزيرة فحاصر قنسرين فدخلت في طاعته ثم اقبل على حمص فحاصرها فدخلت في طاعته ثم زحف على دمشق وقد بلغ جيشه مع ما انضم اليه من اجناد حمص وقنسرين (٨٠٠٠٠) وسير ابراهيم جيشاً للقائه عدته كايروي (١٢٠٠٠٠) فالتقى الجيشان عند عين جر (عنجر) في البقاع فدارت الدائرة على جيش الشام حتى روي انه قتل منه ١٧٠٠٠ واسر منهم . وكانت دعوة مروان اولاً لابني الوليد الحكم فعثمان لان لها بيعة في رقاب الناس .

وكان يزيد قد اعتقلها وحبسها في الشام فعمد ابراهيم بمشورة بعض رجاله الى قتلها وقتل معها يوسف بن عمر والي العراق الذي لم يكن قد ارسل الى العراق . واستمر مروان في تحفه على الشام ودخلها ، وفر ابراهيم ، وثار موالي الوليد الى دار عبد العزيز بن الحجاج ولي العهد بعد ابراهيم فقتلوه ثم نبشوا قبر يزيد وصلبوه ، وحينئذ اقبل الناس على مبايعة مروان . فكان ثالث ثلاثة من خلفاء الامويين تولوا الحكم بدون عهد سابق .

وقد روي عن الحكم قصيدة نظمها وهو في السجن يندب فيها اياه ويشكو ظلامته ويستنجد بمروان ويرشحه للخلافة اذا مات هو واخوه ، وهذه هي منقولة عن الطبري :

ألا من مبلغ مروان عني وعمي الغمر طال بذأحنينا

(١) هذه النبتة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٥٩٦ وبعدها وابن الاثير ج ٥ ص ١١٥ .
يبعدها والامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٣ والعقد الفريد ج ٣ ص ١٩٤-١٩٦ و مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٢ والبدایة والنهاية لابن كثير ج ١٠ .

على قتل الوليد متابعتنا	بأني قد ظلمت وصار قومي
فلا غنا أصبت ولا سمينا	ابذهب كلهم بدمي ومالي
كليت الغاب مفترس عرينا	ومروان بأرض بني نزار
وشقهم عصي المسلمينا	ألم يحزنك قتل فتى قريش
وقيس بالجزيرة اجمعينا	ألا فافر السلام على قريش
والقى الحربين بني ابننا	وساد الناقص القدري فينا
وكعب لم اكن لهم رهينا	فلو شهد الفوارس من سليم
لما بعنا تراث بني ابننا	ولو شهدت ليوث بني تميم
فقد بايعتم قبلي هجيننا	انتكث بيعتي من اجل امي
وكانت في ولادة آخرينا	فليت خوؤلتي من غير كلب
فروان امير المؤمنيننا	فان اهلك انا وولي عهدي

وقد روي ان ابراهيم طلب الأمان من مروان ففتح له ودخل في بيعته . وهذه حادثة فريدة في تاريخ الدولة الاموية .

وبما قاله الطبري في صدد ولاية ابراهيم انه لم يتم امره وكان يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالأمر وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالأمر . فكان ذلك امره حتى قدم مروان فخلعه . وقد مكث في الولاية اربعة اشهر في رواية وسبعين ليلة في رواية اخرى .

١٤ — مروان الثاني بن محمد بن مروان^(١)

هو ثالث ثلاثة من خلفاء بني أمية أمه غير عربية وجنسيته كردية واختلفت الروايات في اسمها حيث ذكرت انه لبابة كما ذكرت انه ربا وصفاته الجسمانية المروية انه كان ابيض مشرباً حمرة ازرق العينين اشهل شديد الشهلة . كبير اللحية ضخمة الهامة ربعة القامة .

واختلفت الروايات في سنه بين ٧٠ و ٥٨ سنة وعلى كل فانه تولى وهو شيخ ناضج ومن صفاته الخلقية انه كان شجاعاً بطلاً مقداماً حازم الرأي كثير المروءة كثير العجب .

وقد ولاه هشام ولاية ارمينية واذربيجان والجزيرة سنة ١١٤ هـ بعد ابيه فضبطها احسن ضبط ولم يكن يبدأ من الغزو في سبيل الله ففتح بلاداً كثيرة وحصوناً عديدة وقاتل طوائف مختلفة من الترك والحزر واللان وغيرهم وكسبهم وقهرهم .

وكان يعجبه الله والطرب ولكنه اشتغل عن ذلك بالجهاد والحرب . وكان بليغاً وقد أثرت عنه كتب عديدة قوية البيان والحجة كان يرسلها الى رجالات بني أمية اثناء الفتنة ضد الوليد . واثرت له هذه الابيات الغزلية الجزلة من الشعر :

وما زال يدعوني من الصبر ما ارى	فأبى ويدنيني الذي لك في صدري
وكانت عزيزاً ان تبيني وبيننا	حجاب فقد امسيت مني على عشر
وانكاهما والله للقلب فاعلمي	اذا ردت مثلها فصرت على شبر
واعظم من هذين والله انني	اخاف بأن لا نلتقي آخر الدهر
سأبكيك لا مستبقياً فيض عبدة	ولا طالباً بالصبر عاقبة الصبر

(١) هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٦٠٦ — ٦٢٢ . وج ٦ وابن الاثير ج ٥ ص ١٢٠ — ١٦٠ والعقد الفريد ١٩٦ — ٢٠٥ ومروج الذهب ج ٣ ص ١٦٣ — ١٨٥ والبدلية والنهاية لابن كثير ج ١٠ والامامة والسياسة ج ٢ ص ١٢٣ — ١٣٧ وتاريخ البعقوني ج ٣ ص ٧٦ — ٨٦ .

وقد لقب بلقب الجعدي نسبة الى الجعد بن درهم الذي كان مؤدباً له . وكان صاحب مذهب كلامي عرف ايضاً بالمذهب الجهمي نسبة الى الجهم بن صفوان تلميذ الجعد . وكان جبرياً ولا يجعل تلازماً بين الايمان والعمل وكان بما يقوله ان الله في كل مكان بذاته وانه لم يكلم موسى تكليماً^(١) . والمتبادر ان اللقب اطلق عليه بعد موته اطلاقاً غزياً .

كذلك لقب بلقب الحمار . واختلفت الروايات في تعليل ذلك ف قيل انه سمي كذلك لشدة صبره في ما كان في زمنه من فتوق وحروب . وقيل انه سمي بذلك لان العرب تسمي كل مئة سنة حمراً وكان عهده قد اوشك على ان يتم به لبني امية مئة عام^(٢) . وهو كذلك لقب غزياً .

ولقد روى المسعودي عنه رواية تدل على قوة ارادته وجده وعزمته . فقد كانت مدته مملوءة بالمتاعب فكان اكثر ايامه لا يدنو من النساء الى ان قتل . ولقد برزت له جارية من جواريه فقال لها والله لا دنوت منك ولا حلت لك عقدة وخراسان ترتجف وتتصرم بنصرين سيار وابو مجرم قد اخذ منه بالخنق . وعذله بعض اوليائه في ترك النساء والطيب فقال لهم ينبغي ما منع امير المؤمنين عبد الملك . ثم ذكر لهم قصة الجارية التي ارسلت اليه من افريقية ابان فتنة ابن الاسعث في العراق ضد الحجاج التي اوردها في سيرته وتمثل بيت الاخطل الذي تمثل به :

قوم اذا حاربوا شدوا مأزهم دون النساء وان باتت بأطهار

ولقد شرحنا قبل كيف تمت له البيعة في الشام بعد سلسلة الانتصارات التي احرزها في زحفه من الجزيرة بعد ، رت يزيد فلا ترى ضرورة للاعادة . الا ان نرى ان ابن قتيبة قال ان الناس رضوا به لشجاعة ومخاء كانوا فيه . وان امره قد غلظ وسلطانه قد استعلى وان الناس قد خافوه وهابوه . وجاءته البيعة من الحجاز والعراق وغيرها .

(١) اعتقل خالد بن عبد الله القسري والي العراق الجعد بسبب مذهبه الذي خالف فيه مذهب السلف الذي كان يرى في الكلام في ذات الله وكنهه وفي القدر بدعة وضلالاً . وخطب خالد يوم عبد الأضحى فقال فيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم واني مضح بالجعد بن درهم عدو الله . ثم نزل فذبجه في اصل المنبر (البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٩) .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢٢ .

ومع ذلك فانه قد لقي مـ ب ومشا كل عديدة استغرقت مدة خلافته . ولقد كان يقيم اثناء ولايته الجزيرة في حران فعاد الى منزله بعد ان استتب له الخلافة فانتقضت في غيابه حمص ثم خرج ثابت بن نعيم في فلسطين وزحف على طبريا وحاصرها وكان عليها الوليد بن معاوية ابن مروان وكانت طبريا عاصمة القسم الشمالي من فلسطين . وانتقض اليازية في الشام وامروا عليهم يزيد بن خالد القسري . وكان سليمان بن هشام قد طلب من مروان الامان مع ابراهيم ابن الوليد المخاوع فأمنه وكان معه في حصاره لمص ثم تخلف عنه في الرصافة . وهناك حرضه جماعة وقالوا له انت ارضى عند اهل الشام من مروان واولى بالخلافة فاستنزل الشيطان على حد تعبير بن كثير— فأعلن خلع مروان وكاتب اهل الشام فانقضوا اليه من كل وجه .

وانضم اليه قائد جيش سيره مروان لقتال الضحاك بن قيس الخارجي في العراق مع جيشه حتى بلغ عدده ما اجتمع على سليمان نحو سبعين ألفاً . وقامت في اليمن حركة خارجية قوية بزعامه ابي حمزة الابطاحي فسيطرت على اليمن ثم زحفت نحو الحجاز فسيطرت عليه ايضا .

ولقد قابل مروان هذه الفتوق التي كانت تنفتق واحداً بعد آخر واهياناً اكثر من واحد في آن واحد برباطة جأش وحزم وسرعة وقوة فزحف نحو حمص وحاصرها مدة طويلة وضربها بالمنجنيقات حتى ثلم اسوارها واضطر اهلها الى النزول على حكمه فقتل وصلب عدداً كبيراً من المتمردين ووطد سلطانه عليها .

ثم زحف نحو الشام وتمكن من الايقاع بالتمردين واعادة توطيد سلطانه عليها . وفعل مثل ذلك في تدمر التي اندجبت في حركات التمرد . ثم سير جيشاً عرمرماً لقتال سليمان بن هشام الذي حشد حشوده في أرض قنسرين فدارت بين الطرفين معارك ضارية ثم دارت الدائرة على سليمان وحشوده وانهمزوا بعد أن قتل حسب الروايات ثلاثون ألفاً منهم . ومن جملتهم بعض اولاد سليمان . اما سليمان فقد نجح مع قسم من حشوده وتقهقر إلى العراق حيث اندمج مع حركة الحوارج ثم مع حركة أبي مسلم الخراساني بعد . وأرسل مروان جيشاً آخر إلى فلسطين تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش ثابت بن نعيم وقتل عدد كبير منه واعتقال ثابت وبعض اخصائه حيث اخذوا إلى الشام فقتلوا وصلبوا . وتفرغ بعد ذلك للمصاولة مع الحوارج في العراق وفي الحجاز وتفصيل ذلك سيأتي في نبذة خاصة عقدناها على حركة الحوارج لما كان لهذه الحركة من خطورة وأحداث .

ولقد كانت هذه المتاعب شاغلة لمروان عن الاحداث التي كانت تجري في خراسان بتدبير

محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ثم ابراهيم ابنه من بعده وبقيادة ابي مسلم الخراساني والتي
تفاهت حتى كتب لها النصر في خراسان اولاً ثم في العراق وقامت الدولة العباسية نتيجة لها
في العراق . ولقد كتب له نصر بن سيار والي خراسان يعلمه بأمر هذه الحركة وثقافتها فكتب
فيها كتب ابناً ممن الشعر متفق على قافيتها وبجورها مختلف في بعض كلماتها وهذه هي كما
رواها المسعودي :

أرى بين الرماد وميض جمر	ويوشك ان يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
فان لم تطفئوها تجن حرباً	مشمة يشيب لها الغلام
اقول من التعجب ليت شعري	أيقاظ امية أم نيام
فان يك قومنا أضحوأ نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي	على الاسلام والعرب السلام

فكتب اليه مروان : الشاهد يرى ما لا يراه الغائب . حيث كان مشغولاً بالفتوق
الغريبة المباشرة .

ولقد روى المسعودي ان نصراً لما ينس من نجدة مروان كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة
والي العراق يستمده ويسأله النصرة وضمن كتابه هذه الأبيات ايضاً :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه	وقد تبينت ان لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها	يضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا انها كبرت	لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بها	يلهن نيران حرب أيمها لهب

فلم يحبه يزيد لأنه كان في شغل في فتن العراق . ولقد اخطر نصر إلى مغادرة خراسان
حينما اشتدت حركة ابي مسلم ولم يعد له طاقة على البقاء والصمود وجاء الى الري فكتب
كتاباً ثانياً الى مروان اخبره بخروجه وضمن كتابه هذه الابيات كذلك على ما رواه
المسعودي ايضاً :

إنا وما نكنم من امرنا كالثور اذ قرب للناخع

عذراء بكر وهي في التاسع
واتسع الحرق على الراقع
اعيا على ذي الحيلة الناصع

او كالتني بحسبها اهلها
كناز فيها فقد مزقت
كالثوب اذ انهج فيه البلى

ثم ما لبث ان مات في الري كمداً .

ولقد روى المؤلف نفسه ان مروان وكل بالطرق عيوناً فلم يكذب كتاب نصر الاخير
يصل الى يده حتى جاءه احد عيونيه وقد اسر رسولاً معه كتاب من ابي مسلم الى ابراهيم بن
محمد بن علي العباسي يخبره فيه خبره وما آل اليه امره فقال مروان للرسول لا ترع . ثم
دفع لك صاحبك . قال كذا وكذا . قال فهذه عشرة آلاف درهم لك وانما دفع اليك شيئاً
يسيراً . فامض بالكتاب الى ابراهيم ولا تعلمه بشيء مما جرى وخذ جواباً فأنتي به ففعل
الرسول ذلك فتأمل مروان جواب ابراهيم الى ابي مسلم بخطه يأمره فيه بالجد والاجتهاد
والحيلة على عدوه وغير ذلك من امره ونبيه ، ثم ابيات من الرجز منها :

دونك امرأ قد بدت اشراطه ان السيل واضح صراطه
لم يبق الا السيف واختراطه

وقد احتبس مروان الرسول وارسل امرأ الى عامل البلقاء يأمره فيه بالمسير الى القرية
المعروفة بالكداد والحيمة حيث كان يقيم ابراهيم مع اهل بيته فيشده وثاقاً ويبعث به اليه
تنفذ العامل الامر فاعتقل ابراهيم وكان جالساً مائلاً في مسجد القرية وارسله الى مروان
فسأله عن امر ابي مسلم فانكر فاخرج له كتابه وقال له يا منافق أليس هذا كتابك الى ابي
مسلم ثم امر بحبسه وتعقب من علم مكانه من بني العباس فحبسهم وحبس معهم جماعة من بني
أمية عرفهم بمحاربتهم عليه منهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن الوليد بن عبد الملك
وكان ذلك في حران حيث يقيم ، ولما اشتد امر ابي مسلم امر بقتلهم . وقد استطاع اخوة
ابراهيم ابو العباس وابو جعفر واعمامه عبد الله وداود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الصمد
النجاة والافلات والذهاب الى العراق حيث اختفوا في الكوفة الى ان استولت قوات ابي
مسلم على خراسان ثم على الكوفة ، ويروى ان ابراهيم عين اخاه ابا العباس ولياً لعهد فکان
اول الخلفاء العباسيين .

ولقد سير ابو العباس جيشاً نحو الشام لقتال مروان . وبادر مروان الى لقائه بجيش

وروي انه كان اكثر عدداً من الجيش الزاحف . غير ان الدائرة دارت عليه فانهمز واستولى الزاحفون على ما لا يحصى من المال والمتاع . واستمر الزحف العباسي فاستطاع ان يستولي على بلاد الشام واحدة بعد اخرى ثم على دمشق بعد شيء من الجهد وايام عديدة من الحصار . وقد اوقعوا فيها خسائر كبيرة وروي انهم اباحوها ثلاثة ايام او ثلاث ساعات وجعلوا جامعا اسطبلا للدواب سبعين يوماً ونبشوا قبور بني امية وأحرقوا ما وجدوه من رفاتهم وقبضوا على عدد كبير من احيائهم فقتلوا وصلبوا . ومنهم من احرق حرقاً ومنهم من بسطت عليه الانطاع فخنقوا خنقاً .

وبما يرويه ابن قتيبة ان مروان بعد أن دارت عليه الدائرة وانهمز استشار احد خاصته بالارتحال بأمواله وعياله وانصاره الى ارض الروم والتزول في احدى مدائنهم ومكاتبه صاحب الروم والاستيناق منه حتى يقوي امره ثم يستأنف الجهاد في سبيل استرجاع ملك بني امية فقال له اعيدك بالله يا امير المؤمنين من هذا الرأي فتحكم فيك اهل الشرك وفي بناتك وحرملك وهم لا وفاء لهم ولا ندرى ما تأتي به الايام . وان اتت حدث عليك حادث بالروم ضاع اهلك من بعدك . ولكن اقطع الفرات ثم استدع الشام جنداً جنداً فانك في كنف وجماعة وعزة لك في كل جند صارم يسرون معك حتى تأتي مصر فانها اكثر ارض الله مالا ورجالا . ثم الشام امامك وافريقية خلفك . فان رأيت ما تحب انصرف الى الشام وان كانت الاخرى مضيت الى افريقية فقال صدقت ثم استخار الله وقطع الفرات فمر بكور من كور الشام فوثبوا عليه فأخذوا مؤخره عسكره فانتبهوه ثم مر بجمص فصنعوا له مثل ذلك ثم مر بأهل دمشق فوثبوا عليه حتى عامله الوليد بن معاوية . ثم مضى الى الاردن فوثبوا عليه ثم الى فلسطين فوثبوا عليه ثم مضى الى مصر ولم يتبعه الا الحجاج بن زمل السكسكي لا ياد له عنده وتبعه عامله في الاردن ونفر قليل آخر . وقد بث شكواه لأحدهم فقال لقد انفرجت عني قيس انفراج الرأس ما تبغني منهم احد وذلك انا وضعنا الامر في غير موضعه واخرجناه من قوم ايدنا الله بهم - يعني البائية الذين اغضبهم هشام ثم الوليد من بعده - وخصصنا به قوماً والله ما رأينا لهم وفاء ولا شكراً .

ولقد استمر الزحف العباسي من ورائه مرحلة مرحلة حتى دخل مصر والزحف من ورائه فعصر في ناحية من النخايا وحينئذ قال لمن معه من اخصائه وابنائهم واخوته ان الجزع لا يزيد في الاجل وان الصبر لا ينقص الأمل ثم عبأهم واشتبك مع محاصريهم ولم يكن بين

الطرفين اي تكافؤ قتل اكثر جماعته وفيهم بعض اخوته واولاده وتشرّد باقيهم . فلما رأى ذلك نزل عن فرسه وكسر غمد سيفه وتمثل قائلاً :

أذل الحياة وهول المات وكلا أراه وخيما وبسلا
فان كان لا بد من مية فسيري الى الموت سيرا جميلاً

ثم قاتل قتالا شديداً حتى قتل . وكان ذلك لثلاث اوست مضين من ذي الحجة

سنة ١٣٢ هـ

ومما يرويه المسعودي^(١) ان قاتل مروان اراد الكنية التي كان فيها بنات مروان ونسأوه فوجد خادماً لمروان ساهر السيف يحال الدخول عليهن فأخذ فسل عسن امره فقال امرني مروان إذا هو قتل ان اضرب رقاب بناته ونسائه ثم قال لهم لا تقتلوني فانكم والله ان قتلتموني ليفقدن ميراث رسول الله ﷺ فقالوا له انظر ما تقول فقال لهم ان كذبت فاقتلوني ثم قال لهم علم فاتبعوني فأخرجهم الى موضع رمل فقال اكشفوا هنا فكشفوا فاذا البردة والقضيب ومحصر كان دفنها مروان لثلاث تصير الى بني هاشم فوجه بها القائد الى عبد الله بن علي فوجه بها إلى ابي العباس فتداولت ذلك خلفاء بني العباس الى ايام المقتدر . ويقول المسعودي ويقال ان البردة كانت على المقتدر في يوم مقتله ولست ادري أكل ذلك باق مع المتقي لله الى هذا الوقت - أي الوقت الذي كتب فيه ما كتبه - وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة في نزوله الرقة أم قدضيع ذلك^(٢).

ولقد روى المؤرخ نفسه أن نساء وبنات مروان حملن إلى صالح بن علي عم الخليفة فقالت بنت مروان الكبرى نحن بناتك وبنات أخيك فليسعنا من عقوكم ما وسعكم من جورنا . قال إذا لا نستقي منكم احداً رجلاً ولا امرأة . ألم يقتل ابوك بالامس ابن اخي ابراهيم .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٦ .

(٢) ذكر زيدان في الجزء الاول من كتابه تاريخ التمدن الاسلامي ان البردة من جهة الخلفاء النبوية في السراي القديمة في الآستانة والغالب ان العباسيين تداولوها ثم حلوها معهم الى مصر فاخذها السلطان سليم مع الخلافة (ص ١١٥) .

وقد كان القضيب مما يتداوله خلفاء بني امية على ما ذكرناه في سياق سيرة الوليد بن يزيد .

ألم يقتل هشام زيدا بن علي . ألم يقتل امرأة زيد بالخيوة على يدي يوسف بن عمر . ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان . ألم يقتل عبد الله بن زياد مسلم بن عقيل . ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علي . ثم أوقف حرم رسول الله موقف السبي يتصفعن جنود أهل الشام . فما الذي استبقيتم منا أهل البيت . قالت ليسعنا عفوكم إذا قال أما العفو فنعم قد وسعكم فإن أحببت زوجتك من الفضل ابني وزوجت اختك من أخيه عبد الله قالت واي أوان عرس هذا بل تلحقنا بجران . ففعل فذهبن وأمن مناحة لابين فيها .

ولقد قتل العباسيون بعد ذلك من ظفروا به من أمراء بني أمية قتلا ذريعا مما سوف
نفصله في سياق الكلام على الحركة العباسية .

الفصل الثاني

الحركات والأحداث الخارجية
وسير الفتوح في عهد الدولة الأموية

الحركات والإحداث الخارجية وسير الفتوح في عهد الدولة الاموية

١٥

قلنا في مطلع الجزء إن رقعة الدولة العربية الاسلامية قد اتسعت في ظل الامويين اتساعاً مضاعفاً عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين . ولقد جرى في سياق ذلك مصاولات بين العرب وغيرهم . منها ما كان بسبيل الفتح او ادى اليه ومنها ما كان بسبيل الدفاع والمقاولة وقمع التمرد وصد العدوان .

ولقد بدأ هذا وذلك منذ عهد مبكر من خلافة معاوية ثم استمر الى اواخر عهد الدولة تقريباً . مع التنبيه الى امر هام هو ان الفتوحات الكبرى قد تمت خلال خمس وعشرين سنة وبعبارة اخرى منذ ان امكن التغلب على الحركات والفتن الداخلية العنيفة التي كانت في زمن يزيد وعبد الملك . وما جرى قبل ذلك وبعده كان اسماً من قبل التمهيد والاختبار وانغارات الحاطفة واما نتيجة لردود الفعل التي كانت تؤدي الى المصاولات بين جيوش الفتح العربي والبلاد المفتوحة وما وراءها .

وفي الكتب القديمة المدونة في القرن الثالث الهجري التي وصلت الينا مثل تاريخ الطبري وتاريخ اليعقوبي وفتوح البلدان للبلاذري والامامة والسياسة لابن قتيبة روايات كثيرة في صدد ذلك . وفيها بعض التغاير في الاسماء والتواريخ والاحداث . ويلمح في بعضها مبالغات ومفارقات وخيال ايضاً . غير انها متوافقة في الخطوط والنتائج العامة بحيث يصح ان يقال ان ذلك التغاير لا يحول دون الوثوق بالخطوط والنتائج العامة بل ويمكن ان يقال ان ما يلمح في بعضها من مفارقات ومبالغات وخيال لا يخاو من اصل ما ايضاً لانه متوافق مع تلك الخطوط والنتائج العامة .

وسنعرض في النبد التالية خلاصات وافية تبرز فيها تلك الخطوط والنتائج دون توقف كثير ازاء تضارب بعض الروايات لأنه ليس من وراء ذلك طائل . ولانه كما قلنا ليس مؤثراً على ما تتطابق فيه هذه الروايات من خطوط ونتائج عامة .

اولاً بين العرب والروم . وبين العرب والبربر خلال ذلك ايضاً
وما ادى اليه ذلك من فتح انحاء كثيرة في الاناضول
وبقية شمال افريقية ثم فتح الاندلس

•

لقد ظل الروم يشعرون بالحرق والاسى على ما ضاع من ايديهم من اقطار واسعة غنية في
سورية ومصر وبعض انحاء شمال افريقية . ويحاولون الكرة كلما سنحت الفرصة .

فكان من جراء ذلك نزاع طويل بين العرب وبينهم ثم بينهم وبين الدول الاسلامية غير
العربية الجنس التي خلفت العرب . وامتد ثمانية قرون وتعددت مراحلها . وقد كانت عهد
الدولة الاموية مجالاً للمراحل المهمة منه تمكن العرب بنتيجتها من التوسع في الانحاء التي كانت في
حيازة الروم او في ملكهم او تحت نفوذهم في آسيا الصغرى والبحر الابيض المتوسط
وشمال افريقية .

ولقد بدأ الروم بمحاولاتهم في البر والبحر منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبخاصة
ضد بلاد الشام فأمر معاوية حينما كان والياً للشام بالرد عليهم فسير حملات عديدة على حدود
الاناضول الشرقية والجنوبية . ثم كان الاشتباك البحري العظيم المعروف بوقعة ذات الصواري
والذي كان النصر فيه للأساطيل العربية . وقد حرك الروم اهل قبرص التي كان معاوية
فتحها في سنة ٢٩ هـ فغزاها ثانية في سنة ٣٢ او ٣٥ ووطد السلطان العربي عليها ثم بعث اليها
بائني عشر ألفاً من اهل الديوان وجماعات من اهل بعلبك ليسكنوا فيها ويمنعوا اهلها من
الخامرة مرة اخرى مع الروم على ما ذكرناه في الجزء السابق (١).

وبما كان في هذه المرحلة وفاتنا ذكره في الجزء المذكور الصراع على طرابلس الشام بين
السلطان العربي واهلها وما والاها من النصارى بالتآمر مع الروم . وقد روى البلاذري

(١) ص ٢٢٠ — ٢٢٤ .

ثلاث روايات في صدد ذلك . واحدة تذكر أن أهلها ثاروا في خلافة عثمان وقتلوا الوالي العربي واحرقوا المراكب العربية التي كانت في الميناء وفروا المد القسطنطينية . وثانية تذكر أن معاوية وجه في خلافة عثمان بجيب الازدي اليها فبقي في مرجلي اميال منها حصناً سمي حصن سفيان وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره وحاصرهم فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد حصونها الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم فبعثه اليهم براكب هربوا عليها فدخل المسلمون المدينة وحصنوا الحصن الذي في الميناء وكان معاوية يوجه في كل عام جماعة كثيفة إلى طرابلس لحمايتها ثم جلب جماعات من نبط العراق واسكنهم فيها ثم في عرقة وجبيل وبيروت وصيدا حيث يفيد هذا أن أهلها كانوا يتآمرون كما قلنا مع الروم أو أن الروم كانوا يتصلون بهم ويحركونهم والراجح أنهم كانوا من بقايا الروم أو المت مذهين بذهبهم .

ولقد حدث حدث حدث إلى هذا الباب في زمن عبد الملك أيضاً حيث روي أنه جاء بطرق من بطارقة الروم - وهذا لقب عسكري وليس دينياً في ذلك الوقت - ومعه بشر كثير فسأل أن يعطى الامان على أن يقيم في طرابلس ويؤدي الخراج فأجيب فبقي فيها نحو سنتين ثم اغتتم فرصة كانت الحامية العربية متغيبه عنها فاغلق بابها وقتل عاملها واسر من كان عنده من الجند ولحق بأرض الروم . وقد لحق به المسلمون في مراكب كثيرة فظفروا به وارسلوه ومن معه إلى الخليفة فقتله وصلبه .

وهناك رواية أخرى تذكر أن أهلها نقضوا العهد في أيام عبد الملك فسير إليها ابنه الوليد ففتحها فتحاً جديداً^(١) .

وتعليقاً على خبر جلب معاوية جماعات من الانباط واسكنهم بعض سواحل الشام لتقويتها نقول ان الروايات لا تذكر كنه هؤلاء الجماعات . ونرجح أنهم من الارومات العربية الجنس التي كانت تقطن العراق قبل الفتح أو قبل الموجات العربية الصريحة والتي اسلمت واندجبت في العروبة الصريحة والاسلام في سياق الفتح أو بعد تمام حركاته في العراق إذ لا يعقل ان يأتي معاوية بجماعات لا تكون مندجة قلباً وقالباً بالعروبة والاسلام وبقيمها في هذه الشواطئ التي كان معظم سكانها نصارى وفيهم جماعة كبيرة متمذهبة بالمذهب الملكي

(١) فتوح البلدان ١٣٣-١٣٥ .

الذي كان مذهب الروم .

ومن ذلك غزو معاوية سنة ٢٥ هـ عمورية . وقد ذكر البلاذري ^(١) الذي روى هذا الخبر ان معاوية وجد الحصون بينها وبين أنطاكية وطرطوس خالية فأنزل فيها جماعة من اهل الشام وقنسرين . ثم اغزى بعد سنة او سنتين يزيد بن الحر العبسي هذه الناحية وامره ان يفعل مثله . ثم غزا بنفسه سنة ٣١ هـ ارض الروم من ناحية المصيصة فبلغ دورليه فكان لايمر بحصن بينها وبين انطاكية إلا هدمه .

ولقد اغتنم الروم فرصة النزاع بين علي ومعاوية فأخذوا يغيرون على حدود الشام الشمالية فصالحهم معاوية على مال واخذ منهم رهناً ^(٢) . غير أنه لم يكد الامر يستتب له حتى سارع إلى النشاط فشحن ملاطية بجياعات من أهل الشام والجزيرة لتقوية الجبهة الشرقية الموالية للشرق وخرج على رأس جيش من ناحية انطاكية فتوغل في كليكية وهزم الروم فيها واستولى على بعض الحصون . ثم احضر جماعات من اهل بعلبك وحمص وغيرها فأسكنهم في انطاكية لتقوية الجبهة الشمالية العربية الموالية للجنوب الغربي من ارض الروم ^(٣) . ثم وطد ما كان قد بدأ به في زمن عثمان وما عرف في التاريخ الاسلامي بغزوات الصوائف والشواتي وهي جيوش كانت تتناوب غزو بلاد الروم المتاخمة للشام والعراق من نواحي الحدود الشامية الشمالية الشرقية والغربية والمرابطة فيها في الصيف والشتاء . ولم يكن الفتح والتوسع هدفاً أساسياً لها وانما كان القصد ارباب الروم وإزعاجهم . غير أن الغزاة صاروا يتوغلون في ارض الروم ويستولون على ما يمكنهم الاستيلاء عليه منها . ولم تنحصر هذه الحركة في البر بل شملت البحر أيضاً حيث كانت السفن الاسلامية تغزو سواحل بلاد الروم الاسيوية وترعجها .

ولقد نفذ معاوية هذا الترتيب باهتمام وحرص شديد . فلم تكد سنة من سني خلافته تخلو من غزوة صيفية واخرى شتوية وغزوة بحرية على ما يستفاد من روايات الطبري الذي حرص على ذكر اخبارها في اوائل أحداث كل سنة من سني خلافة معاوية كأنها امر معتاد

(١) ص ١٧٠ وبعدها .

(٢) البلاذري فتوح البلدان ص ١٦٥-١٦٦ و١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ١٩٣ و ١٧٠ وبعدها .

ونظامي من امور الدولة وكان يكون في بعض سني خلافة معاوية غزوتان صيفيتان وغزوتان شتويتان من البر . وكانت احدهما من ناحية الجهة الشرقية وطريقها ملاطية وثانيتهما من ناحية الجهة الغربية الجنوبية وطريقها انطاكية ودروب جبل طوروس .

ولقد كان الروم يحاولون جهدهم في صد هذه الغزوات والمقابلة بالمثل ويشتبهون مع الغزاة المسلمين . غير ان هؤلاء كانوا على الأعم الاغلب ينتصرون عليهم ويهزمونهم ويملأون ايديهم بالغنائم والسبي منهم ويستولون على ما يستطيعون الاحتفاظ به من حصونهم ومخربون ما لا يستطيعون الاحتفاظ به منها .

ومن اسماء قواد هذه الغزوات في عهد معاوية بسر بن ارطاة ومالك بن عبيد الله وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وابو عبد الرحمن القتي ومالك بن هبيرة وعبد الله بن قيس وفضالة بن عبيدة وعبد الله بن كرز ويزيد بن شجرة وسفيان بن عوف وعبد الرحمن بن الحكم وجنادة بن امية ومحمد بن مالك ومعن بن يزيد وعياض بن الحارث وعمر بن مرة .

وقد حرصنا على ذكرهم تسجيلاً لجهادهم وبطولتهم . وكان بسر ويزيد وفضالة وجنادة ممن يتولون قيادة الغزوات البحرية .

ولقد قدر معاوية ان هذه المصاولة تستمر بين العرب والروم ما دامت القسطنطينية في يدهم ففكر في غزوها وفتحها . وقد ذكر الطبري ان بسر بن ارطاة - وكان يتولى احياناً قيادة الغزوات البرية ايضاً - سار على رأس غزوة صيفية حتى بلغ القسطنطينية وكان ذلك سنة ٤٣ هـ^(١) وان معاوية سير سنة ٤٩ او ٥٠ جيشاً جعل على رأسه ابنه يزيد وكان فيه بعض اصحاب رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وابي ايوب الانصاري وسيره لغزو القسطنطينية ايضاً^(٢) . وقد اخترق هذا الجيش الاناضول من اقصى جنوبها الى اقصى شمالها حتى بلغ القسطنطينية وعسكر وراء اسوارها واشتبك مع بعض حامياتها وترك بعض الشهداء على ارضها منهم على ما هو مشهور ابو ايوب الانصاري الذي

(١) ج ٤ ص ١٣٧ .

(٢) ص ١٧٣ .

غدا قبره مزاراً من مزارات مجاهدي المسلمين الاولين^(١) . حيث يدل هذا على ان العرب قد بلغوا من التفوق على الروم والاعتداد بالنفس والجد في تفويض امبراطوريتهم مدى بعيداً فاستهانوا بهم ايما استهانة واستطاعوا ان يحترقوا الاناضول دون ان يخشوا كيداً او يلقوا مقاومة . ولو كان لديهم من معدات الحصار ما يكفي للتغلب على اسوار المدينة وحصونها لافتحوها .

واقد كان معاوية على حق فيما ذهب اليه من ضرورة الاستيلاء على عاصمة الروم ونسف دولتهم ومن كون الروم سيستمرون على حركات الازعاج ضد المسلمين ما دامت عاصمتهم قائمة لهم . ولقد فكر في ذلك عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما حث الجيش الزاحف على شمال افريقية بوجوب فتح الاندلس لان القسطنطينية انما تفتح بذلك على ما ذكرناه في الجزء السابق .

ولقد كان الروم يكرون على بلاد المسلمين كلما سنحت لهم الفرصة وامكنتهم الظروف طيلة بقاء دولتهم وعاصمتهم قائمتين وسواء أفي عهد الدولة الاموية ام في عهد الدولة العباسية وكانت الفرصة والظروف تتكرر لصالحهم بما كان يقوم بين العرب من حروب ونزاع . وقد مر بعض صور من ذلك حتى اضطر معاوية الى مدافعتهم بالمال ، وتكرر ذلك في زمن عبد الملك بن مروان ابان انشغاله مع ابن الزبير على ما سوف نذكره بعد .

وفي سنة ٥٣ فتح قائد البحر جنادة بن امية الأزدي جزيرة رودس وشحنها بالمرابطين المسلمين . وكانوا شديدي الشكاية على الروم يعترضون في البحر ويقطعون سفنهم . وكان

(١) مما أورده الحظري بدون عزو الى مصدر انه كان من الشهداء عبد العزيز بن زرارعة الكلبي الذي كان يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :

قد عشت في الدهر اطواراً على طرق	شئى فصادفت منها الدين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تبطرنى	ولا تخشعت من لأوائها جزعاً
لا يلا الامر صدري قبل موقعه	ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعاً

ثم ظل يقاتل حتى استشهد . وقد استدعى معاوية اباه حين جاءه نعيه فقال له هلك والله فتى العرب قتله ابني او ابنك قال ابنك فأجرك الله فقال :

فان بك الموت اودى به	واصبح منخ الحكامى زيرا
فكل فتى شارب كأسه	فاما صغيراً واما كبيراً

وفي هذه صورة رائعة من الجهاد والتجلى (ج ٢ ص ٢١٣) .

معاوية يدبر عليهم العطاء والارزاق^(١) . وقد ذكر البلاذري^(٢) ان معاوية بن خديج الكندي غزا جزيرة صقلية في ايام معاوية بن ابي سفيان حيث يبدو من ذلك سعة آفاق حركة الغزو في ايام هذا الخليفة .

ولقد توقفت هذه الحركة النشيطة بعد موت معاوية بسبب ما نشب من فتن داخلية في عهد ابنه يزيد ثم في عهد مروان وعبد الملك استغرقت اكثر من عشر سنين . وقد اغتم الروم الفرصة وتحركوا ضد الحدود الشامية الاسلامية .

ولقد اشار الطبري اشارة مقتضبة الى حادث من هذا القليل سنة ٧٠ فقال ان الروم ثاروا واستجاشوا على من بالشام فصالح عبد الملك بن مروان ملك الروم على ان يؤدي اليه كل جمعة الف دينار خوفاً على المسلمين^(٣) .

وقد يدل ذكر الطبري لهذه الحادثة وحدها على أن الروم كانوا لحسن الحظ في شغل بأنفسهم في السنين العشر السابقة التي انشغل العرب فيها بأنفسهم .

ولقد ذكر ابن الاثير هذا الحادث في عبارتين الاولى^(٤) مثل عبارة الطبري والراجح انه نقلها عنه . والثانية جاء فيها^(٥) انه خرج عام ٧٠ هـ قائد من قواد الضواحي في جبل اللكام فتبعه فئات من الجراحة والانباط والروم وابق العبيد ودخلوا لبنان وعاثوا فيه فساداً فحاسنهم عبد الملك لاستغاله بابن الزبير ورتب لقائهم الف دينار في الاسبوع ثم ارسل مولى له اسمه سحيم فتظاهر لقائهم بالنقمة على عبد الملك حتى ركن اليه ثم وعد من انضم اليه من العبيد بالحرية والعطاء فانضوا اليه فتمكن نتيجة لذلك من قتل القائد وتشيت شمل عصابته .

والراجح ان الرويتين نقصان خبراً واحداً وقع فيه لبس . ويفهم منه أن الروم حرضوا بعض سكان جبل اللكام للتشويش على السلطان العربي اثناء انشغال العرب بالفتن الداخلية . ولعلمهم أرسلوا بسبيل ذلك بعض شرادهم الى جبل لبنان ليثيروا بعض سكانه المتمذهبين بالمذهب المملكاني الذي كان مذهبهم ويتعاونوا معهم فعمد عبد الملك الى معالجة الحالة على

(١) الطبري ج : ص ٢١٤ . (٢) فتوح البلدان ص ٢٤٤ .

(٣) ج ٢ ص ٤ (٤) ج ٤ ص ١١٩ . (٥) نفس الجزء ١١٨-١١٩ .

الوجه الذي ذكره ابن الاثير في روايته الثانية . وهو المعقول المتسق مع الظروف الفاتية .

فالصراع كان قوياً مستمراً بين الدولة العربية ودولة الروم وقد مر في مرحلة شديدة في عهد معاوية حتى اختوت حملات العرب الاناضول ودقت ابواب القسطنطينية . فليس من المعقول ان يستجيب ملك الروم الى رجاء عبد الملك فيسحب او يسديء عضادات ارسلها خصيصاً للازعاج ونجحت في مهمتها . ومبلغ الاتاة الاسبوعي المروي يدعم ذلك لانه من التفاهة في درجة لا يمكن ان يعرض على ملك دولة كفضية او جزية او يقبل به وكفى .

ولقد اورد خبر اتاة معاوية وعبد الملك على صور اخرى نرى السياق مناسباً لايراد روايتها والتعليق عليها . فقد روى الدبس (١) عزواً الى المؤرخين نوافان وشدرانس انه في السنة التاسعة للملك قسطنطين النجاني خرج المردة من لبنان فضبطوا ما كان بين الجبل الاسود المعروف اليوم بالجبل الاقارع فوق السويدية - في سواحل الاناضول بما يلي جبال طوروس - الى المدينة المقدسة اورشليم واستجوزوا على قمم لبنان وانضم اليهم كنيرون من الحيد والاسرى والوطنين فبلغ عددهم الوفة كثيرة وبلغ اخبر معاوية فخشى العاقبة وارسل وفدا الى الملك يطلب الصلح على ان يؤدي جزية سنوية فاجابهم الى سؤالهم وافند معهم بطريقاً للمداولة وكتابة عهد الصلح وكتبت عبدة موثقة باليمين على ان يدفع العرب كل سنة للرومانيين ٣٠٠٠ ذهب و ٨٠٠٠ اسير وخمسين جواداً من الخيل الجياد (٢) وان تكون مدة الصلح ثلاثين سنة . وعاد البطريق يحمل هدايا نفيسة جداً الى الملك .

وفي السنة الاولى للملك عبد الملك بن مروان تواترت غارات المردة في جوار لبنان وثقات وطاة الطاعون والجماعة في سورية فطلب عبد الملك تجديد عبدة معاوية وارسل وفداً وتعهد بدفع ٣٦٥ ديناراً كل سنة ومقداراً من العبيد والجياد .

وفي السنة الاولى للملك يوستيناس ارسل عبد الملك وفداً آخر وجدد الصلح على ان يمنع ملك الروم غارات عسكر المردة من لبنان ويصد غزواتهم ويدفع عبد الملك اليه في كل يوم الف دينار وعبداً وفرساً وان يقسم الملكان خراج قبرص وارمينية الرابعة وايبيريا قسمة

(١) تاريخ سورية الجزء الثالث المجلد الخامس ص ١٠٤ وبعدها .

(٢) في الرواية التي يعزوها الدبس إلى شدرانس (١٠٠٠٠ ذهب) و ١٠٠٠ عبد بدون خيل .

عادلة وقد اصدر ملك الروم امراً بأبعاد ١٢٠٠٠ من المردة عن اوطانهم فاضر بذلك قوة المملكة الرومانية لأن جميع المدن المجاورة للبنات من المصيصة الى ارمينية الرابعة كانت ضعيفة وخالية من السكان بسبب غارات المردة .

وقد روى الدبس في المصدر نفسه عن السمعاني^(١) رواية عجيبة اخرى مفادها ان الملك يوستيناس جهز جيشاً سيره الى سورية واشاع انه لمحاربة العرب ودفع الى قائده خلعا سلطانية ورسالة مشرفة ليسلمها الى امير لبنان وامره بمقابلة الامير منفرداً وقتله حينما تسنح له الفرصة . وان القائد قابل الامير واسمه يوحنا في قب الياس وبينما كان يتناول الطعام على مائدته اشار الى جنوده فوثبوا عليه وقتلوه ونشبت اثر ذلك معركة بين الروم والمردة كان النصر فيها للروم . ثم عمد القائد الى تهدئة غيظ المردة ومجاملتهم وقال لهم ان القسطنطينية محفوفة بمخاطر شديدة ومهددة بالعرب والفرس وهي في اشد الحاجة الى مساعدتهم واكثر لهم العود فهدأ المردة نتيجة لذلك ومشى مع القائد منهم اثنا عشر الفا الى ارمينية للدفاع عن بلاد الروم وهناك احتال الملك عليهم فأبقاهم :

وبما رواه الدبس في هذا السياق ايضاً انه كان للمردة او الموارنة ملك ودولة ممتدة السلطان من جبال انطاكية الى جبال الجليل وانها ظلت محافظة على استقلالها بعد استيلاء العرب على بلاد الشام مدة طويلة تحت حكم امرائها او ملوكها وان الروم كان لهم مداخلة ونفوذ عليهم امتدا امداً طويلاً حتى ان الملك يوستينانوس الاخرم ارسل جيشاً لاحتضار بطرك الموارنة مكبلاً بالحديد لامتناعه عن حضور مجمع ديني دعا اليه لاقرار عقيدة المشيئة الواحدة للمسيح وكان البطرك مخالفاً لذلك وتمسكاً بعقيدة المشيئين وان الجيش لما بلغ سورية وثب على دير مارون وقتل من رهبانه ٥٠٠ ودمره وتحول من هناك الى قنسرين والعواصم وضربها وقرض اصحاب المشيئة الواحدة عن آخرهم - والسياق يقضي ان يكون الذين قرضهم اصحاب المشيئين - ثم جاء الى طرابلس وخيم مع جيشه في السهول المجاورة . وظل ملقياً الذعر في اصحاب العقيدة الخالفة الى ان مات الملك فنار عليه الاهالي وقتلوا فيه ، وشتوا شمله .

ولقد ذكر لامانس اليسوعي في كتابيه حياة معاوية وتسريح الافكار ان المردة جماعة

(١) المصدر السابق ص ١١٢ وبعدها .

جليون شبه بالرحالين كانوا يسكنون جبال اللكام وكانوا يتحكمون في معايرها وان الروم حينما انسحبوا من سورية سيروا حملة منهم فأنت وتخصت في لبنان واخذت تعيث في البلاد وتقلق أمن الدولة الاموية وان ذلك كان بعد نصف القرن السابع للميلاد وهذا يعني في اوائل عهد الدولة الاموية ، وان ملك القسطنطينية حينما اتفق مع معاوية ثم مع عبد الملك من بعده سحب هذه الطائفة الحربية من لبنان .

وقال هذا المؤلف فيما قال ان هذه الطائفة ظلت مدة طويلة مهيمنة على الدروب اي دروب بلاد الاناضول من جبال طوروس على ما كانت تعنيه هذه الكلمة ^(١) . وان الروم والعرب على السواء كانوا يدفعون لهم الخصاصات .

وسياق لامانس قد يتفق بعض الشيء مع رواية ابن الاثير الاكثر وجاهة واتساقاً مع الظروف التي كان عبد الملك مشغولاً فيها بابن الزبير على أن التحويل والمفارقة يظلالا يكتنفان دعوى الدبس ولامانس عن قوة وبأس هذه الطائفة . وبخاصة فانها يكتنفان بقوة اكثر روايت الدبس لانها تعني فيما تعنيه وجود دولة واسعة السلطان نافذة السيطرة والسطوة في منطقة شاسعة من بلاد الشام - تمتد من جبل اللكام شمالاً الى جبل لبنان الى جبل الجليل الى اورشليم - ابان قيام الدولة الاموية فتصول وتجول وتعتدي وترهب وترعب دون ان تقدر هذه الدولة على منعها وايقافها عند حدها بل وترى نفسها مضطرة الى الالتجاء الى ملوك الروم للقيام بهذه المهمة . ويرسل هؤلاء جيوشهم الى قلب بلاد الشام ويقومون بالمهمة ويبعدون اثني عشر الفا من مقاتلي المردة بالحيلة او بالقوة ويعودون كما دخلوا بسلام دون ان يتحرشوا بالعرب او يتحرش بهم العرب .

ولا يقف الامر عند هذا فان ملك الروم يرسل في مسألة دينية جيشاً الى بلاد الشام فبدمر اديرة النصارى المخالفين لمذهب الروم ويقتل رهبانها ويصل الى طرابلس لاعتقال بطرك الموارنة ويكبله بالحديد ويرغم المخالفين لمذهب الروم على تغيير مذهبهم خوفاً وتقية ويظل مرابطاً الى ان يموت الملك فيشب عليه الموارنة ويفتكون به .

(١) وال هذا المعنى يشير البيت المأثور عن امرؤ القيس الشاعر الجاهلي :

وايقن انا لاحفان بقيصرا

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه

واستحالة الروايات على الوجه المروي تبدو واضحة إذا ما تذكرنا أن الصراع كان على أشده بين العرب والروم منذ بدء الدولة الاموية وغزوات العرب الصيفية والشتوية البرية والبحرية متواترة من بدء خلافة معاوية الى نهايتها ثم طيلة خلفائه من بعده على ما سوف يأتي بيانه . وقد اختوت جيوش معاوية الأناضول مرتين ووصلت الى اسوار القسطنطينية ، وفعلت مثل ذلك جيوش سليمان بن عبد الملك على ما سوف يأتي بيانه كذلك .

فليس من المعقول اولاً ان تكون الدولة الاموية في عهد معاوية في مثل هذه القوة وتسكت عن حركات المردة المزعجة في بقعة شاسعة من بلاد الشام التي كانت مركز قوة الدولة الاموية وحيويتها وبخاصة ان عهد معاوية كان خالياً تقريباً من الفتن الداخلية التي يمكن ان تشغله عن هذه الطائفة او تجعله يغضي عن حركاتها .

وليس من المعقول ثانياً ان يلتجئ معاوية الى ملك الروم الذي يغزو بلاده كل سنة اكثر من مرة ومن اكثر من ناحية ويطلب منه ان يحمل هذه الطائفة على الكف عن حركاتها . وليس من المعقول ثالثاً ان يوافق ملك الروم على ذلك مقابل بضعة آلاف دينار في السنة . واذا كان عبد الملك ابان انشغاله بمسألة ابن الزبير قد دفع اناوة لتسكين حركات المردة فالمعقول ان يكون الامر كما ذكرته رواية ابن الاثير .

ولا يعقل ان يقبل ملك الروم ذلك لقاء مبلغ ناه من المال ثم يكون في امكانه ان يرسل جيشاً لارغامهم على السكون وان يكون في استطاعة هذا الجيش ان يدخل الى صميم بلاد الشام واخراج (١٢٠٠٠) مقاتل من المردة لان هذا يعني فيما يعنيه قدرة الروم على اجتياح بلاد الشام بجيوش ضخمة ثم لا يبقون فيها ولا يقوضون ملك الامويين عنها وهم الذين كانوا يحركونها ويحرضونها ويتربصون كل فرصة ويبدلون كل جهد لازعاج الدولة العربية والتشويش عليها والكرة على البلاد التي اجبرهم العرب على تركها وقلوبهم تتقطع حشرات عليها .

ولا يعقل كذلك ان يدخل جيش رومي قوي الى بلاد الشام في مناسبة خلاف ديني فيعيث في شملها ويقتل النصارى المخالفين لمذهب الروم حتى يكاد يحرقهم ويدمر اديارهم ثم يصل الى طرابلس للقضاء على ما كان في انحاءها منهم ويقوى عليهم دون ان يكون قد اضطدم بقوات الدولة الاموية وتغلب عليها ويكون قد عف مع ذلك عن بسط سلطات دولته على بلاد الشام عوداً على بدء وهو ما كان ينبغي ان تزعمه تلك الروايات حتى تم

ولقد ذكر الدويهي في كتابه تاريخ الموارنة (١) نقلاً عن ابن القلاعي ان امير الموارنة وحمل في حركاته المزعجة الى البقاع وقتل كثيراً من اهلها ونهبها فلما انتهى امره الى عبد الملك ارسل اليه هدية كأنه يريد مصادقته وكان يقصد اصطياده ولم يزل يكرهه حتى قتله وقتل كثيراً من عسكره وابعد الموارنة عن البقاع . وهذا يشبه رواية ابن الاثير وان جاء في السياق كلام كثير فيه كثير من التخليط .

ولقد كان جنوح عبد الملك الى مهادنة عصابات جبل اللكام ومدافعهم بالاناوة الاسبوعية مع كيدهم لقائهم وقتله وتشيت عصاباته بسبب انشغاله بمسألة ابن الزبير .

والمستفاد من روايات الطبري والبلاذري انه حالم اشعر ان بإمكانه الرد على الروم الذين ادرك انهم وراء حركات عصابات جبل اللكام اقدم على ذلك حيث قاد بنفسه في سنة ٧١١ وقبل ان ينتهي من نزاعه مع ابن الزبير الذي كان في مرحلة التصفية جيشاً غزابه الاناضول وفتح قيسارية ثم اعاد ترتيب الصوائف والشوائف على النحو الذي كان في خلافة معاوية من ناحية شرق الاناضول وجنوبها ومن البحر ايضاً . حتى لم تكد سنة من سني خلافته بعد هذه السنة تخلو من صائفة وشائية من الناحيتين ومن غزوة بحرية .

وكانت تشبك مع من يتصدى لها من حاميات الروم او غزاتهم وتنتصر عليهم على الاعم الغلب . وكان الروم احياناً يكونون في موقف الغازي المهاجم غير ان المسلمين كانوا يمارعون الى لقاءهم ويحبطون كيدهم . وبما سجل من ذلك خروجهم من ناحية مرعش وخروج محمد بن مروان والي الجزيرة اليهم وردهم . وغارتهم على انطاكية وكان الطاعون في هذه الاثناء يجتاح الشام ومسارة المسلمين الى رد الغارة . وغارتهم على ملاطية وتشعيبهم اباهم ومسارة عبد الله بن عبد الملك الى الكرة عليهم واعادة ملاطية الى حوزة السلطان العربي . ومن ذلك غزو محمد بن مروان الصائفة سنة ٧٣ من ناحية ارمينية وكان عدد جيشه اربعة آلاف فتصدى له من الروم عشرة اضعاف هذا العدد فانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة

(١) ص ٩٩-١٠٠ ولعل هذه الحادثة هي نفس حادثة عصابات جبل اللكام التبت في الروايات لان ما فعله عبد الملك بأمر الموارنة مشابه لما فعله بقائد العصابات .

كبيرة وغنم وسبى . وتكرر ذلك في السنة التالية حيث دخل الغزاة المسلمون بقيادة عثمان ابن الوليد من هذه الناحية فغنموا وسبوا وعادوا منصورين سالمين ومن المدن المهمة التي استولوا عليها في هذه المرحلة قاليقلا والمصيصة .

وقد روى ابن الاثير ان الذي فتح المصيصة هو عبد الله بن عبد الملك وانه بنى حصنها وأسكن فيها جماعة من المسلمين من ذوي البأس وبنى فيها مسجداً^(١) . ومن قواد هذه المرحلة غير من ذكرنا يحيى بن الحكم . ولقد استمر خلفاء عبد الملك دائبين على هذا الترتيب بجد كبير . وظل الطبري يحرص على ذكر ذلك سنة بعد سنة بحيث لم تكد سنة تخلو من صائفة وشائية طيلة اربعين سنة بعد عبد الملك .

وقد استولى العرب في هذه المرحلة على حصون ومدن كثيرة منها طوانة وقسطنطين وغزاة والاخرم وبولس وعمورية وسورية وادرولية وهرقلة وقمودية والازون وسوسنة وماسة وبديق وسميسطة وجنجر وبرجة والمرأة وطولس ومية ورومية وقيقم وطيبة وصمالة وخرشنة وسندرة . واستولوا على جزيرة صغيرة قرب القسطنطينية اسمها اروادوغزوا جزيرة اقريطش (كريت) وجزيرة صقلية . وكان غازي الاولى جنادة بن امية وغازي الثانية معاوية بن خديج ثم حبيب بن ابي عبيدة الفهري الذي فتح مدينة سرقوسة منها واثخن في سائرها .

وبما ذكره الطبري في حوادث سنة ٩٨ ان مدينة العقابلة فتحت هذه السنة . وروى في سياق ذلك ان برجان اغارت على مسلمة بن عبد الملك وهو في قلة من الناس فأمدته سليمان بجمع فكثرت بهم الصقالبة ثم هزمهم الله . وفتح المسلمون مدينتهم . وبما رواه كذلك ان امير البحر عبد الله البطال اسر في هذه المرحلة قسطنطين بن ملك الروم فأرسله الى سليمان بن هشام فسار به الى ابيه . وظل في الاسر الى ان اقتدي بفدية عظيمة .

ولقد كان الروم يبذلون جهدهم في المقاومة والمقابلة في هذه المرحلة ايضاً . وبما سجلوه من الاعمال التخريبية البرية والبحرية غارتهم على سواحل اللاذقية وهدمهم المدينة في خلافة عمر

(١) ج ٤ ص ١٩٣ وابن الاثير مثل الطبري يذكر في سياق احداث السنين واحدة بعد اخرى اخبار الصوائف والشوائب العربية في ارض بلاد الروم وبحرم متطابقاً مع ما يذكره الطبري من ذلك اقرأ الاجزاء ٣ و ٤ و ٥

ابن عبد العزيز وغارتهم على ملاطية وتشعيثها في زمن هشام بن عبد الملك .

غير ان هذه الاعمال كانت نافذة وعابرة ازاء ما كان يسجله العرب من انتصارات واستمرار ومن الذين تولوا قيادة الصوائف والشواقي في هذه المرحلة مسلمة بن عبد الملك ومحمد بن مروان والعباس بن الوليد وعبد العزيز بن الوليد وعمر بن الوليد والوليد بن هشام وبشر بن الوليد وداود بن سليمان وسعيد بن عبد الملك وابراهيم بن هشام ومعاوية بن هشام والنعمان بن يزيد بن عبد الملك ومروان بن الحكم بن محمد وعمرو بن هيرة وعمرو بن قيس الكندي وعبد الرحمن ابن معاوية بن خديج والوليد بن القعقاع وعبد الله البطل القائد البحري المشهور الذي تذكر الروايات ان نساء الروم كن يخوفن اولادهن به ^(١) . ويلاحظ ان معظم قواد الصوائف والشواقي من أبناء الخلفاء الامويين حيث يدل هذا على شدة اهتمامهم لها . بل لقد روي ان هشاماً خرج بنفسه على رأس الجيش حينما بلغه خبر غارة الروم على ملاطية بعشرين ألفاً وكان ذلك سنة ١٢٣ هـ وقد وجد الروم قد رحلوا عنها فعسكر فيها وربما وشحنها ^(٢) .

ولقد اعاد سليمان الكرة على القسطنطينية حيث بعث جيشاً بقيادة اخيه مسلمة في سنة ٩٧ هـ وأمره ان يقيم عليها حتى يفتحها او يأتيه امره فشتى وصاف فيها . وأمر جنده بأن يوفروا ما معهم من الطعام وان يغيروا على ارض الروم فيأكلوا منها وان يزرعوا ما احتاوه من الحقول ويبنوا فيها بيوتاً خشبية يأوون اليها . وقد استحصد الزرع الذي زرعه فحصدوه واكلوه . وظل محاصراً للعاصمة قاهراً لأهلها ومعه وجوه الشام ومن جملتهم خالد بن معدان وعبد الله بن ابي زكريا الخزاعي ومجاهد بن جبر حتى مات سليمان وجاءه امر خليفته عمر بن

(٢) إقرأ الجزء من الرابع والخامس من الطبري حيث نجد في اخبار كل سنة من سني خلفاء بني أمية اخبار هذه الغزوات والفتوحات وإقرأ أيضاً فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٣-١٣٥ و ١٦٦-٢١٨ وانظر غزوة صفلية من قبل حبيب الفهري في الاستقصاء لدول المغرب الاقصى ج ١ ص ٩٤ ٩٥ وقد نقل ابن كثير عن ابن عساكر ترجمة للبطل الذي ظل يغاري إلى ان قتل مع جماعة من اصحابه في ارض الروم عام ١٢٢ هـ وقد روي عن لسانه انه سئل عن اعجب ما وقع له في مغازيه فقال انه خرج في سرية ليلا فدخل قرية واندفع في اناس من اصحابه إلى بيت يزهر بسراجيه وإذا بامرأة قرب الشباك تسكت ابنها الباكي وتقول له تسكتن او لادفعنك للبطل ثم تنشله من سريريه وترمي به من الشباك وتقول خذه يا بطل فيمده يده فيأخذه ... ج ٩ ص ٣٣١ و ٣٣٢ واسمه الكامل هو ابو عبد الله يحيى البطل وهو من اهل انطاكية او نزلاها ...

(٢) البلاذري ١٩٤

عبد العزيز بالقفول (١) .

وبما رواه الطبري ان اليون ملك ارمينية طمع الى ملك القسطنطينية فاتصل بسليمان وأقنعه بتوجيه جيش لفتحها . فلما جاء جيش مسلمة وحاصرها وضيق عليها راجع بطارقة الروم اليون المذكور وقالوا له ان صرفت عنا العرب ملكناك . فأرسل الى مسلمة من ينصحه ويقول له ان القوم قد علموا انك لا تصدقهم القتال ما دام عندك طعام فلو احرق ما عندك منه لعرفوا انك جاد مستميت فأعطوك ايديهم فعمل بالنصيحة فقوي العدو وضاق الامر على المسلمين حتى كادوا يهلكون من الجوع وأكلوا الدواب والجلود وورق الشجر وجذوعها فكتب مسلمة بما جرى عليه الى الشام وكان سليمان قد مات وتولى عمر بن عبد العزيز فأرسل اليه امراً بالقفول . ووفى بطارقة الروم لليون بما وعدوه .

وقد اوردنا الرواية ونحن نشك في صحتها . ولا سيما ان غزو العرب للقسطنطينية لم يكن جديداً حتى يحتاج الى محرض ما كر مثل ليون .

ومها يكن من امر فقد حققت الغزوات العربية المتلاحقة اغراضاً عظيمة المدى حيث تمكن العرب بها من ارباب الروم وسائر سكان آسيا الصغرى وفتح كثير من مدنها وحصرهم واستصفا جميع منطقة كليسيا من الجنوب وارمينية وديار بكر وربيعه من الشرق واخضاعها لسلطانهم .

ومن عجيب ما روته الروايات ان هذه الغزوات كانت تجري احياناً بينا تكون صلوات الود موطدة بين ملوك الامويين وملوك الروم في القسطنطينية دون ان تتأثر هذه الصلات بها كأنما هي عملية عادية . فقد روى ابن كثير (٢) ان ملك الروم ارسل وفداً لمعاوية فيه رجل طويل ورجل قوي فقال له ان كان عندك من هو اطول واقوى بعثت اليك من الاسارى كذا ومن التحف كذا وان لم يكن عندك مثلها فبادني ثلاث سنين . فانبرى للطويل قيس ابن سعد فكان اطول منه وتبارى محمد بن علي بن ابي طالب - ابن الحنفية - مع القوي فغلبه وعاد الرفد يشهد بما رأى فأرسل ملك الروم ما التزم به . ولما عزم الوليد بن عبد الملك على

(١) انظر الطبري ج ٤ ص ٢٩١ - ٢٩٢

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٠١ - ١٠٢

تجديد وتوسيع المسجد النبوي كتب الى ملك الروم يطلب مساعدته على ذلك فأرسل اليه مئة الف مثقال من الذهب واربعين حملاً من الفسيفساء ومئة عامل^(١) في الوقت الذي لم تقطع فيه غزوات الصوائف والشواتي فضلاً واحداً في زمن الوليد وفي السنة التي ارسل يطلب فيها من ملك الروم مساعدته . ومن هذا القبيل في الغرابة ان الروم أسروا عام ٩٠ هـ خالداً ابن كيسان صاحب البحر وذهبوا به الى ملكهم فردوه مكرماً الى الوليد^(٢) .

ويمكن تعليل هذا أولاً بأن الغزو كان يقع على اهل البلاد اشبه بعمل عصابات غير حكومية . وثانياً بأن الروم كانوا ضعفاء في ظروف الاحداث المروية الى حد انهم لا يستطيعون توتر الصلات بينهم وبين الملوك الامويين وكانوا يجنحون الى التقرب اليهم فلا يعتبرون الغزوات حرباً رسمية ويتقاضون عنها ويفسرونها تفسيراً يخرجها من نطاق الحرب الرسمية . وبما يخطر بالبال من التعليل ان الاناضول كانت مناطق يحكمها امراء اقطاعيون مستقلون في حكم بلادهم الداخلي فكانت صلتهم غير وثيقة بالعاصمة ولم يكن ملوك الروم يعتبرون هذه الغزوات موجبة الى سلطانهم !

وكما حاول الروم ازعاج العرب في جبهة الشام واغتنام الفرص للكرة عليها وكان من جراء ذلك تلك المصاولة الطويلة على هذه الجبهة حاولوا ازعاجهم في مرحلة الدولة الاموية في شمال افريقية ايضاً بالاشتراك مع البربر استفادة من طبيعتهم الحربية ومقاومتهم العنصرية التي لم يقل غربها الاستعمار الاجنبي .

ولقد كان الدور الذي لعبوه هنا انكس واشد كيداً ونال العرب منه غناء وشدة . وكأنهم كثيراً من الدماء والجهود . ولكنه أدى في النهاية خيراً للاسلام والعروبة لأنه جعل العرب يهتمون لتوطيد سلطانتهم وطابعهم ونشر الاسلام . وقد حالقهم النجاح في ذلك بأوسع مقياس حيث وطدوا السلطان والطابع العربيين والدين الاسلامي وقفزوا الى اوروبا فأنشأوا الدرة الاندلسية التي تلالأت على مفرقهم ثمانية قرون طويلة وشعت من خلالها حضارتهم التي كان لها اثر عظيم في تطور بل قفزات الحضارة الانسانية .

ولقد شرحنا في الجزء السابع حركة الفتح العربي في شمال افريقية في خلافة عمر بن عثمان

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٢٣ (٢) نفس المصدر ص ٢٢٦

رضي الله عنها وما كان نتيجة لذلك من توطيد السلطان العربي الاسلامي في برقة و طرابلس الغرب ورتونس وبعض انحاء الجزائر . فلما انشغل المسلمون في الفتنة التي ثارت في اواخر خلافة عثمان وامتدت طيلة خلافة علي رضي الله عنها اغتم الروم الفرصة وحركوا البربر وتضامنوا معهم ضد الحاميات العربية . وطردهوا الملك الذي ولاه عبد الله بن سعد مكان جرجير . فلما اجتمع الناس على معاوية امرواليه على مصر معاوية بن خديج الكندي بالزحف على افريقية فسار على رأس حملة استطاعت ان تهزم الروم وتخضع البربر وتوطد سلطان العرب للمرة الثانية . وكان ذلك في سنة ٥٠ للهجرة في رواية وسنة ٤٧ في رواية اخرى .

وقد تولى عقبة بن نافع القهري ولاية البلاد المفتوحة بعد ذلك فأخذ ينشط في سبيل توسيع رقعة السلطان العربي والدعوة الاسلامية . واستطاع ان يسجل نجاحاً عظيماً في المجالين . من جملة ذلك اخضاع قبائل لواتة ومراتة وفتح غدامس وودان وما اليها . وقد انشأ في هذه المرحلة مدينة القيروان على الساحل التونسي لتكون له مركزاً ومعصماً .

وقد روي فيما روي ان عقبة غزا البحر في سنة ٤٩ وشتى بأهل مصر حيث يبدو انه كان بسبيل حراسة السواحل واجباط ما قد يبدو من الروم من محاولات ضدها .

ولقد عزل معاوية عقبة وعين مكانه ابا المهاجر فنشط بعض النشاط وتمكن من مد السلطان العربي الى اماكن لم يكن قد وصل اليها في اقليمي تلمسان والجزائر . وما روي - وهو غريب ومحمتمل ان يكون خطأ في الاسم - انه نزل على طنجة فخرج اليه اهله فاقفل الفريقان ثم طلب اهل المدينة الصلح فصالحهم . وفتح منطقة ميله في سفرته التي امضى فيها سنتين . وقد اسلم على يده جماعة كبيرة من البربر من جملتهم كسيلة زعيم قبائل اوربا والبرانس البربرية وحسن اسلامهم وتعاونوا مع ابي المهاجر .

وفي سنة ٥٧ هـ سير معاوية حسناً بن النعمان الغساني الى افريقية فوطد السلطان العربي على بعض انحاءها وقبائلها التي لم تكن خاضعة له وبقي الى ان مات معاوية . فعين يزيد بن معاوية عقبة والياً على افريقية فأخذ ينشط نشاطاً عظيماً ويسجل انتصارات كبيرة على الروم والبربر معاً حتى لقد بلغ بلاد الزاب والسوس الادنى والسوس الاقصى ووطد السلطان العربي عليها . وهال الروم هذا النشاط فبدلوا جهودهم مع كسيلة وكان وقع جفاء بينه وبين عقبة فاستطاعوا ان يغروه على الارتداد هو وجماعته والغدر بعقبة وجيشه . وقد اغتم فرصة

غياب عقبة عن القيروان فوثب عليها ولما عاد عقبة خرج اليه واشتبك معه في معركة ضارية ولقد كسر عقبة والمسلمون اجفان سيوفهم وقتلوا ببسالة واستاتة غير ان الدائرة دارت عليهم واستشهد عقبة ومعظم جيشه فكانت كارثة عظيمة كادت تذهب بجيود العرب التي بذلوها في هذه الاصقاع . وقد استطاع احد قواد الجيش زهير بن قيس البلوي النجاة مع بعض الفلول فجااء واقام في برقة متربصاً^(١) .

ولقد شغل العرب في هذه الظروف بجر كتي الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنها على ما سوف نشره في نبذ اخرى فيسر ذلك لكسيلة الاسمرار في حركته والتبسط في فرض سلطانه وتصفيه فتوحات العرب في افريقية (اي تونس والجزائر وما بعدها) بالتعاون مع الروم .

ورغم ما كان يشغل عبد الملك بن مروان من حركة ابن الزبير ونشاطها في العراق والحجاز فانه لم ينفذ يده من افريقية ولم ير ان يتأخر أكثر مما مضى في معالجة اتكاستها فأمر اخاه عبد العزيز والي مصر فجهز زهيراً بن قيس الذي اقام متربصاً في برقة فتقدم نحو افريقية واخذ يشتبك مع كسيلة وجماعاته من البربر ومع الروم الذين تحالفوا معهم استباكات عنيفة . وقد كتب له النصر عليهم وظفر بكسيلة فقتله مع عدد كبير من جماعاته واسترد القيروان . غير ان الروم انزلوا على بعض سواحل برقة جنداً كثيفاً وحاولوا ان يقطعوا خط الرجعة على زهير وجيشه . وقد سار هذا الى لقاءهم . غير انهم تكاثروا على المسلمين واستطاعوا ان يقتلوه مع عدد كبير من جيشه فيهم كثيرون من اشراف قرش . ولما بلغ الخبر عبد الملك جهز جيشاً عظيماً وسيروه بقيادة حسان بن النعمان الغساني وقد وصف الجيش بأنه لم يدخل المسلمون افريقية بمثله . وكان اول بلد زحف عليها قرطاجنة التي قيل انها دار ملك افريقية وكان بها من الروم خلق لا يحصى فخرجوا اليه فقاتلهم وانتصر عليهم واستولى على المدينة ودمرها ثم زحف على منطقة صفورة التي تجمع فيها الروم والبربر فقاتلهم وانتصر عليهم ايضاً . ثم علم بأمر ملكة قيل له انها اعظم ملوك البربر في جبال اوراس تعرف بالكاهنة بطيعة البربر ونجافها الروم فزحف عليها واخذ يشتبك معها في معارك عنيفة لم يقع مثلها . ولقد انتصرت في الجولات الاولى فأنقضت في العرب قتلاً واسراً وهزمتهم وتقهر

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ١١٠ و ١١١ ج ٦ ص ١٤٥ و ١٤٧ ومحاضرات الحضري ج ٢ ص ٢٤٠-٢٤١ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ١٧٨ والنجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٤ وبعدها

حسان بن مجاشع من جيشه الى حدود بركة وكتب باحال لعبد الملك فأمدّه بمدد عظيم فاستأنف نشاطه وأخذ يشتبك مع البربر والروم المتحالفين معهم حتى انتصر عليهم في النهاية وقتل الكاهنة واجلى الروم واوغل في البلاد حتى لم يعد موطنه ولم يطأه حتى ساحل البحر الاطلانتي.

وبما رواه ابن عذاري الذي نقل عنه هذا السياق السابق أن الكاهنة لما رأت حساناً يقوى ويعود الى النضال امرت بقطع الاشجار وتدمير الحصون والمدن والقرى وتخريب الطرق لتعسير حركة الزحف العربي وتموينه .

غير ان ذلك لم يمنع حساناً من مواصلة الزحف والاشتباك مع قوات الكاهنة واحراز الانتصارات عليها . وانما استشعرت بالخطر حينئذ وقالت لولدين لها انها رأت في المنام رأسها مقطوعاً وموضوعاً بين يدي ملك العرب وانها مقتولة لا محالة . ووصتها ان هي قتلت بالامستثنان لحسان والدخول في طاعته ودينه . فلما قتلت نفذاً وصية والدتها فجاء الى حسان وعرضاً عليه الطاعة وشرط عليها ان يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهدون مع العرب فأجابوه وجاؤوا برجالهم فأسلموا على يده فعقد لكل واحد من الولدين على ستة آلاف فارس واخرجهم مع العرب لتعقب الروم والبربر الذين ظلوا معهم حتى تم اجلاء الاولين واخضاع الآخرين واستقامت بلاد افريقية لحسان . فدون الدواوين وصالح على الحجاج وكتبه على عجم افريقية ومن اقام معهم على دين النصرانية. وبما روي عنه انه انشأ في تونس داراً لصناعة السفن فضع فيها مراكب غزا بها جزيرة صقلية فكان اول غاز لها (١) .

وفي سنة ٨٩ في رواية و٧٩ في رواية تولى موسى بن نصير ولاية افريقية (٢) فعاد البربر الى الانتفاض والتمرد . غير ان موسى الذي كان بدوره قوياً حازماً قابل الاحداث بقوة وجد وانتصر على المتمردين انتصاراً ساحقاً اظنّب في وصفه ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة اكثر من غيره وكتابه من اقدم ما وصل الينا من كتب التاريخ العربي .

(١) البيان المغرب لابن عذاري ج ١ ص ١٨ وبعدها فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٢٦ وبعدها .
وتاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) الرواية الاولى ذكرها البلاذري ص ٢٣٩ وقال ان الوليد هو الذي ولاه والثانية ذكرها ابن قتيبة ج ٢ ص ٥٧ وقال ان عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل عبد الملك هو الذي ولاه .

وبما رواه هذا الامام ان موسى لما وصل مركز عمله خطب في جيشه خطبة قوية بليغة جاء فيها فيما جاء (ان الامير قد ولاني عليكم ولم يأل ان اجهد نفسه في الاختيار لكم وانما انا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله وليحضر على مثلها ومن رأى مني سيئة فليتركها فاني اخطيء كما تخطئون واصيب كما تصيبون وقد امر الامير اكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً فخذوها هنيئاً مريئاً ومن كانت له حاجة فليرفعها اليها وله عندنا قضاؤها على ما عزمه وان مع المواساة ان شاء الله)^(١) مما فيه صورة رائعة من صور حكام العرب وسياستهم .

ثم اخذ ينشط في قمع المتمردين واخضاعهم فسير جيشاً الى زغوان التي كان اهلها يغيرون على سرح المسلمين فقاتلهم وهزمهم وقتل عظيمهم . وسير جيشين آخرين بقيادة ولديه عبد الرحمن ومروان الى انحاء اخرى فحالفهم النصر وسبي المسلمون سبياً عظيماً حتى لقد بلغ خمس بيت المال منه ستين ألف رأس . وحينما جاء الخبر الى عبد العزيز بن مروان امير مصر لم يصدق الخبر حتى جاءه تأييد ثان . وارسل جيشاً ثالثاً اغار على قبائل هواة وزناتة وانتصر عليها واخضعها وطلبت الصلح فصالحها . وفعلت كثار مثلها . ثم اغار بنفسه على صنهجة فانتصر عليها واخضعها وسبي منها سبياً عظيماً جديداً . ثم غزا سجوما وما حولها واشتبك مع اهلها الذين كانوا مستعدين للقتال في معارك حامية وخرج منهم احد ملوكهم فطلب المبارزة فأخرج موسى ابنه مروان له وكان شاباً يافعاً حتى لقد استخف به خصمه غير انه انتصر عليه وقتله .

وأدى ذلك الى اضطراب جموع البربر وهزيمتهم وانتصار المسلمين عليهم انتصاراً عظيماً وسبي اعداد عظيمة جديدة وفيهم بنات ملوكهم . وقتل في هذه المعارك كبير ملوكهم كسيله بن لمزم .

ووجه ابنه موسى بعد ذلك الى السوس الاقصى التي يظهر انها كانت بمن غرود فتصدى له ملكها مزدانة فاقتلوا قتالاً شديداً انتهى بهزيمة الملك وجيشه وقتل مقتلة عظيمة منهم وسبي سبي عظيم جديد .

وهكذا خضعت شوكة البربر في هذه المرحلة ففخضوا واعطوا الرهائن على الولاء واخذوا يقبلون على الاسلام . وقد عين موسى مولاة طارفاً على طنجة وما والاها وانزل فيها رهائن

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٥٦-٥٧ .

البربر وكان عددهم ١٢٠٠٠ وانزل منهم من العرب ١٧٠٠٠ وأمر هؤلاء بأن يعلموا البربر القرآن ويفقهوهم في الدين .

ونتيجة لذلك أخذ نطاق الاسلام بين البربر الذين بداوا يقبلون على اعتناقه منذ الفتح الاول يتسع حتى شملهم في النهاية جميعاً كما أخذت اللغة العربية والطابع العربي طريقهما الى التوطد والانتشار ووسم هذه البلاد واهلها بسمتها .

وكان للدين الاسلامي وكتابه المجيد من جهة وما كان يقوم من سلطان عربي في شمال افريقية من جهة وما كان وظل يتدفق على هذه البلاد من قبائل عربية فتنشر في مختلف انحاءها وتمازج من البربر وتزجهم فيها من جهة اثر قوي في كل ذلك .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز انه عين للمغرب والياً اسمه اسماعيل بن حسن وكان حسن السيرة فأدى ذلك الى اقبال البربر الذين لم يكونوا قد اسلموا على اعتناق الاسلام . وغدا الدين الاسلامي دين جميع اهل البلاد (١) . بل ان حركة انتشار الاسلام والسلطان العربي أخذت تمتد الى الجنوب اي الى بلاد السودان لتكون موازية مع امتدادها الى الشمال اي في الاندلس وما والاها .

وما سجله التاريخ بعد ذلك من نشاط البربر فانه كان يجري في نطاق سمته الجديدة من الاسلام والعروبة (٢) .

ولقد تار البربر على واليهم يزيد بن ابي مسلم سنة ١٠٢ فقتلوه ولكنهم ولوا عليهم احمد رجال العرب محمداً بن يزيد ثم كتبوا الى يزيد بن عبد الملك الذي صارت اليه الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز يقولون له اننا لم نخلع ايدينا من الطاعة ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون فقتلناه ونصبنا عاملاً علينا من عمالك العرب . فكتب اليهم يزيد يقول إني لم أرض بما صنع يزيد واقر الوالي الذي اختاروه (٣) .

(١) انظر البلاذري فتوح البلدان ص ٢٣٧ .

(٢) انظر اجزاء كتاب الاستقصاء لدول المغرب الاقصى وتاريخ ابن خلدون الجزء السادس والسابع .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٣٥٨ .

ولقد سجل التاريخ بعض حركات أخرى قادها رجال من البربر ضد السلطان العربي في عهد الدولة الاموية وبعدها . غير ان هذه الحركات كانت في نطاق اندماجهم في الاسلام والعروبة . وكثيراً ما كان يندمج فيها عرب اقحاح . وكثيراً ما كان يقوم حركات بمائلة يقودها عرب ويندمج فيها بربر . واكثر هذه الحركات كانت متممة بسمة حركة الخوارج الاسلامية وفي نطاقها وكثيراً ما كان يندمج فيها عرب اقحاح . وسنشرح صفحاتها في نبذة الخوارج حيث نجمع فيها حركة الخوارج في المشرق والمغرب معاً ان شاء الله .

ولقد سجل التاريخ قيام دول بربرية الرؤساء في شمال افريقية وفي الاندلس . غير انها كانت كذلك في نطاق اندماجهم في الاسلام والعروبة . بل ولقد كانت العروبة الطابع العام لهذه الدول . وكان كثير منها يتمسك بدعوى انتسابه الى العروبة ^(١) .

وبما رواه ابن قتيبة في سياق نشاط موسى بن نصير ان صاحب ارساف اغار على بعض سواحل افريقية فقال من اهلها فلما علم موسى بالامر خرج بنفسه اليه فلم يدركه فقال قتلني الله ان لم أقتله وأنا مقيم هنا . ثم دعا رجلاً من اصحابه فأعطاه صرة وقال له سر بها الى مكان كذا نجد كنيسة وتجد الروم قد جعلوها لعيدهم فاذا كان الليل فادن منها ودع الصرة ثم انصرف . وقد وضع موسى في الصرة شيئاً من الخبز والوشى ومن طرائف ارض العرب وكتب كتاباً بالرومية جواباً لكتاب كأنه كتب الى موسى عن صاحب ارساف يسأله الامان على ان يده له على ثروات الروم وعوراتهم وفيه ما طلبه من الامان . فسار الرجل حتى انتهى الى الموضع الموصوف وترك الصرة وانصرف . وعثر الروم على الصرة فاستنكروها وارتفع أمرها الى بطريق تلك الناحية وبعث بياهاذا الى الملك الاعظم فاستشف منها مزامرة بين صاحب ارساف وموسى فعزله وارسل رجلاً حل مكانه وامره ان يضرب عنقه وهكذا بر موسى بيمينه وقتل بجيلته الذي اغار على بعض البلاد الاسلامية ^(٢) .

ولقد أنشأ موسى على ساحل تونس دار صناعة للسفن وأنشأ خليجاً لتأوي اليه في ايام الشتاء وأمر بانشاء منة مر كب فلما كان سنة ٨٥ أمر الناس بالتأهب لركوب البحر وأعلمهم

(١) انظر اجزاء كتاب الاستقصاء والجزءين السادس والسابع من تاريخ ابن خلدون والفصل الثاني من الجزء الثالث من كتابنا العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي .

(٢) ج ٢ ص ٦٧-٦٨

انه راكب فيه بنفسه فرغب الناس وتسارعوا ثم تراءى له ان يرسل ابنه عبد الله اميراً بدلاً منه . ولم يبق شريف مما كان معه إلا ركب حتى سميت غزوة الاشراف . وقد انجّه أولاً الى صقلية فافتتح مدينة فيها واصاب غنائم كثيرة حتى بلغ سهم الرجل مئة دينار ذهباً ثم سير حملة بحرية ثانية استولت على جزيرة سرقوسة . وحملة ثالثة استولت على جزيرة سردانية . وحملة رابعة استولت على جزاير مايورقة ومنورقة .

وفي سنة ٩٢ او ٩٣ كانت القفزة الكبرى بعبور العرب الى ارض الاندلس مما يدل على ان النشاط الاول الذي بذله موسى في البحر وبخاصة استيلاءه على جزر مايورقة ومنورقة انما كان لاقامة رأس جسر لهذه القفزة وبما يدل على قوة بصيرة وادراك القائد العربي العظيم .

ولقد اطنب ابن قتيبة في وصف هذه القفزة وتناجها اكثر من غيره كذلك . وبما رواه في صدد ذلك ان موسى امر مولاه طارقاً بأن يسير بحملة بحرية نحو الساحل الاندلسي وكان ملكها لزريق مشغولاً بمقاتلة جماعات البشكينش وخلف نائباً اسمه تدمير . فبلغ هذا نزول طارق فأرسل الخبر الى لزريق . فأسرع هذا يقود جيشاً في سبعين ألفاً . ولما بلغ طارق ذنوبه منهم خطب في اصحابه قائلاً (ايها الناس اين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس ثم والله الا الصدق والصبر فانها لا يغلبان وهما جندان منصوران ولا تضر معها قلة . ولا تنفع مع الحور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة . ايها الناس ما فعلت من شيء فافعلوا مثله . وان حملت فاحملوا وان وقفت فقفوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . ألا واني عامد الى طاغيتكم بحيث لا انهيبه حتى اخالطه او أقتل دونه . فان قتلت فلا تنهوا ولا تحزنوا ولا تتنازعوا فتفشلوا وتذهب ربحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل واسير . واياكم اياكم ان ترضوا بالدنية ولا تعطوا بأيديكم . وارغبوا فيما عجل لكم من الكرامة والراحة من المهانة والذلة . وما قد حل لكم من ثواب الشهادة فانكم ان تفعلوا والله معكم ومعينكم تبوؤون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى اغشاه فاحملوا بجملي) . ثم حل وحملوا فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل طارق الطاغية وانهمزمت جموعه .

ولقد ذكرت احدى الروايات ان طارقاً قبل ان يلقي خطبته امر باحراق السفن التي عبر عليها الى الاندلس حتى يضع جيشه أمام أمر واقع خطير لا مندوحة لهم فيه عن الاستماتة في القتال . وابن قتيبة الذي هو اكثر المؤلفين اسهاباً في حوادث فتح الاندلس ورواياتها حتى

ما يمكن ان يكون قد شيب بالخيال والمبالغة منها على ما سوف يأتي بيانه بعد لم يذكر ذلك مع انه هو الذي روى نص الخطبة . وكذلك لم يذكرها البلاذري ولا الطبري المعاصرات لابن قتيبة والذيان اوردا بعض الروايات عن فتح الاندلس على ما سوف يأتي بعد .

وخطبة طارق على صحتها لا تعني تأييد ذلك . والعمل في حد ذاته مجازفة جنونية لا يمكن ان يصدقها عاقل . والسفن التي عبر عليها بعد لم تكن ملكاً للعرب وانما هي اعارة من اليان والي مجاز الاندلس على ما ذكرته المصادر الاجنبية ولم تنف المصادر العربية فلم يكن من حقه أو من طوله أن يحرقها (١) . وقد تمثل خطبته واقعاً للحال وهو انه لم يكن يملك سفناً يستطيع ان يستخدمها بحرية فيما اذا اضطر للرجوع فخطب في جيشه بما خطب .

ومما جاء في سياق ابن قتيبة ان طارقاً احتز رأس لزريق وارسله الى موسى وان هذا أرسله الى الوليد الذي فرح اعظم الفرح بالفتح واجاز الوفد الذي جاء بالرأس احسن الجوائز . وان المسلمين قد أصابوا ما يجمل عن الوصف من الغنائم المتنوعة . وان طارقاً كتب الى موسى يقول ان الامم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث فوجد ابنه مروان وأرسله فانضم الى جيش طارق واخذ طارق يقاتل من تصدى له حتى اقتتحت قرطبة وما يليها من حصون ومدن وقلاع . واجاز موسى بنفسه بعد ابنه واخذ يفتح ما كان يمر به من المدن يمينا وشمالا حتى انتهى الى طليطلة مدينة الملك فاقتتحها ووضع يده على كنوز عجيبة فيها من جملتها اربعة وعشرون تاجاً لاربعة وعشرين ملكاً سابقين ومائدة عليها اسم سليمان بن داود عليها السلام ومقادير وافرة من الذهب والفضة والمتاع . ثم استمر يفتح ويستولي حتى دانت له الاندلس . وجاء اليه وجوه جليقية فطلبوا الصلح فصالحهم . ثم غزا البشكنس ودخل بلادهم ومال الى افرنجية حتى انتهى الى سرقسطة ففتحها وفتح ما دونها من البلاد وجاوزها بعشرين ليلة . وكان بين سرقسطة وقرطبة اربعون ليلة . ومما جاء في سياق ابن قتيبة عزوا الى عبد الرحمن بن سلام انه قال :

كنت مع موسى في غزواته كلها فلم ترد له راية قط ولا هزم له جمع قط . وعزوا الى ابن صخر ان موسى لما قدم الاندلس قال له اسقف من اساقفتها انا لنجدك في كتب الحدثنان

(١) كتاب تاريخ الاندلس عبد الله عنان ص ٢٥ وهناك نص آخر لخطبة طرف يرويها مؤلف نفع عظيم متفقه معها في المطلع مختلفة في بعض عباراتها الاخرى انظر كتاب عنان ص ٢٧

عن دانيال بصفتك صياداً بشبكتين رجل لك في البر ورجل في البحر تضرب بها ههنا وههنا
فتصيد . وان موسى سر بذلك واعجبه . وعزواً الى عبد الحميد بن حميد عن ابيه ان موسى
لما غل وجاوز سرقسطة اشتد ذلك على الناس وقالوا اين تذهب بنا حسبنا ما في ايدينا .
وان موسى قال لو انقادوا لي لقدمت بهم الى رومية حتى يفتحها الله على يدي ان شاء الله .

كذلك بما رواه ابن قتيبة عزواً الى عبد الرحمن بن سلام احد شهود العيان ان موسى
أقام في الاندلس عشرين شهراً ثم خرج بعد ان بلغ في غزواته اربونة قاصداً الوليد بن عبد
الملك ومعه ابناء الملوك من الافرنج بالتيبجان والمائدة واواني الذهب والفضة والوصفاء
والوصائف وما لا يحصى من الجوهر والطرائف وخرج معه وحوه الناس . وان
المائدة كانت خواناً ليس لها رجل قاعدتها منها . وكانت من ذهب وفضة خليطين فهي
تتلون صفرة وبياضاً مطوقة بثلاثة اطواق طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من
الزمرد .

وبما رواه عن هرم بن عياض عن رجل من اهل العلم كان مع موسى ان المائدة كانت
في بيت عليه اربعة وعشرون قفلاً كان كلما تولى ملك جعل عليه قفلاً اقتداء منه بمن قبله حتى
اذا كانت ولاية لزريق قال والله لا أموت بغم هذا البيت ولأفتحنه حتى اعلم ما فيه
فاجتمعت اليه النصرانية والاساقفة والشمامسة وكل منهم معظم له ناصح بعدم مخالفة من قبله
فأبى ففتحه فوجد فيه تصاوير العرب ووجد كتاباً فيه (اذا فتح هذا البيت دخل هؤلاء
الذين هيأتهم هكذا هذه البلاد فملكوها) .

وبما رواه عن الليث بن سعد ان موسى لما دخل الاندلس ضربوا الاوتاد لحيلهم في جدار
كنيسة فتلقت الاوتاد فلم تلج فنظروا فاذا بصفائح الذهب والفضة خلف بلاط الرخام . واقبل
رجل على موسى فقال ابعت معي ادلكم على كنز فبعث فوجدوا من الزبرجد والياقوت ما لم
يروا مثله قط فأرسلوا اليه حتى جاء ونظر .

ولقد بلغ موسى دمشق والوليد مريض بالمرض الذي توفي فيه فدخل عليه وقدم له تلك
الطرائف والوصفاء والوصائف وابناء الملوك وعليهم التيبجان ومائدة سليمان ومائدة ثابتة من
الجزع فقبض الوليد الجميع وأمر بكسر المائدة فكسرت وعمد الى حجز ما فيها والتيبجان
والجزع فجعله في بيت الله الحرام وفرق غير ذلك وخلع على موسى ثلاث مرات واجازاه

بخمسين الف دينار وفرض لولده جميعاً في الشرق وفرض الخمسنة من مواليه ^(١) .

ولم يذكر الطبري الذي كان معاصراً لابن قتيبة ومات بعده بنحو ثلاثين سنة الا اشارات خاطفة الى غزو موسى للاندلس حيث قال في موضع ^(٢) ان موسى غزا سنة ٩١ الاندلس ففتح على يديه مدائن وحصون وفي موضع آخر ^(٣) ان موسى بن نصير غضب على طارق بن زياد سنة ٩٣ فشخص اليه في رجب ومعه حبيب بن عقبة فلقاه طارق وترضاه ورضي عنه ووجهه الى طليطلة وهي من عظام مدائن الاندلس وهي من قرطبة على عشرين يوماً فأصاب فيها مائدة سليمان بن داود فيها من الذهب والجوهر ما الله به أعلم .

وكذلك فعل البلاذري المعاصر لابن قتيبة والذي مات بعده بثلاث سنين وفي النبة القليلة التي اوردها اشياء هامة . وقد روي عزواً الى الواقدي ان طارقاً هو اول من غزا الاندلس وذلك في سنة ٩٢ فلقية البيان الالي على مجاز الاندلس فأمنه طارق فساعده على حمله مع اصحابه في السفن فلما صار اليها حاربه اهلها فتغلب عليهم وفتحها . وكان ملائكتهم من الاسبان واصلهم من اصبحان ! وكتب موسى الى طارق كتاباً غليظاً لتغريبه بالمسلمين واقتنائه عليه بالرأي وامره بأن لا يجاوز قرطبة وسار هو الى قرطبة فترضاه طارق فرضي عنه ثم فتح طارق مدينة طليطلة وهي مدينة مملكة الاندلس واصاب بها مائدة عظيمة أهداها موسى الى الوليد بن عبد الملك حينما قفل سنة ٩٦ هـ ^(٤) .

ومها يكن من احتمال ان تكون الروايات التي يرويها ابن قتيبة قد شئت بشيء من المبالغة والخيال فاننا لا نشك في انها انطوت على حقائق كثيرة . وان ما فيها من ذلك هو ترديد للذكرات التي كانت تتناقلها الالسن جيلا بعد جيل .

وفي تاريخ ابن الاثير نبذة طويلة في فتح الاندلس . وقد أورد العبارة المقتضبة التي أوردها الطبري ثم قال وانا اذكر فتحها على وجه اتم من تصانيف اهلها إذ هم اعلم ببلادهم ^(٥) . حيث يفيد هذا انه وقع في يده كتب عن فتح الاندلس من تأليف اهلها لم تقع في يد الطبري

(١) السباق جميعه من الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٤ و ٥٧

(٢) ج ٥ ص ٢٣٥ (٣) ص ٢٥٥

(٤) ص ٢٤٣ و ٢٣٩ (٥) ج ٤ ص ٢١٦ و ٢١٢

وفي كتاب تاريخ العرب في اسبانيا او تاريخ الاندلس لعبد الله عنان نبذة طويلة أيضاً منها ما هو معزو الى مصادر اجنبية قديمة وحديثة ومنها ما هو معزو الى مصادر عربية^(١).

والمستفاد من النبذتين ان الاقطاعية والكهنوتية كانتا متحكمتين في اسبانيا . وكانت الطبقتان الوسطى والفقيرة من عمال وفلاحين تتنان من ظلمها . وتحملان وحدهما فساد الضرائب والتكاليف . وكان في اسبانية جاليات يهودية كبيرة شردت من حكم الرومان فكانت محل الظلم والارهاق بنوع خاص من قبل رجال النصرانية وعامتهم يقتلوت منها ما يشاؤون ويسخرونها كيفما يشاؤون ويتصرفون فيها وفي ما تملك تصرف الغالب بأسيره والسيد بعده . وهكذا كان جمهور الشعب الاعظم في كرب عظيم يتعنى الخلاص ولا خلاص وكان هذا تمهيداً نفسانياً لما اصاب العرب من النجاح في زحفهم . ولقد كان فوق ذلك نزاع بين رجال الطبقة الحاكمة ايضاً . ولقد استضعف قائد الجيش رودريق الاسرة المالكة آل ويمينه فأقدم على خلع الملك وحل محله . فأثار هذا العمل حنق وغيظ الاسرة المالكة وانصارها وبث فيهم رغبة الانتقام . ولقد كان لوالي الجباز الكونت يوليان بنت جميلة استهوت قلب رودريك فاغتصبها وهتك عرضها عنوة فأقسم ابوها على الانتقام لشرفه . واتصل بموسى بن نصير في طنجة وحرضه على غزو الاندلس ووعد به بكل مساعدة فسارع موسى الى اغتنام الفرصة . وقد علم ان رودريك كان بعيداً عن عاصمته مشغولاً بقمع فتنة في الشمال فجعله هذا يقرر عزيمته . وكانت اولى خطواته ارسال حملة استكشافية بقيادة ضابط اسمه طريف ابن مالك فعبر البحر من ناحية سبتة ونزل في البقعة المقابلة لها في العدو الاوروبية والتي سميت بجزيرة طريف تخليداً لاسم القائد الجسور . وكان ذلك في رمضان سنة ٩١ هـ المقابلة لسنة ٧١٠ م . ثم سار الى قصر يوليان فقبول بالاكرام وحصل على ما أراد من الاخبار وقفل عائداً بسلام فشجع موسى ذلك على الخطوة الثانية حيث جهز حملة قوامها ٧٠٠٠ مقاتل من البربر والعرب بقيادة مولا طارق بن زياد الليثي فعبر بها البحر في سفن هياها يوليان ونزل أولاً بالبقعة التي سميت بجبل طارق ثم سار الى المنطقة التي عرفت بالجزيرة الخضراء الواقعة بعد الجبل فتصدى له واليها ومن عنده من الحاميات القوطية فهزمهم واحتل قلاعهم . وبلغ الخبر رودريك فرجع قافلاً بجيشه الذي بلغ مع ما انضم اليه من جيوش الاقاليم مئة الف . ونما الخبر الى طارق فاستمد من موسى فأمده بمخمسة آلاف . وانضم الى قوات طارق

بوليان وانصاره وغيرهم من النمليين على الطاغية . والتقى الطرفان عند النهر المعروف بالوادي الكبير . ولعب بوليان دوراً كبيراً ناجحاً في تخذيل كثير من امراء الاقاليم وقواتهم عن رودريك وقاتل طارق وجيشه ببطولة واستائة فكتب لهم النصر وعلى رودريك وجيشه الهزيمة بعد ان قتل منهم وغرق في النهر خلق عظيم وكان رودريك من الجملة . ثم اندفع الجيش العربي نحو شدونيا فاستولى عليها ثم على قرمونة ثم على اشيلية ثم على استجه حيث كانت فلول القوط قد تجمعت فيها فاشتبك معها ومزقها . ولما علم موسى بالفتح جاء على رأس جيش جديد ومعه ابنه عبد العزيز فتعزرت حركة العرب وفوتهم فأخذوا يسرون السرايا في اتجاهات عديدة نحو قرطبة وطليطلة وغرناطة ومالقة والبيرة وماردة واربولة وغيرها . وكان النجاح بمآلها في كل اتجاه على الاغلب فتستولي على المدائن والقرى في الاتجاهات التي سارت اليها عنوة او صلحاً .

وقد اورد عبد الله عنان نص معاهدة عقدت في هذه المرحلة عبد العزيز بن موسى مع تدمير والي اربونة منقولاً على الأرجح عن لغة اخرى . ويظهر منه أن تدمير تفاوض مع عبد العزيز وتعاهد باسمه وبالنسبة عن غيره من الامراء الرئيسيين والثانويين وهذا هو :

(بسم الله الرحمن الرحيم . يشترط عبد العزيز ما يأتي : ان تدمير يبقى آمناً في ولايته ولا يتعرض انسان بأذى لشخصه او ماله او نسائه او اولاده . وإن تدمير يسلم مدائنه السبع اربولة فالنتولا واليكانت ومولا وفا كاسورا وبجير' واوارا ولارقة . وانه لا يساعد أعداء الخليفة او يصادقهم بل يطلع عن ما يعرفه من بوائهم . ويؤدي سنوياً وكذلك كل امير من القوط مئة مثقال من الذهب وأربعة مكابيل من القمح ومثلها من الشعير وقدرأ من الزيت والعسل والحل . ويؤدي كل واحد من اتباعهم نصف ذلك كتب لأربع خلون من شهر رجب عام ٩٤ من الهجرة ووقع عليها اربعة شهود مسلمون) (١) .

(١) قال عبد الله عنان (مره ٣) ان ساندورال وفليري ذكرا في تاريخها نصوص معاهدة اخرى سنودة في سنة ٧٣٤ م بين امير قلمبرج كواميرا في البرتغال وبين المسلمين جعلت فيها ضريبة للكنائس العادية خمسة وعشرين مثقالاً من الذهب والأديرة خمسين مثقالاً والكنائس الجامعة (كندراية) مئة . ونصت على ان يكون للنصارى حق التحاكم امام قضاتهم . وعلى وجوب اغلاق ابواب الكنائس وعدم قيام النصارى على امر من شأنه ان يزي بالديانة الاسلامية او يعيب كرامة المسلمين .

ثم كان زحف عام نحو اراجون . وتم الاستيلاء على سرقسطة وتراغونة وبرشلونة وغيرها من المدن الشمالية . وتقدم طارق باذن موسى نحو جليقية فاستولى عليها ثم عبر جبال البيرينة وغزا ولاية لانجدوك واستولى على قرقشونة وازبونة .

وفي هذه الآونة استدعى الخليفة الوليد موسى فسارع الى تليته فوقفت حركة الفتح في مرحلتها الاولى التي امتدت نحو سنتين عند هذا الحد العظيم في ذاته . وقد اتخذ موسى مدينة اشبيلية في هذه المرحلة مركزاً للحكومة لاتصالها بالبحر واقام ابنه عبد العزيز نائباً عنه وقفل نحو الشام ومعه من الكنوز والتحف ما يجلب عن الوصف .

وبما ذكره عنان عزواً الى جييون أن موسى حمل معه فيما حمل مئة وسبعين تاجاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدر (ورواية ابن قتيبة اربعة وعشرون) وبالجمرة الكريمة الاخرى وألفا سيف ملوكي بالاضافة الى اكيال من الدر والياقوت واواني الذهب والفضة واخذ معه اربعمئة من اشرف القوط يتشحون بالثياب المذهبة وثمانية عشر ألفاً او ثلاثين ألفاً ذكوراً واناثاً انتخبوا لجمالهم او لشرف منبتهم . وان مؤرخي الافرنج قالوا ان المائدة التي عثر عليها العرب في طليطلة انما كانت من نفائس ملوك القوط وإن نسبتها الى سليمان ليست صحيحة .

وبما ذكره ابن الاثير^(١) عن المائدة ان طارقاً وجدها في مدينة تسمى مدينة المائدة خلف الجبل وانها كانت من زبرجد اخضر حاقتها وارجلها منها ومكحلة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير ذلك وكان لها ثلاثئة وستون رجلاً . وان طارقاً انتزع احدى أرجلها فصنع موسى بديلاً لها من ذهب . وان موسى قال للوليد حينما حملها إليه انه هو الذي غنمها فقال طارق بل انا فكذبه موسى فقال طارق سله عن رجلها فسأله فلم يجر جواباً وحينئذ اظهرها ليثبت صدق دعواه .

وقد ذكر فيما ذكر ان موسى حمل معه في جملة ما حمل ثلاثين الف بكر من بنات ملوك القوط واعيانهم ومن نفيس الجواهر والامتعة ما لا يحصى .

ومهما يكن من امر فيمكن أن يقال من تواتر الاخبار على اختلاف المصادر ان لرواية اغتنام مائدة ثمينة عجيبة في جملة ما غنم من الاندلس اصلا ما .

ولم يلبث الوليد ان مات فتعرض الفاتح العظيم لنقمة خليفته سليمان ثم كان مصير ابنه عبد العزيز الذي كان له بلاء في الفتح الكبير القتل نتيجة لهذه النقمة على ما ذكرناه في سيرة سليمان .

ولقد استولى الذعر والدهشة على كثير من سكان البلاد التي اكتسحها العرب والتي عرفت فيما بعد بالاندلس - نسبة الى قبائل الواندال التي كانت تزحمت اليها من بلاد الجرمان - ففروا من وجههم .

غير أن هذا لم يلبث طويلا حين رأى السكان من الفاتحين من حسن التصرف ما لم يكونوا يحلمون به . فقد أنصفوا الطبقات الوسطى والفقيرة وأوقفوا الاقطاعيين والكهنوتيين عند حدم . وألغوا الضرائب الفادحة التي كانوا ينوثون بها واستبدلوها بمجزية خفيفة . ومنحهم حرية دينية وابقوا لهم كنائسهم واديرتهم سليمة يارسون فيها طقوسهم . ونصبوا لهم قضاة منهم يحلون مشاكلهم . فكانت هذه السيرة سببا لرجوع معظم الفارين واطمئنان الوجلين ، واقبال الاهلين على الاختلاط بالفاتحين وتعلم لغتهم واعتناق ديانتهم والاندماج فيهم .

ولقد نقل عنان عن الاستاذ لايين في هذا الصدد نبذة جاء فيها (ان العرب انشأوا حكومة كانت اعجوبة القرون الوسطى . وبينما كانت اوروبا تتخبط في ظلمات الجهل لم يكن ثمة سوى المسلمين من اقام بها منار العلم والمدنية ولم يكن المسلمون كالبربر والقوط والواندال يتركون وراءهم الحراب والموت . ولم تشهد الاندلس قط اعدل من حكمهم واصلح منه . ومن الصعب ان يعرف كيف اكتسب العرب تلك الخبرة الفائقة بالشؤون الادارية . فقد خرجوا من الصحراء الى الغزو ولم يفسح لهم تيار الفتح مجالا يدرسون فيه ادارة الامم) (١) .

وتسي الاستاذ ما غرسه فيهم القرآن وسنة الرسول والخلفاء الراشدون من مبادئ سامية بلغت الذروة في العدل والبر والخير والاحسان والوفاء والاشفاق والامر بالمعروف

(١) ص ٤٢ تاريخ العرب في الأندلس لعنان .

والنهي عن المنكر . وما قضاه العرب بعد الاسلام من تجارب بعيدة المدى في الحكم وسياسة الملك بالنسبة للعرب المسلمين ولغيرهم من مسلمين وغير مسلمين في الانحاء الشاسعة التي استولوا عليها وحكموها قبل فتح الاندلس .

اما اليهود فقد رأوا في العرب منقذين لهم من اسارهم ومحررين من عبوديتهم فاخلصوا لهم والتفوا حولهم . ورأى العرب فيهم هذا الاخلاص من جهة ثانية فاطمانوا اليهم ولا سيما انهم عنصر غريب ضعيف من مصلحته هذا الاخلاص فاستخدموهم في الجيش والاعمال الادارية .

على ان بعض الشراذم من السكان المحليين لم ترجع وتخضع واتخذت لها معاصم في جبال استورية . واخذت تتصاول مع الفاتحين على طريقة حرب العصابات . وقد اشتهر منهم في زمن الدولة الاموية عصابات بلايو . ثم صارت هذه العصابات نواة واسلوباً لمصاولة شديدة مع اصحاب السلطان العربي في الادوار التالية على ما سوف نذكره بعد (١) .

ولقد قسمت البلاد المفتوحة الى عدة مقاطعات بدير شؤون كل منها حاكم يختاره الامير العام الذي يعينه . والى افريقية العام حيث ظلت الاندلس تابعة لهذا الوالي بتفويض من الخليفة . وكانت واحدة من هذه المقاطعات تشمل الاراضي الواقعة بين البحر الابيض ونهر الوادي الكبير والجزء الواقع بين ذلك النهر وبين وادي يانا ومدنها الكبرى قرطبة واشبيلية ومالقة وجيان . وواحدة تشمل اواسط اسبانيا والجزء الواقع بين البحر الابيض شرقاً ونهر دوروشالا وولاية البرتغال غرباً وأشهر مدنها طليطلة وقونقة وسيقوبية ووادي الحجاره وبلنسية ودانية ومرسية ولارقة وواحدة تشمل جليقية والبرتغال وأشهر مدنها مريدا وباجة ولشبونة واستورقة وسمورة وشانقة . وواحدة تمتد من شاطئ الدورو الى جبال البرينسة على ضفتي نهر الايبير وأشهر مدنها سرقسطة وطرطوشة وتراغونة وبرشلونة وجيرونه وقطيلة وولاد وليد (٢) .

ولقد استمرت حركة الفتح والتوسع في الاندلس بعد المرحلة الاولى التي قادها طارق وموسى على ايدي بعض الولاة فأمكن بفضل نشاطهم تشميل السلطان العربي لناربون

(١) انظر كتاب عنان ص ٤٠ وبعدها .

(٢) كتاب عنان ص ٤٢ وبعدها .

واكتانيا وقرقاسون ونيم واوينيون وسن رايس ودوفينه وسن بول وترواشاتو ودوترة
وولانس وليون وبوردو وبيزانسون وسنس وغيرها من البلاد الاسبانية والافرنسية معاً^(١).

وهكذا اضيف الى السلطان العربي في عهد الدولة الاموية بلاد واسعة عظيمة في اوربا
الغربية امتد خطها الشمالي الجنوبي من التوار الى صخرة طارق الف ميل^(٢).

ولقد اتخذت جيوش الفتح هذه البلاد لها مقراً ثم نزح كثير من العرب من شمال افريقية
او بطريقه اليها واتخذوها مقراً لهم وانتشروا في مختلف انحاءها .

وفي رسالة الدولة النصرية للسان الدين الخطيب اسماء القبائل التي ينتسب اليها العرب الذين
استقروا في هذه البلاد وانتشروا في أرجائها وهي قيس وعبس واشجع وباهلة وسليم وجديلة
وكلاب وعقيل وهلال وثقيف وعك والأوس والحزرج وغسان والازد وبجيلة وخثعم
وكندة والكاسك وجذام وخولان ومذحج وحير وهمدان وكلب وحضرموت وجبهنة .
فاضطبحت هذه البلاد بالصبغة العربية الاسلامية وانشأ العرب فيها مدينة باذخة ما تزال
آثارها وشواهدا الثقافية والعمرانية والاجتماعية ترى وتذكر بلاء الدهشة والاعجاب
والاجلال .

ولقد تقلب في زمن الدولة الاموية على الولاية العامة لهذه البلاد ولادة عديدون في زمن
الدولة الاموية بعد عبد العزيز بن موسى بن نصير كان كثير منهم متحليين بصفات العدل والحزم
وحسن الادارة والتنظيم والرغبة في العمران والجهاد ونشر الاسلام والعروبة منهم ايوب بن
حبيب اللخمي وهو الذي تحول الى قرطبة واتخذها دار الامارة سنة ٩٩ والسمح بن مالك
الحولاني وعنبسة بن سحيم الكلبي والميثم بن عبيد وعبيد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن
وعقبة بن الحجاج وابو الخطار الكلبي وهذا هو الذي فرق اهل الشام من قرطبة في البلاد
الاندلسية الاخرى وسماها باسماء شامية لمشايتها بها فأنزل اهل دمشق في البيرة وسماها دمشق
لشبهها بها واهل حمص في اشيلية ومماها حمص واهل قنسرين في جيان وسماها قنسرين واهل
الاردن في ربه وسماها الاردن واهل فلسطين في شدونة وسماها فلسطين وانزل اهل مصر في
تدمير وسماها مصر . وكان آخر هؤلاء الولاة اطولهم حكماً هو يوسف بن عبد الرحمن الفهري .

(١-٢) كتاب عنان ص ٤٢ وبعدها .

فكانوا من عوامل رسوخ السلطان العربي وانتشار الاسلام والصيغة العربية والعمرات والنظام في هذه البلاد في مرحلة الفتح الاولى وعهد الدولة الاموية (١) .

ولقد نشأ بين العرب وجماعات من اهل البلاد والبلاد المجاورة الذين لم يرق لهم قدوم العرب إلى هذه البلاد وخضوعها لسلطانهم نزاع مرير امتد طويلا وتقلب في أدوار عديدة . وقد استطاع العرب في كثير من مراحل ان يعيدوا هجمات اولئك الجماعات العدوانية ويحبطوا دسائسها ويسيطوا سلطانهم على مناطق اخرى لم يكن فيها قبل نتيجة لذلك .

ومن صفحات هذا النزاع (٢) في عهد الدولة الاموية غزوة والي الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي لاقليم لانجدوك . ولقد ثارت فتن واضطرابات في عهده والي فعزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه السمع بن مالك الحولاني وطلب منه وصف الاندلس له . فوصفها وصف المتشائم واقترح عليه الانسحاب منها لانقطاعها عن المسلمين . وكاد عمر يأخذ بهذا الاقتراح العجيب ثم نبذه (٣) وأمر السمع بالجد في مهمته . فامتثل وقبض على ازمة الحكم بنشاط وحزم وبادر الى اصلاح الخلل الذي سرى إلى الادارة والجيش ومسح أرض الاندلس وحسبها ومن آثاره العمرانية الشهيرة قنطرة القرطبة . ثم استعد للزحف على بلاد الافرنج وبدأه بالزحف على لانجدوك وبروفانس وشتت شمل عصابات الثوار فيها . واستولى في زحفه على اربونة وبلاد اخرى ثم سار نحو طولون عاصمة دوق أكويتن اشد الامراء الافرنسيين بأسا فسارع هذا الى لقاء الزحف العربي ودارت معركة هائلة استشهد فيها السمع وارتد المسلمون إلى بروفانس . وقد انتخب الجيش لقيادته عبد الرحمن الغافقي الذي كان على درجة

(١) انظر تاريخ ابن الاثير ج ٥ من ١٨٣ وبعدها وتاريخ الاندلس لعنان من ٦٣-٦٨ والاستقصاء ج ١ من ٨٩-١٠٦ ونبه على أن المقصد من اهل الشام المجندون العرب الذين قدموا من هذه البلاد ليشتركوا في عملية الفتح في شمال افريقية والاندلس . وتذكر في هذه المناسبة فيايلي اسماء الولاة الآخرين الذين تولوا ولاية الاندلس على ما ذكرته المصادر المذكورة : سليمان الثقفي ، يحيى بن سلمة تكليبي ، عثان بن أبي نعمة ، حذيفة بن الاحوص ، بلج بن بشير الفيسري ، ثعلبة بن سلامة ، ثوابة بن سلامة ، عبد الرحمن اللخمي .

(٢) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الاندلس لعبد الله عنان ج ٤٣ وبعدها .

(٣) هذا الخبر أورده ابن الاثير ج ٥ من ١٨٠ .

كبيرة من الشجاعة والمهارة والأمانة والعدل والتقوى فاستطاع أن يضبط الأمور وأن يحفظ البلاد من العدوان والفتن . وكانت ولايته محلية وموقته حين عين الخليفة غنسة والياً مكان السمح . وكان هو بدوره ماهراً حسن المعاملة وسبباً في تقوية شوكة الاسلام في جنوب فرنسة على ما سجله أحد رواة الافرنج القدماء .

ولقد استأنف حركة الجهاد التي وقفت باستشهاد السمح في المنطقة الشمالية فزحف على لانجدوك مرة أخرى وغزا قرقشونة ونيم وغيرها . ولقد نصب له الثوار الغسقونيون كميناً في مفاوز البرينة فقتلوه وشتوا جموعه . وأدى ذلك إلى اضطراب الامر في البلاد واختلت ادارة الحكومة بسبب عدم استقرار الولاة الذين خلفوه وعدم كفاءتهم . وقد استشرت حركات عصابات الثوار التي كان يقودها قائد ثائر اسمه بلايو وكانت تتخذ من جبال استورية معصماً . ثم جاء الوالي الهيم بن عبيد الذي كان أفضل ممن سبقوه فاستطاع أن يخمد شوكة العصابات . ثم عبر البرينة وغزا ليون وماسون وشالون واستولى على اوتون وبون . ومات بعد سنتين فعين هشام عبد الرحمن الغافقي والياً وكان أقدر ولاة الاندلس في عهد الامويين واعظمهم اقداماً وجراً . وكان مصلحاً كبيراً كما كان قائداً عظيماً فأجبه الجند والرعية لعدله وحلمه وكرمه ولينه وساد الزمام . ولقد بدأ عمله بزيارة المقاطعات المختلفة فنظم شؤونها وعين لها الاكفاء وقمع الفتن ورد المظالم واعاد الى المسيحيين معابدهم واملاكهم وعدل نظام الضرائب وفرضها على الجميع بالمساواة والعدل وحصن الحدود وخمد شوكة العصابات .

ولقد كان حاكم سردينية المسلم عثمان بن ابي نسعة متزوجاً من بنت دوق اكويتين فأغراه صهره على الثورة على الوالي العام فسير جيشاً طارد الوالي النائر حتى ظفر به وقتله وأسر زوجته .

وهب صهره ومن وراءه من امراء النصارى الى الانتقام له وتحشدوا للغارة على البلاد الاسلامية . وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل الوالي السمح وارتداد المسلمين عن اسوار طولوز مدينة الدوق المذكور وبتهاً لذلك . فسارع إلى الزحف لتنفيذ فكرته من جهة ولقاء حشود النصارى من جهة ثانية فاخترق ولايتي أراجون ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسة في ربيع سنة ٢٧٢ م وزحف توالاً على مدينة أول التي امتنعت عن دفع ما عليها من الجزية واجبرها على الخضوع والاستسلام والاداء بعد معركة عنيفة ثم اتجه الى بوردو فاستولى عليها وحاول دوق اكويتين أن يقف في وجهه فزيمه على ضفاف الدوردون هزيمة شديدة وقتل من رجاله مقتلة عظيمة ثم اخترق الزحف الاسلامي برجونيا واستولى على ليون

ويزانسوس وصانص . وبعد أن حصنها وترك فيها الحاميات اتجه نحو نور الواقعة على نهر اللوار فاستولى عليها وعسكر عندها ليتيحاً للزحف على عاصمة الافرنج .

واستولى الذعر على امراء النصرانية الافرنج فتداعوا إلى صد الزحف العربي وتولى قيادتهم شارل يبين الذي كان يتولى منصب محافظ القصر في البلاط الملكي الفرنسي الذي كان على عرشه اسرة الميروفنجان وكان هو صاحب السلطات الحقيقي على البلاد والمملكة استمراراً لمركز أبيه حيث اغتتم هذا فرصة ضعف الاسرة المالكة فاستولى على سلطان البلاد .

ولقد زحف شارل بجشود عظيمة نحو نور فانسحب الغافقي منها وعسكر بالسهل بين نور وبواتيه . وهناك التقت الحشود وأخذت الاشتباكات تقع بينهم . واحرز المسلمون في اول الأمر انتصارات عديدة حتى انهم وضعوا اعداءهم وملأوا ايديهم من اسلابهم وغنائمهم ثم انعكس الموقف حين أصاب الغافقي سهم قاتل حيث اضطربت صفوف المسلمين اضطراباً شديداً اضاعوا به مركزهم المتفوق . وارتدوا الى لانجدوك بعد ان قتل واسر منهم عدد كبير .

ويعلق الافرنج على هذه الوقعة التي عرفت في تاريخ العرب باسم وقعة بلاط الشهداء وعند الافرنج باسم وقعة نور أو بواتيه أهمية كبرى . ويرونها المعركة الفاصلة التي أوقفت الزحف العربي الاسلامي عن التوغل في اوروبا .

وقد قال المؤرخ الانكليزي جيبون في صدد ذلك (إن خط الظفر العربي قد امتد الف ميل من صخرة طارق إلى نهر اللوار . وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة بمجمل الجيش الاسلامي إلى حدود بولونيا وآكام ايكوسيا . وليس الرين بأمنع من النيل والفرات اللذين اقتحمها هذا الجيش . ولربما كان الاسطول العربي اخترق عباب التاييس بلا معركة بحرية . بل ربما كانت تعاليم القرآن تدرس الآن في مدارس اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد صدق وحي محمد ورسالته . وقد انقذت هذه المعركة اسلافنا البريطانيين وجيراننا الغالين من نير القرآن المدني والديني واستبقت ابهاء رومة وجلالها واخرت استعباد القسطنطينية وشدت من ازر النصرانية واوقعت باعدائها الفشل والتفرق) بما املاه التعصب وجهل حقائق الاسلام والعمى عن نوره الوهاج .

وقد حذا غير واحد من مؤرخي الافرنج حذو جيبون في الاطئاب بنتيجة المعركة

وما كان من انقادهاء اوروبا والنصرانية من برائن العرب والاسلام . واعتبر قساوسة
النصارى النصر الذي احرزه شارل دليلا على عنايسة الله بالنصرانية وسخطه على المسلمين .
وبالغوا في تقدير خسائر المسلمين فقالوا انها ثلاثئة الف .

وقد تكون المعركة حقاً اضاعت على العرب فرصة التوغل في اوروبا في الظرف الذي
كانت فيه المملكة الميروفنجية ضعيفة مفككة . وهي التي كانت في الحط الاول . بحيث
يقال ان العرب لو انتصروا فيها لتغير مجرى تاريخ الاسلام واوروبا معاً . غير انها لم تؤثر في
السلطان العربي الذي توطد في الاندلس . ولم تمنع العرب من ان يستأنفوا نشاطهم ويكسبوا
جولات عظيمة ويتقدموا اشواطاً شاسعة في بلاد الافرنج بعدها بقليل وفي زمن الدولة
الاموية الشامية ثم في زمن شقيقتها الاندلسية .

ولقد اتيح لشارل والنصارى فرص احرزوا فيها انتصارات كانت اشد نكابة من آثار
هذه الموقعة في المسلمين .

ولقد عين هشام بن عبد الملك الخليفة عبد الملك بن قطن والياً للاندلس بعد الغافقي وامره
باستعادة هبة المسلمين فصدع بالامر . وبدأ بثوار المقاطعات الشمالية الذين انتهزوا فرصة
مقتل الغافقي فضاعفوا نشاطهم ضد السلطان الاسلامي فضربهم ضربة شديدة . ثم زحف على
لانجدريك ووطد السلطان الإسلامي عليها .

وفي هذه الاثناء تحالف والي أربونة المسلم مع دوق مرسيلىا فعبرا بقوة مشتركة نهر
الرون واستوليا على سان ريمي ثم زحفا على مدينة أفينيون وهزما جموع الافرنج التي تصدت
لها واستوليا على المدينة . واستولى المسلمون بعد ذلك على مدينتي آرل وما والاهما .

واستبدل الخليفة عبد الملك بعقبة بن الحجاج الذي استمر في النشاط الذي بدأ به سلفه
حيث غزا الاراضي الافرنسية مرات عديدة . وقد اتخذ أربونة قاعدة وزحف منها على ولاية
دوفينية واستولى على سان بول وترواشاتو وهنزر وفالانس ونيوليون وانتشرت جيوش
المسلمين في بروجونيا للمرة الثانية فتفتح وتغنم وتسي وتهدد عاصمة فرنسة للمرة الثانية .

وهال شارل هذا النشاط الجديد فاستجاش امراء النصارى فاقبلوا عليه
وحرص البشكنس والغسقونيين على العصيان والثورة فهاجموا المرات الجبلية

ليحولوا دون رجوع عقبة .

وزحف شارل بجموعه على اينيون فاستعادها بعد حصار شديد وذبح حاميتها المسامة وحاصر اريونة ولكنه اضطر إلى رفع الحصار نتيجة لمقاومة الحاميات الإسلامية الشديدة وانزالها في جيوشه الحسائر الفادحة . فاكتمى بما احرزة من نصر جزئي وخرب ما في جنوب اللوار من حصون وقلاع ودمر مدينة نيم ذات المباني الفخمة والآثار القديمة ليحول دون تقدم المسلمين وارقد الى بلاده . وقد نجا عقبة وجيشة وعاد الى قواعد سالماً . غير انه تعرض لحركة ثورية قام بها عبد الملك بن قطن الذي اغتاز من تعيينه مكانه واستعان بقومه عليه فقتل بهذه الحركة وعاد عبد الملك إلى الولاية . غير أنه لم يئناً بها حيث ثار قوم عقبة عليه بدورهم فقتلوه واقاموا مكانه واحداً منهم هو بلج بن بشر القشيري . وثار قوم عبد الملك واولاده عليه فقتلوه ولكنهم لم يحرزوا نصراً حاسماً على قومه الذين اقاموا محله ثعلبة بن سلامة . وقد ظل قوم عبد الملك ناقلين فقاموا بثورة اخرى ولكن ثعلبة تغلب عليهم وضربهم ضربة شديدة .

ورأى الخليفة هشام أن يستبدله بآخر لإصلاح الفتوق ونهضة الفتنة بين العرب فعين أبا الخطار الكلبي الذي استطاع تحقيق ذلك لفترة ما ثم عادت الفتنة ثانية فذهب ضحية فيها واقام المنتصرون مكانه والياً منهم اسمه ثوابة . ومات هذا فعين والي المغرب مكانه يوسف ابن عبد الرحمن الفهري الذي استقامت له الامور وامتدت ولايته نحو عشر سنين . وان لم تحل من فتن داخلية^(١).

ولقد اتاحت هذه المنافسات والفتن الداخلية الفرصة لشارل بيبين فغزا بجيش ضخم المواقع الإسلامية في لانجدوك وسافوا وقتل كثيراً من المسلمين وحاصر اريونة مرة اخرى حصاراً طويلاً امتد اربع سنوات ، ثم تمكن من دخولها بخامرة من فيها من النصاري الذين فتحوا له الابواب في غفلة من المسلمين ، وقد ذبح كثيراً من سكانها وخرب مساجدها ودورها ومعاهدها .

على ان العرب ظلوا محتفظين بالسلطان على معظم ما دخل في ايديهم من البلاد شمالاً وشرقاً

(١) الاستقصاء في دول المغرب الاقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٤ - ١٠٦ وتاريخ الاندلس عبد الله عنان ص ٦٣ - ٦٨ .

وغرباً إلى ان قامت الدولة الاموية الاندلسية فدخل النزاع بين العرب والافرنج مرحلة جديدة احرز العرب فيها انتصارات كبرى واسترجعوا كل ما خرج من ايديهم و اضافوا اليه ساحات شاسعة اخرى مما سوف يأتي تفصيله في سياق تاريخ هذه الدولة ان شاء الله .

هذا . ولم يخل عهد الولاة الذين تولوا افريقية بعد موسى بن نصير من نشاط في سبيل توسيع رقعة السلطان العربي وانتشار الدين الإسلامي في هذه المنطقة حيث سجل بشر بن صفوان نشاطاً بحرياً فغزا صقلية سنة ١٠٩ وأصاب فيها سبياً كثيراً . وحذا حذوه عبيد الله ابن الجحباب الذي أرسل بعثة غزت صقلية مرة ثانية سنة ١٢٢ وانضت فيها واستولت على إحدى مدنها سرقوسة . وقد كان لهذا الوالي نشاط في الأنحاء الجنوبية حيث سير سراياه في بلاد السودان واستطاع ان يد السلطان العربي الى بعض النخبا^(١) .

استدراك

وقبل ان نبدأ بشرح مراحل حركات الفتح في بلاد العجم وما والاها نرى ان نقول كلمة في امر محير متصل بمحاولات العرب مع الروم لم نرأ أحداً من المؤرخين نبه اليه . وهو اكتفاء قواد الامويين للصوائف والشواتي البرية والبحرية بالانسياع والكر والفر في ارض بلاد الروم الاسيوية المسماة اليوم بالأناضول أو آسيا الصغرى وعدم الاستيلاء عليها والاستقرار فيها باستثناء منطقة كليكميا التي كانت تضم ما يعرف اليوم بولاية اطنة وما حولها كما كانت يفعل قواد جيوش الفتح العربية في بلاد فارس وما وراء خراسان وبلاد الارمن واذربيجان والحزر وشمال افريقية وبلاد الأندلس في حين ان حركة الصوائف والشواتي البرية والبحرية

(١) نورد هذه المناسبة فيما يلي احواء الولاة العاملين الذين تولوا المغرب او افريقية بعد موسى بن نصير والذين كان لهم في معظم الاوقات الاشراف على شؤون الاندلس وتعيين ولايتها وم : محمد بن زيد ، يزيد ابن أبي مسلم ، بشر بن صفوان ، عبيدة بن عبد الرحمن ، عبد الله بن الجحباب ، وال هذا ينسب انشاء جامع الزيتونة في فاس ، كلثوم بن عياض ، حنظلة بن صفوان ، عبد الرحمن بن حبيب الفهري . وهو آخر الولاة في زمن الامويين وبقي والياً رداً من الزمن في زمن العباسيين . وكانت ولايته في زمن الامويين تغلباً . (انظر الاستقصاء ج ١ ص ٨٩-١٠٦ وتاريخ الاندلس لعنان ص ٤٤-٦٨) وننبه على ان البلاذري ذكر اسم عبيده بن عبد الرحمن بدلاً من عبيد الله بن الجحباب كغالب جزيرة صقلية على ما ذكرناه قبل .

كانت على الاغلب في حالة الانتصار والتغلب وفي حين انها استطاعت مرتين مرة في خلافة معاوية ومرة في خلافة سليمان بن عبد الملك ان تحتل هذه البلاد من اقصى جنوبها الشرقي الى اقصى شمالها الغربي وتدنق ابواب القسطنطينية . ولم ترجع مهزومة ونتيجة مصادلة واشتبك حربي مع القوات الرومية على ما مر شرحه . وفي حين ان الاتراك السلجوقيين قد فعلوا ذلك حيث استطاعوا في القرن الهجري السادس حين انساحوا الى الاناضول ان يستولوا على القسم الاكبر منها ويستقروا فيه وينشؤا دولة كبيرة عاصمتها قونية .

ولقد اقطعوا امراء قبائل تركية عديدة كانت تنساح نحوهم في القرنين السادس والسابع مناطق عديدة في مختلف انحاء الاناضول فنشأ عن ذلك أمارات اقطاعية عديدة سميت باسماء زعماء القبائل كان منها امارة بني لرميان في كوتاهية وبني عيسى قره في برامه وبني صاروخان في آيدن وبني منتشا في منتشا وبني حميد في انطالية وبني اسفنديار في قسطنطين وبني رمضان في ادنة وبني القدر في مرعش وبني آخي في انقره وبني عثمان في اسكيشهر اوسكود وأدى كل هذا الى تركيز الاناضول وصبغها بالصبغة التركية .

وقد تطورت امارة بني عثمان وحارت دولة كبرى بسطت سلطانها على الاناضول كوربة لدولة قونية والامارات الاقطاعية الاخرى وتجاوز سلطانها الاناضول الى اوربا فاستولت على القسطنطينية ثم على البلقان وانحاء اخرى ما وراء ذلك ثم استطاعت ان تفرض سلطانها على معظم البلاد العربية في آسية وافريقية الشمالية . وان تحتفظ بهذا السلطان الى الثلث الاول من القرن الرابع عشر الهجري على ما سوف نزيده شرحاً في الجزء العاشر من كتابنا ان شاء الله .

وبتبادر لنا كتعليل لذلك ان معظم انحاء الاناضول الواقعة في شمال وغرب كليكيا كانت شبه خالية وفقيرة فلم يهتم قواد الحوائف والشواتي واخلفاء الامويون لاحتلالها والاستقرار فيها كما فعلت الجيوش العربية في زمن الدولتين الراشدية والاموية في المناطق الاخرى التي كانت آهلة عامرة غنية لأن العرب في ظل الدولتين كانوا جنداً او في مشاة جند ولم يكونوا منساحين كقبائل وموجات ينشدون الإقامة والاستقرار .

ولقد ظل الامر كذلك في الشطر الاكبر من زمن الدولة العباسية ايضاً مع ان حركة

الصوائف والشواتي او بتعبير آخر حركة المصاولة بين المسلمين والروم لم تتوقف فيه . وقد يكون استيلاء الاتراك السلاجقة ومن انضوى اليهم من القبائل التركية وانشاؤهم دولة قوية وامارات اقطاعية عديدة في مختلف اقاليم الاناضول الشمالية والغربية قرينة على هذا التعليل لانهم انما جاؤوا من الشرق مطاردين من التتر المغول ينشدون اماكن للاقامة والاستقرار فتيسر لهم ذلك في بلاد الاناضول لأنها كانت خالية او شبه خالية وقد يكونون وجدوا فيها سكانا قليلين ضعفاء من الروم والعناصر الآرية القديمة فتغلبوا عليها بقليل من الجهد وصبغوها بطابعهم الذي اصطبغت به البلاد حتى لم يكدر يعرف لها اسما غير الاسماء التركية القديمة .

ثانياً حركات الفتح في بلاد العجم والترك وارمينية والسند وما كان من مصاولات بين العرب وسكان هذه البلاد بسبيل ذلك في زمن الدولة الاموية



لقد أخذ نظر العرب يتد الى ما وراء بلاد فارس وخراسان بعد توطيد سلطانهم في هذه البلاد بصورة عامة . ولقد كان كسرى الفرس يزدرج استمد من خاقان ملك الترك وخوفه من العرب إذا جاءه الدور فأمدّه وشدّ ازره ولكنه رأى من بسالة العرب واستماتتهم وجيشان حيويّتهم ما جعله يرجح السلامة فانسحب إلى بلاده وأخذ يستعد للوقوف في وجههم إذا تدفق سيلهم نحوه . كذلك فان يزدرج قد استعان بنيزك ملك طرخان . واستعان الفرس في قوهستان بجاعات من الترك ساهم البلاذري (الهياطلة) فيحاولوا مساعدتهم وإن لم تغن شيئاً . فكان هذا وذاك السبب المباشر كما هو المتبادر الذي جعل العرب يعتبرون أنفسهم في حالة حرب مع الترك ويتحفزون للتدقق على بلادهم .

ولقد نشب نتيجة لذلك صيال مديد ومرير بين العرب والترك مختلف المصغحات . ولقد تكررت انتفاضاتهم . وكان ينال العرب منهم في بعض المراحل كثير من الشدة والأذى . غير أنهم كانوا في النهاية ينتصرون عليهم ويوطدون سلطانهم على بلادهم ويسكنون بينهم وينشرون دينهم ولغتهم . حتى صار الاسلام دين اهل البلاد التركية اجمالاً في آخر عهد الدولة الاموية كما صارت لغتها مرصعة باللغة العربية بل تكاد تكون نصفها .

ولقد كان صيال العرب مع الترك يتيح بعض الفرص لبعض أهل بلاد الفرس والديلم والكرد والارمن واخزر الذين كانوا خضعوا للسلطان العربي في زمن الخلفاء الراشدين فينتفضون عليه فكان يتجدد نتيجة لذلك صراع بين العرب وبينهم لتوطيد سلطانهم ثانية .

وكان هذا يؤدي إلى توطيد السلطان العربي على بعض البلاد والجماعات التي لم تكن خضعت له من قبل في هذه الأنحاء .

ولقد كانت حركات العرب هذه وتلك مؤدية كذلك الى التوغل شرقاً في بلاد السند والصين والهند وتوطيد السلطان العربي في بعض انحاءها .

ولقد بدأ العرب في التدفق نحو بلاد الترك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبأمره حيث تقدم نحوها عبد الرحمن بن ربيعة متولي فتح اقليم الباب حتى وصل الى عاصمة مـن عواصمها اسمها بلنجر . وتكررت حركاته حولها فكمن له الترك وقتلوه وشتوا شمل جيشه .

ثم شغلت العرب الشواغل عن هذه البلاد الى أن استتب الامر لمعاوية بن ابي سفيان فتحرکوا نحوها من جديد ثم اتسعت حركاتهم حتى غدت سيلاً متدفقاً عم جميع انحاءها .

وكانت حركاتهم نحوها من ثلاث طرق . وهي طريق خراسان وطريق سجستان . وطريق ارمينية . ولقد بدأت حركاتهم نحوها عن الطريقتين الاوليين في عهد مبكر . وكانت في بدء الامر على صورة غارات غادية راحلة مع فتح خفيف .

والمستفاد من روايات الطبري^(١) ان اول ما كان من ذلك غزوة عبد الله بن سوار سنة ٤٣ . ثم غزوة الحكم بن عمرو الغفاري في سنة ٤٧ ، وكان هذا اميراً على خراسان فغزا جبال الغور وفراونده فقهرا اهلها وفتحها واصاب فيها سبياً ومغانم كثيرة .

وقد سجلت الروايات ان الحكم هذا هو اول من قطع النهر وراء خراسان كما سجلت ان مولاه هو اول من ملأ ترسه من مائه وشرب منه ثم ناوله للحكم فشرب ثم توشأ وصلى ركعتين وقفل دون ان يتوغل . ثم غزا الحكم سنة ٥١ المنطقة المعروفة بجبل الاشل . ولقد أحرق الترك بالغزاة ولكنهم استطاعوا ان ينجوا بعد ان ملأوا ايديهم بالغنائم الكثيرة . وفي سنة (٥١) غزا الربيع بن زياد الحارثي ناحية بلخ ففتحها صلحاً ثم تقدم نحو قهستان ففتحها عنوة . وتولى خراسان بعد ذلك عبيد الله بن زياد فقطع سنة (٥٤) النهر الى جبال بخارى ففتح رايتين ونصف بيكند .

وبما يرويه الطبري ان الترك لما انهزموا امام العرب اعجبت قبيج خان زوجة ملكهم عن لبس خفيها فأصاب الماسون احدهما فقوم ما عليه من حلية فبلغت مئتي الف درهم . وقد اثر

(١) انظر ج ٤ ص ١١٤ وبعدها و ١٨٦-٢٢٨ .

عن عبادة بن حفص وصفاً رائعاً لعبيد الله بن زياد في هذا السياق حيث قال (ما رأيت أحداً
أشد بأساً من عبيد الله بن زياد حين لقي الترك حيث كان يحمل عليهم ثم يغيب عنا ثم يرجع
ورأيت تقطر دماً . وقد أسر العرب من الترك في هذه الغزوة الفين فاعتنقوا الاسلام وكانوا
ماهرين برمي النشاب فانضم بهم الى الجيش الاسلامي قوة جديدة حيث صاروا يقاتلون معهم .

وفي سنة ٥٦ قطع سعيد بن عثمان بن عفان الذي صارت اليه ولاية خراسان النهر الى
سمرقند فخرج اليه اهل الصغد وهم من طوائف الترك فقاتلهم وهزمهم وحصرهم في مدنتهم
فصالحوه واعطوه خمسين غلاماً من ابناء عظمائهم رهناً على الصلح .

ثم شغل العرب مرة اخرى بفتنهم الداخلية فتوقفت حركتهم نحو بلاد الترك الى سنة ٧٨هـ
حيث استؤنفت ثانية . وقد عين الحجاج بن يوسف والي العراق ومما وراءه المهلب بن ابي
صفرة على خراسان وعبيد الله بن ابي بكرة على سجستان وامرهما بالجهاد . ولم يكد المقيم
يستقر بها في ولايتها حتى بادرا الى تحقيق رغبة واليهم العام . ومنذئذ دخلت حركة الفتح
والتوسع في بلاد الترك مرحلة حادة ايجابية امتدت خمساً واربعين سنة بدون انقطاع .
وتخللها انتفاضات عديدة ومحاولات شديدة ثم انتهت بنجاح العرب في بسط سلطانهم على
هذه البلاد ونشر الدين الاسلامي فيها .

وأول ما سجل من ذلك ^(١) غزوة عبيد الله بن ابي بكرة لبلاد رتبيل احد ملوك الترك .
وقد اوغل واضطر ملكها الى الخضوع واداء الجزية . غير انه لم يلبث أن نقض الصلح فأمر
الحجاج ابن ابي بكرة بمناجزته وارغامه فضى وتوغل وهدم قلاعاً وحصوناً وغنم أموالاً
ومواشي كثيرة وغلب على النحاء عديدة . ولكنه تعرض مع جيشه لكيد رتبيل حيث كان
يأمر جيشه واهل بلاده بالتقهقر حتى توغل المسلمون كثيراً ثم كروا عليهم وقطعوا خط
رجعتهم وقتلوا عدداً عظيماً منهم بما فيهم قائدهم ولم ينج الأحياء الا بقدية كبيرة .

وعظم الامر على الحجاج فهياً حملة قوية عهد بقيادتها الى عبد الرحمن بن الاشعث وسيروا
للنار وتوطيد هبة العرب وسلطانهم . وقد توغل هذا في بلاد رتبيل واخذ يستولي عليها
شيئاً بعد شيء ويلا يديه بالغنائم . وطلب رتبيل ان يجدد الصلح فأبى فأخذ يخلي البلاد امامه

(١) الطبري ج ٥ ص ١٣٦ - ١٤٨ .

كما فعل مع جيش ابي بكره رستاقاً بعد رستاق .

وكان ابن الاشعث يتقدم بجذر ويستولي على ما يخلونه ويعين عليه العمال ويضع الحاميات حتى حاز ارضاً عظيمة وغنائم كبيرة ثم حبس الناس عن الوجود وقال لهم حسبنا ما أصبحنا هذا العام . وفي العام القابل نتعاطى ما وراء ذلك حتى تقاتلهم الى اقصى بلادهم ومنع حصونهم . ثم كتب للحجاج بما فتح الله وبما صنع فلم يستحسن رأيه في التوقف فكتب اليه يندد به فأثاره فأرسل الى رتبيل فصاحه ثم قفل مع جيشه متبرداً على الحجاج بما أدى إلى فتنة كبرى كادت ان ترزع الدولة على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى .

ولقد كان المهلب بن ابي صفرة والياً على خراسان فقطع سنة ٨٠ هـ بلخ فنزل على كش . وهي من العواصم التركية الكبرى وحاصرها فطلب اهلها الصلح لقاء فدية كبيرة وقبوا الخضوع للسلطان العربي قبل منهم . وفي اثناء حصاره لكش سير ابنه يزيد نحو بلاد الختل فخرج اليه ملكها على رأس جيش كبير ودارت رحى القتال بين الفريقين واحرز العرب النصر عليهم وحينئذ فعل الملك ما فعله اهل كش من اداء الفدية والخضوع للسلطان العربي . وسير المهلب في الوقت نفسه ابنه الثاني حبيباً نحو بخارى فائخن في اقليمها وعاد غانماً^(١) .

وكان له ابن ثالث اسمه المغيرة يبوب عن والده في مرو فمات فسير المهلب يزيد ليحل محله فسار في سبعين فارساً فلقبهم خمسمئة من الترك فطمعوا فيهم لقتلهم وهاجموهم فتلقاهم يزيد وفرسانه بقوة وبسالة حتى ائخنوا فيهم وهزموهم . وكان ليزيد في هذا الموقف حولات هائلة فقال شاعر معاصر فيه :

والتوك تعلم إذ لاقى جموعهم	ان قد لقوه شهابا يفرج الظلما
بفتية كاسود الغاب لم يجدوا	غير التآسي وغير الصبر معتصما
وتحتهم قرح يركبن ما ركبوا	من الكريمة حتى يبتلعن دماً ^(٢)

(١) الطبري ج ٤ ص ١٣٩ وبعدها .

(٢) ١٥٨-١٦٠ .

ولقد مات المهلب سنة ٨٢^(١) فعين الحجاج ابنه يزيد والياً خراسان مكانه فسار على خطة

(١) يجمع الرواة على ان المهلب كان من عظماء رجال هذا العهد حيث كان قائداً حكيماً وشجاعاً باملاً وعاقلاً حازماً وكان عظيم المروءة شيراً في المكرمات . وكان له في حرب الخوارج بلاء عظيم على ما سوف نشرحه في نبذة الخوارج . وقد اورد الطبري نص الوصية التي وصى بها ابنه حينما حضرته الوفاة وقد جاء فيها (انه دعا بسهام فخرمت وقال اترونيكم كاسرها مجتمعة قالوا لا قال افترونيكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فكذلك الجماعة . فاوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم . فان صلة الرحم تنسيء في الاجل وتتري المال وتكثر العدد . وانهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقتل . فتحابوا وتواصلوا واجمعوا امركم ولا تختلفوا وتباروا تجتمع امورك . ان بني الامم يختلفون فكيف بيني اعدائ . وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم افضل من قوالكم فاني احب للرجل ان يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فيشتت من زلته ويزل لسانه فيهلك . اعرفوا لمن ينشاكم حقه . فكفي بغدو الرجل ورواحه اليكم تذكرة له ، وآثروا الجود على البخل واحبوا العرب واصطنعوا العرف فان الرجل من العرب تعدد العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده . عليكم في الحرب بالاتانة والمكيدة . فانها انفع في الحرب من الشجاعة . واذا كان اللقاء نزل القضاء فان اخذ رجل بالحزم فظفر على عدوه قيل اني الامر من وجهه ثم ظفر فجمد . وان لم يظفر بعد الاتانة قيل ما فرط ولا ضيع . ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وادب الصالحين . واياكم والحقة وكثرة الكلام في مجالسكم) مما فيه مصداق للنصائح التي وصفناه بها والتي جعلته من عظماء رجال العهد . وقد رثاه نزار التميمي فقال :

ومات الندي والجود بعد المهلب
وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
على الناس قلناه ولم يتنب
بخيل كارمنا القطا المتسرب
يلملها بالارجوان الخضب
واحلافها من حي بكر وتغلب

الا ذهب الغزو المقرب لاغنى
اقاما يبرو الروذرهنى ضوي
اذا قيل اي الناس اول بئمة
اباح لنا ميل البلاد وحزينا
يعرضها للظعن حتى كائنا
نطيف به قحطان قد عصبت به

الطبري ج ٥ ص ١٦١-١٦٢

ولقد وفد المهلب على الحجاج بعد ان بدا منه ما بدا من عظيم البلاء في حرب الخوارج فأكرمه وأجلسه الى جانبه وقال يا اهل العراق انتم عبيد المهلب ثم قال له انت كما قال لقيط بن يعمر الايادي في صفة امراء الجيوش :

رحب التذراع بأمر الحرب مضطلعا
ولا اذا غنى مكروه به خشعا
يروم منها الى الاعداء مطالعا
يكون متبعا طورا ومتبعا
عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا
مستحکم السن لاقحماً ولاضرعا

وقلبوا امركم لله دركم
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده
مسد النوم تعنيه ثغوركم
ما انك يلب هذا الدمر اشطره
وليس يشغله مان يشره
حتى استمرت على شؤر مريرته

ابن الاثير ج ٤ ص ١٧١

أبيه . ومما سجل له من البطولات الجهادية في هذه المرحلة فتحه سنة ٨٤ قلعة نيزك بباشاغيس وكانت قلعة مهمة . فاغتم غياث صاحبها عنها فخالقه اليها ودخلها فلم يرجع نيزك ساووم يزيد على الصلح على أن يدفع له ما في خزائن القلعة . وكان يحب قلعته ويعظمها حتى كانت يسجد لها كلها نظر اليها . فقبل (١) .

وفي سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولاهها اخاه المفضل بن المهلب فسار بدوره على خطة أبيه وأخيه ومما سجل له في هذه المرحلة غزوته لباذغيس ثم لشومان وأخرون في ما وراء النهر . وقد ظفر وغنم غنائم عظيمة وزعها على رفاق جهاده .

ومن طريق ما يروى عن المفضل وفيه صورة تادرة أنه لم يكن له بيت مال وأنه كان يعطي الناس كل ما يدخل ليد من الجباية ثم يقسم عليهم ما يدخل في يده من الغنائم (٢) . وبعد قليل عزل المفضل أيضاً ثم عزل أخا ثالثاً لهم اسمه عبد الملك كان على شرطته (٣) . وولى

(١) الطبري ج ٤ ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢) ص ١٩٤ .

(٣) كان بنو المهلب كأبيهم اقوياء الشخصية والعصبية اصحاب مروءات ومكرمات وقوادشجعاناً ويعدون من كبار رجال هذا العهد أيضاً . ومما كاسره تول عدد من افرادها الحكم قد تشبه اسرة زياد ابن ابي مغيان . وفي ذلك صورة من صور الحكم في عهد هذه الدولة . ولقد كانوا اعضاء ايهم في حروب الخوارج وفي حكم خراسان والفتوحات في منطقتها ومات احدهم المغيرة في حياة ابيه في ساحة الجهاد على ما مر بيانه . واستأنفوا نشاطهم في نطاق عمل الدولة في عهد سليمان بن عبد الملك . ومع ذلك فقد سجل التاريخ عنهم بعض الهنات بعد موت ايهم حيث اتهمهم الحجاج بال الدولة بعدان عزهم وحبس يزيد والمفضل وطالبهم بستة آلاف الف ثم اتهم عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب بثلث ذلك وطالبه بعشرين الف الف وحبسه وقد فروا من الحبس مرتين على ما ذكرناه في سيرة عبد الملك والوليد وعمر . ثم قاموا بثورة دموية ضد الدولة على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة . وبهذه الثورة يفترون عن الاسرة الزيدية وان كانت الروايات سجلت على افراد هذه الاسرة تهماً مالية على ما ذكرناه في سياق سيرة معاوية . وهذه التهمة تكررت كثيراً بالنسبة لولاة آخرين على ما ذكرناه في سيرة غير واحد من الخلفاء حيث يبدو انها من طبيعة العهد وصور حكمه . ويظهر ان بني المهلب كانوا معتدين بانفسهم او اشداء في معاملة الغير حتى قال عنهم عمر بن عبد العزيز انهم جبابرة على ما ذكرناه في سيرته .

خراسان قتيبة بن مسلم فكان له اعظم البلاء في الغزو والفتوح فيما وراء النهر . ولقد خطب قتيبة بالناس بعد وصوله حاناً على الجهاد فقال : (إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقماً . وقد وعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله إلى قوله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإيابي والهولينا (١) حيث ينطوي في الخطبة صورة قوية لما كان يحفز قواد المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله دون مبالاة بما يتحماون من التضحيات من رغبة في نشر دين الله والدفاع عن حرمانه و كبت أعدائه وتوطيد السلطان العربي الاسلامي في الارض .

وهذه صورة ملموحة بكثرة في اقوال وخطب وعزائم ولالة المسلمين وقادتهم في هذا العهد استمراراً لما كان من ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ثم تقدم نحو الطالقان فتلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم وساروا معه فلما قطع النهر تلقاه ببش ملك الغانيان بالهدايا ومفتاح ذهبي صنعه خصيصاً واعطاه اياه دليلاً على تسليمه حكم بلاده له ودعاه اليها . ثم أتاه ملك كفتان بهدايا وأموال ودعاه إلى بلاده أيضاً حيث يبدو أن صيت العرب الجهادي كان داوياً جعل هؤلاء الملوك يجنحون الى المسالمة .

ولقد مضى قتيبة أولاً إلى الصغانيان مع ملكها فوطد السلطان العربي الاسلامي فيها . وكان لهذا الملك عدو يزعمه وهو ملك آخرون وشومان وهما من أقاليم طخارستان فحرض قتيبة عليه فاتجه نحو بلاده . وفي طريقه جاءه ملك لشتان فضاحله على فدية اداها اليه . ثم غزا بلاد شومان وآخرون فسبى وغنم وجاءه ملكها غيسلستان وصاحله على فدية اداها . واستخلف أخاه على الجند وعاد الى مرو مركز خراسان وقد فتح أخوه حصن ياسار في طريق عودته مع الجيش (٢) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٢١٤ وبعدها .

(٢) ص ٢١٥ .

ولقد كان وقع في يد نيزك ملك طرفان بعض المسامين اسرى فكتب اليه قتيبة باطلاقهم
وهده في حالة الرفض فأطلقهم ثم قدم على قتيبة فجده الصلح معه . وفعل منه اهل بلاد
بادغيس ايضاً ^(١) .

وغزا قتيبة في نفس السنة مدينة بيكند وهي ادنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل
بساحتهم استنصروا بالصغد وغيرهم من حولهم فأتاهم عدد كبير حتى لقد أحاطوا بقتيبة ومن
معه وانقطع خبره عن الحجاج ونصحه أحد رجاله بالاحتياي على العودة فأبى . وحث جيشه
على القتال والاستماتة فيه فاستجابوا واشتبكوا مع اعدائهم في معركة حامية فحالفهم
النصر وانهزم الترك وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون ما شاءوا . واعتصم الناجون في
المدينة المسورة فأمر بنقب الاسوار وهدمها . وحيناً رأى المحصورون جده سألوه الصلح
فصالحهم وخلف عليهم عاملاً . غير انهم لم يلبثوا ان ثاروا على العامل وقتلوه مع من معه
من الحامية ومثلوا فيهم فعاد قتيبة وحاصره وشدد عليهم فطلبوا الصلح فأبى وظل مضيقاً
عليهم الحناق إلى أن تمكن من دخول المدينة فقتل مقاتلتها وخضع شوكتها .

وبما يروى ان احدهم قال اني افدي نفسي فسألوه باذا فقال بخمسة آلاف حرية صينية
قيمتها الف الف فأبى قتيبة وقتله ارباباً للناقضين الغادرين .

وقد اصاب المسلمون في بيكند ما لا يقع تحت حصر من اواني الذهب والفضة والمتاع
حتى لم يصبوا مثله في خراسان . وقبوا بذلك واشتروا السلاح والحيل حتى لقد بلغ ثمن
الرمح سبعين الفاً . وقال الكمي في يوم بيكند :

ويوم بيكند لا تحصى عجايبه وما تجاراه بما اخطأ العدد

وقد وجد قتيبة في مخازن المدينة شيئاً كثيراً من السلاح وآلة الحرب فوزعه على الجيش
بعد الاستئذان من الحجاج واذنه .

وبعد قليل من الاستجمام زحف نحو امل ثم عبر من دهم إلى بخارى فأتى نومكشت وهي

(١) من ٢٦٧ .

من بجارى فصالحه اهلبا . وفي سنة ٨٨ رُحف نحو راميته فصالحه اهلبا كذلك

ولقد تجمع الصغد والترك واهل فرغانة وهو عائد وهاجوا مؤخرة جيشه حتى كادوا يفتنونها وبلغ الخبر قتيبة فعجل اليهم واشتبك معهم وانتصر عليهم . وكان قائدهم كوبغانون ابن اخت ملك الصين . وعدتهم مئتي ألف . وكان نيزك ملك طرخان مع قتيبة فأبلى في هذا الموقف بلاء عظيما .

وفي سنة ٨٩ اتى قتيبة زم فقطع النهر قاصداً غزو ملك بخارى وردان خداه بأمر من الحجاج فوجد اهل الصغد واهل كش ونسف مجتمعين يجمعين على الوقوف في وجهه فقاتلهم وهزمهم ثم مضى الى بخارى فوجد المنهزمين قد جمعوا شملهم في جمع كبير فقاتلهم يومين وليلتين فمنحه الله النصر عليهم ثم عاد دون فتح جديد . وفي عام ٩٠ عاد الحجاج ثانية فأمره بغزو بخارى فسار اليها فاستنصر ملكها بالصغد والترك ومن حولهم فجاؤه بمدد كبير وأخذ الفريقان يشبكان في معارك حامية . وكاد الترك يطبقون على المسلمين في احدى الجولات حتى لقد دخل بعضهم معسكر قتيبة . واستمات المسلمون في القتال وقامت ثلة منهم بقيادة بطلين من ابطالهم واحد اسمه هريم والاخر اسمه وكيع بعملية فدائية خطيرة حيث اقدموا على اجتياز نهر كان يحجز بينهم وبين الترك بعدد قليل ثم شدوا عليهم فبرز موهم وجرح خافات الترك وابنه . وامتلا اهل الصغد رعباً وخوفاً نتيجة لذلك وارسل ملكهم طرخون الى قتيبة يعرض عليه الصلح مقابل فدية كبيرة فقبل منه وانصرف الى بلاده .

ولقد دب الدعر في قلب نيزك ايضاً بما رأى من انتصارات المسلمين المتوالية فبيت الغدر مع اصحابه واستأذن من قتيبة بالرجوع الى طخارستان . واذن له . فلما بلغ شعب خلم اعلن التمرد وكتب الى اصبهذ بلخ وملك مرو زورد بادم وملك الطالقان شهزك وملك الفارباب ترسيل وملك الجوزجان وكابلشاه وملك كابل يدعوهم الى الانتفاض على العرب . فأجابوه وتواعدوا على موعد . وكانت هذه البلاد في صلح مع المسلمين فأخرجوا عمال المسلمين من المدن التي لهم فيها عمال . ونفي الخبر الى قتيبة فأخذ يستعد لمواجهة الموقف العصيب . ويستقدم المجاهدين من ابرشهر وايبورد وسرخس وهراة حتى اذا اتم استعداداه بدأ بالرحف على الطالقان التي كانت من اقاليم خراسان فقتل من اهلبا مقتلة عظيمة وصب منهم سباطين - صفين - طولها اربعة فراسخ في نظام واحد . ثم ثنى بأهل مرو زورد فشفى نفسه منهم ثم مضى الى الفارباب فخرج اليه ملكها مدعناً معلناً طاعته فقبل منه ومضى الى الجوزجان ففر ملكها

الى الجبال مع قسم من جنده وسارع اهل البلاد الى اعلان طاعتهم فقبل قتيبة منهم . ثم أتى بلخ فلقبه اصبيها . كذلك مظهراً الندم والطاعة فقبل منه حيث يبدو من هذا ان قتيبة كان أسرع حركة من المتأمرين على التمرد فلم يتمكنهم ان يجتمعوا ويحتشدوا في الموعد المعين فصاروا مضطرين الى اعلان الندم والخضوع ، وان قتيبة عاملهم معاملة متساهلة يتم حبوط مؤامرة نيزك ويكون فيها وحيداً أو كالوحيد . وقد جاء بعد ذلك الى شعب خلم الذي كان موعد احتشاد الجماعات المتمردة ولم يكن قد جاء اليه احد إلا نيزك الذي دعر بدوره وفر الى منطقة بغلان بعد أن حصن الشعب من ورائه . وجاء رؤوب خان ملك الرؤوب وسمنجان الى قتيبة طالباً الامان منه على ان يدله على مدخل قلعة نيزك فأجاب الى طلبه . ودخل القلعة . ولم يستطع نيزك الصمود ففر نحو فرغانه وأرسل ثقله وامواله الى كابل شاه . ونصحه بعض رجاله بالقدوم على قتيبة وإعلان الخضوع له . ولم يعد له مناص من ذلك فقدم على قتيبة ومعه بعض أمراء وزعماء الترك المتحالفين معه فاعتقله قتيبة ولم يمنعه أماناً واستأمر الحجاج في قتله فاذن له فقتله وحلبه مع عدد كبير من رجاله لقاء ما كان من غدره الذي كاد يكون كارثة على المسلمين ^(١) .

وفي سنة ٩١ طرد مالك شومان عامل قتيبة ومنع الحراج فأرسل قتيبة اليه انذاراً مع رسول وأرسل قتيبة معه رجلاً من مسلمي خراسان ، فلما قدما المدينة منعاً من دخولها ورشقا يئبل فانصرف الرجل الذي كان مع عياش وصعب على عياش ان يعود دون ان يجاهد في عدو الغادر . فهتف في من كان على سور المدينة اما من رجل مسلم مهنا فجاءه شخص وقال له أنا مسلم فإذا تريد قال أريد أن تعينني على جهاد الكفار فتكون خلفي لتمنع ظهري فوافق وحشد الكفار بالمبارزة فصاروا يبرزون اليه فيقتل منهم واحداً بعد واحد مما جعلهم يكثرونه ويقاثلونه جميعاً حتى قتلوه . وقد وجد فيه ستون جرحاً . مما فيه صورة من صور بطولة المجاهدين الرائعة .

ولما علم قتيبة بمصير رسوله وإصرار ملك شومان على النقص سار اليه عن طريق بلخ فعبّر

(١) السياق من غزو بيكند ال هنا من الطبري ج ٤ ص ٢١٨ - ٢٣٠ و ٢٣٥ - ٢٣٨ وابن الأثير يذكر صفحات نشاط قتيبة متطابقة مع الطبري انظر ج ٤ ص ٢٠٠ وبعدها .

النهر وضرب الحصار على المدينة ونصب عليها المجانيق . ولما ضاق الحناق على الملك خرج مع جماعة من جيشه مستميتاً فقاتلوا حتى قتل الملك ومعظم من معه . وحينئذ دخل قتيبة القلعة وقتل المقاتلة وسبى الذرية . ثم أتى كس وتسف التين كائناً قد نفقتا أيضاً ففتحها ثانية وجاء الى فرياب فامتعت عليه فحرقها . وسرح اخاه عبد الرحمن الى الصغد وطرحون فاعلنوا الطاعة والخضوع فقبل منهم وصالحهم ^(١) .

وفي سنة ٩٢ توجه عن طريق سبستان قاصداً رتبيل الاعظم وبلاد الزابل فلما بلغ سبستان تلقته رسل الرتبيل بالصلح والجزية فقبل وارسل عماله اليهم .

وفي سنة ٩٣ دخلت بلاد خاززم في حكم المسابن . وقد روي في صدد ذلك انه كان لملك خاززم أخ ظالم فاستق متسلط على اخيه فأرسل الى قتيبة يدعوه الى بلاده وارسل مع الرسل مفاتيح ذهبية لمدائه علامة على الخضوع والتسليم وجعل من شروطه اعتقال اخيه وانصاره وتسليمهم اليه . فرحب قتيبة بالفرصة وانجه نحو خاززم فلما بلغها خرج اليه الملك وصالحه . وقد تمكن من اعتقال الاخ المتسلط وانصاره فسلمهم الى الملك وفاء بشرطه .

وكان لهذا الملك عدو آخر هو ملك خام جرد فعرض قتيبة عليه فصار نحوه وقتله واستولى على بلاده وأقام عماله فيها وفي مملكة خاززم معاً . ثم اعتزم على غزو سمرقند عاصمة الصغد حيث كان ملكها غوزك ممن استجاب لدعوة نيزك الى الغدر وتآلب معه فزحف عليها وضرب الحصار . وكتب ملكها الى ملوك الشاش واخشاش وفرغانة يخوفهم من عاقبة انتصار العرب فارسلوا اليه مدداً . وعلم قتيبة بذلك فأرسل جريدة من جيشه للقاء المدد قبل وصوله فلقيته واشتبكت معه في معركة حامية وانتصرت عليه وظفرت منه بغنائم عظيمة من السلاح والمتاع والمناطق الذهبية فقت ذلك من عضد الصغد . وشدد قتيبة الحصار على سمرقند وقذفها بالمجانيق فاضطر أهلها الى اعلان الندم والخضوع وطلب الصلح فصالحهم على الف الف كل عام مع ثلاثين الف رأس في رواية ومائة الف في رواية أخرى . وأمر باحسان المدينة فحرقت بعد أن سلب ما عليها من الحلى . وخوفه اهل الصغد منها وقالوا له إن من يحرقها يهلك فقال أنا اول من يفعل ذلك . وقد اشعل فيها النار

(١) ص ٢٤١ وبعدها

بنفسه . ولما ذابت بلغ بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال . وقد اصاب المسلمون من سمرقند غنائم عظيمة . وقد نفى قتيبة غوزك عن سمرقند واقام عليها عاملاً مع حامية كثيفة . وقال له لا تدعن مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا محتوم اليد . وإن وجدت معه حديدة سكيناً فما سواه فاقتله . وإن أغلقت الباب ليلاً فوجدت أحداً منهم فاقتله بما يتسق مع الحذر في ظروف الحرب وبما قد يدل على شدة غيظ الفاتح العربي من اهل سمرقند لغدرهم ^(١) .

وفي سنة ٩٣ تمرد اهل خارزم بتحريض ملكها على عامل قتيبة فوجه قتيبة جيشاً نكل بهم واضطرم الى الخضوع ثانية . اما ملكهم فانه لم يسعه إلا ان يفر ويوغل في بلاد الترك الشرقية . ثم اعتزم على قاديى بلاد الشاش وفرغانه التي كانت من جملة المستجيبين لتحريض رتبيل ايضاً . وقد فرض على اهل بخارى وكش ونسف وخارزم عشرين ألف مقاتل فوجههم الى الشاش حيث يبدو من هذا انهم إما ان يكونوا اسلموا وإما ان يكونوا قد اظهروا من الولاء ما جعل قتيبة يأمن اليهم . وقد توجه هو الى فرغانه فأتى أولاً خجنده فوجد أهلها مستعدين للقتال فقاتلهم ودارت بينه وبينهم معارك عديدة ثم ظفر بهم . واتى بعدها كاشان مدينة فرغانه فاستحوذ عليها بيسر ^(٢) .

وفي سنة ٩٥ عاود قتيبة الكرة على بلاد الشاش لانه لم يكن غزاها في سنة ٩٣ إلا غزواً خفيفاً فشفى نفسه منها . ولما عاد الى مرو جاءه خبر بموت الحجاج وكتاب من الوليد يشي عليه وبنوه بيلانه ويقول له ان امير المؤمنين قد عرف بلاءك وجدك في جهاد اعداء المسلمين وهو رافعك وصانع بك الذي يجب لك . فآلم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغب عن امير المؤمنين كتبك حتى كأنه ينظر الى بلاك والشعر الذي انت فيه ^(٣) . وفي نفس السنة فتح آخر الهند إلا الكيرج والمندل ^(٤) .

(١) ٢٤٨ - ٢٥٥

(٢) ٢٥٧ - ٢٥٨

(٣) ٢٦٣ - ٢٦٤

(٤) ص ٢٦٣ هذه عبارة الطبري وليس معها بيان لا عن البلاد ولا عن الفاتح وقد رأينا ايرادها بنصها لانها جاءت في كتابة في سلسلة الاحداث حسب تتابع السنين . وفي هذه النبذة التي سوف نوردتها بعد نقلاً عن البلاذري بعض البيان عن ذلك .

وفي سنة ٩٦ فتح قتيبة كاشغر وغزا الصين^(١) وما رواه الطبري في صده ذلك انه بعث كثيراً بن فلان الى كاشغر ففتحها وسبى منها سبياً كثيراً . وان قتيبة وغل حتى قرب من الصين فكتب له ملك الصين ان ابعث الينا رجلا من اشراف قومك ليخبرنا عنكم وعن دينكم فاختر قتيبة عشرة من فتيان القبائل لهم جمال وأجسام وألسن وشعور وبأس . وأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتساع والوشي واللين من البياض والرقيق من النعال والعطر . وحملهم على خيول مطهمة تقاد لهم ودواب يركبونها وجعل لهم هيرة بن المشمرخ الكلامي رئيساً لانه كان مفوهاً بسيط اللسان وقال لهم إذا دخلتم عليه فاعلموه أنني حلفت ان لا أنصرف حتى أظا بلادهم واختم ملوكهم واجبي خراجهم فلما وصل الوفد دخلوا على الملك متعظرين متزينين . فلم يكلمهم احد فقاموا وانصرفوا فسأل الملك رجاله فقالوا ما رأينا إلا ما يشبه النساء . ثم جاءوا في اليوم الثاني متعممين وعليهم المعارف . فلم يكلمهم احد فقاموا وانصرفوا وسأل الملك رجاله فقالوا هم اليوم اشباه رجال . ثم جاءوا في اليوم الثالث متسلحين مشتمرين . فسألهم الملك عن صنيعهم في الايام الثلاثة فقالوا إن ما فعلناه اول يوم هو ما نفعله في بيوتنا وثاني يوم هو ما نفعله حين نقابل امراءنا وثالث يوم هو ما نفعله اذا هاجمنا عدو . فاستحسن تديبرهم وجوابهم . ثم قال لهم لقد رأيتم عظيم ملكي . وانه ليس احد ينعمكم مني فانصرفوا وقولوا لصاحبكم ينصرف وقد عرفت حرصه وقلة اصحابه . والا بعثت عليكم من يهلككم . فقالوا له ان من أول خيله في بلدك وآخرها في منابت الزيتون لا يكون قليلاً . وإن من ترك الدنيا وتقدم الى غزوك لا يكون حريصاً . اما الموت فنحن نعرف ان بنا آجالا فان حضرت فأكرمها علينا ان تكون قتلاً في الجهاد . فلما سمع قولهم قال لهم وما الذي يرضي صاحبكم فذكروا له يمينه فقال نحن نخرجه منها . ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب ليطأه وبأربعة غلمان من ابناء الملوك ليختم رقابهم . وبحرير وذهب لتكون جزية وعاد الوفد فقص رحلته على قتيبة فختم رقاب الغلمان ثم ردهم^(٢) .

وليس في سياق الطبري بيان عن مدينة هذا الملك وموقعها ولم تقع على شيء من ذلك

(١) من ٢٦٨ وبعدها

(٢) ٢٦٩ وبعدها

في الكتب القديمة الاخرى . وقد تكون الرواية شئت بشيء من الخيال . ولكننا نرجح
أن لها أصلاً ما .

وهذا آخر ما روي عن جيهاد قتيبة . وقد روى أنه كان إذا رجع من غزاته كل سنة
اشتري اثني عشر فرساً من جيهاد الحيل واثني عشر هجيناً فيقام عليها الى وقت الغزو وتضم
لتكون له عدة وحمولة في السنة التالية حيث يفيد هذا أنه كان قد أخذ نفسه بالقيام بالجيهاد في
كل سنة .

وواضح مما تقدم ما كان لقتيبة من بلاء عظيم ونقية ميمونة .

واند روى الطبري في أعقاب غزواته وفتوحاته مقطوعات شعرية لشعراء كانوا يشهدون
معه مشاهدته . فيها تنويه وثناء وتسجيل لما كان الله ييسره تحت رايته للمسلمين من فتح
ونصر وغنائم . فمن ذلك عقب النصر على نيزك^(١) :

أراك الله في الأتراك حكماً	كحكم في قريظة والنضير
قضاء من قتيبة غير جور	به يشفى الغليل من الصدور
فان ير نيزك خزيلاً وذلاً	فكم في الحرب حق من أمير

ومنها لشاعر آخر في الظرف نفسه^(٢) :

أبلغ أبا حفص قتيبة مدحتي	واقراً عليه تحيتي وسلامي
يا سيف ابلغها فان ثناءها	حسن وانك شاهد لمقامي
يسمو فتتضع الرجال اذا سما	لقتيبة الحامي حمى الاسلام
لأغر منتخب لكل عظمة	نحو يباح به العدو لهام
يضي اذا هاب الجبان واحشت	حرب تسعر نارها بضرام
تروى القناة مع اللواء امامه	تحت اللوامع والنحور دوام
وترى الجياد مع الجياد ضوامراً	بفنائنه لحوادث الايام

(١) ٢٤٠ (٢) ٢٤٠

وبهن أنزل نيزكا من شاهق
واخاه شقرانا سقيت بكأسه
وتركت صولا حين صال بجولا
والكرز حيث يروم كل مرام
وسقيت كأسها اخا باذام
يركبه بدوابر وحوام

ومنها لكعب بن شقري عقب انتصار قتيبة على خازم شاه واخيه^(١):

رمتك فيل بما فيها وما ظلمت
لا يجزيء الثغر خوار القناة ولا
هل تذكرون ليالي الترك تقتلهم
اني رأيت أبا حفص تفضله
لو كنت طاوعت اهل العجز ما اقتسموا
وفي سمرقند أخرى انت قاسمها
ما قدم الناس من خير سبقت به

ورامها قبلك الفجفاجة الصلف
هش المكاسر والقلب الذي يحف
ما دون كازه والفجفاج ملتجف
ايامه ومساعي الناس تختلف
سبعين الفأ وعز الصغد مؤتف
لئن تأخر عن حوبائك التلف
ولا يفوتك مما خلفوا شرف

ومنها بعد النصر على الصغد أيضاً^(٢):

ما كان مذكنا ولا كان قبلنا
أعم لأهل الترك قتلاً بسيفه
ولا هو فيما يعدنا كابن مسلم
واكثر فينا مقسماً بعد مقسم

ومنها بعد فتح سمرقند^(٣):

كل يوم يحوي قتيبة نهياً
باهلي قد ألبس التاج حتى
دوخ الصغد بالكتائب حتى
فوليد يبكي لفقد ابيه
كل ما حل بلدة أو أتاها

ويزيد الاموال مالا جديدا
شاب منه مفارق كن سودا
ترك الصغد بالعراء قعودا
وأب موجع يبكي الوليدا
تركت خيله بها اخدودا

ومنها في يوم خجندة قالها سحبان وائل:

فلس الفوارس في خجندة
تحت مرهفة العوالي

(١) ٢٤٨ - ٢٤٩ (٢-٣) ٢٥٤ - ٢٥٥

هل كنت اجمعهم اذا	هزموا واقدم في قتالي
أم كنت اضرب هامه	العاي وأصبر للعوالي
هذا وانت قريب قيس	كلها ضخم الثوال
وفضلت قيساً في الندى	وابوك في الحجاج الحوالي
ولقد تبين عدل حكمك	فيهم في كل مال
نحت مروءاتكم وناعي	عزكم غلب الجبال

ومنها في قصة وفد الصين (١) :

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم	للصين ان سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى فوق الردى	حاشا الكريم هيرة بن مشمرج
لم يرض غير الحتم في اغناقهم	ورهان دفعت بجمل سمرج
أدى رسالتك التي استوعبته	وأناك من حنث اليمين بمخرج

وفي سنة وفد الصين مات الوليد وتولى سليمان . فكان من امر قتل قتيبة ما شرحناه في سيرته شرحاً يغني عن التكرار .

ولقد عين سليمان بعد فترة قصيرة يزيد بن المهلب والياً على خراسان فاستمر على خطة قتيبة في الجهاد والفتوح فيما وراء النهر وأبلى هو الآخر بلاء عظيماً في ذلك . من ذلك زحفه على دهستان التي كان أهلها طائفة من الترك وكان معه مئة ألف مقاتل من أهل الكوفة والبصرة والشام وخراسان والري سوى الموالي والمماليك والمتطوعين . وقد حاصر المدينة . وكان أهلها يخرجون حيناً يشاؤون فيقاتلون المسلمين ثم يعودون . وقد شدد عليهم الحصار من كل جانب حتى جهدوا وعجزوا فأرسل اليه دهقانها حول التركي يقول له اني اصالحك على ان تؤمني على نفسي وأهل بيتي ومالي وأدفع لك المدينة وما فيها فقبل منه ووفى هذا فدخل يزيد المدينة واستولى على ما فيها من أموال وكنوز وسبي عظيم المقدار وقتل من مقاتلتها ١٤٠٠٠ (٢) وكان ذلك في سنة ٥٩٨ هـ . جرجان ذكر انه زحف على طرستان دون ان يذكر سبباً كذلك

(١) ص ٢٧١ وقد يكون في هذا الشعر المأثور دليل على صحة قصة الوفد إجمالاً .

(٢) ص ٢٩٣-٢٩٥ .

وفي البلاذري نبذة فيها بيان اوضح في صدد ذلك سنورده فيما بعد .

وقد ذكر الطبري ان يزيد لما زحف على طبرستان ارسل اليه اصهبذها ليسأله الصلح وان يخرج من طبرستان فأبى ورجا ان يفتحها . واستجاش الاجهبذ بأهل جيلان واهل الديلم فأتوه والتقوا بالمسلمين فبزموهم فالحقوا بهم حتى انتهوا الى فم الشعب فصعد المشركون في الجبل فاتبعهم المسلمون فرماهم العدو بالنشاب والحجارة مما اضطرهم الى الانسحاب من الشعب . وكتب الاجهبذ الى المرزبان ابن عم فيروز بن قول وهو بأقصى جرجان بما يلي اليباسان انا قد قتلنا يزيد واصحابه فاقتل من في اليباسان من العرب فهاجم اهل اليباسان العرب على حين غرة وقتلهم جميعاً أربعة آلاف فكانت الكارثة مزدوجة . وعظم الامر على يزيد فأرسل شخصاً إلى الاجهبذ اسمه حيان النبطي يخوفه من العاقبة فخاف وصالح يزيد على سبعمائة ألف في رواية وخمسمائة ألف في رواية أخرى مع اربعمائة وقر زعفران او قيمته من العين واربعمائة رجل على كل رجل منهم برنس وطيلسان ومع كل رجل منهم جام فضة وسرقة خز وكسوة^(١) . وبعد ذلك زحف نحو جرجان . وكان اقسام حين بلغه غدرهم بالمسلمين في اليباسان بأن لا يقطع عنهم ولا يرفع السيف حتى يطحن بدمائهم ويحجز ويأكل كل من الطحين . ولقد تحصن اهل جرجان وراء مدينتهم فحاصرهم يزيد سبعة اشهر ثم تمكن من اقتحام المدينة فقتل مقاتلتهم وصلبهم في حفين على طول فرسخين عن مين الطريق ويساره وسبى ذراريهم . واجرى الماء في الوادي على الدم فدارت الارحاء فطحن وخبز واكل برأ يمينه . وقد غنم غنائم عظيمة حتى بلغ الخمس ستة آلاف ألف . وقد كتب لسليمان يقول متباهياً :

(إن الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين احسن الصنع . فلربنا الحمد على نعمه واحسانه . اظهر في خلافة امير المؤمنين على جرجان وطبرستان . وقد اعيانا ذلك سابور ذا الاكتاف وكسرى بن قباذ وكسرى بن هرمز والفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لامير المؤمنين كرامة من الله له

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩-٣٠٠ وقد روى البلاذري نفس الشيء ولكنه ذكر ان الصلح كانت على أربعة آلاف ألف قدراً وسبعمائة ألف درهم مثاقيل سنوياً مع بقية ما ذكره الطبري (فتوح البداة : ٣٤٤) .

وزيادة في نعمة عليه . وقد صار عندي من خمس ما آفاه الله على المسلمين بعد ان صار إلى كل ذي حق حقه من الفتي والغنيمة ستة آلاف ألفاً وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين ان شاء الله^(١) .

وبما رواه الطبري وفيه صورة من صور الحكم وذهنيته في ذلك العهد ان كاتب يزيد نصحه بان لا يكتب رقم الخس فانك من ذلك بين امرين إما استكثره فأمرك بحمله وإما سخط نفسه لك به فتكلفت الهدية فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله فكأن في بك قد استغرقت ما سميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذي سميت محلاً عندهم عليك في دواوينهم فان ولي بال بعده اخذك به وان ولي من يتحمل عليك لم يرض منك باضعافه ولكن اكتب بالفتح وسله القدوم فتشافه بما احببت مشافهة وتقصر . فانك إن تقصر عما احببت اخرى من ان تكثر . فأبى يزيد وامضى الكتاب . وقال الطبري في نهاية هذا السياق ان بعضهم روى ان مقدار الخس الذي كتبه يزيد كان اربعة آلاف ألف^(٢) .

وبما رواه الطبري كذلك ان سليمان بن عبد الملك كان كلما فتح قتيبة فتحاً في ابام الوليد قال ليزيد الذي كان نازلاً في جواره هرباً من الوليد والحجاج اما ترى ما يضع الله على يدي قتيبة فيقول له هذه الفتوح ليست بشيء . الشأن في جرجان لانها تحول بين الناس والطريق الاعظم . فلما تولى يزيد خراسان للمرة الثانية في خلافة سليمان لم يكن له همه غير جرجان^(٣) .

وفي سنة ٩٩ اغار الترك على اذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين وناولوا منهم . فوجه عمر ابن عبد العزيز الذي خلف سليمان حاتم بن النعمان الباهلي فقتل معظم المغيرين واسر الباقين واتى بهم إلى عمر في خنصره^(٤) . وفي سنة ١٠٠ وجه الجراح بن الحكم والي خراسان جهم بن زحر إلى الحتل فأصاب منهم مغنياً^(٥) . وفي سنة ١٠٢ كفر جماعة من الصغد مرة أخرى فُرسل والي سمرقند شعبة بن ظهير إلى المسلمين في الصغد يعيهم بالجبن ويقول لهم إني لا أرى فيكم جريماً ولا اسمع منكم انة . ثم غزا الصغد بنفسه وانتصر عليهم ووطد السلطان العربي مرة أخرى . ولقد جمع خاقان الترك جمعاً وجبها إلى الصغد لنصرتهم في نفس السنة بقيادة قائد اسمه كور صول فبيتوا المسلمين في مكان يعرف بقصر الباهلي واضطروهم إلى اقتداء

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩-٣٠٣ .

(٢) ٣٠٣ (٢) . ٢٩٨-٢٩٩ (٣) . ٣٠٩ (٤) . ٣١٣ (٥) .

أنفسهم بأربعين ألف درهم وأخذوا منهم ١٧ رجلاً رهينة على المال . غير أن المسلمين ظلوا في وسط البلاد معرضين للخطر فانتدب منهم والي الناس لانتقامهم وارسلهم بقيادة المسيب بن بشير وخطب هذا في جماعته فقال : إنكم تقدمون على حلية الترك . حلية خاقان وغيرهم . والعوض ان صبرتم الجنة ، والنار ان فرتم فمن أراد الغزو فليقدم فانصرف عنه بعض الجماعة لاستشعارهم بالخطر ثم كرر القول فانصرف آخرون ولم يبق معه إلا سبعمائة عاهدوا الله على الموت . وسارع خاقان بحشود أخرى حينما علم بان المسلمين بعثوا بعضاً لانتقام المحصورين . وقتلوا الرهائن . واستلمت المسيب ومن معه واستبسلوا حتى وصلوا الى القصر وانتقدوا اخوانهم المحصورين ونجوا واباهم مما فيه صورة بطولة فدائية رائعة حتى لقد قال الترك لشدة دهشتهم ما هؤلاء إنساً وإنما هم من الجن ^(١) .

وبعد ذلك تجهز والي خراسان سعيد بن حذيفة وقطع نهر بلخ وغزا بلاد الصغد وانتصر عليهم ووطد السلطان الاسلامي العربي مرة أخرى ^(٢) .

ومع ذلك فقد عادوا سنة ١٠٣ الى التمرد واستجاشوا ملك فرغانة وغيره من ملوك الترك الذين كانوا في صلح مع المسلمين فنقضوا صلحهم ونهبوا لنصرة الصغد . وكالت والي خراسان حينئذ سعيد الحرشي فقطع النهر ثم نزل على اشروسنة فصالحه اهلبها ثم تقدم نحو خجنده فاستولى عليها ثم أوغل في البلاد يقتل ويسبي ويغتتم حتى أعاد السلطان العربي الاسلامي عليها .

وكان هذا والي شجاعاً مغواراً يسير في طليعة الزحف . ولقد خطب جنده حينما وصل وحشهم على الجهاد وقال لهم إنكم لا تقاتلون بكثرة ولا بعدد ولكن بنصر الله وعز الاسلام فقولوا لا حول ولا قوة إلا بالله وسأكون في الزحف في مقدمتكم ثم انشد هذه الايات :

أمام الحيل تطعن بالعوالي	فلست لعامر إن لم تروني
بعضب الحد حودث بالصقال	وأضرب هامة الجبار منهم
ولا أخشى مصالوة الرجال	فإنا في الحروب بمستكين
وخالي في الحوادث خير خال	أبي لي والدي من كل ذم

(١) الطبري أيضاً ج ٥ ص ٣٥١ - ٣٥٥ (٢) ٣٥٥

ولقد عاد أهل البلاد الى التقصص للمرة الرابعة في سنة ١٠٤ وكان سعيد ما زال والياً فقطع النهر وجد في الامر حتى شفى نفسه منهم واخضعهم^(١)

وفي نفس السنة غزا الجراح بن عبد الله الحكمي أمير ارمينية وآذربيجان الترك من الناحية الغربية ففتح بلنجر وما يليها من الحصون وسبى منهم سبياً كثيراً^(٢) .

وفي سنة ١٠٥ غزا الجراح بلاد الهلال وجاز منها إلى مدائن وحصون من وراء بلنجر ففتح بعضها واصاب غنائم كثيرة^(٣) .

وفي نفس السنة غزا مسلم بن سعيد الذي صارت ولاية خراسان اليه أفشينه إحدى مدائن الصغد التي لم تكن قد فتحت على ما هو المتبادر فصالحه ملكها^(٤) . ثم سار الى فرغانة فأقبل اليه خاقان بخيل وحشد كبيرين فقابلهم المسلمون بمجد واستانة حتى هزمهم وكان عدد الاعداء اضعافاً مضاعفة . وبما روي ان أحد قواد الكتائب ثابت بن قطينة اراد أن يخطب في جماعته حاثاً محمداً فارتج عليه فما كان منه إلا أن قال :

إن لم أكن فيكم خطيباً فأنني
بسيقي أذا جد الوغى لحطيب
فبلغ في قوله الذروة من الخطابة^(٥) .

وفي سنة ١٠٧ غزا أسد بن عبد الله والي خراسان جبال ثرون ملك الغرستان فصالحه وأسلم على يديه . وفي نفس السنة غزا أسد الغور ايضاً . واسكن فيه جماعات من العرب وملكهم ارضها^(٦) .

وفي سنة ١٠٨ قطع أسد والي خراسان النهر وغزا اخل . وأقبل خاقان لئصرتهم ولكنه رجع الى بلخ دون لقاء وقتال . ومضى اسد الى الغوريان فقاتل اهلها وهزمهم وملا المسلمون ايديهم بالغنائم والسبايا واحتوا معسكرهم^(٧) .

وفي سنة ١٠٩ غزا أسد غورين . ولقد أورد الطبري لشاعر اسمه ثابت قطنة مقطوعة بعد هذا الخبر فيها تنويه بما كان من بلاء اسد وجهاده نردها كتسجيل لهذا البلاء والجهاد لم يعبر

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٦١ - ٣٦٢ وانظر ايضاً تاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٣٩

(٢) ٣٦٨ (٣) ٣٧٣ (٤) ٣٧٤ (٥) ٣٨٥ - ٣٨٦ (٦) ٣٨٨ (٧) ٣٨٩ - ٣٩٠

عنها سياق الطبري تعبيراً شافياً :

وقارع أهل الحرب فاز وأوجبا	أرى أسداً في الحرب إذ نزلت به
فحرق ما استعصى عليه وخرّباً	تناول أرض السبل خاقان ردؤه
وغورين إذ لم يهربوا منك مهرّباً	أتاك وفود الترك ما بين كابل
إلى ضاربات مرشوة فعقباً	فما يغمر الاعداء من ليل غابة
كربه الحيا قد أسن وجرباً	أزب كآن الروس فوق ذراعه
لجندك إذ هاب الجبان وأرهبا	ألم يك في الحصن المبارك عصمة
قديماً إذا عد القديم وأنجبا ^(١)	بنى لك عبد الله حصناً ورثه

وفي السنة ١١٠ وقع حادث صدام بين بعض اهل ما وراء النهر والسلطات الاسلامية في خراسان بسبب تصرف عجيب مناف للثق والشرع . فقد عزل الخليفة أسداً بسبب تعصبه القبلي وعين مكانه والياً اسمه الاشرس السامي . فرغب في نشر الاسلام في هاتيك الربيع فكلف رجلاً من صلحاء المسلمين في خراسان بان يذهب الى ما وراء النهر ويدعو الناس فاشترط هذا أن ترفع الجزية عن من يسلم فقبل الاشرس هذا الشرط وذهب الرجل فدعا الناس على هذا الشرط فسارع كثيرون الى الاستجابة .

فكتب متولي الخراج في سمرقند الى الاشرس ان الخراج قد انكسر فكتب الاشرس الى عامل سمرقند يقول له إن في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان أهل الصغد واشباههم لم يسلموا ورغبة وإنما دخلوا في الاسلام تعوداً من الجزية فانظر من اختن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه الخراج فكتب له إن الناس قد أسلموا وبنوا المساجد . وجاء دهاقين اقليم بخارى الموكلون بمجباية الخراج فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس عرباً - اي مسلمين - فاستعظم الاشرس ما سوف يؤدي اليه فراغ الخزانة من انقطاع الجزية فكتب الى عامل سمرقند يأمره بأخذ الجزية ممن كان يأخذها إطلاقاً . فأخذها من الضعفاء وامتنع الاقوياء فأراد اخذها منهم بالقوة فأدى ذلك الى كفر الصغد وبخارى وارتدادهم واستباحوا سائر الترك فيما وراء النهر لنصرتهم . وخرج الاشرس لمعالجة الموقف بالقوة وعبر النهر . واقبل اهل الصغد وبخارى معهم خاقان وجيوشه الى لقائه والتقى

افريقان واخذوا يتصاولان دون ان يكسب فريق على آخر جولة ساحقة . وارسل الاشروس بجيشه إلى بيكند وقطع الاتراك عنه الماء فعضشوا ومات جماعة كبيرة من العطش فقالوا ان القتل بالسيف احكم من الموت عطشاً فحموا على الترك مستعيتين فأزالوهم عن المساء ثم استمروا في حملتهم حتى هزموهم وركبهم وفر كثير منهم الى بخارى فلحق بهم الاشروس وضرب الحصار على بخارى . وجمع خاقان قلوب جموعه وجاء من وراء المسلمين مفاجأة فكان موقف عصب . غير ان المسلمين صدوا للمفاجأة حتى ضيعوا على خاقان فرصتها . ورأوا من مصلحتهم ان يرتحلوا عن بخارى ففعلوا . ثم عادوا في السنة التالية الى بخارى فضربوا الحصار عليها . ونفي خبر تصرف الاشروس الاحق للخليفة هشام فغزله وعين مكانه الجنيد بن عبد الرحمن وجاء هذا والحصار مضروب من قبل المسلمين على بخارى وخاقان مقبل مع جموعه لنصرة اهلها فاستلم القيادة واخذ الطرفان يتصاولان وتتداول الايام بينهما ثم كتب النصر للمسلمين فهزموا خاقان واستولوا على بخارى واعادوا اليها السلطان العربي الاسلامي ثانية (١) ولم يذكر السياق ماذا تم بالمسألة التي اثارته هذه الحركة اي جباية الجزية من المسلمين . ولكن عزل هشام للاشروس قد يدل على انه استخطاه في تصرفه وامر واليه الجديد بإصلاح الخطأ .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز أن احد الوافدين عليه من خراسان شكاه له سوء تصرف واليه الجراح بن عبد الله ومن جملة ذلك اخذ الجزية ممن اسلم من اهل البلاد فأرسل عمر إلى الوالي يوجيه ويأمره بوضع الجزية عن كل من صلى القبلة . ولما قيل له إن الناس إنما اسلموا هرباً من الجزية واقترح عليه امتحانهم بالختان أبى وقال إن الله لم يبعث محمداً جابياً ولا خاتناً وإنما بعث هادياً ثم امر واليه إعلان ذلك فكان هذا من اسباب فشو الاسلام فيها وراء النهر حيث يبدو ان عقدة المال وفراغ الخزينة عادت لتطير ثانية بعد موت عمر فتؤدي إلى هذه الاحداث الدامية .

وفي سنة ١١٢ غرد الترك في الهلال فسار لهم الجراح بن عبد الله الحكمي واشتبك معهم فدارت الدائرة على المسلمين وقتل الجراح وكثير من رجاله واسر منهم كثيرون واستولى ترك على درديبل . فعين هشام سعيداً الحرشي والياً على اذربيجان التي تقع بلاد الهلال في

(١) النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٣٩٧ وبعدها .

نطاقها وامره بمعالجة الموقف فذهب واستطاع ان ينكل بالتمردين تنكيلا شديداً وان ديستر اردبيل وان يستنقذ الاسرى من المسلمين ومن اهل الذمة ^(١) .

وفي سنة ١١٢ خرج الجنيد بن عبد الرحمن والي خراسان غازياً يريد طخارستان فنزل على نهر بلخ . وجاش الترك بقيادة خاقان فاتوا إلى سمرقند فاتجه الجنيد اليها . وغور الترك الآبار في الطريق ثم قصدوا المسلمين بجمع عظيم فيهم جماعات من الصغد والشاش وفرغانة الذين استجابوا التحريض خافسان ونقضوا وتمردوا . واشتبك الفريقان في معارك ضاربة ودارت الدائرة على الترك فانهمزوا وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسرأ . ومع ذلك فان خاقان جمع الفلول واتجه بها إلى بخارى فحصرها وخلق به المسلمون فكشفوهم عنها .

وبما رواه الطبري ان أحد أبطال المسلمين محمد بن عبد الله بن حوذان حمل سبع مرات وفي كل مرة كان يقتل رجلاً حتى هابه من كان في ناحيته من الترك فناداه ترجمان خاقان بأمر منه يقول له ان الملك يطلب منك ان تتحول الينا فنرفض صنمنا الذي نعبده ونتخذك معبوداً بديلاً عنه فقال لهم أنا اقاتلكم لتتركوا عبادة الاصنام وتعبدوا الله وحده ثم ظل يقاتل حتى استشهد .

والمبادر أنه كان للبطل سيرة داوية حفظها الالسن جيلاً بعد جيل . ولقد أحاط الترك بجماعة من المسلمين فحمل هؤلاء عليهم حملة مستميتة حتى فكوا عنهم الطوق . ولكن الترك كانوا قد اشعلوا الحشيش في اطراف الميدان المطوق فسقط الترك والمسلمون في النيران فأكلت معظم الفريقين ^(٢) .

ويستفاد من سياق الطبري انه كان لنصر بن سيار في هذه المواقع بلاه عظيم فكان ذلك بما رشحه للنصب الرفيع بعد قليل .

وفي سنة ١١٣ عين هشام أخاه مسلمة والياً على خراسان ففرق الجيوش في بلاد خاقان فاستطاعت ان تفتح كثيراً من مدنه وحصونه ودان لمسلمة من كان وراء جبال بلنجر . وقد قتل واسر كثير من جند خاقان . وكان ابنه من جملة القتلى ^(٣) .

(١) ١٠ (٢) ١٥-٢١ (٣) ٢٤-٢٥ .

وفي سنة ١١٩ غزا أسد بن عبد الله الذي عاد إلى ولاية خراسان مرة ثانية بلاد الحتل وفتح قلعة زعرزك وسار منها إلى خرداش وملأ يديه بالسي والشياه. ولما علم خاقان بغزو أسد تجهز وبادر إلى نصرته الحتل. وعلم أسد بخروجه فاستعد له وسار لملاقاته. والتقى بفريق من جموعه فهزمهم واحتوى معسكرهم. وجاء إلى بلخ فاستجمع فيها. وأقبل خاقان بجموعه التي انضم إليها كثير من أهل طخارسان والصغانيان وغيرهم فآخذت تدور بينهم الاشتباكات. وانتصر المسلمون عليهم في النهاية وهزموهم بعد قتل واسر كثير منهم. وقد ملأوا أيديهم بالغنائم ومن جملتها (١٥٥٠٠٠) رأس من الغنم. وبلغ من ذهول الترك أنهم كانوا يضربون بعضهم. وفي هذه الاثناء اختلف خاقان مع زعيم من زعماء الترك فيته هذا وقتله. وكان ذلك خاتمة لمتاب عظيمة كان يثيرها خاقان في وجه المسلمين. ولقد كان ذلك نصراً عظيماً للمسلمين حتى ان هشاماً لما جاءه الخبر نزل عن سريره وسجد سجدة شكر لله^(١).

وفي السنة نفسها غزا أسد بلاد الحتل مرة ثانية. ولما وصلت طلائعه إلى عاصمة الملك بدر طرخان طلب الامان على ان يخرج إلى اسد فسمح له فلما بلغه عرض عليه فدية مقدارها ألف ألف درهم فأبى ورده إلى مأمنه لأنه جاء باذن وأمان. ولقد تحصن في حصن له غير ان أسداً حصره وضيق عليه حتى ظفر به وقتله وبسط السلطان العربي الاسلامي على بلاده وعاصمته^(٢).

ومات أسد الذي كان من عظماء رجال هذا العهد ومجاهديهم بعد ذلك بأمد قصير فكان لموته رنة أسمى سجلها الشعراء الذين سجلوا ما كان من جهاده وبياتله وسخائنه. وما روي من ذلك لابن عرس العبدى :

فربيع القلب للملك المطاع
وما لقضاء ربك من دفاع
ألم يحزنك تفريق الجماع
وكم بالصبغ من بطل شجاع

نعى أسد بن عبد الله ناع
ببلخ وافق المقدار يسري
فجودي عين بالعبوات سحاً
أناه حمامه في جوف صبغ

(١) ٤٤٣ وبعدها.

(٢) ص ٤٦١ وبعدها.

على جرد مسومة سراع
مريعاً عند مرتاد النجاح

مكتائب قد يجيئون المنادي
سقيت الغيث إنك كنت غيثاً

ولسليمان بن قتيبة :

وروى خراسان السحاب المجما
بها غيوا شلواً كريماً وأعطفاً
وطلاب اوتار عفرنا عشمها
ويروي السنان الزاغي المقوما

سقى الله بلخاً سهل بلخ وحزنها
وما بي لتسقاء ولكن حفرة
مراجم اقسوام ومزدي عظيمة
لقد كان يعطي السيف في الروع حقه

وبما رواه الطبري وفيه حيرة لما كان لأسد من صيت ومنزلة في قلوب الترك بسبب ما كان من عدله وحسن سيرته وبلائه وأعماله الجمرانية ان امرأء النواحي والدهاقين اتوه بهدايا عظيمة من أواني الذهب والفضة وان أحدهم خطب أمامه فقال إنا معشر العجم اكثنا الدنيا أربعمئة سنة بالحلم والعقل والوقار ليس فينا كتاب ناطق ولا نبي مرسل وكان الرجال عندنا ثلاثة ميمون النقية أبنا توجه فتح الله على يده والذي يليه رجل تمت مروءته في بيته ورجل رحب صدره وبسط يده وان الله جعل صفات هؤلاء الثلاثة فيك وما نعلم أحداً هم أتم كتحذانية (ملكاً أو أماردة) منك . إنك ضبطت اهل بيتك وحشمك ومواليك . فليس منهم احد يستطيع ان يتعدى على صغير ولا كبير ولا غني ولا فقير . ثم بنيت الايوانات في المنافز فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان عيلاً إلا أن يقولوا سبحان الله ما احسن ما بنى . ومن يمن نقيبتك أنك لقيت خاقان وهو في مئة ألف فهزمته وقتلته وقتلت اضيابه وأبجث عسكره . واما رحب صدرك وبسط يدك فانا ما ندري اي المالبين اقر لعينك امال قدم عليك أم مال خرج من عندك . بل انت بما خرج اقر عيناً^(١) .

وفي سنة ١٢١ غزا مروان بن محمد والي ارمينية واذربيجان والجزيرة بلاد الترك من ناحيته . وكان ملكها يعرف بصاحب سرير الذهب ففتح قلاعه وضرب عليه جزية سنوية مقدارها الف رأس واخذ رهناً منه على ذلك .

ولقد عين هشام لولاية خراسان بعد اسد نصرأ بن سيار الذي استمرت ولايته نحو عشر سنين والذي كان له بلاء عظيم عد به من عطاء هذا العهد ايضاً .

وقد غزا في سنة ١٢١ اي في السنة التي عين فيها ما وراء النهر ثلاث غزوات . وكانت الاولى من ناحية ما عرف بباب الحديد . وقد امر مناديه ان يعلن في هذه الناحية أيما رجل من المسلمين يؤخذ منه جزية او يثقل عليه خراج فليرفع ذلك إلى صاحب الخراج ليرفعه عنه وقد امرته بالعدل . فما كانت الجمعة الثانية حتى اتاه ثلاثون الف مسلم كان العمال يجبون منهم الجزية فرفعها عنهم حيث يبدو ان عقدة الجزية من الذين اسلموا ظلت تستمر الى هذا الوقت برغم ما كان بسببها من كوارث وبرغم ما صدر من عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك من اوامر شديدة في ذلك .

على ان ذلك لم يعد يذكر بعد نداء نصر بن سيار الجدير بالتسجيل والتتويه في صدد الانصاف وازالة العقبات في طريق انتشار الاسلام في هاتيك الربوع حتى غدا دين اهلبا العام .

وكانت الغزوة الثانية لنصر الى درغر والثالثة الى الشاش التي تمردت من جديد . وقد تصدى له هذه المرة قائد تركي اسمه كورصول في خمسة عشر الفاً ليحول بينه وبين قطع نهر الشاش . وكانت مرامة بالنبال بين الطرفين . غير ان بعض المسلمين قاموا بعملية فدائية وبطولية فاضطرب المعسكر التركي واسر المسلمون فيما اسروه شيخاً عظيم الهيئة وعليه درع سابغ وثياب من ديباج وبقاء مكفف بالديباج فأتوا به الى نصر فاذا هو القائد نفسه . وقد قال لنصر ما ترجو من قتل شيخ . انا اعطيك الف بغير من ابل الترك والف برذون تقوي بها جندك فدية عني فشاور اصحابه فقالوا له خذ الندية . وسأله نصر عن عمره فقال ما ادري قال كم غزوت فقال اثنتين وسبعين غزوة . فسأله هل شهدت يوم العطش فقال نعم فقال له حينئذ لو اعطيتني ما طلعت عليه الشمس ما اقلت من يدي بعد ما ذكرت من مشاهدك ثم امر به فقتل وصلب ثم احرق . ولما علم الترك بمقتله اقاموا عليه النذب وحرقوا متاعه وقطعوا آذانهم وجردوا وجوههم ثم ارتحلوا مهزومين مرتاعين .

وارتفع نصر بعد ذلك الى فرغانة التي كانت متمردة فسبى منها ثلاثين الف رأس غنم ثم تقدم الى بلاد الشاش واشتبك فيها مع الجماعات المتمردة . وقد قتل المسلمون واسروا

خُلِقاً كبيراً منها واسروا فيمن اسروه فارسمهم الاكبر المسمى الاخرم وسبعة من كبار رفاقه فأمر نصر بضرب رقابهم والقاء رؤوسهم على معسكر الترك الذين قابلوا ذلك بالضجيج والذهول ثم ارتحلوا مهزومين . وتقدم في البلاد قتلناه ملكها بالهدايا وطلب منه الصلح فصالحه . ثم توغل في فرغانة حتى بلغ قلعة ملكها . واشتبك المسلمون مع جيش فرغانة فانتصروا عليه وحينئذ طلب الملك الصلح فاجيب إلى طلبه .

وفي سنة ١٢٣ أرسل نصر إلى جماعات من اهل السغد كانوا تشردوا عن بلادهم إبان الحركات التمردية السابقة يدعوهم إلى الرجوع ويمنحهم شروطاً سخية لم يمنحها لهم الذين سبقوه نعايه المسلمون فأرسل يستأذن الخليفة ويقول له انه أراد أن يتألفهم للمعرفة من نكابتهم وشوكتهم فأمضى شروطه ^(١) .

وفي نفس السنة غزا نصر فرغانة غزوة ثانية دون ان يذكر الطبري سبباً وتفصيلاً ^(٢) . وتقف روايات الطبري عن الحركات في بلاد الترك عند هذا الحد .

وفي فتوح البلدان للبلاذري فصول عديدة عن الحركات والفتوح والمصاولات العربية في انحاء بلاد العجم والترك في زمن الدولة الاموية . منها ما ذكره الطبري ومنها ما لم يذكره ومنها ما جاء ببيان اوفى . فرأينا ان نورد ما لم يورده الطبري اتماماً للموضوع .

فالولا في قزوين وزنجاب :

يذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان هذه الانحاء غزيت وفتحت في خلافة عثمان وكان المتولي لذلك ولاية الكوفة واكثر سكانها من الديلم . وقد اسلم كثير منهم انفة من الجزية . وظل امرهم مستقيماً الى ان كانت قتلة عبد الرحمن بن الاسعث في زمن عبد الملك بن مروان وولاية الحجاج سنة ٨٠ على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة فتحرك الاكراد الذين كانوا من سكانها واخذوا يعيشون ويفسدون . فسير الحجاج عليهم جيشاً بقيادة عمرو بن هاني فالوقع فيهم وقمع حركتهم . وقد امره الحجاج ان يغزو الانحاء التي لم تكن اسلمت والتي علم ان

(١) غزوات ونشاط نصر بن سيار مقتبس من الطبري ج ٥ ص ٤٩٢ وبعدها .

(٢) ص ٣٢٩-٣٣٣ .

اهلها يتحفزون للتمرد . فغزاهما وقمع حرمتهم .

وثانياً اذريجان^(١)

وذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان هذه البلاد كانت فتحت في زمن عمر بن الخطاب بقيادة حذيفة بن اليمان .

وفي زمن عثمان وعلي قامت فيها بعض الحركات التمردية فقمعت وانتهى امرها . وفي سنة ١١٤ عين هشام بن عبد الملك محمداً بن مروان والياً عليها فغزا بلاداً قريبة اليها لم تغز من قبل وهي بلاد موقان وجيلان .

وثالثاً جرجان وطبرستان^(٢)

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان أن هذه البلاد كانت من جملة البلاد التي غزيت لأول مرة في زمن عثمان رضي الله عنه ووصلت على أتاوة كانت تدفعها عفواً مرة وبالقتال مرة . وأن أول من غزاهما هو سعيد بن العاص سنة ٢٩ . وأن معاوية ولى مصقلة بن هبيرة طبرستان وجميع أهلها حرب - أي أعداء - فتوغل فيها فلما جاوز المضائق اخذوها عليه ودحرجوا الصخور من الجبال فهلك هو وجميع جيشه الذي كان عدده عشرة آلاف في رواية وعشرين ألفاً في رواية أخرى حتى ضرب المثل به فقيل (حتى يرجع مصقلة من طبرستان) وعين والي العراق عبد الله مكانه في زمن معاوية محمداً بن الأشعث الكندي فصالحهم وعقد لهم عقداً . ثم أمهلوا له حتى دخل فأخذوا عليه المضائق . غير أنه نجح مع معظم الجيش ولم يهلك إلا القليل ومن جملتهم ابنه ابو بكر . وظل المسلمون لذلك يغزون هذه البلاد وهم حذرون من التوغل إلى ولاية يزيد بن المهلب . ثم ذكر جل ما روينا قبل عن الطبري من بلاه يزيد بن المهلب مع زيادة هامة وهي ان يزيد فتح في سياق ما فتح بلاد الرويان ودبائوند ورتب على اهلها مالا وثياباً وآنية كجزية سنوية وذلك بعد صلحه مع طبرستان وقبل مسيره الى جرجان .

(١) ٣٣٣ - ٣٣٩ (٢) ٣٤٢ - ٣٤٨

ورابعاً سجستان وكابل^(١)

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان العرب غزوا سجستان لأول مرة سنة ٣٠ بقيادة الربيع بن زياد وان انس بن الريان اتجه من كرمان في زمن عثمان بن عفان أيضاً فغزا رساتيق زالتق وهيسون وزرنيج والمندمند وناشروز وسناروز فظفر وغنم وصالحه الدهاقين على اتاوات . غير أن السلطان العربي لم يتوسط توطداً قوياً حيث كانوا يتمردون حيناً ويخضعون حيناً . وفي أوائل خلافة معاوية كفرت فندب والي البصرة عبد الله بن عامر عبد الرحمن بن سمرة لغزوها فغزاها واخذ يوطد السلطان العربي فيها . وظل ينتقل من بلد إلى بلد حتى بلغ كابل فحاصرها شهراً وتمكن من ثلم سورها بالمنجنيق فخرج أهلها لقتال المسلمين وكان معهم فيل فأصابه سهم فسقط على الباب ولم يقدر على غلقه فدخل المسلمون المدينة عنوة وتم الفتح . ثم قطع عبد الرحمن وادي نسل وأتى حواش وقوزان بست ففتحها وسار إلى رزان فهرب أهلها فغلب عليها ثم سار إلى خشك فصالحه أهلها ثم أتى الرخج فقاتله أهلها وانتصر عليهم وفتحها ثم سار إلى ذابلستان^(٢) فقاتله أهلها فانتصر عليهم وفتحها وأصاب منها سبياً كثيراً . وفي هذه الاثناء نقض أهل كابل فعاد إليها وفتحها فتحاً ثانياً . ولم يكذبارقها حتى نقضت للمرة الثانية . وقد أخرج ملكها من كان فيها من المسلمين واستعد للقتال وجاء رتبيل ملك الترك من ناحية أخرى فغلب على ذابلستان والرخج حتى انتهى إلى بست . فندب والي البصرة هذه المرة الربيع بن زياد فسار نحو بست أولاً فقاتل رتبيل وهزمه ثم لحق به إلى الرخج فقاتله وهزمه . ومضى بعد ذلك ففتح بلاد الداور .

وعين معاوية بعد ذلك عبد الله بن أبي بكره والياً على سجستان فغزا بلاد رتبيل فلما أعياه الأمر سأل الصلح على بلاده وبلاد كابل مقابل ألف الف ومئتي ألف في السنة فأجابه عبد الله .

وفي أواخر عهد يزيد بن معاوية أو بعد موته غدر أهل كابل فسار إليهم يزيد بن زياد فقاتلهم فدارت الدائرة على المسلمين واستشهد يزيد وكثير من جنده وأسر كثير منهم أيضاً حتى اضطر المسلمون إلى دفع فدية كبيرة مقابل إطلاق أسراهم . فلما استتب الأمر لعبد

(١) ص ٤٠٠ - ٤٠٩

(٢) يذكر ابن الاثير هذه الوقائع ويقول موضعاً بعد كلمة ذابلستان وهي غزته واعمالها (ج ٣

ص ١٧٤)

الملك عين أمية بن عبد الله والياً على خراسان . فغزا البلاد المتمردة فعرض عليه ملكها الصلح فأبى واخذ يتوغل في البلاد وكان أهلها يخلونها أمام الزحف العربي حتى إذا صار المسلمون في منطقة المضائق أخذها الأعداء عليهم ثم عرضوا الصلح ثانية بثلاثمائة ألف بشرط أن يكتب لهم عهد بعدم غزو بلادهم مرة ثانية . وقبل أمية العرض والشرط لأنه رأى نفسه على ما يبدو في مأزق . ولم يجز عبد الملك عمل أمية فعزله وأعاد عبد الله بن أبي بكره على ولاية سجستان وأمره بفتح كابل وإرغام العدو . وسار هذا لتحقيق الأمر وفعل العدو بقيادة رتبيل ما فعلوه قبل ثم عرضوا الصلح للمرة الثالثة بمجمسمائة ألف ونفس الشرط وطلبوا أن يرسل القائد العربي أولاده الثلاثة اليهم رهناً إذا وافق . وقد وافق لأنه هو الآخر وجد نفسه في مأزق . ولكن رؤساء جنده لم يقروه وفضلوا القتال فجاراهم ولكنهم لم يحرزوا نصراً وهلك كثير منهم جوعاً وعطشاً ومات قائدهم هما وكمداً .

ويتفق الطبري والبلاذري فيما جرى بعد ذلك من تسيير الحجاج ابن الأشعث الى نهاية القصة التي أوجزناها قبل .

وبما ذكره البلاذري ولم يرد في الطبري من أحداث سجستان وطبرستان ان رتبيل طلب من قتيبة بن مسلم الصلح حينما عينه مكان المفضل بن المهلب وقال إنا لم نخلع يداً من طاعة وإنما فارقمونا على عروض فلا تكلمونا فقبل قتيبة وصالحه مجدداً . ولكن رتبيل لم يؤد ما صالح عليه بانتظام طيلة عهد قتيبة . فلما تولى يزيد بن المهلب ولاية خراسان بعده ولى ابنه والياً على سجستان فشده على رتبيل حتى رضع . ثم نكل في زمن يزيد بن عبد الملك واستمر في نكوله بقية دولة بني أمية .

خامساً خراسان^(١)

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان ان اول من غزا كرمان كان عبد الله بن بديل في عهد عمر بن الخطاب وقد مضى حتى بلغ الطبيين وهما حصنان يعدان بابا خراسان فأصاب مغنا ثم صالحه أهلها . وتوالى بعد ذلك غزو هذه الأنحاء في عهد عثمان بن عفان وتيسر للمسلمين فتوحات ومغانم كثيرة فيها وما ذكر من أسماء الأقاليم والمدن التي تم غزوها وفتحها قوهستان ونيسابور ومنساوازام وأبيورد وسرخس وهراة وباذغيس وبوشنج ومرو وبلغ

والصغانيات والجوزجات وكلها في نطاق خراسان وما وراء النهر . وكان الأمر ينتهي بعد قتال شديد أو خفيف أو بدون قتال أحياناً إلى طلب الأهلالي الصلح على مقادير معينة من المال وقبول طلبهم . ومن تولى الحركات الحربية في هذه الأثناء الأحنف بن قيس ويزيد الحرشي وقيس بن الهميم وعبد الله بن خازم وأوس بن ثعلبة .

وفي عهد علي بن أبي طالب انتفضت البلاد وظلت منتفضة إلى أن استتب الأمر لمعاوية فولى قيس بن الهميم السلمي ناحية خراسان فسار إلى بلخ فأخرب أنهارها فسأله الصلح ومراجعة الطاعة فقبل .

ولم يتشدد هذا الوالي مع سائر الناقضين واكتفى بجباية الذين لم ينقضوا من أهل خراسان فعزل وعين مكانه عبد الله بن خازم فأرسل إليه أهل هراة وبوشنج وباذغيس فطلبوا الأمان والصلح فقبل منهم وكان ذلك في سنة ٤٥ هـ .

ثم تولى أمير بن أحر حاكم مرو أي خراسان لأن مرو عاصمتها فكان أول من أسكن العرب فيها . وفي سنة ٥١ تولى حكم خراسان الربيع بن زياد فأتى بزهاء خمسين ألف أسيرة عربية وأسكنها دون النهر أيضاً . وفي سنة ٥٣ تولى حكم خراسان عبد الله بن الربيع فقاتل أهل آمل وزم واضطروهم إلى الخضوع وطلب الصلح . ثم تولى حكم خراسان بعده عبيد الله بن زياد وهو ابن ٢٥ سنة فقطع النهر في (٢٤٠٠٠) فأتى بيكند وكانت خاتون ملكة الترك بمدينة بخارى فأرسلت إلى الترك تستمد منهم فجاءها مدد فلقبهم المسلمون وهزموهم وحووا عسكرهم ثم أقبلوا يحرقون ويخربون فاضطرت الملكة إلى طلب الصلح على ألف الف . وفتح بعدها رامدين ويقال أنه فتح بعد ذلك الصغانيات . ثم تولى بعده ولاية خراسان سعيد بن عثمان فقطع النهر وكان أول من قطعه . فلما بلغ خاتون الخبر حملت إليه الاتاة المتفق عليها . وأقبل أهل السغد والترك وأهل كش ونسف على سعيد بمائة وعشرين ألفاً وندمت خاتون على دفع الاتاة وأعلنت نقض الصلح . وقابل المسلمون الموقف بقوة حتى جعل الذين أقبلوا يرتدون .

وأعلنت خاتون ندمها وطلبت تجديد الصلح وأعطت سعيداً رهناً على ذلك . ثم غزا سمرقند وأعانت خاتون بمقاتلين من بخارى وتحصن أهل سمرقند وراء أسوارهم وحلف سعيد أن لا يبرحها حتى يفتحها وتراشق الفريقان بالنبال وأصيب سعيد والمهلب بن أبي صفرة وغيرهم بجراح ومع ذلك بقي سعيد متشدداً في الحصار وتضييق الخناق على المدينة حتى

اضطر اهلها الى عرض الصلح لقاء (٧٠٠٠٠٠) . واعطوه رهناً من ابناء عظمائهم وشرط ان يدخل المدينة من باب ويخرج من باب آخر فنفذ شرطه . ثم انصرف الى الترمذ ففتحها صلحاً ولقد مضى سعيد بالرهائن وكانوا يلبسون الثياب الثمينة ويتمنطقون بالمناطق الذهبية فأمرهم بخلعها واعطاها لمواليه والبسهم جباب الصوف والزمهم السقي والسواني والعمل فأثار حقدهم فدخلوا عليه يوماً على غرة ففتكوا به ثم قتلوا انفسهم .

وفي خلافة يزيد بن معاوية تولى سلم بن يزيد ولاية خراسان فصالحه اهل خازم على ٤٠٠٠٠٠ وحملوها اليه وقطع النهر او معه زوجته ام محمد وكانت اول عربية عبرت النهر فأتى سمرقند فأعطاه اهلها الف دية ، ووجه وهو بالسغد الى خجندة بعثاً فبزم . ثم قطع النهر ثانية الى السغد فقتل ملكهم وهزم جيشهم واخضعهم للسلطان العربي .

وفي هذه الاثناء تفاقمت حركة ابن الزبير واستولى على العراق فصارت خراسان تابعة لها وكان سلم قد عهد بها الى عبد الله بن خازم فدخل هذا في بيعة ابن الزبير . واغتم الترك الفرصة فأخذوا يغيرون على بلاد المسلمين حتى بلغوا قرب نيسابور . فتصدى لهم ابن خازم وردهم . فلما صار الامر الى عبد الملك كاتب ابن خازم وسأومه على البقاء في ولاية خراسان على ان يدخل في بيعته فأنف واستكبر وتطور موقفه الى ثرد وفتنة على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى .

وقد عين عبد الملك بكيراً بن وشاح السعدي التميمي والياً على خراسان فنار بينه وبين زعيم آخر نزاع قبلي . فكتب وجوه اهل خراسان وخيارهم . والمقصود هنا العرب الذين فيها - إن خراسان لا تصلح الا برجل من قريش فولاهامية عبد الله بن خالد . وكانت له بلاء جهادي في هذه البلاد بدوره . ومن ذلك غزوة بخارى حتى اضطرهم الى اقتداء انفسهم ونقض في عهده الحثل فغزاهم واخضعهم ثانية .

وتولى خراسان بعد امية المهلب بن ابي صفرة ثم ابنه يزيد والمفضل ثم قتيبة بن مسلم . ويتوافق البلاذري مع الطبري في معظم ما كان من بلاء القواد الاربعة في خراسان وما وراءها . ومن زيادات البلاذري ان ملك الجوزجان طلب من قتيبة في مرحلة نشاطه الاولى صلح فأجابته الى ذلك وانه فتح في هذه المرحلة كاسان وادرشت وبيغمر وبنشكت من بلاد فرغانة ومدينة فيل وانه شرط في صلح سمرقندان ببني في المدينة مسجداً ويصلي فيه وحقق شرطه .

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز توغل عبد الله الشكري بامر والي خراسان الجراح بن عبد الله فيها وراء النهر وأوغل وهم بدخول الصين فأحاط به الترك ولم ينج منهم هو وجشيه إلا بفدية كبيرة .

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك ارسل والي خراسان سعيد بن عبد العزيز سورة بن الحر الى ما وراء النهر غازياً فنزل استجبن فتصدى له جماعة من الترك فحاربهم وهزمهم . ثم صارت الولاية لسعيد الحرشي فافتتح عامة حصون السند ونال من العدو نيلاً شافياً .

وفي خلافة هشام صارت الولاية على خراسان الى مسلم بن سعيد فغزا افشين فصالحه صاحبها ثم أتى فرغانة التي كان فيها بعض التمرد فأناخ على مدينتها ووطد السلطان العربي فيها . ثم صارت الولاية إلى أسد بن عبد الله فغزا بلاد غرود وأخضعها للسلطان العربي . وقد أسلم ملكها وتابعه اهل بلاده في ذلك .

وفي خلافة مروان بن محمد غزا نصر بن سيار والي خراسان اشروسنه . وكان ذلك آخر حركات الغزو والفتح الاسلامية في هذه الناحية في زمن الدولة الاموية .

سادساً فتوح السند^(١)

ذكر البلاذري تحت هذا العنواث حركات ومساومات وفتوحات عربية عديدة . والمستفاد من سياقه ان هذه الحركات كانت تجري من ناحية البصرة والخليج العربي وساحل عمان . وان الانحاء التي كانت تجري فيها واقعة في السمات الجنوبي من آسيا ومنها ما كان يقع في بلاد الهند ومنها ما كان يقع في بلاد السند . وان الولاة الذين كانوا يتولون هذه الحركات كان منهم من يسمى والي ثغر الهند . ويلح احياناً في التسمية أو دلالتها شيء من الخلط بين هذا وذاك .

ولقد بدأت هذه الحركات في زمن عمر بن الخطاب وبإشراف عثمان بن ابي العاص والي عمان حيث وجه أخاه المغيرة الى خور الديبل فلقى العدو وظفر . وفي زمن علي بن ابي طالب تقدم الحارث بن مره العبدي الى هذه الناحية غازياً وظفر . ولما استتب الامر لمعاوية تعددت الحركات والغزوات الاسلامية في هذه الناحية .

(١) ص ٤٣٨ - ٤٥١

وأول حركة في عهد معاوية قام بها الحارث بن مرة المذكور آنفاً حيث تقدم نحو أرض القيقان من بلاد السند فلقى حتفه .

وفي سنة ٤٤ هـ غزا المهلب بن أبي صفرة بنه والاهواز وهما بين التمان وكابل فلقى العدو وقاتله . ثم عين عبد الله بن سوار على ثغر (الهند) فغزا بلاد القيقان واصاب مغنا من جملتها خيل . ويظهر أنها كانت مشهورة حيث ذكرت الرواية انه أهدي خيلاً قيقانية الى معاوية . ثم رجع الى بلاد القيقان فجمع له اهلها واستجاشوا الترك فقتلوه وجماعة من المجاهدين . وتولى بعده هذه الناحية سنان بن سلمة ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها وضبط البلاد . وتولى بعده راشد الجديدي فغزا القيقان والميد مرة أخرى ولكن اهل البلاد جمعوا له وقتلوه أيضاً .

ولقد غزا عباد بن زياد ثغر الهند من ناحية سجستان حيث كان والياً عليها في زمن معاوية ومن قبل . ابيه زياد والي العراق العمام فأتى سناورد ثم الروزبار ونزل كس وقطع المفازة حتى أتى القندهار فقاتل أهلها فهزمهم وفتحها .

وتولى ثغر الهند بعد راشد الجديدي المنذر بن الجارود فغزا البوقان والقيقان وظفر المسلمون وغنموا وبث السرايا في البلاد وفتح قصدار وسبا منها سبياً . وتولى الثغر بعده حري الجاهلي ففتح الله تارك البلاد على يده وقاتل فيها قتالاً شديداً فظفر وغنم . وقد أخذ الاسلام يقشو في بلاد البوقان من ذلك الوقت .

وتوقفت الحركات في هذه الناحية بعد معاوية الى ان ولي الحجاج بن يوسف ولاية العراق . وبما روي من صور ان الحجاج استعمل على الثغر محمد بن هارون النمري فأهدى اليه ملك جزيرة الياقوت نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن الذين طرّقوا بلاده للتجارة . وقد تعرض للسفينة التي ركبت فيها النسوة قوم من ميد الديبل فأخذوا السفينة بما فيها فنادت امرأة منهن من بني يربوع يا حجاج وبلغ الحجاج ذلك فقال يا لبيك . ثم ارسل الى ملك الديبل داهر يطلب منه تحلبة النساء فلم يفعل فأغزى الحجاج عبد الله بن نبهان الديبل فقتل فأمر بديلا بن طهفة العجلي عامل عمان بالسير الى الديبل فقتل . ثم ولي الحجاج محمداً بن القاسم الثغر فكان صاحب البلاد الاعظم في هذه الناحية .

ولقد سار أولاً الى مكران ثم أتى قنزبور ففتحها ثم ارمائل ففتحها ثم الديبل فحاصرها وكانت مكان اعظم معبد ويسمى البد الاعظم ثم تمكن من اقتحامها واخضاعها . وقد بني

فيها مسجداً واسكن فيها أربعة آلاف عربي . ثم أتى البيرون فطلب أهلها الصلح فصالحهم . وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهرًا دون مهران فأناه أهل سخين فصالحوه وأقاموا له العلوقة وادخلوه مدينتهم . ثم أناه أهل سريديس فصالحوه ثم سار إلى سهبان ففتحها وبعث سرية إلى سدوسان فطلب أهلها الصلح فصولحوا . ثم جاء إلى نهر مهران مما يلي بلاد راسل قصبة الهند فجعل عليه جسرًا وعبره . وكان داهر ملك الديبل قد فر من مدينته حينما اقتحمها المسلمون وجمع الجموع وكان معه جماعات من التكاكزه فبرز عند الناحية الثانية من النهر واشتبك مع المسلمين في قتال شديد وترجل وقاتل قتالا يائسًا فقتل وانهمزمت جموعه وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم ما شاؤوا .

وقد أثرت هذه المقطوعة لرجل من بني كلاب هو الذي قتل داهرًا :

الحيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
اني فرجت الجمع غير معرد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا	متعفر الحدين غير مؤسد

وبقتل داهر غلب محمد بن القاسم على بلاد السند . ولقد سار بعد ذلك إلى مدينة راور ففتحها ثم مدينة برهنا باذ وقد لجأ إليها فل داهر ففتحها ثم سار يريد الرور وبغروور فلتقاه أهل ساوندري فسألوه الأمان والصلح فقبل . ثم تقدم إلى بسمد فصالحه أهلها . وانتهى إلى مدينة الرور وهي من مدائن السند الحصينة فحاصرها أشهرًا ثم فتحها صلحاً على أن لا يتعرض لمعبدهم (بدهم) وبني فيها مسجداً . ثم سار إلى مدينة السكة ففتحها ثم قطع نهر يباس إلى الملتان فقاتله أهلها ثم تحصنوا في المدينة فقطع عنهم الماء حتى عطشوا فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسبى سدة البد وكان عددهم ستة آلاف واصابوا ذهباً كثيراً . وكان بد الملتان من المعابد الكبرى التي يحج اليه وينذر له النذور . ويطوف الناس حوله ويحلقون عنده رؤوسهم ولحائم . وبما رواه البلاذري في سياق هذه الفتوح أن الحجاج حسب ما انفقته على حركات محمد بن القاسم فإذا هو ستون ألف ألف وحسب ما حمل إليه من خمس الغنائم فإذا هو مائة وعشرون ألف فقال سفيننا غيظنا وادر كنا ثأرنا وازددنا ستين ألف ألف ورأس داهر . ثم وجه محمد جيشاً إلى ابيلمان فأعطاه الطاعة . وسأله كذلك أهل سرست . وأتى بعد ذلك الكيرج فخرج إليه ملكها دوهر فقاتله وهزمه ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى وأقام عليها السلطان العربي .

وفي هذه الاثناء مات الحجاج ثم مات الوليد بن عبد الملك وتعرض محمد بن القاسم لسخطه خليفته سليمان بن عبد الملك على ما ذكرناه في سيرته . ولم تتوقف الحركات في هذه الناحية فقد عين سليمان حبيباً بن المهلب والياً على ثغر السند وكان مالوك الهند قد رجعوا الى ممالكهم ومنهم داهر الذي رجع الى برهمناباد . ونزل حبيب على شاطئ نهر مهران فأعطاه اهل الرو الطاعة وحارب قوماً فظفر بهم . ولما تولى عمر بن عبد العزيز بعد سليمان كتب الى الملوكة يدعوهم الى الاسلام والطاعة على ان يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكانت باغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب .

ولقد تولى بعد حبيب عمرو بن مسلم الباهلي ثغر الهند فغزا بعض البلاد الهندية . ثم تولى ثغر السند في عهد عمر أيضاً الجنيد بن عبد الرحمن المرادي وظل والياً له في عهد هشام . وقد سجل في هذا العهد بعض الحركات حيث نزل على شط مهران فمنعه حليشه ملك برهمناباد العبور وقال له اني اسلمت وولاني الرجل الصالح بلادي ولست آمنك . فأعطاه رهناً واخذ منه رهناً بما على بلاده من الحراج . غير أنه لم يلبث ان نشب خلاف بين الملك حليشه والجنيد فرد كل منهما الرهن لصاحبه . وقامت الحرب بينهما . وهناك رواية تذكر ان الملك ارتد واعلن الحرب على العرب . ورواية اخرى تذكر أن الجنيد نجى على الملك . واقصد جمع الملك من الهند جمعاً كثيراً . وسار اليه الجنيد بجيشه والتقى به في موقع يقال له البطيحة ودارت الدائرة في الحرب على الملك فهزم جيشه بعد ان قتل منه مقتلة عظيمة . ووقع هو اسيراً ثم قتل ، وكان احد الملوكة الذين اسلموا واسمه صاحب بن داهر يريد ان يضي الى العراق ليشكو غدر الجنيد فاحتال هذا عليه حتي قبض عليه وقتله . وغزا الجنيد بعد ذلك الكيرج التي كان أهلها قد تمردوا ونقضوا فحاصرها وضربها بالكباش النطاح حتى ثلم سورها ودخلها عنوة فقتل وسبى وغنم . ووجه العمال الى مرمد والمندل ودهنج وبروس ووجه جيشاً الى أربن وجيشاً آخر الى ارض المالية فأغاروا وغنموا . ثم غزوا بهريمند . وسار الجنيد الى اليمان والجزر وفتحها .

وقد روي أن مجموع ما حصل في منزله من الغنائم بلغ اربعين الف الف سوى ما اعطاه الى زواره وأنه حمل مثلها الى الخليفة ، وقد أثر لجرير الشاعر في هبات الجنيد لزواره هذا البيت .

اصبح زوار الجنيد وصبحه
يحجون صلت الوجه جما مواهبه

كما اثر الجنيد عن شاعر اسمه ابو الجويرية في مدح الجنيد :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم باحسابهم او مجدهم قعدوا
محسدون على ما كان من كرم لا ينزع الله منهم ماله حسدوا

وتولى الثغر بعد الجنيد تميم بن زيد العتيبي . وكان ضعيفاً واهناً فأخرج اهل الهند من عندهم من العرب المسلمين . وتولى بعده الحكم بن عوانه فأظهر اهل الهند في زمنه الكفر والنقض باستثناء اهل قصة . ولم يكن للمسلمين في هذه الناحية ملجأ امين عاصم فأنشأ لهم من وراء البحيرة مما يلي الهند مدينة سماها المحفوظة او المنصورة وظل يغازي اهل الهند حتى قتل وظل عمال هذه الناحية يقاتلون العدو فيأخذون ما استلطف لهم ويعيدون بعض الانحاء الى حظيرة السلطان العربي الى آخر عهد الدولة الاموية .

سابعا فتوح ارمينية^(١)

ذكر البلاذري تحت هذا العنوان حركات حربية عديدة في زمن الدولة الاموية لم ترد في فصوله السابقة . وسياقه يفيد ان هذه الحركات كانت في بلاد ارمينية الشرقية مما يلي بلاد الحزر والتركمان وبعضها كان في هذه البلاد .

وقد بين المؤرخ في مطلع كلامه أن اسم ارمينية كان يطلق على اربع مناطق مع اختلاف في ما تشتمل عليه كل منطقة حيث ذكر أن ارمينية الاولى تشمل بلاد السيسجان واثارات وبعضهم يضم اليها تقليس . والثانية تشمل جرزان او سراج طير وبغروند وديبل والبفرجان . والثالثة تشمل قالقلا وخلاط وارجيش وباجنيس في قول والبفرجات وديبل وسراج طير وبغروند في قول آخر . والرابعة تشمل شمشاطا وقالقلا وخلاط وارجيش وباجنيس في قول وشمشاطا وحدها في قول آخر .

ولقد بدأت حركات المسلمين في ارمينية في خلافة عثمان بن عفان حيث كتب الى والي الشام معاوية بتوجيه حبيب بن مسامة الفهري الى ارمينية فكان له نشاط وبلاء عظيمان توطن بهما السلطان العربي في قسم كبير منها على ما أوردناه في الجزء السابق . ولقد كانت الانحاء الغربية من ارمينية موضوع تشاد وتجاذب بين المسلمين والروم حيث كانت تتاخم الاناضول

او جزءاً منها تابعاً لحكم الروم او نفوذهم على ما أئعنا اليه في نبذة مصاولات الروم . ولقد انتقضت الانحاء التي دخلت في السلطان العربي من ارمينية في اثناء حركة ابن الزبير فولى عبد الملك بن مروان أخاه محمداً ولاية هذه المنطقة فبذل جهده الموفق في اخماد التمرد وتوطيد السلطان العربي ثانية .

وفي خلافة يزيد بن عبد الملك كان والي ارمينية الحارث بن عمرو الطائي فغزا أهل الكرز وفتح رستاق حمدان .

ثم تولى الجراح بن عبد الله الحكمي بعده فكان له بلاء كبير حيث عبر النهر المعروف بالسمور وسار الى الحزر فقتل منهم مقتلة عظيمة . وقاتل أهل بلاد حمزين ثم صالحهم ونقلهم الى رستاق خيزان ووقع بأهل غوميك وسبى منهم . ثم قفل فنزل سكا وشتا جنده ببرذعة البيلقان . وجاشت الحزر وعبرت الرس فحاربهم في صحراء ورثان فانحازوا الى ناحية اردبيل فواقعهم على اربعة فراسخ مما يلي ارمينية فاقتتلوا ثلاثة ايام فاستشهد ومن معه فسمي ذلك النهر نهر الجراح .

وبما رواه البلاذري نص كتاب اعطاه الجراح هذا لاهل تقليس يذكر فيه انهم أتوه بكتاب أمان اعطاهم إياه حبيب بن مسلمة مذكور فيه انهم اقرؤا له بالجزية وتعهدوا له بإداء خراج على أراضيهم وكرومهم وارجائهم في رستاق منجليس وطلبوا منه اقرارهم على امانهم وصلحهم فأجابهم الى ذلك وأمر ان لا يتعدى احد عليه .

ولقد عين هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة والياً على ارمينية بعد الجراح فجد في المصاولة مع الحزر حتى انتصر عليهم واخضعهم ثانية للسلطان العربي . وصالح أهل خيزان بعد أن هدم حصناً حصيناً لهم . وسأله ملوك الجبال . وأتى اليه منهم شروانشاه وكيرانشاه وطبرشاه وفيلانشاه وجرشان شاه . وأتى اليه صاحب مسقط ايضاً . وغزا مدينتي الباب والابواب وفتحها واسكن فيها ٢٤ ألفاً من أهل الشام - اي من العرب المستقرين في الشام - وقد تحصن جماعة من الحزر في قلعة الباب فحاصروهم وشدد عليهم وافسد ماءهم حتى اضطرهم الى التسليم .

وولى هشام ارمينية بعد مسلمة سعيداً الحرشي ثم مروان بن محمد فكان لهذا بخاصة بلاء جهادي كبير . ولقد دخل ارض الحزر مما يلي باب اللان ومعه ملوك الجبال فأغار عليهم وسبى عشرين ألف أهل بيت منهم . ثم ارسل الى عظيمهم رسولا يدعوهم الى الاسلام فطلب

ارسال من يعرض له قواعد الدين فأرسل اليه من فعل فأظهر الاسلام ووادع مروان فأقره في مملكته . ثم سار بجناح من الحزب فأنزلهم ما بين السمر والشاران في سهل بلاد الكنز . ودخل بعد ذلك ارض السريز فأوقع بأهلها وفتح قلاعاً فيها ودان له ملكها واعطاه الرهائن على الصلح . ودخل بعد ذلك ارض زريكر فصالحه ملكها . وانتقض في زمنه اهل حمزبن فسار عليهم وحصرهم وشدد عليهم حتى اضطروهم الى الخضوع واداء الجزية كما كان . وقد سار الى قلعة تدعى خرس على البحر تابعة لملك شروان فأذعن صاحبها بالطاعة له . وسار بعد ذلك الى الدودانية فأوقع بأهلها . وفي هذه الاثناء قتل الوليد بن يزيد فاتجه مروان الى الشام واندمج في الحركات التي ثارت نتيجة لذلك ووقف شان ارمينية عند الحد الذي كانت عليه الى قيام الدولة العباسية . وهو منشيء مدينة كسال الواقعة على اربعين فرسخاً من بردعة وعشرين فرسخاً من تقليس .

وفي تاريخ يعقوبي كذلك بعض وقائع لم يذكرها الطبري والبلاذري او ذكرها بأسلوب مغاير وفيها اشياء مهمة فرأينا كذلك ايجازها فيما يلي :

١ - ان هذا المؤرخ يسجل حركة عبد الرحمن بن سمرة والي خراسان الذي وجهه عبد الله بن عامر والي البصرة كأولى الحركات في هذه الانحاء في زمن الدولة الاموية وقد ذكر أنه غزا بلخ وكابل وافتتح بلخ بعد حرب شديدة وزحف على كابل فأقام عليها اياماً ثم تمكن من دخولها فصالحه أهلها^(١) .

٢ - وذكر في جملة ما قام به الحكم بن عمرو الغفاري والي خراسان من حركات مضيه الى الجوزجان وفتحها اياها وسجل ذلك في سنة ٤٤ هـ^(٢) .

٣ - وذكر من جملة ما كان في عهد الربيع بن زياد الحارثي والي خراسان فتح خازم من قبل جيش سيره بقيادة عبد الله بن عقيل الثقفي^(٣) .

٤ - وذكر أن عبيد الله بن زياد هو اول عربي قطع نهر بلخ . وانه بدأ ببخارى وحارب القوم حرباً شديدة وكان له الظفر^(٤) .

٥ - وبما ذكره من اخبار الجنيد بالاضافة الى ما ذكره البلاذري والطبري ان امره

عظم ببلاد السند ودوخها حتى صار الى ارض الحزر ثم الى ارض الصين ودعا ملكها الى الاسلام فقاتله فثبت له وما زال يقاتله حتى اضطره الى طلب الصلح فصالحه ودخل مدينته ثم غزا الكبيرج ومعه اشدايد ملك الصين فهرب ملك الكبيرج وفتح الجنييد مدينته وسبى وغنم واستقامت اموره . وانه كتب الى هشام يقول له اني نظرت في ديواني فوجدت ما افاء الله عليّ منذ توليت بلاد السند ٦٥٠ الف رأس من السبي . وحملت ثمانين الف الف وفرقت في الجند امثالها مراراً . وان مدة ولايته للسند وما وراءها عشر سنين^(١)

وفي تاريخ ابن الاثير خبر مهم لم يرد في الطبري ولا في البلاذري وهو ان سلماً بن زياد حينما كان والياً على خراسان في خلافة يزيد بن معاوية وجه المهلب بن ابي صفرة الى مدينة مماليك خوارزم كانت ملتقى ملوك ما وراء النهر حينما كانوا يتصاولون مع العرب فحاصرها حتى طلبوا الصلح على فداء قدره عشرون الف الف وقبض القيمة متاعاً وعروضاً بأثمان بخسة حتى بلغت قيمتها خمسين الف الف^(٢)

كذلك روى خبراً لم يروه الطبري ولا البلاذري^(٣) وهو أن جيشاً للمسلمين دخل سنة ١٠٤ بلاد الحزر من ارض ارمينية بقيادة ثبت النهراني فاجتمع الحزر لصدّهم واعانهم القفجاق وغيرهم من طوائف الترك وهاجموهم وقتلوا منهم بشراً كثيراً واحتلوا عسكرهم وغنموا ما فيه ، ثم ذكر ولاية الجراح بن عبد الله الحكمي وطرفاً من بلانه في هذه المنطقة بسياق فيه بعض البيانات الهامة والمغايرة مع ما ذكره البلاذري حيث ذكر أن يزيد بن عبد الملك عين الجراح لمعالجة ما وقع من الحزر ومناصريهم على المسلمين وامده بجيش كثيف وانه تظاهر بالتباطؤ حتى اغتور العدو ثم فاجأهم حتى انتهى الى مدينة الباب والابواب . ثم أخذ يسير سراياه فتغير وتقتل وتغنم . وجاءه الحزر بجمعهم فاشتبك معهم في قتال عنيف فدارت الدائرة عليهم فانهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا وغنموا جميع ما معهم . ثم ساروا الى حصن الحصين فطلب اهله الصلح والامان فاجابهم الى طلبهم ثم جاء الى مدينة برغوقا فطلب اهله الامان فاجابهم ثم جاء الى بلنجر وكان حصناً حصيناً مشهوراً . وقد وضع الحزر امامه زيادة في التحصين صفاً من العجلات مربوطة بالسلاسل فكان ذلك من اشد ما رآه المسلمون .

ولقد انتفى ثلاثون منهم ليقوموا بحركة فدائية نحو هذا الصف فكسروا جفون سيوفهم

(١) ٣١٦ (٢) ج ٤ ص ٣٩ - ٤٠ (٣) ج ٥ ص ٤١ - ٤٣ و ٥٩ - ٦٠ .

وحملوا حملة شديدة حتى وصلوا الى العجلات. وقطعوا سلاسلها فانهارت وانفتح مجال الحركة امام المسلمين فالتحموا والتحموا مع الخزر في قتال عنيف وتمكنوا من دخول الحصن عنوة وغنموا جميع ما فيه . وقد اصاب الفارس من الغنائم (٣٠٠) دينار وكان عدد المسلمين بضعة وثلاثين الفا .

ثم ساروا بعد ذلك الى حصن الونبدر فطلب امده الصلح فاجابهم الجراح الى طلبهم . وعاد الخزر فتجمعوا ونقضوا وهاجموا المسلمين من ناحية اللان فتصدى لهم الجراح واستبك معهم فدارت الدائرة على المسلمين هذه المرة واستشهد الجراح فيمن استشهد منهم . وعين هشام سعيداً الحرسى مكانه وامده بالمدد فأعاد فتح البلاد من جديد بادئاً من خلاط وانفذ كثيراً من اسرى المسلمين وحرائرهم واموالهم .

تعقيب عام على الفصلين السابقين



واضح بما تقدم في الفصلين السابقين من اخلاق الخلفاء الامويين وصفاتهم واقوالهم وافعالهم المذكورة في تراجمهم وبما كان في عهدهم من حركة الفتوح العظمى والمصاولات الظافرة على الاعم الاغلب مع الامم الاخرى ان معظمهم كانوا من حيث الاجمال على جانب كبير من قوة الشخصية وبعد الهمة والمواهب والمطامح والحكمة والعقل والجهد في السير على هدى قرآن والسنة ومصلحة المسلمين والتمسك بالدين والقيام بواجباته والرغبة في الجهاد وتوسيع رقعة انتشار الاسلام والسلطان العربي والذب عن حياضها .

واذا كانت هناك هنات وانحرافات متنوعة مروية عن معظمهم ويجوز ان تكون صحيحة فلها ليس من شأنها فيما نعتقد ان تؤثر في الصورة الاجمالية المذكورة .

ولقد كان الى جانب هؤلاء الخلفاء عدد كبير من رجالات العرب المتصفين بصفات بمائة اجمالاً لصفاتهم بقطع النظر عن هنات وانحرافات متنوعة مروية عنهم يجوز ان تكون صحيحة وليس من شأنها ان تؤثر في الصورة المذكورة ايضاً تولوا الحكم والقيادة امثال زياد بن ابي سفيان واولاده والمغيرة بن شعبة والحجاج بن يوسف ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم والمهلب بن ابي صفرة واولاده وموسى بن نصير واولاده وبسر بن ارطاة وقيس بن الهيثم وجنادة بن ابي امية وخالد بن العاص وسفيان بن عوف والنعمان بن بشير وسعيد بن عثمان ومحمد بن مسلم وعبد الرحمن بن خالد وحسان بن النعمان ومعاوية بن خديج والحكم بن عمر وزهير بن قيس ومسلمة بن مخلد وعقبة بن نافع وعبد الله البطل وعبيد الله بن ابي بكره وخالد بن عبد الله واسد بن عبد الله ويوسف بن عمر ونصر بن سيار ويزيد بن ابي كشة وعمر بن هبيرة وعمر بن الجراح وسعيد الحرشي وسعيد خدينه والجنيد بن عبد الرحمن والجراح بن عبد الله والاشري السلمي وعبد الرحمن القشيري وعبد الرحمن الغافقي وحنظلة بن صفوان وكلثوم بن عياض وعبيد الله بن الجباب وعبيد الله بن حبيب والسمع بن مالك عبد الملك بن قطن ومحمد بن يزيد ومالك بن هبيرة

وعبد الله بن قيس ومصقله بن هيرة وعمرو بن هيرة وعمرو بن قيس وخالد بن معدان والوليد بن القعقاع ومجاهد بن جبر وابو المهاجر واسماعيل بن حسن وعبد الله بن سوار والحكم بن عمر الغفاري ومسلم بن سعيد وعبد الله بن خازم وهيرة بن المشمرخ وطريف بن مالك وطارق بن زياد وعقبة بن الحجاج وابو الخطار الكلبي والميثم بن عبيد والربيع بن زياد والاحنف بن قيس ومحمد بن الاشعث وامية بن عبد الله والاشرس السامي . واخوة ابناء الخلفاء الذين لم يتولوا الخلافة والذين كان لهم بلاء عظيم في الحكم والقيادة امثال مسامة وسعيد وعبد الله ابناء عبد الملك وعنبسة وعتبة ابنا ابي سفيان والوليد ومعاوية وابراهيم ابناء هشام ومحمد وبشير وعبد العزيز ابناء مروان والعباس وعبد العزيز وعمرو واولاد الوليد وغيرهم وغيرهم ممن لا يكادون يحصون كثرة .

ولم يذكر المؤرخون منهم الا الاقل فكان هذا وذاك مما ساعد على توسيع رقعة الدولة من الشرق والغرب والشمال والجنوب اضعافاً مضاعفة بما كان عليه في آخر زمن الخلفاء الراشدين . وعلى انشاء ملك عربي اسلامي ضخم . وجعل الدولة الاموية الثامنة اعظم واقوى امبراطورية عربية الجنس قبل الاسلام وبعده بل ومن اعظم واقوى واوسع امبراطوريات العالم قديماً وحديثاً حيث امتدت رقعتها من اطراف بلاد الصين والهند شرقاً الى المحيط الاطلسي وجبال البرانس غرباً وضمت بالاضافة الى بعض بلاد الصين والهند بلاد السند والترك والعجم والديلم والارمن والحزر والكرد على اختلاف مسمياتها واختلاف طوائف سكانها وجزءاً كبيراً من بلاد الاناضول الشرقية والجنوبية ومعظم جزر البحر الابيض المتوسط ومجاعة كبرياتها مثل قبرص ورودرس وكريت وصقلية وسردانية وميورقة ومنورقة وقسماً كبيراً من شبه جزيرة ايبيريا الذي كان ضمنه بلاد الاندلس من اسبانيا وقسماً كبيراً من بلاد البرتغال وبعض انحاء فرنسا ، وبالإضافة الى جميع شمال افريقية ممتدة الى مساحات شاسعة في الجنوب وجميع بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية ، وتوطيد السلطات العربي الاسلامي الى آمام بعيدة بعد زوال دولتهم والتمهيد لقيام مدينة عربية اسلامية باذخة كانت وما تزال مضرب المثل في الروعة والفضامة في المجالات الثقافية والتشريعية والعمرانية والانسانية والاجتماعية .

ومها يكن من امر الفتن التي نشبت في عهد الوليد بن يزيد وبعده فانها لم تكن لتؤثر في الحقيقة في بنيان الدولة وقوتها لانها لم تدم إلا امداً قصيراً ثم صار الامر الى مروان بن محمد الذي كانت الدولة في عهده قوية متماسكة والذي استطاع ان يواجه مختلف الاحداث بقوة

وحزم لولا ما كان من المؤامرة التي حاكها الهاشميون ضدها بالتآمر مع العناصر الاعجمية الحاقدة على غير ضرورة دينية وقومية وسلطانية وسلوكية على ما سوف يأتي شرحه بعد بحيث يمكن ان يقال ان الدولة الأموية لم تزل نتيجة الخطاط وانحلال وهرم وشيخوخة ، وانما انقصت حياتها وهي في قوتها وتماسكها وسلطانها المستتب في معظم انحاءها وانما لولا تلك المؤامرة لكان من الممكن ان تمتد حياتها - ولقد امتدت فعلا في الاندلس امتداداً كان باهر النتائج عظيم السناء خلال ثلاثئة سنة - ولكن من المحتمل كثيراً ان يتغير بذلك وجه تاريخ الجنس العربي والتاريخ الاسلامي معاً . لانها استطاعت في عمرها القصير ان تنشر رايات العروبة والاسلام في هاتيك البقاع الشاسعة الواسعة . وكان لها من حيويتها وحيوية العرب ما يسمح لها بالامتداد الى آفاق وساحات وراؤها .

وقد ظهرت بواذر ذلك على حدود فرنسة من الغرب والصين والهند من الشرق فضلاً عما كان يتحقق للعروبة من رسوخ خالد في الساحات التي امتدت وكان يمكن ان تمتد اليها ، ويكفي لتصوير ذلك ان نذكر ان الاسلام صار دين معظم الطوائف التركية والفارسية والسندية والكردية والديلمية والبلوجية الدائم المستمر وان اللغة العربية قد دخلت في اصول لغات هذه الطوائف حتى صارت نصفها او كادت ليظهر انه لو امتد عمر هذه الدولة والسلطان الاسلامي العربي في ظلها لكان من المحتمل ان يعم الاسلام جميع اهل هذه البلاد وما والاها وان تصبح اللغة للعربية لغتها الوحيدة .

الفصل الثالث

المعكرات الداخلية
في زمن الدولة الاموية

المعكرات الداخلية في زمن الدولة الاموية

تمهيد

•

لقد كان في زمن الدولة الاموية احداث داخلية عديدة ومتنوعة اشترنا الى شيء منها في سياق سيرة الخلفاء اشارات عابرة كانت من حين لآخر تعكس صفو العرب في دورهم الجديد وتشغل قواهم وجهودهم في مختلف المجالات حتى ليتمكن ان يقال انها لو لم تكن لكان النشاط العربي العظيم الذي كان في زمن هذه الدولة والذي كان يبلغ ذروة مداه حين لا تكون قواها مشغولة بذلك قد آتى اضعاف ما آتاه من ثمرات في مجال الفتوح ونشر السلطان والدعوة الاسلامية والتبسط في العمران وناهيك بما كان من هذه الثمرات التي اسفرت عن قيام ملك ضخم ممتد من حدود الصين والهند والسند في الشرق الى البحر الاطلانتي في الغرب بالاضافة الى امتداده العظيم في الشمال والجنوب من هذه الرقعة الواسعة الشاسعة على ما شرحناه في الفصل السابق .

وقد كانت هذه المعكرات الى ذلك سبباً من اسباب طمع الروم في العرب وكرتهم على السواحل الشامية والافريقية وطمع الافرنج في غرب الاندلس وشماتها وكرتهم على بلاد المسلمين في الجنوب الغربي من اوروبا على ما شرحناه كذلك في الفصل المذكور ثم مجالا لاندساس اصابع اعداء العروبة والاسلام وموتوري الامم الاخرى الذين اندمجوا في الاسلام من غير ايمان صادق ولعبهم ادواراً خبيثة متنوعة ووسيلة من وسائل تشويه تاريخ الدولة الاموية ورجالها . ومؤدية في النهاية الى سقوطها

هذا بالاضافة الى ان هذه المعكرات كانت هي والذرائع التي تدرع بها اليها وسيلة بعيدة المدى من وسائل التشويش على الدولة الاموية وخلفائها وولاتها وتسويء سيرتهم . من ذلك ما كان في عهد الدولة من قبل خصومها الهاشميين وانصارهم الذين كانوا يسعون في تقويضها ويتوسلون بكل وسيلة الى اثارة الافكار عليها . ومن ذلك ما كان بعدهم

تنفس المقاصد وبنفس الوسائل . وكانت هذه المعكرات في الوقت نفسه ذات تأثير بعيد المدى في تاريخ الاسلام والعروبة بعد الدولة الاموية .

وقد يلحظ المتمعن في اسباب المعكرات ان الطابع العام لعظمها هو التذرع بعدم شرعية سلطان بني امية او انحراف خلفائهم وعملهم وفسادهم . واستهداف تبديلهم بالاصلح والافضل او الحلول محلهم من قبل القائمين بالحركات المعكرة .

وقد يثير هذا ظناً او اعتقاداً بأنه لا بد من ان يكون للذرائع التي كان يتذرع بها القائلون بهذه الحركات اصل صحيح من سيرة خلفاء بني امية وعملهم ولا سيما انه كان الى جانب الجماعات التي كانت تتوخى من حرارتها المطامح الاسرورية والحلول محل الامويين في سلطان العربي الاسلامي وتسوق الاحاديث والتأويلات وتنتشر الدعايات المتنوعة بسبيل ذلك جماعات مخلصه في اجتهادها متجردة عن المآرب الاسرورية والشخصية كالحوارج بقطع النظر عن ما في اجتهادها من خطأ او صواب .

وقد يكون حقاً هناك هنات كثيرة في هذه السيرة قد تجعل هذا الظن او الاعتقاد في محله لأول وهلة .

غير ان مما يجب ملاحظته ايضاً ان سيرة الخلفاء الراشدين التي كانت التزاماً تاماً رائعاً لكتاب الله وسنة رسوله ومصلحة المسلمين العامة كانت هي المثال الذي يساق للناس بسبيل الدعوة ضد السلطان الاموي والخرج عليه . وان الداعين والمستجيبين لم ينتهبوا عن قصد او غير قصد الى ان هذا المثال قد اصبغ عريز المثال بعد ان انتقل مركز العرب من الجزيرة الى بلاد الشام وبعد ان اختلطوا بالامم الاخرى وتأثروا بمختلف مظاهر حياتها ومعاشها وان هذا التطور كان امراً لا بد منه . كما انهم لم يستطيعوا ان ينفذوا الى الهدي النبوي في احاديث كثيرة الذي كان يأمر بوجوب التزام الجماعة والابتعاد عن الفتنة ووجوب طاعة اولي الامر فيما يحبه المسلم وما يكرهه حتى ولو كانوا من ناحية ما ليسوا برة كل البرة^(١) وهذا بقطع النظر عن انه لم يكن في سيرة واخلاق معظم بني امية

(١) نورد فيما يلي طائفة من الاحاديث النبوية التي وردت في كتب الاحاديث الصحيحة والتي تنطوي على الهدي النبوي العظيم المنوه به . وقد نعلمنا ايراد كل ما اطلعنا عليه من الاحاديث الصحيحة في

وولاتهم إن لم نقل كلهم انحراف خطير عن الاسلام وحدود كتاب الله وسنة رسوله اجمالاً .
وان كثيراً منهم كانوا يبذلون جهدهم في التزام ذلك والامر به . وهذا فضلاً كذلك عن ما
كان لهم من خدمات جلى للاسلام والمسلمين فيما بشروه وشجعوا عليه من حركات الجهاد
ومصاولة اعداء الاسلام وما كان من نتائج ذلك من اتساع رقعة السلطان العربي الاسلامي
وانتشار الاسلام والطابع العربي فيها والمشاريع العمرانية والتنظيمية العظمى التي تمت على
عهدهم . بحيث يصح أن يقال بحق ان القائمين بتلك الحركات لو انصفوا وتجردوا ووسعوا
افق نظرهم وأدركوا عزة منال المثال النبوي والراشدي واستطاعوا أن ينفذوا الى الهدى
النبوي لما كان لهم اي مبرر للحركات التي قاموا بها . وهو ما ينبغي ان يسلم به من توخى

ذلك لان من واجب المسلم ان يحيط بها ويلاحظها حينما يطالع على اسباب وسير الحركات المعكورة التي
نحن في صدها .

فمن ذلك حديث رواه الشيخان عن عباد بن الصامت قال : (بايعنا رسول الله على السمع والطاعة
والسير والمنشط والمكره وعلى اثرة علينا وعلى ان لا ننزع الامر اهلنا . وعلى ان لا نقول الا الحق اينما
كنا لا غاف لومة لائم وفي رواية الا ننزع الامر اهلنا الا ان تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .
وحديث رواه الشيخان ايضاً جاء فيه : (سيكون خلفاء بعدي فتكثر قالوا فما تأمرنا قال فوايبيعة
الاول فالاول واعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم) .

وحديث رواه مسلم : (إذا بويح خليفتين فاقتلوا الاخر منها .

وحديث رواه الخمسة عن ابن عمر عن النبي صلعم قال : (السمع والطاعة لى المرء المسلم فيما احب
او كره ما لم يؤمر بمعصية فاذا امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) .

وحديث رواه الشيخان جاء فيه : (من رأى من اميره شيئاً ربه فليصبر فان من فارق الجماعة شبراً
فان مات ميتة جاهلية) .

وحديث رواه مسلم وابو داود جاء فيه : (انه يستعمل عليكم امراء فتعرفون وتنكرون فمن كره
فقد برى ومن انكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع . قيل يا رسول الله الا تقاتلهم قال لا ما صلوا) .
وحديث رواه الثلاثة عن حذيفة بن اليمان قال : (قلت يا رسول الله انا كنا بشر فجاء الله بغير فنحن
فيه فهل من وراء ذلك الخير شر . قال نعم . قلت هل وراء ذلك الشر خير قال نعم قلت فهل من وراء
ذلك الخير شر قال نعم قلت كيف قال يكون بعدي أمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي . ويقتولون
فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جباب انس . قلت كيف اصنع يا رسول الله ان ادرت ذلك . قال

الحق والانصاف وكان بعيد النظر واسع الافق .

على ان من الحق ان ننبه على نقطة هامة . وهي ان الجمهور الاكبر من العرب والمسلمين في مختلف انحاء الدولة لم يندمجوا في هذه الحركات . وظلوا في الأعم الأغلب موالين للدولة الاموية متعاونين معها على قمع هذه الحركات واجباطها ومصالوة القائمين بها والتغلب عليهم . وان هذا هو الذي انجح معظم حركات القمع والاحباط والمصالوة . ويمكن الدولة في الوقت نفسه من القيام بما قامت به من اعمال عظيمة في مجالات الفتح والاعمار والشؤون الحضارية المتنوعة .

تسمع وتطيع للامر وان ضرب ظهرك واخذ مالك فاسمع واطع وفي رواية تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت فان لم تكن لهم جماعة ولا امام قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو ان تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك) .

وحديث رواه مسلم عن ابي هريرة جاء فيه : (قال النبي صلعم من خرج من الطاعة وفارق الجماعة ثم مات مات ميتة جاهلية ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصية ويقاتل للعصية فليس من امتي . ومن خرج من امتي على امتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني) . وحديث رواه مسلم عن ابن عمر قال : (قال النبي صلعم من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) .

وحديث رواه مسلم عن عوف بن مالك قال : (سمعت رسول الله صلعم يقول انه ستكون هنات وهنات فن اراد ان يفرق امر هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان) وفي رواية (من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عصاكم او يفرق جماعتكم فاقتلوه) ٣ .

وحديث رواه مسلم عن عوف بن مالك قال : (قال النبي صلعم خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ولبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم قيل يا رسول الله افلا نناذبهم بالسيف فقال لا ما اقاموا فيكم الصلاة واذا رأيتم شيئاً تكرهونه فاكرهوه حله ولا تفرغوا يدا من طاعة) ٤ .

وحديث رواه ابو داود عن عبد الله ان النبي قال : (انكم سترون بعدي اثره واموراً تنكرونها . قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال ادوا اليهم حقهم وسلوا الله حقكم) .

وحديث رواه ابو داود عن ابي ذر قال : (قال النبي من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة

وهذا التوضيح يزيل ما علق في اذهان قراء التاريخ العربي من صور قاتمة تجاه هذا التاريخ بسبب هذه الاحداث المعكرة المتنوعة ويضع الأمر في نصابه الحق بكون هذه الاحداث هي احداث جماعات كانت وظلت على كل حال تمثل اقلية شاذة مندفة باجتهادات لا تؤيدها الجماهير او بمطامح ومطامح ومآرب شخصية واسروية أو بعواطف ورواسب موروثه عن عهد الجاهلية لم تكن المدة التي مرت كافية لزوالها أو اضعافها أو بأحقاد شخصية أو عنصرية.

الاسلام من عنقه) .

وحديث رواه أبو داود عن أبي ذر قال النبي صلعم : (كيف اتم وأمة من بعدي يستأثرون بهذا الشيء قلت اما والذي بعثك بالحق اضع سيفي على عاتقي واضرب به حتى القاك . قال اولا ادلك على خير من ذلك : نصبر حتى تلقاني) .

وحديث رواه مسلم وأبو داود عن أبي بكر قال : (قال النبي صلعم انها ستكون فتن . الاثم تكون فتنه القاعد فيها خير من الماشي فيها . والماشي فيها خير من الساعي اليها . الا فاذا نزلت او وقعت فن كان له ابل فليلحق بها ومن كان له غنم فليلحق بها ومن كان له ارض فليلحق بأرضه ، فقال رجل يا رسول الله ارايت من لم تكن له ابل ولا غنم ولا ارض قال يعتمد الى سيفه فيندق على حده بحجر ثم لينج ان استطاع النجاة ، اللهم بلغت ثلاثاً فقال رجل يا رسول الله ان اكرهت وانطلق بي الى الصفيين او احدى الفتنين فضررتي رجل بسيفه او يرمي سهم فيقتلني قال يبوء بالله وانك ويكون من اصحاب النار) .

وحديث رواه مسلم جاء فيه : (سيكون في امتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ويسميئون الفعل ، يقرأون القرآن لا يباوز تراقيهم . يحرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر اخلق واخلقة طوبى لمن قتلهم وقتلوه يدعون إلى كتاب الله وليس منه في شيء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم) .

وجميع هذه الاحاديث وردت في مساند الاحاديث الصحيحة (انظر التاج الجامع لاصول احاديث الرسول ج ٣ ص ٣٨-٢٠٠ : وجه ص ٢٧٣ و ٢٨٦) .

وليس فيها كما قد يتوهم متوهم تناقض ولا حث على الرضوخ للظلم والرضاء به فهي مصبوبة على وجوب تجنب الفتن والتزام الجماعة الاسلامية وعدم التفرق والشذوذ عنها وعدم الخروج على ولي امر المسلمين القائم لاجتهادات او عواطف فردية او اغراض ومآرب شخصية وعدم الشغب عليه ووجوب السمع والطاعة له ما دام قائماً بواجباته الدينية ومحاربة من يفعل ذلك ويتظاهر كذباً بالحمية الدينية .

١ - حركة الخوارج

كانت حركة الخوارج من اولى الحركات المعكرة التي ذر قرنها في زمن الدولة الاموية ثم ظلت مستمرة تخف حدتها حيناً وتشتد حيناً الى نهاية هذه الدولة ثم استمرت بعدها ايضاً . وقد استنفدت من الدولة جهداً كبيراً وارقق بسيلها دماء غزيرة . واثرت دعايات ومقالات متنوعة في الملة الاسلامية نتيجة لها .

ولقد ظهرت بادرة هذه الحركة قبل قيام الدولة الاموية . وتمثلت في انشقاق فريق من جيش علي رضي الله عنه بسبب قبوله التحكيم وخروجهم عليه بحجة أن لا حكم إلا الله وانه لا يجوز تحكيم البشر في حكم الله . وبعنون بذلك ان معاوية كان باغياً في مشاقته لعلي الذي كانت امامته شرعية بالبيعة في نظرهم وان حكم الله هو قتال الفئة الباغية حتى تقيء إلى أمر الله . وقالوا إن من قبل بالتحكيم هو مرتد وعليه ان يتوب ويجدد اسلامه .

وقد جددوا هم إسلامهم لأنهم رضوا اولاً بالتحكيم . وطلبوا من علي ان يفعل ذلك فحاجهم فلم يقنعوا فحاربهم وازل فيهم خسائر فادحة غير انه لم يقض عليهم . وكان منهم الثلاثة الذين تأمروا على قتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص على ما شرحناه في الجزء السابق . بل لعل بادرته الاولى كانت فيما قام من شغب على عثمان رضي الله عنه وطلب التخلي عن الامامة منه لأنه انحرف عن سيرة صاحبه في نظرهم وآثر اقاربه بغير المسلمين ولم يكن هذا صحيحاً في حقيقة الامر على ما شرحناه في ذلك الجزء ايضاً .

بل لقد روى البخاري ومسلم والترمذي ثلاثة احاديث عن ابي سعيد الخدري يصحح في الحقيقة ان يكون فيها البادرة الاولى من هذه الحركة في حياة النبي ﷺ .

وقد جاء في واحد منها : (بعث علي بن ابي طالب الى رسول الله من اليمن بذهبية لم تحصل من ترابها في اديم متروظ فقسمها بين اربعة نفرين عيينه بن بدر والاقرع بن حابس وزيد الخيل وعلقمة بن علاثة فقال رجل من اصحابه كنا نحن احق بهذا من هؤلاء . فبلغ النبي ﷺ ذلك فقال الا تأمنوني وأنا امين السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء . فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كثر اللحية يحلق الرأس مشمر الازار فقال يا رسول الله اتق الله فقال : وبلك أو لست أحق اهل الارض أن يتقي الله . ثم ولي فقال خالد بن الوليد يا رسول الله

ألا اضرب عنقه فقال لا لعله ان يكون يصلي . قال خالد وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه فقال رسول الله إني لم أؤمر ان انقب عن قلوب الناس ولا اشتق بطونهم ثم نظر اليه وهو مقف فقال انه يخرج من ضئضي هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية . قال اظنه قال لئن ادر كتبهم لأقتلنهم قتل ثمود) .

وجاء في ثالثها : (بينا نحن مع النبي ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله ﷺ ويلك من يعدل إن لم اعدل . قد خبت وخسرت ان لم اعدل . فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ائذن لي فيه اضرب عنقه . قال دعه فان له اصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يرقون من الاسلام كما يرق السهم من الرمية . ينظر الى نضله فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر الى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر الى نضيه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر قذذه فلا يوجد فيه شيء . سبق الفرث والدم . آتتهم رجل اسود احدى عضديه مثل ثدي المرأة او مثل البضعة تتدرر يخرجون على حين فرقة من الناس) وعقب ابو سعيد على ما رواه عن النبي فقال اشهد اني سمعت هذا من النبي واشهد ان علياً قاتلهم وانا معه فامر بهذا الرجل فالتمس فأتى به فنظرت اليه على نعت رسول الله الذي نعت (١) .

اما الحديث الثاني فهو مختصر للحديث الاول فلم نر ضرورة لايراد نعه .

اما بدء نشاط الحوارج فقد كان عقب الصلح بين الحسن ومعاوية رضي الله عنهما . فلم يكذبهم ذلك حتى اخذت فاولهم تتجمع ليعلموا تمردهم على سلطان معاوية . ثم اخذت حركتهم تتسع وفكرتهم تتطور حتى غدت من الحركات الخطيرة في تاريخ العرب والاسلام .

ولقد كانت الفكرة التي انطوت في بواكيرهم الاولى في حياة النبي وخلافة عثمان هي اعلان عدم رضائهم عن ما رأوه او حسبه انحرافاً عن الحق والعدل . وكانت حركتهم

(١) الاحاديث من كتاب التاجج هـ ص ٢٨٣-٢٨٤ وهذا تفسير الكلمات في الحديث الاخير : النص حديثه السهم ، ورصافة مدخل الفصل من السهم ونضية السهم او القدح الذي يرمي به عن القوس . وقذذه ريش السهم . سبق للفرث والدم ، اي ان السهم تجاوزها والمراد بذلك بدمهم عن الاسلام كبعث السهم عن الفرث والدم ، وتندرج تنحرك .

التمردية الاولى بسبب رفضهم التحكيم في امر حكم الله به وخروجهم على علي رضي الله عنه
لانه قبل به كما ذكرنا . ثم تركزت في نظرية واسعة قوامها ان ولاية المسلمين يجب ان
تكون شورى بينهم وليست فرضاً ولا قهراً ولا إرثاً ولا إرهاباً ولا إطفاءً . وان يتولاها
الاصلاح الاتقى من المسلمين اطلاقاً . وان من واجب من يتولاها ان تكون سيرته مستمدة
من القرآن والسنة وسيرة ابي بكر وعمر المستمدة منها وان لا طاعة لسلطان في معصية .

وان من واجب المسلمين البراءة من ولي الامر الذي تكون ولايته بالغلبة والقهر
والتهيب والترغيب او يكون منحرفاً في الاصل أو انحرف فيما بعد عن القرآن والسنة
وسيرة ابي بكر وعمر وعدم الاعتراف بسلطانه والخروج عليه وقتاله واقصائه ومبايعته من
يصلح للقيام بالامر على الاسس المذكورة دون اعتبار لجنسه ولونه . والتبرؤ من عثمان بالنسبة
لشطر الثاني من خلافته لانحرافه فيه بزعمهم عن الكتاب والسنة وسيرة ابي بكر وعمر . والتبرؤ
من علي لانه قبل التحكيم في امر حكم فيه القرآن بزعمهم . والتبرؤ من بني امية لان سلطانهم استند
الى الارهاب والترغيب وانحرف عن سيرة ابي بكر وعمر وخالفوا كثيراً من احكام الكتاب
والسنة وصار الملك أسروياً لا يراعى فيه الاصلح والاتقى . ومن مذهبهم او مقالهم
التسمية بسمة المذاهب الكلامية ان الانسان العاقل قادر على تمييز الحسن والقبيح وعلى
كسب افعاله وغير مجبر عليها وهو مسئول عنها . وان مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار
وان من واجب المسلم محاربة الباغي الظالم في اي حال والتمرد عليه وتغيير واقع الظلم
والبغي بالقوة وعدم الرضاء ، وعدم اعتباره قدراً أزلياً لا مندوحة عنه . والصلة وثيقة كما
هو ظاهر بين هذا وبين نظريتهم وحافزهم عليها .

ولقد أورد المؤرخون القدماء روايات عديدة عن كيفية خروج الخوارج في سنين مختلفة
في عهد الدولة الاموية . تبرز فيها هذه النظريات قوية رائعة . ننقل فيما يلي بعضاً منها
للدلالة والتشثيل :

١ - جمع حيان بن ظبيان احد زعماء الخوارج اصحابه بعد قليل من استتباب الامر
لمعاوية اي في سنة ٤٢ هـ وقال لهم والله ما يبقى على الدهر باق . فانصرفوا بنا يرحمكم الله الى
مصرنا . فلنأت إخواننا فلندعهم الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فانه لا عذر لنا في
العقود . وولاتنا ظلمة . وسنة الهدى متروكة . فان يظفرنا الله بهم نقم بالنبي هي اهـدى
وارضى واقوم . وإن نقتل فان في مفارقة الظالمين راحة لنا . ولنا في اسلافنا اسوة . فقالوا
له كلنا قائل ما ذكرت وحامد رايبك . ثم اجتمع هذا الزعيم بزعيمين آخرين من الخوارج

٥٨ المستورد بن علفة ومعاذ بن جوين فتذاكروا وتشاوروا وصار كل منهم يعرض على اخويه ان يتولوا الامرة ثم اتفقوا على مبايعة المستورد لانهم رأوه ابصرهم بالحرب وافقههم في الدين واشدهم قوة على الاضطلاع بالامر . ثم اتفقوا على الخروج . وعلمت السلطات بامرهم فسيرت عليهم جيشاً فلم يشاؤوا ان يقاتلوه قبل الانذار فأرسل المستورد الى عامل المدائن التي عسكر فيها الجيش كتاباً جاء فيه (من عبد الله المستورد أمير المؤمنين الى سماك ابن عبيد . أما بعد فقد نعمنا على قومنا الجور في الاحكام وتعطيل الحدود والاستنثار بالفيء . وإنا ندعوك الى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وولاية ابي بكر وعمر رضوان الله عليهما والبراءة من عثمان وعلي لإحداثها في الدين وتركها حكم الكتاب فان تقبل فقد أدركت رشداً وإلا تقبل فقد أبلغنا في الإعذار اليك وقد آذناك بحرب فنبتنا اليك على سواء إن الله لا يحب الخائنين ^(١) .

٢ - ولقد استطاع الجيش ان يشتت شمل الجماعات التي تحشدت مع المستورد ويقتل المستورد وبعض رفاقه ويأسر بعضهم ويلقيهم في السجون . وكان من هؤلاء حيان بن ظبيان ومعاذ بن جوين زميلي المستورد في الزعامة فلم يكاد يخرججان من السجن سنة ٥٨ هـ حتى جمعا إخوانهم المشردين فخطبهم الاول قائلاً (إن الله عز وجل كتب علينا الجهاد فمننا من قضى نجه ومننا من ينتظر أولئك الابرار الفائزون بفضلهم ومن يكن منا من ينتظر فهو من سلفنا الفاضل نجهم السابقين باحسان فمن كان منكم يريد الله وثوابه فلا يسلك سبيل اصحابه وإخوانه يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) وخطبهم الثاني فقال (يا اهل الاسلام والله لو علمنا أنا إذا تركنا جهاد الظلمة وإنكار الجور كان لنا به عند الله عذر لكان تركه ايسر علينا وأخف من ركوبه . ولكننا قد علمنا واستيقنا أنه لا عذر لنا وقد جعل لنا القلوب والاسماع حتى ننكر الظلم ونغير الجور ونجاهد الظالمين ثم قال حيان ابسط يدك نبايعك فبايعه وبايعه القوم ، ثم اتعدوا على وقت ومكان فخرجوا ^(٢) .

ونكتفي بهذين المثلين من الامثلة الكثيرة المماثلة التي يراها المتتبع خلال أحداثهم وحرركاتهم ومحاوراتهم فيما بينهم ومع غيرهم .

ومن المثلين بيان انهم كانوا يبايعون من يرونه الاصلح الاتقى من زعمائهم بالخلافة ويخطبونه

(١) الطبري ج ٤ ص ١٣١ - ١٤٦

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩ - ٢٣٠ .

بأمره المؤمنين . وكانوا يقيمون الحكومات في المناطق التي يتمكنون فيها أحياناً فيعينون العمال ويجبون الخراج ويسيرون سيرة أبي بكر وعمر في تحري الحق والعدل والتعفف عن مال بيت المال والتقشف في الحياة وإقامة حدود القرآن . وكان خلفاؤهم هم المباشرين لقيادة الحرب وحركتها بل وكانوا دائماً في المقدمة فكان هذا بما يزيد في ضراوتهم وشدة صولاتهم .

ولقد كانوا يقاتلون بكل بسالة واستماتة وشجاعة . وكانوا على أشد ما يكون المؤمن المسلم صلابة عقيدة وورع وتقوى وزهد وصيام وصلاة وتهجد وتلاوة وتجرد من المطامع الشخصية بما يسوغ القول ان عقيدة الخروج على السلطان غير الشرعي أو الحكم البغاة في نظرهم كانت عقيدة جهاد في سبيل الله والتقرب اليه وابتغاء مرضاته ونصر دينه وشريعته وحسب . وكان هذا مما يدفعهم على الخروج مها كان عددهم قليلاً حتى ولو كانوا آحاداً ومها كان أمليهم في النجاح مفقوداً ومصيرهم الى الموت مرجحاً أو محققاً . وكانوا يسمون انفسهم الشراة اي الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة فيقاتلون في سبيل الله اقتباساً من الآية ٧٤ في سورة النساء وهي (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً)^(١) وكان هذا من اسباب ضراوتهم

(١) رويت لهم مقطوعات شعرية في ذلك أيضاً .

منها هذا البيت :

ألا ايها الشارون قدحان لا مريم شرى نفسه الله ان يترجلا
ومنها هذان البيتان :

لله در الشراة انهم اذا الكرى مال بالطلا ارقوا
يرجعون الحنين آونة وان علا ساعة بهم شقوا
ومنها هذا البيتان أيضاً :

لقد شقيت شقاء لا انتطاع له إن لم افز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها احد إلا المنيب بقلب الخلس الشاري
ولقد اثر عن عمران بن حطان بيتان فيها وصف بليغ لحالة الخوارج هذه وهما :

فثوى دريعا والرماج تنوشه ان الشراة قصيرة الاعمار
ادباء اما جثتهم خطباء ضنناء كل كتيبة جرار
من . الباب بيتان من ابيات مروية عن سيرة ابن الجعد :

او عصبة اما النهار فانهم م اسد اسد الفيل عند التهايج
واما اذا ما الليل جن فانهم قيام بانواع النساء النواشج
انظر رسالة أدب الخوارج سير القلماوي

وشدتهم وصولاتهم بالعدد القليل على العدد الكبير . وتمكنهم في كثير من المرات التغلب على اعداد كبيرة تفوق عددهم اضعافاً مضاعفة مما سوف نورد الامثلة عليه في سياق الحوادث .

ولقد كان فيهم خطباء بلغاء وشعراء مفلقون ومجادلون اشداء فكانوا يدافعون عن فكرتهم اشد دفاع ويدعون اليها اشد دعوة ويلهبون عواطف جماعاتهم ويجعلونهم يقدمون على الجهاد والموت في سبيل الله بكل استماتة ورضا حتى لقد قال ابن زياد عنهم (ان كلامهم أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى اليراع)^(١) وقال عبد الملك بعد موقف جدلي بينه وبين أحد زعمائهم : (لقد كاد يوقع في خاطري ان الجنة خلقت لهم وأني اولى بالجهاد منهم) ثم حبس الزعيم وقال (لولا ان تقسد بالفاظك وعيتي ما حبستك)^(٢) .

وواضح مما تقدم ان النظرية التي قامت عليها حركة الحوارج من حيث الفكرة والمبدأ قد تكون من اعظم النظريات السياسية والاجتماعية خطورة ومدى في صده توطيد الدولة والسلطان على اساس الحق والعدل والتأيي بها عن الشذوذ والشبهات . وهي كذلك من حيث الفكرة والمبدأ قد تكون متسقة مع الرسالة الإسلامية التي اتسم بها الدور العربي الجديد والتي زادت من خطورته وعظم مداه بما احتوى القرآن دعائم قوية له مثل ايجاب قيام جماعة من المسلمين في كل وقت بالدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقرير كون امر المسلمين شوري بينهم وكون الداعية للسلطان إنما تكون فيما هو خير للمسلمين وموافق لمصلحتهم وحياتهم ولا يكون في معصية وايجاب اتصاف الذي يتولى امر المسلمين بالعدل والإحسان والحرص التام على المسلمين وإشفاقه عليهم وبره بهم وسيرته فيهم سيرة بعيدة عن الظلم والفظاظة والغلظة الخ^(٣) .

ولعل من الحق ان تعتبر هذه الحركة وما نتج عنها من اعظم الحركات التاريخية خطورة بقطع النظر عن ضيق النظر والافق وشدة التزمّت وعدم النفوذ الى الهدي النبوي المنطوي في

(٢-١) رسالة ادب الحوارج لسير القلموي من ٤٠ .

(٣) في القرآن آيات كثيرة في هذا الصدد كما ان في الاحاديث النبوية احاديث كثيرة في ذلك وفي فصل الدستور انفرآني في آخر الجزء السادس وفي الهدي النبوي في آخر الجزء السابع ما يفني عن التكرار والزيادة .

الأحاديث التي أوردناها في مطلع الفصل . بل ان ما كانت تحفز اليه من ثورات وتمردات مستمرة خلال القرون الاربعة الاولى من تاريخ الإسلام . وبقاء الفكرة إلى اليوم تقوم عليها دولة من الدول العربية الإسلامية في عمان ليجعل التاريخ الإسلامي العربي بها فذاً رائعاً . لان التاريخ لم يكد يسجل مثلاً لامة اخرى من حيث الاستمرار والإتسام بسمه مبدئية سياسية مجردة عن المأرب الشخصي في صدد تقويم امر الدولة والسلطان واقامتها على ناس الحق والعدل والشرع الإسلامي وقتال المنحرفين عن هذا الاساس بدون هوادة وفي اي حال وظرف .

ولم يكن الخوارج قلة في العدد . فقد كان الذين انشقوا عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه بضعة آلاف كلهم محاربون . قتل كثير منهم في وقعة النهروان وتفرق باقيهم في مختلف الامصار والانحاء ليشوا دعوتهم وفكرتهم وليعودوا فيقاتلوا في سبيلها .

وقد بلغ عدد الذين قتلهم زياد بن ابي سفيان ثم ابنه عبد الله والي العراق في عهد معاوية ثم في عهد ابنه يزيد ثلاثة عشر ألفاً وهناك رواية تذكر ان عدد الذين قتلهم سمرة بن جندب الذي اقامه زياد نائباً موقتاً عنه في البصرة ثمانية آلاف (١) . وعدد الذين سجنوهم أربعة آلاف وينبغي ان يضاف الى هذا العدد عدد آخر قتلهم وسجنهم المغيرة بن شعبة والي الكوفة في عهد معاوية ايضاً (٢) .

ومها كان في الاعداد مبالغة فان كثرة خروجهم وتعدد مناطق نشاطهم ليدل على ان عددهم قد كثر ونما في خلافة معاوية حتى بلغ عشرات الالوف (٣) قتل منهم من قتل وبقي الناجون منبئين بين الناس يتربصون الفرص . وظل عددهم ينمو وحركتهم تتسع بعد خلافة معاوية . ويدل على هذا كون وقائعهم وحروبهم العنيفة انما كانت بعد معاوية . وكون هذه الوقائع والحروب استمرت شديدة لا تخمد حتى تعود الى الفوران بقوة نحو عشرين سنة متواصلة .

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٦ .

(٢) انظر هذه المسألة في المصدر نفسه ص ١٣٨ وبعدها .

(٣) انظر لاجل الاعداد والحركات ايضاً مختصر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٦٤ وبعدها .

ومن الحق ان نذكر أن جمهور المسلمين لم يكونوا راضين عن حركات الخوارج بصرف النظر عما اذا كان ذلك عن يقين وبينة أم تفادياً من الخلاف مع الدولة والسلطان والتعرض لنقمتها . ونحن وان كنا نعتقد باحتمال الامرين معاً الا ان مجرى حركة التكتيل فيهم قد يدل على ان الاحتمال الاول هو الاقوى الحافز على تكتيل الناس مع الدولة لمكافحة هذه الحركة الخطيرة .

ومن الدلائل القوية على كون الإحتمال الثاني هو الحافز الاقوى تصدي اهل البصرة لقتال الخوارج الازارقة من تلقاء انفسهم وعلى حسابهم -- ان صح التعبير -- على ما سوف نذكره بعد في ظرف كان سلطان الامويين فيه قد انهار في العراق ولم يكن سلطان ابن الزبير قد توطد .

ولعل ما كان بيد من الخوارج من اعمال متسمة بالقسوة والتزمت الشديد من شأنها ان تثير في النفوس بالغ الدهشة والاشمئزاز والذعر والحنق على ما سوف نذكره بعد ايضاً ذو اثر قوي في قوة هذا الحافز .

ولقد كان في بنيتهم او تكوينهم بالاضافة الى موقف جمهور المسلمين المذكور ثم بالاضافة الى ما ذكرناه من ضيق النظر والافق وشدة التزمت وعدم النفوذ الى الهدي النبوي نقطة ضعف بارزة اخرى جعلت حركتهم سلبية ومزعجة اكثر من اي شيء آخر وهي انهم لم يكونوا كتلة واحدة وان كانت الفكرة جامعة بينهم ، ثم انهم كانوا مبغضين هناك وهناك . وكانت حركة خروجهم هذا وذاك متفرقة وبأعداد قليلة أحياناً لم تكن تتجاوز المئات بل واحياناً في حدود العشرات . فكان هذا مما يسهل على السلطات الاموية التغلب عليهم عاجلاً او آجلاً مما بدأ منهم من شدة وضراوة . وكل ما يكون من امرهم ان يقتلوا ويقتلوا . ثم نشب فيما بينهم خلاف جعل نقطة ضعفهم هذه اشد واقوى . لان هذا الخلاف فرقه وان كان فرعياً بل وأدى الى تكفير بعضهم بعضاً وقتال بعضهم بعضاً فان احد زعمائهم نافع بن الأزرق اخذ يري تكفير من لا يرى رأيه من اتروا من عثمان وعلي وقتال السلطات الاموية ويقعد عن هذا القتال ، واستحلال دمه وماله وتحريم ذبيحته ومناكحته واعتباره مرتدّاً لا يقبل منه الا التوبة والخروج . واخذ مع جماعته يعترضون الناس ويمتحنونهم ويقتلون من لا يقول بقولهم ويسبون نساءه وينهبون امواله ولا يتورعون عن قتل الاطفال والنساء

والشيوع^(١) . وكانوا - وهذا بالغ في الغرابة والتزمت - اذا ما انتقام أحد بالقول يمتحنونه بقتل من كان في أيديهم من الاسرى فاذا ابى او تردد اعتبروه مرتدّاً واستحلوا دمه .

وهكذا اعتبروا جميع المسلمين ما عداهم كفاراً مرتدين واستحلوا قتلهم واموالهم ونساءهم ولم يتوانوا عن مكافحة السلطات الحكومية غير الشرعية في نظرهم .

وعرفت هذه الفرقة باسم الازارقة نسبة الى رئيسها وكانت اشد فرق الخوارج عنفاً وضراوة وتزمتاً . ولقد روى المؤرخون بعض الامثلة من ذلك ان صحت فانها تثير بالغ الدهشة والاشمئزاز من ذلك ان جماعة منهم رأوا رجلاً يسوق حملاً عليه امرأة فدعوه فانتهروه فافزعوه وسألوه عن نفسه فقال لهم انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله فقالوا له لا روع عليك افرغناك . حدثنا عن ابيك حديثاً سمعته من رسول الله قال روى ابي عن رسول الله انه قال (تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه . يمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً . ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً) . فقالوا له لهذا الحديث سألناك . ما تقول في ابي بكر وعمر فأثني عليهما خيراً . فقالوا ما تقول في عثمان في اول خلافة وفي آخرها فقال انه محق في اولها وآخرها . فقالوا ما تقول في علي قبل التحكيم وبعده فقال انه اعلم بالله وحكمه منكم واشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة فقالوا انك تتبع الهوى وتوالي الرجال . والله لنقتلك قتلة ما قتلناها احداً . فأخذه وكتفوه واقبلوا به وبامرأته وهي حبل ممت حتى نزلوا تحت نخل فسقطت رطبة فأخذها احدهم فلاكها في فيه فقال له آخر اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فالقها من فيه . ثم مر بهم خنزير لذي فصر به احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض فبحث عن صاحب الخنزير حتى لقيه فارضاه . فلما رأى ذلك منهم ابن خباب قال ان كنتم صادقين فما أرى علي بأساً منكم . إني مسلم ما احدثت في

(١) من عجيب ما يرويه مؤلف الاغاني وفيه ان صح دليل من ائمة كثيرة على مشاركة المرأة في هذه الحركة اسوة بغيرها من الحركات ان نافعاً كان متردداً في نظريته الى القاعدين فقالت له امرأته ان كنت قد كفرت بعد إيمان وشككت فدع لخلتك ودعوتك وان كنت قد خرجت من الكفر الى الايمان فاقتل الكفار حيث لقيتهم واثنى في النساء والصبيان كما قال نوح (رب لا تذر على الارض من الكافرين عياراً) فقبل قولها وصار يستعرض الناس ويقتل الرجال والنساء والصبيان (المجلد السادس خبر وقعة حولا ب وام حكيم) .

الإسلام حدثاً وقد امنتموني وقتلم لا روع عليك ، فلم يغنه ذلك فأضجعوه وذبحوه واقلبوا إلى المرأة فقالت لهم انا امرأة . افلا تتقون الله فلم يغنها ذلك فبقروا بطنها . وقتلوا ثلاث نسوة من طي كنع معها^(١) .

ومن ذلك ان شخصاً اسمه عبادة الليثي من بجاعة منهم ومعه ابنة وابن اخيه فسألوه عن انفسهم فقالوا لهم مسلمون فقالوا لهم كذبتهم فقال عبادة سبحان الله اقلبوا منا ما قبل منارسل الله فاني كذبتهم وقائلته ثم اسلمت فقبل مني فقالوا له بل انت كافر وقتلوه وقتلوا ابنة وابن اخيه^(٢) .

ومن ذلك ان شخصاً اسمه سماك بن زيد من بجاعة من الازارقة ومعه ابنته فأخذوهما ثم استشهدوا سماكاً فلم يشهد بما طلبوه منه فقرروا قتله مع ابنته وكان مريضاً فقالت البنت يا اهل الإسلام إن ابي مصاب وانا جارية ما اتيت والله بفاحشة قط فلم يغن ذلك عنها . فلما هموا بقتلها سقطت ميتة من الخوف فقتلوا اباها وصلبوه وقطعوهما باسيافها^(٣) .

ولقد خالف نافعاً بن الازرق في غلوه في ارائه ثلاثة من رفاقه وهم عبد الله بن اباض وعبد الله بن الصفار^(٤) ونجدة بن عامر كما اختلفوا هم فيما بينهم في الآراء في الوقت نفسه فصار هناك اربع فرق رئيسية لهم اختزل اسمائها من اسمائهم . وهي الازارقة والاباضية والصفرية والتجدات .

ويستفاد مما ذكره البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ان فرقة التجيدات كانت لا ترى قتال القاعدين ولا تستحل قتل اطفال ونساء المحالفين وان فرقة الصفرية كانت لا ترى قتل

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ١٣٨-١٣٩ .

(٢) نفس الجزء ١٦٧ .

(٣) ابن الاثير ج ٤ ص ١١٠ وهناك حوادث مائة اخرى سوف نوردتها في مناسباتها الآتية .

(٤) البغدادي يسمي رئيس فرقة الصفرية زياد بن الاصفر في حين ان المستفاد من سياق الطبري ان اسمه عبد الله بن الصفار (انظر مختصر الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٧٩ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٣٩) .

الاطفال والنساء وان فرقة الاباضية كانت تعتبر القاعدين غير مؤمنين وغير مشركين وتحييز شهادتهم ومنا كحتهم والتوارث بينهم وتحرم دماءهم . ثم تفرع عن هذه الفرق فروع اخرى عرفت باسماء العجاردة والحازمية والشعبية والخلفية والصلتية والحزبية^(١) والثعالبة والمعيدية والاخنسية والرشيديّة والمكرمية والحفصية والحارثية نسبة الى زعماء اختزلت هذه التسميات من اسمائهم بسبب اختلاف في النظرة الى القاعدين او في تطبيق الفكرة او في مسائل القدر والجبر وخلود مرتكبي الكبائر في النار واعتبارهم كفاراً واستحلال دمهم ومالهم ونحو ذلك . ومنهم من اجاز عدم اقامة امام اصلاً إذا لم يكن هناك من يصلح للأمامة صلاحاً شرعياً كاملاً^(٢) .

ولقد كان بعض هذه الفرق تصطدم مع بعضها بالقتال فيزداد بذلك ضعف بنيتهم واستمرار بقاء حركتهم سلبية مزعجة اكثر من أي شيء آخر كما قلنا . ولم يكديكون لها اثر الا التهديم والازعاج وإراقة دماء اصحابها وغيرهم من المسلمين واشغال قوى الدولة واستنفاد جهودها على غير طائل باستثناء محدود الدائرة والاثرو هو تمكن جماعة من المنتسبين الى الاباضية من اقامة امامة ذات سلطان في اقليم الجزائر المغربي استمر اكثر من قرن (١٦٠-٢٩٩) وهي الدولة الرسمية التي كانت عاصمتها مدينة تاهرت في اقليم الجزائر^(٣) ثم في اقليم (عمان-مسقط) في شرق جزيره العرب استمرت احد عشر قرناً ولا تزال قائمة الى اليوم (١٢٠-١٣٨٣هـ) مع تقطع وتطور في بعض الفترات^(٤) .

ولقد كان قوام حركة الحوارج على الاعم الغلب عرباً افصحاً وكان معظمهم من بني تميم وبني شيبان وبني طي وقد ظلت العروبة صفة هذه الحركة البارزة طيلة العهد الاموي غير

(١) انظر ص ٦٥ - ٩٤ .

(٢) انظر ايضاً كتاب الدولة العربية الاسلامية علي حسي الخربوطي الذي يستند من مذاهب الحوارج إلى مصادر عربية عديدة ص (١٤٠-١٥٢) .

(٣) انظر تفصيل حياة هذه الدولة في تاريخ الجزائر للكمال ص ١٦٣-٢٠٢ وكتابنا العرب في حقبة التغلب التركي ج ٣ ص ٥٧٥-٥٧٧ .

(٤) انظر تفصيل حياة هذه الدولة في كتاب تحفة الاعيان في سيرة اهل عمان للسالمي .

ان التاريخ سجل اندماج بعض الموالي الفرس في المشرق وجماعات من البربر في المغرب فيها إما لوحدهم وإما بالاستتراك مع العرب وتأثراً بهم على ما سوف نشرحه بعد .

ولقد بدأت حركة الحوارج في عهد خلافة معاوية منذ عهد مبكر كما ذكرنا وتعددت وقائعهم في سنين مختلفة في هذا العهد حتى أواخره .

ولقد كان معظم هذه الوقائع في منطقتي البصرة والكوفة . وكان معظم القائين بها من القبائل العربية النازلة في هذه المناطق . فكانت وشائج القرى مما يجعل كثيراً من أهلها خالعين مع القائين بها ولو لم يكونوا مندجين فيها . وإلى هذا فقد كان أهل هذه المناطق غير مخلصين في خضوعهم للسلطان الأموي وإنما كان خضوعاً للأمر الواقع فكان كل ذلك مما يساعد على تكرار الوقائع واستشراء الحركات . ولقد كانت هذه الحالة غير خافية على معاوية ولا على ولاية العراق من قبله المغيرة بن شعبة وزياد بن أبي سفيان وعبيد الله بن زياد فجدوا في الأمر وقابلوا الموقف بالشدة والصرامة . سواء أبالنسبة لأهل العراق أم بالنسبة للحوارج منهم حيث كانوا يوالون إنذارهم ووعيدهم للوالين ويحملونهم وزر الحوارج ويحملونهم على قتالهم وتخذيّلهم أي يضربون الحديد بالحديد وحيث كانوا يرسلون الحملات القوية التي يفوق عددها أعداد الحوارج أضعافاً كثيرة فيغلبون الشجاعة بالكثرة . ومما كانوا يفعلونه إثارة شيعة علي على الحوارج وجعلهم من دعائم الحملات لأن هؤلاء كانوا يتبرأون من علي ويوالون منه وكان بدء ظهورهم ضده وهو أول من حاربوه فكان الشيعة يقاتلونهم بكل استئثاره وقلب . وبذلك أمكن إبقاء حركات الحوارج في عهد معاوية في نطاق ضيق والتغلب عليها .

ولقد بدأت أولى حركاتهم التي قلنا أنها في أول خلافة معاوية في ناحية الكوفة . وقد كان جماعة منهم قد اعتزلوا في شبرزور بعد معركة النهروان بزعامة فروة بن نوفل الأشجعي عددهم خمسمائة فلما قدم معاوية إلى الكوفة بعد المفاوضة مع الحسن والاتفاق على تنازل هذا له قالوا لبعضهم لقد جاء الآن ما لا شك فيه فسيروا إلى معاوية فجاهدوه فأقبلوا حتى دخلوا الكوفة وكان ذلك في سنة ٤١ هـ فأرسل إليهم معاوية خيلاً من خيل أهل الشام فكشفوا أهل الشام فقال معاوية لأهل الكوفة لا أمان لكم والله عندي حتى تكفوا بوائقكم (أي يكف كل منهم المنتسبين إلى قبيلته) فخرج أهل الكوفة إليهم فاندروهم فلم يغن الإنذار فقاتلوا وشردهم .

وقد روى الطبري الذي يروي الخبر حواراً طريفاً بين الحوارج وأهل الكوفة حيث

قال الحوارج للكوفيين (ويلكم ما تبغون منا . أليس معاوية عدونا وعدوكم . دعونا نقاتله فان أصداء كفييناكم عدوكم وإن اصابنا كفيتمونا) ولكن الكوفيين ابوا إلا أن يكفوا أو يقاتلوهم خشية إندار معاوية ^(١) . ولقد سجت عشيرة أشجع صاحبها قهراً فتولى قيادة الحوارج شخص اسمه ابو الحوساء فقتل فتولى القيادة بعده حوثة الاسدي فأرسل معاوية الى أبيه ليكفيه ابنه فأنه وردعه فأبى فقال له أجيئك بآبنك لعلك تراه فتحن اليه فقال له يا أبت انا والله الى طعنة نافذة أتغلب فيها على كعوب الرمح اشوق مني إلى ابني ثم صرخ بأهل الكوفة الذين جاؤوا الى قتالهم قائلاً يا أعداء الله بالامس كنتم تقاتلون معاوية لتهدموا سلطانه واليوم تقاتلون معه لتشدوا أزره . ثم حمل عليهم وهو يرتجز :

احمل على الجموع حوثة فعن قريب منتال المغفرة

فحمل عليه رجل من طي فقتله فرأى أثر السجود قد لوح جبينه . ثم تمكن الكوفيون من تشتيت شمل هذه الجماعة بعد الاتخان فيهم ^(٢) .

ولقد عين معاوية المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة فلم يتشدد في التحري عنهم فانتصموا الفرصة وأخذوا يتجمعون وشعر المغيرة بهم فاعتقل بعضهم وانذرهم ثم اطلق سراحهم فعادوا الى التجمع فجمع المغيرة الناس وخطبهم قائلاً (قد علمت ايها الناس إني لم ازل احب لجماعتكم العافية واكف عنكم الاذى وإني والله لقد خشيت ان لا اجد بداً من ان يعصب الحليم التقي بذنب السفیه الجاهل فكفوا ايها الناس سفهاءكم قبل ان يشمل البلاء غوامكم . وقد ذكر لي ان رجالاً منكم يريدون ان يظهروا في مصر بالشقاق والحلاف . وأيم الله لا يخرجون في حي من احياء العرب في هذا المص إلا أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فلينظر قوم لانفسهم قبل الندم فقد قمت في هذا المقام إرادة الحجة والاعذار) فخرج رؤساء العشائر إلى ابناء عشائهم فناسدوهم الاسلام ان يدلوهم على من يريد اهاجة الفتنة ومفارقة الجماعة . وخطب صعصة بن صوحان احد زعماء الشيعة في هذا الصدر محرضاً على من يريد الفتنة والخروج . فلم يمنعهم هذا من الحركة .

ومن سجل لهم حركة في اوائل حكم المغيرة في انحاء الكوفة جماعات قليلة العدد كانت

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٦ - ١٢٧

(٢) انظر صحف جزء تاريخ الطبري المذكور سابقاً تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٤

تعلن خروجها واحدة بعد اخرى . واحدة بقيادة شبيب بن بجرة وثانية بقيادة شخص اسمه معين وثالثة بقيادة شخص اسمه ابو مريم ورابعة بقيادة شخص اسمه ابو ليلي فكان المغيرة يرسل اليهم من يقاتلهم ويقتلهم^(١) .

وسجلوا في انحاء البصرة في اوائل عهد ولاية زياد بن ابي سفيان حركتين واحدة بقيادة سهم بن غالب واخرى بقيادة الحطيم فطاردهم زياد وقتلهم^(٢) .

ثم سجلوا حركة قوية نوعاً بقيادة المستورد . فقد كان هذا من الزعماء الذين سجنهم المغيرة ثم اطلق سراحه فتجمع الحوارج عليه فور ذلك وبايعوه بالخلافة . ثم قرروا التحول على الكوفة الى مكان اكثر تحرزاً وإعلان تمردهم فخرجوا الى مكان اسمه الصراة . وقد كان ممن بقي في سجن المغيرة من زعمائهم معاذ بن جوين . فلما علم بخروجهم ارسل اليهم من سجنه هذه القصيدة يحرضهم فيها على الجهاد :

شرى نفسه الله ان يتحرلا
وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
اقامتم للذبح رأياً مضللا
اذا ذكرت كانت أبر واعدلا
شديد القصوى دارعاً غير أعزلا
فيسقيني كأس المنية اولا
ولما أجرد في الحلين منصلا
اذا قلت قد ولى وادبر أقبلا
يرى الصبر في بعض المواطن امثلا
واصبح ذا بث اسيراً مكبلا
اثرت اذاً بين الفريقين قسطلا
شهدت وقرن قد تركت مجدلا .

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ
أقم بدار الخاطئين جهالة
فشدوا على القوم العداة فانما
ألا فقصدوا يا قوم للغاية التي
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح
ويا ليتني فيكم اعادي عدوكم
يعز علي ان تخافوا وتطردوا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد
مشيحاً بنصل السيف في حمى الوغى
وعز علي ان تضاموا وتنقصوا
ولو أنني فيكم وقد قصدوا لكم
فيا رب جمع قد فلت وغارة

ولما علم المغيرة بخروجهم وتجمعهم سير حملة قوية عليهم . فجمع المستورد كبار اصحابه واستشارهم فقال بعضهم الى الزوغان من وجه الحملة الى ان يستكملوا أهبتهم ولكن المستورة

أبي قائلا يا معشر المسلمين إني والله ما خرجت التمس الدنيا ولا ذكرها ولا فخرها ولا البقاء
وما أحب أني ألي بجزايرها واضعاف ما يتنافس فيه منها بقبال نعلي . وما خرجت إلا التماساً
لشهادة وإن يهديني الله إلى الكرامة بهوان بعض أهل الضلالة . وقال بعضهم والله ما خرجنا
نريد إلا الله وجهاد من عادى الله وقد جاؤنا فأين نذهب عنهم بل نقيم حتى يحكم الله بيننا
وبينهم وهو خير الحاكمين . وهكذا تغلب رأي المجاهدة على رأي الزوغان .

وفي هذا السياق تأييد لما قلناه من أن جمهور الناس كانوا ضد حركات الحوارج وأنهم كانوا
يعتبرونها فساداً وقتنة ويتعاونون مع السلطات عليها ثم تأييد لما قلناه كذلك من الفكرة
المبدئية التي كانت تحرك الحوارج بقطع النظر عن انقضاء الأمل في النصر والغلبة على خصومهم .

وقد أرسل المستورد إلى عامل المدائن كتاب الإنذار والتحذير الذي أوردنا نصه قبل .
فلما قرأ العامل الكتاب قال لحامله اذهب إلى صاحبك فقل له اتق الله في دماء المسلمين وإن
أراد أن اطلب له أماناً من المغيرة فعلت وسوف يكون سريعاً إلى الإصلاح محباً للعافية .

فلما رجع الرسول إلى المستورد وبلغه الرسالة تلا قول الله : (إن الذين كفروا سواء
عليهم أءذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة
ولهم عذاب عظيم) ومن ثم أخذت الاشتباكات تقع بينهم في امكنة متعددة واحد
بعد آخر .

وقد اسهب الطبري في تفصيلها وكان يتخللها محاورات عقائدية وتدينية شديدة بين
الطرفين . وكان المستورد يهتف بهم محملاً مذكراً . وكانوا يصولون صولات قوية وينالون
من الجيش نيلاً شديداً . وقد عالج فارس منهم اسمه أبو الرواغ مئة فارس من حملة المغيرة .
وكان يحمل وهو يرتجز قائلا :

إن الفتى كل الفتى من لم يهل
قد علمت أني إذا البأس نزل
إذا الجبان حاد عن وقع الأسل
أروع يوم الهيج مقدم بطل

وفعل مثله فارس آخر اسمه عمير بن أبي اشاعة وكان يرتجز قائلا :

قد علمت أني إذا ما اقشعوا
عني والثالث اللثام الوضع
أحوس عند الروع ندب أروع

ثم طلب خليفتهم المستورد قائد الجيش واسمه معقل بن قيس إلى البراز وشد كل منها على الآخر فقتله . وقت قتل المستورد في عضد أصحابه وكتب النصر في النهاية لجيش فقتلوا من الحوارج مقتلة كبيرة ووقع بعض رؤسائهم في الأسر وتشرده الباقون شذر مذر .

وكان جماعة من شيعة علي بقيادة شريك الأعور وغيره ممن قاتلوا الحوارج مع علي ابن أبي طالب يقاتلون مع الجيش بنفس القوة والعقيدة التي كان يقاتل بها الحوارج لما بين الفريقين من عداة عقائدي شديد فكان بالإضافة إلى تفوق الجيش عدداً ومدة الأثر الحاسم في المعركة . وكانت هذه الأحداث سنة ٤٣ هـ (١) .

ولقد سجلت الروايات حادثين آخرين من حوادث الحوارج احدثهما وقع سنة ٤٦ حيث روي أن الحطيم وسهم بن غالب المجيمي خرجا فحكما في ناحية البصرة فطلبهم زياد فهربوا ثم ظفر بهم فقتلهم (٢) . وثانيها وقع سنة ٥٠ هـ حيث روي أن جماعة منهم خرجوا بقيادة شخصين اسم احدهما قريب وثانيها زحاف في ناحية البصرة ايضاً فجد نائب زياد في البصرة سمرة بن جندب في أمرهم وقتلهم قتلاً ذريعاً (٣) .

ثم سكنت حركتهم إلى سنة ٥٨ هـ حيث يدل على أن الضربات التي نزلت فيهم كانت قاصمة . وقد أتاح هذا السكون لمعاوية أن يولي اهتمامه لمصاولة الروم في حدود الاناضول وشمال افريقية على ما شرحناه في نبذة سابقة .

ثم نحر كوا في سنة ٥٨ هـ فقد سجن بعض رؤسائهم الذين أسروا في الوقعة السابقة ولبثوا في السجن معظم هذه المدة ثم اطلق سراحهم . وكان منهم حيان بن طبيان ومعاذ بن جوين زميلي المستورد في الزعامة فبادروا إلى جمع إخوانهم المشردين وخطبوا فيهم وبايعوا حياناً على ما أوردناه في المثال الثاني في مطلع النبذة .

ولم يكونوا في أول أمرهم أكثر من مئة . واقترح بعضهم الخروج إلى مأمن مثل حلوان

(١) نبذة المستورد وخلئاؤه مقتبسة من الطبري ج ٤ ص ١٣٨-١٦٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٢ وتعبير (حكما) كان يطلق على حركة خروج الحوارج .

(٣) نفس المصدر ص ١٧٦-١٧٧ .

أو عين التمر حتى يأتي اليهم اخوانهم الذين هم على رأيهم فقال لهم امامهم الجديد : (إن عدوكم معاجلكم قبل اجتماع الناس ولن يتروكوكم حتى تكثروا . وقد رأيت أن أخرج بكم في جانب الكوفة أو الحيرة ثم نقاتلهم حتى نلحق بربنا . واني والله لقد علمت أنكم لا تقدرون وأنتم دون المئة أن تهزموا عدوكم ولكن متى علم الله أنكم قد جهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم كان لكم به العذر وخرجتم من الاثم) .

فوافقه أكثرهم . وحينئذ هتف بهم قائلاً : (إن الله قد جمعكم خير وعلى خير . والله الذي لا إله غيره ماسررت بشيء قط في الدنيا بعد أن أسلمت سروري للخروجي هذا على الظلمة الائمة . فوالله ما أحب أن الدنيا يجذافيها لي وإن الله حرمني في مخرجي هذه الشهادة . فاستعدوا فاذا خرجوا اليكم ناجزتموهم) . وعني والي الكوفة ابن أم الحكم بأمرهم فاخرج اليهم حملة فمكنت من قتل معظمهم وتشريد باقيهم ^(١) .

ومع ذلك فقد قامت الفلول مع من انضم اليهم من أفراد بجملة جديدة بعد سنة . وقد بدأت مجاداة فردي حيث وقف اجدهم عروة بن أدية في مجلس لعبيد الله ابن زياد فقال له : (خمس كن في الامم قبلنا صرنا فينا . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين ^(٢)) .

وكان عبيد الله آنئذ في مشهد سباق فانصرف من المشهد ثم ارسل فاعتقل عروة وامر بقطع يديه ورجليه ثم قال له ما ترى الآن فأجابه افسدت دنياي وأفسدت آخرتك فقتله .

وتبع هذا الحادثة خروج أخوي عروة مرداس الملقب بأبي بلال وكان هذا من شهد حرب صفين مع علي ابن أبي طالب وخرج عليه بسبب التحكيم وقاتله في النهروان . وكان سجيناً في الكوفة فأطلق سراحه في هذه الظروف فاجتمع عليه نحو أربعين وبايعوه فخرج بهم إلى ناحية متربصاً . فمر بهم مال للدولة فأخذوا منه بعضه عنوة وقالوا للجباة قولوا لأصحابكم إنما أخذنا عطائنا - وفي هذا صورة من صور حركة الحوارج - وقد أرسل اليهم عبيد الله بن زياد جيشاً فأرسل مرداس إلى قائده يقول له اتق الله فاننا لا نريد

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٩-٢٣١ .

(٢) من آيات في سورة الشعراء ١٢٨-١٣٠ .

قتالا ولا نزوع أحداً وانما خرجنا من الظلم ولا نأخذ من الفياء الا عطاءنا ولا نقاتل الا من
 قتلنا - وفي هذا صورة اخرى - فقال القائد لا بد من ردكم الى ابن زياد فقالوا له وان
 قتلنا قال وان قالوا فتشرك في دماننا قال نعم فشدوا على الجيش حينئذ شدة رجل واحد
 فهزموه بعد ان انخنوا فيه . وفي هذا يقول احدهم :

أولفا مؤمن فجا زعمتهم	ويهزمكم بأسك أربعوناً
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنوناً
هم الفئة القليلة غير شك	على الفئة الكثيرة ينصرون

فسير عليهم عبيد الله جيشاً آخر في ثلاثة آلاف فلما التقوا حمل مرداس وجماعته فلم تغن
 حملتهم هذه المرة . فقال لاصحابه من كان منكم انما خرج للدنيا فليذهب ومن كان منكم انما
 اراد الآخرة ولقاء ربه فقد سبق ذلك اليه فلم يفارقه احد وقتلوا عن آخرهم (١) .

ومن طريف ما يرويه الطبري ورائعه عن مرداس الذي كان يكنى بأبي بلال أن
 السجان كان يرى عبادته واجتهاده حين كان مسجوناً فكان يأذن له بالخروج بالليل أحياناً
 فيخرج ثم يعود من نفسه اذا طلع الفجر . وعلم صديق له أن عبيد الله بن زياد اعتمر قتله
 وقتل من في السجن من الخوارج وكان ذلك الوقت خارج السجن فبلغه الخبر فما كان منه
 الا أن عاد الى سجنه كالعادة . فلما عاد ارتاع السجان وقال له ألم يبلغك ان ابن زياد اعتمر
 قتلك قال نعم قال له ثم غدوت الى سجنك قال نعم لانه لم يكن جزاؤك مع احسانك ان
 تعاقب بسبي . واصبح عبيد الله فجعل ينفذ عزمته ويقتل الخوارج الذين في سجنه فلما دعا
 بمرداس وثب السجان الى ابن زياد فأخذ بقدمه ثم قال له هب لي هذا وقص عليه قصته فوهبه
 له واطلقه .

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٣١-٢٣٣ و ٣٦٠-٣٦١ وأدب الخوارج لسير القلاوي ص ٥٣ وفي ادب
 الخوارج زيادة بيت في اول الابيات وهو :

فلم اصبحو صلوا وقاموا الى الجرد العناق مومنين

وقاتل الشعر هو عيسى بن فانك في ادب الخوارج ورجل من قيم الله بن ثعلبة في الطبري . وآسك
 اسم المكان الذي التقى فيه جماعة مرداس مع الجيش الاموي .

وقد رثى شاعر الخوارج عمران بن حطان ابابلال في هذه الابيات :

يا عين بكى لمرداس ومصرعه	يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائلاً ابكي لمرزأني	في منزل موحش من بعد ايناس
انكرت بعدك من قد كنت تعرفه	ما الناس بعدك يا مرداس بالناس
اما شربت بكأس دار اولها	على القرون فذاقوا جرعة الكأس
فكل من لم يذقها شارب عجلا	منها بأنفاس ورد بعد انفاس

ادب الخوارج ص ٩٠

ويروي اليعقوبي خبر بعض حركات اخرى في زمن معاوية للخوارج غير التي يرويها الطبري ولخصناها عنه . من ذلك خروج جماعة منهم في البصرة في ولاية زياد بن ابي سفيان في وقت كان فيه هذا في الكوفة . وكانوا بقيادة شخصين اسم احدهما قريب والثاني زحاق وقد استعرضا الشرط فقتلوا منهم خلقاً عظيماً وصاروا الى المسجد الجامع فقتلوا فيه خلقاً من الناس ومالوا الى القبائل ففعلوا مثل ذلك فأرسل اليهم نائب زياد عبيد الله بن ابي بكرة حملة فلم يكن لها بهم طاقة . واقبل زياد فخطب باهل البصرة قائلاً : (ما هذا الذي استملتم عليه ، اني اعطي عهد الله لا يخرج علي خارجي بعدها فادع من حيه وقبيلته أحداً فاكفوني بوائقكم فتعاونوا معه على قمع الحركة ^(١) .

ومن ذلك خروج جماعة من الموالي في ولاية المغيرة بن شعبه في الكوفة وكانت اول خارجة خرجت فيها الموالي وكان اميرها شخصاً اسمه ابو علي مولى لبني الحارث فأرسل المغيرة قوة لقتالهم فناداهم قائدها قائلاً يا معشر الاعاجم هذه العرب تقاتلنا على الدين فما بالكم .

فاجابوه (إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي الى الرشد فأمننا به ولن نشرك بربنا أحداً . وإن الله قد بعث نبيه للناس كافة ولم يزوه عن أحد) فقاتلهم فقتلهم ^(٢) .

(١) ج ٢ ص ٢٠٧ مطبعة الغربى .

(٢) نفس المصدر ص ١١٧ .

وروى ابن الاثير^(١) حركة خروج في عهد عبيد الله بن زياد قاده شخص اسمه طواف بن غلاق في ناحية البصرة فقاتلهم عبيد الله وقتلهم .

ولقد قتر نشاط الخوارج بضع سنين بعد ذلك بسبب ما كان من صرامة ابن زياد وعزيمته على مطاردتهم واستئصالهم وتحميل وزرهم وكفاحهم لقبائلهم .

فلما أعلن ابن الزبير خلع يزيد في مكة واخذ لنفسه البيعة على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة انصرف تفكيرهم إليه وقال أحد زعمائهم نافع بن الازرق لاصحابه اخرجوا بنا إلى مكة لنلقى هذا الرجل فان كان على رأينا جاهدنا معه العدو . وإن لم يكن دافعنا عن البيت ما استطعنا ونظرنا بعد ذلك في امورنا . فذهب جماعة منهم الى مكة على رأسهم نافع هذا وعبد الله بن اباض وعبد الله بن صفا ونجدة العامري .

وقد رحب بهم ابن الزبير وسر بتقدمهم وحدثوه فقال لهم إنه على رأيهم واعطاهم الرضا بدون توقف وكان جيش يزيد محاصراً لمكة فقاتلوا معه حتى مات يزيد وارثه جيشه .

ثم رأوا ان يسبروا حقيقة بن الزبير فجاؤوا اليه وكلموه وبينوا رأيهم المتمثل في الرضاء عن ابي بكر وعمر لانها سارا بسيرة النبي والتزما كتاب الله والبراءة من عثمان لانحرافه عن ذلك والبراءة من علي وطلحة والزبير وعائشة . وفي جعل الامر شورى بين المسلمين يختارون من يرونه الاصلح والاتقى على الكتاب وسنة الرسول ومجاهدة البغاة . وطلبوا بيان رأيه في ذلك فأجابهم في شأن عثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة اجابة لم ترضهم وأعلن ولايته لهم وبرأ عثمان مما نسبوه اليه . وحينئذ قالوا له برىء الله منك يا عدو الله فرد الكلمة عليهم .

وقد غادروا بعد ذلك مكة فذهب بن الازرق وابن اباض وابن صفار ومعهم جماعة من انصارهم إلى البصرة وذهب نجدة ومعهم جماعة إلى اليمامة حيث بسطوا سلطانهم عليها تحت إمامة نجدة العامري^(٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤٣٦-٤٣٩ .

ولقد كان العراق في هذه الآونة في بلبلة وفراغ . ولقد حاول عبيد الله بن زياد الاستمساك وجمع الناس عليه إلى ان يجتمع امرهم على خليفة فلم يستطع فخرج من العراق . وأخذت كل ناحية فيه تقيم على رأسها حاكماً .

وقال فريق من الحوارج لبعضهم يجب علينا الخروج والدعوة الى سبيل الله والجهاد واجتمعوا على نافع بن الأزرق وبايعوه باخلاقة . وتخلف عنه ابن اباض وابن صفار مع جماعة اخرى .

وقد اعتبر ابن الأزرق الناس الذين ليسوا على رأيه مشركين واوجب قتالهم وحرم المقام بين أظهرهم وإجازة شهادتهم وأكل ذبحائهم ومناكحتهم ومواريتهم .

فوافقهم الذين بايعوه على ذلك وبعث بكتاب به الى ابن اباض وابن صفار فلم يوافقوه وقال ابن اباض ان الناس الآخرين ليسوا مشركين وانما هم كفار بالنعم والاحكام ولا يحل لنا إلا دماؤهم وما سوى ذلك من اموالهم فهو علينا حرام . وقال ابن صفار لابن اباض يرى الله منك فقد قصرت وبرىء الله من ابن الأزرق فقد خلا فرد عليه ابن اباض بل الله قد يرى منك فتفرق الزعيان عن بعضها كل مع جماعته ، وصار لكل منهم مذهب ^(١) .

ثم اخذ ابن الأزرق ينشط وتجمع حوله نحو ثلاثمائة فاستولوا على الاهواز واقاموا فيها حكومة ثم اخذوا يحاولون بسط سلطانهم على البصرة وغيرها . وظهروا عداؤهم لابن الزبير الذي اخذت دعوته تنتشر في العراق ولأمويين على السواء . وصار خليفتهم يرى قتال كل من لا يندمج في حركته ويدخل في بيعته وسلطانته مشركاً او مرتدّاً ويوجب قتاله ويستحل دمه وعرضه وماله ويقتل نساءه واطفاله وصار يمتحن الناس على ذلك .

وما رواد الطبري من ذلك ان الحوارج الازارقة شنوا الغارة على اهل المدائن فقتلوا مولدان والنساء والرجال وبقروا الجبال ثم اقبلوا الى ساباط فوضعوا اسيايفهم في الناس فقتلوا أم ولد لربيعة بن ناجذ . وبنانة ابنة ابي يزيد الأزدي وكانت قرأت القرآن فلما غشوها بالسيف قالت وبحكم هل سمعتم بأن الرجال تقتلون النساء وبحكم تقتلون من لا ينسط اليكم يداً ولا يريد بكم ضرراً ولا يملك لنفسه نفعا قال بعضهم اقتلوا وقال آخر لو تركتموها فقال له بعضهم اعجبك جمالها يا عدو الله قد كفرت واقتنت ثم حملوا عليها فقتلوا . ووجدوا

(١) ٤٣٩-٤٤٠ ، وابن الاثير ج ٤ ص ٦٤ وبعدها .

شخصاً عند الحرارة ومعها ابنته فقتلوا ثم قتلوه ^(١) . فأتاه هذا أهل منطقة البصرة وحفرهم على مكافحته ، وكانت وقائع عديدة بين هؤلاء وهؤلاء اقتتل الطرفان فيها بشدة وانهمز أهل البصرة أكثر من مرة من أمام الخوارج .

وقتل ابن الازرق في بعض المعارك فبايع أتباعه عبد الله بن الماخوز بالإمامة . واستمر هذا على خطة سلفه ورأيه واستمرت المصالحة بينه وبين أهل البصرة بنفس الشدة .

وقتل عبد الله في إحدى الجولات فبايعوا أخاه عبيد الله واستمروا في المصالحة بكل شدة وعنف بما افزع أهل البصرة وهالهم فلجأوا إلى المهلب بن أبي صفرة الذي كان والياً على خراسان في زمن معاوية ثم في زمن ابنه يزيد وانسحب إلى البصرة بعد موت يزيد ليقيم بين قومه فيها . وكان من رجالات العرب المحدثين أقداماً وحزماً ودهاء وشجاعة وبصيرة في الحرب وبين نغية .

وقد ذكرنا ما كان منه من ذلك في نبذة الحركات والفتوح في خراسان وما وراءها . وطلبوا منه أن يتولى قيادة قتال الازارقة فاشترط عليهم أن يكون له حكم ما غلب عليه من بيت المال ما يحتاج إليه وأن ينتخب من الفرسان والرجال ما يريد فوافقوه وكتبوا له بذلك وأرسلوا وفداً إلى ابن الزبير فآخذوا موافقته أيضاً وحينئذ أخذ يشبك مع الخوارج في صراع مرير مديد حتى لقد دعر منه الخوارج على شدة صولتهم وضراوتهم واستبشر الناس حتى قال قائلهم :

كربوا ودولبوا وحيث شئتم فاذهبوا
قد أمر المهلب

ومع ذلك فقد صمد الخوارج له وكانوا يتساجلون معه فيكون يوم له ويوم لهم . وكان يجري في أثناء ذلك بين الفريقين محاورات يندد فيها بعضهم ببعض ويصمون بعضهم بعضاً بالفسق والكفر . وكان عدد الفريقين يصل إلى الآلاف وضحاياهم تعد بالآلاف مما فيه

(١) هذه امثلة اخرى تضاف الى الامثلة التي اوردناها قبل والتي تشير بالغ الدهشة والاشمزاز ان

دلالة على كل حال على شدة ضراوة القتال المتقابل . وقد سجل المهلب عليهم نصراً قوياً وكتب بذلك كتاباً الى والي ابن الزبير بالبصرة يصف فيه له ما كان من سير القتال وتشريد الأزارقة في ارض الاهواز بعد قتل مقتلة كبيرة منهم . غير ان هذا النصر لم يكن حاسماً حيث تجمعوا بعد مدة وبايعوا الزبير بن الماحوز بديلاً من اخيه عبد الله الذي قتل في المعركة وصاروا الى بلاد فارس فتصدى لهم واليها وتمكن من هزيمتهم فصاروا الى اصطخر فتصدى لهم واليها كذلك وهزمهم فصاروا الى أصبهان وكرمان . ثم عادوا ثانية الى ناحية البصرة . وكان ابن الزبير قد عين المهلب والياً على الموصل والجزيرة ليكون بين العراق والشام وعين أخاه مصعباً والياً للعراق فتصدى هذا لهم وصالوهم . وقتل امامهم الزبير فبايعوا قطري بن فجاءة^(١) الذي كان من أشد زعماء الأزارقة إقداماً وشدة وفصاحة وتأثيراً^(٢) والذي

(١) الفجاءة اسم امه وهو بطن تميم من بني شيبان

(٢) من الشعر المأثور عن قطري ويتمثل فيه بأسه وفصاحته :

١- أقول لها وقد طارت شعاعاً	من الأبطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لن تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز	فيطوى عن أخي الخنع البراع
سبيل الموت غاية كل حي	فداعية لاهل الارض داع
ومن لا يعتبط بسأم ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير من حياة	إذا ما عد من سقط المتاع

٢- لا يركن احد الى الاحجام	يوم الوغى متخوفاً للحام
فلقد أراني للرماح دريئة	من عن يميني مرة وأمامي
حتى خضبت بما تحدر من دمي	اكفاف سرجي او عنان الجامي
متعرضاً للموت اضرب معلماً	شاهر الحروب شهر الاعلام
ادعوا الكماة الى النزال ولا ارى	نجر الكريم على التنا بجمام
ثم انصرفت وقد اصبحت ولم اصب	جذع البصيرة قارح الاقدام

٣- لعمرك إني في الحياة لأاهد	وفي العيش ما لم ألق أم حكيم
------------------------------	-----------------------------

استمرت امامته و قيادته ومصاولاته بضع سنين كان فيها للخوارج صولات شديدة لقي الناس والدولة منها عنتاً شديداً لمدة طويلة .

وكل هذا بينما كان العراق يوج بالحركات الاخرى من حركة ابن الزبير الى حركة الشيعة الذين تحركوا لاختذ ثار الحسين الى حركة المختار بن أبي عبيد القفي الى حركة الحملات الاموية التي قاد اولها عبيد الله بن زياد واخراها عبد الملك بن مروان على ماسوف يأتي شرحه في نبذ اخرى . فلما تمكن عبد الملك من الانتصار على مصعب بن الزبير وقتله وتوطيد سلطانه على العراق في سنة ٧٢ هـ جد في نضال الخوارج الازارقة الذين عادوا الى انحاء البصرة بعد المصاولات التي جرت بينهم وبين بلاد فارس وكرمان واصطخر على ما ذكرناه قبل قليل فأمر أخاه بشر الذي كان والياً على العراق بالجد بأمرهم وامر هذا والي البصرة بذلك فأرسل

من الحفرات البيض لم ير مثلها	شفاء لذي بث ولا لسقيم
لعمرك إني يوم الطم وجهها	على نائبات الدهر جد لثيم
ولو شهدتني يوم دولاب ابصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت عليها بكر بن وائل	وعجنا صدور الحيل نحو نعيم
وكان لعبد القيس اول جدها	واخلافها من يحصب وسلم
وظلت شيوخ الازد في حومة الوغى تعوم	وظلنا في الجلال نعوم
فلم أر يوماً كان اكثر مقعماً	يمسح دماً من فائظ وكليم
وضاربة خدأ كريماً على فتى	أغر نجيب الامهات حكريم
اصيب بدولاب ولم تك موطناً	له ارض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا	تبيح من الكفار كل حريم
رات فتية باعوا الاله نفوسهم	بجنات عدن عنده و نعيم

٤- الاياها الباغي البراز تقر بن
فما في تساق الموت في الحرب سبة
اسافك بالموت الزعاف المتشبا
على شاريه قاسقي منه واشترنا

٥- هناك خطبة طويلة بليغة معزوفة وردت في العقد الفريد وفي البيان والتبيين، وهي في ذم الدنيا والدعوة الى الله والجهاد وحساب الآخرة . وقد قال الجاحظ ان الناس يروونها لاميير المؤمنين عبي بن ابي طالب واني رأيتها في كتاب الموفق للمزباني مروية له وهي بكلامه اشبه . وليس يبعد عندي ان يكون قطري قد خطب بها بعد ان اخذها من اصحابه وانصاره وقد لقي قطري اكثرهم . ولذلك لم نوردناها .
انظر ادب الخوارج لسير القباوي ص ٥٦ - ٧٤

حملة مع أخيه فهزمت فأرسل ثانية فهزمت فكتب عبد الملك إليه يندد به ويقول كيف تبعت اعرابياً مثل أخيك لقتال الازارقة وتدع المهب الى جنبك وهو الميمون النقية الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسي لها ابنها وابن ابنائها . ويأمره بايكال حربيهم اليه وبأن لا يفعل شيئاً إلا برأيه ومشورته وأمر أخاه بشراً بمد المهب بما يحتاج اليه من من مال ورجال . فعادت المصاولات لتشتد بينهم .

ومن طريف ما يرويه الطبري محاورة جرت بين الخوارج والجيش الذي يقاتلهم حيث بلغ الخوارج قبل الجيش ان مصعباً بن الزبير قتل فنادوا خصومهم وسألوه ما قولكم في مصعب فقالوا لهم امام هدى قالوا فهو وليكم في الدنيا والآخرة وأنتم اولياؤه احياء وامواتاً قالوا نعم فقالوا ما قولكم في عبد الملك بن مروان قالوا ذلك ابن الثعين نحن الى الله براء منه وهو احل دماً منكم عندنا فقالوا فأنتم منه براء في الدنيا والآخرة قالوا نعم فقالوا لهم إن امامكم مصعباً قد قتله عبد الملك ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك امامكم وأنتم الآن تتبرأون منه وتلعنون أباه قالوا كذبتم يا أعداء الله فلما كان الغد تبين لهم قتل مصعب واخذ المهب من الجيش البيعة لعبد الملك فأتاهم الخوارج فسألوه عن قولهم في مصعب فكرهوا أن يكذبوا أنفسهم فسألوه عن قولهم في عبد الملك فقالوا انه امامنا وخليفتنا فقالوا لهم يا أعداء الله تتبرأون منه بالامس وتتولونه اليوم فقالوا لهم بل أنتم أعداء الله رضيتم بذلك اذا كان ولي امرنا ونرضى بهذا اذا صار ولي امرنا ^(١) .

ولقد استطاع الازارقة بقيادة قطري أن يصمدوا هذه المرة بضع سنين امام المهب . ومات بشر بن مروان فعين عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي مكانه وامره بتعصيد المهب والاهتمام لحسم حركة الخوارج . فما أن وصل العراق حتى باشر تنفيذ الامر . ولقد كان قدومه اولاً الى الكوفة سنة ٧٥ فدعا الناس فور وصوله الى الاجتماع وصعد المنبر وكان

(١) ج ٥ ص ١٥-١٦ والسياق يفيد ان المحاورة جرت والمهب قائد الناس مع ان عبد الملك هو الذي عينه وكان ذلك بعد مقتل مصعب فان كان للمحاورة اصل فتكون في مرحلة سابقة لهذه المرحلة وحينما كان قتال الخوارج يجري بأمراف مصعب بن الزبير . والله اعلم . وفي الطبري محاورات كثيرة كانت تجري اثناء القتال بين بعض الخوارج وافراد الجند الذين كانوا يقاتلونهم مائة هذه . ومن المستبعد ان يكون كل ذلك مصنوعاً واحتمال صحته اجمالاً قوي .

معتماً بعمامة خبز حمراء ومتلثماً ببعض عمامته . فلما اجتمع الناس في المسجد الجامع ظنوه
أحد قواد الخوارج فمروا به فكشف عن وجهه ثم خطب خطبته الشيرة التي ترجح أن لها
أصلاً لا شهرها وروايتها في معظم الكتب القديمة . وقد بدأها قائلاً :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ثم قال أما والله إني لأحمل الشر محمله . واخذه بنعله . واجز به مثله . وإني لأرى
روؤساً قد أينعت وحن قطافها . وإني لأنظر إلى الدماء بين العمام والحبى وأنشد راجزاً :

هذا اوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براغي ابل ولا غم ولا يجزاز على ظهر وضم^(١)
قد لفها الليل بعصلي أروع خراج من الدوي
مهاجر ليس بأعراي
ليس أوان يكره الخلاط جاءت به والقلص الاعلاط
، نهوي هوي سابق الغطاط

إني والله يا اهل العراق ما انمز كتغياز التين ولا يقعقع لي بالشنان ، ولقد فررت عن
ذكاه وجريت إلى الغاية القصوى . إن امير المؤمنين عبد الملك نثر كنانته ثم عجم عيدانها
فوجدني أمرها عوداً وأصلها مكسراً فوجئني اليكم فانكم طالما اوضعتم في الفتن وسننتم سنن
البغي . أما والله لألحونكم لحو العود . ولأعصبنكم عصب السلمة . ولا ضربنكم ضرب
غرائب الابل . إني والله لا أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت^(٢) . فأباي وهذه الجماعات .

(١) فسر الطبري الذي نقل عنه : ابن جلا الذي يجلو الصبح أي الفجر والثنايا ما صغر من
الجال . وزيم الحرب . والوضم ما بقي به اللحم من الارض .

(٢) فسر الطبري العصلي بالشديد والدوي الارض الفضاء التي تسمع بها اصوات سير الابل
والاعلاط والقلص من اماء وصفات الابل والشنان التربة اليابسة يدق عليها للتبنيه وعجم عيدانها تنقدها
واستعرضها واوضعتم سارعتنم لاعصبنكم عصب السلمة كما تقطع شجرة العضاه ولا اخلن
الافريت لا اقدر على عمل شيء الا عملته باقوى ما يمكن .

وقيل وما يقول - فيم أنتم وذاك . والله لنستقيمن على سبل الحق او لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده . من وجدت بعد ثلاثة من بعث المهلب سفكت دمه وانتهت ماله ^(١) .

ومما يروى انه امر الكاتب فقرأ كتاب عبد الملك بتوليته وكان يبدأ بالسلام فلم يقل احد (وعليكم السلام) فأمر الكاتب بالتوقف ثم قال يا عبيد العصا اسلم عليكم امير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام . هذا أدب ابن نهية ^(٢) . اما والله لاؤدبنكم غير هذا الادب . ثم امر الكاتب بالتلاوة من جديد فلم يبق احد الا قال وعلى امير المؤمنين السلام .

ومما يروي ان شخصاً قال للحجاج انا في هذا البعث وانا شيخ كبير وهذا ابني اشب مني فتوسم بالرجل ثم قال له الست انت الذي غزا امير المؤمنين عثمان قال بلى - وكان من الجماعات التي ذهبت الى المدينة نائمة على عثمان واسمه عمير بن ضابىء التميمي - قال وما حملك على ذلك قال كان حبس ابني وهو شيخ كبير . فقال او ليس انت الذي يقول :

هممت ولم افعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلاله

اني لأحسب في قتلك - ح المصيرين . ثم اليه يا حربي فاضرب عنقه . ثم كرر انذاره بأنه من بقي بعد ثلاثة ايام من بعث المهلب ولم يلتحق به فسوف يقتل فخرج الناس وازدحموا على الجسر وخرج العرفاء الى المهلب ليأخذوا منه كتباً بموافاة افراد البعث حتى لقد خرج في ليلة واحدة اربعة آلاف . وحتى قال المهلب : اليوم قدم العراق رجل ذكر وحتى قال احد الشعراء :

اقول لابراهيم لما لقيه	ارى الامر امسى مهلكا متصعبا
تجهز فاما انت تزور ابن ضابىء	عميراً وإما ان تزور المهلبا
هما خططنا خسف نجاؤك منهما	ركوبك حولياً من البلع اشبا
فاضحى ولو كانت خراسان دونه	رأها مكاث السوق او هو اقربا

(١) ويروي الطبري نصاً آخر او زيادات اخرى على الخطبة . فاكثفينا بما اوودناه .

(٢) الارجح ان المقصود هو عبيد الله بن زياد .

والأفما الحجاج مغمد سيفه . مدى الدهر حتى يترك الطفل اشيا^(١)

ثم انتقل الحجاج إلى البصرة فخطب بالناس خطبة ممائلة وانذر المتخلفين عن المهلب بمثل ما انذر اهل الكوفة . واتي برجل متخلف فقال ان بي فتقاً وقد رآه بشر فعذرني وهذا عطائي مردود في بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففرغ اهل البصرة كذلك وتزاحموا على الخروج والالتحاق بالمهلب^(٢) .

ونستطرد الى ذكر حادث تمرد ضد الحجاج في البصرة وقع بعد قدومه اليها بقليل . فقد كان ابن الزبير قد زاد في عطاء الناس مئة مئة . فقال الحجاج في خطبة له ان ابن الزبير قد زاد ما زاده نفاقاً وإني معيد العطاء إلى ما كان عليه قبل فوقف احد الزعماء عبد الله ابن الجارود فرد على قول الحجاج فرد عليه الحجاج متوعداً منذراً . ووقف زعيم آخر فأعلن السمع والطاعة .

غير ان وجوه الناس جاؤوا إلى ابن الجارود وصوبوا رأيه وقالوا له هلم نبايعك على اخراجه والكتابة الى عبد الملك لارسال غيره فان ابى خلعهنا ايضاً . ولن يأبى لانه هائب ما دام الخوارج ناشطين واعطوه الموائيق على ذلك . ثم تجمعوا وخرجوا يريدون ارغام الحجاج بالقوة على الذهاب مع اختلافهم على القتال . ولم يكن وقت خروجهم حول الحجاج قوة ما تمنعه فوصل الامر بهم الى نهب فسطاطه ومتاعه ثم اكتفوا بذلك وانصرفوا بسبب خلافهم على قتاله . واختلف اخصاء الحجاج في الامر فاقترح بعضهم اخذ امان للحجاج وخروجه بالسلام غير أن زعيماً آخر رفض ذلك وذكر الحجاج بما صار له من منزلة وكرامة في نظر امير المؤمنين وسيقضي فراره عليها ابدياً وستعود العراق ثانية الى الفتن والفوضى وقال له أرى ان نمشي بسيفنا معك فنقاتل حتى نظفر او نموت نأخذ بهذا الرأي واغتنم

(١) يروي الطبري قول المهلب هذا في تزاحم اهل البصرة على الخروج والالتحاق بالمهلب ايضاً . ومن الممكن ان يكون ذلك متكرراً . والمتبادر ان الرواية الثانية اوجه لان المهلب انما كان يقاتل في جبهة البصرة .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٧١-٧٢ .

فرصة كف الناس عن قتاله فأخذ يجمع الناس حتى لم يصبح الصباح الا وكان حوله ستة آلاف .
 وندم ابن الجارود واصحابه على كفهم ولكن فرصتهم قد فانت ولم يبق مناص من القتال
 فاشتبك الطرفان في قتال عنيف بضع ساعات وكادت الدائرة تدور على الحجاج لولا أن
 اصاب ابن الجارود سهم أراده فأدى ذلك إلى اضطراب اصحابه وهزيمتهم . وبنح الحجاج إلى
 عدم توسيع الامر لان حركة الخوارج كانت مشددة . وهو في حاجة الى الرجال والقلوب
 فأمر مناديا ينادي بالامان وبعدم تتبع المنهزمين فثاب الناس . واحتز رأس ابن الجارود
 وثمانية عشر من اصحابه وارسل الرؤوس إلى المهلب لينصبها ويراه الخوارج وغيرهم ويتأسوا .

ولقد كان عبد الله بن انس بن مالك من جملة المنضمين إلى ابن الجارود والقتلى . وعلم
 الحجاج أن اياه رضي الله عنه كان محبداً انضمه فصادر امواله في البصرة . وجاء اليه
 فخطبه بشدة وقال له فيما قال شيخ ضلالة وجوال فتن . مرة مع ابي تراب ومرة مع ابن
 الزبير ومرة مع ابن الجارود فلأجردك جرد القضيبي . ولأعصبك عصب السلة ولا قلعتك
 قلع الصمغة . فكتب انس الى عبد الملك يشكو معاملة الحجاج له فكتب عبد الملك الى
 الحجاج يؤنبه ويأمره بالاعتذار اليه واسترضائه فصدع بما أمر على ما ذكرناه في سيرة
 عبد الملك (١) .

وإذا لاحظنا ان هذه الحركة قامت ولم يمض على وجود الحجاج في العراق الا مدة قصيرة
 ظهر ان حافزها إنما كان ذهنية اهل العراق اكثر من اي شيء آخر وهي ذهنية وصفها زياد
 وابنه على ما ذكرناه قبل ثم وصفها الحجاج في مناسبة تمرد عبد الرحمن بن الاشعث على ما
 سوف يأتي شرحه في نبذة خاصة اكثر من اي شيء آخر .

ولا يبرر الحركة انضمام احد اصحاب رسول الله اليها فهو بشر قد يخطئ وقد يصيب وقد
 يتأثر بروح البيئة التي يعيش فيها . وموقف الحجاج منه مما اتسم بالغلظة فهو مستمد من
 الحق الذي اثارته هذه الحركة التي كادت تغرق العراق في الفتنة والفوضى كما هو المتبادر .

ولقد كان في حوض الفرات الجنوبي وفي انحاء البصرة جماعات من الزنج . فخرج منهم

(١) الطبري ذكر حركة ابن الجارود مقتضبا وابن الاثير ذكرها مفصلة ونحن لحصناها عن هذا
 الاخير انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٥-٤٨ وتاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٤٧-١٥٠ .

جماعة في اواخر ايام مصعب فضربهم والي البصرة ضربة شديدة. فلما قامت حركة ابن الجارود اغتتموا الفرصة فتحرروا بزعامة رجل اسمه رباح ويلقبونه بلقب شير زنجي وشير كلمة فارسية بمعنى الاسد فأخذوا يعيشون في الارض فساداً. فلما فرغ الحجاج من قتلة ابن الجارود ارسل اليهم جيشاً فضربهم بدوره ضربة حاصمة^(١).

ونعود إلى سياق المصاولة مع الخوارج فنقول انهم كانوا في الظرف الذي قدم فيه الحجاج إلى العراق مسيطرين على الاهواز وكرمان وما اليهما من الانحاء الجنوبية الموالية لمنطقة البصرة فاتخذ المهلب نيسابور مركزاً لقيادته ثم أخذت كتابه تشتبك مع كتابهم في معارك ضارية. وكان ابناء المهلب يزيد والمفضل وحبيب والمغيرة يقودون الكتاب لضمان صدق الجهاد وجده وهم في الوقت نفسه مثل أيهم ابطال مغاير. وصمد الخوارج مع ذلك برغم ما كان ينزل فيهم من ضربات ويتكبدونه من خسائر فادحة واستمر النضال نحو ثمانية عشر شهراً. وكان لقيادة قطري وصلواته وبسالته أثر كبير في هذا الصمود. وسجلت المرأة العربية في هذه الحركة وجودها بقوة حيث روي اسم ام حكيم في عداد المقاتلين مع قطري وفي الشعر المروي عن قطري. وقد روي عنها صاحب الأغاني أنها كانت من اشجع الناس واجملهم وجهاً واحسنهم بدينهم نسكاً. وانها كانت تحمل على جند الدولة وهي ترجز:

احمل رأساً قد سئمت حملة وقد ملئت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله

وكان الخوارج يفدون بها بالآباء والامهات وانه لم ير مثلها قبلها وبعدها^(٢).

وبما يرويه المسعودي وفيه دلالة على قوة تأثير دعاية الخوارج وفكرتهم انه كان شخص اسمه سيرة بن الجعد اتخذ الحجاج سميراً له وندياً بعد ان اعجبه عقله وادبه. وكان يرى رأي

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٥٠ .

(٢) ادب الخوارج ص ٦٥ وليس في سياق الكلام عنها ما يفيد بيان صلتها بقطري مع انه ذكره في شعره بأسلوب قد يفيد انها وثيقة الصلة به ، وهو الشعر الذي رويناه سابقاً .

الحوارج . فأرسل إليه قطري هذه الايات :

لستان ما بين ابن جعد وبيننا	إذا نحن رحنا في الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب كلنا	صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الحز عند اميره	امير بتقوى ربه غير أمر
أبا الجعد ابن العلم والحلم والنهى	وميراث آباء كرام العناصر
ألم تر أن الموت لا شك نازل	ولا بد من بعث الألى في المقابر
حفاة عراة والتراب لديهم	فمن بين ذي ربح وآخر خاسر
فان الذي قد نلت يغني وإنما	حياتك في الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولاتك مغضياً	على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدي اليك شهادة	فانك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نخونا تلق الجهاد غنيمة	تفدك ابتغاءاً راجحاً غير خاسر
هي الغاية القصوى الرغيب ثوابها	إذا نال في الدنيا الغنى كل تاجر

فلما قرأ الايات بكى وركب فرسه واخذ سلاحه ولحق بقطري وترك للحجاج ايات قطري وتحتها هذه الايات التي تحتوي وصفاً قوياً لفكرة الحوارج وقوتهم وعبادتهم :

فمن مبلغ الحجاج ان سميره	قلى كل دين غير دين الحوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل رأيه	ملاعين تراكن قصد الخارج
فاقبلت نحواً بالله واثقاً	وما كربتي غير الاله بفارج
الى عصبة اما النهار فانهم	هم الاسد اسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فانهم	قيام بانواح النساء النواشج
ينادون للتحكيم تالله انهم	رأوا حكم عمرو كالرياح الهوائج
وحكم ابن قيس مثل ذاك فاعصموا	بجبل شديد المتن ليس بناهج ^(١)

ثم نشب بين الحوارج الازارقة نزاع أدى إلى انقسامهم . فقد قتل رجل منهم رجلاً .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٧٧-٧٨ .

فطلب اولياء القتل القصاص فأبى قطري وقال ان القاتل كان متأولاً . فلم يرضهم جوابه .
 وتردوا عليه وتابعهم آخرون . فأعلنوا خلع قطري . وبايعوا زعيماً اسمه عبد ربه الكبير .
 وظل جماعته ملتفين حول قطري معترفين بامامته . ونتيجة لذلك نشب قتال بين الفريقين
 ووقف المهلب موقف المتفرج^(١) . وخرج قطري نحو طبرستان . وانفرد عبد ربه الكبير
 فنهض اليه المهلب وجد في قتاله حتى تمكن من قتله وقتل معظم جماعته وتشريد باقيهم .
 ثم وجه الحجاج حملة من جند الشام الذي جاءه مدداً لتعقب قطري وجماعته فتعقبوه
 وشتتوا شمل جماعته وتردى هو عن فرسه في هوة فاندفع وراءه نفر من الجند فقتلوه واحتزوا
 رأسه^(٢) .

ومما يرويه البيهقي وفيه صورة طريقة ان قطري لما افترق عن عبد ربه الكبير واتجه نحو
 طبرستان استأذن اجهدها بالاجوء الى بلده وكانوا جرحى منهوكين فأذن لهم فلما برئوا ابادر قطري
 الى ممارسة مهمته كخليفة فعرض الاسلام او الجزية على الاجيذ واهل بلاده واراد ان يعتبرهم
 اعداء ويحاربهم اذا رفضوا فما كان من الاجيذ الا ان قال له انت الأم من في الارض .
 جئتني شريداً طريداً فأوبتكت ثم ترسل إلي بهذا . ثم رفض وتصدى لقتاله واخراجه فقاتله
 قطري وتمكن من التغلب عليه وتوطيد سلطانه على طبرستان . والتجأ الاجيذ الى عامل الري
 وادخله طبرستان من طريق مختصرة فقاتل قطري وقتله^(٣) .

ومن الجدير بالذكر ان الازارقة لم يبقوا وحدهم في الميدان . فبينما كان هؤلاء في الجبهة

(١) في هذا الخلاف الدموي يقول احدهم زيد بن جندب اسيفاً حزيناً وفيه عبر خالدة :

قل للمحلين قد قرت عيونكم	بفرقة القوم والبغضاء والهروب
كنا انا على دين ففرقنا	قرع الكلام وخلط الجد باللعب
ما كان اغنى رجلاً ضل سعيهم	عن الجدال واغناهم عن الخطب

ادب الخوارج ص ٥٣

(٢) نبذة حركة الازارقة ومناضلتهم مقتبسة من الطبري ج ٤ ص ٤٧٦-٤٨٣ و ٥٧٩-٥٨٦
 وج ٥ ص ١٥-٩، انظر أيضاً ابن الاثير ج ٤ ص ١٠٩ وبعدها .

(٣) ج ٢ ص ٢٧٦ .

الجنوبية الشرقية اي جبهة البصرة والاهواز يتصاولون مع المهلب تحت قيادة قطري ابن الفجاءة قام ابو فديك الحارجي من بني قيس فقتل نجدة العامري الحنفي الذي ذكرنا قبل خبر انسحابه الى اليمامة والذي روى يعقوبي انه سيطر على البحرين واليمامة وعمان وهجر وطوائف من ارض العارض خمس سنين وحل محله في القيادة والامامة . فسير عليه والي البصرة حملة بقيادة اخيه فهزمه ابو فديك واخذ انقال القائد وحرمه فأمر عبد الملك بارسال حملة قوية اخرى فيها المغيرة بن المهلب وغيره من الفرسان المشهورين فنفذ الامر وامكن بذلك قتل ابي فديك وستة آلاف من اصحابه وقمع حر كته واستنفذ انقال القائد وحرمه بعد جهد كبير ومعارك عديدة كان ابو فديك وجماسته يسجلون في بعضها نصراً على خصومهم ^(١) . وكان ذلك سنة ٧٢ و ٧٣ هـ .

ولم تكن حركة أبي فديك هي الوحيدة التي ظهرت على مسرح النضال من حركات الحوارج ابان احتدام المعركة مع الازارقة . فقد قام شخص عرف بالصلاح والفضل والصلاح والجلالة والاجتهاد اسمه عبد الله بن الحر التميمي في سنة ٦٨ هـ بحركة تنسم الى درجة كبيرة بسمة حركة الحوارج مع بعض الفوارق التي ينطوي فيها صورة جديدة .

ولقد كان ممن عاش في فتنة عثمان ثم الفتنة التي نشبت بين علي ومعاوية . وقد أثر عنه انه قال إن الله يعلم اني احب عثمان ولأنصرنه ميتاً . ثم خرج إلى الشام فكان مع معاوية وشهد حرب صفين فلما قتل علي قال لقومه في الكوفة ما اري احداً ينفعه اعتزاله . كننا بالشام فكان من معاوية كيت وكيت . فقالوا له وكان من علي كيت وكيت . فقال لهم إن مكنتنا الايام فأخلعوا عذرکم واملکوا امرکم .

فلما مات معاوية وهاج المسيح في فتنة ابن الزبير قال ما اري قريشاً تنصف فأين ابناؤ الجرائر فزوى اليه الناس حتى بلغوا سبعمائة فارس .

فلما مات يزيد بن معاوية وخرج عبيد الله بن زياد من العراق قال لاصحابه اذا شئتم غخرج إلى المدائن فخرجوا فصاروا لا يدعون مالا قدم من الجبل للسلطان إلا اخذوه باسم

(١) الطبري ج ٥ ص ٢٠ و ٣٤ و البغوي ج ٢ ص ٢٧٣ وابن الاثير ج ٤ ص ٧٨ - ٨٠ و ١٤٠ هـ .

أعطيتهم السابقة والآتية واعطوا الحامل براءة بما قبضوه منه . وكانوا لا يتعرضون لاحد من الاهالي تجاراً كانوا أم غير تجار .

وبقي أمرهم على هذه الحال حتى ظهر المختار بن ابي عبيد على مسرح العراق على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى وبلغه ما يصنع ابن الحر في السواد فأخذ امرأته وحبسها وأقسم ليقتلنه واصحابه وبلغ الخبر ابن الحر فدخل هو واصحابه الكوفة ليلاً وكسروا باب السجن واخرجوا المرأة وكل من كان في السجن من رجال ونساء . فبعث اليه المختار بعثاً فقاتله وهزمه وجعل يبعث بعالم المختار واصحابه . وأحرق المختار داره وانتهت ضيعة له . وعاون المختار في ذلك جماعة من همدان فسار هو الى ماء فانتهب ضياع همدان ثم أقبل إلى السواد فلم يدع مالا لهماذاني إلا اخذه . وكان يأتي المدائن فيمر بعالم مركز جوخي فيأخذ ما معهم من الاموال ثم يميل إلى الجبل .

فلم يزل كذلك حتى قتل المختار واستتب سلطان العراق لابن الزبير . فقال الناس لمصعب ابن الزبير الذي جاء نائباً عن اخيه ان ابن الحر قد شاق ابن زياد والمختار ولا تأمنه أن يشب بالسواد فاحتال عليه مصعب حتى اعتقله . غير انه استطاع أن يخرج من السجن ثم اعلن التمرد على مصعب فأقبل الناس عليه فقال إن هذا الامر لا يصلح الا بمثل خلفائكم الاربعة الماضين . وكل من بعدهم عاص مخالف . قوي الدنيا ضعيف الآخرة . فعلام يستحل حرمنا ونحن اصحاب النخيلة والقادسية وجلولاء ونهاوند . نلقى الاسنة بنحورنا والاسنة بجباهنا ثم لا يعرف حقنا وفضلنا فقاتلوا عن حريمكم فأبي الامر كان فلكم فيه الفضل . ثم اخذ يعيث في الارض فسير عليه مصعب بعثاً فهزمه ثم بعثاً ثانياً ثم ثالثاً فهزمها . وكان يبارز بعض القواد فيغلبهم وتكون الهزيمة نتيجة لذلك وأتى تكريت فهرب عاملها فاستولى عليها وجبى خراجها . فوجه اليه مصعب بعثاً رابعاً فهزمه ثم أتى كسكر فهرب عاملها فأخذ بيت مالها ثم أتى الى الكوفة فبعث مصعب اليه بعثاً جديداً فكثرت في أصحابه الجراح ولكنه ظل صامداً وجاء الى المدائن وتحصن فيها فبعث مصعب اليه بعثاً آخر فهزمه واقام في السواد يتنير ويحيي الحراح . وبداله أن يذهب الى الشام فينضم الى عبد الملك بن مروان ليتضامن معه على ابن الزبير . وسار في نفر من أصحابه اليه . فرحب به عبد الملك ثم وجهه الى الكوفة على ان يلحقه الجنود فلما بلغ الانبار أرسل إلى أصحابه ، وأتى خصومه الى عامل

ابن الزبير في الكوفة فجعلوه يرسل بعثاً جديداً . وكان هذه المرة في عدد قليل فقاتل البعث ساعة ثم حاول أن ينسحب فعبّر معبراً في نهر فوثب عليه بعضهم فسقط في النهر فكات في ذلك هلاكه . وقد احتز رأسه وارسل الى مصعب (١) .

وقد قام في هذه الاثناء حركتان تافهتان ولكنها مثلان صورتين من صور الحركة . احدهما خروج جماعة في ناحية الجزيرة تهتف بشعار الخوارج بقيادة فضالة بن سيار التميمي الشيباني في سنة ٧٦ هـ فتصدى لهم جماعة من عنزة فقتلواهم وأتوا برؤوسهم الى عبد الملك (٢) .

وثانيتهما خروج جماعة بالخيف من منى بقيادة شخص اسمه بدر . وقد هتفوا بذلك الشعار وسالوا سيوفهم وهاجموا الناس فمال الناس عليهم وقتلواهم وذلك سنة ٧٠ هـ (٣) .

ثم كانت حركة الصفرية القوية في الانحاء الشمالية اي فيما يلي الجزيرة والموصل ممتداً الى الكوفة . فقد اجتمع فريق من الخوارج الصفرية في سنة ٧٦ على زعيم لهم اسمه صالح بن مسرح الذي كان من مذهبه تولي أبي بكر وعمر والتبرؤ من عثمان وعلي وخلفاء بني امية وقتلهم وقتل اوليائهم . وكان ينعتهم بأئمة الظلم والضلال فقال لهم ما ادري ما تنتظرون وحتى متى انتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا . ولا تزداد هذه الولاة على الناس الا غلواً وعتواً وتباعداً عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا الى اخوانكم الذين يريدون من انكار الباطل والدعاء الى الحق مثل الذي تريدون فياتونكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون وفي أي وقت ان خرجنا نحن خارجون . فتراسلوا وتلاقوا وانضم اليهم فيمن انضم شبيب بن يزيد الشيباني الذي كان صنواً لقطري بن الفجاءة في الشخصية والقوة والاقدام والبسالة وبايعوا صالحاً بالإمامة ثم خرجوا . وكان من رأيه أن يقاتل ولاة الامويين وعملهم ومن تصدى لقتالهم من الناس وان يدعواهم الى الحق قبل القتال وان لا يقاتل الا من اصر على موقف العداة منهم . واذا اسروا احداً ممن قاتلهم كانوا باخيار بين قتله والمن عليه . وكان يقول انما خرجتم غضباً لله حيث انتهكت محارمه . وعصي

(١) تاريخ الطبري ج؛ ص ٥٨٦-٥٩٥ .

(٢) ج ٥ ص ٥٧ .

(٣) ج ٤ ص ٦٠٣ .

في الارض وسفكت الدماء بغير حلقها . واخذت الاموال بغير حقها . فلا تعملوا ما تعيونه على غيركم . وفي هذا صورة من صورة مذاهب الخوارج .

واول ما كان منهم غارة على قافلة لمحمد بن مروان امير الجزيرة وارمينية وكان ذلك في ناحية المدائن . ولم يكن عددهم يبلغ المئة حين بدأوا نشاطهم فقصدهم محمد واخذ يتصاول معهم . وكانوا يقاتلون بضراوة وبسالة . وقد هزموا حملات عديدة سيرها عليهم محمد يزيد عددها اضعافاً عن عددهم . وكان الواحد منهم يصل على العشرين والثلاثين ويزمهم .

وبادر الحجاج إلى مساعدة محمد فسير نجدة من ثلاثة آلاف من الكوفة فصاروا بين نارين وامكن بذلك ازالة ضربة شديدة عليهم . وكان صالح في جملة من قتل .

ومع ذلك فانهم لم يسكتوا حيث تجمعت قلوبهم وبابعدوا شيباً الذي استطاع ان يهزم الحلة التي ضربتهم ، وكان بطاشاً قاسياً فأوقع الرعب في اهل المنطقة ^(١) . وكان يلقي وهو في قلة العدد الكبير فيهاجمهم ويصل فيهم ويزمهم ، ثم اتجه من ادنى الموصل نحو الكوفة فصار النضال بينه وبين الحجاج .

وسير الحجاج عليه حملة بعد حملة وكانت الحملات بأعداد تفوق اعداد شيب اضعافاً مضاعفة فكان يهزمها رغم ما يبذله قوادها من جهود ويتلقونه من الحجاج من مدد وتشجيع وتحريض وتنديد ، وكان يقسم اصحابه في كتائب قليلة العدد وبوجهها في انحاء عديدة فتعيب في مناطق الموصل والكوفة والمدائن وتثير في اهلها الذعر .

وقد اقتحم المدائن فنهبا ، وقتل من تصدى له من حاميتها ، ثم نهياً لاقتحام الكوفة ، فبادر الحجاج بنفسه اليها من البصرة ، ولكن ذلك لم يجعل شيباً يضرب عن تنفيذ عزمته . فقد دخل المدينة قبل وصول الحجاج وبلغ قصر الحجاج وضرب بابه بعمود حتى كاد يهدمه

(١) مما رواه ابن عبد ربه ان شيباً كان يصيح في جنابات الجيش فلا يلوي احد على احد (انظر الفريديج ص ٦٥) وقد وصف شاعر صيحته في هذا البيت :

ان صاح يوماً حسب الصخر منحدرأ والريح عاصفة والموج يلتطم

ادب الخوارج ص ٤٨

ووقف عند المصطبة مندداً بالحجاج:

عبد دعي من ثمود اصله لا بل يقال ابو ابيهم يقدم^(١)

ثم اقتحم المسجد الاعظم وقتل من وجده فيه ، وخرج من المدينة كما دخلها بدون حرج وكانت معه امرأته غزالة التي كانت تشترك في الجهاد والصال بقوة واقدام وضرأوة عجيبة^(٢) .

وزادت هذه الجرأة غيظ الحجاج وجعلته يضاعف جهوده وحملاته لمطاردة شبيب وكتابه التي كانت تنمو بما ينضم اليها من الحاقدين والناقمين مستمرة على صياهم ، وكانت شبيب يدعو الناس الى مبايعته فيضطرون الذين هم في منطقة نشاطه الى الاجابة ليأمنوا من بطشه .

ولقد كان عبد الرحمن بن الاسعث من جملة من سيره الحجاج على رأس حملة قوية فلم يستطع ان يفعل شيئاً على ما كان معروفاً عنه من شجاعة واقدام ، فعزله وعين قائداً آخر فلم يغن شيئاً . واستمر النضال عنيفاً متلاحقاً فيه كثير من العنت والتوتر والحقد المتبادل على ما يشرحه ابن الاثير خاصة شرحاً مثيراً حقاً .

وهدد الحجاج اهل الكوفة وقال لهم لتقاتلن عن بلادكم وعن فيكم او لابعثن الى قوم

(١) قيل في تفسير البيت ان اصل تكيف من ثمود وان يقدم اسم الرجل الذي عبد الاحسانم في الجزيرة لأول مرة .

(٢) مما رواه المسعودي في مروج الذهب (ج ٣ من ٧٧-٧٨) ان غزالة نذرت ان تصلي في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيها سورتي البقرة وآل عمران فوفت نذرها . وعلى كل حال فوقف غزالة يؤكد كما تتناقل في سياق ذكر ام حكيم وجود المرأة العربية في هذا الميدان الخطير من الحياة الاسلامية في صدر الاسلام كما كانت في غيره من الميادين .

ولقد اثر عن عمران بن حطان احد شعراء الخوارج بيتان يعبر فيها الحجاج حيناً اقتحم شبيب وغزالة الكوفة وهما :

ربذاً نجفل من صغير الصافر
بل كان قلبك في جناحي طائر

اسد علي وفي الحروب نعامه
هلا برزت الى غزالة في الوغى

ادب الخوارج ص ٧٦

هم اطوع واسمع واصبر على اللأواء والغیظ منكم فيقاتلون عدوكم وياكلون فيكم . ولكن ذلك لم یغن ازاء ضراوة شیب وكتائبه وصولاتهم . فكتب الى عبد الملك یطلب منه نجدة من جند الشام فلبى طلبه . وتحمس حينئذ اهل الكوفة فجدوا اكثر من ذي قبل وحمي الوطیس .

واشد شیب من جانبه في صولاته وبطشه حتى لقد اقتحم الكوفة للمرة الثانية . وكان الحجاج فيها فخرج بنفسه وهتف بالجند الشامي يا اهل الشام انتم اهل السمع والصبر والیقین لا یغلبن باطل هؤلاء الارجاس حقكم . غصوا الابصار . واجثوا على الركب وخذوا علیهم السكك ، ووقف في وسطهم یشجعهم ویبتف بهم مثل هتافه السابق مرة بعد مرة ودارت معركة ضارية في الكوفة بین الجند الشامي وشیب وجماعته فدارت الدائرة فیها هذه المرة على الخوارج وقتل منهم مقتلة كبيرة كانت غزاة في جملة القتلى وانهمزم الباقون بما فیهم شیب فأرسل الحجاج حملاته لتعقبهم ومطاردتهم ، وفي اثناء المطاردة اراد شیب وبعض اصحابه قطع جسر على نهر فنفرت الفرس من تحته فوقع في الماء فغرق فوات . وقد فت ذلك من عضد جماعته ويسر على كتائب الحجاج تمزيقهم شذر مذر . وكان ذلك ٧٨ هـ (١) .

ولقد روى الطبري خبر حركة تتسم بسمة حركات الخوارج وتمت بصلة ما الى حركة شیب ظهرت اثناء هذه الحركة وقمعت قبل قمع حركة شیب نهائياً أي في سنة ٧٧ هـ وفيها صورة جديدة من صور حركة الخوارج وفكرتها وسيرها . وهي الحركة التي قادها مطرف بن المغيرة بن شعبة .

والسياق یذكر أن مطرفاً واخويه عروة وحزمة جاؤوا إلى الحجاج حينما عینه عبد الملك والياً للعراق في سنة ٧٥ هـ فقابلهم مقابلة حسنة وشعر بأنهم مخلصون له . وكانوا صاحاء نبلاء واثراً بأنفسهم سوى شرف أبیهم ومنزلتهم في قومهم فاستعمل عروة على الكوفة ومطرفاً على المدائن وحزمة على همدان . فساروا على أحسن سيرة واقومها واضبطها .

وفي هذه الاثناء اخذ شیب یعیث في نواحي المدائن فطلب مطرف من الحجاج مدداً

(١) نبذة صالح بن مسرح مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٤٩-١٠٢ وابن الاثير ج ٤ ص ١٥١-١٦٨ .

لمناضلته . ورأى من جهة ثانية أن يتصل بشيبي وجماعته وينصحهم قبل الاقدام على قتالهم فطلب من شبيب ارسال وفد من صلحاء اصحابه لينظر فيما يدعو اليه فطلب شبيب رهناً من رجاله فارسل اليه ما طلبه . وجاء وفد شبيب فسألهم ماذا يريدون فقال أحدهم السلام على من خاف مقام ربه وعرف الهدى واهله . فقال مطرق أجل سلم الله عليهم ثم قال لهم قصوا علي امركم فقالوا : (إن الذي ندعو اليه هو كتاب الله وسنة رسوله . وإن الذي نقمنا على قومنا به الاستنثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية) . فقال لهم مطرف ما دعوتكم إلا الى حق ولا نقمتم إلا جوراً ظاهراً وأنا لكم على هذا متابع فتابعوني إلى ما أدعوكم اليه ليجتمع امري وامركم وتكون يدي وأيديكم واحدة . فقالوا له اذكر ما تريد فان يكن ما تدعونا اليه حقاً اجبتك . فقال إني ادعوكم إلى قتال هؤلاء الظلمة العاصين على إحداثهم الذي احدثوا وان ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وان يكون الامر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضون لانفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب . فان العرب إذا علمت إنما يراى بالشورى الرضى من قريش (أي ان يكون الامام من يرضون من قريش) رضوا وكثر تبعكم منهم واعوانكم على عدوهم ، فذهبوا إلى شبيب واخبروه بما جرى فأرسلهم ثانية اليه ليقولوا له انه قد مضت السنة بعد الرسول على أن يختار المسلمون منهم خيرهم وارشدهم وقد اخترنا لانفسنا ارضانا واشدنا اضطلاعاً لما حل فمالم يغير ويبدل فهو ولي امرنا وانالا نرى قريباً أحق بهذا الامر من غيرها ولو كان ذلك بسبب قريبها من رسول الله لكان الاولى بأسلافنا الصالحين أن يتولوا اسرة النبي وليطلبوا منه ان يبايع شيئاً فيكون له ما لهم وعليه ما عليهم والا فيكون بعض من يعادونهم ويقاتلونهم من المشركين . فلما بلغوه ذلك طلب لهم مهلة حتى ينظر في الامر .

ثم جمع اصحابه وثقائه واستشارهم وقال لهم اني ما زلت لأعمال هؤلاء الظلمة (يعني الامويين وولائهم) كارهاً منكراً فلما مر هؤلاء ظننت اني اجد فيهم عوناً عليهم . ولو تابعوني خلعت عبد الملك والحجاج وسرت معهم اجاهدكم ثم ندعوا الى الرضى من قريش .

فقال له احدهم انهم لن يتابعوك وقد اختاروا امامهم ، والاولى لك أن تخفي هذا الذي في نفسك ، فوثب مولى له اسمه ا زياد فقال والله لن يخفى مما قلت على الحجاج كلمة واحدة ويزادن عليها عشر وليلتمنك . هربت الى السحاب حتى يهلك فالنجاه النجاه ولن يسيئ النساء حتى يبلغه جميع ما كان بيند . بينهم . فقال ما تشيرون فقالوا نحن معك نواسيك

ونقاتل عدوك .

وحينئذ جمع أصحابه وانصاره وقال لهم ان الله قد كتب الجهاد على خلقه وامر بالعدل والاحسان واني اشهد الله بأنني خلعت عبد الملك والحجاج فمن احب منكم صحبتي على هذا فليأت معي والا فليذهب حيث شاء واني ادعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله وقتال الظلمة فاذا جمع الله لنا امرنا كان هذا الامر شوري بين المسلمين يختارون من يرضونه لامرهم .

فبايعه معظمهم وارتحل بهم نحو حلوان وماء سبدان ، فارسل اليه عاملها ان كنتم تريدون الخروج من هنا فارتحلوا وان كنتم تريدون البقاء ونصب الحرب للحجاج فنحن مضطرون الى قتالكم ، واصطدموا اصطداماً خفيفاً ثم انهجوا نحو همدان وماء دينار وكتب الى اخيه حمزة عامل همدان يستعده ، فلم ير مناصاً من ذلك على مضض وأرسل اليه مالا وسلاحاً ، وسار حتى نزل في ناحية امينة من اقليم اصفهان واطمان ، واخذ يرسل كتبه بدعوته الى قتال الظلمة ورد الامر شوري بين المسلمين ، وكتب عامل اصفهان للحجاج ، وكان قد بلغه خبر مطرف وهو مشغول بقتال شبيب فكتب اليه يأمره بالاستعداد وأخذ يرسل اليه الرجال تدريجياً ، ووثب صاحب شرطة حمزة في همدان على حمزة فحبسه وسيطر على الحكم وكتب بذلك للحجاج فسر سروراً عظيماً لانه كان يخشى ان ينضم الى اخيه .

ثم عين والي الري قائداً عاماً لقواته في المنطقة ولمن يرسله من مدد وتداني الفريقان ، وارسل مطرف من يدعوهم الى دعوته ويذكر لهم ظلم عبد الملك والحجاج فردوا عليه قائلين كذبت باعدو الله انها ليسا كذلك ، ومن ثم اشتبك الفريقان وقاتل مطرف واصحابه قتالاً عظيماً غير ان الدائرة دارت عليهم فكسروا وانهزموا بعد قتل كثير منهم وكان مطرف من جملتهم ، وقد احتز رأسه وارسل الى الحجاج وتشردت فلوله شذر مذر ، وسعى اقاربهم فأخذوا لهم الامان من الحجاج ووقفت هذه الحركة عندهذا الحد (١)

وقد روى اليعقوبي ان خارجياً اسمه ابو زياد المرادي خرج بعد قتل شبيب فوجه اليه الحجاج الجراح الحكمي فلقبه بالفلوجة فقتله ، ثم خرج بعده خارجي بناحية البحرين

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٦-١١٩ .

اسمه ابو- معبد من بني عبد القيس فوجه اليه الحجاج الحكم بن ايوب عامل البصرة فقتله
كذلك (١)

ولم يرو بعد هذا حركة للخوارج لمدة عشرين عاماً او اكثر قليلا حيث يبدو ان الضربات
التي انزلها الحجاج عليهم في جنوب العراق وشماله اخذت نأمتهم ونشاطهم كما كان الامر بعد
الضربات التي انزلها المغيرة وسمرة بن جندب ومواقف الشدة التي وقفها زياد وابنه من اهل
الاهواء عامة ، وان كانت فترة الحمود هذه المرة كانت اطول .

وقد تسنى للدولة فيها ان توجه جهودها وقواها الى ما هو اكثر فائدة وعائدة على العرب
والاسلام فكان ما كان من فتوحات عظمى في المشرق والمغرب ونهضة اصلاحية وعمرانية
واسعة في مختلف المجالات والبلاد على ما سترحنا مظهره قبل .

ولقد استمر هذا الحمود بقية عهد عبد الملك ثم طيلة عهد الوليد وسليمان ابنه ، فلما تولى
الخليفة عمر بن عبد العزيز اخذت حركتهم تنشط من جديد في العراق بزعماء زعيم من بني
يشكر اسمه بسطام وله اسم آخر هو شوذب حيث خرج على رأس ثمانين فارساً .

وهناك رواية تذكر انه لما بلغ عمر خبر خروجهم كتب الى واليه في العراق ليدعوم الى
كتاب الله وسنة رسوله ففعل فلم يروعوا ورأى الوالي انه قد اعذر فسير عليهم حملة فهزموها
فبلغ ذلك عمر فندد به ثم بعث مسامة بن عبد الملك بجند من الشام فأظهره الله عليهم .

وهناك رواية تذكر ان عمر امر واليه بأن لا يجر كهم الا ان يفسكوا دماً او يفسدوا
في الارض فان فعلوا فليحل بينهم وبين ذلك فأرسل الوالي لمراقبتهم ثم دعاهم الى مناظرته
فأرسلوا اليه رجلين منهم فتناظر معهم على النحو الذي رويناه في سيرة عمر فلا ترى حاجة
للتكرار .

وقد مات عمر بعد ذلك بأيام على ما رويناه كذلك في سيرته فاستأنفت هذه الجماعة
بقيادة زعيمها المذكور في خلافة يزيد بن عبد الملك ، وقد كتب يزيد الى والي العراق بالجد

(١) ج ٢ من ٢٧٥ .

في امرهم وقمع حركتهم فسير عليهم هذا حملات عديدة فكانوا يوزمونها واحدة بعد اخرى ويقتلون كثيراً منها ومن جملتهم بعض قوادهم ، وطاردوا بعضها الى اخصاص الكوفة فبعث يزيد مسلمة والياً على العراق وعياً حملة قوامها عشرة آلاف ، فلما رأوا أن ما جاءهم هو فوق طاقتهم قال شوذب لاصحابه من كان يريد الله فقد جاءته الشهادة ومن كان خرج للدنيا فقد ذهب الدنيا وانما البقاء للدار الآخرة فكسروا أعناد سيوفهم وحملوا حملة قوية حتى زعزعوا أركان جيش مسلمة وكادوا يوزمونه وكان قائده سعيد الحارثي من الفرسان المغاوير المشهورين فخشي الفضيحة وهتف بأصحابه مشجعاً ثم حمل بنفسه فتابعه جيشه بمثل حماسه فطحنوا الخوارج طحناً وقتلوه عن آخرهم وكان ذلك في سنة (١٠١) .

ولقد روى الطبري مقطوعتين من الشعر في رثائهم يدل فجورهما على ما كان للخوارج وفكرتهم من جذور وأوشاج واستمرار حيث جاء في احدهما معزوة الى شمر بن عبد الله الشكري الذي كان اخوه من جملة قتلاهم:

ولقد فجعت بسادة وفوارس	للحرب سحر من بني شيان
اعتاقهم رب الزمان فغالهم	وتركت فرداً غير ذي اخوان
كمد تجلجل في فؤادي حسرة	كالنار من وجد على الريان
وفوارس باعوا الاله نفوسهم	من يشكر عند الوغى فرسان

وحيث جاء في ثانيتهما المعزوة الى حسان بن جعدة :

يا عين اذري دموعاً منك تسجاما	وابكي صحابة بسطام وبسطاما
فلن ترى أبداً ما عشت مثلهم	أتقى وأكمل في الاحلام احلاما
بسيبهم قد تأسوا عند شديهم	ولم يريدوا عن الاعداء احجاما
حتى مضوا للذي كانوا خرجوا	فأورثونا منارات واعلاما
إني لأعلم أن قد انزلوا غرماً	من الجنان ونالوا ثم خداما
أسقى الاله بلاداً كان مصرعهم	فيها سحابة من الوسمى سجاما ^(١)

(١) نبذة بسطام من الطبري ج ٥ ص ٣١٠-٣٢٨ .

وقد روى ابن الاثير خبر حركات خارجية اخرى في زمن يزيد . منها حركة بقيادة شخص اسمه عقفان في العراق وكان عدد المنضوين اليه ثمانين فنصح ناصحون ليزيد أن يخذل من معه برجال من قبائلهم ففعل فنجح وتفرقوا . ومن جملتهم عقفان نفسه الذي اقنعه اخوه . ولقد ظل على ولائه في زمن هشام بن عبد الملك فعينه هذا ليكون رقيباً على العصاة والخارجين .

ولقد كان من جملة العصاة ابن له فقبض عليه وشده بوثاق وارسله إلى هشام ، واحترم هشام هذا الاخلاص من الرجل فظلي سبيل الابن . ثم استعمله على الصدقة فبقي في عمله الى آخر ايام هشام ^(١) وفي كل ذلك صور نادرة .

ومن هذه الحركات حركة ظهرت في البحرين بزعامة مسعود بن ابي زينب العبدي . وقد سار إلى اليمامة ليثيرها فتصدى له واليها وتمكن من قتله فتولى قيادة جماعته شخص آخر اسمه هلال ، ولكن الجماعة ما لبثوا أن تفرقوا عنه فالتجأ إلى قصر وتحصن فيه فدخل عليه من قتله . وهناك رواية تذكر أن مسعوداً غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة قبل ان يقتل ^(٢) .

ومنها حركة بزعامة مصعب بن محمد الوالي في العراق فتصدى لها والي العراق خالد القسري فقمعها . وفي رواية ان قمعها كان في زمن هشام ^(٣) .

وقد روى الطبري ^(٤) في حوادث سنة ١٠٧ خبراً مقتضباً عن حركة للخوارج في اليمن حيث يدل على أن الفكرة قد سرت إلى هذا القطر ايضاً . وبما ذكره في صدد هذه الحركة ان زعيماً اسمه عباد الرعيني خرج على رأس ثلاثمائة من اصحابه محكماً فوجه الوالي حملة تمكنت من قتله وقتل معظم جماعته . وكان ذلك في خلافة هشام .

وتوقف نشاط الخوارج الى سنة ١١٩ ثم استؤتف وقد روي في صدد اولى الحركات الجديدة رواية تنطوي على صورة جديدة من صور هذه الحركات . حيث روى الطبري ان شخصاً من احدى قرى الموصل اسمه بهلول كان يتأله وكان ذا بأس شديد فأرسل غلامه

(١-٢) ج ٥ ص ٤٤ .

(٣) ج ٥ ص ٤٤-٤٥ (٤) ج ٥ ص ٣٨٧ .

لشراء خل فأعطاه بائع الحانة خمرًا بدلًا من الخل فأراد على رده فأبى وقال له الخمر خير منك ومن قومك . وكان يريد الحج فضى الى حجه وهو محتق ، ولقي في مكة جماعة من اهل منطقة الموصل ناقلين على والي العراق خالد بن امية الذي كان يبعث بابن النصرانية لان امه كانت نصرانية . وكانوا يتهمونه بتهم عجيبة منها هدمه المساجد وانشاؤه البيع والكنائس وتولية المجوس على المسلمين وسماعه بنكاح الرجال الذميين للسلمات مما لا يمكن أن يصدق لانه كان مسلماً على كل حال وكان الخليفة هشام من انقياء بني امية ولا يمكن أن يقر مثل هذه الافعال وما يحتمل ان يكون ذلك دعاية تسويئية بثت بين العامة من خصوم الامويين في ذلك الوقت الذي كانوا فيه ينشطون نشاطاً عظيماً في تقويض دولتهم ومما نجد امثلة له في كل ظرف حتى في ظرفنا الحاضر الذي يرمي فيه رجال احزابنا بعضهم بتهم ملفقة للتشويه والتسويه .

وقد اتفقوا على الخروج وتواعدوا على الاجتماع في مكان معين . فلما عادوا اجتمعوا في الموعد وأمروا بهلولاً عليهم . وكانوا نحو أربعين . وقد تظاهروا في بدء حركتهم بأنهم عمال من قبل الوالي . ثم صاروا يأخذون ما يلقيه من دواب البريد .

ولما جاؤوا إلى قرية بهلول اراد هذا قتل بائع الخمر فناشده أصحابه أن لا يفعل لئلا يندر بهم الناس فيقتل ابن النصرانية منهم فأبى واصر على قتله وقتله فنذر بهم الناس وعلموا انهم خوارج وبلغ الخبر خالداً فسير عليهم حملة فزموها وقتلوا قائدها وكثيراً من افرادها واخذوا ما معهم من اموال ومتاع فسير حملة ثانية عليهم فشدوا عليها حتى دب فيهم الذعر فناشدتهم قائدها بالرحم فكفوا عنه وانهمز أصحابه .

وقد طمعوا بعد ذلك بالاستيلاء على الموصل بل وقال لهم بهلول ان الاوجب ان نتوجه الى الشام لانها هي الرأس الذي سلطه علينا ابن النصرانية . ورأى الوالي تفاقم امر بهلول فجد فيه وسير عليه جنداً كثيفاً يزيد عليهم اضعافاً مضاعفة حتى روي وفي الرواية مبالغة كبيرة ان عدده اكثر من عشرين ألفاً بينما كان عددهم نحو السبعين . واخذوا يتصاولون . وادرك بهلول وجاعته خرج موقفهم فعقروا دوابهم واصلتوا سيوفهم وحملوا حملة مستميتة ، ولكن شجاعتهم لم تغن عن الكثرة الكثيرة فقتلوا عن آخرهم (١) .

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٥٧-٤٦٠ .

ثم خرج في نفس السنة في ناحية الكوفة جماعة آخرون عددهم سبعة بزعامة المغيرة بن سعيد وزعيم آخر اسمه بيان فأخذهم والي العراق وقتلهم^(١) .

ثم خرج في نفس السنة في ناحية الحيرة جماعة آخرون بزعامة وزير الشخثاني فكانوا لا يبرون بقرية إلا أحرقوها ولا بأحد إلا قتلوه . وغلبوا على الحيرة وبيت مالها . فسير عليهم والي حملة طاردتهم فقتلت بعضهم واسرت بعضهم وهم منخنون بالجراح فصب عليهم والي نفطاً وأحرقهم^(٢) .

ثم خرج - والطبري يستعمل هنا كلمة شري - الصحاري بن شبيب وحكم في ناحية واسط ، وكان عدد المنضوين اليه ثلاثين . فأرسل خالد من طاردهم وقتلهم جميعاً وكان ذلك في نفس السنة .

وبما يرويه الطبري ان الصحاري بدأ حركته بالدخول على خالد بقصد اغتياله وتذرع بطلب فريضة له . فلم تسنح له الفرصة . واثّر عنه في ذلك هذه الايات التي تبرز فيها فكرة الخوارج وحافزها وغايتها :

لم ارد منه الفريضة الا	طمعاً في قتله ان انا لا
فأريح الارض منه ومن	عات فيها وعن الحق ما لا
كل جبار عنيد اراه	ترك الحق وسن الضلالا
انني شار بنفسي لربي	تارك قبالا لديهم وقالوا
بائع اهلي ومالي ارجو	في جنان الخلد اهلنا وما لا ^(٣)

ومرت فترة سبع سنوات بدون حركة للخوارج . وفي سنة ١٢٦ خرج في الجزيرة جماعة بزعامة سعيد بن بهدل الشيباني في مثنى شخص وكان على رأي الصفرية .

(١) ٤٥٦-٤٥٧ .

(٢) ج ٥ ص ٤٦١ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٤٥٧-٤٦٤ .

وكانت الفتنة بين الاسرة الاموية قد استشرت في هذا الطرف فاغتم الفرصة وخرج مع جماعته نحو العراق لما بلغه من تشتت الامر فيها واختلاف الياينة والمضرية واقتتلهم فيما بينهم .

وقد مات سعيد في الطريق فبايع جماعته الضحاك بن قيس وانضم اليهم آخرون حتى بلغ عددهم ثلاثة أو اربعة آلاف ، ولقد بهادن البانيون والمضريون حيناً علموا بسيروهم نحو العراق واجمعوا على مقاتلتهم ، غير أن الخوارج انتصروا عليهم حين اللقاء وهزموهم أقبح هزيمة واستولوا على الكوفة وحواليها وجبوا السواد .

واستخلف الضحاك احد رجاله في الكوفة واتجه مع فريق من جماعته نحو واسط وكان فيها والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ومن حشده معه لقتال الخوارج ، واخذ الفريقان يشتبكان في معارك ضارية . وكان الخوارج يقاتلون أشد قتال حتى امتلأت القلوب منهم رعباً .

وقد انفرد فريق من جند الوالي بزعامة زعيم اسمه منصور لان هذا اقترح مهادنة الخوارج حتى يتجهوا نحو الشام التي كانت مسرحاً لمنازعة دامية بين الامراء الامويين نتيجة لمقتل الوليد بن يزيد فأبى فذهب منصور إلى الخوارج مع جماعته وانضم اليهم وبايع الضحاك .

ورأى الوالي تفاقم الحركة فجنح إلى التفاهم وتفاوض مع الضحاك واتفق معه أن يكون له ما كان غلب عليه من الكوفة وسوادها ويكون للوالي ما بقي تحت سيطرته من كسكر وميسان ودستيميسان وكور دجلة والاهواز وفارس .

وفي هذه الاثناء اعلن سليمان بن هشام ثورده على مروان ورشح نفسه للخلافة حيث قال له بعض اصحابه أنت ارضى من مروان وتحالف مع الخوارج ايضاً . وهكذا عظمت حركة الخوارج وتفاقت حتى صارت صاحبة السلطان على معظم العراق ثم على الموصل وساحلة واسعة من الجزيرة وارمينية فكانت من اعظم حركات الخوارج تفاقماً وسعة .

وحينما استتب الامر لمروان بن محمد سير حملة بقيادة ابنه عبد الله نحو العراق لمصاوة هذه الحركة وقمعها . وقاد بنفسه حملة اخرى لقتال سليمان بن هشام الذي انضم اليها وتوقف مع ذلك مع انصاره في قنسرين .

وقد تمكن مروان من هزيمة سليمان مع ان الرواية تذكر ان عدد من تجمع عليه بلغ سبعين .

الفا ، وقد هزم الخوارج حملة ابنه في العراق فسير حملة جديدة بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة الذي عينه في الوقت نفسه والياً على العراق فسارت هذه الحملة من طريق الجنوب وسار هو بعد ان هزم حشود سليمان من طريق الشمال فصار الخوارج بين نارين . ولقد دار صراع قري بين الخوارج وجيوش مروان امتد اسابيع عديدة وتكررت وقائعه وانهمز مروان في إحداها غير أنه تمكّن في النهاية من التغلب على الخوارج وتشتت شملهم بعد عناء شديد ودماء غزيرة .

ولقد قتل الضحّاك فبايع الخوارج زعيماً اسمه الحُبيري إماماً مكانه فتولى قيادة الصراع فقتل فبايعوا زعيماً ثالثاً اسمه شيبان . وكانت الغلبة النهائية عليهم في عهد قيادة هذا الزعيم حيث قتل وتشتت جماعته سنة ١٢٨ (١) .

ومن روائع ما ورد في سياق هذه الحركة في الطبري انه كان في صفوف الخوارج فارس ملثم كان يصول صولات عظيمة حتى كاد في بعض المواقف أن يقتل منصوراً الذي انفرد عن جماعة الوالي مع بعض انصاره وانضم الى الخوارج . ولقد سأله عن هذا الفارس فنادوا يا ام العنبر فخرجت امرأة من اجل الناس فقال لها مندهشاً أنت فقالت نعم . قبح الله سيفك فوالله ما صنع لك شيئاً وكان عليك ان تستعمله في ذلك الموقف فتوسلني به الى الجنة .

وهذا مثل آخر يضاف إلى مثل غزاة زوجة شيب . ولا نعتقد ان هذين المثلين وحيدان .

ولم تكد هذه الحركة تنتهي حتى كانت حركة اخرى تظهر وتتفام في الحجاز بزعامة المختار بن عوف الازدي المنقلب بأبي حمزة . وكان يأتي الى مكة في موسم الحج فيدعو إلى الخروج على آل مروان .

وجاء سنة ١٢٨ فلقبي عبد الله بن يحيى الذي عرف باسم طالب الحق فدعاه الى مذهبه والذهاب معه الى اليمن فاستجاب وذهب معه الى حضرموت فبايعه ابو حمزة بالخلافة على مذهب الصفرية من الخوارج فكان ذلك صورة جديدة من صور هذه الحركة .

(١) الطبري ج ٥ ص ٦١١-٦٢٢ و ج ٦ ص ١٥-٢٢ وتاريخ البعوني ج ٢ ص ٢٣٧ .

ووافى ابو حمزة الموسم في سنة ١٢٩ نائباً عن خليفته ومعه سبعائة رجل يحملون الاعلام السوداء ويتعممون بالعمائم السوداء ويعلمون البوابة من بني مروان . ففرغ الناس منهم وارسل اليهم والي المدينة من قبل مروان بن محمد يطلب التهادن الى أن ينقضي الحج فوافقوا . فلما انقضى أرسل اليهم وفداً من وجود القرشيين بينهم بعض أحفاد علي وأبي بكر وعمر ليطلبوا منهم احترام حرمة مكة فقال لهم ابو حمزة والله ما خرجنا إلا لنسير سيرة آبائكم ولكنه رفض عدم القتال بعد انقضاء الحج فلم يكن من الوالي إلا أن انسحب من مكة إلى المدينة فسيطر الخوارج عليها بدون قتال . وذهب الى المدينة وأخذ يبيء جند القتال .

وخرج ابو حمزة وجماعته إلى المدينة فصددهم الجند وتضامن معهم في ذلك القرشيون من أهلها وانتصر الخوارج عليهم وقتلوا مقتلة كبيرة منهم . ثم استولوا على المدينة وقد فر الوالي مع من استطاع الافلات .

وقد ذكر الطبري في السياق ان القرشيين اتهموا خزاعة بالخامرة مع الخوارج وانهم هم الذين دلوهم على غورة المدينة . وقد خطب ابو حمزة في أهل المدينة بعد ذلك من على منبر رسول الله خطبة طويلة إن لم تكن صحيحة مجروفاً فليس ما يمنع أن تكون صحيحة بنجرها وروحها .

وقد رأينا ايرادها لما فيها من شرح ووصف لفكرة الخوارج وهدفهم وسيورتهم يتسقان مع ما شرحناه من ذلك ولا سيما آخر حركة من حركاتهم في العهد الاموي تدل على استمرار الفكرة بكل شدتها وقوتها :

(يا أهل المدينة ، إننا لم نخرج من ديارنا واموالنا مشراً وبطراً ولا عبثاً ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا لنار قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت . وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط فاضت علينا الارض بما رحبت وسمعنا داعياً يدعو إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن فأجبنا داعي الله واقبلنا من قبائل شتى ، نفر منّا على بعير واحد عليه زادهم وانفسهم يتعاورون لحافاً واحداً . فأوانا الله وايدنا بنصره ، ولقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغي ، يا أهل المدينة أولكم خير اول وآخركم شر آخر ، يا أهل المدينة

الناس منا ونحن منهم إلا مشركاً عابد وثن أو مشركاً أهل كتاب أو إماماً جائراً ، يا أهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي وتقولون شباب أحداث وأعراب جفاة . ويلكم يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً أحداثاً ، شباب والله مكتهاون وشبابهم غضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم ، قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت ، قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مروا بآية شوق شبقوا شوقاً إلى الجنة ، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضت . والرماح قد شرعت والسهام قد فوقت وارعدت الكتيبة بصواعق الموت استخفوا وعيبد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مأب .

وماروي عنه انه كان يعلن من على منبر رسول الله أنه يرى أن كل من شك فهو كافر وكل من زنى فهو كافر وكل من سرق فهو كافر .

وبلغت الاخبار مروان الخليفة فسير عليهم حملة قوامها اربعة آلاف مقاتل مجهزة تجهيزاً قوياً ، وعلم ابو حمزة بذلك فخرج للقاءها والتقوا في وادي القرى .

وقد ودع ابو حمزة اهل المدينة وقال لهم إن نظفر نعدل في احكامكم ونحكم على سنة نبيكم ونقسم فيكم بينكم وان يكن ما تتهنون فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وما ذكر في السياق ويحتمل شكاً كبيراً ان ابا حمزة قال لاصحابه لا تقاتلوهم حتى نخبروهم ثم نادوهم قائلين ما تقولون في القرآن والعمل به فصاح قائد الحملة واسمه ابو عطية نضعه في جوف الجوالق . فقالوا ما تقولون في مال اليتيم قال نأكل ماله ونفجر بأمه فاستبكموا حينئذ في قتال مرير حتى امسى المساء فصاحوا يطلبون من ابن عطية التوقف للصباح ويقولون له ان الله قد جعل الليل سكناً فأبى واستمر في قتالهم حتى ائذن فيهم فانهزموا الى المدينة وقابلهم الميثورون من اهلها بالسيف فانهزموا الى مكة ومنها الى اليمن وكان جيش مروان يتعقبهم في كل مراحلهم ويقتل فيهم حتى أفنى معظمهم . وخرج خليفتهم عبد الله بن يحيى وكان في صعدة بن عنده للقاء جيش مروان فانتصر الجيش عليه وقتله مع جمع كبير من انصاره واحتزوا رأسه وارسلوه الى مروان (١) .

(١) هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج ٦ ص ١٧-٦٣ وقد اشير اليها في مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٢ وتاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٣٣٩-٣٤٠ ولم يذكر المؤلفون الثلاثة مصير أبي حمزة ، وفي الجبل العشرين من

ولقد كانت حركات الحوارج الاخيرتان في العراق والحجاز في ظروف اشتداد الدعوة الهاشمية العباسية بزعامة أبي مسلم في خراسان فكانتا بما شغلنا قوى الدولة الاموية عن هذه الدعوة فكان ذلك من اسباب نجاحها .

ولقد روى اليعقوبي دون الطبري حركة من حركات الحوارج في ناحية الاردن بزعامة ثابت بن نعيم الجذامي في سنة ١٢٨ فسير عليه مروان من قمع حركته . وهذه الحركة هي الوحيدة التي سجل وقوعها التاريخ في هذه الناحية (١) .

ولقد سرت فكرة الحوارج إلى شمال افريقية أيضاً فاعتنقها جماعات من البربر والعرب ونتج عن ذلك حركات خارجية عديدة في عهد الدولة الاموية .

ومن أول ما سجل من ذلك حركة ميسرة المصفوري من بني فاذن الذي كان على مذهب الصفرية . وكان سبب خروجه المباشر سوء سيرة والي طنجة عمر بن عبدالله الحبّاب وابوه كان

الاغاني نبذة طوية في اخبار عبد الله بن يحيى فيها تفصيلات اخرى وبعض المغامرة ، وخطبا عديدة لابي حمزة في اهل المدينة واهل مكة ، ويستفاد منها ان عبد الله بن يحيى هو من حضرموت من قبيلة كندة وكان "عابداً مجتهداً فرأى في اليمن عسفاً وجوراً فآخذ يحرض على الخروج ، وجاء اليه ابو حمزة مع جماعة من الاباضية فانضموا اليه وبايعوه وسموه طالب الحق وفي سنة ١٢٨ خرج مع جماعته في حضرموت فطردوا عاملها واستولوا على الحكم ثم ساروا نحو صنعاء واستطاعوا ان يغلبوا عليها ويهزموا واليها مع الحامية . ثم صار لهم السلطان في جميع اليمن ، فلما كان موسم حج وجه طالب الحق ابا حمزة على رأس جيش الى مكة ليقم له السلطان في الحجاز ويرسل بعد ذلك جيشاً الى الشام ، وقد تمكن ابو حمزة من الاستيلاء على مكة والمدينة على الذخو المذكور تقريباً في المتن ثم ارسل جيشاً نحو الشام فلقبه جيش مروان وانتصر عليه وقتل قائده واستمر في زحفه نحو المدينة فانسحب ابو حمزة منها الى مكة فتعقبه الجيش الشامي واشتبك معه في مصاولة ضارية وانتصر عليه وقتله مع جماعة كبيرة من انصاره ثم انجه نحو اليمن حيث انتصر على طالب الحق وقتله وقمع حركته ، ومما جاء في خطبة ابي حمزة ولم يرد في النص الوارد في الطبري تعداد متسلسل لما كان يعزى الى خلفاء بني امية او يروى من اسواء واحاديث قادمة من لدن معوية مما قد يكون فيه دلالة على ان هذه الاقوال والروايات التي علقنا عليها او فندناها في سياق سيرة الخلفاء كانت تساق وتنتشر في زمن الدولة الاموية بقصد التسويء والاثارة .

(١) ج ٣ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

والياً عاماً للمغرب . فقد رغب في أخذ الجزية ممن أسلموا من البربر واعتنتهم بالتكاليف في المطالب فأثارهم فدعاهم ميسرة اليه فاستجابوا وبايعوه بالخلافة وخاطبوه بأمر المؤمنين وثاروا تحت رايته على والي طنجة وقتلوه .

وسير الوالي العام حملتين فهزموهما واحدة بعد أخرى . وقد قتل الخوارج من احدهما عدداً كبيراً من فرسان العرب وأعيانهم حتى سميت وقعة الاشراف . وأدى ذلك إلى انتقاض البلاد كلها وسريان الانتقاض إلى الاندلس حيث ثارت على اميرها عقبة بن الحجاج . وكان ذلك سنة ١١٧ في زمن هشام .

ولما بلغت هشاماً الاخبار قال لاغضبني للعرب غصبة ولاسيرن جيشاً يكون اوله عندهم وآخره عندي ثم ارسل جيشاً كثيفاً وعين كلثوم بن عياض قائداً ووالياً . ولما وصل الزحف على الخوارج واشتبك معهم في معارك طاحنة فانتصروا عليه وهزموا جيشه وقتلوه أو جرحوه حسب اختلاف الرواية فجهز هشام جيشاً كبيراً آخر وارسله بقيادة حنظلة بن صفوان سنة ١٢٢ هـ فتمكن من قمع الحركة .

وقد ذكرت الروايات ان عدة قتلى الخوارج في المصاولة التي جرت بينهم وبين حنظلة بلغ ١٨٠ ألفاً^(١) . وفي الرق مبالغة ولكنه يدل على كل حال على انه كان ينضوي تحت راية الخوارج خلق عظيم .

ولم تكد هذه الحركة تقمع حتى ظهرت حركة أخرى متسعة بمذهب الصفرية ايضاً بزعامه عكاشة بن ايوب الفزازي وعبد الواحد بن يزيد الهواري . وقد جد حنظلة في امرها وتمكن من قمعها وقتل قائديها وكثير من المنضوين اليها .

وتذكر الروايات حركة ثالثة متفرعة في اصلها عن حركة ميسرة وإن كانت اتسمت بشيء من الشذوذ . وهي حركة صالح بن طريف البرغواطي . فقد كان طريف من قواد حركة ميسرة وكان ابنه صالح معه . فلما قمعت هذه الحركة ظهر صالح للبيدات بأسلوب جديد .

(١) الاستقصاء في تاريخ دول المغرب الأقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٤-١٠١ وتاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١١٨-١١٩ وتاريخ ابن الأثير ج ٥ ص ٦٩-٧١ .

وهي دعوى المهدوية ثم النبوة . واستطاع أن يغري جماعة من البربر فالتفوا حوله وصار يشرع لهم شرائع جديدة منها صوم شهر رجب بدلا من رمضان وزيادة عدد الصلوات إلى خمس عشرة ، عشر في الليل وخمس في النهار مع قصرها على الوقوف والاياء بدون سجود الا الركعة الاخيرة حيث يسجدون خمس سجعات متواليات . ورفع قيد العدد في الزواج ورفع قيد عدد الطلاق الرجعي ، واختصار سور من القرآن نفاهما منه وزيادة عدد جديد ، ورفع الغسل عن الجنابة إلا إذا كانت بالحرام ... وكان ذلك سنة ١٢٧ هـ .

وقد ساعد اضطراب حالة الدولة في الشام وفي المغرب والاندلس على استمرار هذا المتنبيء إلى ما بعد سقوط الدولة الاموية ، بل واستمرار ابنائه من بعده على رأس هذه الحركة في نطاق دولة مدة غير قصيرة في زمن الدولة العباسية في المشرق والدولة الاموية في الاندلسية في المغرب ^(١) .

ولقد تعددت حركات الحوارج في شمال افريقية في زمن مروان بن محمد ايضا (١٢٧-١٣٢ هـ) منها ما كان بقيادة عربية ومنها ما كان بقيادة بربرية . فكانت حركة بقيادة ابي عطف عمران او عمر بن عطف الازدي ببلدة طنفس وحركة بقيادة عروة بن الوليد الصدي - والصدف قبيلة عربية - بتونس وكتاما صفرية المذهب . وحركة عبد الجبار بن الحرث بطرابلس وثابت الصنهاجي البربري بباجة وكتاما إباضية المذهب .

وقد اهتم عبد الرحمن بن حبيب الذي غلب على افريقية والمغرب في هذا الظرف اغتناماً لفرصة اضطراب امر الشام وظل متغلباً عليها الى ما بعد قيام الدولة العباسية لقمع هذه الحركات . وقد باشر ذلك بنفسه بالنسبة لبعضها وسير اخاه الياس الى بعضها حتى تم قمعها ^(٢) .

ولقد سرت الفكرة من المغرب الى الاندلس حيث ثار فريق من البربر متسمين بها على الوالي عبد الملك بن قطن فجند في حربهم واستعان عليهم بعصبيته المضربة وانتصر عليهم . غير انهم لم يسكتوا حيث تحالفوا مع خصوم قبيلته اليانين سنة ١٢٤ وتمكنوا من قتله . وهاج قومه المضريون وتحركوا بقيادة ابنه قطن وامية وتمكنوا بدورهم من اخذ ثأرهم من

(١) الاستقصاء ج ١ ص ١٠٢-١٠٣ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٠٧-٢١٠ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ وابن الاثير ج ٥ ص ١١٥ .

البربر الحوارج وخصومهم اليانين معاً وقتلوا منهم جماعة كثيرة وشردوا باقيهم^(١) .

ولقد روى الطبري خبر بعض حركات الحوارج في خراسان ايضاً ابان احتدام النزاع بين المضريين واليانين واحتدام الدعوة العباسية بزعامة ابي مسلم مما سوف نشرحه في نبذ خاصة.

من ذلك حركة قادها الحارث بن سريج أحد قواد الجند في خراسان حيث أعلن في سنة (١١٦هـ) تمرداً على الوالي عاصم بن عبد الله وأخذ يدعو إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضي . وقد انحاز اليه من الجند بضعة آلاف . وتوجه نحو بلخ فخرج إليه واليها نصر بن سيار ولكنه تغلب عليه وهزمه واستولى على بلخ ثم مد سيطرته إلى الجوزجان والفارياب والطالقان ومرو الروز^(٢) .

وقد دحر أهل مرو عاصمة خراسان واخذوا يكاتبونه . بما جعل الوالي ينسحب منها إلى مدينة ابرشهر للاتصال بالخليفة والاستعداد للنضال . وقد أقبل الحارث على مرو . وكانت عدد الذين صاروا تحت لوائه قد بلغ ستين ألفاً من قبائل الآزد وتميم ومن مسلمي الجوزجان والطالقان وخراسان .

واستطاع الوالي أن يحشد قوات كافية فزحف بدوره نحو مرو والتقى الفريقان قربها فبدأ الحارث بدعوتهم إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله والبيعة للرضي على طريقة الحوارج.

وكان معنى البيعة للرضي خلع الخليفة القائم . فأخذ الفريقان يشبكان بقتال شديد . وقطع فريق الوالي الماء عن الحارث وجيوشه حتى عطشوا فاضطروا إلى الانسحاب عن مرو وتبعهم عاصم وجيوشه فنزلوا الدنداتقان قرب منزل الحارث وجرت مراسلة بين الحارث وعاصم على أن ينزل الحارث في أي مكان شاء من خراسان ويكتب الاثنان إلى الخليفة يسألانه كتاب الله وسنة نبيه فان ابي اجتماعا عليه . وابى بعض قواد جند عاصم الموافقة على ذلك لأنهم اعتبروه خلعاً لهشام والحواء على عاصم حتى اعدوا القتال ثانية . وقد هزموا الحارث وجيوشه . ولكنه ظل يسيطر على معظم ما كان يسيطر عليه وراء النهر دون أن

(١) الاستقصاء ج ١ ص ١٠٠-١٠١ وتاريخ الاندلس لعنان ص ٦٣-٦٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٩٠ .

يقدر الوالي على زحزحته عنه .

وبلغ الحزب هشاماً فعزل الوالي وعين اسد بن عبد الله لولاية خراسان للمرة الثانية فأخذ يتصاول مع الحارث بالاضافة الى ما كان يبذله من جهد في الفتوح وتوطيد سلطان الدولة في هاتيك الربوع . وتحالف الحارث مع خاقان وملوك الصغد والشاش والاسكمند والختل الذين رأوا في الحركة فرصة للعصيان والتمرد . غير أن اسداً اندفع في مصاولتهم بكل شدة وحزم واستمر في ذلك حتى تمكن في النهاية من التغلب ثانية على هؤلاء الملوك واسترداد معظم ما كان في سيطرة الحارث وتشتيت شمل جموعه .

ولقد ظل الحارث متمرداً مستمسكاً في بعض انحاء بلاد الترك ومعه جماعة من انصاره إلى ان صارت الخلافة الى يزيد بن الوليد اي نحو سبع سنين . وكان النزاع بين المضربين واليانيين قد اشتد في خراسان وخشي نصر بن سيار الذي صار والياً ان يغتنم الحارث الفرصة ويقدم على خراسان فأرسل اليه يعرض عليه ان يحصل له على امان من الخليفة وان يرد اليه امواله ويطلق سراح من اعتقل من ذويه فوافق فأرسل نصر الى الخليفة رسولا بذلك فوافق بدوره وأصدر اليه كتاب امان وامر برد امواله واطلاق سراح ذويه فجاء الى خراسان . وفي هذه الاثناء مات الخليفة يزيد وصارت الخلافة الى مروان فقال الحارث انما امنني يزيد ومروان لا يجيز هذا الامان فلا آمنه ثم دعا الى البيعة لنفسه . فنصحه بعض رجال الجند فأبى وارسل الى نصر يقول له اجعل الامر شورى فأبى بدوره ولكنه عرض عليه ولاية ثغر سمرقند او طخارستان او ما وراء النهر فأبى بدوره ، وقال انا صاحب الرايات السوداء فقال له خذ ما تشاء من مال وسلاح واذهب الى الشام فان كنت حقاً كذلك واطهرك الله فأنا في طاعتك .

وفي هذه الاثناء اشتد النزاع بين اليانيين بزعامته زعيم اسمه الكرماني والمضربين بزعامته نصر بن سيار فحاول الحارث ان يجعل نفسه قطب رحى في هذا النزاع واندمج فيه متقلباً بين الطرفين فلم يلبث ان قتل في احدى جولات النزاع .

وقد يبدو من سيرة الحارث انها كانت شاذة عن سيرة الخوارج الصادقين الذين كانوا لا يهادنون ولا يسامون . ولقد روى الطبري في سياق اخبار هذه السيرة ان الحارث لم يكن ذا سيرة حسنة وانه كان غداراً خبيثاً . وان احد رفاقه من قواد الجند حينما سمعه يدعوا الى

كتاب الله وسنة رسوله والبيعة للرضي قال له متعجباً أنت يا حارث تدعو إلى ذلك . والله لو أن جبريل عن يمينك وميكائيل عن يسارك ما صدقتك ، حيث ينطوي في هذا تعليل لذلك الشذوذ مع انطواء هذه الحركة على صورة أخرى من صور الحركات التي كانت تتسم بسمّة الحوارج^(١) .

ولقد كان مع الحارث قائد اسمه بشر بن جرموز الضبي واتهمه بأنه انما قام بحركته لمأرب شخصي وتمرد عليه . وانضوى اليه اربعة آلاف وتسموا بالفئة العادلة . واخذ بشر يدعو الى كتاب الله وسنة رسوله وان يكون الامر شورى بين المسلمين . وذلك سنة ١٢٨ وبعد أن حصل الحارث على امان يزيد بن الوايد فكان ذلك حركة خارجية جديدة في خراسان .

ولقد كان بشر وجماعته مضرين فاصطدموا باليانيين الذين اعتبروا نشاطهم نشاطاً قليلاً خدم . وكان بينهم صيال دموي انتهى بقتل بشر وكثير من جماعته . فانقرط بذلك عقد حركتهم^(٢) .

ثم سجلت الروايات حركة أخرى في سنة ١٣٠ في خراسان بزعمه شخص اسمه شيان بن مسلمة الذي وصفه سياق الطبري بالحروري وقال عنه انه كان يرى رأي الحوارج ويعلم البهلاء من مروان وعمله .

ولقد روي ان ابا مسلم أرسل اليه بدعوه الى البيعة للعباسيين فقال له أنا ادعوك الى بيعتي فأرسل اليه إن لم تدخل معي فارتحل عن منزلك الذي انت فيه . واستنصر شيان بالكرماني زعيم اليانيين فلم ينصره فسار الى سرخس واجتمع عليه جمع كثير من بكر بن وائل . وأرسل إليه ابو مسلم رسولا يطلب منه الكف عن نشاطه فسجن الرسول فسير أبو مسلم حينئذ حملة طارده وقاتله مع عدد كبير من انصاره وبذلك انقرطت حركته التي كانت أخرى حركات

(١) نبذة الحارث بن سريج مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ٤٢٨ - ٤٣٩ و ٥٩١ - ٥٩٢ وج ٦

ص ٢ - ١١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠ - ١٣ .

الخوارج في عهد الدولة الاموية (١) .

وهكذا تكون حركة الخوارج قد ظهرت في عهد الدولة في معظم البلاد التي كانت تحت سلطان هذه الدولة في صور واشكال وادوار مختلفة . وقد نكون اطلنا الكلام عنها وتوسعنا في شرح احداثها . ولقد قصدنا من ذلك الى التنويه بهذه الحركة الخطيرة الفذة في التاريخ من جهة واظهار ملاحظها ونقاط ضعفها وآثارها التي المعنا اليها في مطلع النبذة من جهة اخرى .

وننبه إلى ان هذه الحركة لم تنته بانتهاء الدولة الاموية . بل استمرت حية في زمن الدولة العباسية ايضاً وسجل التاريخ لها كثيراً من الافكار والصور والاحداث في المشرق والمغرب اندمج فيها عرب وغير عرب في نطاق الاسلام الذي جمعهم مما سوف يأتي شرحه في الجزء التالي ان شاء الله .

٢ - خروج الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما ومقتله

لم تكند نهذاً حركة الخوارج الاولى نتيجة لموقف معاوية وولاته موقف الحزم والشدّة منها حتى كانت حركة خروج الحسين بن علي ومقتله بعد مدة قصيرة من موت معاوية .

ولقد كانت هذه الحركة من اشأم المعكرات التي عكرت صفاء الدولة الاموية والسلطان العربي والتاريخ الاسلامي . وكان لها تأثير شديد في تاريخ الاسلام يفوق ما كان من تأثير فتنة عثمان وإن كانت من ناحية ما تعد امتداداً لها .

ولقد كثرت الروايات حول هذا الحادث ووقائعه وبواعثه وظروفه في بعضها تغاير وتخالف في الاسماء والاحداث . ويبرز على بعضها الهوى وقصد التسويء او التبرير والدفاع . ولكن بعضها بل كثير منها لا يخلو من سمة الصحة والصدق إذا ما انعم النظر فيها بحيث يصح القول إنه من المستطاع الوصول منها إلى ما تطمئن اليه النفس من الوقائع والاستنتاجات التي تضع الحادث في موضعه الصحيح والمعقول .

واكثر الكتب القديمة استيعاباً للروايات هو الجزء الرابع من تاريخ الطبري الذي

(١) الطبري ج ٦ ص ٥٠ .

استغرقت منه اكثر من مئة صفحة . وقد سار على عادته الحميدة في ايراد مختلف الروايات من مختلف الطرق . ولا يلمح منه تعصب ولا غلو ولا يوصف بنوع خاص بالتعصب ضد أهل البيت بل هو شديد التوفير والاحترام لهم كأهل السنة والجماعة . وما احتوته الكتب القديمة الاخرى حول الحادث نفس ما جاء في بعض روايات الطبري او متطابق معه .

وليس هناك كتب اقدم واكثر استيعاباً للروايات منه . وقد كتب كتابه في زمن الدولة العباسية التي كانت تبدل كل جهد في تسوية سمعة الدولة الاموية وهذه نقطة هامة في الموضوع ، بحيث يمكن ان يقال انه الاولي بالاعتماد بالدرجة الاولى .

وفي كتب الشيعة روايات وتعليقات كثيرة عن هذا الحادث . غير انها احدث من كتاب الطبري من جهة وشيبت اكثر من غيرها بالهوى والصنعة والتبرير والتسوية من جهة اخرى شأن ما يرويه ويكتبه مؤلفو الشيعة اندفاعاً مع اهوائهم بقطع النظر عن أي اعتبار آخر . مما يوجب اشد التحفظ والحذر .

ونشرع الآن في عرض الوقائع المستندة الى الروايات القديمة فنقول .

لقد ذكرنا في سيرة معاوية ان الحسين كان خامس خمسة امتنعوا عن البيعة بولاية عهد يزيد في حياة معاوية وان معاوية لم يلبح عليهم بعد ان حصل على بيعة الجمهور الاكبر من المسلمين في مختلف الامصار وفيهم كثير من اصحاب رسول الله ﷺ الاحياء .

فلما مات معاوية واستلم يزيد الحكم كتب لولاة الامصار بتجديد البيعة له . وكتب فيما كتب الى والي المدينة ونبه عليه بصورة خاصة بأخذ البيعة من الذين امتنعوا عنها في حياة ابيه ولقد كان عبد الرحمن بن ابي بكر احد الخمسة قد مات قبل موت معاوية وكان عبد الله ابن عباس وعبد الله بن عمر في مكة ولم يكن في المدينة الا الحسين وعبد الله بن الزبير . فاستدعى الوالي الحسين واخبره بموت معاوية وطلب منه البيعة ايزيد فقال انا لله وإنا اليه راجعون ، رحم الله معاوية وعظم لك الاجر . اما ما سألتني من البيعة فان مثلي لا يعطيها سراً ولا اراك تجزئ به مني سراً قال أجل فقال فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم دعوتنا معهم فكان امراً واحداً ، فاستحسن الوالي قوله . ثم خرج من عنده وتمكن من مغادرة مكة مع بنيه واخوته وبني اخيه وجل اهل بيته . وكان ذلك في ٢٨ رجب سنة (٦٠) اي

بعد استلام يزيد للحكم بعشرين يوماً .

ولم تذكر الروايات ان الوالي حاول منعه من الخروج وإرغامه على البيعة مع أنه لا يمكن أن يكون عرف ذلك ، بل هناك رواية تذكر أن معاوية قال ليزيد إن الحسين أحب الناس إلى الناس فصل رحمه وارفق به يصلح لك وأن يزيد حينما كتب لواليه بشأنه قال له إن امير المؤمنين قد عهد إلي بالرفق بالحسين واستصلاحه ^(١) . ورواية تذكر أن الوالي حينما أرسل اليه ليأخذ بيعته قال له أخرني وارفق فأخره فخرج إلى مكة ^(٢) . بل هناك رواية أن مروان بن الحكم قال للوالي لئن قلت منك الحسين فلن تقدر عليه وحرضه على إجباره حتى وعلى قتله اذا امتنع فقال له الوالي اخترت لي التي فيها هلاك ديني . والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت من مال الدنيا وملكها واني قتلت الحسين أن قال لا ابايع ^(٣) .

ولقد امتنع ابن الزبير عن البيعة ليزيد حينما طلب الوالي منه ذلك ويمكن من الخروج بدوره الى مكة فذكرت الروايات أن الوالي سرح وراءه ثمانين راكباً فطلبوه فلم يقدروا عليه ^(٤) وأن يزيد أمر والي المدينة بارسال حملة إلى مكة لإرغامه ^(٥) ولم تذكر من هذا شيئاً بالنسبة للحسين . مع أن موقف الرجلين واحد بل وخطر الانتفاض والنجاح واستجابة الناس بالنسبة للحسين أكثر وروداً منه بالنسبة لابن الزبير بحيث إذا صح الخبر يكون يزيد وواليه قد استمرا على سياسة الرفق والاستصلاح للحسين وبحيث يصح القول إن الحسين لم يلاحق ولم يعنف معه أو حسب التعبير المشهور لم يخرج فيخرج .

ولقد ذكرت الروايات ان عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس لقيا الحسين وابن الزبير في مكة وعلما منها امتناعها عن البيعة فحذراهما وناشداهما تقوى الله وعدم تفرقة الجماعة ثم قدما إلى المدينة فبايعا ^(٦) حيث يفيد هذا ان الصحابين الجليلين شعرا بنية مييعة في نفس الحسين

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٢ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٧ .

(٣) نفس المصدر والصفحة ، انظر أيضاً الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٧ .

(٤-٥) الطبري ج ٤ ص ٢٥٢ و٢٥٤-٢٥٥ .

(٦) ٢٥٤ .

وهناك رواية اخرى تؤيد وجود هذه النية في الحسين في حياة معاوية حيث روى ابن قتيبة ^(١) أن سليمان بن صرد من كبار انصار علي بن ابي طالب في الكوفة وغيره أنصروا علي الحسن تنازله لمعاوية وجاؤوا إلى الحسين فقال لهم ليكن كل رجل حلساً من احلاس بيته (أي لا يأتي بحركة ما) ما دام معاوية حياً . فإنها بيعة كنت والله كارها لها . فان هلك نظرتم ونظرنا ورأيتم ورأينا .

وبما ذكرته الروايات ^(٢) ان محمداً بن الحنفية اخا الحسين لما علم بنية اخيه بالخروج إلى مكة قال له (يا اخي انت احب الناس إلي وأعزهم علي . ولست ادخر النصيحة لاحد من الخلق احق بها منك ، تنح ببيتك عن يزيد وعن الامصار ما استطعت ثم ابعث رسلك إلى الناس فادعهم إلى نفسك فان بايعوا لك حمدت الله على ذلك وإن اجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا يذهب به مروءتك ولا فضلك) في اخاف ان تدخل مصراً من هذه الامصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم فمنهم طائفة معك واخرى عليك فيقتلون لأول الأسته فاذا خير هذه الامة كلها نفساً وأباً واماً أضيعها دماً واذلها اهلاً قال له الحسين فإني ذاهب يا اخي قال فانزل مكة فان اطمانت بك الدار فسيب ذلك وان نبت بك لحقت بالرمال وشعف الجبال حتى تنظر الى ما يصير امر الناس فانك اصوب ما يكون رأياً واحزمه عملاً حين تستقبل الامور استقبالا ولا تكون الامور عليك ابدأً أشكل منها حين تستديرها استدباراً قال يا اخي قد نصحت فاشفقت فارجوا ان يكون رأيك سديداً موفقاً . وان عبد الله بن مطيع احد زعماء المدينة لقي الحسين وهو يتيسر للخروج فقال له أين تريد قال أما الآن فاني اريد مكة . أما بعدها فاني استخير الله فقال له (خار الله لك وجعلنا فداك فاذا انت اتيت مكة فاباك أن تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤومة بها قتل ابوك وخذل اخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه . الزم الحرم فانك سيد

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٥٣ ويقصد بحجة تنح ببيتك عن يزيد وعن الامصار (لانه جريبتك)

وروى هذا ابن الاثير ايضا ج ٤ ص ٦-٧ .

العرب ، لا يعدل بك والله اهل الحجاز اهدأ ويتداعى اليك الناس من كل جانب ، لا تفارق الحرم فذاك عمي وخالي . فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك (^١) حيث يفيد هذا وذاك ايضاً ان الحسين حينما خرج من المدينة كان مبيتاً اُخرج على يزيد والدعوة لنفسه إن وجد الاسباب متوفرة .

والروايات متفقة على ان الحسين بعد قليل من قدومه الى مكة ارسل اليه اهل الكوفة رسلاً يقولون له (قد حبسنا أنفسنا عليك ولسنا نحضر الجمعة مع الراي فاقدم الينا) وارسلوا اليه كتباً في ذلك .

وقد روى الطبري صيغة كتاب ارسله سليمان بن صرد كبير الشيعة في الكوفة نتيجة لاجتماع الشيعة في بيته وقرارهم دعوة الحسين اليهم هذه هي (بسم الله الرحمن الرحيم حسين بن علي من سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من اهل الكوفة . سلام عليك . فإننا نحمد اليك الله الذي لا إله الا هو اما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الامة فابتزها أمرها وغصبها فيأها وتآمر عليها بغير رضى منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وجعل مال الله دولة بين جبابرتها واغنياؤها فبعداً له كما بعدت ثمود . انه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه في عيد . ولو قد بلغنا انك اقبلت الينا اخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك ثم اتبعوا هذا الكتاب بكتاب ثان مع رسول ثان هذه صيغته (بسم الله الرحمن الرحيم حسين بن علي من شيعته اما بعد فحيلاً فان الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك فالعجل العجل والسلام عليك) (^٢) ثم اتبعوه بكتاب ثالث مع رسول ثالث في استعجال له (^٣) .

وفي رواية يرويها الطبري ايضاً ان اهل الكوفة ارسلوا للحسين يقولون له أنت معك

(١) نفس المصدر ص ٢٦١ .

(٢) نفس المصدر ٢٦١-٢٦٢ .

(٣-٤) نفس الجزء ص ٢٦١-٢٦٣ و٢٩٤ انظر ايضاً ابن الاثير ج ٤ ص ٨-٣٨ .

مئة ألف (١) . ثم تواترت عليه الرسل بالكتب فقرر ان يبعث ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابي طالب الى الكوفة لينظر ما كتبوا له فان كان حقاً خرج اليهم . وارسل معه كتاباً موجهاً لعموم المسلمين هذا نصه (٢) . اما بعد فان هائلاً وسعيداً قدما علي بكتبكم وكننا آخر من قدم علي من رسلكم وقد فهمت الذي ذكرتم وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي وأمرت أن يكتب إلي بحالكم وأمركم فإن كتب إلي أنه قد أجمع رأي ملئكم واهل الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم وقرأت في كتبكم أقدم عليكم وشيكا . إن شاء الله . فلعمري ما الامام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والهابس نفسه على ذات الله والسلام) .

وقد كتب الى اهل البصرة كذلك كتاباً جاء فيه (ان الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه واكرمه بنبوته واختاره لرسالته ثم قيضه إليه وقد نصح لعباده وبلغ ما أرسل به . وكننا أهله وأولياءه وأوصيائه وورثته واحق الناس بمقامه في الناس فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية . ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا بمن تولاه وقد أحسنوا واصلحوا وتحروا الحق فرحمهم الله وغفر لنا ولهم . وقد بعثت رسولي اليكم بهذا الكتاب وانا ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه فان السنة قد أميتت وان البدعة قد أحييت وإن تسمعوا قولي وتطيعوا امري أعذك سبيل الرشاد والسلام عليكم) (٣) .

وغادر عقيل مكة في ٨ ذي الحجة سنة ٦٠ فلما وصل إلى الكوفة نزل في دار المختار بن ابي عبيد الثقفي وأخذ الشيعة يجتمعون عليه ويؤكدون له ما كتبوه . وعلم والي الكوفة النعمان بن بشير الانصاري بالامر فجمع الناس وخطبهم قائلاً (اتقوا الله عباد الله ولا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيها يهلك الرجال وتسفك الدماء وتغضب الاموال . وإني احب العافية فلا اقاتل من لم يقاكني ولا اثب على من لا يشب علي ولا انحرش بكم ولا آخذ بالظنة والتهمة ولكنكم إن ابديتهم صفحتكم لي ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذي لا إله إلا غيره لا ضربنكم بسيفي ما ثبت قائم في يدي ولو لم يكن منكم ناصر . أما إني ارجو ان

(٢-١) نفس الجزء ص ٢٦١-٢٦٣ و ٢٩٤ انظر أيضاً ابن الاثير ج ٤ ص ٨-٣٨ .

(٣) نفس الجزء ٢٦٦ .

يكون من يعرف الحق منهم أكثر من يرديه الباطل) فقام له رجل فقال إن موقفك موقف المستضعفين ولا يصلح الأمر إلا الغشم (القوة والقسوة) فقال لأن اكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من ان اكون من الأعز من الأعز في معصية (١) .

وكتب انصار الامويين الى يزيد يشكون ضعف النعمان وعدم جده في الامر ويطلبون والياً أشد حزمًا وقوة فاستشار اخصاءه فأشاروا عليه بعبيد الله بن زياد الذي كان والياً على البصرة فكتب اليه بعهدته على البصرة والكوفة معاً في كتاب يقول له فيه (لقد كتب إلي شيعتي من اهل الكوفة ان ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين . فسر حين تقرأ كتابي حتى تأتي الكوفة فتطلبه حتى تثقفه فتوثقه او تقتله او تنفيه) (٢) .

ولقد كان من قرأ كتاب الحسين الى البصرة المنذر بن الجارود فخشي ان يكون في الامر دسيسة فجاء الى عبيد الله ومعه الرسول فلما قرأ الكتاب ضرب عنق الرسول ثم جمع الناس وخطبهم قائلاً : (اما بعد فوالله ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشانن وإني لثكل لمن عاداني وسم لمن حاربني . انصف القارة من رامها . يا اهل البصرة ان امير المؤمنين ولاني الكوفة وأنا غاد اليها الغداة وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد . فاباكم والخلاف والارجاف فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لاقتلنه وعريفه وولييه . ولاأخذن الأدنى بالاقصى حتى تستمعوا لي ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق) (٣) .

ثم جاء الكوفة وهو متعمم بعمامة سوداء ومعه جمع من اهل البصرة وفيهم التشيع لآل

(١) نفس الجزء ص ٢٦٤-٢٦٥ وابن قتيبة يروي رواية اخرى عن موقف النعمان حيث روي انه قال (لابن بنت رسول الله احب الينا من ابن مجدل يعني يزيد فبلغ يزيد فعزله) ج ٢ ص ٤ الامامة والسياسة ، وهذه الرواية محل شك كبير لان بشير بن النعمان ظل صاحب مركز مرموق عند يزيد بعهد الكوفة وهو الذي امره ان يجهز نساء الحسين بما يصلحهن ويحملهن الى المدينة على ما سوف يأتي شرحه في هذه النبذة ، وقد ارسله يزيد الى اهل المدينة حينما اعلنوا خلعه لينصحهم ويخوفهم على ما سوف يأتي في نبذة ثورة المدينة .

(٢) نفس الجزء ص ٢٦٥ .

(٣) ٢٦١ .

علي . فظنوه الحسين وصاروا يرحبون به ويخاطبونه بابن رسول الله . وكان ممن وقع في الوهم الرازي فلما قدم عبيد الله الى دار الامارة وطرق الباب هتف من ورائه (انشدك الله الا تجنبت عني فمالي في قتلك من أرب وما انا مسلم اليك امانتي) فصرخ به ابن زياد افتح لا فتحت فقد طال ليالك فسمعها شخص كان خلفه فعرف شخصيته وفتح النعمان وانفض الناس مذعورين ولقد كان المنزل الذي نزل فيه مسلم معروفاً فرأى ان يتحول الى منزل آخر فجاء الى دار هانيء بن عروة المرادي احد كبار الشيعة وقال له اتيتك لتجبرني وتضيفني فقال له رحمك الله لقد كلفتني شططاً ولولا دخولك داري لسألتك ان تخرج وآواه على مضض ، واخذ الشيعة يختلفون اليه في هذه الدار ويعطونه البيعة للحسين حتى بلغ عدد المبايعين (١٨٠٠٠) وحينئذ كتب الى الحسين كتاباً يقول له فيه (اما بعد فان الراشد لا يكذب اهله وقد بايعني من اهل الكوفة ثمانية عشر الفا فعجل الاقبال حين يأتيك كتابي فان الناس كلهم معك ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوى والسلام) ^(١) وحينئذ اعتزم الحسين الخروج الى العراق .

ولقد رويت روايات كثيرة غير منقوضة بروايات اخرى تفيد ان الحسين نصح من اطراف عديدة بعدم الخروج ، من ذلك ان عمر بن عبد الرحمن الخزومي حدث انه لما قدمت كتب اهل العراق الى الحسين ونهياً للسفر اليهم وهو في مكة جثته وقلت له اريد ان انصحك ان كنت ترى ان تستنصحنني والا كففت فقال قل فوالله ما اظنك بسيء الرأي ولا قبيح الهوى فقال له بلغني انك تريد المسير الى العراق واني مشفق عليك من مسيرك انك تأتي بلداً فيه عماله وامراؤه ومعهم ييوت الامول وانما الناس عبيد للدرهم والدينار ولا آمن عليك ان يقاتلك من وعدك نصره ومن انت احب اليه ممن يقاتلك معه فقال جزاك الله خيراً يا ابن عم فقد والله علمت انك مشيت بنصح وتكلمت بعقل ومها يقض من امر يكن اخذت برأيك او تركته فانت عندي احمد مشير وانصح ناصح فانصرف من عنده فدخلت على الحارث بن خالد بن العاص فسألني هل لقيت حسيناً قلت نعم قال فما قال لك وما قلت له فأخبرته فقال نصحته ورب المروة الشباء ثم قال :

وظنين بالغيب يلفي نصيحاً ^(٢)

رب مستنصح يغش ويردي

(١) من ٢٨٧ (٢) من ٢٧٠ و ٢٨١ .

وروى المسعودي : ان ابا بكر بن الحرث بن هشام دخل على الحسين فقال له يا ابن عم ان الرحم يضاؤني عليك ولا ادري كيف أنا في النصيحة لك فقال ما انت ممن يستغش فقال كان ابوك أشد بأساً والناس له ارجى ومذاسمع وعليه اجمع فسار إلى معاوية والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام وهو اعز منه فخذلوه وتثاقلوا عنه حرصاً على الدنيا فجرعوه الغيظ وخالفوه ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا وقد شهدت ذلك كله ثم أنت تريد أنت تسير إلى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ومن هو أعد منك وأقوى والناس منه أخوف وله ارجى . فلو بلغهم مسيرك لاستغطوا الناس بالاموال وهم عبيد الدنيا فيقاتلك من قد وعدك ان ينصرك ويخذلك من أنت احب إليه ممن ينصره فاذا ذكر الله في نفسك فقال الحسين جزاك الله خيراً يا ابن عم فقد اجهدت رأيك ومهما يقض الله يكنى^(١) .

وروى الطبري ان عبد الله بن عباس جاء اليه فقال يا ابن عم قد ارجف الناس أنك سائر إلى العراق فيين لي ما انت صانع فقال إني اجمعت المسير في احد يومي هذين ان شاء الله فقال له إني اعيزك بالله من ذلك . أخبرني اتسير الى قوم قد قتلوا اميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فان كانوا فعلوا ذلك فسر إليهم وإن كانوا إنما دعوك اليهم واميرهم عليهم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فانهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك وان يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك^(٢) فقال الحسين واني استخير الله وانظر ما يكون^(٣) وانه مرة ثانية فقال له اني انصبر ولا اصبر اني اتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال . ان اهل العراق قوم غدر بهم فلا تقربهم أقم بهذا البلد فانك سيد اهل الحجاز . وان كان اهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم . فان ابيت الا ان تخرج فسر الى اليمن فان بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة . ولا يبك بها شيعة وانت عن الناس في عزلة فتكتب الى الناس وترسل دعائك فاني ارجو ان يأتبك عند ذلك الذي تحب في عافية فقال له الحسين يا ابن عم إني والله لا علم انك ناصح مشفق ولكني قد ازمعت على المسير فقال له ان كنت سائراً فلا

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٥ - ٦ .

(٢) ج ٤ ص ٢٨٧ (٣) ٢٨٨ .

تسر بنسائك وجيشك فوالله اني لحائف عليك ان تقتل كما قتل عثمان وولده ينظرون اليه ثم قال له لقد اقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه والحجاز واخروج منها . وهو يوم لا ينظر اليه أحد معك . والله الذي لا اله الا هو لو أعلم انك اذا اخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علي وعليك الناس أطعني لفعلت ذلك ثم خرج فر بعبد الله بن الزبير فقال له قرت عينك يا ابن الزبير هذا حسين يخرج إلى العراق وعليك الحجاز . ثم انشد متمثلاً :

يا لك من قنبرة بمعر خلا لك الجو فيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري

وبما رواه الطبري في هذا السياق ان ابن الزبير جاءه وشجعه على المسير وقال له لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها . وان الحسين ادرك انما شجعه لئلا يخلو له الحجاز (١٧) .

ولقد روى الطبري ان الحسين لما خرج من مكة اعترضه رسل الوالي عمرو بن سعيد

(١) ج ٤ ص ٢٨٨ ومن الواجب ان نذكر ان هناك روايات اخرى رواها الطبري جاء في احدها ان ابن الزبير قال للحسين حينما قال له ما قاله وخشي ان يشبهه اما انك لو ائت بالحجاز ثم اردت هذا الامر ههنا ما خولف عليك ان شاء الله (٢٨٨) وفي احدها ان عبد الله بن مسعود والمذربي بن الشمعل هما الزبير يسار الحسين بين الحجر والباب فيقول له ان شئت ان تقيم ائت فقلت هذا الامر فازوداك وساعدناك ونصحناك فقال له الحسين ان ابي حدثني ان بها كبشاً يستحل حرمتهما فما احب ان اكون ذلك الكبش فقال له فأقم ان شئت وقولي لي الامر فتطاع ولا تعصى فقال له وما اريد هذا نصاً (٢٨٩) وفي احدها ان شخصاً سمع مباركة بين الحسين وابن الزبير فقال هذا ان الحسين انفتحت اليها فقال اندرون ما يقول ابن الزبير فقلنا لا فقال يقول اقم في هذا المسجد اجمع لك الناس ثم قال الحسين والله لان اقتل خارجاً منها بشير احب الي من ان اقتل داخلها بشير ، واما الله لو كنت في جحرها هامة من هذه الجوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم . والله ليعتدن عني كما اعتدت اليهود على السبت (٢٨٩) .

وقد روى ابن كثير رواية رابعة في هذا العدد جاء فيها ان الحسين قال لابن الزبير انتني بيعة اربعين الفاً يلفون بالطلاق والعناق فقال له اخرج الى قوم قتلوا اباك واخرجوا اخاك . (البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦١) .

بقيادة اخيه يحيى فقالوا له أين تذهب وطلبوا منه الانصراف فأبى فتدافع الفريقان وتضارباً بالسياط وامتنع الحسين منهم ثم مضى فناداه يحيى يا حسين اتق الله ولا تخرج من الجماعة وتفرق هذه الامة فأجابه بالآية لي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون ثم مضى (١) . ولا يبعد ان يكون الوالي قد ارسل الرسل مع اخيه لبذل محاولة في رده .

ولما بلغ التنعيم التقى بقافلة آتية من والي اليمن الى يزيد فيها حلال وورس فاحتازها ثم قال لاصحاب الابل من احب منكم المضي معنا الى العراق او فينا كراءه واحسنا صحبته فمضى معه بعضهم واعطى الآخرين كراءه فكان هذا اول عمل عدائي من الحسين استحل به قافلة للدولة واخذها .

وقد روى الطبري كذلك أن عبد الله بن جعفر لما علم بخروج الحسين من مكة ارسل اليه كتاباً مع ابنه عون ومحمد يقول فيه (اني اسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي فاني مشفق عليك من الوجه الذي توجه اليه ان يكون فيه هلاكك واستئصال اهل بيتك ان هلكت اليوم طفء نور الارض فانك علم المهتدين ورجاء المؤمنين فلا تعجل بالسير فاني في اثر الكتاب) .

ثم جاء الى عمرو بن سعيد الوالي فقال له اكتب للحسين كتاباً نجعل له فيه الامان وتمنيه فيه البر والصلة وتوثق له في كتابك وتسأله الرجوع لعله يطمئن الى ذلك فيرجع فقال له عمرو اكتب ما شئت حتى اختمه فكتب كتاباً باسمه هذا نصه (أما بعد فاني اسأل الله ان يصرفك عما يوبقك وان يهديك لما يرشدك . بلغني انك توجهت الى العراق واني اعيدك بالله من الشقاق فاني اخاف عليك فيه الهلاك وقد بعثت اليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد فأقبل الي معهما فان لك عندي الامان والصلة والبر وحسن الجوار لك الله علي بذلك شهيد وكفيل) فختمه عمر وذهب عبد الله ويحيى به حتى لحقا بالحسين واقرآه الكتاب فاعتذر وقال (اني رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ وامرت فيها بأمر أنا ماض له علي كان اولي فقالا له فما تلك الرؤيا قال ما حدثت بها أحداً وما انا محدث بها حتى القي ربي) .

ثم سلمها جواباً لسعيد يقول له (انه لم يشاقق الله ورسوله من دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين ، وقد دعوت الى الامان والبر والصلة . فخير الامان امان الله ، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا فنسأل الله مخافة في الدنيا توجب لنا امانته يوم القيامة وان كنت نويت بالكتاب صلي وبيري فجزيت خيراً) ثم استمر في سبيله ^(١) .

ولقد روى ابن كثير ^(٢) ان عبد الله بن عمر لما سمع بخروج الحسين الى العراق وكان هو في مكة لحق به على مسيرة ثلاث ليال فقال له ابن تيريد قال العراق . وهذه كتبهم ويبيعهم فقال له ابن عمر اني محدثك حديثاً ان جبريل اتى النبي ﷺ فيخبره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا . وانك بضعة من رسول الله ، والله ما يليها احد منكم ابداً وما صرفها الله عنكم الا للذي هو خير لكم فابي ان يرجع ، فاعتقه وبكى وقال له استودعك الله من قتيل .

كما روي عن سعيد ابن مينا انه سمع عبد الله بن عمرو يقول عجل حسين قدره . والله لو ادر كته ما تركته يخرج الا ان يغلبني ، ببني هاشم فتح هذا الامر وببني هاشم يختم ، فاذا رأيت الهاشمي قد ملك فقد ذهب الزمان ^(٣)

كذلك روي ان ابا سعيد الخدري جاء الى الحسين وقال له (اني لك ناصح واني عليك مشفق ، وقد بلغني انه قد كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك الى الخروج اليهم ، فلا تخرج . فاني سمعت اباك يقول بالكوفة والله لقد مللتهم وابغضتهم وملوني وابغضوني وما يكون منهم وفاء قط . ومن فاز منهم فاز بالسهم الاخيبي . والله ما لهم نيات ولا عزم على امر ولا صبر على السيف) ^(٤) .

وروي كذلك ان عبد الله بن مطيع لقيه في مكة فقال له (فداؤك امي وابي . امتعنا بك ولا تسر الى العراق . ولئن قتلك هؤلاء يتخذونا عبيداً وخولا) ^(٥)

(١) ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٠ .

(٣-٥) نفس المصدر ص ١٦١ - ١٦٣ .

وروي ان جابر بن عبد الله قال (كلمت الحسين وقلت له اتق الله ولا تضرب الناس بعضهم ببعض فو الله ما حمدتم ما صنعتم فعصاني) (١) .

وروي ايضاً ان يزيد بن معاوية كتب الى عبد الله بن عباس يطلب منه ان يكف الحسين وقال له (احسبه قد جاءه رجال من المشرق فمنوه بالخلافة وعندك منهم خبر وتجربة فان كان قد فعل فقد قطع راسخ القرابة وانت كبير اهل بيتك والمنظور اليه فاكففه عن الفرقة . وان ابن عباس دخل على الحسين فكلمه طويلاً وقال له انشدك ان تهلك غداً بحال مضیعة ، لا تأتي العراق وان كنت لا بد فاعلا فأقم حتى ينتقضي الموسم وتنقى الناس وتعلم ما يصدرن ثم ترى رأيك فأبى) (٢) .

وروي ان اخاه محمداً بن الحنفية لما علم بعزمه جاء من المدينة الى مكة ونصحه بعدم الخروج فلما لم يستجب له منع اولاده من الذهاب معه (٣) .

وروي الطبري ان الفرزدق لقي الحسين في طريقه فسأله عن انباء الناس خلفه فقال له (من الخبير سألت ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني امية والقضاء يزل من السماء والله يفعل ما يشاء ، قال صدقت) ثم حرك راحلته ومضى (٤) .

وكذلك روي ان احد بني عكرمة لقيه وهو نازل في بطن العقبة فسأله ابن تريدة فجذته فقال له اني انشدك الله لما انصرفت فو الله لا تقدم الا على الاسنة وخذ السيوف ، فلو كان الذين بغئوا اليك كفوك مؤونة القتال ووطنوا لك الاشياء فقدمت عليهم كان ذلك رأياً فقال له يا عبد الله انه ليس يخفى على ما رأيت ولكن الله لا يغلب على امره ثم ارتحل (٥) . بل ان الحسين استمر في سيره بعد ان وصله خبر مقتل مسلم وتفرق الناس عنه ايضاً .

ولقد ذكرنا قبل خبر التجاء مسلم الى دار هانيء بن عروة وكان هذا لا ينقطع عن مجلس

(١) نفس المصدر ص ١٦٦-١٦٣ .

(٢-٣) ص ١٦٤-١٦٥ .

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٥) ص ٣٠١ انظر هذه الروايات في ابن الاثير ج ٤ ص ١٥-١٨ .

ابن زياد فلما نزل عليه مسلم انقطع عن مجلسه واذا انسه مريض فجاء ابن زياد لعيادته
 فهم الشيعة بقتله في الدار فنجوا بتنبيه بعض من كان معه . ولما تأكد من ان هائناً يخفي
 مسلماً في داره استدعاه وعاتبه وطلب منه تسليم مسلم فأبى فهدده بدوره بل نصحه بالفرار
 وقال له ان لا يبك عندي يداً وبلاء فاخرج قبل ان تقتل فأثره وضربه وكسر انفه واعتقله
 ثم جمع الناس في المسجد الجامع وخطبهم وهددهم وتوعدهم . فرأى مسلم ان يبادر إلى العمل
 ويأخذ ابن زياد قبل ان يأخذه فاختر أربعة آلاف ممن بايعوه مشاة وخيالة وسار بهم نحو
 القصر حتى احاطوا به .

وقابل ابن زياد الموقف برباطة جأش وطلب من اشراف الكوفة تحذيل الناس عن
 مسلم وتخريفهم من العصيان والنكال والحرمان من العطاء ففعلوا فأخذ الناس ينصرفون
 عن مسلم فنزل عدد من كان معه في اول النهار الى ثمانمائة ثم استمر العدد في التناقص الى
 ثلاثين ثم انفض عنه هؤلاء ايضاً فمضى على وجه يتلذذ في ازقة الكوفة لا يدري اين يذهب
 حتى اتى الى باب امرأة كندية فطلب شربة ماء ولما لم ينصرف سأله عن امره فأخبرها وطلب
 منها ان تخفيه ففعلت .

وخفتت النامة حتى ارتاب ابن زياد من خفوتها ، ولما تحقق من انصراف الناس عن
 مسلم جمع الناس وخطبهم قائلاً (اما بعد فان ابن عقيل السفيه الجاهل قد اتى ماقد رأيتم من
 الخلف والشقاق . فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ومن جاء به فله ديتة فأتقوا الله
 والزموا طاعتكم وبيعتمكم ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً) ثم هتف بصاحب شرطته نكلتك
 امك ان خرج هذا الرجل ولم تأتني به وقد سلطتك على دور اهل الكوفة فابعت مرصدة
 على افواه السكك واصبح غداً واستبر الدور وجس خالها حتى تأتيني به . وعلم هذا بمكانه
 فارسل ثلة من الشرطة اليه فخرج اليهم مسلم يائساً مستبسلاً واخذ يصول عليهم ويلقي الرعب
 فيهم . وهتف محمد بن الاشعث به يا فتي لك الامان . لا تقتل . فاستمر يقاتل وهو يقول :

اقسمت الا اقل الا حراً	وإن رأيت الموت شيئاً نكراً
كل امرئ يوماً ملاق شراً	ويخلط البارد سخناً مرا
رد شعاع الشمس فاستقرا	اخاف ان اكذب او اغرا

وكرر ابن الاشعث هتافه له فقبل بعد ان اثخنته الحجارة التي رشق بها فامتلئ فأخذوا

سيفه فقال هذا اول الغدر وبكى وكان بقربه عمرو بن عبيد الله بن عباس فقال له ان من يطلب مثل الذي تطلب اذا نزل به الذي نزل بك لا يبكي فقال له والله ما لنفسي ابكي ولا لها من القتل ارثي ولكن ابكي لاهلي المقبلين ابكي الحسين وآل الحسين ، ثم اقبل على محمد بن الاشعث فقال له يا عبد الله والله ستعجز عن امانتي فهل عندك خير تستطيع ان تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلغ حسينا فاني لا اراه الا قد خرج اليكم هو واهل بيته فيقول له انت مسلماً اسير ولا يمسي حتى يقتل فارجع بأهل بيتك ولا يغرك اهل الكوفة فانهم اصحاب ابيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت او القتل ، وقد كذبوني وكذبوك وليس للكذاب رأي . فوعده بأن يفعل ثم ارسل شخصاً يخبره خبر مسلم ورسالته فلقي الحسين واخبره فقال كل ما هم نازل وعند الله نحتسب انفسنا وفساد امتنا ^(١) . ثم استمر في رحلته وكان في امكانه ان يعود .

ولقد احضر ابن زياد مسلماً الى مجلسه واخذ يندد به ويتجاوز معه فلما تيقن انه قاتله طلب ان يسمح له بمكاملة عمر بن سعيد بن ابي وقاص الذي كان في المجلس فسمح له فقال له مسلم ان علي ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة سبعةائة درهم فاقضها عني وانظر في جثتي فاستوهبها من ابن زياد فوارها وابعث الى حسين من يرده فاني قد كتبت اليه اعلمه ان الناس معه ولا اراه الا مقبلاً . فذكر عمر لابن زياد ما قاله له فقال له اما مالك فهو لك ولنا نمنعك ان تصنع فيه ما احببت واما جثته فانا لا نبالي اذا قتلناه ما صنع بها ، واما حسين فانه ان لم يردنا لم نرده ، وان ارادنا لم نكف عنه .

وتذكر رواية اخرى انه ابي الوعد بتسليم جثته وقال انه جاهدنا وجهد على هلاكنا، ولا تذكر الرواية ان عمر ارسل رسولا الى الحسين ، ولكن المرجح انه فعل اذ لم يمنعه ابن زياد وهو قرشي قريب النسب من حسين ومسلم .

ويروي الطبري بعد هذا حواراً جرى بين ابن زياد ومسلم وبخ فيه الاول الثاني على محاولته تفريق كلمة الناس ورد مسلم عليه بأنه انما جاء ليأمر بالعدل ويدعو الى حكم الكتاب ومحارب الظلم والانحراف عن حدود الله ثم تحول الحوار الى شتائم مقدعة ادلها الرجلان ثم

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

أمر ابن زياد بضرب عنقه فنفذ الشرطة امره ومسلم يقول اللهم احكم بيننا وبين قومنا غرونا وكذبونا وأذلونا، وبعد ذلك أمر ابن زياد بقتل هاني وابن عروة، وروي أنه كان يهتف وامدحجاه فلم يستجب إليه أحد .

ثم كتب ابن زياد كتاباً إلى يزيد أخبره فيه بما وقع ، وبعثه مع رسولين بعث معها رأس مسلم وهاني، وقال ليزيد : (فليسألها أمير المؤمنين عما أحب فان عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً) .

وقد كتب إليه يزيد جواباً قال فيه : (إنك لم تعد أن كنت كما أحب ، عملت عمل الحازم وصلت صولة الشجاع الرابط الجأش ، وقد بلغني ان الحسين توجه الى العراق فضع المناظر والمسالع واحترس على الظن وخذ على التهمة ، غير ان لا تقتل الا من قاتلك)^(١) .

ولقد روى ابن كثير^(٢) ان مروان بن الحكم كتب الى عبيد الله بن زياد حينما خرج الحسين الى العراق (إن الحسين قد توجه إليك وهو ابن فاطمة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وتالله ما أحد يسلم الله أحب إلينا من الحسين فإياك أن تهيج على نفسك ما لا يسده شيء ولا تنساه العامة ولا تدع ذكره آخر الدهر) حيث يبدو من الكتابين إن صعا وليس ما يمنع صحتها رغبة بني أمية تفادي قتال الحسين وحب الرفق به .

وهذه الرغبة بدت في وصية معاوية لابنه وكتابة يزيد لوالي المدينة وتصرف هذا الوالي مع الحسين على ما ذكرناه قبل .

ولقد روى الطبري ان رجلين من بني أسد كانا يحجان ورغباً في الانضمام الى الحسين فسارا مسرعين إليه بعد ان أدبا حججهما فلقياً شخصاً من قبيلتهما فسألاه عن الاخبار فقال لهما لم أخرج من الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهاني وابن عروة ورأيتها يجران بأرجلها في السوق فلما لحقا بالحسين أخبراه بما سمعا فقال إنا لله وإنا إليه راجعون فقالا له نشدك الله في نفسك

(١) السياق من الطبري ج ٤ ص ٢٨٢-٢٨٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٦٥ .

واهل بيتك إلا انصرفت من مكانك فانه ليس لك في الكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف ان تكون عليك فوئب عند ذلك بنو عقيل وقالوا لا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا فقال الحسين لا خير في العيش بعد هؤلاء ثم مضى ^(١) .

فلما صار بينه وبين القادسية ثلاثة اميال لقيه الحر بن يزيد التميمي فقال له ابن تريد قال اريد هذا المصر فقال له ارجع فاني لم ادع خلفي لك خيراً ارجوه واخبره بمقتل مسلم فهم ان يرجع فقال بنو عقيل ما قالوه قبل فقال لهم الحسين لا خير في الحياة بعدكم ثم استمر في سيره ^(٢) .

فلما قرب الكوفة نزل على ماء هناك وكان عليه عبد الله بن مطيع العدوي فقام إليه فقال له بأبي أنت وأمي ما اقدمك فقال له كتب إلي اهل العراق يدعونني الى انفسهم فقال له اذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الاسلام ان تنتهك انشدك الله في حرمة العرب . فوالله لئن طلبت ما في ايدي بني امية ليقتلنك ولئن قتلك لا يهابون بعدك احداً والله إنها لحرمة الاسلام ان تنتهك وحرمة العرب وحرمة قريش فلا تفعل ولا تأت الكوفة فأبى الا ان يمضي ^(٣) .

وروى ابن كثير ان جماعة من الكوفة مروا بالحسين في احد منازلهم فسألهم عما وراءهم فقالوا له : (اشراف الناس إلى بك عليك لأنهم عظمت رشوتهم وملئت غرائرهم . اما سائر الناس فأقندتهم تهوي إليك وسيوفهم غداً مشهورة عليك) .

وقد كان ارسل كتاباً مع رسول اسمه قيس بن سهر الى اهل الكوفة يقول فيه : (اما بعد فان كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقنا فسألت الله ان يحسن لنا الصنع وان يثيبكم على ذلك اعظم الاجر وقد شخصت اليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضي من ذي الحجة فاذا قدم عليكم رسولي فاكشوا امركم وجدوا فاني قادم عليكم في ايامي هذه ان شاء الله) .

فسأل الجماعة هل لكم برسولي علم قالوا اخذه الحصين بن نمير فبعث به الى ابن زياد فأمره

(١-٣) الطبري ج ٤ ص ٢٩٨-٣٠٠ .

ابن زياد ان يلعنك ويلعن اباك ويصفك بالكذاب ابن الكذاب فصرخ عليك وعلى ابيك ولعن ابن زياد واباه ودعا الناس الى نصرتك واخبرهم بقدمك فأمر به فالقي من رأس القصر فمات فترقرقت عينا الحسين وتروح عليه ^(١) . وان الطرماح بن عدي لقي الحسين فقال له ان ظاهر الكوفة ملوء بالخيول والجيوش يعرضون ليقصدوك وليس معك احد إلا هذه الشردمة اليسيرة فأنشدك الله إن قدرت ان لا تتقدم إليهم شبراً فافعل وإن اردت سرت معك الى جبلي اجا وسلمى حيث قومي وانا زعيم على عشرة آلاف طائي فلا يصل اليك ومنهم عين تطرف فقال له الحسين جزاك الله خيراً ولم يرجع عما هو في سبيله ^(٢) .

وقد روى الطبري ^(٣) ان الحسين لما تيقن من مقتل مسلم وتيقن من خذلان اهل العراق له قال لمن معه من غير اسرته ولمن انضم اليه في طريقه : (لقد خذلنا شيعتنا فمن احب منكم الانصراف فلينصرف) . فتفرق اكثر الناس ولم يبق معه الا ابناؤه واقاربه وبعض المخلصين من اوليائه ولم يكن يزيد مجموعهم عن المائة .

وقد روى الطبري روايات عديدة في كيفية نشوب القتال بين قوات ابن زياد والحسين وجماعته متفقة في النتائج مختلفة في التفاصيل . منها ^(٤) ان زياداً عين عمر بن سعد بن ابي وقاص والياً على الري ولكنه قال له اذهب بالجيش الذي معك فاكفني الحسين اولا فاستغفاه فلم يعفه فذهب على مضض . وكان الحسين قد عدل الى كربلاء فاسند ظهره الى قصباء كيلا يقاتل إلا من جهة واحدة وكان اصحابه خمسة واربعين فارساً ومائة راجل فلما اقبل عمر بن سعد عليه قال له الحسين اختاروا واحدة من ثلاث إما تدعوني انصرف من حيث جئت واما تدعوني اذهب الى يزيد واما تدعوني الحق بالنخور فقبل ذلك عمر وكتب الى زياد به فكسب له هذا جواباً قال فيه لا ولا كرامة حتى يضع يده في يده فقال الحسين لا والله لا يكون ذلك ابداً فقاتله فقتل اصحاب الحسين كلهم وفيهم بضعة عشر شاباً من اهل بيته وجاءهم فأصاب ابناً له في حجره فجعل يمسح الدم عنه ويقول اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا ثم امر بجبرة فشققها ثم لبسها وخرج بسيفه فقاتل حتى قتل . وقد قتله رجل من مذحج وحز رأسه وانطلق به الى ابن زياد وقال له :

(١-٣) الطبري ج ٤ ص ٢٩٧ وبعدها .

(٤) ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٤ .

أوقر ركابي فضة وذهبا فقد قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمأ وأبا وخيرهم اذ ينسبون نسباً

وأوفده ابن زياد^(١) ومعه الرأس الى يزيد، فوضع رأسه بين يديه وعنده ابو برزة الاسلمي
فجعل ينكت بالقضيب على فيه ويقول :

يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلاما

فقال له ابو برزة ارفع قضيبك فوالله لربما رأيت رسول الله على فيه يلثمه . وسرح عمر بن
سعد بحرمه وعياله الى ابن زياد ولم يكن بقي الا النساء وعلي بن الحسين وهو غلام مريض .
فأمر به ليقتل فطرحت زينب نفسها عليه وقالت والله لا يقتل حتى تقتلوني فرق لها وكف
عنه ثم جهزهم وحملهم إلى يزيد فأدخلهم على عياله فجهزهم وحملهم الى المدينة فلما دخلوها
خرجت امرأة من بني عبد المطلب ناشرة شعرها واضعة كها على رأسها تلقاهم وهي تبكي
وتقول :

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وانتم آخر الامم
بعترقي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وليس في الرواية بيان صريح عن الذي بدأ بالقتال . والمفروض ان جيش عمر حاول
ارغام الحسين على السير الى الكوفة تحت الحفظ فقاوموا فنشب القتال .

ولقد روى الطبري في سياق آخر نصوصاً أخرى للمراسلات التي جرت بين عمر بن سعد
وابن زياد . من ذلك ان نص كتاب عمر كان هكذا : (إني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه
رسولي فسأله عما أقدمه وماذا يطلب فقال كتب إلي أهل هذه البلاد واتتني رسلهم
فسألوني القدم ففعلت فاما اذ كرهوني فبدا لهم غير ما اتتني به رسلهم فانا منصرف عنهم) .

(١) يروي المسعودي ان ابن زياد قال للقاتل ان كان خير الناس أمأ وأبا وخير عباد الله فلم قتلته ثم
امر بضرب عنقه مروج الذهب ج ٣ ص ١٤١ .

فأجابه بما نصه : (قد بلغني كتابك فاعرض على الحسين ان يبايع يزيد بن معاوية هو وجميع اصحابه فاذا فعل ذلك رأينا رأينا) .

وقد روي ان عمر استحسن من ابن زياد هذا الجواب وقال قد حسبه الا يقبل العافية^(١) .

ومن ذلك ان كتاب عمر كان بهذا النص : (اما بعد فقد اطفأ الله النائرة وجمع الكلمة واصلاح امر الامة . فقد اعطاني الحسين ان يرجع الى المكان الذي منه اتى او ان يسيره الى اي ثغر من ثغور المسلمين شئنا فيكون رجلا من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم او ان يأتي يزيد امير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبين رأيه . وفي هذا لكم رضى وللامة صلاح) .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال هذا كتاب رجل ناصح لأمره مشفق على قومه . نعم قد قبلت . فقام اليه شمر بن ذي الجوشن ، فقال أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك الى جنبك . والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكون اولى بالقوة والعزة ولتكون اولى بالضعف والعجز فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه فان عاقبت فأنت ولي العقوبة وان غفرت كان ذلك له . والله لقد بلغني ان حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين فيحدثان عامة الليل .

فجعل هذا ابن زياد يعدل عن رأيه الى شمر وارسل شمر الى عمر وكتب له كتاباً يأمره به ان يبلغ عمر ليعرض على الحسين واصحابه النزول على حكمه فان فعلوا فليبعث بهم اليه مسلماً وإن أبوا فليقاتلهم فان فعل فاسمع له واطع وان هو أبى فقاتلهم فأنت امير الناس وثب عليه فاضرب عنقه وابعث إلي برأسه . وكتب الى عمر كتاباً يقول له فيه : (اني لم ابعثك الى حسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة ولا لتقعد له عندي شافعاً . فان نزل واصحابه على الحكم وامتلأوا فابعث بهم الي مسلماً وان أبوا فاحذف اليهم حتى تقتلهم وقتل بهم فانهم مستحقون لذلك . فان قتل الحسين فواطئ الحيل صدره وظهره . فانه عاق مشاق قاطع ظلوم ، فان انت مضيت لامرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع . وان ابست فاعتزل علمنا وجندنا واخل بين شمر

ابن ذي الجوشن وبين العسكر فانا قد امرناه بأمرنا) .

ويستمر الطبري في سياقه الذي يفيد ان عمر قبل تنفيذ امر ابن زياد على مضض وانهى الى الحسين انه مؤجله الى الغد فان استسلم مع اصحابه سرحهم الى الامير وان ابوا فلن يدعهم وشأنهم ، وفي الليل قال الحسين لمن معه من اقاربه وانصاره ان الطلب هولي فاذهبوا فتفرقوا في المدائن . فأبوا واعلنوا انهم سيبقون معه ويقاتلون الى جانبه . وفي الصباح اعلنهم الحسين رفضه للاستسلام فنشب القتال . واستمر حتى قتل معظم الذين معه او كلهم ^(١) .

وبما يروي الطبري ايضاً ان ابن زياد امر في كتابه عمر بن سعد بالحيولة بين الحسين واصحابه وبين الماء فلا يدوقوا منه قطرة كما صنع بالتقي الزكي المظلوم امير المؤمنين عثمان .

ويروي الطبري رواية عن عقبة بن سميان قال ^(٢) اني صحبت الحسين فخرجت معه من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ولم أفارقه حتى قتل وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا في العراق ولا في عسكر الى يوم مقتله الا وقد سمعتها ألا والله ما اعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من ان يضع يده بيد يزيد بن معاوية ولا ان يسيره الى ثغر من ثغور المسلمين ولكنه قال دعوني فلاذهب في هذه الارض العريضة حتى ننظر ما يصير امر الناس .

ومها يكن من امر هذه الروايات الواردة في هذا السياق التي يبدو بين بعضها تناقض وتداخل في المواقف المحلية فيها والتي يحسن الوقوف من بعضها موقف التحفظ فان السياق يفيد ان الحسين لما رأى رأي العين ان لا طاقة له بالقتال وان اهل العراق خذلوه ادرك ما كان منه من تورط فحاول التراجع فلم تقبل الدواة منه الا الاستسلام والنزول على حكمها فابى فكان القتال .

ويروي الطبري سياقاً آخر يخالف بعض ما جاء في السياق السابق من اسماء واحداث

(١) ٣١١ وبعبدا .

(٢) من ٣١٣ .

ونصوص ويتطابق مع بعض ما جاء فيه ايضاً ويبدو فيه تداخل في الوقت نفسه .

والمستفاد منه ان ابن زياد انما ارسل الجيش لنقاء الحسين وصدده مع الحسين بن غير وان هذا قدم بين يديه الحر بن يزيد بألف مقاتل وان عمر بن سعد انما جاء زدهاً لهذا .

وبما ورد في السياق الجديد ان الحر وجد الحسين قرب القادسية فسار وحضر صلاة الظهر فأذن مؤذن الحسين فقال الحسين هل تصلون لحدثكم قالوا بلى نصلي معكم فصلاوا وخطب الحسين فقال ايها الناس انما معذرة الى الله عز وجل واليكم ، اني لم آتكم حتى اتتني كتبكم وقدمت الي رسلكم يقولون ليس لنا امام فاقدّم علينا لعل الله يجمعنا بك على الهدى فان كنتم على ذلك فقد جئتم فان تعطوني ما اطمئن اليه من عهدكم ومواثيقكم اقدم مصركم وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي اقبلت منه اليكم .

فسكتوا وجاء وقت العصر فنادى الحسين للصلاة فصلى بالقوم ثم خاطب الناس قائلاً انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لاهله يكن ارضى الله ونحن اهل البيت اولى بولاية هذا الامر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم والسائر فيكم بالجور والعدوان وان كرهتمونا وكان رأيكم غير ما اتتني كتبكم انصرفت عنكم .

فقال له الحر والله ما ندري ما هذه الكتب التي تذكر ، فأمر الحسين احد اصحابه فأخرج خرجين مملوئين صحفاً فنشرها فقال الحر فاننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك وقد امرنا اذا لقيناك ألا نفارقك حتى نقدم بك على ابن زياد فقال الحسين الموت ادنى اليك من ذلك ثم قال لاصحابه قوموا فاركبوا فلما ركبوا ونهأوا للمسير حال القوم بينهم وبين الانصراف فقال الحسين للحر ثكلتك امك ما تريد ، قال اما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر امه ولكن مالي الى ذكر امك من سبيل الا بأحسن ما يقدر عليه . قال له فما تريد قال ان انطلق بك الى ابن زياد فقال والله لا اتبعك فقال له الحر والله لا ادعك ، ثم قال له الحر اني لم اوامر بقتالك وانما امرت ان لا افارقك حتى اقدمك الى الكوفة فاذا ابيت فخذ طريقاً لا تدخلك الكوفة ولا تردك الى المدينة لتكون بيني وبينك نصفاً حتى اكتب الى ابن زياد وتكتب انت الى يزيد او الى ابن زياد فلعل الله يأتي بأمر يرزقني فيه العافية من ان ابتلي بشيء من امرك .

فخاطب الناس بمثل ما خاطبهم به قبل ذاكر آحقه واولويته وجور سلطان بني امية ونكث عهد الله ومخالفة سنة رسوله وقال لهم انكم ان نقضتم عهدكم معي وخلعتم بيعتي فما ذلك بذكر لقد فعلتموها باي واخي وابن عمي مسلم .

وظل الحر يسايره ويقول له يا حسين اذكرك الله في نفسك فاني اشد لن قاتلت لتقتلن ولئن قوتلت لتهلكن فقال له اباالموت تخوفني وهل يعدو بكم الخطب ان تقتلوني ثم تمثل قائلاً :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى اذا ما نوى حقاً وجاهد مسلماً
وآسى الرجال الصالحين بنفسه وفارق مشوراً يغش ويرغماً

ولقد كتب الحر الى ابن زياد فأرسل اليه جواباً يقول فيه : (اما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي فلا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء وقد امرت رسولي ان يلزمك ولا يفارقك حتى يأتييني بانفاذك امري) .

وجاء عمر بن سعد ردهاً للحر فازداد الخطر على الحسين واهله واصحابه فطلب امهاله ليلة فامهله . وفي الليل قال لمن معه تفرهوا في السواد حتى يفرج الله فان القوم انما يطلبوني ولو قد اصابوني للهوا عن غيري وقال لبني عقيل حسبكم من القتل بسلم فأبوا وقالوا لن نتركك وسنقاتل معك ونفديك بانفسنا حتى نرد موردك .

واصبح الحسين فعباً اصحابه وجعل بينهم وبين القوم شبه خندق لئلا يأتوهم من ورائهم ثم دخل فسطاطه فتطلى بالنورة ثم خرج فركب دابته ودعا بمصحف فوضعه امامه وهتف بالناس مذكراً بصلته برسول الله ﷺ ومناشداً عدم انتهاك حرمة . وهتف احد ممن كان معه بالقوم الا تقبلون من الحسين خصلة من الحصال التي عرض عليكم فيعافيك الله من حربه وقتاله فهتف عمر بن سعد اني لم ار سبيلا الى ذلك . وليس للحسين الا ان ينزل على حكم الامير فنادى قيس بن الاشعث الحسين قائلاً او لا تنزل على حكم بني عمك فانهم لن يروك الا ما تحب ولن يصل اليك منهم مكروه فقال له لا والله لا اعطيهم بيدي اعطاء الذليل ولا اقر اقرار العبيد وحينئذ لم يعد يد من القتال .

ولقد بدأ القتال بالمبارزة حيث تبارز بعض اصحاب الحسين مع بعض اصحاب عمر ثم

اشتبك الجميع فيه . وقد قاتل الحسين واصحابه قتال الياثس المستبسل وكانوا يصلون على ما ترويه الروايات صولات جبارة ويرتجز بعضهم الارجيز ولكنهم كانوا امام عدد عظيم ، فقتل الحسين وجميع من معه وكان عددهم ٨٨ منهم ١٦ من صلبه وبني عـه . ولم يبق الا ابنه علي الذي كان صغيراً ومريضاً .

وقد اطنب الطبري في وصف سير القتال وما لقيه الحسين وصحبه من جهد وعطش لانهم منعوا من الماء وما تدفق منه من دماء السهام التي اصابته قبل ان يقتل ، وما قتل بين يديه من اولاده واهله وانصاره ، وما جرى بينه وبين نسائه من محاورات وما كان يجري بينه وبين اصحابه من ناحية وبين الفريق الآخر من ناحية من محاورات وهتافات عدائية وتنديدية متقابلة تخشى بل نرجح ان يكون اكثرها مصنوعاً للاثارة والتسوية .

وقد ذكر السياق ان اول قتيل قتل من اهل الحسين ابنه علي الاكبر وانه قاتل قتلاً باسلاً وكان يرتجز قائلاً :

انا علي بن الحسين بن علي نحن وبيت الله اولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي

وكان قاتل الحسين سنان بن انس وقد احتز رأسه ووقف به امام فسطاط عمر بن سعد يرتجز :

اوفر ركابي فضة وذهبا انا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس اما وابا وخيرهم اذ ينسبون نسبا

ثم اخذ الرأس الى ابن زياد فجعل ينكت ساعة بشنايا الحسين ، وادخل عليه بعد ذلك نساء الحسين فأمر لهم بنزل واجرى عليهم رزقاً وأمر لهم بنفقة وكسوة ثم سيرهم الى يزيد ، ويروى انه علق رأس الحسين في الكوفة اباماً ثم بعث به الى يزيد .

والسياق يذكر ان الحسين ليس وحده الذي احتز رأسه وبعث به الى يزيد بل كانت معه سبعون رأساً من رؤوس اصحابه ايضاً . وفي حين يذكر السياق ان ابن زياد عامل نساء الحسين وابنه بالرفق يذكر في مكان آخر انه ارسل علياً مغلول اليد وحملهم على اقتاب الابل

وشتم الحسين ونعته بالكذاب ابن الكذاب .

وبما يروى ان الذين حملوا الرأس الى يزيد حين اقبلوا عليه قالوا له أبشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره . ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من اهل بيته وستين من شيعته فسرنا اليهم فسألناهم ان يستسلموا وينزلوا على حكم الامير او القتال فاخثاروا القتال فغدونا عليهم فأحفظناهم من كل ناحية فما كان إلا جزر جزور او نومة قائل حتى اتينا على آخرهم فهاتيك اجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفورة فدمعت عين يزيد وقال قد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية . اما والله لو اني صاحبه لعفوت عنه فرحم الله الحسين ولم يصل المبشرين بشيء . ولما وضعت رأس الحسين ورؤوس اهل بيته واصحابه امام يزيد قال :

يفلقن هاماً من رجال اعزة علينا وقد كانوا اعز واضلماً

اما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك . ثم دعا بعلي الصغير بن الحسين ونسائه فادخلوا عليه وعنده اشراف الشام ^(١) فقال لعلي ابوك الذي قطع رحمي وجعل حقي ونازعي سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت . ثم أمر بانزالهم في دار وأمر لهم بما يصلحهم وكان لا يتغدى ولا يتعشى الا علي معه . ثم أمر النعمان بن بشير ان يجهزهم بما يصلحهم ويسيرهم الى المدينة مع اناس صالحين . ولما ارادوا الخروج دعا علياً فودعه وقال له لعن الله ابن مرجانة ، اما والله لو اني صاحبه ما سألتني حصة الا اعطيتها اياه ولدفعت عنه الخنف بكل ما استطعت ولو بذلت بعض ولدي ولكن الله قضى ما رأيت . فكاتبني وانه الي كل حاجة تكون لك .

وبما يروى ان يزيد قال لمن في مجلسه اتدرون من اين أتى هذا . قال ابي خير من ابيه . وامي خير من امه . وجدي خير من جده وانا خير منه واحق بهذا الامر منه . اما قوله ابوه خير من ابي فقد حاج ابي اياه وعلم الناس ايها حكم له . واما قوله امي خير من امه فلعمري ان فاطمة بنت رسول الله خير من امي . واما قوله جدي خير من جده فلعمري ما احد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندأً ولكنه اتى من فقهه ولم يقرأ

(١) يروي ابن قتيبة انه لما ادخلوا عليه بكى حتى كادت نفسه تفيض وبكى معه اهل الشام حتى علت اصواتهم .

قول الله (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير) .

ومها يكن كذلك في هذا السياق من روايات اوردتها وروايات اخرى اعملناها ما بينها وبين ما اوردناه من تشابه وبين بعضها من تناقض وتداخل . وفي بعضها غلو وقصد إثارة وتسويء وصنعة يحسن الوقوف منها موقف التحفظ فان الخطوط العامة فيه متساوقة في النتيجة مع السياق السابق من حيث كون القتال انما نشب بسبب امتناع الحسين عن النزول على حكم ابن زياد الذي لم يقبل الا ذلك .

وقد قتل الحسين رحمة الله عليه في صفر سنة ٦١ في رواية وفي العاشر من المحرم في رواية اخرى . وهذا هو المشهور .

ولقد ذكرت الروايات انه خرج الى العراق في ايام الحج وفي رواية في الثامن من ذي الحجة (١) غير ان هناك رواية تذكر ان مسلماً خرج من مكة في الثامن من ذي الحجة ايضاً (٢) . فتاريخ العاشر من المحرم كتاريخ قتله لا يمكن ان يكون صحيحاً إلا في حالة خروج مسلم بن عقيل قبل التاريخ المذكور بشهر على الأقل حيث يفرض ان مسلم وصل العراق بعد عشرة ايام على الأقل واقام فيها قبل ان يرسل اليه رسولا يدعوه للقدوم عشرة وقطع الرسول الطريق في عشرة وقطع الحسين الطريق في عشرة على اقل تقدير .

والسياق يفيد الى هذا ان القتال لم ينشب الا بعد وصوله بمدة ما . واختلفت الروايات في عمره حين قتل بين ٥٧ و ٦٦ والاول هو المعقول لأنه ولد في المدينة بعد الهجرة ببضع سنين .

والمشهور ان جسمه دفن في كربلاء في محل قتله الذي يعرف بالطف . وان رأسه ارسل الى يزيد ثم دفن في دمشق . وهناك رواية تذكر ان الرأس نقل الى مصر ودفن فيها ايضاً (٣) . ولقد رويت روايات عديدة وعجيبة على هامش مقتل الحسين . من ذلك ان هاتفاً من

(١-٢) الطبري ج ٤ ص ٢٨٦ ر ٢٩٠

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٤ .

الجن هتف في المدينة صبيحة قتله قائلاً :

ابشروا بالعذاب والتنكيل	أيها القاتلون ظلماً حسيناً
من نبي ومالك وقييل	كل أهل السماء يدعو عليكم
وموسى وحامل الإنجيل ^(١)	لقد لعنتم على لسان داود

ومن ذلك حديث عن علي قال : (دخلت على رسول الله ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان فقلت ما أبكاك يا رسول الله قال قام من عندي جبريل فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات وقال هل لك أن اشمك من تربته قال فمد يده فقبض قبضة من تراب فاعطانيها فلم املك عيني أن فاضت)^(٢) .

وحديث عن انس بن الحارث قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول ان ابني يعني الحسين يقتل بأرض يقال لها كربلاء فمن شهد ذلك منكم فليصره)^(٣) .

ومن ذلك حديث عن ابن عباس قال : (رأيت رسول الله ﷺ في المنام نصف النهار اشعث اغبر معه قارورة فيها دم فقلت بأبي وامي يا رسول الله ما هذا ، قال هذا دم الحسين واصحابه لم ازل التقطه منذ اليوم) قال الراوي فأحصينا ذلك اليوم فوجدناه قد قُتل في ذلك اليوم^(٤) .

ومن ذلك حديث مماثل جاء فيه ان امرأة اسمها سلمي دخلت على ام سلمة (ام المؤمنين) وهي تبكي فقالت ما يبكيك فقالت : (رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه ولحيته التراب فقلت مالك يا رسول الله قال شهدت قتل الحسين آنفاً)^(٥) .

ومن ذلك ان الذين قتلوه باتوا يشربون الخمر والرأس معهم فبرز لهم قلم من حديد فرسم لهم في الحائط بالدم هذا البيت :

أترجو امة قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب^(٦)

(١-٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٩٨-١٩٩ .

(٤-٦) البداية والنهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٠٠ .

ومنهم من كعب الاحبار ان اهل كربلاء لا يزالون يسمعون نوح الجن على الحسين وهم يقولون :

مسح الرسول جبينه	فله يريق في الحدود
ابواه من عليا قریش	جده خير الجدود ^(١)

ومنها ان طائفة من الناس ذهبوا في غزوة الى بلاد الروم فوجدوا في كنيصة مكتوباً :

اترجو امية قتلت حسيناً شفاعة جده يوم الحساب

فسألوا اصحاب الكنيسة من كتب هذا فقالوا انه مكتوب هنا من قبل مبعث نبيكم بثلاثمائة سنة^(٢) .

ومنها حديث عن ابن عباس ان الله اوحى الى محمد اني قتلت بيحيى بن زكريا سبعين الفاً وأناقاتل بابن بنتك سبعين الفاً وسبعين الفاً^(٣) .

ومنها رواية تذكر ان الشمس كسفت يوم مقتله حتى بدت النجوم وما رفع يومئذ حجر الا وجد تحته دم . وان ارجاء السماء احمرت وان الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنه الدم وان السماء صارت كأنها علقه وان الكواكب ضرب بعضها بعضاً وان السماء امطرت دماً احمر^(٤) .

والصنعة بارزة على هذه الروايات التي قصد بها التسويء والتحويل كما هو المتبادر .

ولقد اعتاد الشيعة ان يقيموا المناحات وان يلدمو اجسادهم بالايدي والحديد كل سنة يوم عاشوراء لاحياء ذكرى فاجعة مقتل الحسين ، وهذا بما صار مؤخراً حينما رسخت فكرة الشيعة العلوية وغدت نخلة عقيدية ، وليس هناك ما يبررها في اي حال الا الفكرة الحزبية الشيعية والرغبة في استمرارها والانطلاق من عقيدتها مع الاسف الشديد ليظل جمهور الشيعة الامامية مفتقرين عن جمهور المسلمين الاعظم وتتغذى بها الاحقاد التي تكمن وراءها المآرب الشخصية ، ومن الادلة على ذلك ان الشيعة لا يحيون ذكرى قتل علي بن ابي طالب على النمط

(١-٤) المصدر السابق ص ٢٠٠-٢٠٢ .

الذي يحيون به ذكرى الحسين وهو افضل منه وقتل ظالماً وهو امام المسلمين ، ولا يجيب احد ذكرى قتل عثمان الذي كانت ظروف قتله اشد بغياً وظالماً .

وبعد فهذه قصة خروج الحسين رضي الله عنه التي انتهت بقتله المفجع الذي كانت له على الاسلام والعرب آثار مشؤومة .

غير ان الروايات المروية تسوغ بدون ريب استخراج نتائج عديدة معقولة منها ، منها ان خروج الحسين كان تمرداً على سلطان يزيد بن معاوية الموطد ببيعة جماهير المسلمين في مختلف الامصار ومن جملة العراق ودعوة الى نقضها وتحدياً لهذا السلطان برغبة الحلول محل يزيد شخصياً واسروياً تستمد بواعثها من اعتقاد شخصي بالافضية والاولوية المستند بالدرجة الاولى الى كونه ابن بنت رسول الله ﷺ ، وان شخصية الحسين وصلته برسول الله هما اللتان اسبغتا على الحادث المعنى القدسي الذي اكتنفه فأدى قتله الى ما أدى إليه من مرارة وألم ونتائج مشؤومة ، في حين انه ليس هناك ما يبرر له ذلك من الوجهة الشرعية والقومية والسياسية ، فقد كان الحسين معترفاً بشرعية خلافة معاوية المستندة الىبيعة جمهور اهل الحل والعقد العامة له وبتنازل الحسن له وبيعته هو واخوته له ، وهو يعرف ان خلافة يزيد مستندة الى مثل هذه البيعة ، ولا يحل ان الخروج على الامام المستند الى مثل هذه البيعة موضوع وعيد وتدنيد نبويين شديدين ^(١) ، وعدم مبايعته شخصياً ليزيد وصلته برسول الله ﷺ واعتقاده بأفضليته واولويته بل والتسليم بذلك لا يمكن ان يبرر له الخروج عليه والدعوة الى نقض بيعته في نطاق توجيه الاحاديث النبوية العديدة .

وقد اعتبر اصحاب رسول الله ذلك منه تفريقاً للجماعة وناسدوه بتقوى الله في ذلك على ما تفيد الروايات المروية عن ابن عباس وابن عمر ، وما اثر عنه وسبق في مجال الدفاع من كون خروجه انما كان لمكافحة الظلم والانحراف واحياء احكام كتاب الله وسنة رسوله التي ماتت انما هو تبرير دعائي لا يتسق مع الظروف والوقائع ، فالحسين كان مبيتاً في نفسه امراً في حياة معاوية ، ومتربصاً وفاته ليظهر ما يبيته .

وقد امتنع عن البيعة ليزيد بعد موت معاوية بناء على ذلك ، وكان داخلاً في بيعة

(١) تمنع في الاحاديث النبوية التي اوردناها في مطلع فصل الحركات المعكرة .

معاوية وبالتالي معترفاً بشرعية خلافته .

ولم يكن قد مر على ولاية يزيد حينما امتنع عن مبايعته وخرج من المدينة الا ايام قليلة لم يرو احد عنه حادثاً ما خلاها فيه انحراف وبغي ومعصية ، حتى ان خروجه لا يشبه خروج الخوارج بسبب ذلك كله ، لأن هؤلاء اعتقدوا من الاصل بعدم شرعية حكم علي ثم حكم معاوية ومن بعده ولم يعترفوا به ، ولم يكن السلطان الشخصي او الاسروي هدفاً لهم حيث كانوا يبائعون من يرونه الافضل والاتقى والاشجع .

ولقد اوقفوا نشاطهم في عهد عمر بن عبد العزيز لأنهم رأوا ان ما يهدفون إليه من الحق والعدل والسيرة الصالحة متحقق بكل قوة في عهده على ما ألعنا إليه في سيرته .

وكتابة الشيعة في العراق ودعوتهم او بيعتهم له لا تبرر خروجه في حد ذاتها بقطع النظر عن كونه خرج من المدينة وهو مبين التية على الخروج لان هناك اماماً مبايعاً من قبل جمهور المسلمين ومن جملتهم اهل العراق ، وسلطانهم مستتب وحالة الدولة والمسلمين في كنفه حسنة ، وشذوذ اقلية من المسلمين ليس من شأنه ان يخل في ذلك في حال ، ويدخل في مدى النهي والتنديد النبويين .

وبتداول الشيعة احاديث نبوية بحق علي واولاده بالخلافة بعد النبي ﷺ ، وقد حصنا الامر بالنسبة لعلي رضي الله عنه الذي هو الاصل في الجزء السابق ووصلنا الى نتيجة سلبية منه .

ولا تذكر الروايات ان الحسين ساق شيئاً من ذلك او استند اليه في خروجه ، وقد كان تنازل الحسن لمعاوية ودخوله ودخول اخوته وبني هاشم عامة في بيعه معاوية بمثابة اقرار صريح ايضاً بأن ذلك لم يكن صحيحاً وانه انما وضع وتداول بعد هذه الحقبة .

ومن هذه النتائج انه ليس هناك ما يبرر نسبة قتل الحسين الى يزيد ، فهو لم يأمر بقتاله فضلا عن قتله ، وكل ما امر به ان يحاط به ولا يقاتل الا اذا قاتل ، ومثل هذا القول يصح بالنسبة لعبيد الله بن زياد ، فكل ما امر به ان يحاط به ولا يقاتل الا اذا قاتل ، وان يؤتى به إليه ليضع يده في يده او يبائع يزيد صاحب البيعة الشرعية ، بل إن هذا ليصح قوله بالنسبة لامراء القوات التي جرى بينها وبين الحسين وجماعته قتال ، فانهم ظلوا ملتزمين بما امروا به بل وكانوا يرغبون اشد الرغبة في ان يعافيم الله من الابتلاء بقتاله فضلا

عن قتله ، ويبدلون جهدهم في اقتاعه بالنزول على حكم ابن زياد ومبايعة يزيد ، فاذا كانت الحسين ابي ان يستسلم ليدخل فيما دخل فيه المسلمون وقاوم بالقوة لمقابلته وقتاله صار من الوجبة الشرعية والوجبة السياسية سائغاً .

وينطوي في هذا رد حاسم على الحملة الشديدة التي يشنها الشيعة منذ ثلاثة عشر قرناً على يزيد وابن زياد ، وتكون مسؤولية ما وقع من الحادث المفجع المشؤوم ونتائج عليه بدون ريب ، ولقد تلقى نصائح كثيرة جداً في المدينة وفي مكة وفي الطريق ومن اقاربه واوليائه ومحبيه بعدم الخروج وتقوى الله في تفريق جماعة المسلمين وتعريض نفسه للقتل ، ثم تيقن من انقراض الناس عن مسلم وتيقن انه لا قبل له بقتال قوات الدولة ، وكان في امكانه الرجوع لأنه تلقى الخبر قبل دخول العراق ، ومع ذلك فقد أصر إصراراً يثير أشد العجب على موقفه بما يزيد في عظم مسؤوليته ، وليس في نزوله على حكم سلطان الدولة نقص في دين ولا كرامة فصاحب هذا السلطان امام شرعي وحسين على كل حال فرد من امة المسلمين ولو فعل لما اصابه اذى بل ولنال التوقير والاحترام .

وهذا يجعل الروايات الواردة في حسن معاملة عبيد الله بن زياد ثم يزيد لابن الحسين الصغير وبناته ونسائه واستيائه يزيد لقتله وبكائه عليه ومشاركة اهله نساء ورجالا في ذلك اصح من تلك التي تذكر قسوتها وجفاءها ازاءهم ، ولا سيما انه لم يكن هناك قتال شديد يثير نقمة وانفعالا يمتد اثرهما الى النساء والاطفال وكان ما وقع من قتال على غير ارادتهم بل وعلى مضض منهم .

ولعل من الدلائل على ذلك ما رواه الطبري وابن قتيبة معاً من استمرار الصلات الحسنة والمكاتبات بين يزيد وعلي بن الحسين وما كان من موقف هذا ابان ثورة المدينة حيث روي انه لا علي ولا اقاربه اشتركوا في هذه الحركة وان يزيد وصى قائد جيشه به وامره بأن يديني مجلسه وان يبلغه انه وصل إليه كتابه وان هؤلاء الحثاء شغلوه عنه . وان القائد رحب به واجلسه معه على السرير وبلغه رسالة يزيد (١) .

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٠٠ وتاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٧٩ .

ومن العجيب ان الانفعال العاطفي يذهل اكثر الناس عن الحقائق الموضوعية في هذه المسألة .

ولقد روى اليعقوبي نص رسالة طويلة من عبد الله بن عباس الى يزيد بن معاوية يوجّه فيها اسد توبيخ واقسام ويتهمة بأمر عبيد الله بن زياد أن يستقبل حسيناً بالرجال وان يترك مصاولته وان يلج عليه حتى يقتله ومن معه من بني عبد المطلب .

ويذكر فيها ان الحسين طلب المواجهة من عبيد الله بن زياد ورجاله وسألهم الرجعة ولكنهم اغتصموا قلة انصاره فعدوا عليه وقتلوه واستأصلوا اهل بيته وان يزيد حمل نساء الحسين وصغار ولده كالسبي المجلوب ثم يندره ويتهده ويغمر به وبأبيه وبنسب زياد غمراً شديداً^(١) .

ونرجع بل نجزم ان الرسالة مصنوعة مؤخراً لتسوي سمعة يزيد ودمغه ودمغ عبيد الله بقتل الحسين عمداً . والروايات التي يرويها الطبري المغيرة لذلك كله اولى بالاعتماد والاطمئنان ولا سيما وفي هذه الروايات اقوال ومواقف لابن عباس متناقضة مع هذه الرسالة المزعومة .

ونشير بخاصة الى ما روي من نصائحه وتحذيراته المشددة التي اسداها الى الحسين حينما رآه معترفاً على حر كته .

وقد يقال انه كان على ابن زياد ان يراعي شخصية الحسين وان لا يصر على القдом إليه ووضع يده في يده او النزول على حكمه وان يقبل منه احدى الخصال التي عرضها ان صحت الروايات لأن هناك رواية تنفي ان يكون الحسين طلب ان يترك ليعود من حيث أتى او يذهب الى يزيد وتذكر ان كل ماطلبه ان يترك ليذهب في ارض الله العريضة .

وقد يكون هذا القول صحيحاً، ولكن نشاط شيعة علي رضي الله عنه ومواقفهم المزعجة التي كانت منذ عهد معاوية والتي ذكرنا بعض صورها ومنها قتل حجر بن عدي ورفاقه في سيرة معاوية كان ذا تأثير في الموقف الذي اصر عليه فيما يترأى لنا ، وليس فيما كان من

(١) ج ٣ ص ٢٢٠-٢٢٣ مطبعة الغري .

اصرار ابن زياد وامراء قواته ما لا تسيغه السياسة ومصلحة امن الدولة الشرعية ، عدا
عن انه قد يكون خشي من احتمال قيامه بحركة ثانية اذا ما تركه يرجع دون ان يبايع
ليزيد .

ونشهد الله على اننا لم نكتب ما كتبناه عن هوى او بغض للحسين وآل البيت وعلى اننا
نكن لهم اشد الاحترام والمحبة لصلتهم الشريفة برسول الله ﷺ .

ولكننا كمؤرخين لا يسعنا ان نكتب غير ذلك اذا اردنا ان نلتزم المنطق والانصاف
والحق لأن الروايات التي تطمئن بها النفس لا تسمح بغيره .

ولم ننفر هذه النتائج التي استنتجناها من الروايات . فهناك كثيرون غيرنا يشاركوننا
فيها ، بل وإنه ليشاركنا فيها كل منصف متجرد عن الهوى من المسلمين على اختلاف طوائفهم .
ونورد هنا قولين في ذلك احدهما للامام المصالح العظيم ابن تيمية ، والثاني للمؤرخ المحقق
الشيخ محمد الحصري رحمهما الله .

ولقد اورد الامام ابن تيمية خبر ما تلقاه الحسين من نصائح كثيرة بعدم الخروج
والتحذير من العواقب ثم قال انه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا . وكان
في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده . فان ما قصده من تحصيل الخير
ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ونقص الخير بذلك وصار سبباً لشر
عظيم ، وكان قتل الحسين مما اوجب انفتق (١) .

اما الشيخ الحصري فانه عقب على حادث قتل الحسين قائلاً : (وعلى الجملة ان الحسين
اخطأ خطأ عظيماً في خروجه هذا الذي جر على الامة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عهده
إلقتها الى يومنا هذا ، وقد اكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك الا ان
تشتعل النيران في القلوب فيشتد تباعدها . وغاية ما في الامر ان الرجل طلب امراً لم يتهيأ له
ولم يعد له عدته فجعل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه ، وقبل ذلك قتل ابيه فلم يجد من
اقلام الكتّاب من يبشع امر قتله . ويزيد به نار العداوة تأجيحاً . والحسين قد خالف يزيد

(١) انظر المنتقى من منهاج السنة من ٢٨٧-٢٨٨ .

وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العنف عند اظهار الخلاف حتى يكون في الخروج مصلحة للامة (١).

٣ - حركات ثارات الحسين وحركة المختار بن ابي عبيد الثقفي

هذه الحركات متداخلة في بعضها ولذلك جعلناها في نبذة واحدة ويقص الطبري قصة هذه الحركات بأسهاب عجيب ويروي روايات عديدة في صدها عن رواة مختلفين فيها كالعادة تغاير في الأسماء والاحداث ويبرز على بعضها المبالغة والخيال ولكن الراجح انها تحتوي كثيراً من الحقائق ومن العجيب ان ابن قتيبة لم يورد في كتابه الامامة والسياسة الا حادثة قتل المختار لاحد قواد الجيش الذي قاتل الحسين ثم قتل مصعب بن الزبير للمختار .

وهذا عرض لقصة هذه الحركات مقتبس من الجزء الرابع من تاريخ الطبري الذي استغرقت منه نحواً من مئة وخمسين صفحة (١) .

وقد كانت حركات ثار الحسين مزدوجة القيادة في بعض ظروفها . حيث كانت بقيادة زعماء الشيعة ثم اندمج فيها المختار بن ابي عبيد الثقفي الذي يبرز ليقود حركة منفصلة من جهة ثم تطورت تطورات خطيرة .

ولقد شعر شيعة آل البيت بما كان في تقصيرهم وخذلهم للحسين من خزي وإثم ورأوا انه لا يغسل عارهم واثمهم الا بقتل قاتليه او القتل في سبيل ذلك فقاموا في سنة ٦٤هـ بحركة عظيمة امتدت ثلاث سنين ونتج عنها مأس مروعة جديدة صبغت بها ارض العراق بل والجزيرة بالدماء وزهقت فيها ارواح الآلاف المؤلفة كثير منها لم يكن لها ضلع في قتل الحسين . واشتدت بها الاحقاد القبلية من جهة وفكرة التشيع والنصب (بغض آل علي) من جهة اخرى .

(١) محاضرات الحضري تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) ص ٤٢٦-٥٧٧ انظر ايضاً تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ٦٢ وبعدها .

ويروي الطبري في صدد حركة القيادة الاولى ان الشيعة في الكوفة تلاقوا بالتلاوم والتندم ورأوا أنهم قد اخطأوا خطأ كبيراً بدعوتهم للحسين وتركهم نصرته وقالوا له انه لا يغسل عارهم وإثمهم ولا تقبل توبتهم الا بالتبويض لأخذ ناره من قاتليه ، وفزعوا الى خمسة من رؤوسهم في الكوفة وهم سليمان بن صرد الحزاعي والمسيب بن نجيبه الفزازي وعبد الله بن سعيد الأسدي وعبد الله بن وال التيمي ورفاعة بن شداد البجلي . فاجتمع هؤلاء مع اناس من خيار الشيعة في بيت اولهم فتذاكروا ثم اتفقوا على ان يزعموا سليمان للحركة . وان يجمعوا الاموال اللازمة ويعدوا السلاح . ويتصلوا باخوانهم في البلاد الاخرى .

ويروي الطبري ان الكلام في هذا الامر بدأ في سنة ٦١ بعد قليل من مقتل الحسين واخذوا من ذلك الوقت في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعوة الناس في السر من الشيعة وغيرهم فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر ، فلما مات يزيد بن معاوية جاؤوا الى سليمان فقالوا قد مات الطاغية والامر الآن ضعيف فان شئت وثبنا على عمرو بن حريث عامل الكوفة واخرجناه ثم اظهرنا الطلب بدم الحسين وتبعنا قتله ودعونا الناس الى اهل البيت المستأثر عليهم المدفوعين عن حقهم ، فقال لهم رويداً لا تعجلوا . إني قد نظرت فيما تذكرون فرأيت ان قتلة الحسين هم اشراف اهل الكوفة وفرسان العرب ومتى علموا ما تريدون وعلموا انهم المطلوبون كانوا أشد عليكم ونظرت فيمن يتبعني منكم فعلمت انهم لو خرجوا لم يدر كوا نأرهم ولم يشفوا أنفسهم وكانوا لهم جزراً . ولكن بشوا دعائكم في المصر وادعوا الى أمركم شيعتكم وغيرهم فاني ارجو ان يكون الناس اليوم اسرع استجابة من قبل ، فاندفعوا يدعون الناس حتى صار المستجيبون إليهم بعد هلاك يزيد اضعاف من استجاب لهم قبل ذلك .

وفي هذه الاثناء حدثت ثلاثة احداث هامة في العراق ، وهي انسحاب عبيد الله بن زياد والى العراق وعمال بني امية من العراق ، ودخول العراق في بيعة عبد الله بن الزبير الذي خلع يزيد واخذ البيعة لنفسه في الحجاز على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة وقدم عماله الى العراق ، وظهور المختار بن ابي عبيد الثقفي ، باسم طلب ثارات الحسين والدعوة الى محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية .

وفي صدد الحوادث الاول يروي الطبري روايتين مختلفتين في الاحداث متفقتين في النتائج . وقد جاء في الرواية الاولى ان ابن زياد خطب في اهل البصرة فقال ان امير المؤمنين قد مات فأجمعوا امركم على شخص حتى تجتمع كلمة المسلمين على خليفة . فقالوا له نبايعك فأبى فكروا حتى رضي ولكنهم لم يلبثوا أن تنكروا له وارادوا ان يشوا عليه . وحاول إرغامهم فلم يطعه الجند فما كان منه الا ان حمل ما في الخزانة من اموال كان يريد توزيعها عليهم وخرج من البصرة ثم من العراق حتى لحق بالشام بمساعدة وجوار زعيمين من زعماء العراق ، وقد انسحب بانسحابه سائر عمال الامويين في العراق .

وجاء في الرواية الثانية انه لما قال لهم ذلك اقترح عليهم ان يبايعوه فسبوه وحصبوه فاستجار بالزعيمين القويين وخرج بمساعدتهما من العراق حتى لحق بالشام ، وقد اتفق اهل الكوفة والبصرة بعد انسحاب عمال بني امية على اشخاص للحكم والصلاة مؤقتاً الى ان جاء عمال ابن الزبير ، وكان انسحاب ابن زياد في شوال سنة ٦٤ . ولقد مات يزيد في ربيع الآخر من هذه السنة وتنازل ابنه بعد ولايته مدة قصيرة . وكان تنازله بل وموته على كل حال قبل شوال ، حيث يتبادر ان ابن زياد خطب خطبة وطلب البيعة لنفسه او عرضت عليه على اختلاف الروايات بعد فراغ العرش الاموي بتنازل معاوية وليس بعد موت يزيد . وان في الخبر النبأ^(١) .

ولقد ذكر ان ابن قتيبة^(٢) ان اهل العراق بايعوا بعد خروج ابن زياد لعبد الله بن الزبير وكتبوا له فأرسل لكل من البصرة والكوفة والياً ووكيلاً للخراج .

وبما رواه الطبري^(٣) في صدد حادث ظهور المختار ان هذا قدم من الكوفة على عبد الله ابن الزبير في مكة اثناء حصارها من قبل جيش يزيد ومعه ثلاثمائة رجل فقال لابن الزبير هلم ابايعك على ان لا تقطع امراً دوني فتردد فقال له احد اخصانه اشتر منه دينه وبايعه فقبيل

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٨٧ وبعبها انظر ايضاً تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٠٥ وبعبها .

(٢) الامامة والسياسة ص ١٨ وبعبها .

(٣) ج ٤ ص ٥٤٥ وبعبها .

ابن الزبير ، وحينئذ قاتل جيش الشام مع ابن الزبير قتالا عظيماً ، وكان مسلم بن عقيل حينئذ قدم من طرف الحسين قد نزل اول الامر في دار المختار وجرى بينه وبين ابن زياد عتاب فأهانته هذا وضربه فحقد عليه واقسم ليقطعنه اربا اربا . وفي هذه الاثناء قدم على مكة رجل من الكوفة فسأله عن الاحوال فقال له ان الناس يريدون الانحياز الى ابن الزبير . ولو كان لهم رجل يجمعهم اكل بهم الارض فقال المختار انا ابر اسحاق انا والله اجمعهم ثم خرج الى الكوفة فلما قدم قال للناس ابشروا فقد قدمت عليكم بما يسركم فان المهدي ابن الوصي محمداً بن علي ابن الحنفية بعثني اليكم اميناً ووزيراً واميراً وامرني بقتال الملحدين والطلب بدماء اهل بيته والدفاع عن الضعفاء وجعل ثارات الحسين شعاراً له وما زال يكرر كلامه حتى استجاب له جماعة كبيرة من الناس من شيعة وغير شيعة ، وقد قيل له إن الشيعة اجمعوا امرهم على تولية سليمان بن صرد للمطالبة بثارات الحسين فكان يقول ان هذا ليس بذي تجربة للامور وليس لهم علم بالحروب وانما يريد ان يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم .

ويروي المسعودي في ظهور المختار رواية مخالفة لما رواه الطبري تفيد ان المختار قد اثر طموح ابن الزبير الى العراق وقال له لو كان لأهله رجل له رفق وعلم لاستخرجك منهم جنداً تغلب بهم اهل الشام واقترح عليه ان يقوم بالمهمة فجاء واخذ ينترب الى الشيعة ويبكي على اهل البيت ويحث على اخذ ثارات الحسين فمالت الشيعة اليه وغلب على الكوفة . ثم خلع ابن الزبير وكتب الى علي بن الحسين يريد ان يباعد عنه ويظهر دعوته وانفذه له مالا فأبى وسبه على رؤوس الملاء وظهر كذبه وفجوره في مسجد رسول الله . فلما يئس منه كتب الى محمد بن الحنفية يريد ان يثبته على مثل ذلك ايضاً ، غير ان المختار لم يبال وظل على دعوته باسم محمد ابن الحنفية وهتافه بثارات الحسين^(١) .

ونعود الى سياق الخبر فنقول ان سليمان ورفاقه الزعماء وجمهور الشيعة ظلوا على عزيمتهم ودعوا الذين اكتبوا للجهاد الى الاجتماع في مكان اسمه النخيلة في شهر ربيع الآخر سنة ٦٥

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

فلما جاء الوعد كان عدد المجتمعين ٤٠٠٠ مع ان العدد المكتتب كان ستة عشر ألفاً
وكان هذا النقص نتيجة لتثبيط المختار .

ولقد بلغ سليمان ان عبد الملك بن مروان سير بقيادة عبيد الله بن زياد والحسين بن نير جيشاً
لإعادة العراق إلى السلطان الأموي فانصرف تفكيره إلى الاتجاه إلى لقائه وبدء الجهاد به
على اعتبار ان ابن زياد هو الذي بعث الجيوش لقتال الحسين وان الحسين كان قائداً لها .
وقال لأصحابه ان يظهر كم الله عليهم كان من بعده أهون شوكة منه . وان قاتلتم قبل ذلك
اهل مصركم لم يعدم رجل ان يرى رجلاً قد قتل اخاه او اباه او حميمه فاقنعوا .

وكتب له والي الكوفة من قبل ابن الزبير ينصحه بالتريث ويعده بالتضامن على لقاء ابن
زياد معاً ويخوفه من الانفراد على ما هو عليه من قلة وضعف فأبى وقال اني لا ارى الجهاد
مع ابن الزبير الا ضللاً .

وخطب في الناس محرّضاً محمّساً ثم انجهوا اولاً إلى قبر الحسين فأقاموا به ليلة ويوماً يصلون
ويستغفرون^(١) ويكفون ويترحمون على الحسين ويلعنون قاتليه ويشهدون الله على تصميمهم
على مجاهدتهم ويطلبون منه النصرة ثم نحر كوا نحو الشام بطريق الانبار فهيت فقرقيسيا .

وجاءهم خبر بأن ابن زياد والحسين جاؤوا بعدد كثير وجد وحديد ، ونصحهم والي
قرقيسيا وكان هواه معهم بأن يبقوا عند مدينته وان ساؤوا فتحها لهم حتى اذا جاء الجيش
الشامي قاتلوه عندها وقاتل معهم فأبوا الا ان يسيروا حتى بلغوا عين الوردية ، وبلغهم ان
الجيش الشامي مقبل فقرروا البقاء حيث هم وامسأروا واطمأنوا وخطبهم سليمان ثانية محمّساً
محرّضاً على الجهاد وعين رفاقه الاربعة الذين ذكرنا اسماءهم قبل قواداً بعده بالتوالي اذا ما
اصابه حدث .

(١) سام الطبري عند تحركهم هذا بالتواين . وليس في عبارته ولا سياقه ما يساعد على القول

اذا كان هذا الاسم قديماً نقله كما روي له ام كان منه نعتاً لحركتهم . (ج ٤ من ٤٥١) .

ثم ارسل طلائعه فأشرفوا على طلائع الجيش الشامي وهم غارون فحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم عدداً ، فارسل ابن زياد الحصين باثني عشر ألفاً ، فلما تدانوا من بعضهم دعا الحصين الجيش العراقي الى الجماعة والدخول في طاعة عبد الملك بن مروان ، وطلب الجيش العراقي الجيش الشامي بالمقابلة تسليم ابن زياد ليقتلوه بالحصين وخلع عبد الملك ورد الامر الى اهل بيت النبي ورفض كل من الطرفين دعوة الآخر .

واخذت الاشتباكات تقع بينها شديدة ضارية ويقع القتل والجرح فيها بمقياس واسع . غير ان الجيش الشامي كان اكثر عدداً واحسن عدة . فلما كان من سليمان الا ان كسر جفن سيفه وهتف : من اراد البكور الى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فالي . فأقبل عليه الناس كلهم بن جفان سيوفهم وحملوا حملة جبارة وقتلوا قتلاً بطولياً وقتلوا من اهل الشام مقتلة عظيمة وجرحوا منهم عدداً عظيماً ، ولكنهم كانوا اكثرهم ورشقوهم بالنبال ودموهم بالخيـل حتى كسروهم وهزموهم وقتل قوادهم الخمسة واحداً بعد آخر .

واصبح الحصين فاستطلع طلع القوم فوجد الارض خالية منهم فلم يبعث احداً في اثرهم ، وارسل الحصين بشرى الفتح الى عبد الله فحمد الله وخطب في الناس منوهاً بالنصر مبشراً بالتأييد .

ولما بلغ المختار ما حن بسليمان وجيشه برز للميدان ليتزعـم حركة النار الذي اشتد في نفوس الشيعة بما حن في اخوانهم من القتل والهزيمة ، واصطدم اولاً بابراهيم بن الاشتر الذي انضوى اليه جمهور الشيعة ثم يراحي ابن الزبير ، وكان اصطدامه بالاول لارتباب هذا في دعوى المختار بأنه مكلف من قبل محمد بن الحنفية .

ولقد سافر بعض الشيعة الى مكة ليقابلوا محمداً ويعرفوا الحقيقة منه فقابلوه واخبروه بدعوى المختار فأجابهم باجابة لا تنفي ولا تثبت حيث قال لهم : (واما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم الى الطلب بدمائنا فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه) .

ولكن الوفد فهموا من الجواب تأييداً لدعوى المختار فعادوا فأخبروا اجماعتهم ودخلوا على المختار فقالوا له امرنا بنصرتك وكان قد شق عليه سفرهم خشية ان يأتوا بامر يخذل الشيعة عنهم

فلما قالوا لهم ذلك قال الله اكبر وجمع الشيعة فقال لهم إن نفراً منكم احبوا ان يعلموا مصداق ما
جئت به فرحلوا الى امام المهدي فنبأهم بأني وزيره وظهره ورسوله وامركم باتباعي وطاعتي
فيا دعوتكم إليه ، وصادق رئيس الوفد على كلامه فكان ذلك نجاحه الاول في زعامة الشيعة .

ولقد ظل ابراهيم ابن الاشر مرتاباً فذهب المختار إليه في جماعة من انصاره وقال له لقد
جئت بك كتاب من الامام المهدي ثم دفع إليه كتاباً محتوماً ففضه فاذا فيه : (من محمد المهدي الى
ابراهيم بن مالك الاشر سلام عليك فاني احمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، ما بعد فاني قد
بعثت إليكم بوزيري واميري ونجيبي الذي ارتضيته لنفسه وقد امرته بقتال عدوي والطلب
بدماء اهل بيتي فانقض معه بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك فانك ان نصرته واجبت دعوتي
وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة ولك بذلك أعنة الحيل وكل جيش غاز وكل
مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه بين الكوفة واقصى بلاد الشام وعلى الوفاء بذلك عهد الله ، فان
فعلت ذلك نلت به عند الله افضل الكرامة وإن ابيت هلكت هلاكاً لا تستقبله ابداً
والسلام عليك) .

فقال فمن يعلم ان هذا كتابه فتبرع اثنان بالشهادة فأخذ منهم عهداً خطياً لانه ظل
مرتاباً في قرارة نفسه ثم بايع هو الآخر المختار فكان ذلك نجاحه الثاني (١) .

ولقد قيل لوالي ابن الزبير في الكوفة ان المختار والشيعة يريدون ان يشبوا عليك ويطالبون
بدم الحسين فخطب الناس منذراً مهدداً وقال ما انا قتلت الحسين ولا انا من قاتله ومن اراد
قتال قاتليه فهام مقبلون عليكم بقيادة ابن زياد على مسيرة ليلة من جسر منبج . وإني لن
اقاتل احداً ما لم يقاتلني فمن قاتلني قاتلته .

ورأى وكيل الحراج موقف الوالي ضعيفاً فكتب الى ابن الزبير فعزله وعين مكانه
عبد الله بن مطيع وجاء هذا فدشن عمله بخطبة قوية وانذر وتوعد واستطاع ان يعتقل المختار
اسبوعين ، غير ان جماعة المختار قابلوا الموقف بمنتهى الشجاعة واخرجوا منه صاحبه ثم

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٩٢-٤٩٦ .

اضطروا بزعامة المختار الوالي الجديد الى الخروج من الكوفة .

وحينئذ بسط هذا سيطرته عليها وعلى ما والاها من الشمال والغرب حتى الموصل وارمينية
واخذ يجبي الحراج واستفعل امره بل لقد طمح الى الحجاز ايضاً حيث ارسل جيشاً لمساعدة
ابن الزبير على دفع جيش اموي وجهه عبد الملك الى الحجاز في الظاهر بعد مكاتبة جرت بينه
وبين ابن الزبير وامر قائد الجيش ان يحتل المدينة ويقيم عليها اميراً ثم يسير فيحاصر ابن
الزبير في مكة ويقاته ان امكنه ذلك .

وقد اخفق في حركته هذه لان ابن الزبير ادرك مكر المختار فأوقع في الجيش الذي
ارسله حتى اتى على اكثره ، وكتب المختار الى محمد بن الحنفية بما فعله ابن الزبير وعرض عليه
ارسال جيش آخر لارغام ابن الزبير اذا هو وافق وامر اهل المدينة بالمساعدة فكتب اليه
محمد جواباً غير مشجع وامر الرسول بأن يبلغه ان يتقي الله ويكف عن الدماء ، فوقف
الامر عند هذا الحد (١) .

ولقد حاول ان يبسط سيطرته على البصرة وما والاها ولكنه اخفق ايضاً فاكفى بما
ناله من سلطان في الكوفة وما فوقها من شمال وشرق وغرب (٢)

وبعد ان تم له ذلك اندفع هو والشيعة في ملاحقة من ظنوا انهم اشتركوا في قتال
الحسين من جند ابن زياد والحسين بن نمير وعمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن تحت شعار
يا ثارات الحسين وقتلوا خلقاً كثيراً ، وكان المطلوبون يقابلونهم وذوهم القوة بالقوة
فتجري معارك ضارية بين الفريقين ، وكانوا يعتقلون الناس بالمئات فيعرضونهم على المختار
فيأمر بضرب عنق كل من استبه فيه انه شهد مقتل الحسين او شهد عليه بذلك .

وقد قتل اناس كثيرون في سياق ذلك ليس لهم اي خلع وانما بشهادة اناس لهم ثارات
او عدا او مارب ، وقد قتلوا فيمن قتلوه محمد بن الاشعث وشمر بن ذي الجوشن وعمر
بن سعد بن ابي وقاص .

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٤٠-٥٤٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٣٦ .

ثم سير المختار جيشاً بقيادة ابراهيم بن الاشرث لقاء جيش ابن زياد الذي استمر في سيره بعد انتصاره حتى دخل ارض الموصل ، وكان الجيش الشيعي هذه المرة اكثف واغوى من الجيش الشيعي الاول ، وقد اشتبك الفريقان في حرب ضارية ، وكان ابن الاشرث يتف بمجماعته محملاً محملاً وكان هو نفسه يصول صولات جبارة ، وقد دارت الدائرة في النهاية على الجيش الشامي بعد ان قتل من الطرفين مقتلة عظيمة ، وكان ابن زياد والحسين بن نعيم من جملة القتلى (١) .

ولقد اشتد طموح المختار بعد هذا الى الانفراد بالسلطان (٢) واخذ يتقرب الى الموالي ويغدر عليهم الاعطيات ويقطعهم الارضين فالتفوا حوله وايدوه حتى لقد روي ان عددهم في جيشه كان اضعاف عدد العرب ولا سيما انهم كانوا يرون من العرب والاولاد اهل واستعلاء حتى قال قائلهم :

أن الموالي امست وهي عاقبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزونا اي الملوك على ما حولنا غلبا

وقد جاء بعض زعماء العرب يعاتبونه على ذلك فراوغهم ، ثم قالوا له زعمت ان لست الا نائباً ومرسلاً من ابن الخنفة فراوغهم ايضاً (٣) . فدب الخلاف بينهم وبينه وانقسم الناس نتيجة لذلك الى قسمين قسم معه وقسم عليه ، وظل ابراهيم بن الاشرث وقسم كبير من الشيعة معه فنشب صراع شديد بين الطرفين زهقت فيه آلاف الارواح .

واخذ يظهر من المختار في اثناء ذلك بعض الخارق بقادعى انه ينزل عليه

(١) انظر المصدر السابق ص ٥١٠ وبعدها .

(٢) روى الطبري ان المختار قال لاحد اخصائه انما انا رجل من العرب ، رأيت ابن الزبير ابتزى على الحجاز ونجدة الخارجي على اليمامة ومروان بن الحكم على الشام ، ولم اكن دون احدهم فاخذ هذه البلاد (ج ٤ ص ٥٦٩-٥٧٠) حيث ينطوي في هذا ما حاك صدره من الرغبة في الحكم والسلطان التي كانت حافزاً على حركته .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٥٧٨ وبعدها والمسعودي ج ٣ ص ٢٢ وسباق ابن الاثير في حركات المختار يفيد انه كان معه من الموالي خلق كثير انظر ج ٤ ص ١٠٥ .

وهي (١) . واتخذ كرسياً يستنصر به تشبهاً بتابوت بني اسرائيل فكان يقدمه بين يديه حين يخرج الى قتال خصومه ، وكان يحمل على بغل اشهب ويغطي بثوب ، وقال حين اتخذه انه لم يكن في الامم الحالية امر الا هو كائن في هذه الامة مثله وان كان في بني اسرائيل تابوت فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هرون وان هذا الكرسي فينا مثل التابوت وتقرب اليه بعضهم بشهادة انه رأى الملائكة تقاتل مع جماعته فأمره ان يعلن ذلك للناس (٢) .

(١) مما رواه البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق ص ٤٤-٤٦ : هذه الاسجاع للمختار يزعم انه لما انزله الوحي عليه : «اما والذي انزل القرآن، وبين الفرقان . وشرع الاديان ، وكره العصيان ، لاقتلن العتاة ، من اردعمان ومذحج وهذان ، وبهر وخولان وبكر وهزان وتعل ونهان ، وعبس وذيان ، وقيس وعيلان، وحق السميع العليم العلي العظيم، العزيز الحكيم الرحمن الرحيم، لاعركن عرك الادم، اشراف بني قيم». و«أما ومنتهى المسحاب، الشديد العقاب، السريع الحساب، العزيز الوهاب، التقدير الغلاب ، لا تبشن قبر ابن شهاب ، المفتري الكذاب الجرم الموثاب ، ثم ورب العالمين ، ورب البلد الامين ، لاقتلن الشاعر الشجين، وراجز المارقين، واوياه الكافرين، واعوان الظالمين، واخوان الشياطين الذين اجتمعوا علي لا باطيل، وتقولوا علي لا قاويل، ألا فطوبى لذوي الخلاق الحميدة، والافعال السديدة والآراء العتيدة والنقوس السعيدة » . و«الحمد لله الذي جعلني بصيراً ونور قلبي تنويراً، والله لا حرقن بالمر دوراً ، ولا تبشن بها قبوراً ولا شفين منها صدوراً، وكفى بالله هادياً ونصيراً». و«رب الحرم والبيت المحرم، والركن المكرم، والمسجد المعظم، وحق وزن القلم ليرفعن علم من ها هنا الى اضم، ثم اني اكناف ذي سلم، اما ورب السماء لتنزلن نار من السماء فلتحرقن دار احماه». واسماء هذا هو اسماء خارجة، وروى البغدادي في سياقه ان المختار ارسل من احرق الدار بالليل واظهر من غده ان ناراً من السماء نزلت فأحرقتها .

(٢) روى الطبري ان واحداً من خصوم المختار وقع اسيراً فتقرب اليه بايات قال فيها :

نصرت على عدوك كن يوم	بكل كنية تنعى حسيناً
كنصر محمد في يوم بدر	ويوم الشعب اذ لاقى حنيناً

ثم اقسم له انه رأى الملائكة يقاتلون معه كما قاتلوا مع النبي في اليومين المذكورين على ما اخبر به القرأت فعفا عنه فلما أمن وسأله اصحابه عن ما رأى قال لهم ما كنت في ايمان حلفت بها اشد مبالغة في الكذب مني في ايماني هذه التي حلفت بها اني رأيت الملائكة ثم انشد هذه الايات ساخراً بالمختار :

ورأى السبئية في هذه المخارق فرصة للـدس على الاسلام فالتفوا حوله وكان صاحب كرميه واحداً منهم اسمه حوشب البرسمي ، وكانت هذه المخارق مع ظهور كذبه على محمد ابن الحنفية سبباً لانفضاض كثير من اشياعه عنه ونعتهم له بالكذاب والدجال (١) .

وقد روى الطبري انه كان يقول حين يبلغه هذا النعت قد بلغني انكم تكذبوني وإني كذبت فقد كذب رسل من قبلي ولست انا خيراً منهم (٢) .

ثم جاء مصعب بن الزبير الى البصرة التي لم يستطع المختار أن ييسط سلطانه عليها كما قلنا

ألا ابلغ ابا اسحق اني	رأيت البلق دهماً معنات
وكفرت بوحبيكم وجعلت نذراً	علي فنالكم حتى الممات
أرى عيني ما لم تبصراه	كلانا عالم بالثرهات
إذا قالوا أقول لهم كذبتهم	وان خرجوا لبست لهم اداتي

ج ٤ : ص ٢٦٦-٢٦٨

(١) وروى الطبري هذا الشعر في كذب المختار وتدجيله ودعواه بعلم الغيب :

ما شرطة الدجال تحت لوائه	بأضل مما غره المختار
أبني قس اوثقوا دجالكم	يجلي الغبار واتم احرار
لو كان علم الغيب عند اخيكم	لتوطأت لكم به الاخبار
ولكان امراً بينا فيما مضى	تأتي به الانباء والاخبار
اني لارجوان يكذب وحيكم	طعن يشق عصاكم وحصار

٤ : ص ٥٣٩-٥٤٠

ويروي ابن الاثير هذه الايات لاعشى همدان في كرسي المختار ومذهبه :

شهدت عليكم انكم سبيئة	واني بكم يا شرطة الشرك عارف
فاقسم ما كرسيتكم بسكينة	وان كان قد لفت عليه اللغائف
وان ليس كالتابوت فينا وان سعت	شباب حوالبه ونهد وخارف

ج ٤ : ص ١٠١

(٢) ص ٥٣٩ .

قبل فأخذ يتصاول معه وأخذ يفد عليه الذين انقضوا عن المختار من الشيعة وغيرهم من الذين صار لهم عنده ثارات لما قام به من حركة تقتيل ماسماه قتلة الحسين وجاء إليه المهلب بن أبي صفرة الذي كان عاملاً لابن الزبير على فارس ومعه جموع كثيرة وأموال عظيمة . وكانت جولات قتال بين جموع الفريقين وتداول النصر والهزيمة وكثر القتل فيها وأبدى كل من مصعب والمختار بسالة عظيمة في القيادة والقتال .

واستمر الانقضاض من حول المختار حتى قل أشياءه فعمد إلى التحصن في قصره فحاصره مصعب أربعة أشهر وكان يخرج فيقاتل من وجه واحد ثم يعود إلى قصره ثم تمكن مصعب من قتله في إحدى خرجاته وأسر بقية من كان معه فقتلهم صبراً . وكان ذلك في رمضان عام ٦٧ وهكذا انتهت حركة المختار العجبية وصفى العراق وما وراءه لابن الزبير خمس سنين أخرى إلى أن تمكن عبد الملك بن مروان من بسط سلطانه عليه على ما سوف نشرحه في نبذة ابن الزبير (١) .

٤ - خروج زيد بن علي بن الحسين

لم يكن الحسين رضي الله عنه الوحيد الذي خرج على الأمويين من الهاشمين وأدى خروجه إلى مثل أساقته المشؤومة . فإن الهاشمين والعلويين قد ظفروا ببعض الدعابات ضد الدولة الأموية ويتربصون بها الدوائر ويخرج عليها من كان يظن أن الفرصة سانحة له لانتزاع الحكم منها لهم وكان أول الخارجين عليها بعد الحسين حفيده زيد بن علي (٢) .

١٠٥٨ ٥٥٨ ٥٧٨

(٢) إن ما ورد في النبذة السابقة قد يورد إلى الدهن أنه كان محمد بن علي بن الحنفية رضي الله عنه طاموح إلى الإمامة والنشاط في سبيلها برغم أنه لا يساعد على ذلك يقين .

وهناك روايات عن مبايعة الشيعة محمد بعد تنازل الحسن لمعاوية واستخلاف محمد لابنه أبي هاشم حينما حضرته الوفاة .

وهناك روايات عن جماعة عرفت بالكيسانية وجدت في زمن الدولة الأموية كانت تعتقد بإمامة محمد .

وقد أورد الطبري في حوائث سنة ١٢١ هـ سياقاً طويلاً^(١) في صده خلاف ونزاع على مال وارض كان بين زيد واقاربه من ناحية وخالد بن عبد الله من ناحية ثم انتهى الى القول ان هشاماً بن عبد الملك الذي كان الامر في خلافته قال له لقد بلغني يا زيد انك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وانت ابن امة ، فرد عليه قائلاً ان لك يا امير المؤمنين جواباً فقال له تكلم فقال إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع عنده منزلة من نبي ابتعته وكان اسماعيل ابن امة وهو من خير الانبياء وولد خيرهم محمداً ﷺ وما على احد من ذلك جده رسول الله ﷺ ما كانت امه فقال له هشام اخرج قال اخرج ثم لا ترائي إلا حيث تكره ، ثم انصرف من عنده الى الكوفة فجعلت الشيعة تختلف عليه وتأمره بالخروج وتقول له إنا نرجو ان تكون المنصور وأن يكون هذا الزمان هو الذي يهلك فيه بنو امية .

واستشعر والي العراق يوسف بن عمر بما يقال ويحاك فأمره بالخروج من الكوفة فاعتل بالوجع وبأعمال اخرى فألح عليه فاعتزم الخروج إلى الشام بل وخرج فلحقه الشيعة وقالوا له أبن تذهب عنا ومعك مئة ألف من اهل الكوفة يضررون دونك بأسيا فهم غداً ، وليس قبلك من اهل الشام الا عدة قليلة لو أن قبيلة من قبائلنا نحو مذحج او همدان او نعيم او بكر نصبت لهم لكفتكهم باذن الله فنشدك الله لما رجعت وما زالوا به حتى ردوه .

غير ان ذلك كله لم ينشأ عنه اية حركة فعلية من محمد بحيث يسوغ القول انه قد ظل اذا صيحت الروايات في حيز الفكر ونطاق العقيدة . وهذا ما جعلنا نعتبر حركة خروج زيد اول حركة خروج هاشمية علوية بعد الحسين .

ولسوف نورد الروايات المروية عن مبايعة الشيعة لمحمد بعد تنازل الحسن في سياق الحركة العباسية ونعلق عليها لانها اتصلت بها ، ولسوف نورد بياناً عن الفرقة الشيعية الكيسانية في نبذة انبثارات الفكرية والسياسية التي سوف تكون بعد هذا الفصل .

(١) ج ٥ ص ٨ ؛ وبعدها ويروي المسعودي رواية جاء فيها ان زيدا دخل على هشام بالرفافة فلم ير موضعاً يجلس فيه في صدر المكان فجلس حيث انتهى به المجلس وقال لهشام يا امير المؤمنين ليس احد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى الله فقال له هشام اسكت لا ام لك . انت الذي تنازعك نفسك في الخلافة وانت ابن امة ، فرد عليه غواً مما جاء في سياق الطبري (ج ٣ ص ١٤٠) .

وفي رواية أخرى في سياق الطبري أيضاً أنهم قالوا له نحن اربعون ألفاً وإذا رجعت إلى الكوفة لن يتخلف عنك أحد، فقال لهم اني اخاف ان تخذلوني وتسلموني كفعلكم بأبي وجدي فحلفوا له الايمان المغلظة واعطوه الموائيق ، ونصحه داود بن علي بن عبد الله بن عباس قائلاً أنهم يغرونك ولقد خذلوا من كان أعز عليهم منك جدك علياً بن ابي طالب حتى قتل والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه وانتزعوا رداه من عنقه وانتهبوا فسطاطه وجرحوه . أو ليس قد اخرجو جدك الحسين وحلفوا له بأوكد الايمان ثم خذلوه واسلموه ثم لم يرضوا بذلك حتى قتلوه ، فلا تفعل ولا ترجع معهم ، فقال له الشيعة إن هذا لا يريد ان تظهر أنت لهم ويزعم انه واهل بيته أحق بهذا الامر منكم ^(١) فقال زيد لداود ان علياً كان يقاتله معاوية بدهانه ونكرائه باهل الشام وإن الحسين قاتله يزيد والامر عليهم مقبل فقال له إني خائف ان رجعت معهم أن لا يكون أحد أشد عليك منهم ، ونصحه سالم بن كهيل حيث دخل عليه كما يروي السياق فذكر قرابته من رسول الله وحقه ثم قال له اجعل لي الامان فقال سبحانه الله مثلك يسأل مثلي الامان فقال له نشدتك بالله كم بايعك قال اربعون ألفاً قال فكم بايع جدك قال ثمانون ألفاً قال فكم حصل معه قال ثلاثمائة . قال نشدتك الله أنت خير ام جدك قال بل جدي قال أقتطع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر اولئك قال قد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم . . ونصحه ابن عمه عبد الله بن الحسن حيث كتب له يقول ان اهل الكوفة نفخ العلانية خور السريرة هرج في الرخاء جزع في اللقاء تقدمهم السنهم ولا تشايهم قلوبهم لا يبيتون في الاحداث ولا ينوون بدولة مرجوة ، ولقد تواترت إلى كتبهم فصممت عن ندائهم وألبست قلبي غشاء عن ذكرهم بأسأمنهم واطراحاً لهم وما لهم مثل إلا ما قال علي بن ابي طالب ان اهملتم خضتم وان حوربتهم خرتم وان اجتمع الناس على امام طعنتم وانت أجبتهم الى مشاقه نكصتم ، ونصحه ابن عمه محمد بن عمر بن علي قائلاً اذكرك الله يا زيد لما لحقت بأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك الى ما يدعونك اليه فانهم لا يقفون لك . ونصحه اخوه محمد المعروف بابي جعفر اذ شاوره حيث أشار عليه ان لا يركن الى اهل

(١) كان العباسيون في هذا الظرف يدبرون حركة سرية لصالحهم في خراسان على ما سوف

نشرحه بعد .

الكوفة لأنهم اهل غدر ومكر وبها قتل علي وطمعن الحسن وقتل الحسين وفيها وفي اعمالنا شتمنا^(١) فلم يقبل من احد نصحاً واستمر في حركته .

ولقد نفي خبر التفاف الشيعة على زيد وتخريبهم اياه الى هشام فكتب الى والي العراق يقول : (اما بعد فقد علمت بحال اهل الكوفة في حبهم اهل هذا البيت ووضعهم اياهم في غير موضعهم لأنهم افترضوا على انفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم حتى حملوهم من تفريق الجماعة على حال استخفوهم الى الخروج ، فادع اليك اشرافهم واوعدهم العقوبة في الأبدان واستصفاة الاموال . فيرتدعون ولا يبقى مع زيد الا الرعاع فبادههم بالوعيد واعضضهم بسوطك وجردهم فيهم سيفك ، وقد اعذر امير المؤمنين وقضى من ذمامه واحب اليه بقاء الجماعة حبلى الله المتين ودين الله القويم ويسأل الله ان يصلح منهم من كان فاسدا ويسرع بهم الى النجاة) .

ولقد ظل زيد في الكوفة مستخفياً واقبلت الشيعة تبايعة حتى احصى ديوانه (١٥٠٠٠) رجل واخذ يبعث رسله الى اهل السواد واهل الموصل والبصرة ، وكانت بيعته للناس : (انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وقسم الفقيه بين اهله بالسواء ونصر اهل البيت على من نصب لهم وجعل حقهم فكانوا يقولون نبايعك على ذلك فيقول لهم عليكم عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله لتفبن ببيعتي ولتقاتلن عدوي ولتصنعن لي في السر والعلن فيقولوا نعم ويمسحون ايديهم بيده فيقول اللهم اشهد) .

ولما شعر انه صار في قوة كافية اخذ يتهاى لاعلان دعوته والخروج على الدولة ، واستعد والي العراق واخذ يهدد الناس ويتوعدهم فلم يلبث ان دب الرعب في قلوب المبايعين ، ولقد جاء بعض رؤسائهم الى زيد فقالوا له : (رحمك الله ما قولك في ابي بكر وعمر قال رحما الله وغفر لنا ما سمعت احداً من اهل بيتي يتبرأ منها ولا يقول فيها الا خيراً قالوا فلم تطلب اذا بدم اهل البيت الا ان وثبا على سلطانكم فتزعه من ايديكم فقال ان اشد ما اقول

(١) نصيحة ابي جعفر وارادة في مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٩ - ١٤٠ .

انا كنا احق بسطان رسول الله من الناس اجمعين وان القوم استاثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفوفاً فقد ولوا فعدلوا وعملوا بالكتاب والسنة فقالوا لم يظلمك هؤلاء اذا كان اولئك لم يظلموك فلم تدعو الى قتال قوم ليسوا لك بظالمين فقال انت هؤلاء ليسوا كأولئك انهم ظالمون لي ولكم ولا نفسهم وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والى السنن ان تحيا والبدع ان تطفأ فان اتم اجبتمونا سعدتم وان ابيتهم فلست عليكم بوكيل) .

ففارقوه ونكثوا بيعته ورفضوه وقالوا ان الاحق بالامامة هو اخوه ابو جعفر فعرفوا بالرافضة ^(١) . ولقد بقي عدد كبير من المايعين لزيد على عهدهم له فتواعد معهم على الخروج اول ليلة من صفر سنة ١٢٢ وبلغ ذلك الوالي فأمر بجمع الناس في المسجد الجامع ونادى مناديه ان برئت الذممة من تخلف فأدى ذلك الى تخلف اكثر المايعين عن زيد حتى انه لما نفذ عزيمته وخرج منادياً بالشعار (يا منصور أمت) لم يلبه الا نحو مئتين .

وقد تصدى لهم جند الشام الذين كانوا في الكوفة واخذوا يتصاولون معهم ، وكان يزيد صولات قوية كانت ترزعزع الجند الشامي وتوقع فيهم الذعر . وكان الذين التفوا عليه يهربون كلما حزبهم الموقف مما جعله مضطراً الى الاسعاب والاختفاء مع عدد قليل من انصاره ، واستطاع الوالي ان يعرف مجبأه فأرسل ثلة من الجند اليه ولما تصدى لهم رشقوه بالسهم فأصابه سهم كانت فيه منيته ، ولقد اخفى بعض انصاره جثته ولكن الوالي استطاع ان يعثر عليها فأحضرها وحز الرأس فأرسله الى هشام فعلقه على باب مدينة دمشق مدة ثم ارسله الى المدينة فنصب فيها الى ان مات هشام فأنزله وحرق بأمر الوليد الذي خلفه .

وخطب الوالي بعد مقتل زيد في الناس فقال : (يا اهل المدرة الحبيثة اني والله ما تقرن بي الصعبة ولا يقعقع لي بالشنان ولا اخوف بالذئب ، ابشروا بالصغار والموران . لا اعطاء لكم عندنا ولا رزق . ولقد هممت ان اخرج بلادكم ودوركم واحرمكم اموالكم اما والله ما

(١) انظر الطبري ج ٥ ص ٤٩٨ .

علوت منبري إلا أسمعتم ما تكروهون . فانكم اهل بغى وخلاف ما منكم الا من حارب الله ورسوله ، ولقد سألت امير المؤمنين ان يأذن لي فيكم ولو اذن لقتلت مقاتلتكم وسييت ذراريكم (حيث يتمثل في هذه الخطبة إن صحت ولا مانع من صحتها معنى ان لم يكن حرفياً ما اثرت حركة أهل الكوفة من مرارة في نفس الوالي لأنها كررت حركتهم مع الحسين وحركتهم العديدة الاخرى بعد الحسين مثل حركات ابن الزبير والمختار بن ابي عبيد وعبد الرحمن الاشعث فضلا عن حركات الخوارج على ما شرحنا بعضه قبل وسوف نشرح بقيته بعد .

وهكذا تجددت مأساة الحسين في حفيده . والسياق الذي ليس هناك ما ينقذه في الكتب الاخرى بسوغ ان يقال في هذا الحادث جميع ما قلناه في حادث الحسين من حيث كونه خروجاً على إمامة شرعية موطدة منبعث عن الرغبة الشخصية والاسرورية في الحلول محل السلطان الاموي ومستمد من اجتهاد الافضلية والاولوية بسبب الصلة برسول الله ﷺ .

ولم يكن هناك استفزاز له ولا بغى عليه شخصياً . بل وهناك ما يزيد عن ظروف خروج جده بأنه كان يعترف بامامة هشام ويتردد عليه ويرفع اليه مشاكه ويستعين به على حلها ، وقد نصح كجده من اقاربه وغير اقاربه وذكر بما كان من حادث جده ونوشد الله فلم ينتصح .

وما ساقه او يساق بأن الخروج هو بسبب الظلم والانحراف والرغبة في اقامة الحق والعدل هو من قبيل التبرير الدعائي . ولقد كان عهد هشام من افضل عهود بني امية ، وكان هو من افضل خلفاء بني امية واورعهم واحزمهم وابعدهم عن الانحراف على ما مر بيانه في سيرته .

ولقد تفرع عن حركة زيد مذهبان من المذاهب الشيعية . واحد عرف بالرفض وهو رفض من لم يتبرأ من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ولم يتبرأ منهما ويقر بعدلها وسيرتهما الصالحة وعرف الثاني بالزبدي وهو القول بجواز وصحة إمامة المفضول دون الافضل على اعتبار أن علياً كان افضل من بي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم اجمعين فبايعهم علي وتعاون معهم مع ذلك .

٥ - خروج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين

ثم خرج في سنة ١٢٥ هـ يحيى بن زيد . ولقد كان مع ابيه حينما خرج وقتل فعمد اليه رجل من بني اسد فقال له قد قتل ابوك واهل خراسان لكم شيعة فاخرج اليهم فقال وكيف لي بذلك فقال له تتواري حتى يكف عنك الطلب فوافق فواراه .

ثم خاف فجاء الى عبد الملك بن بشر بن مروان فقال له ان قرابة زيد بك قوية وحقه عليك واجب وكان العفو عنه اقرب إلى التقوى . وهذا ابنه حدث لا ذنب له وان علم الوالي يوسف بن عمر بمكانه قتله فأجره وواراه عندك قال نعم وكرامة فواراه فبلغ الخبر الوالي فطلبه منه فانكر وقال كيف اوارى من ينازعني سلطاني ويدعي فيه اكثر من حقي فكف عن طلبه فلما سكن الطلب خرج مع بعض اولياء ابيه الى خراسان^(١) .

وكتب يوسف بن عمر الى نصر بن سيار والي خراسان بسفر يحيى الى خراسان حين بلغه ذلك ونهيه الى ما تحدث به نفسه ووجوب اخذه ، فبذل نصر جهده حتى ظفر به وحسبه وانهي ذلك الى يوسف بن عمر فكتب هذا بأمره الى الوليد بن يزيد فأمر هذا نصرأ ابن سيار بمنحه الأمان واخلاء سبيله وتسييره إليه واعطائه نفقة وركائب ففعل بعدما امره بتقوى الله وحذره من الفتنة .

غير ان يحيى لم يذهب الى الشام وظل ينتقل بين مدن خراسان ويدعو إلى نفسه حتى اجتمع عليه جمع . فصار يجتاز ما يقع في يده من قوافل الدولة والناس فيسير عليه نصر قوة طارده وظفرت به وقتلته مع معظم انصاره بعد جولات حربية ابدى فيها بسالة وصولة . وقد احتزت رأسه وارسلته الى نصر فأرسله الى والي العراق وعلم الوليد بما تم فأمر بحرق جثته ونسف رمادها . وكان ذلك عام ١٢٦ هـ .

ومن الجدير بالذكر والتعجب معاً انه كان في هذا الظرف في خراسان حركة دعائية نشيطة يديرها ابناء علي بن عبد الله بن العباس بدأت قبل عشرين سنة وكادت تبلغ اوجها في

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٠٥-٥٠٦ .

وقت خروج يحيى فلم تبادر الى نصرته ، والراجع انه واخوته وبني علي لم يكونوا يعرفون شيئاً عنها وان القائمين بها كان ولاؤهم ونشاطهم للعباسيين دون العلويين . فظل كل فريق في عزلة عن الآخر .

وواضح من السياق ^(١) ان حركة يحيى تتسم بنفس السمات التي اتسمت بها الحركات السابقة ويصح فيها ما قلناه في صدديهما .

وقد يمكن ان يضاف الى ذلك ان الامويين عاملوا يحيى بتسامح وتساهل كبيرين على امل استصلاحه ، فلم يرفعوا عن دعواه وحركته حين ظهر انه يمكن ان ينجح فيها .

٦ - خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب

وفي سنة ١٢٧ هـ كانت حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب . وما رواه الطبري في صدد هذه الحركة ^(٢) ان عبد الله جاء الى الكوفة زائراً لوالها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ملتصقاً بته ومعه بعض اقاربه فرتب لهم مرتبات واستبقام عنده .

وفي هذه الاثناء نشبت الفتن في دمشق بين الامراء الامويين ونشبت في العراق فتنة بين جماعات من مضر وربيعة فاضطربت الامور فجاء جماعة من الشيعة الى عبد الله فقالوا له ادع الى نفسك فبنو هاشم اولى من بني مروان بالامر فاستجاب لهم واخذ يتلقى البيعة منهم ثم اعلن خروجه ، واقبل في جماعته فأخرج الوالي للقائه جيشاً وسار هو بنفسه في اثره وامر منادياً ينادي من جاء برأس فله خمسمائة فسارع الناس الى التنافس فما كان الا هنيئة حتى تكوم امامه خمسمائة رأس . وانهمز عبد الله ومن بقي معه . ولقد حاله مع ذلك حظ جديد بسبب ما كان في العراق من حركات الحوارج بقيادة الضعاك بن قيس وانشغال والي العراق بها فاستطاع ان يغلب على المندائين ثم على علوان وقوس واصبهان واصطخرو

(١) انظر أيضاً الطبري ج ٥ ص ٥٣٩ وبعدها .

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٩٩ وبعدها .

وفارس ونيسابور . وقد عين اخاه الحسن على الجبال واخاه يزيد على نيسابور وما حولها وعين عمالا على البلاد الاخرى وجبى خراجها وبدا ان امره قد استقام . حتى جاء إليه بنو هاشم علويون وعباسيون وشيخان ا . رجي الذي كان يشغب على السلطان الاموي في نواحي العراق . غير ان يزيد بن عمرو بن هبيرة الذي خلف عبد الله بن عمر في ولاية العراق جد في الامر ورتب جيوشاً عديدة سيرها في نواح مختلفة فأخذت تتصاول مع عبد الله واخوته وعمله . وقد استطاعت ان تنزل في قواتهم المزامم وان تأسر وتقتل كثيراً منها وأن تضطر معاوية واخوته الى الانتقال الى خراسان طمعاً بالتعاون مع ابي مسلم الذي كان قد غلب على خراسان وهراة وكان يدعو الى الرضا من آل محمد . فانتقل اولا الى هراة هو واخوته وكتب عامل هراة بأمره لابي مسلم الذي كان يعمل في الحقيقة لبني العباس فرأى في افساح المجال له خطراً على عمله فلم يكن منه الا ان امر عامله في هراة باعتقاله مع اخوته ، ثم امره بقتله فنفذ العامل الامر فكان ذلك نهاية هذه الحركة . وكان خروج عبد الله في اوائل سنة ١٢٧ وقتله في سنة ١٢٩ هـ .

ومن طريف ما يروى ان عامل هراة طلب من عبد الله حين قدم عليه ان ينتسب فلما سمي اسمه واسم ابيه وجده قال اما عبد الله وجعفر فمن اسماء آل الرسول واما معاوية فلا نعرفه في اسمائهم فقال ان جدي كان عند معاوية حين ولد ابي فبعث إليه مئة الف على ان يسمى ابنه باسمه فقال له لقد اشتريتم الاسماء الحبيثة بالثمن اليسير فلا نرى لك حقاً فيما تدعو اليه ثم بعث بخبره الى ابي مسلم فأصدر إليه امره الذي ذكرناه قبل .

وقد رمي باللواط على اسان عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كان من جملة من أتى اليه . وبما روي في صدد ذلك ان هذا وقع في اسر ابن ضبارة احد قواد ابن هبيرة الذين سيروا الى قتال عبد الله بن معاوية واخوته في جملة من وقع في يده من الاصحاب عبد الله بن معاوية وقواته . فسأله القائد ما جاء بك مع ابن معاوية وقد علمت خلافه لاميير المؤمنين فقال كان علي دين فأنتيته فيه ، واستعلم منه اخبار ابن معاوية فذمه ورماه هو واصحابه باللواط .

ويذكر ابن كثير الذي نروي عنه الخبر في سياقه انه كان في جملة الاسرى مئة غلام عليهم

التياب المصبغة وكان يعمل فيهم الفاحشة .

وقد تكون هذه الرواية من مصنوعات الغباسيين ودعائهم في سياق المشادة التي قامت بينهم وبين العلويين بعدما صار لهم السلطان حيث انبرى العلويون لمنافستهم والشغب عليهم على ما سوف يأتي شرحه في الجزء التالي ان شاء الله (١) .

وواضح ان السمة التي اتسمت بها الحركات الثلاث السابقة ، وما قلناه في صدها يقال هنا ايضاً مع التنبيه على نقطة عامة وهي ما انطوت عليه من سمة امروية جديدة . فقد كانت الحركات الثلاث السابقة مستندة الى اجتهاد الاولوية والافضلية بسبب صلة الحسين وزبده وبحيى برسول الله ﷺ في حين ان هذه الحركة برزت كعملية منافسة بين بني هاشم وبني امية ، بما قد يجعل صلة ما بينها وبين ما قبل البعثة وفي ابحاثها حيث كانت الاسرة شي الابرز فآثارها بعثة النبي الهاشمي التي رأت فيها في بدء الامر مظهراً من مظاهر المنافسة لها ووسيلة الى استعلاء الاسرة الهاشمية عليها فوقفت منها موقف العداء بزعامه زعيمها ابي سفيان نحو ثمانية عشر عاماً اي الى فتح مكة واستطاعت ان تكيد لها كثيراً في مجال الحرب والدعاية والمد والتعطيل ثم ظلت بعد ان دخلت الاسلام حين فتح مكة تنفس عليها شرفها . ولما ولي عثمان الاموي الخلافة حاولت اغتنام الفرصة لاستعادة ما فقدته من الزعامة والقيادة .

ولما قتل عثمان وانضم النصارى ونبيه والمنهون بقتله الى علي بن ابي طالب زعيم الاسرة الهاشمية الذي يوسع بالخلافة بعده في المدينة اراد الامويون ان يعتبروه مسئولاً عن قتله او حماية قاتليه وجعل معاوية زعيم الاسرة الاموية ذلك وسيلة لتبرده على خلافة علي ولا سيما ان هذا لم يلبث ان عزل معاوية عن ولاية الشام التي كانت في عهده منذ خمس عشرة سنة والتي كان له فيها فرصة لممارسة السلطان والاستمتاع بأبعثه ، فكان ما كان من تشاد و قتال

(١) اقرأ حركه عبد الله بن معاوية في الطبري ج ٦ ص ٣٣ و ٣٤ و البديابة والنهاية لابن كثير ج ١ ص ٣٣-٣٤ ايضاً .

إلى أن استتب الأمر لمعاوية بتنازل الحسن له .

وإذا صح أن من شروط الاتفاق بين معاوية والحسن أن يكون الأمر للحسن من بعد معاوية على ما رواه ابن قتيبة بدا أن الهاشمين لم ينفصوا يدهم من الخلافة وبعبارة ثانية لم ينسحبوا من ميدان المنافسة مع الأمويين وهو ما انطوى عليه موقف الحسين حينما أجاب الذين جاؤوا إليه من شيعة أبيه منكرين تنازل الحسن على ما أوردناه قبل .

وهكذا يمكن أن يلمح في حركة الهاشمين وتطلعهم إلى الحكم عنصر أو باعث أسروي جديد كان قوي البروز في حركة عبد الله بن معاوية التي نحن في صدها وإن كنا نرجح أن الباعث الأقوى فيها هو الشرف الذي أضفته عليهم صلتهم برسول الله ﷺ .

هـ - الحركة العباسية^(١)

وكان للهاشمين حركة خامسة يبرز عليها ممة العنصر الأسروي الهاشمي التي نبهنا عليها في سياق حركة عبد الله بن معاوية بن جعفر وهي الحركة العباسية التي نظمها وأدارها محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأبناءؤه من بعده .

ولقد كان غلو العرب في عهد الأمويين في شعورهم بالعزة القومية وإدلالهم بالتفوق على غيرهم من الأجناس الأخرى على ما أشرنا إليه قبل ثم سياسة الشدة والحزم التي سار عليها الولاة في بلاد العجم بسبب ما كان يظهر فيها من الحركات الخلة بالامن والولاء مما ضاعف الحقد والنقمة على العرب وعلى الدولة الأموية التي كانت مظهر العروبة الأعظم في قلوب كثير من رجال العجم النابهن الذين كانوا يتعرقون ألماً على ضياع ملكهم وسلطانهم القومي

(١) الأحداث في هذه النبتة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٥ ص ١١٥ . وبعدها في أماكن عديدة من الجزء ٦ ص ٢٢-١٠٠ والامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٩-١٤١ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ٣٠ وبعدها في أماكن عديدة واليعقوبي ج ٢ ص ٣٤٠ وبعدها وابن الأثير ج ٥ ص ٣٠ وبعدها في أماكن عديدة من الجزء .

والذين لم يعضوا السلطان العربي منذ البدء ولم يرضخوا له الا مقهورين وجعلهم يندمجون في دعوة التشيع لآل النبي الذين تجمع بينهم وبينهم جامعة كره الامويين والرغبة في اسقاط دولتهم على امل اضعاف وحدة العرب وقوتهم وضربهم ببعضهم وينشرونها بين قومهم الذين اعتنقوا الاسلام ليتسنى لهم تحريكهم تحريكاً دينياً ضد الامويين . فأدى ذلك الى اندماج العجم زعماء وعامة فيها اندماجاً استند مع الزمن حتى لم يعد يمكن فصلها عنهم في مختلف آثارها ومظاهرها وادوار تاريخها بل صارت قائمة بهم في الدرجة الاولى .

وهكذا نهياً في العجم وبلادهم جو ملائم استغله محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كان يقيم في مكان منعزل في البلقاء او الشراة يسمى الحمية هو واسرته منطوين على انفسهم في الظاهر استغلالاً بارعاً . ولا سيما انه ادرك عدم امكان جد العرب في الانتصار للهاشمين لانهم كانوا اجمالاً راضين معترزين في كنف الدولة الاموية . واعتبر في الوقت نفسه بالتجارب التي مرت في سياق الحركات السابقة والتي كان قوامها شيعة العراق حيث تكشفت عن خلق النكت والتراجع وضعف التماسك والرغبة في ما عند الدولة والرهبة منها .

على ان من الحق ان ننبه على ان محمداً لم يهمل العراق التي كانت بؤرة شيعة آل البيت وكانت رعاية دعاة آل البيت وحر كاتهم تغذي باستمرار عاطفتهم الشيعية كما كانت يغذيها شدة ولاية الامويين عليهم بسبب كثرة شغبهم ومطالبهم وتكرار استجابتهم لحركات التمرد والخروج على السلطان الاموي ، وكل ما في الامر انه جعل جل اهتمامه ونشاطه في بلاد العجم^(١) .

ويروي ابن قتيبة^(٢) رواية عن الهيثم بن عدي عن الرجال الذين حدثوه انه لما سلم الحسن ابن علي الامر الى معاوية قامت الشيعة من اهل المدينة ومكة والكوفة واليمن وخراسان في ستر وكتان فاجتمعوا الى محمد بن علي بن ابي طالب وهو ابن الحنفية فبايعوه على طلب

(١) انظر وصيته لابي مسلم التي سوف نوردتها بعد قليل.

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٨-١١٩ .

الخلافه ان امكنه ذلك وعرضوا عليه قبض زكاتهم لينفقوها يوم الوثوب على فرسته فيما يحتاج من النفقة على مجاهدتها فقبلها وولى على شيعة كل بلد رجلاً منهم واهره باستدعاء من قبله منهم في سر وتوصيتهم بالآل يوحوا بكتومهم الا لمن يوثق به حتى يرى للقيام موضعاً . وان محمداً أقام اماماً للشيعة قابضاً لزكاتهم حتى مات . ولما حضرته الوفاة ولى الامر ابنه ابا هاشم عبد الله فأقام اماماً للشيعة . وبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك في اول خلافته فاستدعاه وسأله عما بلغه فأنكره وقال له ما زال لنا اعداء يبلغون الأئمة قبلك عنا مثل ما بلغك لتغزوهم بنا فيدفع الله عنا كيد من ناوأنا وانا بما يلزمنا من مؤنني اشغل مني بطلب هذا الامر ثم خرج عائداً الى المدينة . ولم يطمئن سليمان بجوابه فرتب له على الطريق اناساً يعرضون عليه اشربة مسمومة فتفادى اكثرها ثم تناول لبناً من رجل في خباء وكان مسموماً بدوره فلما وجد حس السم عرج على الحميمة وبها جماعة آل العباس فنزل على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فأخبره الخبر وقال له إليك الامر والطلب للخلافة بعدي فولاه واشهد له من الشيعة رجالاً . ثم مات فأقام محمد دعوة الشيعة له حتى مات فلما حضرته الوفاة ولى الامر ابنه ابراهيم .

والرواية غريبة لان محمداً بن علي بن الحنفية كان اصغر من الحسن والحسين . وقد روينا قبل عن ابن قتيبة ان الحسين هو الذي جاء اليه شيعة ابييه في العراق بعد تنازل الحسن ووعدهم بالنظر في الامر بعد موت معاوية . وشيعة العراق إنما كتبوا الحسين ودعوه دون محمد بن الحنفية . ومحمد بن الحنفية كان متوجساً من خروج الحسين الى العراق ونصحه بالتريث مع الاعتراف بحقه وفضله على ما روينا قبل . ومحمد دافع عن يزيد بن معاوية حينما اراد اهل المدينة خلعه على ما روينا في سيرة يزيد أيضاً .

ولقد ذكر اليعقوبي هذه الرواية بما يقارب ما ذكره ابن قتيبة مع زيادة هامة وهي ان ابا هاشم قال لمحمد بن علي العباسي ان وصية ابي تذكر ان الامر صائر اليك وإلى ولدك ووصاه بالشيعة . وقال له الشام ليست لكم ببلاد ولتكن دعوتكم بخراسان فاني ارجو ان تتم دعوتكم ويظهر الله امورك وان صاحب هذا الامر من ولدك عبد الله بن الحارثية

ثم اخوه عبد الله فاذا مضت سنة الحمار فوجه رسلك بكتبك وكان ذلك سنة ٩٧ هـ^(١) .

ونرجح برغم اتفاق المؤرخين في هذه الرواية انها من مصنوعات العباسيين لاثبات كون خلافتهم بعهد وتنازل من ابي هاشم بن محمد بن علي بن ابي طالب ووصيته الذي انتقلت اليه خلافة من ابيه الذي اجمع الشيعة مبايعته بعد تنازل الحسن لان الشيعة وابناء علي تقموا عليهم استشارهم بالامر واعتبروهم غاصبين لحقهم .

والطبري^(٢) يذكر محمداً بن علي كأول رجل نشط في الدعوة الى نفسه في خراسان حيث روي انه وجه في سنة ١٠٠ هـ من ارض الشراة رسلة الى العراق وخراسان وامرهم بالدعاء اليه وإلى اهل بيته . وكان رسوله إلى العراق مبصرة ورسله الى خراسان محمد بن خنيس وابا عكرمة السراج وحيان العطار .

ومها يكن من امر رواية ابن قتيبة واليعقوبي فانها تلتقي مع رواية الطبري في ان الذي نشط من العباسيين لاول مرة هو محمد بن علي وليس هناك خلاف في ذلك .

ومما رواه الطبري ان محمداً نهى دعائه عن رجل اسمه غالب لأنه كان مفرطاً في حب بني فاطمة حيث يدل هذا على ان دعوته من اصلها كانت دعوة عباسية ، ومع ذلك فقد كان من توجهاته الى دعائه التي تدل ان صحته على الداء ان تكون الدعوة بين سواد المنضمين الى الحركة (إلى الرضا من آل محمد) أي (إلى من يرضى به الشيعة او من يكون ارضى لهم من آل محمد الذين بدخل فيهم بنو هاشم جميعاً عباسيون وعلويون) لان ذلك يستهوي الجميع وكان من خطته تشويه سيرة الامويين وعماهم والطعن في ذمهم ودينهم وتذكير الناس بما نال آل النبي منهم من حرمان واذى وكان حادث الحسين في رأس الحوادث .

(١) ج ٢ ص ٢٩٧-٢٩٨ وقد ذكر الرواية ايضاً ابن الاثير والراجح انه نقلها عن هذه المصادر لانها

اقدم من كتابه انظر ج ٥ ص ١٧-٢٠ .

(٢) ج ٥ ص ٣١٥ - ٣١٧ .

والراجع ان كثيراً من الروايات والاقوال والافعال المنسوبة الى العهد الاموي والخلفاء الامويين بل والى عثمان بن عفان الاموي مما فيه التسوية والتشويه والطعن وحكاية المواقف الباغية والمحابة والتلاعب والاثراء والمجون والحلاعة والفسق والاحاد الخ وكذلك ان كثيراً من الاقوال والاحاديث المنسوبة الى النبي ﷺ وعلي وفاطمة رضي الله عنها والمحتوية على تدعيم للحركة الشيعية واهدافها وتسوية سمعة الذين قيل إنهم ناوأوا الهاشمين او بناؤونهم قد وضعت وبثت في ظروف هذه الدعوة ووفقاً لتلك الحطة .

ولقد اندمج العلويون واسماعيليون في العراق وبلاد الفرس في الحركة وظلوا مندجين فيها الا قليلا الى ان نجحت وصدمتهم الحقيقة ببيعة العباسيين دونهم فكان هذا بما حفزهم على استئناف السعي لانفسهم والشعب على الدولة العباسية وتقويضها .

ولقد لبثت الدعوة تجري في الخفاء نحو ثلاثين سنة . وكانت بمثابة جمعية سرية يتكتم المنتسبون اليها واذا علم امرهم او شيء منه انكروا وتصلوا . ولقد كان ولاية خراسان يقبضون على بعضهم فيقتلونهم ولكن ذلك لم يكن يفت في عضدهم او يحمدهم حركتهم .

واقدم كان محمد يتلقب بالامامة مما يرجع انه اخذ البيعة لنفسه من شيعته إذا لم تكن رواية عهد عبد الله بن محمد بن علي بن الحنفية صحيحة، وكان بعض اركان دعوته يأتون اليه في الحيمة حيناً ويلتقون به في موسم الحج حيناً ويقدمون اليه ما كان يجتمع معهم من خمس اموال الشيعة وتبرعاتهم ويتلقون منه التوجيهات والتعليقات .

ويروي الطبري روايات عديدة عن سير حركة الدعوة ونشاطها منها ما ذكرناه قبل من ارسال محمد رساله الى العراق وخراسان في حوادث سنة ١٠٠ بعنوان أول الدعوة .

وقد ذكر في سياق ذلك ان هؤلاء الرسل لقوا الناس وارسلوا الى محمد بكتب من استجاب اليهم . فعين اثني عشر نقيباً واختار سبعين رجلاً آخرين

فأرسل اليهم كتاباً عاماً ليكون لهم مثلاً وميرة يسرون عليها^(١) .

ومنها ما جاء فيه ان اول من جاء اهل خراسان بكتاب من محمد بن علي هو حرب بن عثمان مولى بني قيس من اهل بلخ وان اول من قدم خراسان من دعاة بني العباس زياد ابو محمد مولى همدان في ولاية اسد بن عبد الله الاولى . وقد قال له ادع اليكنا والطف بضر وانزل في اليمن ونهاه عن غالب الذي كان مفرطاً في حب بني فاطمة . واخذ زياد ينشط في مرو ويطعم الطعام ويذكر سيرة بني مروان وظلمهم فاستجاب اليه بعض الناس . ونما خبره الى الراي فاستدعاه وسأله ما هذا الذي يبلغني عنك وامره بالخروج فأنكر وقال انما قدمت في تجارة وقد فرقت ما بي فاذا صار لي خرجت فأمر عليه بالخروج فتلكأ واستمر في نشاطه فاستدعاه ثانية فراوغه فأمر بقتله مع عشرة من رفاقه . وقد ذكر الطبري هذا في سياق حوادث سنة ١٠٩ هـ^(٢) .

والذي نرجحه ان تعيين النقباء انما كان بعد امد ما من نشاط الدعوة وتكاثر المستجيبين اليها وأن الخطوات الاولى كانت من قبل افراد اختارهم وارسلهم منهم الرسل المذكورون في سنة ١٠٠ هـ ومنهم زياد هذا .

ولقد استمر نشاط الدعوة بعد قتل زياد ورفاقه حيث ذكر الطبري انه جاء في نفس السنة من الكوفة رجل اسمه كثير ليقوم مقام زياد فنزل على رجل اسمه ابو النجم فصار الناس الذين لقوا زياداً يأتون اليه فيحدثهم ويدعومهم ومكث على ذلك سنة او

(١) ج ٥ ص ٣١٦-٣١٧ وهذه احاء النقباء كـ ذكرها الطبري : سليمان بن كثير الخزاعي ولاه زن فربط التميمي ، وقحطبة بن شبيب الطائي ، وموسى بن كعب التميمي ، وخالد بن ابراهيم ابو داود من بني عمرو بن شيبان والقاسم بن عماش التميمي وعمران بن اسماعيل ابو النجم مول آل ابي معيط ومالك بن الهيثم الخزاعي وعمرو بن اعين ابو حزة مول خزاه وشبل بن طهمان ابو علي الهروي مول بني حنيفة وعيسى بن اعين مول نزاراه . والموال هم على الاغلب من مسلمي العجم .

(٢) ج ٥ ص ٣٩٤-٣٩٥ .

سنتين^(١) وفي سنة ١١٤ استند نشاط دعاة بني العباس في خراسان في عهد واليها الجنيّد فأخذ منهم رجلاً فقتله ثم نادى من أصيب منهم فدمه هدر^(٢).

واستمر الدعاة في نشاطهم مع ذلك حيث ذكر الطبري في حوادث سنة ١١٧ أن أسد ابن عبد الله أخذ في ولايته الثانية لخراسان جماعة من الدعاة ومنهم بعض النقباء مثل سلبان ابن كثير ومالك بن المهيم ولاهز بن قريظ وكانوا يمانيين ، وكان أسد يمانياً فحاولوا أن يثيروا نعرته فقال أحدهم :

لو يغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ثم قال له إنما حملهم على ذلك بغضهم للمضريين . غير أنه لم يأبه لاعتذارهم فحبس بعضهم وجلد بعضهم وتشفع أناس ببعضهم^(٣).

واستمر النشاط مع ذلك حيث ذكر الطبري في حوادث سنة ١٢٠ أن رجال الدعوى أرسلوا إلى الإمام محمد رسلاً فلقوه في الحيمة وأخبروه بما يحدث عندهم وكان حانقاً عليهم لما بلغه من فتورهم فاعتذروا له . وبعد انصرافهم وجه بكيراً بن ماهان كئيباً أو مندوباً خاصاً من قبله وأرسل إلى شيعته معه كتاباً فلم يصدقوه فعاد إليه فبعث معه بعضي مضية بعضها بالحديد وبعضها بالشبه فلما رجع جمع النقباء والشيعه ودفع اليهم العصي فقاموا أنهم مخالفون لأوامره فتابوا ورجعوا^(٤).

والجبر طريف ولعل العصي كانت رمزاً من الرموز السرية بينه وبينهم .
وبما رواه الطبري ومؤلف النجوم الزاهرة أن بكيراً وجه شخصاً اسمه عمار بن يزيد إلى خراسان والياً على شيعة بني العباس فنزل مرو وغير اسمه إلى خواش ودعا الناس

(١) ٣٩٥ (٢) ٤١٥ .

(٣) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٣٩ .

(٤) نفس الجزء ص ٤٦٧ .

فأقبلوا عليه . غير انه انحرف عن الاسلام واطهر دين الخرمية ودعا اليه وخص بعضهم في
سوء بعض وقال انه لا صوم ولا صلاة ولا حج وان تأويل الصوم ان يصام عن ذكر
الامام فلا يباح باسمه والصلاة والدعاء له والحج القصد اليه . واخبرهم ان هذه هي تعليلات
الامام محمد بن علي . وبلغ اسداً خبره فاستدعاه وسأله عن حاله فأجابته بغلظة فقطع يده
وقلع لسانه وسمل عينيه ثم امر بقتله وصلبه ^(١) .

ومما رواه كذلك في حوادث سنة ١٢٥ ان بكيراً وجماعة من رؤساء الشيعة خرجوا من
خراسان للقاء الامام في مكة فمروا بالكوفة فعلم واليها بأمرهم او بأمر بكير فحبسه وكان
في الحبس جماعة فدعاهم فأجابوه حيث يبدو في هذا الخبر شدة نشاط وعمق ايمان هذا الداعية .

ومما ذكره في هذا السياق انه كان في السجن شخص اسمه عيسى بن معقل معه بماء رأى
بكير فيه علامات كان سمعها من الامام ان صاحبها هو الذي على يده نجاح الحركة
فاشتراه واخذ يريه ويدربه ^(٢) . وهو الذي عرف فيما بعد بأبي مسلم الذي كان نجاح
الدعوة فعلا على يده .

وذكر الطبري في حوادث نفس السنة قدوم بعض نقباء الدعوة منهم قحطبة بن شبيب
وسليمان بن كثير الى مكة حيث التقوا بالامام وقدموا له ما جمعه من الشيعة من مال
وكان مئتي الف درهم وكسوة قيمتها ثلاثون ألفاً واخبروه بقصة ابي مسلم وعلاماته
فأمرهم بعنقه والعناية به ثم قال لهم لا اظنكم تلقوني بعد عامي هذا فان حدث بي
حادث فصاحبكم ابراهيم ابني فاني اتق به واوصيكم به خيراً وقد اوصيته بكم . ولم يلبث
ان توفي كما نحن ^(٣) .

وفي سنة ١٢٦ ارسل ابراهيم عقب وفاة ابيه بكيراً بن ماهان وحمله وصاياه فقدم مرو

(١) ج ٤ ص ٤٤٠ وتنبه على ان الطبري ذكر هذا في حوادث سنة ١١٨ مع انه ذكر نيابة بكر في
سنة ١٢٠ فاما ان يكون خبر السنة هذه او تلك خطأ انظر التجويد الزاهرة ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) ٥١٢ - ٥١٣ (٣) ٤٣٥ .

وجمع النقباء والدعاة فنعى لهم الامام محمد ودعاهم الى مبايعة ابراهيم واعطاهم كتابه فقبلوا ودفعوا اليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشيعة فحملها وقدم بها على ابراهيم ^(١) .

وفي سنة ١٢٧ مرض بكير بن ما هان فلما حضرته الوفاة عين ابا سلمه خلفاً له وكتب بذلك الى الامام ولم يلبث ان مات فاقر الامام ابا سليمة فقبل ودفعوا له ما تجمع عندهم من النفقات وخمس الاموال ^(٢) .

ونبه على ان ابن قتيبة ذكر خبر قدوم سليمان بن كثير وقحطبة بن شبيب ورفقاؤهم على الامام محمد في صيغة مخالفة حيث قال انه لما غلظ امر الشيعة في خراسان قدموا الى مكة فالتقوا بالامام وقدموا له الاموال وقدموا له ابا مسلم .

وقد رأى عقل هذا وظرفه فكتب للنقباء والدعاة بعد انصراف القادمين عليه انه امره على ما يغلب على خراسان فلما جاءهم لم يقبلوا قوله وخرجوا في السنة التالية فقابلوا الامام في مكة وجاءهم مسلم ايضاً وقال لهم انهم لم ينفذوا امره فقال لهم انه اجمع رأيه على ابي مسلم فاسمعوا له واطيعوا ثم وصى ابا مسلم بهذه الوصية الخطيرة البعيدة المدى حيث خاطبه قائلاً : (يا ابا عبد الرحمن انك رجل منا اهل البيت فاحفظ وصيتي انظر هذا الحي من اليمن فاكرمهم فوالله لا يتم هذا الامر الا بهم وانظر هذا الحي من ربيعة فانهم معهم . وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت في امره ومن وقع في نفسك منه تهمة) .

فقال ايها الامام فان وقع في انفسنا من رجل هو على غير ذلك احبسه حتى تستبينه قال لا لا السيف لا تتق العدو بطرف وان استطعت ان لا تدع بخراسان ارضاً فيها عربي فافعل . وايماء غلام بلغ خمسة اشبار فاتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ يعني سليمان بن كثير ولا تعصه . ثم قال للنقباء من اطاعني فليطع هذا يعني ابا مسلم ومن

عصاه فقد عصاني^(١) .

ومنذ استلم أبو مسلم المهمة اشتد النشاط واتسع اتساعاً كبيراً . ولقد نشبت في خراسان فتنة

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ١٢٣-١٢٤ وتاريخ الطبري ج ٦ ص ١٤ ونص الوصية في الطبري مطابق تقريباً لنص ابن قتيبة عدا عبارة ربعة فانها في الطبري : « فاتهمهم في امرهم بذل فانهم منهم » في ابن قتيبة ، ولعل ذلك تصحيف . وهناك صيغة اخرى للوصية فيها زيادة مهمة كنا نقلناها في المسودة وضاع عنا مصدرها ، وقد جاء فيها : « اما الكوفة وسوادها فشيعة لعلي وولده واما البصرة وسوادها فعتائية واما الجزيرة فحرورية (اصطلاح كان يطلق على الخوارج) مارقة . واما اهل الشام فلا يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان ، واما مكة والمدينة فقد غلب عليها ابو بكر وعمر - اي لا يرضون عن اي انسان لا يسير بسيرتها - ولكن عليك بخراسان فان هناك تعدد الكثير والجد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تقسمها الاهواء ، وم جندهم ابدان واجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحي وشوارب واصوات هائلة ولغات فحمة - واضح ان المقصود بذلك اهل خراسان الاعاجم - يا عبد الرحمن انك رجل منا اهل البيت فاحتفظ بوصيتي ، انظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وانظر هذا الحي من ربعة فاتهمهم في امرهم ، وانظر هذا الحي من مضر فاتهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه ومن كن في امره شبهة وان استطعت ان لا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأني ما غلام بلغ خمسة اشبار فاتهمته فاقتله » .

والغالب ان تحذيره من المضربين آت من كونهم جماعة نصر بن سيار الوالي وان توصيته بالبعثيين لانهم كانوا ضدم بزعامه الكرماني ، والوصية مع ذلك ضد كل عربي . لان العرب كانوا راضين معترزين اجمالاً في كنف الدولة الاموية . وكانت استجابتهم ضدها غير واسعة وغير متأسكة . فلم يكن للامام العباسي الا ان يجعل جل اعتماده على العجم استغلالاً لحقدهم على العرب وفي كتاب ارسله الامام ابراهيم لابي مسلم رواه الطبري غرييض صريح على قتل العرب وعدم ابقائه على احد منهم حيث يتطابق هذا مع ذلك .

واية صيغة من الصيغ صحت فالنتيجة المستنتجة تظل واردة ، ولقد جاءت هذه الصيغ في كتب حوت في عهد العباسيين وهذه نقطة هامة في الموضوع .

ونعتقد انه لا بد من ان يكون لها اصل ما ان لم تصح حرفيتها ، حتى لو لم تصح فاننا نعتقد انها كانت تعبر عن الحالة العربية الذهنية التي كان يصدر عنها مدبر الدعوة عباسية ، وسيرة الدولة العباسية بعد قيامها تؤيد ذلك على ما سوف نشرحه في الجزء التالي ان شاء الله .

قبلية بين التزاريين المضريين بزعامه نصر بن سيار والي خراسان واليانيين بزعامه جديع الكرماني وصار الفريقان يشتبكان في قتال ودامت مدة طويلة على ما سرف نشرحه في نبذة العصبية القبلية .

ثم قامت الفتنة بين الامراء الامويين في الشام على ما شرحناه في سيرة الوليد الثاني ويزيد الثالث وابراهيم ومروان . واشتدت في الوقت نفسه حركة الحوارج في العراق والجزيرة الفراتية والحجاز على ما شرحناه في نبذة الحوارج ، فشغل كل ذلك الدولة شغلا كبيراً استغله ابو مسلم والامام ابراهيم اعظم استغلال وغلظ امرهم نتيجة لذلك .

ولقد طلب الامام ابراهيم في سنة ١٢٩ من ابي مسلم ان يلقاه في موسم الحج في مكة ويحمل ما عنده من اموال فيخرج مع سبعين من النقباء فلما وصل قومس لقيه رسول من قبل ابراهيم ومعه كتاب يقول له فيه قد بعث اليك براية النصر فارجع حيث الفاك كتابي واظهر دعوتك ولا تترصب فقد آن ذلك . ووجه قحطية بما عندك . حيث يبدو ان الامام ايضاً رأى الظروف ملائمة للظهور . وقد ارسل قحطيه ومعه ما قيمته (٣٦٠٠٠٠) درهم اشترى بها بضائع وصفائح حتى لا ينير الريب . ورجع ابو مسلم فنزل في قرية سفيدنج . وكان شيبان الحارجي والكرماني يقاثلان مع انصارهما نصرآ بن سيار وانصاره المضريين .

فاظهر امره وبث دعائه فوافاه في يوم واحد اهل ستين قرية . وكانت الراية التي ارسلها الامام سوداء تدعى السحاب . وقد عقدتها على رمح طوله ١٤ ذراعاً ثم صار يفد عليه الانصار من مرو وغيرها . وقام بركة قطع بها الطريق بين مرو التي كان فيها نصر وبين مروروز وبلخ وطخارستان ووجه نصر كتيبة من الفرسان لتتصدى له فالتقوا به عند آلين فدعاهم الى الرضا من آل رسول الله اي الى الشخص الذي يرضى به . وكان هذا شعار دعوته الظاهري - فاستكبروا ثم اشتبكوا معه فدارت الدائرة عليهم وارسل ابو مسلم حملة على مروروز واخرى على هراة فاستولتا عليها وقتلت عامل الاولى وشردت عامل الثانية مع فلول حامياتها .

وظل انصار الدعوة يتوافدون عليه وتعظم بهم قوته . وهتف زعيم اسمه يحيى بن هبيرة

باليانين والمضربين منبهاً للخطر الشديد الحائز بكيان الدولة ودعاهم الى المهادنة . فجنح الكرماني الى المهادنة حتى لقد اجتمع ممثلو الفريقين وكتبوا كتاب الصلح . فدرس ابو مسلم دسائسه حتى جعله ينقض الصلح وهتف به زعيم ثلث اسمه قديد فقال له يا ابا علي لقد لجبت . واخاف ان يتفاقم الامر فتبكت جميعاً ويشمت بنا هؤلاء الاعاجم فظل هذه المرة سادراً في غيه وعادت الاشتباكات ثانية بين الفريقين ، واستطاع الكرماني ان يغلب علي مرو ويلجيه صراً الى الخروج منها ، ولم يدع هذا الصيال فاستمرت الجولات بينهم واشتد القتل في الطرفين .

وجنح ابو مسلم الى الدس بين العرب لما استيقن ان كلا الفريقين قد اثخن في صاحبه فجعل يكتب الكتب في بعضها ذم لليانين واعلان ثقته بالمضربين وفي بعضها العكس ويوصي عاهلي الاولى بان تعرض للمضربين للاطلاع على الكتب وحاملي الثانية بالتعرض لليانين حتى يثير البلبلة بين الجهتين .

ثم كتب الى نصر والكرماني يقول ان الامام اوصاني بكم ولست اعدو رأيكم فيكم بقصد تشييط عزائمها عنه حتى لم يتالك نصر ان قال (يا عباد الله هذه والله الذلة رجل بين اظهرونا يكتب لنا بمثل هذا فلا تقدر له علي ضر) هذا بينما كانت كتابته تنشط في البلاد وتستولي عليها وتطرد عمال الامويين عنها وترفع الرايات السوداء عليها .

واستمرت مع ذلك الجولات بين اليانين والمضربين وانتصر هؤلاء في جولة واسروا فيها جديداً الكرماني الزعيم فقتله نصر وصلبه ، واشتد ثوران اليانين برعدة ابنه علي وعثا فسارعا الى ابي مسلم يطلبان مساعدته فرحب بالفرصة ووعد بالمساعدة ، وكان شيان الخارجي حليفاً مع الكرماني فأرسل نصر اليه يحذره من العواقب ويعرض عليه الصلح فجعل ابو مسلم ابني الكرماني يحولان دون ذلك .

واذكرك نصر خطورة الموقف فكتب الى مروان يعلمه بحركة ابي مسلم وكثرة من معه وكتب تحت الكتاب هذه الابيات :

أرى بين الرماد وميض جمر	فأحسج بأن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكي	وان الحرب مبدؤها كلام

فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام ^(١)

فكتب إليه مروان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب فاحسم التؤلؤل بقوتك . فهتف نصر
يقول ليس عند صاحبكم نصر . ثم كتب الى يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق وفي رواية
ان مروان امره بذلك يستعده وكتب تحت كتابه هذه الابيات :

أبلغ يزيد وخير القول صدقه	وقد تبينت الاخير في الكذب
إن خراسان أرض قد رأيت بها	بيضاً لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين الا انها كبرت	لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يحتل لهن بها	يلهن نيران حرب أيا لهب

فلم يستطع يزيد ان يفعل شيئاً لانه كان مشغولاً بفتوق في العراق وقال لا غلبة الا
لكثرة وايس عندي رجل .

وفي هذه الاثناء وقع كتاب من ابي مسلم الى ابراهيم بنجره به بأمره وقوته في يد
مروان حيث كان وضع الارصاد على الطرق . فرشى الرسول بمبلغ كبير ووعدته بمبلغ اكبر
على ان يذهب بالكتاب ويحصل على جوابه ويأتيه به . ففعل وكان في جواب ابراهيم شتم

(١) هذه الابيات جاءت في سياق الطبري وهناك روايات اخرى تروي الابيات بشيء من الزيادة
فبعد البيت الثاني هذا البيت :

فان لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
وبعد البيت الثالث هذه الابيات :	

فان يك قومنا اضحوا نياماً	فقل قوموا فقد حان القيام
وان يظظ فذاك بقاء ملك	وان رقدت فاني لا الام
وفري من رحالك ثم قولني	على الاسلام والعرب السلام

وهذه الابيات بزيادة ونقص مشهورة وردت في اكثر من كتاب من الكتب القديمة بحيث يسوغ القول
ان لها اصلاً وان ما فيها من تغاير زيادة ونقصاً هو من التداول .

لأنني مسلم لأنه لم ينتهز الفرصة حينما امكنته من نصر والكرماني وامر له بأن لا يدع
بخراسان عربياً الا قتله وغير ذلك من امره ونهيه . ثم هذا الرجز :

دونك امراً قد بدت اشراطه ان السيل واضح صراطه
لم يبق الا السيف واختراظه

وسينفذ امر مروان عامله في البقاء ان يسير الى الحمية وكان لها اسم آخر وهو الكدار
حيث ورد في الروايات الاحسان حيث كان يقيم ابراهيم مع اهل بيته واقاربه فيشده وثاقاً
وبيعث به اليه فنفذ العامل الامر فاعتقل ابراهيم وكان في مسجد القرية جالساً ملففاً وارسله
الى مروان فسأله عن امر ابي مسلم فانكر فأخرج له كتابه بخطه وقال له أليس هذا كتابك
لأنني مسلم يا منافق . ثم حبسه . وتعقب من علم مكانه من بني العباس فحبسهم وحبس
معهم جماعة من بني امية عرف بمخامرتهم عليه منهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والعباس بن
الوليد بن عبد الملك . وكان سجنهم في حران حيث كان يقيم . ولما اشتد امر ابي مسلم
امر بقتلهم فقتلوا . وقد استطاع اخوة ابراهيم ابو العباس وابو جعفر واعمامه عبد الله وداود
وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الصمد وابناؤهم النجاة والافلات والذهاب الى الكوفة حيث
اختفوا فيها الى ان استولت قوات ابي مسلم على خراسان ثم على بلاد الفرس ثم على الكوفة .
ويروى ان ابراهيم عين اخاه ابا العباس ولياً لعهد . فكان اول الخلفاء العباسيين .

ولقد حاول نصر ان يتصالح مع ابني الكرماني فسعى ابو مسلم في احباط المسعى واثرة
الحقد في نفسها فنجح . واسقط في يد نصر فأرسل الى ابي مسلم يفاضه في الدخول معه
هو والمضريون .

وعلم ابنا الكرماني بذلك فارسلوا بدورهما الى ابي مسلم يفاضانه في الدخول معه
عم والبنانيون ووازن ابو مسلم واصحابه بين العرضين ثم رجحوا البانيين والكرمانيين وقالوا
ان مضر قتلة آل النبي واعوان بني امية وشيعة مروان الجعدي ونصر يدعو لمروان
ويسميه امير المؤمنين وخرج وفد المضريين ذليلاً وهتف ابو مسلم بشيعته قائلاً ان
انه قد اعفاهم من اجتماع كلمة العرب وصيرهم بنياً الى افتراق الكلمة وكان ذلك قدراً

من الله مقدراً^(١) .

وفي ربيع عام ١٣٠ استعد الفريقان للمعركة الفاصلة ابو مسلم ومعه اليمانيون وزعمائهم وشيخان الحارجي وجماعته ونصر على رأس المضريين واخذوا يشبكان في اطراف مرو . ودارت الدائرة على المضريين . وفر نصر ودخل ابو مسلم مرو وجلس يأخذ البيعة من الناس (على كتاب الله ومنة رسوله والطاعة للرضا من اهل بيت رسول الله) واستمر نصر في تراجعه مع جمع من انصاره إلى طوس ثم إلى نيسابور . وطلق ابو مسلم يلاحق المضريين ويقتلهم قتلاً سريعاً .

ودعا ابو مسلم شيخان إلى البيعة فقال بل انا ادعوك إلى بيعتي وادى ذلك إلى افتراقه عن ابي مسلم . وطلب شيخان من ابن الكرماني نصرته فأبى فسار إلى سرخس وتحشد مع جمع كثير من بكر بن وائل فسير عليه ابو مسلم حملة قاتلته وقتلته مع عدد كبير من جماعته . واستمر يرسل كتابه فتوطد سيطرتها على انحاء خراسان وما يليها وترفع عليها الرايات السود وتقتل من يقاومها من المضريين .

وكان ابنا الكرماني وانصارهم يأملون ان يكون لهم سلطان خراسان فخاب املمهم فأدى ذلك إلى خلاف بينهم وبين ابي مسلم وانقلب الخلاف إلى نزاع فقتال وكانت جولات بينهم دارت الدائرة في نهايتها على اليمانيين وقتل علي وعثمان الكرماني فيمن قتل من جماعتهم .

ولما انتهى ابو مسلم من تصفية المضريين والكرمانيين والحوارج وبسط سيطرته على خراسان وما والاها رتب حملة قوية بقيادة قحطبة بن شبيب أحد النقباء نحو الغرب والجنوب

(١) هذا السياق من الطبري ، ونحن نشك ان يكون نصر قد عرض على ابي مسلم الدخول معه وهو والي الدولة ويعرف مدى وهدف حركة ابي مسلم ثم يعرف انه وراء اليمانيين يقوهم ويجرضهم ، اما ما روي عن هتافه فلا يبعد ان يكون نتيجة لنجاحه في احباط سعي الصليح والمهادنة بين المضريين واليمانيين .

الغربي لتطارد نصرأ بن سيار وتقضي عمال بني امية من الاقاليم العجمية الاخرى . وحاول
يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق الذي كانت هذه الانحاء تابعة لولايته العامة ان يقف
في وجه السيل وبعث حملة لتتضامن مع نصر بسبيل ذلك والتقوا مع جيش قحطبة في جرجان
ودار بينهم قتال شديد فدارت الدائرة على الجيش الاموي وقتل قائده فيمن قتل ، وجاء
نصر بن سيار كسيراً حزيناً الى الري فرض فنقله الى همدان حيث مات فيها وعمره ٨٥
سنة . واستمر جيش قحطبة في سيره الى نيسابور فالري فاصفهان فهمدان فهاوند يقتل من
يتصدى له من الحاميات الاموية وينتصر عليها ويرفع الرايات السود على البلاد ويهرب الفلول
وانصار الامويين من العرب مذعورين من امامه حتى بلغ العراق . وكان يصادر
اموال الفارين واملاكهم . وقد روت بعض الروايات ان عدة من قتله في جرجان من
العرب بلغ ثلاثين الفا . وقد استولى على الكوفة . وحاول واليه ابن هبيرة ان يقف في
وجهه مرة اخرى فاخفق فانسحب من امامه وطارده قحطبة وفي اثناء المطاردة غرق
قحطبة في الفرات فاستمر قيادة الجيش ابنه حميد . وكان ذلك في اوائل سنة ١٣٢ هـ .

ولقد كان ابو العباس عبد الله بن محمد واخوه واعمامه محتفين في الكوفة كما قلنا قبل .
وكان ابو سامة الذي يعرف بنوزير آل محمد هو الذي صار صاحب الامر في الكوفة حينما غلب
جيش قحطبة عليهم بتفويض منه وكان هواد في آل ابي طالب قنباطاً في امر بيعة ابي العباس
الذي عينه اخوه ابراهيم خليفة له .

ويظهر ان ابا مسلم كان يعرف هذه النزعة فيه فوجه قوة الى الكوفة ليسابق ابا سامه
في البيعة لابي العباس ، فجاء القائد وبحث عن ابي العباس حتى وجده واخرجه الى المسجد
ودعا الناس الى مبايعته . وصعد هو الى المنبر فخطب خطبة طويلة ذكر فيها بني امية
وسوء آثامهم وظلمهم ونوه بها خص الله اهل بيت رسوله من المزايا والطهارة ووعد انصارهم
بالخير واوعد اعداءهم بالويل ووصف نفسه بالسفاح المبيح والناثر المبير ووعد بالعدل

والاصلاح وقسم الفيء على وجهه^(١) . وصعد بعده عمه داود فخطب خطبة طويلة مثليها وأشار الى ابي العباس فوصفه بأمر المؤمنين وقال ان هذا الامر سيظل فينا ليس بخارج عنا حتى نسلمه الى عيسى بن مريم ثم انصرف مع ابن اخيه الى القصر وتركوا ابا جعفر اخا ابي العباس في المسجد ليتلقى البيعة العامة من الناس ، بينما وفد اهل الرأي على القصر الى مبايعة ابي العباس ولم تلبث ان جاءت البيعة من سائر انحاء العراق بالاضافة الى بلاد العجم فكان ذلك بدء نشوء الدولة العباسية .

ولقد حاول ابن هبيرة ان يستمسك في واسط بعد ان غرق فحطبة في الفرات فاتصل ابو جعفر به واعطاه ومن معه من اهل العراق والشام اماناً قوياً مؤكداً بالامان المغلظة فكف عن النزال ، ، ولم يحترم ابو العباس هذا الامان حيث امر قواته بمطاردته حتى ظفرت به وقتلته على ما رواه ابن قتيبة .

وقد سير ابو العباس بعد ذلك جيشاً بقيادة عمه علي او بقيادة قائد اسمه ابو عون على اختلاف الروايات نحو الشام فخرج مروان الى لقائه ولكن الدائرة دارت عليه فانهمزم واخذ الجيش العباسي يتقدم في بلاد الشام ويستولي عليها ويطارد مروان الى فلسطين فمصر حيث وطد السلطان العباسي عليها وظفر بمروان وقتله على النحو الذي فصلناه في سيرة مروان تفصيلاً يغني عن التكرار .

ولقد تتبع العباسيون بعد قتل مروان واستتباب الامر لهم في العراق والشام ومصر والحجاز رجال بني امية فقتلوا كل من وقع في ايديهم قتلاً ذريعاً .

وقد روى الطبري خبر ذلك مقتضباً حيث ذكر ان عبد الله بن علي الذي صار والياً للشام وهو من اعمام الخليفة قتل ٧٢ منهم بنهر ابي فطرس سنة ١٣٢ وان داود بن علي الذي صار والياً للحجاز وهو كذلك من اعمام الخليفة قتل سنة ١٣٣ من كان في مكة

(١) النص الوارد في ابن الاثير عن الخطبة اكثر اسهاباً منه في الطبري انظر ابن الاثير ج ٥ ص ٨٢

١٥٣-١٦٣ والطبري ج ٦ ص ٨١-٨٢ .

والمدينة منهم^(١) .

وأورد ابن قتيبة بياناً أوفى في ذلك حيث روى ان عبد الله بن علي الذي وصفه بالسفاح أظهر ان امير المؤمنين ارسل اليه يوصيه ببني امية خيراً وان يرد عليهم أموالهم ويأجقهم بالعطاء الكامل والرزق الوافر فقدم عليه من أكابرهم ٨٣ وكان قد اعد لهم مجلساً فيه اضعافهم من الرجال فأخرجهم عليهم فقتلهم ثم صادر أموالهم .

وعف عن دم عبد الواحد بن سليمان وكان عابداً مجتهداً ولكنه طلب منه ان يتنازل له عن ارض له فيها مياه وعيون فأبى واختفى فبحث عنه حتى قبض عليه واعتقله واستصفى ماله .

وقد روي ان ابا العباس الخليفة حنق على عمه لقتله عبد الواحد وقال لو لم يكن السفاح عمي وذمامه ورعاية حقه واجب علي لأقدت منه ولكن الله طالبه به وقد كنت اعرف عبد الواحد براً تقياً صواماً قواماً ثم كتب الى عمه ان لا يقتل احداً من بني امية حتى يعلمه به .

ويستفاد من سياق ابن قتيبة انه لم ينبج من بني امية الا افراد منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي حذره رجل له عليه جميل والحق عليه بالنجاة الى بلاد المغرب ولما قال له ما يظهره عبد الله من امر الخليفة في الوصية والبر ببني امية قال له هل تصدق ان بني العباس يمكن ان يشعروا باستقرار ملكهم ومنكم عين تطرف . فاقتنع وفر الى المغرب وهو الذي انشأ دولة بني امية في الاندلس .

ويذكر ابن قتيبة خبر قتل سليمان بن هشام من قبل ابي العباس نفسه . وبما اورده في صدد ذلك ان سليمان هذا كان اكرم الناس على ابي العباس لحسن بلائه مع قحطبة وقيامه معه على مروان . حيث انضم إلى جيش قحطبة حينما قدم الى العراق مع من كان معه من جموع وعددهم اربعة آلاف وبايع ابا العباس الذي كان بينه وبينه مودة سابقة واشتراك في الزحف على الشام ومطاردة مروان الى مصر . ولما قتل مروان ارسل قائد الحملة سليمان بكتاب الى

(١) ج ٦ ص ٩٧ و ١١٦ .

الخليفة يبشره فيه بقتل مروان فكان هذا بما زاد في مقام سليمان عند الخليفة وجعله يكرمه
 ويفعل به ما لم يفعله بأحد سواه من البر والاكرام . وبينما كان معه في مجلس مبسطة دخل
 مولى لابي العباس اسمه سديف فناول مولاه ورقة فيها هذه الايات :

أصبح الملك ثابت الاساس	بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وترهاشم فشفوها	بعد ميل من الزمان وياس
لا تقبلن عبد شمس عذاراً	واقطعن كل نخلة وغراس
ذلمها اظهر التودد منها	وبها منكم كحز المواسي
ولقد غاظني وغاز سوائي	قربهم من منابر وكراسي
اذكرن مقتل الحسين وزيداً	وقتيلاً بجانب المهراس

فقال للمولى بعد ان قرأ الورقة وناولها لابي جعفر اخيه نعماعين وكرامة وسننظر في
 حاجتك . ونبه بعض الناصحين سليمان الى الخطر المحدق به فهرب الى بعض انحاء الجزيرة
 وكتب الى مواليه وصنائعه فاجتمع عليه خلق كثير فبعث اليه ابو العباس بعثاً فهزمه ثم
 بعثاً ثانياً فهزمه ثم بعثاً ثالثاً فتغلب عليه ووقع هو وابنه في الاسر فأمر ابو العباس بضرب
 رقابها وصلبهما على باب الامارة في الكوفة (١) .

وقد ذكر اليعقوبي اخبار قتل بني امية بشيء من المغايرة (٢) حيث روى ان عبد الله بن
 علي بعد انصرافه من مصر وصار بنهر ابي فطرس بين فلسطين والاردن دعا بني امية لاختز
 الجوائز والعطايا فجاء اليه ثمانون رجلاً منهم ، وبينما هم جالسون عنده قام الشاعر العبدى
 فأنشد قصيدته التي يقول فيها :

اما الدعاة الى الجنان فهاشم وبنو امية من كلاب النار

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣١-١٣٥ .

(٢) ج ٣ ص ٩١-٩٦ مطبعة الغربى سنة ١٣٥٨ .

وكان النعمان بن يزيد بن عبد الملك جالساً إلى جنب عبد الله فقال له كذبت يا ابن اللخناء فقال له عبد الله بل صدقت يا ابا محمد فامض لقولك ثم اقبل عليهم فذكر لهم قتل الحسين واهل بيته ثم صفق بيده فخرج عليهم الرجال وخرّبوهم بالعمد حتى اتوا عليهم . وناداه رجل من اقصى القوم قائلاً :

عبد شمس ابوك وهو ابونا لا تناديك من مكان بعيد
فالقرايات بيننا واشجيات محكمات القوى بعقد شديد

فقال عيها . قطع ذلك قتل الحسين . ثم امر بهم فسحبوا فطرحوا عليهم البسط وجلس عليها ودعا الطعام فأكل وقال يوم كيوم الحسين ولا سواه .

وروي في السياق رواية بصيغة (يقال) جاء فيها ان ابا العباس كتب إليه خذ بثارك من بني امية ففعل بهم ما فعل ، وقد وجهه عبد الله فنبش قبور بني امية فاخرجهم واحرقهم بالنار وما ترك منهم احداً ، ولما صار الى الرصافة اخرج هشاماً الذي وجده في مغارة عني سريره قد طلي بماء يبقيه فضرب وجهه بالعمود ونصب جثته ثم ضربها مائة وعشرين سوطاً وهي تتناثر ثم جمعه فحرقه بالنار . وقال إن ابي كان يصلي يوماً وعليه إزار ورداء فسقط الرءاء عنه فرأيت في ظهره آثار السياط فلما فرغ من صلاته سأله عن ذلك فقال إن الاحول - يعني هشاماً - اخذني ظالماً فضر بني ستين سوطاً فعاهدت الله إن ظفرت به ان اضربه بكل سوط سرحين . والرواية الاخيرة خاصة تتحمل الشك الكبير .

ومن الدلائل على ذلك ما رواه ابن قتيبة واوردناه في سيرة هشام^(١) من دخول محمد بن علي على هشام وكان شيخاً كبيراً قد غشي بصره حيث يعني هذا على ما هو المتبادر ان علياً ابا محمد و ابا عبد الله لم يكن حياً في خلافة هشام .

وقد روى اليعقوبي في صده قتل ساجان بن هشام أنه كان قد استأمن الى ابي العباس فقدم

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٩ .

عليه مع ابنين له فأكرمه وبره واجلسه وبنيه على النارق والكراسي وفيما كانوا عنده
يسمرون استأذن عليه مولى له اسمه سديف جاء من سفر بعيد فسلم وقبل يديه ورجليه
ثم انشد :

اصبح الملك ثابت الاساس	بالبهاليل من بني العباس
يا امير المطهرين من الرجس	ويا رأس منتهى كل راس
انت مهدي هاشم وفتاه	كم اناس رجوك بعد اياس
لا تقيلن عبد شمس عذاراً	واقطعين كل رقلة وغراس
افنها ايها الخليفة واحسم	عنك بالسيف شأفة الارجاس
انزلوها بحيث انزلها الله	ببدار الهوان والاتعاس
ولقد ساءني وساء قبيلي	قربهم من غارق وكراسي
خوفهم اظهر التودد منهم	وبهم منكم كحز المواسي
واذكروا مصرع الحسين وزيد	وقتيلا بجانب المبراس
والقتيل الذي بجران أمسى ^(١)	رهن رمس في غربة وتناسي
نعم كلب المراس مولاك لولا	حله من حبائل الافلاس

فقال له سليمان يا امير المؤمنين ان مولاك بحرضك على قتلي وقتل ابني وقد تبينت انك
والله تريد ان تغتالنا . فقال لو اردت ذلك ما كان يمنعني منكم على غير غيلة . فاما اذا
سبق ذلك الى قلبك فلا خير فيك ، ثم امر حاجبيه ايا الجهم ان يخرجهم فيضرب اعناقهم
ويأتيه برؤوسهم ففعل .

وقد روى ابن الاثير اخبار قتل بني امية ببعض المغايرة ايضاً^(٢) من ذلك ان سديفاً

(١) المقصود من قتيل جران هو الامام الذي اعتنق مروت وسجده في جران ثم قتله على مصلبه
ابرهه قبل .

أما انشد أبياتاً أخرى في مجلس السفاح الذي كان عنده سليمان وهي هذه :

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دوبا
فدع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمود

فأخذ السفاح سليمان عند ذلك وأمر بقتله . وسياق ابن الأثير يفيد أن لقب السفاح هو الخليفة أبي العباس في حين أن سياق ابن قتيبة يفيد أن لقب السفاح هو لقب عبد الله بن علي عم الخليفة .

أما الأبيات السينية فإن ابن الأثير يعزوها إلى شبل مولى بني هاشم ويروي أنه أشدها أمام عبد الله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام . فأمر بهم بعد أن سمع الأبيات فضربوا بالعمد حتى قتلوا وبسط عليهم الانطاع فأكل وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً . وفي رواية ابن الأثير بيتان زيادة على الأبيات واحد بعد البيت الخامس وهو :

انزلوها بحيث انزلها الله بدار الهوان والاتعاس

وواحد بعد البيت السادس وهو :

والقتيل الذي بجران اضحى ثاوياً بين غربة وتنامي

ويروي ابن الأثير أن عبد الله بن علي أمر بعد ذلك بنش قبور بني أمية بدمشق فنش قبر معاوية فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء ونش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه عظماً كأنه الرماد ونش قبر عبد الملك فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضم بعد العضم إلا هشام فإنه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة انفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح . وتتبع بني أمية أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا دضيع أو من هرب إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبي فطرس واستصفى كل شيء لهم من مال وغير ذلك ولما فرغ قال :

بني أمية قد افئيت جمعكم فكيف لي منكم بالاول الماضي

يطيب النفس ان النار نجمكم
منيتم لا اقال الله عثرتكم
ان كان غيظي لغوت منكم لقد
عوضتم من لظاها شر معتاض
بليت غاب الى الاعداء نهاض
منيت منكم بما ربي به راض

ويروى كذلك ان سليمان بن علي العباسي قتل بالبصرة ايضاً جماعة من بني امية عليهم
التياب الموسمية المرتفعة وامر بهم فجروا بارجلهم فالتقوا على الطريق فأكتهم الكلاب .

واخبار هذه المجزرة قد ذكرت في مصادر قديمة اخرى مع شيء من التطابق وشيء من
التغاير الذي لا يؤثر في جوهر المسألة ومنها كتاب الاغاني ومنها الفخري لابن الطقطقي
والعقد الفريد لابن عبد ربه ^(١) . بحيث يسوغ القول انها محتملة الصحة .

وظاهر انها مجزرة سياسية أملتها رغبة التشفي من جهة وفكرة حماية الدولة التي قامت
على انقاضهم من جهة اخرى . ولا تشبه على كل حال ما كان من قتل مسلم بن عقيل والحسين
بن علي وزيد بن علي ويحيى بن زيد وابراهيم بن علي العباس في زمن بني امية كما اراد صالح
بن علي العباس ان يحتج به لنساء مروان وبناته على ما روينا في سيرة مروان ان صحت الرواية
او كما يمكن ان يحتج به على كل حال : لأن هؤلاء تأمروا وخرجوا ودعوا الى العصيان
على سلطان مستتب وإمامة شرعية منعقدة .

ولما رأى بقية بني امية ما حل بدويهم اشتد خوفهم وتشتت شملهم . وكان ممن اختفى
عمرو بن معاوية بن عمر بن ابي سفيان على ما رواه ابن الاثير ايضاً الذي روى ان هذا لما
ضاقت عليه الارض جاء الى سليمان بن علي عم الخليفة وهو لا يعرفه وقال له لفظني البلاد
اليك ودلني فضلك عليك فاما قتلتي فاسترحمت او رددتني سالماً فسأله عن نفسه فعرفه بنفسه
فقال مرحباً . ما حاجتك فقال له ان الحرم اللواتي انت اولى الناس بهن واقربهم اليهن قد
خفن لحوفنا ومن خاف خيف عليه . فبكى كثيراً ثم قال يحقن الله دمك ويوفر مالك

(١) الفخري ص ١٠٨-١٠٩ والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٥-٢٠٧ .

ويحفظ حرمك ثم كتب الى السفاح يلتمس منه ان يرفع السيف عن بني امية ويعلن الامان لهم وقال لهم انا قتلناهم على عقوقهم لا على ارحامهم ويجمعنا وايامهم عبد مناف ففعل فكان هذا اول امان لبني امية (١) .

ومارواه ابن الاثير عن مسير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الى بلاد المغرب عزواً اليه : (إننا ما أعطينا الامان ثم نكث بنا بنهر ابي فطرس وابيحت دماؤنا اثنانا الخبر وكنت متنبذاً من الناس فرجعت الى بيتي يائساً وخرجت خائفاً مع اهلي الى قرية على الفرات واذا بالرايات السوداء تنحط عليها واخي يأتي فرعاً ويقول النجاء النجاء فأخذت دنائير معي وخرجت انا واخي واعلمت اخواني بتجبي وامرتهن ان يلحقني مولاي بدر . واحاطت الحيل بالقرية فلم يجدوا لي اثرأ وطلبت من رجل اعرفه ان يشتري لي دواب وما يصلحني فدل علي عبد له فأقبل قائد الحيل لطلبي فخرجنا هراباً والحيل تبصرتنا فنزلنا الفرات وسبعنا فاما ان فنجوت والحيل ينادوننا بالامان واما اخي فعجز عن السباحة فرجع اليهم بالامان فأخذه وقتلوه وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة . فضيت لوجهي وتواريت حتى انقطع عني الطلب ثم خرجت حتى بلغت افريقية فأتيت نزاروه وهم اخوالي - وام عبد الرحمن من سبي البربر - فاحسنوا قبولي (٢) .

ولقد رثى الأمويين اكثر من شاعر من الشعراء الذين عاشوا في زمنهم وفي زمن الدولة العباسية رثاء بليغا يدل على ما احدهم قتلهم وذهاب ملكهم من وقع ألم .

من ذلك مرثية للشاعر ابي العباس الاعمى جاء فيها :

ليت شعري أفاح رائحة المسك وما ان اخال بالحيف انسي

(١) ج ٤ ص ١٦١-١٦٢ .

(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٨٣-١٨٥ الرواية تنمة فيها ما كان من عبد الرحمن من نشاط حتى غلب على اللاندلس سنرويه في سياق سيرته ان شاء الله .

حين غابت بنو أمية عنه
خطباء على المنابر فرسات
لا يعابون صامتين وان
بجلوم اذ الحلووم تقضت

ومن ذلك مرثية للشاعر العجلي جاء فيها:

تقول امامة لما رأت
وقفة نومي على مضجعي
ابي ما عراك فقلت الموموم
عروث اباك فحبسه
لفقد العشيرة اذ نالها
رمتها المنون بلا انصل
بأسهمها الخالسات النفوس
فصرعاهم في نواحي البلاد
كريم اصاب واثوابه
وآخر قد طار خوف الردى
فكم غادروا من بواكي العيون
اذا ما ذكرتهم لم تنم
يرجعن مثل بكاء الحمام
فذاك الذي غالني فاعلمي
واشياء قد ضففتني بالبلاد
افاض المدامع قتلى كدا

والبهاليل من بني عبد شمس
عليها وقالة غير خرس
قالوا اصابوا ولم يقولوا بليس
ووجوه مثل الدنانير ملس^(١)

نشوزي عن المضجع الانفس
لدى هجعة الأعين النعس
منعن اباك فلا تبلس
من الذل في شر ما محبس
سهام من الحرب لم تبأس
ولا طائشات ولا نكس
متى ما اقتضت مهجة تخس
تلقى بأرض ولم ترمس
من العار والذام لم تدنس
وكان المهام فلم يخس
مرضى ومن صبية يؤس
لحر الموموم ولم تجلس
في ماتم قلق المجلس
ولا تسألني فتستخس
ولست لمن يستنلس
وقتلى ببكة لم ترمس

(١) اخبار الشاعر المذكور في المجلد الخامس عشر من الاغانى .

وقتلى بوج وباليتبين	من يثوب خير ما انفس
وبالزابين نفوس ثوت	وقتلى بنهر ابي فرطس
اولئك قوم تداعت بهم	نواب من زمن متعس
أذلت قيادي لمن رامي	والزقت الرغم بالمعطس
فما أنس لا أنس قتلام	ولا عاش بعدهم من نسي ^(١)

والتائل بين قافية المراثيتين وبين قافية قصيدة سديف التي احتوت تحريضاً على بني أمية واوردناها قبل يورد على البال ان الشاعرين نظما مرثيتيهما رداً على هذه القصيدة او مناقضة لها على الطريقة التي كان يجري عليها شعراء ذلك العصر .

هذا وواضح بما تقدم ان الحركة العباسية اتسمت هي الاخرى بالسمات التي اتسمت بها الحركات السابقة أي الرغبة الشخصية والاسروية في الحلول محل الامويين في السلطان العربي الاسلامي استناداً إلى الصلة برسول الله ﷺ دون ان يكون لها مبرر شرعي وسياسي وقومي لأن حكم الخلفاء الامويين الذين تولوا إبانها كان مستنداً الى بيعة عامة لازمة في اعناق المسلمين وكان الذين اداروا هذه الحركة من جملة المبايعين والمعترفين . واخروج عليهم يتسم بسمه اخروج على الامام الشرعي القائم ويكون موضوع الوعيد المنطوي في الاحاديث النبوية لأن فيه فساداً كبيراً وتقريباً بين المسلمين .

ولقد بدأت الحركة في عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح التقي الورع الذي اوقف الحوارج نشاطهم فيه لتقواه وعدله وصلاحه . وكان يزيد الثاني بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك اللذين خلفاه وبخاصة هشام من افضل خلفاء بني امية حزماء وعدلاً وعقلاً وورعاً وجهاداً .

وكانت الدولة الاموية إبان الحركة موطدة السلطان سائخة البنيان وكان العرب في ظلها

(١) اخبار الشاعر المذكور في المجلد العاشر من الاغاني .

اقوياء اغزاء الى اقصى ما يمكن ان تكون القوة والعزة . وقد تضاعفت رقعة الدولة العربية في عهدنا واتسع نطاق الدعوة الاسلامية والصبغة العربية . وكانت تتمكن من رد كل اعتداء خارجي وقمع كل فتنة داخلية ولقد كان هذا الوصف ينطبق كذلك على عهد الخلفاء الذين سبقوا عمر بن عبد العزيز ايضاً حيث كانوا متصفين بصفات ممتازة من الخزم والحلم والعقل والقوة الشخصية وحب العلم والعمران والتنظيم والرغبة في توسيع آفاق الدولة العربية والدعوة الاسلامية . وبكلمة ثانية ان الدولة الاموية كانت تقوم بواجباتها نحو الاهداف التي كانت من حوافز او مميزات الموجة العربية الجديدة قياماً محموداً .

وإذا كان العباسيون والفاطيون قد بذلوا جهودهم لطمس كثير من معالم اعمالهم وتشويه سيرتهم وتسويء ذكركم فقد بقي منها ما لم يقدرُوا او ما لم يجزأوا على طمسه وفيه من الدلالة البالغة على الروعة والعظمة ما فيه مما كان متمثلاً في المساجد العظيمة والمشاريع العمرانية العديدة وفي انتشار السلطان العربي والدعوة الاسلامية في اقطار شاسعة واسعة لم تكن داخلية في نطاقها قبل قيام دولتهم ثم في ما وصل اليها من مدونات قديمة تذكّر كثيراً من اعمالهم وجهادهم واخلاقهم واقوالهم العظيمة التي تدل على ما كانوا عليه من صفات وما اسدوه للاسلام والعروبة من خدمات .

وكما كان ما وصفه الذين قاموا بالحرركات الاربع السابقة من ظلم الامويين وانحرافهم وبغيهم ذريعة دعائية فقد كان هذا شأن ما وصفه العباسيون وتذرعوا به في حركتهم .

ولقد كان من المحتمل ان لم نقل من المحقق ان هذه الحركة الاخيرة التي نجحت لو لم تنجح ل طال عمر الدولة الاموية أمداً آخر ولاستمرت حركة الفتوح في المشارق والمغرب ورافقتها استمرار حركة نشر الاسلام واللغة العربية والصبغة العربية وبالتالي لتغير مجرى التاريخ الاسلامي والعربي .

ولا يرد ان الفتنة التي قامت بين الامراء الامويين كانت من اسباب القضاء عليها لأن

هذه الفتن انحسرت وكان مروان بن محمد آخر خلفائها قومي المهمة والشخصية والحزم والمطامح والنشاط والجهاد وكانت الدولة في عهده قوية وظل ساطعاً موطئاً في أكثر أقطارها .

ولقد أخذ الامويون يسكنون العرب في الاقطار المفتوحة البعيدة في المشرق والمغرب فيكونون من وسائل نشر الاسلام واللغة العربية .

وكان من الممكن ان يستمر ذلك في ظلهم ويقوى حتى يتسع نطاق الاسلام والاستعراب . ولقد صار نصف لغة اهل البلاد التي سادها الاسلام من غير الجنس العربي عربياً فكان من الممكن ان تصبح اللغة العربية لغتهم لو استمر ذلك في ظل الدولة الاموية . ولكن ذلك كما قد توقف او كاد لأن السلطان العربي اخذ ينحسر في ظل الدولة العباسية ثم اخذت العناصر الاعجمية تتغلب عليها في مركزها واقطارها غير العربية فيزداد ذلك الانحسار ويفقد امل شمول الاستعراب بالتالي .

والمدقق في تاريخ الدول الهاشمية من عباسية وعلوية التي قامت بعد الدولة الاموية الى اليوم لا يجد بين ملوكها من هو افضل من افاضل خلفاء بني امية ديناً وعلماً وعقلاً وحزماً وجهاداً وطموحاً^(١) . ومنهم من كان منحرفاً في كل ذلك . وهذا فضلاً عما كان بين العلويين والعباسيين من تنافس وتناحر وعما كان في الوقت نفسه من مثل ذلك بين العباسيين انفسهم وبين العلويين انفسهم في مختلف ادوار التاريخ وفي مختلف بقاع البلاد الاسلامية مشرقاً ومغرباً . ثم فضلاً عما صار اليه السلطان الاسلامي العربي من تضائل ووهن . وما تعرض له من تغلب العناصر الاعجمية وتلاعبها في الدولة والخلفاء معاً بحيث يصح ان يقال ان الهاشمين عجزوا عن تحقيق ما وعدوه أو لم يهتموا لذلك بعد أن صار السلطان اليهم وكان ذلك هو

(١) في اخبار الشاعر العباسي في المجلد العاشر من الاغانى يروى قول لعمد بن عبد الله الحسن الذي خرج على العباسيين في عهد ابي جعفر المنصور جاء فيه : (لئن تقمنا على بني امية ما تقمنا فابنو العباس الا أقل خوفاً لله منهم وان الحجة على بني العباس لاوجب منا عليهم . ولقد كانت للقوم اخلاق ومكارم وفواضل ليست لابي جعفر) . وهذه شهادة من اهله .

الهدف الرئيسي لحركاتهم ونشاطهم وبحيث يثبت انتفاء المبرر الديني والسياسي والقومي في رغبتهم في الحلول محل الامويين وتحقيقها وكون الحافظ الاقوى او الاوحد هو تلك الرغبة.

وفضلاً عن كل ما تقدم فقد استندت صبغة التشيع واتسع نطاقها ورسوخها بدعايات الهاشمين واندماج الاعاجم فيها وصار لها أثر بعيدة المدى في غير مجال السياسة بالاضافة الى هذا المجال ما تزال قائمة الى الآن . وكانت في كثير من الاوقات عاملاً تهديبياً للإسلام ولسلطان العرب الذين حملوا رايته ومضعفاً لتمامهم ومؤدياً الى اندحارهم .

وكل من يقرأ كتب التفسير يجد كثيراً من الاقوال والروايات والتأويلات التي يبرز عليها طابع التشيع القوي في صدد كثير من الآيات القرآنية ولا تتسق مع اهداف القرآن وتوجيهاته ومضامينه وظروف نزوله معزوة الى النبي ﷺ واصحابه بما يرجح ان يكون موضوعاً او محرفاً ليتسق مع تلك الصبغة واهداف العاملين فيها وبما هو بالتالي من نتائجها . ومنه ما وضع او حرف ونشر في عهد الدولة الاموية ليكون دعامة ضدها وان كانت اكثره وضع ودون بعدها .

وبقال مثل هذا في الاحاديث التي يبرز فيها طابع التشيع القوي والتي تسوغ الشك الكبير في صدورها من النبي ﷺ واصحابه لان فيها ما لا يتسق مع القرآن والاحاديث الصحيحة الكثيرة الاخرى معزوة الى اسماء معينة تصل الى اصحاب رسول حيناً والى تابعيه حيناً ومرفوعة حيناً بما يرجح ان يكون كثير منها موضوعاً او محرفاً ليتسق مع تلك الصبغة واهداف العاملين فيها وبالتالي بما هو من نتائجها . ومنه ما وضع او تحرف ونشر في عهد الدولة الاموية ليكون دعامة الحركات الهاشمية ضدها وان كان اكثره وضع ودون بعدها .

وكل من يقرأ كذلك كتب التاريخ والسير والتراجم والملل والنحل يرى اثر هذه الصبغة بارزاً في كثير من الروايات لتدعيمها . وفيها العجيب من المتناقضات . ثم يرى ما كان من كثرة الفرق الشيعية التي نجمت في اواخر عهد الدولة الاموية ثم اتسعت بعدها وكثرت كثرة عجيبة بما هو من نتائج هذه الحركة . ولقد وصل كثير من هذه الفرق الى غلو بالغ الخطورة في عقائدهم مثل القول بالهوية علي ونبوته . وغلط جبريل في نزوله على محمد دونه . وحلول الله سبحانه في الائمة . ونبوتهم . وتلقي الائمة الوحي من الله مباشرة . وصيورتهم

بذلك افضل من الانبياء . والوهيتهم . هذا بالاضافة الى ما يعتقدده معظم الشيعة من انحصار الامامة في الأئمة العلويين الفاطميين وعدم شرعية اي سلطان غير سلطانهم . وانحباس الامام في نجاً حياً مرزوقاً الى ان يحين وقت خروجه . واجبايهم على انفسهم او ايجاب الائمة عليهم اداء صدقاتهم اليهم وهذه نقطة هامة مثيرة ومغرية . واجبايهم على انفسهم او ايجاب الائمة عليهم بعدم تلقي الدين والاحاديث وتفسير القرآن عن غيرهم . ثم ما يعتقدده بعض فرقهم ومنهم المعتدلة في عقائدهما الاخرى من كفر ابي بكر وعمر وعثمان لقبولهم بالخلافة دون علي وبكفر سائر اصحاب رسول الله لمبايعتهم لثلاثة وتعاونهم معهم لانهم بذلك خالفوا امر النبي الذي وصى بالخلافة علي وغضبوا حقاً في الخلافة وبكفر كل من تولى السلطان الاسلامي دون ائمتهم لانهم غاصبون لحقهم ومخالفون بذلك أمر الله ورسوله ويكون امامهم حياً مرزوقاً محتسباً في غار الى ان يحين وقت خروجه النخ .

ولا يزال فرق شيعية عديدة تقول بهذه الاقوال او بعضها في مختلف انحاء العالم الاسلامي ويكون بذلك المسلمون شيعاً واحزاباً يكره بعضها بعضاً ويعلن بعضها بعضاً رغم القرون العديدة التي مرت وانتفاء أي معنى وسبب لبقائها لانها صارت تمثل عقائد عميقة الغور لا ترعوي للحقائق والحجة والمنطق . ولان زعماءها يحرضون أشد الحرص على دوامها بسبب ما تضمنه لهم من نفوذ ومكاسب ومنافع .

وقد يقال ان هدف الحكم والسلطان الذي استهدفته الحركات الهاشمية في زمن الدولة الاموية وبعدها على غير ضرورة شرعية ودينية وقومية واسلامية وسياسية لم يكن قاصراً عليها بل كان طابع جميع المساعي والحركات التي قام بها الطامحون الى الحكم والسلطات من العرب والمسلمين بعد عهد الخلفاء الراشدين وفي مقدمتهم الامويون باستثناء حركات الخوارج مما كان له اضرار عظيمة في العروبة والاسلام في مختلف ادوار التاريخ . وهو ينطبق بطبيعة الحال على مسعى معاوية بن ابي سفيان بحيث يقال بحق انه لم يكن ضرورة قومية ولا دينية له . وإن معاوية لو لم يقف موقف المناوئ لحكم علي لكانت خلافة هذا قد توطدت ولكان من المحتمل ان يقوم في ظلها دولة عظيمة الشأن والسلطان مستمرة في اعقابه لا تقل عن الدولة الاموية ان لم تكن اعظم منها شأنًا وسلطانًا واطول عمراً لأن من المحتمل

أن نخلو من كثير من المعكرات والمزعجات التي نجمت في عهد الدولة الاموية نتيجة لما كان من تنافس وتنازع بين الامويين والهاشميين والتي اودت بها في النهاية فضلا عن احتمال ان تكون اقل انحرافاً وتساهلاً بما كان من الامويين عن كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين لأن الامويين قد تساهلوا وانحرفوا قليلاً او كثيراً بسبيل توطيد سلطانهم الذي اكتنفته الحركات التمردية والمناوأة الكثيرة .

وهذا صحيح بدون ريب . غير ان المؤرخ إذ يصدر حكمه او تعقيبه على حادث او موقف تاريخي انما يصدره في نطاق الاحداث والنتائج . وما عدا هذا فتظل الاحكام والتعقيبات في مداها النظري او الادبي .

ونحن هنا في صدد ما كان من حركات هاشمية ضد الدولة الاموية ونتائجها . ومهما انصف مسعى معاوية بنفس الصفة التي اتصفت بها هذه الحركات فان امامة علي بن ابي طالب لم تكن قد توطدت في جميع الامصار ولم يكن الاجماع او ما كان يقوم مقامه من بيعة اولي الحل والعقد من اصحاب رسول الله في المدينة وسكوت المسلمين سكوت رضا قد انعقد عليها كما كان الامر في امامة ابي بكر وعمر وعثمان . ولم تكن بيعته التي تمت تحت ارهاب وضغط الناقمين على عثمان وقاتليه قد لزمت اعناق جمهور المسلمين وكان عدد غير يسير من اصحاب رسول الله قد وقفوا منها موقف المناوئ او المحايد واصطدمت بغير معاوية من المناوئين والناقمين . وقد انتهى مع ذلك النزاع بين علي ومعاوية الى وفاق وتفاهم بلغ نهايته المحموده حينما تنازل الحسن واجتمع المسلمون على امام واحد على ما شرحناه في الجزء السابق .

ثم سارت الدولة الاموية خطواتها الجبارة في سبيل تقوية البنيان الاسلامي العربي واصابت من ذلك اعظم النجاح ، وترتب على هدمها على غير ضرورة قومية ودينية آثار سيئة ومشؤومة على هذا البنيان .

٧ - ثورة المدينة على يزيد بن معاوية

وخلعها إياه

•

تختلف الروايات في اسباب وظروف هذا الحادث المعكر الذي كان من الحوادث المفجعة في عهد الدولة الاموية .

فابن قتيبة يروي فيما يروي^(١) انه كان لمعاوية بن ابي سفيان في المدينة اموال ونخيل تدور عليه مئة وستين الف درهم فأراد الوكيل ان يجنيها في خلافة يزيد فمنعه اهل المدينة وقالوا لواليها عثمان بن محمد الثقفي ان غذه الاموال كلها لنا وان معاوية آثر علينا في عطائنا فلم يعطنا قط درهماً حتى مضى الزمان ونالتنا المجاعة فاشتروا منا بجزء من مئة من ثمنها فأغلظ الوالي لهم واغلظوا له بالمقابلة . وقال لهم لا كتب الى امير المؤمنين بسوء رأيكم وما انتم عليه من كمون الاضغان القديمة والاحتماد التي لم تنزل في صدوركم فافترقوا على موجدة ، واجمعوا على منع الوكيل . وكتب الوالي الى يزيد فغضب واقسم ليطأنهم وطأة يأتي بها على انفسهم ثم كتب الى اهل المدينة كتاباً قال فيه فيما قال بعد البسملة :

(اما بعد فقد نفستكم حتى اخافتكم ورفعتمكم حتى اخرتكم ورفعتمكم على رأسي ثم

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٨ وبعدها .

وضعكم . وايم الله لئن اشرت ان اضعكم تحت قدمي لأطانكم وطأة اقل منها عددكم
واترككم احاديث تتناسخ كاحاديث عاد وثود . وايم الله ليأتينكم مني اولى من عقوبتي
فلا افلح من ندم) .

وكان عبد الله بن جعفر بن ابي طالب حاضراً مجلس يزيد حينما جاءه كتاب والي المدينة
واقسم قسمه فأخذ يهدىء من روعه ويذكر له انه اذا قتلهم فلنما هو يقتل نفسه حتى لان .
ثم قال له ان ابن الزبير قد نصب الحرب في مكة وارسل الجيوش اليه وامر قائد اول جيش
ان يتخذ المدينة طريقاً وان لا يقاتل فان اقرؤا بالطاعة ونزعوا من غيرهم وضلالهم فليهم علي
عهد الله وميثاقه ان لهم عطاءين في كل عام ما لا افعله بأحد من الناس طول حياتي عطاء في
الشتاء وعطاء في الصيف ولهم علي عهد ان اجعل الخنطة عندهم كسعر الخنطة عندنا والعطاء
الذي يذكرون انه احتبس عنهم في زمان معاوية فعلي ان اخرجهم لهم وافراً كاملاً . فان
اتابوا وقبلوا ذلك جازوا الى ابن الزبير وان ابوا قاتلهم ثم ان ظفر بهم انهبها ثلاثاً هذا عهدي الى
صاحب جيشي لمكانك ولطلبك فيهم ولما زعمت انهم قومي وعشيرتي .

فراى عبد الله فيما قاله يزيد فرجاً فكتب اليهم يعلمهم فيه قول يزيد ويحضهم على الطاعة
والتسليم والرضا والقبول لما بذل لهم وينهاهم عن التعرض لجيوشه ، فلم يريدوا ذلك ولم
يقبلوه وقالوا والله لا يدخلها عنوة ابداً .

وقرأ عليهم الوالي كتاب يزيد فازدادوا حنقاً واجمعوا على المقاومة واخذوا يستعدون
لها وعهدوا بالزرعامة لعبد الله بن حنظلة ، فلم يكن من الوالي إلا ان هرب ، واراد من في
المدينة من بني امية الخروج وكان كبيرهم مروان بن الحكم ولكن اهل المدينة لم يدعوه
يخرجون حتى اخذوهم الى المسجد النبوي وحلفوهم عند منبر رسول الله لئن لقوا جيش يزيد
ليذودنهم عنهم ان استطاعوا فان لم يستطيعوا مضوا الى الشام ولم يرجعوا معهم وشرطوا
عليهم ان يقيموا بذئ خشب عشرة ايام قبل ان يمضوا الى الشام فحلفوا وحينئذ تركوهم
يخرجون وتبعهم الصبيان وسفهاء الناس يرمونهم بالحجارة حتى انتهوا الى ذي خشب ثم ارتحلوا
بعد مضي الايام العشرة على اقبح حال واجتثاث وخوف من اهل المدينة ان يأتوا
اليهم فيأخذوهم .

ولقد هيا يزيد جيشاً كثيفاً باداة كاملة وكان عدده على ما رواه ابن قتيبة ثلاثين ألفاً
ومعه عشرة آلاف بعير تحمل الزاد ، وجعل قيادته لمسلم بن عقبة المري بناء على مديح فيه
سمعه من ابيه وقال له انهض باسم الله الى ابن الزبير واتخذ المدينة طريقاً فان صدوك فاقتل
من ظفرت به منهم وانهبها ثلاثاً واجهز على جريحهم واقبل على مدبرهم واباك ان تبقي عليهم .
وان لم يتعرضوا لك فامض الى ابن الزبير - وقد كان جهر بجلع يزيد في هذه الاثناء في مكة
على ما سوف نشرحه في نبذة خاصة - وان حدث لك حادث فأمير الجيش الحصين بن نمير .

وسار الجيش فلما بلغ وادي القرى لقي بني امية فأخبرهم مروان ان عدد المجتمعين لهم في
المدينة كثير ولكن عامتهم ليس لهم نيات ولا بصائر ولا بقاء لهم مع السيف وليس لهم
سلاح ولا كراع ، وقد خندقوا على انفسهم وحصنوا ، وخبرهم مسلم في الاستمرار الى
الشام او العودة معه ففضل اكثرهم برأ بيمينهم ان يستمروا وعاد معه مروان وابنه عبد
الملك قائلاً اريد ان ادرك ثأري من عدوي الذي اخرجني من بيتي وفرق بيني وبين اهلي .
وكان قد طلب من ابن عمر ان يضم اهله الى اهله ويخرج بهم الى مكة فاعتذر وطلب ذلك
من علي بن الحسين فقبل .

وعلم اهل المدينة بسير الجيش فجمعهم ابن حنظلة وخطبهم قائلاً : ايها الناس انما خرجتم
غضباً لدينكم فابلوا الى الله بلاء حسناً ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ويحل بكم رضوانه
واستعدوا بأحسن عدتكم ثم طلب منهم ان يبايعوه على الموت والا فلا حاجة في بيعتهم فبايعوه
على الموت .

وجاء الجيش فأحرق بالمدينة وحاول عبثاً ان يجد مجالا للاقتحام بسبب الخندق والحراسة
الشديدة التي وراءه واخذ اهل المدينة يرشقونهم بالنبل والحجارة .

وقد استطاع مروان ان يغري احد بني حارثة على فتح طريق للجيش بوعود كبيرة له
ولقومه ففعل واقتحمت الحيل المدينة وتبعهم بقية الجيش واشتبكوا مع اهل المدينة في قتال
شديد . ونادى منادي مسلم من جاء برأس فله كذا فأخذ بعض الناس يستجيبون .

وقتل القائد الزعيم ابن حنظلة فصاروا كالنعم بلا راع واخذ اهل الشام يقتلونهم من كل

وجه . ونادى مسلم بالامان لبني حارثة وبالامان لمن يقصد محلّتهم ففرّغ كثير من الرجال والنساء اليها ونهب الجيش المدينة في ثلاثة ايام فما تركوا في منازلها شيئاً . وبلغ عدد الذين قتلوا من الانصار والمهاجرين (١٧٠٠) في رواية و (٧٠٠) في رواية وعدد اصحاب رسول الله ثمانين ومن سائر الناس (١٠٠٠٠) في رواية و (٤٠٠٠) في رواية سوى النساء والصبيان .

وقد احتوى سياق ابن قتيبة حوادث جزئية كثيرة بما كان من جيش مسلم من قسوة في النساء والاولاد ومن قتل بعض الاسرى ومن اذية ابي سعيد الخدري وعبد الله بن جابر من اصحاب رسول الله ومن تسمية المدينة بالحبيثة في مجال المحاوراة بين بعض الجيش وبين بعض اهل المدينة مقابل تسميتهم اياها بالطيبة وهي تسمية نبوية لها .

ثم قال في جملة واحدة في سياق آخر (وقتل الناس وفضحت النساء ونهبت الاموال ثلاثة ايام) ثم امر مسلم بالكف . ثم قصد دار الامارة ودعا الناس الى تجديد البيعة ليزيد والطاعة لمن استخلفه عليهم على ان يكون لأمر المؤمنين اموالهم ودمائهم وانفسهم يقضي فيها ما شاء .

وبما ورد في سياق ابن قتيبة ان مسلماً سأل عن علي بن الحسين فأثاه فرحب به وسهل ، وقال له ان امير المؤمنين اوصاني بك . كما ورد فيه انه لم ينصب احد من بني هاشم للحرب حيث لزموا بيوتهم فسلموا الا ثلاثة منهم تعرضوا للقتال فأصيبوا .

وكتب مسلم الى يزيد كتاباً يذكر له ما جرى وانه اعذر اليهم واخبرهم بعهد امير المؤمنين وما بذل لهم فأبوا وانهم لم يقوموا لهم الا ساعة من ساعات النهار فما صلى الظهر حتى هو في المسجد بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم وانه اوقع بهم السيوف وقتل من اشرف لهم منهم واتبع مدبرهم واجهز على جريحهم وانتهب المدينة ثلاثاً ، ونوه ببلاء مروان وعظيم نكايته وما كان من جهده في اغراء بني حارثة .

ولما جاء يزيد الكتاب استدعى عبد الله بن جعفر فقراه عليه فاسترجع وبكى بكاء شديداً وكان معاوية بن يزيد حاضراً فبكى هو الآخر حتى كادت نفسه ان تخرج . وقال

يزيد لعبد الله ألم أجبك الى ما طلبت واسعفك فيما سألت فبذلت لهم العطاء واجزلت لهم الاحسان واعطيتهم الامان والعهود والمواثيق على ذلك فأظهر الاسف اذا اختاروا البلاء على العافية والفاقة على النعمة والحرمان على العطاء .

ويتفق الطبري مع ابن قتيبة في بعض الامور ويختلف معه في بعضها . وبما ذكره ^(١) ان ابن الزبير كان في مكة بيت في نفسه الخروج على يزيد وان والي مكة عمرو بن سعيد كان يداريه فتمى ذلك الى يزيد فعزل الوالي وعين مكانه الوليد بن عتبة فأخذ يشدد الرقابة على ابن الزبير ويحصى عليه حركاته . فكتب هذا الى يزيد يقول له انك بعثت الينا بوال اخرق لا يستمع لعظة حكيم ولا يتجبه لرشد فلو بعثت الينا برجل سهل لين رجوت ان تسهل الامور ويجتمع ما تفرق من الشمل فانخدع يزيد وعزل الوليد وعين مكانه محمد بن عثمان الثقفي وكان قتي حدثاً غير محنك وجعل اكثر مقامه في المدينة . وبعث الى يزيد وفداً من اشرافها فآكرمهم واحسن اليهم واعظم مجوائزهم . فلما عادوا الى المدينة اظهروا شتم يزيد وقالوا انا قدمنا من عند رجل ليس له دين . يشرب الخمر ويضرب بالطناوير وتعزف عنده القيان ويلعب بالكلاب ويساير الخراب والفتيان وانا نشهدكم انا خلعناه فتابعهم الناس .

وبما جاء في مكان آخر من السياق انه كان بمن وفد على يزيد عبد الله بن حنظلة وكان شريفاً فاضلاً عابداً ، وسار معه ثمانية بنين له . فأعطاه مئة الف واعطى لكل واحد من بنيه عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملاتهم فلما سأله الناس ما وراءك قال والله جئكم من عند رجل والله لو لم اجد الا بني هؤلاء لجاهدته بهم . فقالوا له بلغنا انه اجداك واعطاك واكرمك قال قد فعل وما قبلت منه الى لأتقوى به وحضض الناس فبايعوه .

كذلك بما جاء في السياق انه كان مع الوفد المنذر بن الزبير وان يزيد اجازته بمئة الف وانه قال ان جائزة يزيد لا تمنعني من ان اخبركم خبره واصدقكم عنه . والله انه يشرب الخمر وانه ليسكر حتى يدع الصلاة وبلغ ذلك يزيد فقال اللهم اني آثرته واكرمه ففعل فلما

(١) ج ٤ ص ٣٦٦ وبعدها .

رأيت فاذا ذكره بالكذب والقطيعة ، يعني بذلك انه انما قال عنه كذباً .

وقد طلب يزيد من النعمان بن بشير ان يذهب الى المدينة فيفتأهم عما يريدون قائلًا له ان بها من عشيري ما لا احب ان ينهض في الفتنة فيهلك . فأقبل النعمان فدعا الناس الى الطاعة ولزوم الجماعة وخوفهم من الفتنة وقال لهم لا طاقة لكم بأهل الشام . فقال له عبد الله بن مطيع احد زعماء الحركة ما يحملك على تفريق جماعتنا وفساد ما اصرح الله من امرنا فقال له النعمان (اما والله لكافي بك لو قد نزلت تلك التي تدعو اليها وقامت الرجال -على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف ودارت رحا الموت بين الفريقين قد هربت -على بغلتك تضرب جنبها الى مكة وقد خلفت هؤلاء المساكين يقتلون في سكهم ومساجدهم وعلى ابواب دورهم) وقد عصي الناس النعمان الذي تحقق كل ما خمنه وانذرهم به .

ويستمر الطبري في سياقه الذي يذكر ان اهل المدينة بايعوا عبد الله بن حنظلة واعلنوا خلع يزيد وحاصروا الوالي ومن في المدينة من بني امية ومواليهم ومن على رأيهم من قريش فكانوا نحو الف . وارسل مروان بن الحكم الى يزيد كتاباً يقول فيه انا حصرنا ورمينا بالحبوب فيا غوثاه يا غوثاه .

وهذا الكلام قد يفيد ان الحملة التي هيأها يزيد كانت خصيصة لقمع فتنة المدينة في حين ان سياق ابن قتيبة يفيد انها كانت مهيئة لحرب عبد الله بن الزبير في مكة الذي خلع يزيد ونصب الحروب وان ثورة المدينة انفجرت في هذه الاثناء فأمر يزيد قائد الحملة بأن يتخذ المدينة طريقاً له فيعالج الامر في المدينة اما بالقتال واما بالارهاب ثم يمضي الى حرب ابن الزبير . وبقيّة سياق الطبري الآتية بعد هذا تؤيد ذلك .

ولما اقترب الجيش الى المدينة وثب اهلها على من فيها من بني امية فحاصروهم في دار مروان وقالوا لهم لا نكف عنكم والله حتى نستزلكم ونضرب رقابكم او تعطونا عهد الله وميثاقه لا تبغونا غائلة ولا تدلونا على عورة ولا تظاهروا علينا فنكف عنكم ونخرجكم فأعطوهم عهداً فأخرجوهم فلفوا الجيش في طريقهم ودخل عبد الملك بن مروان على مسلم فاستشاره فرسم خطة حربية بارعة فاتبعها .

فلما وصل الكتاب الى يزيد وكان جالساً على كرسي وواضعاً قدميه في طست ماء من وجع النقرس مثل قائلا :

لقد بدلوا الحلم الذي من سجيتي فبدلت قومي غلظة بليان

ثم قال للرسول يكون بنو امية ومواليهم في المدينة الفأ فما يستطيعون ان يقاتلوا ساعة من نهار فقال له الرسول اجمع الناس كلهم عليهم يا امير المؤمنين فليس بهم طاقة عليهم .
وحينئذ انتدب الناس واعلن عن اعطائه لكل من يذهب مئة دينار فوق عطائه فانتدب ١٢٠٠٠ وجعل قيادة الجيش لمسلم بن عقبة المري فان حدث له حادث فالحصين بن نمير السكوني ووصاه قائلاً ادع القوم ثلاثاً فان هم اجابوك والا فقاتلهم فاذا ظهرت عليهم فأجها ثلاثاً فما فيها من مال او رقة او سلاح او طعام فهو للجندي ثم اكفف وانظر علياً بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً وادن مجلسه فانه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه وقد اتاني كتابه بذلك . ان ينزل في الحرة فنزل ثم خاطب اهل المدينة الذين كانوا في الجهة المقابلة مستعدين للمقاومة فقال لهم ان امير المؤمنين يزعم انكم الاصل واني اكره مراقبة دمانكم واني اؤجلكم ثلاثاً فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم الى هذا الملحد الذي بمكة - يعني ابن الزبير - وان ابستم نكون قد اعذرنا اليكم ولما مضت الايام الثلاثة خاطبهم سائلاً قد مضت الايام الثلاثة أتسلمون ام تحاربون فقالوا بل نحارب فقال لهم لا تفعلوا وادخلوا في الطاعة ونجعل حدنا وشوكتنا على هذا الملحد الذي قد جمع المراق والفساق من كل اوب فقالوا لهم انتم اعداء الله ولن نترككم تجوزوا حتى نقاتلكم ولا ندعكم تأتون بيت الله الحرام وتخيفوا اهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمة .

وكان اهل المدينة قد اتخذوا حولها خندقاً ونزل منهم جمع عظيم للقتال وكان امير جماعتهم عبد الله بن حنظلة وعلى ربيع من ارباعهم عبد الله بن مطيع وعلى ربيع آخر عبد الرحمن بن زهير بن عوف . واخذ الجمعان يشتبكان في قتال شديد وكان الفضل بن عباس مع المقاتلين من اهل المدينة وكانت له عولات قوية حتى انه زحزح بعض اركان الجيش الشامي . واخذ مسلم يهتف بأهل الشام محرضاً محمداً واعداءً فجذبوا وشدوا ثم كانت النصر

لهم . وقد قتلوا من اهل المدينة مقتلة عظيمة وكان الفضل بن عباس وعبد الله بن حنظلة وزيد ابن عوف ومشهورون آخرون من المقتولين . ثم اباح مسلم المدينة ثلاثاً ثم امر بالكف ودعا الناس الى البيعة فبايعوا وكان يقتل من يتلكأ او يتعنت او يشترط . وجاءه علي بن الحسين فرحب به واجلسه معه على السرير وقال له ان امير المؤمنين اوصاني بك ويقول لك ان هؤلاء الحثاء شغلوني عنك . وقد عرفت هذه الواقعة بوقعة الحرة ^(١) لان المعركة الرئيسية جرت عندها وكانت لليلتين او ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هـ .

وبما توافق فيه الطبري مع ابن قتيبة مساعدة بني حارثة لجيش الشام واثاحة اسباب اقتحام الخندق له وقد قال ان الناس انهزموا عند الاقتحام حتى ان الذين اصيبوا بالخندق اكثر من الذين قتلوا .

وواضح من السياق ان الفرق الهام بينهما هو ان سياق ابن قتيبة يفيد ان اسباب الخلع والثورة منع اهل المدينة وكيل معاوية من جباية ريع امواله في حين ان سياق الطبري يفيد ان اخلاق يزيد الشخصية هي السبب .

وبما رواه اليعقوبي ان مسلماً اباح حرم رسول الله حتى ولدت الابكار لا يعرف من اولدهن ^(٢) .

ولقد روى الطبري في سياق حركة ابن الزبير التي سوف نشرحها في نذرة اخرى ^(٣) ان ابن الزبير حين جهر بخلع يزيد والدثوة الى نفسه في مكة كاتبه اهل المدينة . وان عمرو بن سعيد والي مكة الذي عزله يزيد بسبب مداراته لابن الزبير قال ليزيد حينما كاتبه في ذلك ان جل اهل مكة واهل المدينة قد قاموا اليه وهدوه واعطوه الرضا ودعا بعضهم بعضاً سرّاً

(١) سميت الحرة لانها مكان بركاني اسود الحجارة وهي في الشمال الغربي من المدينة .

(٢) ج ٢ من ٢٢٣ مطبعة الغري وذكر في هامش هذه الصفحة ان الف امرأة ولدت من غيرازواج من هذه الواقعة .

(٣) ج ٤ من ٣٦٥ و٣٦٧

وعلاية حيث يسوغ هذا ان يقال ان لابن الزبير يدا ما في تحريك اهل المدينة . بل ان
يقال ان هذا هو الاساس لثورة اهل المدينة وان ما ورد في سياق ابن قتيبة والطبري ان
صح ولا مانع من صحة ما ورد في السياقين معاً كان من قبيل الذريعة او الاسباب المباشرة .

هذا مع القول ان في كلا السياقين وبخاصة في سياق ابن قتيبة ورواياته ما يثير في النفس
احتمال المبالغة والتحويل وبالتالي ما يبعث على الشك في كون وقائع الحادثة قد ثبتت بذلك
فيما بعد بقصد التسوية والتشويه والدعاية ضد يزيد .

ولقد اورد ابن قتيبة نبذة تحت عنوان فضائل قتلى اهل الحرة جاء فيها ^(١) ان رسول الله
ﷺ خرج في سفر من اسفاره فلما مر بحرة بني زهرة وقف فاسترجع .

وقد روى ابن كثير عن ابن عساكر عن المدائني انه لما قتل اهل الحرة هتف هاتفة بكفة
على ابي قيس مساء تلك الليلة وابن الزبير جالس يسمع .

والصائمون	القانتون	اولو العباداة والصلاح
المهتدون	المحسنون	السابقون الى الفلاح
ماذا بواقم	والبقيع	من الحجاججة الصباح
وبقاع يثرب ويجهن	من النوادب والصباح	
قتل الحيار بنو الحيار	ذوي المهابة والسماح	

فقال ابن الزبير باهؤلاء قتل اصحابكم فاننا لله وانا اليه راجعون ^(٢) .

فقالوا ما هذا يا رسول الله قال يقتل في هذه الحرة خيار امتي بعد اصحابي . وان عبد الله
ابن سلام وقف بالحرة زمان معاوية بن ابي سفيان فقال اجد في كتاب اليهود الذي لم يبدل
وم يغير انه يكون هننا مقتلة قوم يحشرون يوم القيامة واضعي سيوفهم على رقابهم حتى يأتوا

(١) الامامة والسياسة ج ٨ ص ٢٠٨

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٢٢

الرحمن تبارك وتعالى فيقفون بين يديه فيقولون قتلنا فيك . وان داود بن الحصين قال عندنا قبور قوم من قتلى الحرة فقلما حركت إلا فاح منها ريح المسك .

وان بعضهم روى عن عبد الله بن ابي سفيان عن ابيه قال رأيت عبد الله بن حنظلة في منامي بأحسن صورة معه لواؤة فقلت يا ابا عبد الرحمن اقتلت قال بلى فقلت ربي فأدخلني الجنة فأنا اسرح في ثمارها حيث شئت قلت فأصحابك فما صنع بهم قال هم معي وحول لوائي هذا الذي ترى لم يحل عقده بعد .

والصنعة وقصد تعظيم امر قتلى الحرة الذي ينطوي فيه قصد تسويء جيش يزيد ووسمه بالبغى بارزان على هذه الروايات . ويمكن ان يكون ذلك مؤيداً لما قلناه قبل .

وفي البداية والنهاية لابن كثير روايات هامة في صدد هذه الواقعة واحداثها لم ترد في كتابي الطبري وابن قتيبة وتتلاقى مع بعض روايات الطبري ويعزوها ابن كثير الى مصادر قديمة .

من ذلك ان وفد المدينة لما رجع من عند يزيد مشى عبد الله بن مطيع واصحابه الى محمد بن الحنفية فأرادوه على خلع يزيد فأبى عليهم فقال ابن مطيع ان يزيد يشرب الخمر ويتوك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب فقال لهم ما رأيتم منه ما تذكرون وقد حضرته واقمت عنده فرأيتهم مواظباً على الصلاة متحرياً للخير يسأل عن الفقه ملازماً للسنة . قالوا ان ذلك كان منه تصنعاً لك فقال وما الذي خاف مني او رجاً حتى يظهر لي الخشوع . افسأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر ، فلئن اطلعكم على ذلك انكم لشركاؤه وان لم يطلعكم فما يحل لكم ان تشهدوا بما لم تعلموا . قالوا انه عندنا الحق وان لم نكن رأيناه فقال لهم ابي الله ذلك على اهل الشهادة فقال (إلا من شهد بالحق وبه يعلمون) (١) ولست من امركم على شيء ، قالوا فلعلك تكره ان يتولى الامر غيبك فنحن نوليكم امرنا قال ما استحل القتال على ما تريدونني عليه تابعاً ولا متبوعاً . قالوا فقد قاتلت مع ابيك . قال جيشوني بمثل ابي

(١) الآية ٨٦ من سورة الزخرف .

أقاتل على ماقاتل عليه . فقالوا فمر ابنك ابا القاسم والقاسم بالقتال معنا قال لو امرتها لقتلت . قالوا فقم معنا مقاماً تحض الناس فيه على القتال . قال سبحانه الله أ أمر الناس بما لا افعله ولا ارضاه . اذا ما نصحت لله في عباده . قالوا اذا نكرهك قال اذا أمر الناس بتقوى الله ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق وخرج الى مكة ^(١) حيث ينطوي في هذه الرواية تكذيب شديد لما اتهم به يزيد بل اثبات لعكس ذلك من مواظبة على الصلاة وتحرر للخير والفقه واتباع لسنة وحيث يؤيد ذلك ما قلناه من ان الانحراف الاخلاقي الذي نسب الى يزيد وجعل سبباً للثورة عليه وخلعه كان ذريعة على غير اساس .

ومن ذلك ما رواه ابن كثير عن ابي القاسم البغوي الذي يروى عن راو فراو الى اسلم بن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر دخل على عبد الله بن مطيع فقال له مرحباً بأبي عبد الرحمن فقال انما جئتكم لاحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ يقول (من نزع يداً من طاعة فانه يأتي يوم القيامة لا حجة له . ومن مات مفارق الجماعة فانه يموت ميتة جاهلية) ^(٢) .

ومن ذلك ما رواه عن الامام احمد الذي يروى عن راو فراو الى نافع بن عمر قال لما خلع يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه واهله فقال لهم انا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله . واني سمعت رسول الله ﷺ يقول (ان الغادر ينصب له لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان . وان من اعظم الغدر بعد الشرك ان يبايع رجل رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن احد منكم في هذا الامر فيكون الفيل بيني وبينه) ^(٣) . حيث يفيد هذا ان هذا الصحابي الجليل لم ير ما يبرر خلع يزيد واعتبر ذلك غدرًا ونقضاً يندخلان في نطاق ما نهى عنها النبي ﷺ .

ومن ذلك ما رواه عن ابي جعفر الباقر انه لا احد من آل ابي طالب ولا من بني

(١) ج ٨ ص ٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر وعقب ابن كثير فقال ان هذا الحديث مسلم .

(٣) نفس المصدر ٢٣٢ - ٢٣٣ وعقب ابن كثير فقال ان هذا الحديث رواه مسلم والترمذي .

عبد المطلب خرج إيام الحرة (١) .

وهذا متفق جوهرياً مع ما اوردناه قبل عن موقف علي بن الحسين وموقف محمد بن علي بن ابي طالب المعروف بابن الحنفية ودفاعه عن يزيد وإيائه الاندماج في الثورة عليه حيث يفيد هذا ان معظم الهاشمين لم يندمجوا في الحركة وبالتالي لم يروها مشروعة .

ومن ذلك أي من مرويات ابن كثير عن المدائني انه لما جاءت بشرى النصر الى يزيد هتف وا قوماه ثم دعا الضحاك بن قيس الفهري فقال له ترى ما لقي اهل المدينة وما الذي يجبرهم فقال الطعام والاعطية ، فأمر بحمل الطعام اليهم وافاض عليهم بالاعطية (٢) .
ولقد روي ان يزيد لما جاءت البشرية تمثل بشعر لابن الزبيري انشده شماته بأهل المدينة حينما انتصرت قريش عليهم في وقعة أحد الذي يقول فيه :

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخرج من وقع الاصل
حين حلت بقنائهم بركها	واستحر القتل في عبد الاصل
قد قتلنا الضعف من اشراقهم	وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لعبت هاشم بالملك فلا	ملك بجاءه ولا وحي نزل (٣)

بما لا يمكن ان يصدق ذلك عنه وهو متناقض مع ما اثر من سيرته ومع ما اثر من اسفه لما وقع في المدينة . ونكاد نجزم انه مصنوع عليه للتسوية والتشويه .

وعلى كل حال فان من المستفاد من الروايات التي لا خلاف فيها ان اهل المدينة نقضوا بيعتهم للامام وحملوا السلاح ضد سلطانه بدون مبرر شرعي واستجابة الى دعاية ابن الزبير

(١) ص ٢٣٣ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٤ وفرب من منى البيت الاخير ينسب الى الوليد بن يزيد على ما اوردناه في سيرته . وهو مصنوع حتماً مثل هذا ونسبة البيت للشخصين من دلائل الصنعة .

الذي يعد خروجه فهو الآخر غير شرعي على ما سوف يأتي شرحه في نبذة حركته .
وان يزيد كلف غير واحد بنصحهم وتحذيرهم كما ان غير واحد من اصحاب رسول الله تطوعوا
بتحذيرهم وتذكيرهم بالاحاديث النبوية . وان يزيد بذل كل جهده بما اعطاه من امان
ومواثيق ووعود لتفادي القتال وامر قائده امراً صريحاً بعدم قتال غير من يقاتله وان
القتال وقع بعد انذار وإمهال وبعد وقوف اهل المدينة موقف المحارب الصريح . وليس في
هذا ما يخالف ديناً ولا عقلاً ولا منطقاً .

ولقد روى الطبري ان مسلماً بن عقبه حين حضرته الوفاة قال اللهم اني لم اعمل عملاً قط
بعد شهادة ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله احب الي من قتلى اهل المدينة ولا
ارجى عندي في الآخرة ^(١) . حيث ينطوي انه كان معتقداً بصحة قتاله اهل المدينة ممن
الوجهة الشرعية على اعتبار انهم بنقضهم بيعة الامام ونصبهم له الحرب قد فرقوا جماعة المسلمين
وافسدوا مصالحهم .

ومن هذا الباب ما رواه ايضاً في سياق التشاد الذي كان في بلاد الشام حول ترشيح
ابن الزبير للخلافة بعد تنازل معاوية بن يزيد وسعي بني امية للاحتفاظ بها لهم حيث سأل
حصان بن مالك احد زعماء انصار بني امية الناس في الاردن ما شهدتكم على ابن الزبير وعلى
قتلى اهل الحرة فقالوا نشهد ان ابن الزبير منافق وان قتلى اهل الحرة في النار فسأل ما
شهدتكم على يزيد بن معاوية وقتلائكم بالحررة فقالوا نشهد ان يزيد على الحق وان قتلانا في
الجنة ^(٢) .

غير ان تبرير قتال اهل المدينة لا يمكن ان يشمل ما روي من اباحة المدينة للنهب وقتل
النساء والصبيان والاسرى وفضح النساء وابقاع الاذى على بعض اصحاب رسول الله ﷺ
المنعزلين عن الحركة مما يعتبر من افطع الاعمال والجرائم وادعاها لسخط الله وغضبه والنقمة
واللوم في كل وقت ان صحت الروايات حقاً لو كان ذلك ضد اية مدينة اسلامية وجماعة من

(١) ج ٤ ص ٣٨٢ . (٢) ص ٤١٠ .

المسلمين في أي وقت فكيف وذلك ضد مدينة شرفها الله بأن تكون دار هجرة رسوله ومثوى جثثه الشريف وورد في فضلها احاديث نبوية عديدة^(١) . وضد جماعة فيهم الكثير من المهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله ﷺ وابنائهم وتابعيهم الذين قرّنه خير القرون والذين اتى رسول الله عليهم اعظم الثناء في احاديث عديدة ظلموا وبغيا . واذا كان هناك احاديث نبوية تبسح قتل الحارث عن الامام والمفرق للجماعة فلا يمكن ان يشمل ذلك فضح النساء واباحة المدينة للنهب وقتل الاسرى والعدوان على المنعزلين عن الفتنة .

ونقول ان صحت الروايات حقاً لان صدور مثل هذه الجرائم الفظيعة ضد المدينة الشريفة والمهاجرين والانصار من اصحاب رسول الله وابنائهم وتابعيهم بما لا يصدق بسهولة

(١) هناك حديث صحيح مروي عن سعد بن ابي وقاص في صبيغ متغايرة قليلا ومن طرق عديدة هذه احدي صدقه قال سمعت رسول الله (ص) يقول (لا يكيد اهل المدينة احد الا ائاع كما يناع المنح في الماء) وهذه صيغة اخرى (لا يريد احد المدينة بسوء الا اذابه الله في النار ذوب او رصاص او ذوب المنح في الماء).

وهناك حديث صحيح مروي عن السائب بن خلاد في صبيغ متغايرة ومن طرق عديدة هذه احدي صيغه قال (قال رسول الله صلعم من اخاف اهل المدينة ظلماً اخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا

النهاية لابن كثير ج ٨ ص ٢٢٤ .

وقد روى البخاري ومسلم حديثاً عن عمران بن حصين عن النبي صلعم جاء فيه (خير امتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) التاج ج ٣ ص ٢٧٠ .

وروى مسلم عن ابي موسى حديثاً نبوياً جاء فيه (النجوم أمانة السماء فاذا ذهب النجوم اتى السماء ما توعدها وانا أمانة اصحابي فاذا ذهب اتى اصحابي ما يوعدون واصحابي امانة امتي فاذا ذهب اصحابي اتى امتي ما يوعدون) التاج ج ٣ ص ٢٧١ .

وحديث رواه الترمذي جاء فيه (الله الله في اصحابي الله الله في اصحابي لا تتخذوم غرضاً بعدي فن احبهم فبحبي احبهم ومن ابغضهم فببغضي ابغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك ان يأخذه) نفس المصدر ص ٢٧٢

من اناس يؤمنون بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر وهو ما نعتقد في يزيد وقائده وافراد جيشه ومما في سياق الطبري وابن قتيبة وغيره من الروايات الكثيرة ما يؤيده .

ونخشى كثيراً بل نحن اميل الى الجزم بأن ذلك مصنوع مثل كثير من الروايات المروية في سياق قصة مقتل الحسين وغيرها وفي اخلاق وافعال خلفاء بني امية ورجالهم المشهورين من قبل اعدائهم في عهدهم وبعده بقصد التسويء والطعن والدعاية . ولا سيما ان المسألة حساسة تثير العواطف في عامة المسلمين بل وخاصتهم ، واذا كان من الثابت ان اعداء بني امية من الهاشمين وشيعتهم قد اجتروا بسبيل تأييد اشوائهم وتجريح اعدائهم على صرف الآيات القرآنية عن معانيها ووضع الاحاديث النبوية فليس غريباً ان يقال انهم صنعوا هذه الروايات بل ان ذلك يكون اهن واكثر وروداً واحتمالاً .

٨ - حركة عبد الله ابن الزبير رضي الله عنه



تقلبت هذه الحركة في اطوار مختلفة وامتدت نحو عشرين سنين . وكلفت الدولة الاموية كثيراً من الجهد والعت ، وانتهكت في سياقها حرمة مكة المكرمة والصعبة المشرفة وزهقت فيها ارواح آلاف المسلمين ، وحاول الروم استغلال انشغال الدولة بها فقاموا ببعض الحركات المزعجة للدولة حتى لقد اضطر عبد الملك بن مروان ان يدفع اناوة لاسكانها على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى واتسعت حتى شملت الحجاز واليمن والعراق وما وراءها ايضاً بحيث يمكن ان يقال انها كادت تقضي على الدولة الاموية وتحل محلها في السلطان العربي الاسلامي .

ولقد ذكرنا في سيرة معاوية أن عبد الله بن الزبير كان خامس خمسة من مشهوري اصحاب رسول الله امتنعوا عن البيعة بولاية العهد ليزيد في زمن معاوية ، فلما مات معاوية كتب يزيد لواليه في المدينة ان يأخذ البيعة له مجدداً ويأخذها من الذين امتنعوا عنها في حياة ابيه . وقد دعا الوالي عبد الله بن الزبير الى البيعة فراوغ ثم خرج سراً الى مكة .

وقد ارسل الوالي خلفه ثمانين راكباً فلم يدركوه . وامر يزيد واليه بأن يبعث جيشاً الى مكة لارغامه وان يغل عنقه ويديه ويرسله اليه مع انها لم يفعل ذلك مع الحسين بن علي على ما ذكرناه في نبذته حيث يدل هذا على ان يزيد كان يتوقع من ابن الزبير موقفاً مزعجاً اكثر

بما كان يتوقع من الحسين (١) .

ولقد ذكرنا في تلك النبذة عزوا الى الطبري ان ابن الزبير شجع الحسين على الخروج الى العراق بناء على دعوة الشيعة له وان ابن عباس لم يعلم بذلك قال له هذا حسين يخرج الى العراق وعليك بالحجاز ثم انشده :

يا لك من قنبرة بعمّر . خلا لك الجو فيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري

حيث يفيد هذا ان ابن الزبير كان يبيت امراً وخروجاً على يزيد .

ولقد اخفق الجيش الذي سيره والي المدينة لارغام ابن الزبير فكان ذلك من عوامل جراته وقوة عزيمته (٢) .

ومن ثم اخذ ينشط في سبيل الدعوة لنفسه . ولقد روى الطبري ان يزيد عاتب عمرواً بن سعيد والي مكة وكان قد عزله بسبب ماذا اليه من مداراته لابن الزبير فقال له (ان الشاهد يرى ما لا يراه الغائب وان جل اهل مكة واهل المدينة قد كانوا مالوا اليه وهو وه واعلموه الرضا ودعا بعضهم بعضاً سرّاً وعلانية ولم يكن معي جند اقوى بهم عليه لو تاهضته . وكان يجذرنني ويتحزرنني وكنت ارفق به واداريه لاستمكر منه فائب عليه (٣)) مما فيه الدليل على ذلك . وكان ذلك قبل مقتل الحسين .

فلما جاء خبر مقتله جمع اهل مكة وخطبهم فخطبهم مقتل الحسين وعاب على اهل الكوفة خاصة ولا م اهل العراق عامة ونوه بما كان من اباة الحسين الاستسلام والنزول على حكم ابن زياد وقال انه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة وعرض بيزيد وشربه الخمر واعماله

(١-٢) الطبري ج ٤ من ٢٥٥-٢٥٥ .

(٣) الطبري ج ٤ من ٣٦٧ .

واجبات الدين ولهوه بالغناء والصيد .

وقد حرضه بعض انصاره على اظهار بيعته قائلين له انه بعد مهلك الحسين لم يعد احد ينازعه . فأخذ يتهاى لذلك وجرت بينه وبين اهل المدينة مكاتبة كانت كما ذكرنا في نبذة ثورة المدينة محررة لهذه الثورة ^(١) .

وبلغ يزيد ما يدبره ابن الزبير فأمر عبيد الله بن زياد ان يغزوه فاعتذر فعزم على ارسال جيش من الشام وفي اثناء تهيئة الجيش ثارت المدينة فأمر يزيد قائد الجيش ان يتخذ المدينة طريقاً له ليعالج الامر فيها ثم يتجه لمهمته الاصلية .

وفي الطبري رواية ^(٢) تفيد ان الوليد بن عتبة والي الحجاز من قبل يزيد هو الذي حج بالناس وان ابن الزبير كتب الى يزيد يشكو خرق الوليد ويطلب منه تبديله بوال ابن واسهل وان يزيد استجاب الى طلبه حيث يفيد هذا وذاك ان جهر ابن الزبير بخلع يزيد تأخر مدة غير قصيرة بعد مقتل الحسين الذي كان في محرم عام ٦١ بل هناك رواية يرويها الطبري ^(٣) ايضاً تذكر انه كان في حج سنة ٦٢ في عرفات ثلاث جماعات كل جماعة تقف لخدمتها وهي جماعة لواء الامويين وجماعة نجدة الخارجي وجماعة ابن الزبير وان نجدة كان يلقى ابن الزبير فيكثر معه حتى ظن الناس انه سيبايعه وان طلب ابن الزبير عزل الوالي من يزيد كان بعد ذلك حيث يفيد هذا ان جهر ابن الزبير بالخلع تأخر الى سنة ٦٣ وان كانت بدرت بوادر منه قبل ^(٤) . ولما كانت وقعة الحرة في ذي الحجة سنة ٦٣ فان هذا يفيد ان يزيد تأخر في ارسال الجيش لحرب ابن الزبير نتيجة لموقف ابن الزبير غير الصريح قبل ثورة المدينة .

ولقد سار مسلم بن عقبة بالجيش بعد قمع ثورة المدينة فحصر مكة في شهر المحرم سنة ٦٤ فلما انتهى الى مكان اسمه المشلل نزل به الموت . ولما احس بدنو اجله اخبر الحصين بن غير ان

(١) المصدر السابق ٣٦٤-٣٦٥ .

(٢-٤) نفس المصدر ٣٦٦-٣٦٩ .

يزيدا عهد له بأمرة الجيش من بعده ووصاه بتعمية الاخبار والاسراع في السير والتعجيل بالوقاع وعدم الاستماع الى القرشيين ومناجزة ابن الزبير الذي نعتة بالفاسق وعدم رد اهل الشام عن عدوهم^(١) .

ودفن الحصين مسلماً حيث مات ثم تقدم نحو مكة وقد بايع اهلها ابن الزبير . وانحاز اليه نجدة الحارجي وقدم من اهل المدينة كثيرون عليه . وتحالف الجميع معه على قتال الجيش الشامي . وقد أخرج قوة بقيادة اخيه المنذر فاشتبكت مع الجيش الزاحف في معركة شديدة ثم تبارز المنذر مع رجل من جيش الشام فقتل كل منها صاحبه وشعر بعد ذلك جند الشام فكشفوا قوة ابن الزبير وهزموها . فعمد هذا الى التحصن في مكة . واقام جيش الشام على حصارها ونصب عليها المجانيق وكان يرشقها بالحجارة . وظل الحصار الى ان جاء نعي يزيد في ربيع الآخر سنة ٦٤ فهتف جماعة ابن الزبير للجيش الشامي علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم . فلم يصدقوا الخبر الا بعد ان اخبرهم به شخص قادم من الكوفة يعرفه الحصين . وحينئذ بعث الحصين الى ابن الزبير يطلب منه الاجتماع وتم اللقاء بين الرجلين فعرض الحصين عليه ان يبايعه ويخرج معه الى الشام . وقال له ان هذا الجند هم وجوه اهل الشام وفرسانهم فاذا بايعوك لا يختلف عليك اثنان^(٢) . وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك وبيننا وبين اهل المدينة . فأبى ان يهدر قتلى مكة والمدينة واصر على قتال جيش الشام وقتله وكان الحصين يكلمه سرا وهو يجهر جهراً فما كان من الحصين الا ان قال له قبح الله من بعدك داهية . قد كنت اظن ان لك رأياً . فانا ادعوك

(١) المصدر السابق ص ٣٨١-٣٨٢ .

(٢) نقول هنا ما قلنا في ظرف خطبة ابن زياد في البصرة التي ذكرناها في نبذة ثارات الحسين والخنار فقد كان يزيد ولي عهد له يبعه في اعناق الناس وهو ابنه معاوية وقد تولى الحكم عقب موت ابيه ولا بد من ان يكون الحصين يعرف ذلك فالعرض الذي عرضه على ابن الزبير ان صح فلا يستقيم الا اذا كان العرش فارغاً ولهذا فتحن نرجح في حالة صحته ان يكون خبر تنازل معاوية بن يزيد وفي ظرف فراغ العرش .

الى الخلافة وانت تتوعدني القتل . ثم تركه وخرج وهتف بجيشه بالرحيل . وندم ابن الزبير
فارسل اليه ابي اكره الخروج من مكة فبايعوني هنا وانا مؤمنكم وعادل فيكم فأبى واستمر
في سيره الى المدينة دون ان يقدر ابن الزبير على شيء معه . غير ان اهل المدينة اظهروا
شمتهم بالجيش واجتروا عليه وقتلوا بعض رجاله . وقد خرج مع الجيش من كان في
المدينة من بني امية وانصارهم حيث تيقنوا ان المدينة ستدخل في حكم ابن الزبير ، وقد تم
ذلك سلا ، وارسل اخاه عبيدة والياً ثم استبدله بمصعب فغدت الحجاز جميعها في حكمه (١) .

ولقد احترقت الكعبة اثناء الحصار . ويروي الطبري روايتين في ذلك . واحدة تذكر
ان الجند الشامي قذفوها بالمجانيق وحرقوها بالنار وان ذلك كان في الثالث من شهر ربيع
الاول يوم السبت سنة ٦٤ .

والرواية الثانية تذكر ان جند الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة نارا فهبت شرارة
منها الى ثوب الكعبة فاحترق واحترق خشب الكعبة نتيجة لذلك (٢) .

وقد تطمئن النفس بهذه الرواية اكثر لانه ليس هناك رواية تذكر ان المجانيق في ذلك
الزمن كانت ترمي مادة مشتعلة ، وانما كانت ترمي حجارة فقط وهذه لا تسبب حريقاً
وهذا فضلاً عن ان الجيش الشامي الذي كان من ابناء جيوش الفتح لا يعقل ان يكون
قصد رمي الكعبة وهدمها او حرقها .

والسياق المتقدم مقتبس من الجزء الرابع من تاريخ الطبري . وفي الامامة والسياسة
لابن قتيبة روايات عن هذه المرحلة فيها ما يتفق مع هذا السياق وفيها ما يختلف (٣) .

(١) جميع سياق حصار مكة من الطبري ج ٤ من ٣٨ وبعدها .

(٢) نفس المصدر :

(٣) ج ٢ من ١٠-١٤ .

وبما جاء من ذلك ان الحصين نصب على مكة العرادات والمجانيق وفرض على جيشه عشرة آلاف صخرة كل يوم يرمونها على المدينة . وان خبر موت يزيد جاء الى الحصين فأرسل الى ابن الزبير يقول ان صاحبنا قد مات فأذن لنا نطوف البيت وننصرف عنكم فمنعهم من ذلك وقال لهم وهل تركتم من البيت الا مدرة . حيث يعني ان المجانيق قد هدمت الكعبة . مع انه يروى ان ابن الزبير أسند الواحاً من الساج الى البيت والقي عليها القطائف والفرش فكان اذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت وسقط على الفرش والقطائف حيث يعني هذا ان الكعبة لم تهدم .

وبما جاء في سياق ابن قتيبة ايضاً ان الناس في الطريق ثم في المدينة اعتدوا على الجيش الشامي ووقعوا فيه بعض القتلى واسروا بضع مئات فلما جاء مصعب الى المدينة ضرب اعناقهم .

وقد توافق ابن قتيبة مع الطبري في روايته الثانية في اسباب حريق الكعبة معه كما توافق معه فيما كان من عرض الحصين على ابن الزبير وتعت هذا واضاعته الفرصة بذلك .

وبما ذكره الطبري ان ابن الزبير جدد بناء الكعبة في سنة ٦٥ وادخل فيه الساحة التي كانت تعرف بالحجر او مصلى ابراهيم استناداً الى حديث نبوي روته عائشة ام المؤمنين جاء فيه (لولا حداثة عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على اساس ابراهيم فأزيد فيها من الحجر وانه لما امر بجفر الاساس لادخال الحجر وجدوا قلاعاً امثال الابل فحركوا منها صخرة فبرقت بارقة فقال اقروها على اساسها . وقد جعل للكعبة بابين بابا يدخل منه وآخر يخرج منه ولم يكن لها الا باب واحد ^(١) .

وقد ذكر ابن قتيبة ان طول الكعبة في السماء كانت ثمانية عشر ذراعاً ^(٢) .

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٨٣-٤٨٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣ .

وذكر المسعودي ان ابن الزبير جلب من صنعاء الفسيفساء التي كانت في الكنيسة التي بناها أبرهة الحبشي ومعهما ثلاثة اساطين من رخام فيها وشي منقوش وقد حشي النقش بانواع الالوان والاصباغ حتى من رآه ظنه ذهباً فجعل ذلك في الكعبة . وان سبعين شيخاً من قريش شهدوا ان قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فذقوا من سعة البيت سبعة اذرع من اساس ابراهيم فأدخلها ابن الزبير فيه . وجعل له بابين باباً يدخل منه وباباً يخرج منه فلم يزل البيت على ذلك حتى قتل الحجاج عبد الله بن الزبير فهدم الكعبة بعد الاستئذان من عبد الملك واعادها الى ما كانت عليه في زمن الرسول ﷺ من حيث السعة ووحدۃ الباب (١) .

ولقد كان من اثر حركة ابن الزبير في الشام بعد موت يزيد وتنازل معاوية ابنه ان اقبل جل اهل الشام وجماعات من الاردن وفلسطين على بيعته حتى لقد عهد الى الضحاك بن قيس ليكون عامله في الشام . غير ان معركة مرج راهط قلبت الموقف رأساً على عقب حيث استتب الامر في الشام لمروان بن الحكم على ما شرحناه في سيرته .

ولقد بعث ابن الزبير اخاه مصعباً نحو الشام فلم يكد يصل الى الاردن حتى كان الامر قد استتب لمروان فبعث هذا بجيش الى لقاء مصعب فلقية وهزمه (٢) .

ولقد كان من اثر هذه الحركة في مصر ان قام واليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي بالدعوة اليه فسار مروان الى مصر ووطد السلطان فيها لنفسه (٣) .

والمستفاد من بعض الروايات ان اليمن دخلت في بيعة ابن الزبير ايضاً بعد الحجاز (٤) .

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٩-٣٠ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٤١٧ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) انظر البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ .

وظلت في حكمه الى ان تقوض حكمه عن الحجاز فسقط عنها تبعاً لذلك .

ولقد كان من اثر حر كته في العراق ان اتجه زعماء الحوارج فيها ومنها نافع بن الازرق وعبد الله بن صفار وعبد الله بن اباض وعبيدة بن علال اليه حيث قال لهم نافع ان الله قد كتب عليكم الجهاد في اهل الظلم والغشيم . وقد ثار هذا الرجل بمكة فأخرجوا بنا اليه فان كان على رأينا جاهدنا معه العدو فقبلوا اقتراحه وخرجوا فسر عبد الله بن الزبير بمقدمهم وكان جيش الشام محاصراً له فقاتلوا معه فلم مات يزيد وانفك الحصار تحذوا معه فقلوا فيما قالوه ان الله بعث محمداً ﷺ يدعو الناس الى عبادة الله واخلاص الدين له ففعلوا واستجاب له الناس فعمل فيهم بكتاب الله وامره فلما قضى خلفه ابو بكر ثم عمر فساروا على منهجه ثم استخلف عثمان فخالف واساء الاستعمال وعددوا المساويء المنسوبة اليه وقالوا فنحن للاولين اولياء ومن عثمان واوليائه براء . فدافع ابن الزبير عن عثمان وفند ما نسب اليه وقال لهم انا وليه كما انا ولي من قبله . فقالوا له برىء الله منك يا عدو الله فرد عليهم الكلمة وحينئذ انقضوا عنه وعادوا الى العراق (١) .

على ان العراق لم يلبث ان دخل في بيعته على اثر انسحاب ابن زياد وعمال بني امية على النحو الذي شرحناه في نبذة حركة ثارات الحسين والمختار الثقفي . حيث كتب اليه اهل العراق بذلك . وحينما نشط الحوارج في انحاء البصرة وعهد اهلها بقيادة نضالهم الى المهلب واشترط هذا ان يكون له ما يغلب عليه اجابره الى شروطه واوفدوا وفداً الى ابن الزبير بذلك فامضى الشروط حيث اعتبروه ولي امرهم حالما كتبوا له بيعتهم ، ولم يلبث ان ارسل الى كل من الكوفة والبصرة واليمام ووكيلاً للخراج فصار السلطان يمارس باسمه . ولقد كان عبد الله بن حازم احد رجالات العرب في خراسان قد استغل فرصة فراغ العرش الاموي فغلب على خراسان وفرض فيها سلطانه . فدخل هو الآخر في بيعه ابن الزبير حينما دخل العراق في هذه البيعة (٢) .

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٣٦ وبعدها .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ .

ولقد انكمش هذا السلطان بعد فترة قصيرة والمحصر في البصرة شيئاً ما نتيجة لموقف المختار الثقفي والشيعة واستمر منكمشاً الى سنة ٦٧ ثم عاد فاستتب ثانية حينما ارسل ابن الزبير اخاه مصعباً الذي استطاع ان ينتصر على المختار ويقتله مع عدد كبير من جماعته على ما شرحناه في نبذة ثارات الحسين والمختار شرحاً يغني عن التكرار .

وبما رواه الطبري^(١) ان مصعباً اول ما قدم على البصرة حيث كان سلطان ابن الزبير قائماً فصعد المنبر فحمد الله واثني عليه ثم قال والله ما اكثر الكلام ثم تلا قول الله (طسم تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى الى قوله انه كان من المفسدين)^(٢) . وأشار بيده نحو الشام و (نريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين)^(٣) . وأشار بيده نحو الحجاز و (نرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)^(٤) وأشار بيده الى ناحية الكوفة حيث يقيم المختار . ثم قال بلغني يا اهل البصرة انكم تلقبون امراءكم وقد سميت نفسي الجزار .

ولقد حقق بفعله هذا الاسم الذي سمي به نفسه حيث روى ان عدد الذين قتلهم صبراً اي بعد الاسر والاعتقال كان ٥٠٠٠ في رواية و ٧٠٠٠ ولقد ناشده بعض اصحابه ان لا يقتلهم وان يمن عليهم فيكسب قلوب قبائلهم ويكونوا له عوناً فأبى . وبظهر ان هؤلاء قد نزلوا على حكمه واستأسروا استناداً الى عهد وامان على ما يفيد شعر مأثور لعقبة الأسدي جاء فيه :

قتلتم سنة الآلاف صبراً	مع العهد الموثق مكتفينا
جعلتم ذمة الحبلى جسراً	ذلولا ظهره للواطينا
وما كانوا غداة دعوا فغروا	بعدهم بأول خائنينا
وكنت امرتهم لو طاوعوني	بضرب في الازقة مصلتنا

(١) ج ٤ ص ٥٧٧-٥٧٨ .

(٢-٤) هذه لايات من اوائل آيات سورة القصص .

حيث يزداد عظم الاثم ان صح (١) .

ولقد أثر ان عبد الله بن عمر لقي مصعباً فقال له انت الذي قتلت في غداة واحدة هذه الآلاف ممن يوحد الله . فاعتذر إليه بأنهم بايعوا المختار فقال أما يمكن أن يكون فيهم المستكر او الجاهل فتتظر هل يتوب . والله لو نحررت غداة يوم هذه الآلاف من غم ابيك لعد ذلك سرفاً وهي لا تعبد الله ولا تعرفه كما يعرفه الآدمي (٢) .

ولقد كان هذا الاسراف في القتل من اسباب انفضاض اهل العراق عن مصعب وانتصار عبد الملك بن مروان عليه على ما سوف نذكره بعد .

وبما يروى ان مصعباً شخص الى مكة عام ٧٠ بدواب كثيرة وظهر واثقال واموال عظيمة فقسمها على قومه وعيهم بما فيه صورة من صور الحكم ومآربه في ذلك الظرف (٣) .

ولقد استمر حكم ابن الزبير على العراق الى سنة ٧١ او ٧٢ ثم زال نتيجة لزحف عبد الملك بن مروان وانتصاره على مصعب وقتله

وبما يروى في صدد ذلك ان مصعباً جاء الى مكة سنة ٧٠ او ٧١ ومعه رؤساء ووجوه واشراف العراق وقال لاخيه قد اتيتك بالذين سارعوا الى بيعتك وقاموا باحياء دعوتك وحاربوا اهل معصيتك فأعطيهم من هذا المال فقال له اخوه جئني بعبيد اهل العراق وتأمرني ان اعطيهم مال الله ، والله لا افعل ، وايم الله لو ددت اني اصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم عشرة من هؤلاء برجل من اهل الشام . فقال له رجل منهم علقناك وعلقت اهل الشام . ثم انصرفوا عنه وقد ينسوا ما عنده فاجتمعوا واجمعوا على خلعه وكتبوا بذلك الى

(١) الطبري ج ٤ ص ٥٧٦-٥٧٧ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٥٧٧ وابن الاثير ج ٤ ص ١٠٨ والبداية والنهاية ج ٨ ص ٣٢٠ ويروى ابن الاثير ان مصعباً قال لابن عمر حينما سألتهم كانوا كفرة فجرة فاجابه بما جاء في الرواية .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٢ .

عبد الملك (١) .

ولقد فكر عبد الملك بن مروان فور توليه ان يبدأ مصالته مع عبد الله بن الزبير في الحجاز . فسير بسبيل ذلك في سني ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ بعض السرايا ، ووقعت مناوشات بينها وبين سرايا ابن الزبير حول المدينة وفي وادي القرى ، ثم وقفت هذه المصالحة (٢) . حيث يبدو ان عبد الملك رأى في تمسك اهل الحجاز بابن الزبير وتعصبهم له ما لا يسهل معه التغلب عليه في ذلك الظرف . وانصرف الى مصالحة سلطانه في العراق .

ولقد بدأ ذلك في عهد مروان حيث سير عبيد الله بن زياد على رأس جيش . ولم يكن سلطان ابن الزبير قد توطد قوياً ، فخرج الشيعة بقيادة سليمان بن صرد اليه فقاتلوه فانتصر عليهم (سنة ٦٥) ثم خرجوا اليه بقيادة ابراهيم بن الاشر (الذي كان متحالفاً مع المختار فانتصروا عليه سنة ٦٧ وقاتلوه على ما شرحناه في نبذة ثارات الحسين والمختار .

وبعد ذلك بقليل توطد سلطان ابن الزبير في العراق وقتل مصعب المختار وصفى الحكم لأخيه . ولقد ارسل عبد الملك عبيد الله بن الحر التميمي في محاولة ضد الحكم الزبيري فقتل على ما شرحناه في نبذة الخوارج . ثم ارسل في سنة ٧٠ خالد بن اسيد الى البصرة فلم يستطع ان يفعل شيئاً وانهزم بعد ان قتل عدد ممن انضموا اليه من اهل البصرة (٣) .

وحينئذ اعتزم الخروج بنفسه على رأس جيش قوي وخرج سنة ٧٠ او ٧١ ونزل اولاً في مسكنه اي انه سلك طريق دير الزور . ولا يبعد ان يكون كتابة العراقيين مما شجعه على الخروج ان صحت الرواية .

وبما يروى ان اهل الشام – والمقصود هم رؤساء الجند العربي في الشام ورجال

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣-٢٤ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٣ .

العرب - كرهوا خروجه بنفسه خشية على الناس وكيان الدولة . وقالوا له لو اقمنا يا امير المؤمنين مكانك وبعثت على هؤلاء الجيوش رجلاً من اهل بيتك فقال لهم انه لا يقوم بهذا الامر الا قرشي له رأي . ولعلي ابعث من له شجاعة ولا رأي له . واني اجسد في نفسي اني بصير بالحرب شجاع بالسيف ان الجئت الى ذلك . ومصعب من بيت شجاعة ولا علم له بالحرب (١) .

ويروي الطبري ان كلا من عبد الملك ومصعب تنافسا على كسب ابراهيم بن الاشر زعيم الشيعة الى صفه في نضالهما ضد بعضها فدعاه الاول الى طاعته ووعدته بالعراق ودعاه الثاني الى طاعته وطاعة آل الزبير ووعدته بالشام وأعنة الحيل وما غلب عليه من ارض المغرب ما دام آل الزبير سلطان . واستشار اصحابه فمعهم من اشار عليه بعبد الملك ومعهم من اشار عليه بمصعب فقال لو لم اكن اصب عبيد الله بن زياد ورؤساء الشام لتبعث عبد الملك مع اني لا احب ان اختار مصرأً على مصري وعشيرة على عشيرتي . ثم دخل في صف مصعب (٢) .

ولقد عسكر عبد الملك بجيوشه في اول الامر في مسكنه كما قلنا فنصح بعض رجال مصعب صاحبهم ان يسرع الى لقائه خارج العراق تفادياً من الحذل والغدر ففعل . وتداني الطرفان عند دير الجائليق واخذت تدور بينهما اشتباكات ضارية . وقد قتل ابراهيم بن الاشر وكان من اقوى رجاله ، وهرب قائد خيله فاضطرب جيشه ودب فيه الفوضى والحذلان ، وصار يأمر الناس بالتقدم والجد فيتلکأون ، فقال لابنه اذهب الى عمك بمكة فأخبره ما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول فقال له والله لا افارقك . ولكن ان اردت فالحق بالبصرة او بأمير المؤمنين فقال مصعب والله لا تتحدث قريش اني فررت ولكن اقاتل فان قتلت فلعمري ما السيف بعار وما الفرار لي بخلق . ولقد ارسل عبد الملك اخاه محمداً الى مصعب يطلب منه الكف ويعطيه الأمان فقال له مصعب ان مثلي لا ينصرف من

(١) المصدر السابق ص ٦-٧ .

(٢) ج ٤ ص ٥٧٣ .

هذا الموقف الا غالباً او مغلوباً ، ونادى محمد عيسى ابن مصعب يا ابن اخي لا تقتل نفسك
فلك الامان فقال له ابوه قد آمنك عمك فامض إليه فقال لا تتحدث نساء قريش اني اسلمتك
للقتل فقال له فتقدم بين يدي احتسبك فتقدم فقاتل حتى قتل، وظل مصعب يقاتل حتى اتخن
بالجراح وسقط فنزل اليه رجل فاحتز رأسه وجاء به فطرحه امام عبد الملك وانشد :

نطيع ملوك الارض ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم
فسجد لله شكراً ، ثم نظر الى الرأس فقال متى تغدو قريش مثلك ! والله لقد كانت
بيننا حرمة قديمة . ولكن هذا الملك عقيم . ثم انشد :

من يذق الحرب يجد طعمها مرأً وثركه يجعجعا

وبما يروى ^(١) ان شاعراً اموي الهوي هو ابو العباس الاعمى رثى مصعباً فعاتبه عبد الملك
فقال له انما رثيته لأنه كان صديقي وقد علمت ان هواي اموي فقال صدقت فانشدني قولك
فيه فانشدته :

رحم الله مصعباً فلقد مات كريماً ورام امراً جسياً

فقال عبد الملك اجل لقد مات كريماً ولكنه رام التي م . وما من الناس الا كل حر
معهم .

وقد قتل على نهر يقال له الدجيل عند دير الجائليق . ودفن هناك هو وابنه . وكان عمره
لما قتل ٣٦ سنة ^(٢) .

ثم دخل عبد الملك الكوفة فبايعه اهلها وتبعهم سائر اهل العراق . وعين اخاه بشرا

(١) تاريخ اداب اللغة العربية زبدان ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الاثير ج ٤ ص ١٢٩ .

والياً على الكوفة وخالداً بن عبد الله والياً على البصرة ووزع الاموال والجوائز على الناس وعاد الى دمشق .

وهكذا عاد العراق الى السلطان الاموي بعد انفصال دام نحو عشر سنين .
ولقد اثر عن الاقشر الاسدي هذا الرثاء في مصعب الذي تواترت الروايات عنه بأسه وشجاعته وانفته (١) :

حمى انفه ان يقبل الضيم مصعب	فمات كريماً لم تذم خلائفه
ولو شاء اعطى الضيم من رام هضمه	فعاش ملوماً في الرجال طرائقه
ولكن مضى والبرق يبرق خاله	يشاوره مرا ومراً يعانقه
فولى كريماً لم تنله مذمة	ولم يك رغداً تطيه غارقه

ولما بلغ عبد الله بن الزبير مقتل اخيه ترحم عليه ونعت اهل العراق بالغدر والنفاق وقال
لإنهم باعوه بأقل الثمن ثم قال ولئن اصبحت بمصعب لقد اصبحت بالزبير قبله . وان يقتل فانا والله
ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو ابي العاص . وما نموت الا قصعاً بالرماح وموتاً تحت
ظلال السيوف . ألا انما الدنيا عارية من الملك الاعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبدي ملكه
فان تقبل لا آخذها اخذ الاشر البطور وان تدبر لا أبك عليها بكاء الحرق المهين (٢) .

ولقد جهز عبد الملك بعد عودته جيشاً وسيره الى ابن الزبير بقيادة الحجاج بن يوسف
فسار في اواخر سنة ٧٢ فنزل بالطائف وكان يبعث منها بالبعوث في الحل - أي في غير الاشهر
الحرم - الى عرفة ويبعث ابن الزبير ببعوثه فيقتل الفريقان وكانت النصرانية حليفاً لبعوث
الحجاج . ثم استأذن عبد الملك بمحاصرة مكة ودخول الحرم على ابن الزبير وطلب منه مدداً

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٤ .

فأذن له وأرسل اليه مدداً فضرب الحصار على ابن الزبير حتى لم يستطع ان يقف هو وجماعته في عرفة . واقام الحجاج الحج للناس ثم نصب على مكة المجانيق . وكان عـ و اول من رمى حجراً ليشجع غيره على الرمي .

وبما يرويه الطبري ^(١) ان الدنيا اعدت بعد رمي الحجارة على مكة واصابة الكعبة ببعضها وقتلت الصواعق ١٢ رجلاً من جند الحجاج فذعر الجند الشامي . فقال لهم الحجاج يا اهل الشام اني ابن نهماء فلا تنكروا ما رأيتم فانها صواعقها وهذا الفتح قد حضر فابشروا ولما ادرك ان الحناق قد ضاق على اهل مكة اعلن الأمان لمن يخرج اليه فصاروا يخرجون بالآلاف حتى روي ان حمزه وخبيب ابني عبد الله بن الزبير كانا من جملة من خرج واخذ أماناً ^(٢) .

وبما روي ان عبد الله جمع القرشيين وسألهم ماذا ترون فقال رجل من بني مخزوم والله لقد قاتلنا معك وصبرنا ما نجد مقاتلاً برغم انك لم تف لنا ^(٣) . وقد صار الحال الى ما صار .

(١) ج ٥ ص ٣٠ وابن الاثير ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٣٠ .

(٣) الراجح ان المقصود بعدم الوفاء عدم الاغداق عليهم في العطاء . والمأثور عن عبد الله بن الزبير انه شجيج بخيل .

وقد جاء وصفه بهذا على لسان عبد الملك بن مروان على ما ذكرناه في سيرته . وقد روى هذا المحدثي وروى في صده شعراً لمولاه اسمه ابر حرة جاء فيه :

ان الموالى امست وهي عاتبة	على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزونا	اي الملوك على ما حولنا غلبا

ثم فارقه وقال بعد فراقه :

ما زال في سورة الاعراف يقرؤها	حتى فؤادي مثل الحز في الدين
لو كان بطنك شبراً قد شبت وقد	اقفلت فضلاً كبيراً للمساكين
ان امرأ كنت مولاه فضيعني	يرجو الفلاح لعمرى حق مغبون

مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣

فأنت امام خصلتين اما ان تأذن لنا فنأخذ الامان لأنفسنا ولك واما ان تخرج فناءخذ
لأنفسنا ، وقال رجل آخر اكتب الى عبد الملك فقال كنت اكتب له من عبد الله ابي بكر
'امير المؤمنين الى عبد الملك ، فكيف اكتب له من عبد الله بن الزبير الى عبد الملك امير
المؤمنين ، فواته لأن تقع الخضراء على الغبراء احب إلي من ذلك ، وقال له اخوه عروة
قد جعل الله لك يا امير المؤمنين اسوة ، فقال ومن هو قال الحسن بن علي بن ابي طالب خلع
نفسه وبايع معاوية فرفع عبد الله رجله وضرب عروة حتى القاه ثم قال له قلبي اذاً مثل قلبك .
والله لو قبلت ما تقولون ما عشت الا قليلا . وقد اخذت الدنيا ، وما ضربة بسيف الا مثل
ضربة بسوط . ولا اقبل شيئاً مما تقولون .

ولما ينس ابن الزبير من الحالة دخل على امه اسماء بنت ابي بكر فقال يا امه خذني
الناس حتى ولدي واهلي ، فلم يبق معي الا اليسير من ليس عنده من الدفع اكثر من صبر
ساعة ، والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا ، فقالت انت والله يا بني اعلم بنفسك . ان
كنت تعلم انك على حق وإليه تدعو فامض له . فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن من
رقبتك يتلعب بها غلمان بني امية ، وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلك
نفسك واهلكت من قتل معك ، وان قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت فهذا
ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين ولم خلودك في الدنيا ، القتل احسن ، فدنا منها فقبل
رأسها وقال هذا والله رأيي ، والذي قت به داعياً الى يومي هذا ، ما ركنت الى الدنيا ولا
احببت الحياة فيها وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله ان يستحل حرمه ولكنني احببت
ان اعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيري ، واني مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك
وسلمي الامر لله فان ابنك لم يتعمد اتيان منكر ولا عملاً بفاحشة . ولم يجر في حكم الله ولم
بغدر في أمان . ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، ولم
يكن شيء آثر عندي من رضى ربي . اللهم اني لا اقول هذا تركية مني لنفسي فأنت اعلم بي
ولكن ا قوله تسلية وعزاء لامي فقالت امه اني لأرجو من الله ان يكون عزائي فيك حسناً
ان تقدمتني او تقدمتكم ، فقال لها لا تدعي الدعاء لي فقالت لا ادعه ابداً . فمن قتل على
باطل فقد قتل على حق ثم قالت اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل وذلك النجيب والظما

وبره بأبيه وبني الهم قد سلمته لامرك ، ورضيت بما قضيت ، فلما ازمع على الخروج دخل
عليها يودعها فلما عانقها احسنت بدرعه فقالت ما هذا صنيع من يريد ما تريد فقال ما لبسته الا
لأشد منك قالت فانه لا يشد مني ، فنزعه ثم ادرج كفيه وشد أسفل قميصه وجبة خزن تحت
القميص فأدخل أسفلها في المنطقة ثم انصرف وهو يقول :

اني اذا اعرف يومي اصبر اذ بعضهم يعرف ثم ينكر

فسمعت امه فقالت تصبر والله ان شاء الله . ابوك ابو بكر والزبير وامك صفية بنت
عبد الملك .

ولقد اخذ الحجاج عليه الابواب فبات ليلته الاخيرة يصلي ثم احتبى بجنايل سيفه فأغفى
ثم انتبه بالفجر فتوضأ وصلى ثم قال لمن بقي حوله من خاصته وذويه صونوا سيوفكم كما
تصنون وجوهكم ولا يرعكم وقع السيوف وليشغل كل امرئ قرنه ولا يلهيكم السؤال
عني فاني في الرعي الاول وانشد :

أبي لابن سلمى انه غير خالد ملاقي المنايا اي صرف تيمنا
فلمست بمتاع الحياة بسبة ولا مرتق من خشية الموت سلما

ثم قال احمِلوا على بركة الله فحملوا وحمل معهم حتى بلغ معهم الحجون فرمى بأجرة
في وجهه فأرعش لها ودمي وجهه فلما وجد سخونة الدم قال :

لسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على اقدامنا تقطر الدما

ونغاوا عليه حتى هوى ميتاً ، وجاء الخبر الى الحجاج فسجد لله شكراً وامر باجتياز
رأسه فأرسله الى عبد الملك ثم دخل مكة فأخذ البيعة بمجدد من اهلها ، فكان ذلك نهاية
هذه الحركة ، وكان يوم ابن الزبير الاخير هو السابع عشر من جمادى الاولى من سنة

٧٣ هـ وكان عمره ٧٢ سنة ، وقد دامت خلافته نحو تسع سنين (١) .

ولقد روى ابن كثير عن ابن عساكر ان الحجاج خطب الناس يوم قتل ابن الزبير فقال ان ابن الزبير كان من خيار هذه الامة حتى رغب في الخلافة ونازعها اهلها وألحد في الحرم فاذاقه الله من عذابه الاليم . وان آدم كان اكرم على الله من ابن الزبير وكان في الجنة وهي اشرف من مكة فلما خالف امر الله واكل من الشجرة التي نهى عنها اخرجته الله من الجنة .

كذلك مما رواه ان الحجاج صلب جثة ابن الزبير على ثنية كدا عند الحجون وظلت مصلوبة أياماً حتى مر بها عبد الله بن عمر فقال رحمة الله عليك يا اباخيبي ، أما والله لقد كنت صواماً قواماً ، ثم قال اما آن لهذا الراكب ان ينزل ، فبعث الحجاج فانزلت الجنة ودفنت (٢) .

ومن عجيب ما يرويه ابن الاثير ونحن نعتقد بعدم صحته ان ابن الزبير بقي اياماً يستعمل الصبر والمسك قبل قتله لثلاثين يوماً فلما صلبه الحجاج ظهرت منه رائحة المسك فقيل ان الحجاج صلب معه كلباً او سنوراً ميتاً لتغلب رائحة نتنه على ريح المسك (٣) كذلك من عجيب ما يرويه وهو غير صحيح فيما نعتقد ان الحجاج القى بجثة ابن الزبير في مقابر اليهود (٤) .

ولقد روى هذا المؤرخ في الوقت نفسه ان عروة بن الزبير جاء الى عبد الملك بعد مقتل اخيه واستوهب جثته لانه فكتب بذلك الى الحجاج (٥) .

(١) سياق توجه الحجاج وحصار مكة وقتل ابن الزبير مقتبس من الطبري ج ٥ ص ٢٣-٣٥ انظر ايضاً الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٢٨-٢٩ وابن الاثير ج ٤ ص ١٣٥-١٤٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٣-٥) تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٨-١٣٩ .

وبما جاء في سياق هذه الرواية ان الحجاج كتب الى عبد الملك ان عروة اخذ من مال الله الذي كان عند اخيه وهرب فكتب عبد الملك اليه بل انه جاءني مبيعاً فأمنته وحللتها بما كان منه ثم وصاه به .

ومن باب الروايات التي لا يمكن ان تصدق ما رواه ابن الاثير ان الحجاج ضرب ظهر قدم عبد الله بن عمر بزج رمح مسموم فمات منها وكان ذلك بعد قتل ابن الزبير بثلاثة اشهر وكان عمر ابن عمر سبعاً وثمانين سنة ^(١) .

ومن ذلك انه قدم الى المدينة بعد ان عينه عبد الملك والياً على الحجاز فأقام بها شهراً او شهرين فأساء الى اهلها وقال لهم انتم قتلة امير المؤمنين عثمان ، وختم على أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص منهم جابر بن عبد الله وانس بن مالك وسهل بن سعد ، وانه لما خرج منها قال الحمد لله الذي اخرجني من بلد تن اهلها اخبث بلد وأعشه لأمر المؤمنين واحسد لهم له على نعمة الله والله لو ما كانت تأتيني كتب امير المؤمنين فيهم لجعلتها مثل جوف الحمار ، اعواد يعودون بها ورمة قد بليت يقولون منبر رسول الله وقبر رسول الله ^(٢) .

ولقد نقض الحجاج بناء الكعبة الذي بناه ابن الزبير واعادها الى ما كانت عليه في زمن النبي ﷺ ^(٣) .

وعلى كل حال فالواضح مما تقدم من قصة ابن الزبير انه خلع يزيد بن معاوية الذي كانت الامامة الشرعية منعقدة له ، واخذ البيعة لنفسه . وعذا وذاك مما يدخل في نطاق النهي والوعيد والتوجيه الذي تضمنته الأحاديث النبوية التي اوردناها في اول فصل المعكرات . ولا يبرر ذلك كونه لم يبايع يزيد ، فهو فرد لا يجوز له ان يخرج على جماعة المسلمين وامامهم الشرعي او يدعو الى ذلك . وما ساقه في سبيل ذلك من كونه خرج على الظلم غضباً لله

(١-٢) تاريخ ابن الاثير ج ٤ ص ١٣٩ .

(٣) التاريخ ج ٤ ص ٣٥ .

ولكتابيه وسنة رسوله هو من قبيل التبرير وليس فيه حجة في نطاق التوجيه النبوي المنطوي في الاحاديث المذكورة .

ولقد كان بيت النية على الخروج على ما يدل عليه كلام ابن عباس له الذي اوردناه قبل وامتناعه عن البيعة ليزيد بولايه العهد اولا ثم بالخلافة ، ولم يكن ظهر من يزيد ما فيه عصيان لله ورسوله وانحراف عن مصلحة المسلمين حتى يكون ذلك التبرير في محله .

ويقول ابن كثير ^(١) ان بن حزم وطائفة من المسلمين يعتبرون إمامته شرعية وينعتونه بأمر المؤمنين ، وقد يكون لهذا وجه لو كان خروجه واخذه البيعة لنفسه بعد موت يزيد وتنازل ابنه معاوية الذي كانت له البيعة في رقاب المسلمين . ولكن الذي لا خلاف فيه انه خلع يزيد وجهر لنفسه في حياته ، ولعلمهم اعتبروها كذلك لأن اكثر الذين بايعوه قد بايعوه بعد موت يزيد وتنازل ابنه اي في حين كانت الامامة الشرعية شاغرة . غير ان هذا لا يغطي كونه قد خرج ودعا لنفسه في حياة الامام الشرعي كما قلنا . ولا يجعله من اجل ذلك خارجاً عن شمول الاحاديث النبوية .

ولقد روى ابن كثير ^(٢) انه بعث الى محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر ليبايعوه فأبوا ، وفي هذا ان صح ولا مانع من صحته لانه متسق مع مواقفهم تأييد لما نقره ، وقد كان الثلاثة ممن بايعوا يزيد .

ولقد روى الطبري ^(٣) ان ابن الزبير حبس بن الحنفية ومن معه من اهل بيته وسبعة عشر رجلا من وجوه الكوفة بزمزم لانهم ابوا البيعة له وتوعدهم بالقتل والاحراق واعطى الله عهداً ان لم يبايعوا ان ينفذ فيهم ما توعدهم به وضرب لهم اجلا . وكان ذلك سنة ٦٦ فارسل ابن الحنفية الى المختار بن ابي عبيد الثقفي يعلمه بحاله فندب هذا عدداً من أهل النجدة والبأس فذهبوا الى مكة بقيادة ابي عبد الله الجدلي والتمسوا اولا من ابن الزبير اخلاء سبيلهم فأبى واصر على وجوب مبايعته فهددوه فيخافهم وافرغ عن المسجونين . وفي هذا توكيدهم لآخر ما نقره .

(١-٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٨ . (٣) ج ٤ ص ٥٤٤-٥٤٥ .

٩ - حركة عبد الله بن خازم

وابنه موسى في خراسان وما وراءها



هذه الحركة ذيل من ذبول حركة ابن الزبير وفراغ العرش الاموي ثم تطورت حتى صارت فتنة دامية .

وكان بدؤها ان سلباً بن زياد والي خراسان لما مات يزيد بن معاوية وتنازل ابنه دعا الناس الى البيعة على الرضا حتى يستقيم الناس على خليفة فبايعوه ثم تنكروا له وكثروا البيعة فخرج من خراسان تلافياً للفتنة واستخلف المهلب بن ابي صفرة . فلقبه عبد الله بن خازم السامي في نيسابور الذي يظهر انه كان من مشاهير رجال العرب في بلاد العجم او من قواد الجند الكبير فسأله من وليت خراسان فقال له المهلب فقال اما وجدت في مضر رجلاً تستعمله (والمهلب كان ازدياً يمانياً) اكتب لي عهداً على خراسان وخلاك ذم فكتب له وبلغ الحبر المهلب فتوكل خراسان وخلف عليها رجلاً من جشم بن سعد بن زيد بن مناة فلما وصل ابن خازم منعه هذا فكانت بينهما مناوشة فضربه ابن خازم ثم تقدم نحو خراسان فغلب عليها . والتف حواريه المضربون . وتصدى له بنو مرشد البانيون في مرو والطالقان فقاتلهم وانتصر عليهم ووطد سلطانه على هذه الانحاء . ثم وطده على هراة ، وحاول البانيون بمسعى بني تميم تجميع عصبائهم وقتال ابن خازم واكسبهم لم ينالوا منه منالاً ، وظل طول سنتي ٦٦٥ و٦٦ مستقلاً في الحكم متمكناً فيه يقاتل الترك والعجم وينتصر عليهم .

ولما صفا السلطان لعبد الله بن الزبير في العراق بعد الحجاز سنة ٦٧ دخل في بيعته شكلاً وظل كذلك الى ان انتصر عبد الملك على ابن الزبير في العراق ثم في الحجاز فكتب له بدعوه الى الدخول في طاعته على ان يبقى والياً في خراسان وتكون طعمة له عشر سنين او سبع سنين حسب اختلاف الروايات .

والمتبادر من العرض ان لا تحاسبه الدولة عن ما يدخل في يده من موارد البلاد فينفق منها على ما يحتاج اليه الجند والعمال والمرافق الاخرى ويكون ما يبقى بعد ذلك له خاصة .

وفي هذا صورة من صور الحكم في عهد الدولة الاموية وتكررت اكثر من مرة وبالنسبة لاكثر من وال اما برضاء الخليفة وموافقة واما بفرض الامر من قبل الوالي بسبب قرابته او نفوذه او عصيته او بلائه بما مر بعض الامثلة له في النبد السابقة .

وقد ارسل عبد الملك الى ابن خازم رأس عبد الله بن الزبير ليجعله يستيقن من مصير خليفته على ما جاء في الرواية وقد دعا ابن خازم بطست فغسل الرأس وحنطه وكفنه وصلى عليه وبعث به الى اهله في المدينة . وقال الرسول الذي حمل اليه الكتاب والرأس لولا خوئي من التضريب بين بني سليم وبني عامر . وابن خازم من سليم والرسول من بني عامر . ولولا انك رسول لقتلتك ولكن كل كتاب ابي الديان . وهذه كنية غمز لعبد الملك . فاجبره على اكل الكتاب وفي رواية قطع يديه ورجليه ثم ضرب عنقه .

ولما بلغ خبر ما فعله ابن خازم عبد الملك كتب الى بكير بن وشاح السعدي وكان على شرطة ابن خازم او نائبه في مرو كتاباً يعينه فيه والياً على خراسان ويمنه ويطلب منه الوثوب على ابن خازم وكان هذا في خارج مرو فاستجاب بكير واعلن خلع ابن خازم .

وكان لابن خازم ابن اسمه موسى يتولى الترمذ من قبله فاستدعاه مع من عنده من الجند فسارع الى نجدة ابيه وسار جند الاب والابن معاً نحو مرو وجمع بكير جند خراسان الذين انضموا اليه ، وكان بنو تميم وهم عصبة بكير اكثرهم حماسة واقبالاً ، واشتبك الطرفان

في قتال شديد ودارت الدائرة على ابن خازم وقتل مع عدد كبير من جماعته ، وامر بكبير باحتراز رأسه وارسله الى عبد الملك .

ولم تقف هذه الحركة عندهذا الحد . فان ابن خازم احتاط لأمواله وانقاله حينما أعلن بكبير فأمر ابنه موسى ان يهربها عبر نهر بلخ . فلما دارت دائرة القتال عليه استطاع ابنه مع جماعة من رجاله الافلات فعبر نهر بلخ . وضوى اليه اناس كثيرون . وطلب من امير بخارى ان يقبل ببقائه في اقليمه لاجئاً مع جماعته الذين كان عددهم سبعمائة فاعتذر تفادياً من الاصطدام مع والي خراسان والدولة من ورائه فنزل على دهقان نوقان فاستثقله وطلب منه الرجل فرحل الى سمرقند فأقام عند ملكها طرخون مدة ثم طلب منه الخروج . وحينئذ انقلب مع اصحابه الى عصابة فاتكة مستميتة وتغلب على بلاد الترمذ وانخذها معصماً له وصار يغير على بلاد الترك ويجار بهم وانضم اليه جماعات من فلول جيش عبد الرحمن بن الاشعث الذي سوف نشرح حركته في نبذة اخرى فازداد قوة وتمكناً وصار مرهوب الجانب من قبل الترك وولاية خراسان معاً وتحاشوا الاشتباك معه ، وظل امره مكيناً قريباً الى سنة ٨٥ هـ يغازي وينهب ويسبي ، كيف شاء . وفي هذه السنة اتفق امراء الترك مع امراء العرب في خراسان والانحاء الاخرى عليه بسبب اشتداد اذاه وفتكه وتولى المفضل بن المهلب الذي صارت اليه ولاية خراسان امر نضاله واخذ يتصاول معه ويقتل ويأسر من قدر عليه من رجاله حتى قل عددهم وتمكن في النهاية من الظفر به وقتله (١) .

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ٤٢٠-٢٢٦ و ج ٥ ص ١٩٥-٢٠٦ وتاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧١ .

١٠- تهرن عبد الرحمن بن الاشعث الكندي

واستطرد الى ترجمة الحجاج^(١)



كانت هذه الحركة من اشد الحركات عنفاً وخطورة . وقد استنفدت من الدولة جهداً كبيراً بل كادت ان تعصف بها واريق في سبيلها كثير من الدماء وشغلت ببعض احداثها المؤرخين وكانت وسيلة لتسوية سيرة الحجاج وتمويلها .

ولقد روي في صدها روايات كثيرة فيها تناقض وتضارب ويلمح في بعضها غرابية ومبالغة بل وخيال . واكثر الكتب استيعاباً لها الجزء الخامس من تاريخ الطبري ، وفي الامامة والسياسة ومروج الذهب روايات لم ترد في هذا الجزء وفيها روايات تتفق مع ما ورد فيه واخرى لا تتفق .

ولقد بدأت هذه الحركة في سجستان من بلاد العجم . وكان موجهاً ضد الحجاج والي العراق الذي كانت سجستان في نطاق حكمه . ثم اتسع حتى صار ضد الخليفة والدولة .

(١) هذه النبذة مقتبسة من الطبري ج ٥ ص ١٤٠-١٩٤ والامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٤-٥٠ وتاريخ البغوي ج ٢ ص ٢٧٠ وبعدها والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٨-٢٦٤ ومروج الذهب ج ٣ ص ٦٧-١١١ وابن الاثير ج ٤ ص ١٧٤-١٩٠ والبداية والنهاية ج ٩ ص ١١٧-١٤٠ .

والروايات مختلفة في سبب توجيه الحجاج لابن الاشعث الى سجستان . فمنها ما يذكر ان واليا اعلن عصيانه فارسله لتأديبه والخلول محله . ومنها ما يذكر انه سيره للتسكيل برتبيل ملك الترك الذي مكر بالمسلمين وغدر بهم حتى انزل بهم كارثة مروعة .

وقد اوردنا خبر هذا المكر والغدر في نبذة حركة الفتوح والمصاولات في ما وراء النهر وبلاد الترك ، وسياق الاحداث يجعل هذه الرواية مقبولة اكثر حيث روى معها أن الحجاج جهز لابن الاشعث جيشاً مؤلفاً من (٢٠٠٠٠) من اهل البصرة ومثلها من اهل الكوفة وحرص على ان يكونوا من ذوي الشجاعة والتماسة وانفق عليه الف واعطى افرادهم اعطياتهم تامة . حتى لقد سمي هذا الجيش بجيش الطواويس لحسن سميت أفرادهم وعدته .

ولقد روى الطبري ان الحجاج كان يبغض ابن الاشعث لحيالته وزهوّه ويقول انه ما رآه قط الا اراد قتله وانه قال للشعبى احد فقهاء البصرة (انظر الى مشيته . والله لممت ان اضرب عنقه) وان الشعبى اخبر ابن الاشعث بما قاله الحجاج بعد ان اخذ عهداً بالكتمان فقال (وانا كزعم الحجاج ان لم احاول ان ازيله عن سلطانه ، ولسوف اجهد الجهد اذا طال بي وبه البقاء) وان عم ابن الاشعث جاء الى الحجاج حين عين ابن اخيه قائداً للجيش والياً فقال له لاتبعته فاني اخاف خلافه . (اي تمرده) والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسلطاناً فقال له (ليس هناك هو لي اهيّب وفي ارغب من ان يخالف امري او يخرج عن طاعتي) .

ولقد روى ابن قتيبة ان الحجاج كان يلمع من ابن الاشعث زهواً او شموخاً وانه قال له انك لتقبل بوجه فاجر وتدبر بقفا غادر واني مبتليك لاعرف حقيقة امرك ثم عينه والياً على سجستان .

والروايات عجيبة لا تكاد تصدق ، فلا يعقل ان يعين الحجاج هذا الرجل وهو يبغضه ويتوقع منه الغدر ويسلمه قيادة جيش عرمرم من اهل العراق الذين يعرف نفستهم معرفة تامة . وكل ما يمكن ان يصح ان تكون هذه الروايات تنطوي على ذكرى ما كانت عليه

ابن الاشعث من اعتداد وقوة شخصية . وسبكت في الصورة التي رويت بها بعد الاحداث .

ولقد سار ابن الاشعث الى سجستان عام ٨٠ هـ ومن هناك امتعد لدخول ارض رتبيل .
وارسل هذا اليه كتاباً او رسلاً يعتذر عما وقع على المسلمين ويتنصل ويسأل تجديد الصلح .
فلم يقبل ولم يرفض وانما اتجه نحو بلاده حتى دخلها ، واخذ رتبيل ينسحب من امامه .

وكان ابن الاشعث كلما انسحب رتبيل من بلد اختله وعين له العمال واقام فيه
الحاميات حتى اذا حاز ارضاً عظيمة وملاً يديه بالغنائم حبس الناس وقال نكتفي بما اصناه
هذا العام حتى نعرفه ونجنه ويتعود المسلمون عليه ثم نتعاطى في العام المقبل ونظل كذلك
حتى نأتي على آخر البلاد والكنوز .

وكتب للحجاج بما فتح الله وبما تم رأيه عليه ، فأجابه بجواب فيه تسفيه لرأيه وتنديد به
وتهمة بالجن وتشديد على وجوب الوغول في ارض رتبيل ، فجمع رؤساء الجيش واخبرهم
بجواب الحجاج وقال لهم انما انا رجل منكم امضي اذا مضيت وآبى اذا آبيت فصاحوا بل نأبى
على عدو الله (بعنون الحجاج) فلا نسمع ولا نطيع وهتف احدثهم قائلاً اخلعوه وبائعوا
عبد الرحمن فارفعت الاصوات من كل جانب قد فعلنا وخلصنا عدو الله ثم وثبوا فبايعوا
ابن الاشعث على الجهاد معه حتى ينفي الله الحجاج من ارض العراق .

وقد ارسل ابن الاشعث الى الحجاج رسالة فيها تنديد ببغيه وظلمه وانحرافه واعلات
بأن الله قد أنهضه لمصاولته ، ثم ارسل الى رتبيل فصالحه على ان يكون معفواً من الخراج
ان ظفروا على ان يقبله لاجئاً في بلاده ويحميه ان هزم واتجه بجيشه نحو العراق .

وكان كلما مر ببلد انضم اليه جماعة من حامياتها ، ولما دخلوا اقليم فارس قالوا اننا اذا
خلصنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلصنا عبد الملك ، وحينئذ اتفقوا على خلع عبد الملك ايضاً .

وهناك رواية تذكر ان هذا جرى بعد وقعة البصرة الاولى التي انتصر فيها جيش
ابن الاشعث على ما سوف يأتي بعد ، ولعل هذا هو الاصح ، هذا مع ما يحيك في الصدر

من شك واستغراب لانفجار جيش ابن الاشعث وقد اغدق الحجاج عليه الاموال والجهاز والرعاية التامة .

ولم يرو ابن قتيبة قصة غزو ابن الاشعث لارض رتبيل وانما ذكر انه كان يبيت النية على خلع الحجاج منذ خروجه من العراق وانه بعد وصوله الى سجستان كتب للحجاج كتاباً يندد به فيه ويعلن خلعه ويتوعده بالمسير اليه .

والذي يتبادر لنا انه المعقول ان الحركة انبثقت في نفس ابن الاشعث حينما رأى نفسه قائداً لجيش عرمرم ، ولقد كان الجيش عراقياً . وكان العراق قد اثبت اسراره في الاستجابة الى كل دعوة وتقلبه مع اصحابها فكان ذلك مما قوى عزيمته ابن الاشعث على حركته وهباً له استجابتها حين دعا الجيش اليها .

ولقد اورد ابن قتيبة نص الرسالة التي ارسلها ابن الاشعث لمجنع الحجاج واعلانه عزيمته على مناضلته والتنديد بافعاله الباغية ونص خطبة خطبها الحجاج حينما استلم الرسالة وفيها تنديد بأهل العراق لمسارعهم الى الفتنة كلما دعا داع اليها وتذكير بمواقفهم المشينة ووعد شديد لهم وهتاف بجند الشام للاستعداد للموقف ونص رسالة جوابية ارسلها الى ابن الاشعث يذكر فيها اخلاقه ويندد بها ويتوعده توعداً شديداً .

والنصوص تدل على ان الحركة انبثقت من ابن الاشعث وان المطمح الشخصي كان حافزاً قوياً عليها .

وبما رواه الطبري ان المهلب بن ابي صفرة الذي كان يتولى قيادة الحرب في خراسان كتب لابن الاشعث ينصحه ويخوفه من عواقب الفتنة وسفك الدم الحرام حيث ينطوي في هذا - وصحته محتملة جداً - أن المهلب لمع ايضاً انه الاصل المحرك للفتنة وان غايتها تحقيق مطمح شخصي .

ولقد روى ابن الاثير ان جماعات كثيرة من الموالي قد انضموا الى حركة ابن الاشعث

ودخلوا في بيعته حيث يبدو انهم رأوها فرصة لتفريج غيظهم من العرب .

ولقد كتب الحجاج الى عبد الملك بنجر التمرد وطلب منه مدداً لان جل جند العراق كان مع ابن الاشعث ولم يكن من عنده منهم مأموناً على ما هو المتبادر فارتاع عبد الملك من الخبر وقال ان اهل العراق استعجلوا قدري . اللهم سلط عليهم اهل الشام حتى يبلغوا رضاك ، فاذا بلغوا رضاك لم يجاوزوا الى سخطك ، ثم اخذ يرسل اليه المدد بعد المدد .

ولقد كتب المهلب الى الحجاج ينصحه بالبقاء في العراق لان الزحف المتمرد كالسيل المنحدر لا يرده شيء حتى ينتهي الى قراره ، فاذا بلغوا اهلهم واولادهم سقطوا اليهم فتكون موافقتهم حينئذ مجدية .

ولكن الحجاج لم يأخذ بهذا الرأي وفضل ارسال الجيش للقاء الزحف قبل ان يدخل العراق ، وفعل . والتقى الجيشان فدارت الدائرة على جيش الحجاج وانهزم واستمر الزحف حتى البصرة ، وتمكن من دخولها فأقبل اهلها على مبايعة ابن الاشعث وبايعه فيمن بايعه كثير ممن كان فيها من علماء وقراء وفقهاء^(١) وكان ذلك في ذي الحجة سنة ٨١ هـ .

وجمع الحجاج فلول جيشه وعسكر بهم خارج البصرة . ثم اخذت الاشتباكات تقع بين الجيشين ثانية في مكان يعرف بالزاوية فدارت الدائرة على جيشه للمرة الثانية . وجمع الحجاج شمل جيشه وعاود الاشتباك مع الجيش المتمرد في نفس المنطقة . وكادت الدائرة تدور للمرة الثالثة عليه ، لولا انه جثا في اللحظة الاخيرة على ركبتيه وانتضى نحو شهر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان اكرمه حين نزل به ما نزل . فاشتد حماس الجند الشامي على اثر ذلك واستبسلا فدارت الدائرة هذه المرة على جيش ابن الاشعث .

غير ان الكسرة لم تكن حاسمة ، واستطاع ابن الاشعث ان يجمع شمل جيشه . ثم اتجه

(١) مما رواه ابن الاثير انه كان للقراء كتيبة غارب مع ابن الاشعث ج ٤ ص ١٨٣ .

مزيد يدر ما لم يرني	فاذا سمعته صوتي انقمع
ويحييني اذا لاقيته	واذا يخلو له لمي رتع
ورث البغضاء عن والده	حافظاً منه الذي كان استمع
ولساني صيرني صارم	كذاب السيف مامس قطع

ولقد استطاع ابن الاشعث ان يفلت فاتجه نحو سجستان مع شرازم من جموعه . ومنها انتقل الى ارض رتبيل الذي رحب به لاجئاً حسب اتفاقه معه سابقاً والذي هدد حاكم بست إذا لم يسمح له بالانتقال اليه حينما علم بقدومه .

وقد اكرمه وعظمه واخذت تتابع اليه فلول جموعه حتى بلغوا ستين ألفاً على ما يرويه الطبري . وهو على كل حال ينطوي على ذكرى كثرة ما التحق به منهم . وقد عرضوه على احتلال خراسان والمناذاة بسلطانه عليها ثم السير مرة اخرى لقتال الحجاج وعبد الملك ، وكان واليها حينئذ يزيد بن المهلب . فتفادى ابن الاشعث الاصطدام معه لانه يماني مثله وهو نضوله ان لم يفقه في قوة الشخصية والبسالة واكتفى باحتلال هراة احدى مدن خراسان . ولكنه لم يلبث ان اصطدم معه لانه كان يتحرك في منطقة هراة ويجيبها وهي في نطاق حكمه . وقد سير عليهم جيشاً انتصر عليهم وقتل واسر كثيراً منهم .

وارسل الاسرى الى الحجاج ، وهرب ابن الاشعث الى رتبيل ثانية ، فأرسل الحجاج الى هذا يهدده ويتوعده ان لم يسلمه اليه او يرسل رأسه ووعد به باعقائه من الخراج تسع سنين ان هو فعل ، وتردد في اول الامر فتوالت عليه رسائل الحجاج بالوعيد واخذت جيوش خراسان وسجستان تتحرك نحوه بأمره . فخاف وبيت النية على تسليمه ، وشعر ابن الاشعث بذلك فألقى بنفسه من سطح عال فتحطم وهلك . وكان ذلك في سنة ٨٤ او ٨٥ هـ .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل القوي الطموح . ولقد روى الطبري ان عامل كرمان قال له حينما جاء اليها مهزوما بلغنا انك كنت جباناً فقال (والله ما جبت ، والله لقد دلفت الرجال بالرجال ، ولقفت الخيل بالخيل ، ولقد قاتلت فارساً وقاتلت راجلاً . وما انهمزمت ولا تركت الفرصة للقوم في موقف حتى لا اجد مقاتلاً ولا ارى معي مقاتلاً ،

ولكنني زاوت ملكاً مؤجلاً . حيث ينطوي في جوابه سر اندفاعه في مغامرته .

ولقد روى المؤرخ المذكور أن عبد الملك أرسل برأس ابن الأشعث حينما جيء إليه به إلى امرأة كندية تحت رجل من قريش فلما وضع بين يديها قالت (مرحباً بزاو لا يتكلم ، ملك من الملك ، طلب ما هو أهله فأبت المقادير) ثم غسلته وحنطته وغلفته وأعادته إلى عبد الملوك ، ومع ذلك فقد عيره بعض رجاله على هروبه حيث روى الطبري أيضاً أن رجلاً من أصحابه سمعه يقول متمثلاً وهو هارب نحو رقبيل :

يطرده الخوف فهو تائه	كذلك من يكره حر الجلاء
منخرق الحفين يشكو الوجا	تنكبه أطراف مرو حداد
قد كان في الموت له راحة	والموت حتم على رقاب العباد

فالتفت إليه فقال هلا ثبت في موطن من المواطن فتموت بين يديك فكان خيراً لك بما صرت إليه (١) .

وهنا يبدو الفرق قوياً عظيماً بين الحوارج الذين كانوا يقاتلون عن عقيدة لوجه الله لا يبالون بكثرة عدوهم وقلة عددهم ويقدمون على الموت دون خوف ولا تردد .

وقد ذكر ابن الأثير حادثة تمردية من ذبول تبرد ابن الأشعث . فقد خلى كثير من رجال ابن الأشعث المهزومين بعمر بن أبي الصلت في الري فتمكن بهم من الغلبة على هذا الاقليم ، والعغلبة المنضوون إليه باعلان خلع الحجاج فاستجاب وكان الحجاج قد عين في هذا الظرف قتيبة بن مسلم والياً لحراسان فوجد في امر هذا التمرد وسير جيشاً على عمر وجماعته وانتصر عليهم ، ففر عمر مع ابنه لاجئاً إلى طبرستان فأواهما اجهذهما واكرمهما . وعلم

(١) صيغة الطبري تفيد أن المتمثل بالشعر هو صاحب ابن الأشعث وأن السؤال كان من ابن الأشعث لصاحبه . ونرجح أن هناك غلطاً في الطبع والنسخ . لأن المعنى لا يستقيم ولا يبدو للخبر معنى قوي إلا بالصيغة التي أوردناها (انظر الطبري ج ٥ ص ١٩٠) .

فيمن اعان علينا والب فقال له (اصلح الله الامير ، اني امرت باشياء اقولها لك ارضيك واسخط الرب ولست افعل ، ولكني اقول اصلح الله الامير واصدقك القول فان كل شيء يقع بين يديك فهو الصدق ان شاء الله ، نبأنا المنزل ، واجذب الجناح ، واكتحلنا السهر . استعلسنا الخوف وضاق بنا البلد العريض فوقعنا في حرب لم نكن فيه بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء) وهذه الصيغة من رواية ابن قتيبة .

وقد روى الطبري صيغة اخرى جاء فيها بعد المقدمة الماثلة (والله قد سودنا عليك وحرصنا وجهدنا عليك الجهد فما آلونا فما كننا بالاقياء الفجرة ولا الاتقياء البررة . ولقد نصرك الله علينا واطفرك بنا فان سطوت فبذونينا وما جرت اليه ايدينا وان عفوت فبجلمك وبعد الحجة لك علينا) فنظر الحجاج الى اهل الشام قال (صدق والله ما كانوا بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء ثم قال له انطلق يا شعبي فقد عفونا عنك فانت احق بالعمو من يأتينا وقد تلطخ بالدماء ثم يقول كان و كان) . حيث اعتبر الحجاج كلام الشعبي ندماً وتوبة فعفا عنه .

وفي هذا الكلام وضع للفتنة وما ينبغي ان يترب عليها في نصاها الصحيح كما هو المتبادر . وقريب من جواب الشعبي يروي عن شخص اسمه عمرو بن موسى كان على شرطة ابن الاشعث فجاء به الى الحجاج فقال له (اصلح الله الامير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد امكنك الله منافان عفوت فبجلمك وفضلك وان عاقبت عاقبت ظلمة مذنيين) . فقال له كذلك في قولك انها شملت البر والفاجر ولكنها شملت الفجار وعوفي منها الابرار واما اعترافك بذنبك فعسى ان ينفحك وعزل . غير انه قتله حيث اثاره موقف شخص مثله . فقد جيء بشخص اسمه الهلقام بن نعيم فسأله ما الذي رجوته من اتباع ابن الاشعث ارجوت ان يكون خليفة . قال نعم رجوت ذلك وطمعت ان ينزلني منزلتك من عبد الملك فغضب وامر بضرب عنقه ثم نظر الى عمرو بن موسى فأمر بضرب عنقه كذلك .

وينطوي في هذا صور من الحوافز على فتنة ابن الاشعث وكبار المنضوين اليها . وقد روي انه كان في جملة المنضوين الى حركة ابن الاشعث ابراهيم النخعي والحسن البصري وبجاءه وعطاء بن يسار وهم من مشهوري علماء التابعين فسجن بعضهم حتى مات في سجنه

وهو مجاهد واطلق سراح بعضهم بعد سجن مدة وعفا عن بعضهم لاعتذارهم ومن هؤلاء ابراهيم النخعي بالاضافة الى الشعبي (١) .

وبما يخطر بالبال ان شهرة هؤلاء العلماء ومن جملتهم سعيد بن جبير آتية من هذه المحنة السياسية . فكثيراً ما تساط الاضواء على الاشخاص الذي يندمجون في حركة سياسية ما طوعاً او كرها اكثر من غيرهم .

ومن قتله الحجاج من مشهوري النبهاء ابن القرية الذي كان فقيهاً وكاتباً ادبياً . وقد كان في حاشية الحجاج بل وفي ديوانه فخامر مع ابن الاشعث حتى لقد روي انه هو الذي كتب له كتاب الخلع الذي ارسله هذا الى الحجاج . والكتاب شديد في تنديده بالحجاج شديد في وعيده .

ومن قتلهم الحجاج اعشى همدان الشاعر . وكان اول من خلع عبد الملك والحجاج بين يدي ابن الاشعث بسجستان وقال مخاطباً ابن الاشعث :

من مبلغ الحجاج اني	قد جنيت عليه حربا
وصفت في كف امرىء	جلد اذا ما الامر عبا
انت الرئيس ابن الرئيس	وانت اعلى الناس كعبا
فابعت عطية بالخيول	يكهن عليه كبا
وانهض هديت لعله	يجلو بك الرحمن كربا
نبئت ان بني يوسف	خر من زلق فتبنا

وقد حاول الشاعر ان ينقذ نفسه فأنشد الحجاج حينما جيء اليه به يتملقه ويذم اهل العراق :

ابى الله إلا ان يتم نوره
ويطفىء نور الفاسقين فيخمدوا

(١) البغوي ج ٢ ص ٢٧٨ .

واذا رأيت منافقين نخيروا سبل الضجاج ائت كل ضجاج
داويتهم وشفيتهم من فتنة عبراء ذات دواحن واجاج

ومنها هذه الابيات :

يسر لك البغضاء كل منافق كما كل ذي دين عليك شفيق
واطفأت نيران العراق وقد علا لمن دخان ساطع وحريق

ورغم كل ما كان هناك من مبررات ، ورغم كون الحجاج ليس منفردا في هذه الافعال وأن قتل المرتدين والمتمردين والحوارج والعصاة والذين اجتهد فرقاء المسلمين بأنهم في موقف الخارج على الجماعة والباغي جرى على نطاق واسع قبله في حوادث الردة وفي حروب علي مع طلحة والزبير وعلي وفي حرب مصعب بن الزبير مع المختار وفي حروب الحوارج في زمن علي بعده وفي حروب الشيعة لجند الشام وما سببهم بقتلة الحسين وفي حركة ابي مسلم الخراساني بعده التي لم يكن عشرات الالوف او مئائتها الذين قتلهم ابو مسلم معتدين بمرتبدين على سلطان وانما كانوا يقفون في وجه حركة تمردية ضد سلطان قائم فان سمة القسوة المذكورة ظلت تقريبا تسم الحجاج دون غيره وغلبت على ما عمله من مبررات بسبب ما دار حولها وتكرر وتضخم من دعاية تسويبية ونهوية حتى غطت او كادت تغطي على ما كان للحجاج من مواهب ومزايا وفضائل تؤهل لان يسلك بحق في سلك عطاء بل اقدار رجال العرب الذين ظهروا في هذه الحقبة سواء افي قوة عقله وشخصيته ام في اقدامه وبصيرته وحزمه وجراته ام في فصاحته ام فيما كان في ظل ولايته من فتوحات عظمى في بلاد الترك والسند والهند والصين قام بها ولاته بتشجيعه وتأييده وتوجيهه فضلا عن جهوده العظمى في توطيد سلطان وهيبة اعظم واقوى دوله عربية اسلامية فيها للعرب كل الفخر وكل المجد وكل الاعتزاز.

والى كل هذا فقد كان على ما تفيد الروايات العديدة قوي الايمان بالله ورسوله وكتابه حريصا على اداء واجباته الدينية منصرفا عن اللهو والترف والبذخ . قوي العارضة والفراسة خطيبا مصقعا شجاعا باسلا رابط الجأش حازم الرأي لا يداجي ولا يماري ولا يكذب ولا

يغدر ، يقابل الحسنة بالحسنة كمقابلته السيئة بالسيئة ، يرعوي للحق ، ويعطي النصفة ، عظيم الشهامة ، كثير الزهد والعبادة ، وكان كثير التلاوة للقرآن حتى انه كان يختم كل ليلة بختمه .

وقد خشي مغبة عدم نقط القرآن او اعجابه فأشرف على نقطه واعجابه ، وهو الذي بنى مدينة واسط بعد فراغه من فتنة ابن الاشعث لتكون مركزاً له متوسطاً بين الكوفة والبصرة ، وهو الذي نقل دواوين الحجاج من الفارسية الى العربية .

ولقد روي عنه اقوال وخطب ومواقف كثيرة تتم عن عقله الناضج وتقواه وخوفه من الله وبلاغته وقوة ايمانه وانصافه ومروءته . من ذلك خطبة جاء فيها : (الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، رجل خطم نفسه وزمها فقاده بخطامها الى طاعة الله وصدقها بزمها عن معاصي الله رحم الله امرأاً رد نفسه ، امرأاً اتهم نفسه ، امرأاً اتخذ نفسه عدوة ، امرأاً حاسب نفسه قبل ان يكون الحاسب الى غيره ، امرأاً نظر الى ميزانه ، امرأاً نظر الى حسابه ، امرأاً وزن عمله ، امرأاً فكر فيما يقرأ غداً في صحيفته وبراه في ميزانه ، وكان عند قلبه زاجراً وعندهم آمراً ، امرأاً اخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جملة فان قاده الى طاعة الله تبعه ، وان قاده الى معصية الله كف . امرأاً عقل عين الله امره ، امرأاً فاق واستفاق ، وابغض المعاصي والنفاق ، وكان الى ما عند الله بالاشواق) .

وقد روي ابن كثير الذي روى هذه المواعظ ان مالكا ابن دينار احد مشاهير العلم والزهد كان من السامعين وان الحجاج ما زال يقول امرأاً امرأاً حتى بكى مالك . ومن ذلك (ان الله تعالى كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقبروا طول الامل بقصر الاجل) .

وبما روي عن الحسن البصري قوله وقد تني كلمة سمعتها من الحجاج يقولها على هذه الاعواد وهي (ان امرأاً ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحري ان تطول عليها حسرته الى يوم القيامة) ومن اقواله المأثورة من خطبة له (الصبر على محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله) .

وجيء اليه بزوجة عبد الرحمن بن الاشعث فأمر الحجاج لحرسه ان يقول لها يا عدوة الله
ابن مال الله الذي جعلته تحت ذيلك ، فقال لها يا عدوة الله ابن مال الله الذي جعلته تحت
استك ، فقال له كذبت ما هكذا قلت وخلي عنها .

وكان بدء بروزه ان عبد الملك شك من انحلال العسكر وان الناس لا يرحلون برحيله ولا
ينزلون بنزوله فقال له روح بن زنباع يا امير المؤمنين ان في شرطي رجلا لو قلده امير المؤمنين
امر عسكره لارحلهم برحيله وانزلهم بنزوله اسمه الحجاج بن يوسف فقال فانا قد قلناه ذلك
فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل والنزول الا اعوان روح بن زنباع فوقف عليهم
يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون فقال لهم ما منعكم ان ترحلوا برحيل امير
المؤمنين فقالوا له انزل يا ابن اللخناء فكل معنا فقال هيات ذهاب ما هنالك ثم امر بهم
فجلدوا بالسياط وطوفوا في العسكر وامر بفساطيط روح فأحرقت فدخل روح على
عبد الملك باكياً فقال له مالك قال الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطي ضرب عبيدي
واحرق فساطيطي فاستدعاه وسأله عما حمله على ما فعل فقال ما انا فعلته وانما انت والله
فعلت وانما يدي يدك وسوطي سوطك وما على امير المؤمنين ان يخلف روح بن زنباع
للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين فلا يكسرني فيما قدمني له ، فكان هذا الموقف اول ما
عرف من كفايته .

وحينما ولي العراق قال لاهصائه دلوني على رجل اوليه الشرطة فقالوا له اي الرجال تريد
فقال (اريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الامانة ، اعجب الحياة ، لا يحرق في الحق
على حرة ، ويؤون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة) فدلوه على عبد الرحمن بن عبيد التميمي
فلما عرض عليه المنصب قال له لست اقبل الا ان تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك فأمر غلامه
فنادى من طلب من هؤلاء حاجة منه فقد برئت الذمة منه . وفي هذا يقول الشعبي فوالله ما
رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس الا في دين ، واذا اتى برجل نقب على قوم
وضع منقبته في بطنه حتى تخرج من ظهره واذا اتى برجل نبش قبراً حفر له قبراً ودفنه
فيه ، واذا اتى برجل قاتل بجديدة او اظهر سلاحاً قطع يده ، وربما اقام اربعين يوماً لا يؤتي
اليه بأحد ، فضم الحجاج اليه شرطة الكوفة مع البصرة .

ولقد مر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو جالس في المسجد وعليه سيف محلي وسو
يخطر متبخرًا فقال رجل قرشي خالد ما هذه التختارة فقال بنح بنح هذا عمرو بن العاص .
فسمعه الحجاج فمال اليه فقال (قلت هذا عمرو بن العاص ، والله ما سرني ان العاص ولدني ولا
ولده ، ولكن ان شئت اخبرتك من انا ، انا ابن الاشياخ من ثقيف والعقال من قريش .
والذي ضرب مائة بسيفه هذا كلهم يشهدون على ابيك بالكفر وشرب الخمر حتى اقرؤا له
بالطاعة) .

ولقد سأل الوليد ان يصف له سيرته فكتب يقول (اني ايقظت رأيي ، واثمت هواي ،
فأدريت السيد المطاع في قومه ووليت الحرب الحازم في امره وقلدت الخراج الموفر لاماته
وصرفت السيف الى المنطق المسبي . فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه
من الثواب) .

ولقد كان يصنع في كل يوم في رمضان الف خوان وفي سائر الايام خمسمائة ، وعلى كل
خوان عشرة انفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر . وكان يدور على
الموائد يتفقدوها فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر وسعى الحجاز ليحيي بسكرها فأبطأ حتى
اكلت الارزة بلا سكر امره فجاء فكان الحجازون لا يمضون إلا متأبطي خرائط السكر ،
وكان اذا استغرب ضاحكاً والاه بالاستغفار .

وبما رواه الاصمعي ان الحجاج مرض فأرجف الناس بموته فخطبهم بعد ابلاله فقال :
(ان طائفة من اهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم قالوا مات الحجاج ، واذا مات
الحجاج فمه ؟ فهل يرجو الحجاج الخير الا بعد الموت ، والله ما سرني ان لا اموت وان لي
الدنيا وما فيها وما رأيت الله رضي التخليد إلا لأهون خلقه عليه ابليس) .

ولقد دعا الله العبد الصالح فقال (هب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي) . فاعطاه الله
ذلك الا البقاء . ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له امره فقال توفي مسلماً
والحقني بالصالحين) .

وبما رواه ابراهيم بن هشام عن عمر بن عبد العزيز أنه قال (ما حسدت احداً حسدي
الحجاج على حبه القرآن واعطائه اهله وقوله حين حضرته الوفاة اللهم اغفر لي فان
الناس يزعمون انك لا تفعل) .

وبما رواه الاصمعي ان الحجاج لما حضرته الوفاة انشأ يقول :

يارب قد حلف الاعداء واجتهدوا بأنني رجل من ساكني النار
يخلفون على عيائهم ويجهلهم ما علمهم بعظيم العفو غفار
ان الموالي اذا شابت عييدهم في رقهم عتقهم عتق ابرار
وانت يا خالقي اولى بذاكر ما قد شئت في الرق فاعتقني من النار

وقد يقال ان الحجاج في مناجاة لربه كان يستشعر عظم ما ارتكبه من جرائم واقتربه
من ظلم ، والاولى في هذا المقام ان يقال انه يعرف ان الانسان موضع خطأ وذنوب وان
كل امرئ مؤمن يستشعر بالخوف من ربه في آخر لحظة من حياته ويجتهد بالندم والاستغفار .

ولقد ظل الحجاج متولياً للعراق عشرين عاماً ، وهو يعرف انه وتر كثيرين ونكل
بكثيرين واخاف كثيرين . وان له نتيجة لذلك اعداء كثيرين ، وليس من الضروري ان
يكونوا على حق وصدق في نظرهم اليه .

ولقد روي انه حينما مات لم يترك الا ثلاثمائة درهم مع ما كان له من صولة
ودولة وسلطان ، ومع ما كان من طبيعة الحكم الجارية آنذاك التي تسوغ احتجاز الولاة
للاموال الطائلة .

وما اوردناه من قبل من شعر جرير ليس كل ما قاله فيه حيث مدحه في قصائد عديدة
مدحاً فيه ترديد لأخلاقه واثار مواقفه وحوافزه على ما كان من سلوكه وتصرفه ، من ذلك
من قصيدة :

رأى الحجاج عافية ونصراً على رغم المنافق والحسود

دعا اهل العراق دعاء هود
فجأوا واخاطمين ظليم فقر
أقمت لهم بسكن سوق موت
تري نفس المنافق في حشاه

وقد ضلوا ضلالة اهل هود
الى الحجاج في اجم الاسود
واخرى يوم زاوية الجنود
تعارض كل جانقة عنود

ومن ذلك من قصيدة :

ولولا امير المؤمنين وانه
وبسط يد الحجاج بالسيف لم يكن
اذا خاف درءاً من عدو رمى به
دعوا الجبن يا اهل العراق فانما
لقد جرد الحجاج بالحق سيفه
فما يستوي داعي الضلالة والهدى
وثنتان في الحجاج لا ترك ظالم
ومن غل مال الله غلت يمينه
قدمت على اهل العراق ومنهم
فكنت لمن لا يبرىء الدين قلبه
لقد جهد الحجاج في الدين واجتنبى

امام وعدل للبرية فاصل
سبيل جهاد واستبيح الحلال
شديد القوى والنزع في القوس نابل
يباح ويشرى سبي من لا يقاتل
لكم فاستقيموا لا يميلن مائل
ولا حجة الخصمين حق وباطل
سويّاً ولا عند المراشات نائل
اذا قيل ادوا لا يغلن عامل
مخالف دين المسلمين وخاذل
شفاء وخف المدهن المتناقل
جبالم تغله في الحياض الغوائل

ولقد مدحه الفرزدق بقصائد عديدة فيها تعبير عن دوافع واهداف الحجاج فيما كان
منه كما تضمن ذلك شعر جرير من ذلك في قصيدة:

امير المؤمنين وقد بلونا
تعلم انما الحجاج سيف

امورك كلها رشداً صابا
تجذب به الجماجم والرقابا

ومن ذلك في قصيدة:

ان ابن يوسف محمود خلأثقه

سيان معروفه في الناس والمطر

هو الشهاب الذي يرمى العدو به
والمشرفي الذي تعصى به مضر
احيا العراق وقد ثلت دعائمه
عمياء صماء لا تبقي ولا تذر

ومن ذلك في قصيدة:

ولم يكن الحجاج الا على الذي
هو الدين او فقد الامام ليجزعا
وقد كنت ضراباً بها يا ابن يوسف
جماجم قوم فاكثين جرى بهم
جماجم من عادى الامام وشيعا
الى الغي ابليس النفاق واوضعا

ومن ذلك في قصيدة:

بسيف به لله تضرب من عصى
على قصر الاعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع
به ريبة بعد اصطفاك الزلازل

ولما مات رثاه الفرزدق بهذه الابيات التي تضمنت تلك المعاني ايضاً :

ليبك على الحجاج من كان باكياً
على الدين او ثار على الثغر واقف
وايتام سوداء الذراعين لم يدع
لها الدهر مالا بالسنين الجواف
وما ذرفت عينان بعد محمد
على مثله الا نفوس الخلائف
وما ضمنت ارض فتحمل مثله
ولا خط ينعى في بطون الصحائف
ولم اريوماً كان انكسر رزية
واكثر لطماً للعيون الذوارف
من اليوم للحجاج لما غدوا به
وقد كان يحمي مضلعات المكائف
ومهملة لما اناها نعيه
اراحت عليها مهملات التنايف
فقلت لعبيدي اريحوا فعقلا
فقد مات راعي ذودنا بالطرايف
ومات الذي يرعى على الناس دينهم
ويضرب بالهندي رأس الخائف
فليت الا كف الدافئات ابن يوسف
تقطعن اذ يحثن فوق السقايف

ألم تعلموا ان الذي تدفنونه به كان يرعى قاصيات الزعائف (١)

والفرزدق خاصة ينعت بأنه شيعي الموى وأنه من الشعراء ذوي الصدق والاخلاص (٢)
والرثاء بعد الموت لا اجر له وليس للحجاج عصبية اسروية مخيفة ، حيث يسوغ هذا ان
يقال ان الصورة التي وصفه الفرزدق بها صحيحة .

ويحسن ان يضاف الى ما اوردناه في النبذ السابقة من مواقفه وجده وبأسه في قتال
ابن الزبير والحوارج وتوجيه الولاة الى الفتوحات العظيمة وتأبيدهم . وحينئذ تكمل الصورة
العظيمة لهذا الرجل العظيم .

ولا نريد ان نزع ان كل ما اوردناه عن صورته صحيح ، فقد يكون فيه المصنوع
ايضاً . ولكننا نقول ان جميع ما في جانبه هو في نطاق الامكان والاحتمال .

ولقد رويت ضده روايات كثيرة ايضاً بالاضافة الى الروايات والاقوال التي
ادت الى اتسامه بتلك السمة . من ذلك حديث مروي عن اسماء بنت ابي بكر عن النبي ﷺ
قال (يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير) وفسر الكذاب بالمختار بن ابي عبيد والمبيراي
المبيد بالحجاج (٣) . ومنها انه ولد بدون ثقب في مخرجه ، ومنها انه لم يقبل على الرضاة

(١) القصيدة منقولة من الديوان المشروح والمنشور من عبد الله الصاوي .

وهناك روايات تروى بعض كلماتها بصيغة اخرى حيث تروى البيت الاول هكذا :

ليبك على الاسلام من كان باكياً على الدين من مستوحش الليل خائف

وتروى كلمة (وارملة) بدلا من (ومهمل) في البيت السابع .

(٢) مما يروى ان يزيد بن عبد الملك طاب منه ان يهجو بني المهلب بعد ان بطش فيهم نتيجة انعدام
على ما سوف نذكره بعد قليل فأنى وقال (لقد امتدحتهم بمدائح ما امتدحت بمثلها احداً ويقبح بمثلي ان
يكذب نفسه على كبر السن فليعفني امير المؤمنين) فاعفاه . انظر تاريخ ادب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) روى هذا الحديث مسلم والترمذي ايضاً انظر التاج ج ٥ ص ٢٩٤ .

حين ولد الا بعد ان سقي من دم جدي ثم من دم صالح - ثعبان - ولطخ بدمه وجهه وان هذا ما جعله ينشأ سفاكاً للدماء .

ومنها ان علياً بن ابي طالب دعا على رجل فقال (لا مت حتى تدرك فتى ثقيف) فقال وما فتى ثقيف فقال (رجل يملك عشرين سنة لا يدع الله معصية إلا ارتكبها حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق كسره حتى يرتكبها) .

ومنها ان علياً بن ابي طالب قال للاشعث بن قيس (ان غلاماً من ثقيف يملك عشرين عاماً لا يبقى اهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلاً) .

ومنها دعاء لعلي على اهل العراق جاء فيه (اللهم كما ائتمنتهم فخانوني ونصحت لهم فغشوني سلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال يا كل خضرتها ولبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية) . وفي رواية (ويقتل اشراف اهلها يشتد منه الفرق ويكثر منه الارق ويسلطه الله على شيعته) .

ومنها قول لعمر بن عبد العزيز (لو جاءت كل امة بمحبشها وجئنا بالحجاج لغلبناهم) . ومنها ان انس بن مالك كان يلقبه بالملعون . وان مجاهداً كان يلقبه بالشيخ الكافر . ومنها ما روي عن انس بن مالك من انه كان يلقبه بالملعون . وعن الشعبي انه كانت يقول انه مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله العظيم . ومن ذلك حديث معزو الى النبي ﷺ جاء فيه (ان ثقيف وامية حلف) .

وقد روي انه لما مات وجد في سجنه ثمانون الف سجين منهم (٣٠٠٠٠) امرأة ليس على احدهم تهمة هامة . وانه ختم على اعناق بعض اصحاب رسول الله حينما فرغ من قتال ابن الزبير وعاد الى المدينة . وانه كان يكره ابن مسعود وينهى عن قراءة القرآن بقراءته ومصحفه ويقول لا اجد احداً يقرأها إلا ضربت عنقه ولا حكنها ولو بضع خنزير ، ولو أدركته لضربت عنقه . وانه كان يقول (والله لو امرت الناس ان يخرجوا من باب في المسجد فخرجوا من باب آخر خللت لي دماؤهم واموالهم) . وان عبد الملك سأل ان يصف نفسه فاستعفاه فأصر فقال انا لجوج حسود حقود . فقال له ما في ابليس شر من هذا . وانه

رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله ومنبره فقال انما يطوفون بأعواد ورمة . وانه كتب لعبد الملك كتاباً يعظم فيه امر الخلافة ويزعم ان السماوات والارض ما قامت إلا بها وأن الخليفة عند الله افضل من الملائكة والمقربين والانبياء المرسلين .

وروي فيما روي نص كتابين طويلين اولهما كتاب من عبد الملك اليه كتبه اليه استقرازا من افعال الحجاج وسفكه الدماء واحتوى ذمماً شديداً وتنديداً قوياً وامره بالاعتزال والذهاب ملعوناً مذموماً .

وثانيها جواب من الحجاج فيه اعتذار وتذلل مما جعل عبد الملك يعدل عن عزله . وان رجلاً حلف بالطلاق ان الحجاج في النار فأتى امرأته فمنعته نفسها فسأل الحسن البصري فقال له لا عليك يا ابن اخي فانه ان لم يكن الحجاج في النار فما يضرك ان تكون مع امرأتك في زني . وان القاسم بن محمد كان يقول كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الاسلام عروة عروة ...

والذي نعتقه ان معظم هذه الروايات ان لم يكن كلها مصنوعة اما في زمن الدولة الاموية واما بعدها من قبل خصومها بقصد التسويه والتشويه والاثارة . وآثر الصنعة لا تخفى عليها . ومنها ما لا يعقل . فرواية ختم الحجاج لاعناق بعض اصحاب رسول الله تقتضي ان يكون ذلك في سنة ٧٣ اي بعد موت النبي بثلاث وستين سنة . ولو كان بقي في هذا الوقت احد من اصحاب رسول الله فانه يكون شيخاً طاعناً في السن لا يستطيع ان يفعل شيئاً او يندمج في حركة ما تسوغ احتمال فعل الحجاج ما روي فيها . ومثل هذا في عسده الذين وجدوا في سجن الحجاج بعد موته . وفي وصف الحجاج لنفسه لعبد الملك وفي كتاب عبد الملك اليه وهو الذي كان يقول عنه انه جلدة ما بين عيني . حتى ولو صحت الاقوال المنسوبة الى انس بن مالك ومجاهد والحسن البصري والشعبي لسكان فيها تجوز كبير آت من وحي الاحداث ودعايات الموتورين .

وقد ذكرنا قبل ان مجاهداً والحسن والشعبي كانوا من المندمجين في فتنة ابن الاسعث

وان انسأ بن مالك وابنه كانا مندجين في حركة تمرد ابن الجارود وليس من الضروري ان يكون اجتهادهم الذي اداهم الى ذلك الاندماج وجعلهم يقولون هذه الاقوال عن الحجاج صواباً .

ولقد استحل بعض المؤلفين منذ القديم لعن الحجاج حين ذكره . ونعتقد ان ذلك بتأثير الحملات التسوية التي كثرت ضده من خصوم الامويين في عهدهم وبعده وان الشرع لا يجوز ذلك قط . فالآثار الكثيرة التي لا ينكرها إلا مكابر متفقه على ان الحجاج مؤمن بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر . وانه كان يقوم بواجباته الدينية . وهذا وحده يقطع النظر عن اي اعتبار آخر يمنع ذلك .

ولقد اطلنا في الكلام لتنبية القارئ وبخاصة الناضئ العربي الى عظمة أحد رجال قومه العظماء والى وجوب التروي فيما يقرأه في الكتب القديمة من ذم وقذح وروايات غير معقولة عنه وعن امثاله . ولا سيما انهم يرون ويسمعون اليوم من الاحزاب المتنافرة والمتنافسة وصحافتها شيئاً كثيراً مثل ذلك .

١١ - تمرّد يزيد بن المهلب وذويه^(١)

ذكرنا بعض اشياء عن المهلب بن ابي صفرة وبنيه في سيرة عبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وفي نبذة الفتوح في خراسان وما وراء النهر . واشرنا اشارة خاطفة الى فرار يزيد بن المهلب من السجن وثورته في زمن يزيد بن عبد الملك . واقد كانت هذه الثورة من معكرات هذا العهد ايضاً .

اما سببها المباشر فهو اصدار يزيد بن عبد الملك امره الى والي العراق ببطاردة يزيد بن المهلب وذويه المتعاونين معه الذين سهلوا له الفرار من السجن . ونفذ الوالي الامر فاعتقل اخوة يزيد وابنه وارسل ابنه خالداً الى الشام مكبلاً .

ولقد تعصب اليمانيون مع يزيد وتعصب المضربون مع الوالي بالاضافة الى الجند الشامي . وقد استطاع يزيد ان يتغلب على البصرة ويهزم الجند الشامي ومن ناصرهم من المضربين ويخرج الوالي من قصره يستولي على بيت المال ومخازن السلاح . وحينئذ اعلن خلع يزيد بن عبد الملك ودعا الى نفسه مبايعة اهل البصرة وما والاها وامتد سلطانه الى الاهواز ثم الى اقليم كرمان وفارس وعين العمال وجبى الحراج . واخذ يفكر في غزو الشام حيث روي انه حث اهل البصرة على الجهاد في اهل الشام وقال لهم ان الجهاد فيهم اعظم ثواباً من جهاد الترك

(١) هذه النبذة مقتبسة من تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣١٧-٣٤٩ ومروج الذهب ج ٣ ص ١٣٤ -

١٣٥ وتاريخ ابن الاثير ج ٥ ص ٢٦-٣٤

والدبلم . فتحمسوا واكتبوا في الديوان حتى بلغ عدد المكتتبين الذين رتب لهم اعطيات (١٢٠٠٠٠)

وبلغت الاخبار يزيد فجهز حملة قوية وسيرها مع اخيه مسلمة وابن اخيه العباس بن الوليد . وبلغ الحُبر يزيد بن المهلب فخلف اخاه المفضل على البصرة وخرج ومعه ما في بيوت المال ومخازن السلاح حتى نزل واسط . ثم استشار اصحابه . فأشار اخوه حبيب عليه ان يتجه نحو فارس وخراسان فيضوي اليه اهل الجبال ويكون في قلاع وحصون . فلم يجذ هذا الرأي وقال انه يجعله كالطائر على رأس جبل . ثم فضل ان يتقدم للقاء حملة الشام . وقدم طليعة بين يديه نحو الكوفة التي كان قدم اليها العباس بن الوليد مع فريق الحملة كطليعة للزحف الشامي . وقد اشتبكت الطليعتان فكسب المهليون الجولة الاولى وكسب الشاميون الجولة الثانية وارقد الاولون نتيجة لذلك مهزومين الى معسكر يزيد بن المهلب .

وفي هذه الاثناء قدم من الجبال والنفور ناس كثيرون وانضموا الى يزيد بن المهلب . واستشار اصحابه في التقدم بالجيش او ارسال طليعة قوية أخرى . وهذا تحركت شنشة العراقيين فقالوا بل نرسل الى مسلمة فندعوه الى كتاب الله وسنة رسوله قبل أن نزحف عليهم . وحاول عبأ ردهم عن ذلك فأصروا وأرسلوا وفداً . فلاينهم مسلمة في الكلام فخف حماسهم رغم أن يزيد بن المهلب قال لهم انه يخدعهم وانه لا يعقل ان يقبلوا بالتخلي عن ما في ايديهم من دولة وسلطان وانه لقي بني مروان فما لقي رجلاً أمكر ولا ابعد غوراً من مسلمة الذي مماه الجراة الصفراء فأبوا حتى يسمعوا جوابه .

واصر على التقدم فتباطأ كثير منهم حتى لقد قال والله لو ددت ان معي في هذه الساعة مكانهم الف من قومي الذين في خراسان . وظل على رأيه رغم ذلك وتقدم ووقع الاشتباك فانزرم معظم العراقيين بما جعله يقول قبحهم الله انهم بق دُخن عليه فصار ، او غم عدا عليها الذئب . واني لأرجو ان لا يجمعي الله واياهم في مكان واحد . وانف أن يتراجع وينهزم واشد متمثلاً :

عش كريماً او مت كريماً وان تمث
وسيفك مشهور بكفك تعذر

ثم اندفع هو واخوته وابناؤه ومن ثبت معه من قومه واخصائه يقاتلون ويصولون
صولات جبارة . غير ان ذلك لم يغني امام الكثرة الكثيرة فقتل هو وبعض اخوته وابنائهم
واسر باقيهم . وامر مسامة باحتزاز رأس يزيد وارسله إلى يزيد أخيه مع من أسر من بني
المهلب فضرب رقابهم .

ولقد رثي يزيد بن المهلب بمراث عديدة . منها هذه المقطوعة التي يذكر ناظمها غدر
المنضوين الى يزيد وتراجعهم عن نصرته :

كل القبائل بايعوك على الذي	تدعوا اليه طائعين وساروا
حتى اذا حضر الوغى وجعلتهم	نصب الاسنة اسماك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن	عاراً عليك وبعض القتل عار

ومع ذلك فقد روي هجاء جرير الشاعر المشهور في آل المهلب بعد قتل يزيد منه هذه
الابيات :

آل المهلب جز الله دابرهم	أمسوا رماداً فلا اصل ولا طرف
ما نالت الازد من دعوى مضلمهم	إلا المعاصم والاعناق والحطوف !

١٢ - العصبية القبلية

من المعكرات التي كانت تعكر صفو الدولة الاموية ايضاً وتستنفد قوى المسلمين والعرب في حركات منافية لمصالحهم العامة ، وتعرضهم للهزات والنكسات والفن والاختار الداخلية والخارجية (العصبية القبلية) .

ولقد كانت هذه العصبية من اهم مظاهر حياة القبيلة العربية - التي كانت هي الغالبة - وضوابطها واسباب امنها وسلامتها قبل الاسلام على ما شرحناه في الجزء الخامس . ولقد حرص كتاب الله ورسوله على تخفيف حدتها وجعل الحياة الاجتماعية لغرب في دورهم الاسلامي الجديد تقوم على الوحدة الدينية والقومية العامة والارتقاء بهم الى الاندماج في اخوة دينية وقومية عامة واعتبار المصلحة الاسلامية العربية فوق كل مأرب خاص أو نظرة قبلية ضيقة

ولقد كانت سيرة الرسول وخلفائه مساعدة على تحقيق شيء من ذلك غير ان الزمن لم يكن كافياً لتحقيقه كما لا حيث كانت مظاهر هذه العصبية تظهر في زمنهم في مختلف المناسبات والمواقف . ثم استمرت في زمن الدولة الاموية حيث رويت روايات كثيرة في مظاهرها وآثارها في مختلف المناسبات والامصار .

منها ما كان بتأثير تنافس زعماء القبائل وتناحرهم على المنافع والمناصب حيث كانوا يثيرون عصبية قبائلهم لينالوا تأييدهم وتعضيدهم .

ومنها ما كان نتيجة للتلاحمي والتهاجي والتفاخر والتنازع والعسودان بين بعض افراد
قبيلة واخرى .

ومنها ما كان نتيجة غضب قبيلة من جراء ما رأت فيه غطاءً لحقها ومركزها او تقديم
غيرها عليها واختصاصه ببعض المكاسب والمنافع دونها او حرمانها بما كانت تتمتع به من
ذلك .

ومنها ما كان بين قبائل عدنانية ونزارية ومضرية وقيسية وقبائل قحطانية .

ومنها ما كان بين قبائل تتفرع من هذه الاصول وبخاصة ممن كان بينهم في الجاهلية
حروب ومنافرات .

ومنها ما كان محدود النطاق والاثر والضرر .

ومنها ما كان واسع النطاق والاثر والضرر .

وقد انعكس ذلك في شعر العصر الاموي بمختلف اشكاله وصوره بمقياس واسع حتى لم
يكذ يخلو منه شعر شاعر من شعراء هذا العصر سواء منهم المشهورون او الثانويون .

ولقد كان جيش الدولة وحامياتها في الاقطار يتألف من افراد ينتسبون الى مختلف
الجماعات القبلية فكانت هذه النعرة احياناً حيناً تثار وتثور تصل الى أن تجعل الجيش فرقاً
واحزاباً متلاحية متنافرة متحاربة فيسود العداء والثارات وينفقد الانسجام والتضامن اللذان
هما عماد الجيش وقوته .

وتمر عليه فترة من الزمن وهو متفكك متناحر متعادل مشغول بنفسه واثرائه ومكابداته
غير مندفع او غير قادر على الاندفاع الموقوف امام الاحداث التي تطرأ على الدولة من
خارجها او داخلها والتي تحتاج الى تضامن وتوافق وتواد وانسجام .

وكان المظهر يبدو كذلك بالنسبة الى كثير من رجالات العرب الذين لهم شأن في
الدولة ونشاطها . فكان اعداء الدولة والعروبة والاسلام الخارجيون والداخليون يفتنمون

فُرض ثورات هذه النعرة ونتائجها المادية والنفسية وبغذونها ويستغلونها بأوسع مقياس يستطيعونه . وكان الكيان والسلطان العربي والاسلامي يتعرضان من جراء ذلك للاخطار الشديدة والهزات العاصفة .

واشد ما كان من آثار هذه النعرة السيئة كان في بلاد العجم وخراسان وما وراءها وفي الاندلس التي لم يكن أهلها قد اندمجوا اندماجاً قوياً في العروبة والاسلام والتي كان رجالها ينقمون على العروبة وسلطانها ويتحينون كل فرصة لهدمها .

ونرجح ان كثيراً مما روي من انساب الجاهلية وشعرها ومفاخراتها واحداثها ومخالفاتها ومنافراتها قد وضع او شيب بشوائب التحريف والغلو في ظروف ثوران هذه النعرة التي امتدت الى عهد الدولة العباسية لتغذيتها وتركيزها في آن واحد .

ويتهم بعض الباحثين خلفاء الدولة الاموية بتشجيع هذه العصبية وبخاصة المروانيين منهم الذين قامت دولتهم بها . وقد يبدو هذا وجيهاً لأول وهلة ، غير ان هناك روايات تنقض ذلك منها رواية رواها الاغاني^١ عن معاوية انه سمع رجلاً يمانية يقول يوماً هممت ان لا ادع بالشام احداً من مضر بل هممت ان اخرج كل نزاری منها فخاف بأس اليمنية ففرض من وقته لاربعة آلاف من قيس وغيرها ليكون في ذلك حفظ للتوازن الذي يمنع فوران العصبية وآثارها الدموية . والخبر في حد ذاته يدل على ما كان يعمل في صدور العرب من هذه العصبية امتداداً لما كان عليه الامر قبل الدولة الاموية .

ومن ذلك مما روي من مسارعة عبد الملك الى اطفاء نار الفتنة التي نشبت بين زعيمين عربيين هما بكر بن وشاح السعدي والي خراسان وبجير الصريمي التميمي وايدت كل منها قبيلته حيث عزل عبد الملك الوالي وعين خالد بن عبد الله اجابة لطلب اهل خراسان الذين قالوا له ان خراسان لا تصلح بعد تلك الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٦٧ عزوا الى الاغاني .

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٩ .

هتاف والي خراسان اسد بن عبد الله واخاه خالداً عن العراق بسبب تشجيع اسد على ثورة
العصبة بين اليمانيين والمضريين في خراسان ١ .

والمقصد من هذه النبذة هو تسجيل آثار هذه العصبة الشديدة الاثر والضرر في البنيان
والنشاط العربي الاسلامي . وهذا يجعلنا لا نرى ضرورة الى استقصاء كل مظاهرها وصورها
وبخاصة تلك التي بقيت بين الاشخاص محدودة الاثر والنطاق .

ومع ما كان من تزمّت الحوارج ونجدهم فانهم لم يستطيعوا ان يتفلقوا من قوة العصبة
القبلية ونعرتها حيث كان كثير منهم يتحشدون مع بعضهم ويقاثلون بقوة العصبة بالإضافة
الى قوة العقيدة .

ومن مظاهر ذلك فيهم هذه الابيات المأثورة عن احد زعمائهم مصققة بن عتبة الشيباني :

بلغ امير المؤمنين رسالة	وذو النصح ان لم يرع منك قريب
فانك ان لم ترض بكر بن وائل	يكن لك يوم بالعراق عصب
ولا صلح ما دامت مابر ارضنا	يقوم عليها من ثقيف خطيب ٢

ومن ذلك هذه الابيات المأثورة عن الطرماح احد شعرائهم :

فوارس من شيبان الف بينهم	تقى الله نزالون عند التراحف
هم منعوا النعمان يوم رؤبة	من الماء في نجم من القبط حائف ٣
و: لولا فوارس مذحج ابنة مذحج	والازد زعزع واستبيح العسكر
واستضلعت عقد الجماعة وازدري	أمر الحليفة واستحل المنكر
فبعزنا نصر النبي محمد	وبنا تثبت في دمشق المنبر ٤

(١) نفس الجزء ص ٣٩٢-٣٩٤ .

(٢) رسالة ادب الحوارج لسبير القلاوي ص ٤٩ .

(٣-٤) نفس الرسالة ٨٧-١١٩ .

وسكان هذا على ما يبدو ما جعل شاعراً من شعرائهم اسمه عمران بن حطان ينعى على
العصبة القبلية ويسفها في هذه المقطوعة :

واصبحت فيهم آمناً لا كعشر	بدوني فقالوا من ربعة او مضر
او الحى قحطان قتلكم سفاهة	كما قال لي روح وصاحبه زفر
فنحن بنو الاسلام والله واحد	واولى عباد الله بالله من شكر ^١

على ان الحركات التي كان يعج بها العراق في هذه المدة كانت اكبر من آثار هذه
النعرة فغطت عليها .

ومن البوادر الاولى من هذه الظاهرة التي كادت تؤدي الى صدام شديد ما كان من
تلاح وتشاد ورافقة بعض الدماء بين جماعة من بني بكر بن وائل وجماعة من القرشيين في
العراق ، فقد اتفق اهل البصرة بعد موت يزيد بن معاوية وتنازل ابنه معاوية وانسحاب
عبيد الله بن زياد من العراق على ما ذكرناه في نبذة عبد الله بن الزبير على مبايعة عبد الله بن
الحارث القرشي . وكان هذا على كره من بني بكر بن وائل على ما يفيد بيتان من الشعر
قالهما قرشي فيها هجو شامت لبني بكر وهما :

نزعنا وولينا وبكر بن وائل	تجر خصاها تبتغي من تحالف
وما بات بكري من الدهر ليلة	فيصبح الا وهو للذل عارف

وقد تلاحى زعيم بكري مع قرشي في البصرة فلطم بكري من اتباع الزعيم قرشياً
فتهايجت البطون التي تنتسب الى ربعة ومضر . وكانت ربعة متعصبة للبكرين ومضر
متعصبة للقرشيين ونادى رجل من ربعة يا آل تميم وشدة جماعة من بني ضبة وهم مضيرون على
جماعة من الربيعيين وضربوهم وهزموهم وانبرى بعد ذلك زعيم بكر شقيق بن ثور هاتفاً في
جماعته (لا تجدن مضريراً الا قتلتموه ، وكانت بعض المناوشات بين الطرفين ، ثم تدخل
بعضهم فهدأوا الناس نحو شهر . وتلاحى يشكري بكري وضبي وافتخر الضبي بما كان من
يتعصبون عليه وبذلك لا ينشغلون بأنفسهم فيهلك ثغرهم ومن فيه^٢ . ومن ذلك عزل

(١) نفس الرسالة ٨٧-١١٩

انتصار المضربين السابق واغلظ الشكري القول له فهاج هذا ووجأ عنق الشكري فقتله فتار البكريون لأخذ ثأرهم . وجدد كل من الفريقين محالفاته الجاهلية حيث كان بين ربيعة ومضر في الجاهلية حروب وأحقاد وكان لكل منهم محالفات من آخرين للانتصار والدفاع . وأقبل البكريون بحرقون دور الضبيين . وشد الضبيون بدورهم على زعيم بكري اسمه مسعود فقتلوه وهو في المسجد . وترامى الفريقان بالنشاب واندثر الموقف بانفجار شديد لولا تدخل الاحنف بن قيس أحد الزعماء وهدأته الأمر من جديد ^١ .

ولا يعني تسجيلنا لهذه البادرة انه لم يكن قبلها بوادر ثرت فيها العصبية القبلية في زمن الدولة الأموية . ولكن ما كان قبل ذلك كان محدود الاثر والضرر فلم تر ضرورة الى ذكره كما نبهنا الى ذلك قبل .

وكانت البادرة التالية بادرة عصبية القيسيين انصار ابن الزبير واليانيين انصار بني أمية في الشام بعد تنازل معاوية الثاني حيث تزعم الضحاك بن قيس زعيم القيسيين في الشام الدعوة الى ابن الزبير وتزعم حسان الكلابي زعيم اليانيين الدعوة الى بني أمية بسبب كون أم يزيد بن أبي سفيان مجدل هي قبيلته . وقد أدى ذلك الى الاقتتال في مرج راهط خارج الشام ذهب فيه آلاف من الأرواح وانتصر الأمويون واليانيون على القيسيين واستتب حكم الشام ثم غيرها بعد نتيجة لذلك لمروان بن الحكم على ما فصلناه في سيرته تفصيلا يغني عن التكرار ^٢ .

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٩٤-٤٠١

(٢) توصف النعرة القبلية التي كانت تثور في زمن الدولة الأموية والتي امتدت بعدها أحيانا بالقيسية اليمنية وأحيانا بالمصرية اليمنية وأحيانا بالنزارية المصرية . وتاريخ بلاد الشام في القرون الأخيرة يفيد أن نعرتي القيسية واليمنية كانتا نفسان إلهما وبخاصة لبنان وفلسطين حيث كان أناس منهم قبسمي النعرة وأناس ينتمي النعرة . وكان القيسيون يميزون أنفسهم باللون الأحمر لعباءتهم وعمائمهم وثيابهم نساء ورجالا واليمنيون يميزون أنفسهم باللون الأبيض . وكان التنافس والتناحر بينهم يجري على أساس ذلك غير أن هذا لم يكن يعني في هذه القرون أكثر من تسمية حزبية عملية . وليس لأن المنتسبين الى القيسية من القبائل المنتسبة الى قيس والمنتسبين الى اليمنية من قبائل اليمن . فقد يكون هذا أو لا يكون . بل قد يكون

وفي سياق حوادث العراق الكثيرة بعد موت يزيد الى استتباب الحكم لعبد الملك بن مروان من حركة الحسين وثوراته وحرركات الشيعة وابن الزبير يلوح كثير من آثار هذه العصبية وكيف كانت تجمع بين الفئات المتأثرة ضد الفئات الاخرى بل وتكون ناطقة هذه التجمعات . فهاني بن عروة الذي نزل مسلم بن عقيل رسول الحسين في بيته يثاني من مراد فتعصب معه اليانيون ولو انهم لم يثبتوا الى النهاية .

من قبائل قيس من هو مندمج في اليمنية والعكس . بل وقد يكون من هو مندمج في هذه او تلك غير عربي الجنس اصلاً . وكان النصاري والمسلمون والدروز والشيعة يجتمعون تحت لواء هذه العصبية فيحارب ويتعصب ويتحزب النصاري والمسلم والدرزي والشيعة تحت لواء القيسية ضد النصاري والمسلم والدرزي والشيعة تحت لواء اليمانيين!

واول خصام سمي بخصام القيسية واليمانية في هذا العهد كان الخصام الذي جرى في حدد العرش بين اذمار ابن الزبير وانصار بني امية ، الذي نحن في صددده . ولم تكن تسمية القيسية في هذا الخصام نسبة الى اسم الضحاك بن قيس كما قد يتبادر الى الذهن لاول مرة . ففي سياق الطبري الذي يروي اخبار معركة راهط ذكر انه لما قتل الضحاك بن قيس اجتمعت قيس على زفر بن الحارث فرأسوه عليهم حيث تفيد هذه العبارة ان المفصود هو القبائل المنتسبة الى قيس .

وقد اورد الطبري شعراً لزفر يبدي فيه امله وحزنه من نتيجة معركة راهط وجواباً شعرياً عليه من كلي يصف فيه زفر بالقيسي ويفخر بما كان من انتصار بني كلب على قيس وهو :

بكى زفر القيسي من هلك قومه بعبرة عين ما يثف سجوما
اجنا حمي لحي قيس براهط وولت ثلاثا واستبيح حريمها

وجواباً شعرياً آخر لعبد الرحمن بن الحكم اخي مروان على شعر آخر لزفر يؤيد فيه حق ابن الزبير وقد جاء في شعر عبد الرحمن :

لما انه قيساً قيس بن عيلان انها اضاعت ثغور المسلمين وولت
فباهي بقيس في الرخاء ولا تكن اخاها اذا ما المشرفة سلت

حيث يبدو من هذا ان نسبة القيسية هي الى القبائل المتفرعة من قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

انظر تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٠٨-٤٢٠ .

وقد اثر عن الفرزدق في قتل هاني وفيه حصص لقومه على اخذ ثاره :

ان كنت لا تدبرن ما الموت فانظري	الى هانيء في السوق وابن عقيـل
الى بطل قد هشم السيف وجهه	وأخر يهوى من طمار قـيـل
تطيف حواليه مراد وكلهم	على رقبة من سائل ومـسـول
فات انتم لم تتأروا بأخـيـكم	فكونوا بغايا ارضيت بقـلـيل ^(١)

وفي سياق معركة الحسين يروي شعر لبعض انصاره وهو يقاتل :

قد علمت حقاً بنو غفار	وخندف بعد بني نزار
لنضربن معشر الفجار	بكل غضب صارم بتار ^(٢)

حيث تبدو النعرة القبلية بارزة .

ولقد ظل اليمانيون يندمجون في حركة ثارات الحسين، وكان القيسيون والمضربون يتصدون لهم ويقع بين الفريقين حروب دامية ، وكان من ذلك زحف الشيعة تحت لواء زعماء يمانيين نحو الشام ، وقد كسب الجند الشامي عليهم الجولة الثانية وقتلوا عبيد الله بن زياد وكثيراً من جيشه على ما شرعناه في سياق نبذة ثارات الحسين .

ولقد روى ابن الاثير^(٣) بعض احداث دموية هامة بين القيسيين واليمانيين في هذا الظرف ، منها ان القيسيين انضموا بزعامة زعيم اسمه عمير الى الشيعة حينما اتجه هؤلاء بقيادة سليمان بن صرد الى قتال جيش ابن زياد ، فكان كل همهم ان يتعقبوا بني كلب واليمانيين ليأخذوا بثأر من قتل منهم في معركة مرج راهط .

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٨٥ (٢) ٣٣٧ .

(٣) ج ٤ ص ١٢٠-١٢٥ انظر ايضاً الاغاني المجلد الحادي عشر نبذة خير الجحاف وفي الاغاني شعر كثير واخبار اخرى عن سلسلة الاحداث العصبية التي كانت بين القيسيين واليانيين ثم بين اليمانيين والتغلبيين .

ثم اصطدموا مع بني تغلب لأنهم في سياق تعقبهم للبيانين استاقوا ابلابني تغلب . وقد تعددت الوقائع بينهم وسمّاها ابن الاثير بالايام على جري العادة الجاهلية - ولعل ذلك هو المروي . وقد تحشد الفريقان في مكان اسمه الماكسين على الخابور فكانت الغلبة في هذا اليوم للقيسين حيث بلغ عدد قتلى بني تغلب فيه ٥٠٠ وقتل فيمن قتل زعيمهم شعيت الذي انقطعت رجله وظل يقاتل مع ذلك وهو يرتجز :

قد علمت قيس ونحن نعلم ان الفتى يقتل وهو

ثم تحشدوا عند نهر الثرثار وناصر التغلبين قبيلة النمر بن قاسط فكسبوا النصر على القيسيين في هذا اليوم وقتلوا من خصومهم مقتلة عظيمة .

ثم كان بينهم يوم ثن عند الثرثار دارت فيه الدائرة على التغلبين ، واستمرت الايام تتداول بينهم فكانت وقائع او ايام الفدين والسكر والمعارك والشرعية والحشاك والبليخ والكحيل والبشر وكان القيسيون من قبائل عديدة ينتسب اكثرهم الى بني عامر وبني فزارة وبني غني وبني سليم .

وكان الفريقان لا يتعففان عن قتل النساء والتمثيل بهن ، ولم تضع هذه الحروب اوزارها الا بتدخل عبد الملك بن مروان الذي ازم الذين كان القتل فيهم اقل بدفع ديات القتلى الذين يزيدون عن قتلاهم .

وقد اثر عن الاخطل هذه الابيات في انتصار قومه بني تغلب يوم الثرثار الاول :

لما رأونا والصليب طالعا ومارس جيش وسما ناقعا

والحبل لا تحمل الا دراعا والبيض في أيماننا قواطعا

خلوا لنا الثرثار والمزارعا وحنطة طيساً وكرماً يانعا

وقتل بنو تغلب عميراً زعيم القيسيين فرثاه شاعر لهم اسمه زفر قائلا :

ألا يا عين بكسي بانسكاب وبكسي عاصماً وابن الحباب

فان تك تغلب قتلت عميراً
فقد افنى بني جشم بن بكر
ورھطاً من غني في الحراب
وغرهم فوارس من كلاب
قتلنا منهم مائتين صبراً
وما عدلوا عمير ابن الجباب

كذلك روى ابن الاثير ^(١) صفحة اخرى من صفحات العصبية الناتجة عن معركة راهط .
فقد حقد زعيم قيسي اسمه زفر على الامويين وتحشد معه جمع كبير من القيسيين فاستولوا
على قرقيساء ، وظلوا اصحاب السلطان فيها غير خاضعين لسلطان الامويين الى ان سار
عبد الملك بن مروان الى العراق لقتال مصعب بن الزبير ، فأشار عليه اصحابه بضرورة
الاستيلاء على قرقيساء قبل الوصول الى العراق حتى لا تكون شوكة في طريقه فاستحسن
الرأي وامر بضرب الحصار عليها وضربها بالمجانيق ، فخرج زفر وجماعته اليهم واخذوا
يشتبكون مع جيش عبد الملك .

وكان في هذا الجيش جماعات من المضربين الذين كانت تجمعهم العصبية القبلية مع
القيسيين فطلب البانيون في الجيش من عبد الملك ان يمنعهم من الاشتراك في قتال القيسيين
تفادياً من الخسارة فنبه عليهم بأن لا يخرجوا للقتال ، كان منهم الا ان كتبوا على نبأهم عبارة
(غداً لا يقاتلكم مضري) ثم رموها الى المدينة فتحمس زفر والقيسيون وشدوا على البانيين
الذين جاؤوا لقتالهم حتى كادوا يوقعون فيهم الهزيمة ويصلون الى فسطاط عبد الملك نفسه .
ولم يمه الموقف العنيف الا جنوح عبد الملك مع القيسيين حيث منح زفرأ وجماعته الامان
واسترضاهم واحسن اليهم .

ولقد سجل التاريخ حادثة عصبية قبلية في اليمامة بين بني تميم وبني عامر في اواخر حكم بني
امية ، فقد ثار اهل اليمامة على عامل بني امية لما قتل الوليد بزعامة شخص اسمه المهر بن سلمى
بن هلال من بني تميم وتمكنوا من طرد العامل واستولى الزعيم على الحكم بحله .
ولما مات خلفه عبد الله بن النعمان من قبيلته ، وعين هذا عاملاً من بني تميم لقرية الفلج من

(١) ج ٤ ص ١٣٠-١٣١ .

قرى بني عامر فثار العامريون عليه وادى ذلك الى انفجار العصية القبلية بين القبيلتين وتعصب بعض القبائل مع واحدة وبعض القبائل مع واحدة فتفألم الامر واخذ الفريقان يشتبكان في القتال ، وتعددت الايام بينها فكانت ايام الفلج الاول والثاني والنشاش ولم تحمد الا بعد جهد كبير (١) .

ولقد كانت خراسان وما وراءها مسرحاً هاماً لهذه النعرة ، حيث كانت فيها جماعات كثيرة تنتسب الى قبائل يمانية ومضرية فكانت العصية تثور في مناسبات ومواقف مختلفة .

ومن اولى بوادرها ان سلماً بن زياد الذي كان والياً خراسان في زمن يزيد بن معاوية دعا الناس الى مبايعته موقتاً حين فرغ العرش بعد تنازل معاوية بن يزيد الى ان يجتمع الناس على خليفته فبايعوه ثم نقضوا بيعته فترك خراسان واستخلف المهلب بن ابي صفرة وهو يمني أزدي ، فلقبه في طريقه عبد الله بن خازم السلمي وهو مضري بل من ناهبي المضريين . وكان قد تولى خراسان سنة ٤٤ هـ من قبل عبد الله بن عامر والي البصرة (٢) . فلما علم منه انه استخلف المهلب قال له اما وجدت في مضر رجلاً تستعمله حتى تستخلف المهلب والي عليه حتى اخذ منه عهداً على خراسان .

وتخلى المهلب عن ولاية خراسان قبل قدوم ابن خازم ولكنه استخلف محله رجلاً يمينياً

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١١٢-١١٣ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٦٠ ومما يرويه الطبري في سياق ذلك ان ولاية ابن خازم هذه المرة ايضاً كانت بطلب والحاح منه وباسلوب انتقادي لوالي البصرة لانه عين لولاية خراسان والياً ضعيفاً . وانه بعد ان استلم الولاية لقي العدو الذي ضعف عنه الرالي السابق وهزمه ، وان بعضهم شكاه لمعاوية فاستدعاه فأثنى ومعه وقد من انصاره فلما سأه معاوية عن حاله قال (انا لست صاحب كلام وانما يتكلف الخطبة امام لا يحد منها بدأ او احق يهمر من رأسه لا يبان ما خرج منه ولست بواحد منها . وقد علم من عرفني اني بصير بالفرس وثاب عليها ، وقاف عند المهالك ، انقذ بالسرية واقسم بالسوية) ثم نظر الى انصاره وقال انشدكم بالله من كان يعرف ذلك مني الا صدقني فقالوا صدقت ، حيث يبدو خلال ذلك قوة عقله ودهائه وشخصيته وطموحه فاحبين ان تسجل ذلك لرجل من كبار رجال هذا العهد .

من بني جشم ، فلما جاء ابن خازم تصدى الجشمي له ومنجه فكانت مناوشة اشترك فيها
المضربون انتصاراً لابن خازم واليانيون انتصاراً للجشمي ، وقد انتصر ابن خازم وقتل
الجشمي فحقق اليانيون عليه وعلى المضربين وتصدوا له بقيادة بني مرثد اليانيين وتضامن
معهم بنو بكر بن وائل التزاريين فتغلب عليهم ايضاً .

فجاء المغلوبون الى زعيم بني اسمه اوس فقالوا له نبايعك على ان تسير الى ابن خازم
وتخرجه وتخرج مضر من خراسان كلها فانتنا لا نرضى ان نكون نحن ومضر في بلد واحد .
وما زالوا به حتى رضي فبايعوه ، وحاول ابن خازم ان يصلح امره معهم فأبوا وقالوا
لوسطاء ليس له الا ان يخرج هو وجميع مضر من خراسان او يساموا كل ما عندهم من سلاح
وكراع وذعب وفضة .

ويروي ابن الاثير^(١) انه كان لبني صهيب من زعماء الموالي يد في احباط الوساطة حيث
رأوا على ما يبدو في بقاء النزاع القبلي بين العرب سفاهة خقدتهم على العرب . ومن ثم نشب
النزاع والقتال بين الفريقين واستمر اكثر من سنة ثم جد الفريقان فدارت الدائرة على
اليانيين والتزاريين وقتل زعيمهم اوس فيمن قتل . وتوطد السلطان لابن خازم وانصاره في
خراسان وما اليها نحو تسع سنين ، ولقد بايع ابن الزبير ودخل في طاعته ، والراجع ان
ذلك بحافز من النعرة القيسية المضربة لان اليانيين كانوا انصار الامويين .

وحاول عبد الملك ان يسترضي ابن خازم بعد قتل عبد الله ابن الزبير فأخفق فأغرى به
صاحب شرطته او نائبه بكيراً بن وشاح وجعل له الولاية على خراسان ان هو غلبه ففعل رغم
انه ثقف مضرى .

ولم تنته هذه القصة عند هذا الحد ، فقد كان له ابن اسمه موسى فر باثقال ابيه حينما شعر
بالخطر وجأ الى بخارى ومعه جماعة من قومه بني سليم فأخذ يتصاول مع الترك وتمكن من

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٢١-٤٢٦ و ٤٨٤ وبعدها وجه ص ٢١-٤٠ .

توطيد سلطانه في اقليم الترمذ لمدة غير قصيرة .

وفي سنة ٨٥ هـ صارت ولاية خراسان ليزيد بن المهلب فلم تلبث النعرة البانية المضرية ان دارت بين الرجلين وقومها فنشب النزاع بين موسى ومعه المضريون ويزيد ومعه البانيون الى ان انتصر البانيون فقتلوا موسى وشرذوا جماعته (١) .

واقدر كانت هذه الفتنة بين الطرفين العربيين فرصة اغتنمها ملوك الترك فنقضوا عهدهم مع العرب ولم يتمكن العرب من توطيد سلطانهم ثانية عليهم الا بعد جهود ودماء كثيرة بما شرحناه في نبذة حركة الفتوح والمصاولات فيما وراء خراسان .

وارسل زعيم اسمه بجير الى عبد الملك بن مروان يخبره انه هو الذي قتل ابن خازم وليس بكبيراً ، ثم اخذ يشغب عليه وتعصب له جماعته وتعصب لبكبير جماعته ، فنشب نزاع دام بين الجماعتين ، ثم تدخل آخرون فبدأوا الفتنة وكتبوا لعبد الملك يقولون له ان خراسان لا تصلح بعد هذه الفتنة الا لقرشي يسمعون له ولا يجسدونه ولا تعرض البلاد للخطر فعزل عبد الملك بكبيراً وعين خالد بن امية . غير ان التناظر والتنافس لم يخف بين الزعيمين ، ولقد ولي خالد بكبيراً اقليم طخارستان فجاء بخبر يخوفه ويقول له انه سوف يخلع ويدعو الى نفسه فعاتل ذلك بكبيراً وقومه وقال بعض جماعة لبكبير له انا قتلنا انفسنا وعشائربا حتى ضبطنا خراسان فجاء الوالي يلعب بنا وحرضوه على الخلع . وكان خالد قد خرج الى الغزو وخلف ابنه في مرو فطلب من بكبير أن يعود ليكون الى جانب ابنه فقال له المحرضون بعد ان قطع خالد النهر احرق السفن وامض الى مرو فاعتقل ابن الوالي واحكمها كلها ، فاستجاب للتحريض واحرق السفن حتى لا تسهل عودة خالد بسرعة وعاد الى مرو فاعتقل ابن الوالي واعلن الخلع ودعا الناس الى مبايعته وكان جمهورهم من قومه فبايعوه .

وفي هذه القصة مما هو ظاهر مما كانت تسوق اليه المطامع والمآرب الشخصية

(١) الطبري ج ٥ ص ١٩٥ وبعدها .

من مواقف خطيرة ضارة في الكيان العربي .

وفي سياق الطبري ما يزيد هذه الصورة بشاعة وخطورة حيث يروي ان بكيرا قال للمحرضين اني اخاف ان يهلك الفرسان الذين معي فقالوا له نحن نأتيك من اهل مرو بما شئت ان هلكوا فقال لهم يهلك اذن المسلمون . فقالوا له يكفيك ان ينادي مناديك (من اسلم رفعنا عنه الحراج) حتى يأتيك خمسون ألفاً اسمع لك واطوع .

وبلغ خبر ما فعله بكر وقومه الوالي خالداً فصالح اهل بخارى على فدية قليلة وعاد مسرعاً الى مرو وخرج بكير الى لقائه بن عنده من فرسان قومه ورجالهم وسعى الناس الحياذيون في الصلح بين خالد وبكير وجعلوا خالداً يصدر اماناً لبكير . فأثار ذلك بجيراً الذي التزم مع جماعته جانب خالد وظل يسعى ضد بكير ويجرض خالداً عليه . وقال له فيما قال انه دعاه الى خلعه وقال لولا مكانك من هذا القرشي لقتلته وأورد شهوداً من قومه على ذلك فأمره بقتله فقتله في مجلس الوالي ، وناشده بكير ان لا يقتله بيده وقال له لا تفرق بين بني سعد بن تميم فقال له لا تصلح بنو سعد ونحن الاثنان حيان ! وكان ذلك سنة ٧٧ هـ .

ولم يسكت قوم بكير حتى اخذوا نارهم وقتلوا بجيراً وقد ساق الطبري ذلك في رواية فيها طرافة وصورة لما كان للثأر من قوة في صدور الناس . حيث تعاقد سبعة عشر رجلاً من بني عوف بن سعد على اخذ ثأر بكير من بجير وخرجوا من البادية في العراق حتى قدموا الى خراسان . والتقى احدهم به واسمه الشمردل فشد عليه فطعنه فصرعه فظن انه قتله فهرب فلحق به الناس وظنوه خارجياً وقتلوه . ولم يكن بجير قد مات : فاحتال واحد ثأر منهم اسمه صعصعة حتى اتى بجيراً كأنه قصده ليساعده على ميراث له واعد خنجراً مغموساً في لبن اثنان وظل يتربص به حتى وثب عليه في معسكر المهلب سنة ٨١ هـ فطعنه وقبضت عليه الشرطة فأتوا به المهلب فقال له بؤساً لك ما ادركت ثأرك وقتلت نفسك وما على بجير بأس فقال له لقد طعنته طعنة لو قسمت بين الناس لماثوا ولقد وجدت ريح بطنه في يدي . ودخل عليه قوم من الابناء - اولاد امهات فارسيات وآباء عرب او العكس - فقبلوا رأسه وقالوا ان بجيراً قد مات فقال فليصنعوا بي الآن ما شاؤوا أليس قد حلت نذور نساء بني عوف

وادركت بثأري . اما والله لقد امكنتني ان اقتله لحدته غير مرة فكروحت ان اقتله سرّاً
فقال المهلب ما رأيت رجلاً اسخى نفساً بالموت صبراً من هذا ، فأمر بقتله

وهناك رواية ان مجيراً لم يكن قد مات وان المهلب ارسل صعصة اليه وانه قتله بيده ثم
مات على اثر ذلك ! وفي اقدام صعصة يقول رجل من الابناء :

لله در فتى تجاوز همه دون العراق مفاوزاً وبحورا
ما زال يدأب نفسه ويكدها حتى تناول في حرون مجيراً^١

ومن ذلك ما كان بين المضريين وبني تميم من عصبية أدت الى قتل قتيبة بن مسلم وكنير
من ذويه . فقد كان زعيم تميم اسمه وكيع عاملاً لقتيبة والي خراسان فعزله عن عمله
فيحقد عليه . فلما مات الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة اخوه سليمان قام بحركة فردية ضد
قتيبة ذهاباً الى ان سليمان كان حاقداً عليه وانضموا اليه قومه وغيرهم من البانيين كالازد
ومذحج الذين كانوا هم الاكثرو الاقوى في خراسان . وادى الامر الى الاشتباك بينهم وبين المضريين
الذين تعصبوا لقتيبة والذين كانوا هم الاقل والاضعف فانصر البانيون وقتلوا قتيبة وكنيراً
من انصاره وذويه . وفي هذا النصر يقول الشاعر الطرماح مفتخراً :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج والازد زعزع واستبيح العسكر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة والحيل جائحة عليها العثير
بالمرج مرج العين حين تبينت مضر العراق من الاعز الاكبر
إذ حالفت جزعاً ربيعة كلها وتفرقت مضر ومن يتمضر^٢

ورائحة العصبية القبلية فاتحة بقوة في هذه الايات .

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٤٣-١٤٥

(٢) الجزء السابق ص ٢٧٣-٢٨٤

ولقد عين سليمان وكيعاً والياً لخراسان لقاء حر كته التي سر بها لأنه كان حاقداً على قتيبة
على ما ذكرناه في سيرته .

غير ان بعضهم خوفه من غدر وكيع فاستبدله بيزيد بن المهلب فالتف حوله اليمانيون
وتضامنوا معه . وكان موقفه من المضريين موقف الشافي المنكمش حتى انه كان يفضل
عليهم اهل خراسان . فكان هذا مما اثار حنقهم وعصبيتهم . وفيه يقول احد الشعراء المضريين
نهار بن توسعة :

إذا لم يعطنا نصفاً امير	مشينا نحوه مثل الاسود
فمها يا يزيد انب الينا	ودعنا من معاشرة العبيد
نجي فلا نرى إلا صدوداً	على انا نسلم من بعيد
ونرجع خائبين بلا نوال	فما بال التجهم والصدود ^١

وصار كل من اليمانيين والمضريين ينظر الى الآخر بنظرة العداوة ويقف منه موقف
المتربص ويفسر كل منها اي موقف للآخر تفسيراً قليلاً فتثور عصبيتها لأدنى حادث او
خلاف . وقد كان من آثار ذلك المصاولة التي وقعت بين يزيد وموسى بن عبد الله بن خازم
المضري التي شرحناها قبل قليل .

وبما رواه ابن الاثير ان الديلمي اسمه حيان تدخل وعمل على توسيع شقة الخلاف بين جماعتي
وكيع وقتيبة . وقال لقومه دعوا العرب يقتل بعضهم بعضاً . حتى ان سعيداً الحرشي احد
ولاة خراسان وصف هذا الديلمي بقوله ان هذا العبد أهدى الناس للعرب حيث يبدو في هذا
الحادث صورة اخرى لاستغلال بعض زعماء العجم للنزاع القبلي الذي كان ينشب بين
العرب !

وفي سنة ١٠٦ ثارت العصبية بين المضريين واليمانيين بالبروقان في ارض بلخ . وكان
زعيم الاولين نصر بن سيار وزعيم الآخرين عمرو بن مسلم . وكان نصر حينئذ من قواد الجند

(١) نفس الجزء ص ٢٩٠ وبعدها

وكان سبب ذلك ان والي خراسان قطع النهر بسبيل حركة جهادية فتباطأ عنه البانيون لان الوالي كان مضرباً واسمه مسلم بن سعيد . فأرسل نصرأ بن سيار وآخرين معه الى بلخ لارغام الناس على اللحق بالجيش فتصدى له عمرو ومنعه من دخول بلخ . وعلم المضربون في المدينة بقدوم نصر فخرجوا اليه . واحرق ذلك عمرواً وانصاره البانيين واعتبروا ذلك تحدياً لهم وزحفوا عليهم هاتفين بالبكر . وقابلهم نصر وجماعته واشتبكوا معهم وقتلوا جماعة منهم وعزموا الباقيين . وظفر نصر بعد ذلك بعمر وآخرين من زعماء البانيين فضربهم مئة سوط وحلق رؤوسهم ولحاهم وعراهم من ثيابهم وألبسهم المسوح . وفي ذلك يقول نصر بن سيار فيما يقول :

أرى العين لجت في ابتدار وما الذي	يرد عليها بالدموع ابتدارها
فما انا بالوالي اذ الحرب شمرت	تحرقت في شطر اثمسين نارها
ولكنني ادعو لها خندف التي	تطلع بالعبء الثقيل فقارها
وما حفظت بكر هنالك حلفها	فصار عليها عار قيس وعارها
فان تك بكر بالعراق تنزرت	ففي ارض مرو عليها وازورارها
وقد جربت يوم البروقان وقعة	لخندق اذ حانت وآن بوارها
اتتني لقيس في بجيلة وقعة	وقد كان قبل اليوم طال انتظارها

ولقد تعرض الوالي بسبب تواطؤ البانيين عنه لهجوم تركي بقيادة خاقان حتى انتهب عسكره وحرق ما قيمته الف الف من متاعه . واستطاع الترك ان يمنعوه من الماء . وحاولوا القيام بحملة مستميتة لكسر الطوق والوصول الى الماء فأحاط الترك بهم وكادوا ان يفتنوه . ولم ينقذهم إلا قدوم نصر بعد ان انتصر على البانيين وعاد ومنعه نجدة من المضربين ^١ .

وولي خراسان بعد مسلم اسد بن عبد الله القسري في سنة ١١٠ وهو يماي فبادر الى النار من نصر وجماعته فجلبهم بالسياط في مجلسهم واهانهم وقيدهم بالاغلال وحبسهم فترة من الوقت واخذ يعرض بهم في خطبه ويفخر بقومه البانيين وصولتهم وعددهم .

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٩-٣٨٤

وقد بلغ من تعصبه لعصبية ان افسد الناس . ووصلت ابناؤه الى هشام فأمر خالد بن
 الحارث والي العراق بأن يعزله ويعين شخصاً يعالج اسوء اخيه فعين الاشرس بن عبد الله
 السلمي فاستطاع ان يهدئ الاعصاب النائرة فترة من الوقت وان يعيد التضامن بين الجماعات
 المتنافرة . وكان بعض انحاء بلاد الترك قد تمردت في اثناء الفتنة لانشغال العرب ببعضهم
 فتمكن الوالي الجديد من قمع التمرد وتوطيد السلطان العربي . وفي قدوم هذا الوالي وجبهه
 يقول شاعر مضي :

لقد سمع الرحمن تكبير امة غداة اتاها من سليم امامها
 امام هدى قوى لهم امرهم به وكانت عجافاً ما تمنع عظامها^١

وظلت الفتنة نائمة في ولاية الجنيد الذي خلف الاشرس ولكن النعرة كانت ترفع صوتها
 كلما اقتضت المواقف حيث كان كل جماعة تعتز بأرومتها وتفخر بما كان يكون لها من
 مواقف بأسلوب يتم على قوة النعرة فيها . فقد قاتل المضربون تحت قيادة نصر بن سيار في
 ظرف من الظروف قتالا شديدا كان سبب النصر فقال قائل منهم :

يا نصر انت فتى نزار كلها فلك المآثر والفعال الارفع
 فرجت عن كل القبائل كربة بالشعب حين تخاصموا وتضعضوا
 يوم الجنيد اذ القينا متشاجر والنحر دام والخوافق تلمع
 ما زلت ترميهم بنفس حرة حتى تفرج جمعهم وتصدعوا
 فالناس كل بعدها عتقاؤكم ولك المكارم والمعالى اجمع^٢

وفي سنة ١١٦ خلف الجنيد في ولاية خراسان عاصم بن يزيد الهلالي وهو مضي فأنحق
 ذلك اليانيين لان الجنيد ياتي . وصدف ان قام الحارث بن سريج بحركته التمردية التي
 شرحناها في نبذة الحوارج فسارع كثير من اليانيين الى الانضمام الى حركته حتى بلغ عدد

(١) ٢٩٢ وبعدها

(٢) نفس الجزء ص ٤١٧ - ٤٢٢

المنضمين اليه ستين ألفاً . وكانت حركته بسبب هذا التعضيد المنبثق من النعرة القبلية من الحركات الخطيرة في تاريخ وبنيان السلطان العربي في خراسان وبلاد الترك وقد استمرت طويلاً وبادر أهل البلاد الى التمرد لان الحركة شغلت العرب ببعضهم على ما ذكرناه في النبذة المذكورة ١ .

وارسل هشام اسد ابن خالد القسري مرة ثانية سنة ١١٧ لمعالجة الامر الطارئ لانه ياتي والثائرون يمانيون فاستطاع ان يخذل عن الحارث بن سريج كثيراً من انصوى اليه من اليمانيين . فما كان من الحارث إلا ان تحالف مع خاقان الترك الذي كان اقوى مناوى للسلطان العربي . وظل يناضل قوى الدولة الاموية معه ثم مع الترك من بعد قتله ٢

ومما يرويه الطبري في سياق ذلك ان اسداً ظفر بسليمان بن كثير وغيره من دعاة بني العباس في خراسان وكانوا يمانيين فأخذ يؤنبهم على حركاتهم ضد الدولة الاموية فقال له سليمان :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ثم اخذ يذكر له مواقف المضربين من اليمانيين ووصفهم بالعقارب وقال له انهم انما فعلوا هذا نكاية بهم . ولعل هذا مما يفسر ما جاء في وصية الامام محمد بن علي لابي مسلم من تحريض شديد على المضربين واجباب الرفق على اليمانيين في خراسان مما اوردنا نصه قبل .

ولقد تألف اسد المضربين هذه المرة فهدأت النعرة وتمكن بفضل ذلك من احراز اعظم نصر بقتله خاقان ملك الترك الاكبر الذي كان محراك المناوأة والتمرد في بلاد الترك ضد السلطان العربي وتشيت شمل انصاره وتوطيد هذا السلطان على هذه البلاد ٣ .

ومات اسد سنة ١٢٠ فعين خالد بن عبد الله اليمني والي العراق جديداً بن علي الكرمانى

(١) ص ٤٢٧ - وبعدها

(٢) نفس الجزء ص ٤٣٢ وبعدها (٣) ايضاً .

وهو يائي والنسبة بسبب ولادته في كرمان مكانه واليا على خراسان . وكان الخليفة قد اضطغن على خالد فلم يوافق على ولاية جديع وعزله وعزل خالداً على ما ذكرنا اسبابه في سيرة هشام وعين نصرأ بن سيار والياً على خراسان .

ومما يروى ان بعض رجال هشام قالوا له انه نصرأ لا عشيرة له فقال انا عشيرته مما فيه دلالة على ما كانت العصبية القبلية تلعبه من دور في حياة المجتمع العربي في هذا العهد وعلى كونه المضربين وبخاصة قوم نصر الاذنين كانوا الاقل بالنسبة لليمانيين ،

وامتد اثار عزل الكرمانيين وتعيين نصر غضب اليمانيين وادى ذلك الى تجدد الفتنة بينهم وبين المضربين في سنة ١٢٦ هـ وكانت فتنة هوجاء امتدت بضع سنين وكان لها نتائج سيئة في سلطان الامويين وكيانهم لانها صادفت ظروف اشتداد الدعوة العباسية في خراسان بزعامة ابي مسلم واوجدت في صفوف الجماعات العربية من الثغرات ما سهل لهذه الدعوة الانتشار والنجاح حتى قال في ذلك الحارث بن عبد الله الجعدي هذه الايات المعبرة عن مدى اتقان نوران النعرة وشدها

ابيت ارعى النجوم مرتفعاً	اذا استقلت تجري اوائها
من فتنة اصبحت بحالة	قد عم اهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاء شاغلها
فالناس منها في لوت مظلمة	دهماء ملتحة غياطلها
يسمي السفه الذي يعنف	بالجهل سواء فيها وعاقلها
والناس في كربة يكاد لها	تنبذ اولادها حواملها
يغدون منها في كل مبهمة	عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس في عواقبها	الا التي لا يبين قائلها

(١) الطبري ج ٥ ص ٤٧٧ وبعدها .

كروغة البكر او كصيحة حبلى طرقت حولها قوابله
فجاء فينا ازري بوجهه فيها خطوب حمر زلازله^١

ومع ان الروايات تذكر ان نصراً حاول نألف الناس وكان يحذرهم من الفتنة وعواقبها ويقول لهم انكم مسلحة في محور العدو فاياكم ان يختلف فيكم سيفان . وانه كان شديد الاخلاص للدولة عظيم الحرص على توطد السلطان العربي قوي الضبط للولاية شجاعاً مقداماً وكان له ما شرحناه في نبذة المصاولة والفتوح في بلاد الترك من بلاء عظيم قبل ولايته خراسان وفي اثناها كما كان له جهد كبير في قمع الفتن والتمردات وعمرت خراسان في عهده عمارة لم يعهد مثلها قبله وقيل فيه :

أضحت خراسان بعد الحؤف آمنة من ظلم كل غشوم الحكم جبار

بحيث يصح ان يسلك في سلك كبار رجال العرب والدولة الاموية فانه لم يخلص من شائبة النعرة القبلية فكان ذلك من اسباب هيجان الفتنة . وما روي انه جعل جميع العمال في اقاليم خراسان وما وراءها من المضرين حتى قال يائي ما رأيت عصبية مثل هذه^٢ .

وكان من اسباب هيجان الفتنة المباشرة تباطؤ نصر في توزيع الاعطيات على اهل الدواوين حيث اخذ بعض البائسين بثيرون النعمة عليه ويقفون في المساجد يهتفون مطالبين باعطياتهم فوعدهم فلم يصبروا ، وحذرهم من الفتنة فلم يراعوا ووثب اهل السوق الى اسواقهم . فغضب نصر وقال مالكم عندي بعد هذا عطاء ، ومن ثم اخذوا يتجمعون على جديع الكرماني ويحرضونه على حركة تمردية ضد نصر ، وقال المضربون لنصر ان الكرماني يفسد عليك فاقتله فأبى وقال استصاحبه بالمصاهرة والمال فأبوا عليه والخوا حتى حبسه مع

(١) الظبيري ج ٥ ص ٥٨٥ .

(٢) الجزء السابق ص ٨٠ ، وأقرأ أيضاً سيرة نصر في ولاية خراسان في هذه النصفية وما بعدها الى آخر الجزء ثم في اوائل الجزء السادس .

التنبية على عدم مسه بأذى . واهاج حبسه اليانين وبخاصة الازديين الذين كان الكرمانى منهم فهاجموا السجن واخرجوه^١ ثم اخذوا يمتشدون ويستعدون للقتال ويطالبون بخروج نصر من خراسان ، واستعد نصر لقمع الحركة ، وسعى الوسطاء بين الفريقين يحذرين من العواقب السيئة الداخلية والخارجية فنجحوا في الحيلولة دون الاشتباك ولكن الحالة كانت كالجمر تحت الرماد . وكان الحارث بن سريج ما زال في بلاد الترك فأرسل اليه نصر يعرض عليه الامان طمعاً في تعضيده لما صار له من اسم وشهرة ومنعاً لاتصاله بالكرمانى او اتصال الكرمانى به وتضامنها ضده . واغتم الحارث الفرصة فقبل الامان وعاد الى خراسان ثم اخذ يستغل الموقف لنفسه ، فتجهم له ونبذه ، فانحاز الى الكرمانى وتواطأ معه ، وازداد الموقف بذلك حرجاً ، وحاول نصر ان يتفاهم مع الكرمانى وحذره الفتنة فلم يغن شيئاً ، و تلبث النار ان التهمت وصارت الاشتباكات تقع والدماء تراق بين اليانين والزازيين . وتساجل النصر بين الطرفين ، اياماً لهؤلاء واباماً لهؤلاء ، واستطاع اليانيون مرة ان يغلبوا على مرو عاصمة الامارة ويلجئوا نصرأ الى الفرار منها ويهدموا دور الزازيين فيها ، وكانت ذلك سنة ١٢٨ وفي هذا يقول شاعر مضرى اسمه عباد بن الحارث :

الا يا نصر قد برح الخفاء	وقد طال التمني والرجاء
واصبحت المزون بارض مرو	تقضي في الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم	على مضر وان جار القضاء
وجمير في مجالسها قعود	ترقق في رقابهم الدماء
فان مضر بذارضيت وذلت	فطال لها المذلة والشقاء
وانت هي اعثبت فيها والا	فجل على عساكرها العفاء ^٢

(١) من طريق ما يروى انهم حينما ارادوا اخراجه من ثغرة في السجن خرجت حيلة وانطوت على بطنه فلم تضره فاما كان من احد الذين جاؤوا لاخراجه ان قال انها حيلة ازدية : (٨٨هـ) .

(٢) ج ٦ ص ١٣ .

ولقد كانت نيمية يمانية متزوجة بمضري فلما هاجت الفتنة قالت هذه المقطوعة الشعرية التي ينطوي فيها دلالة على ما كان للعصبة القبلية من اثر وحافز :

لا بارك الله في اشي وعذبها	تزوجت مضرباً آخر الدهر
ابلق رجال تميم قول موجعة	اجلتموها بدار الذل والفقر
ان انتم لم تكروا بعد جولتكم	حتى تعيدوا رجال الازد في الظهر
اني استحييتكم من بذل طاعتكم	هذا المازوني يجيئك على قهر ^١

ثم اصطدم الكرمانى مع الحارث بن سريج لان كلا منهما كان يطمح الى السلطان فتعصب اليانيون مع الكرمانى وخذلوا الحارث لانه مضري ، وقتلوه مع بعض انصاره من المضريين الذين كانوا معه في الجبهة المتحالفة . وفي هذا يقول نصر بن سيار مندهاً بالحارث وموقفه من التحالف مع اليانيين ضده وهو مضري مثله ورائحة العصبة القبلية تفوح من قوله :

يا مدخل الذل على قومه	بعيداً وسحقاً لك من هالك
شؤمك اردى مضراً كلها	وغض من قومك بالحارث
ما كانت الازد واشياها	تطمع في عمرو ولا مالك
ولا بني سعد اذا الجموا	كل طمر لونه خالك ^٢

ولقد استغل ابو مسلم هيجان النعرة واشتداد العداء بين اليانيين والمضريين وانشغالهم ببعضهم واندماج نصر وهو الحاكم في هذه الغمرة فأرسل كتبية من كتائبه الى مدينة مروروز فاستولى عليها وقتل عامل نصر فيها ثم اخذ يوسع نشاطه ويقوي حركته .

وبدا خطرها بارزاً ملموساً على السلطان الاموي الذي لم يكن اليانيون ضده من حيث

(١) نفس المصدر والصفحة السابق ذكرهما . (٢) ايضاً .

الاصل ، فسعى بعض رجالات العرب بين نصر والكرماني ليتهادنا ثم ليتضامنا في الوقوف في وجه حركة ابي مسلم ، وهتف احد الوسطاء من الزعماء بجي بن هبيرة باليمنيين يخوفهم من عواقب هذه الحركة وقال لهم ان لم تتصالحوا مع مضر وتكونوا يداً واحدة فسوف تهلكون معاً قبل المضريين او بعدهم ، فاستجابوا وتفاوضوا وكتبوا كتاب هدنة ومخالفة ، ودخل في ذلك شبان الحاربي الذي كان ينشط باسم الدعوة الى الكتاب والسنة أملاً بأن يكون لدعوته مجال بينهم .

ولقد روى ابن الاثير ان اهل خراسان رأوا أن العرب قد تهادنوا ومخالفوا بدا عليهم خوف وتردد . فهتف بهم قحطبة بن شبيب احد كبار النقباء في الدعوة العباسية ويد ابي مسلم اليمنى محرراً لنعرتهم فقال لهم فيما قال (ان هذه البلاد بلادكم ، سخط الله عليكم فأخذها منكم اذل امة في الارض فاغتنموا الفرصة وأيدوا الدعوة واستبسوا في سبيلها حتى تسترجعوا سلطانكم على بلادكم)^١ فاثار حماسهم وأزال ترددهم .

وبذل ابو مسلم وجماعته جهودهم في حمل الكرماني على نقض الهدنة ووعده بالمساعدة واثار حقه فنجح في مسعاه ، وهتف زعيم آخر اسمه قديد بالكرماني قائلاً له لقد لججت يا ابا علي واخاف ان يتفاقم الأمر فنهلك جميعاً وتشمت بنا هذه الاعاجم .

ولكن الكرماني ظل سادراً في غيه فعادت الاشتباكات ثانية بين اليمنيين والمضريين واستطاع اليمنيون ان يستولوا على مرو وياجئوا نصراً الى الفرار منها ، وانتصر المضريون

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١١٣ وبعبدها . تذكر الروايات ان قحطبة هذا من طيء (انظر الطبري ج ٦ ص ٥٤) وهذه الروايات تذكر ان اكثر من واحد من النقباء كانوا عجباً مثل شبل بن طهات وإبي علي الهروي (انظر الجزء والصحيفة المذكورة من تاريخ الطبري) والكلام المروي عن قحطبة اشبه ان يكون كلام رجل عربي ناعم على العرب ، فان كان عربياً حقاً وليس ولاء ففي كلامه دلالة على ما وصلت اليه الرغبة في ابي مسلم وجماعته في انجاح الدعوة على انقاض العرب ، وهذا ملموح في وصايا محمد بن علي وابنه ابراهيم العباسيين التي اوردناها في نبذة الحركة العباسية .

في جولة بعدها فقتل نصر الكرمانى وصلبه فأهاج هذا عصية اليمانيين بأشد مما كانت بزعامه علي وعثمان ابني الكرمانى وادام الى التحالف مع ابي مسلم الذي وعدهم بالنصر والمساعدة على ادراك ثأرهم ، وارسل نصر الى شيان الخارجي يحذره من العواقب ويعرض عليه الصلح فسعى ابو مسلم حتى احبط المسعى وهتف ابو مسلم بشيعته (ان الله قد اعفاكم من اجتماع كلمة العرب وصيرهم بنا الى افتراق حيث ينطوي في هذا صرة اخرى من صور ما كانت تؤدي اليه العصية القبلية من ضرر وخطر بكيان الدولة الاموية .

ولقد استمرت الجولات بين اليمانيين والمضريين في اطراف مرو ، ودارت هذه المرة الدائرة الحاسمة على المضريين فانهمزوا مع مرو الى طوس ثم الى نيسابور . ولم يضع ابو مسلم الفرصة حيث كان تلقى الامر باظهار دعوته فآظفها واخذ يسير كتابه ويستولي على انحاء خراسان ويقاقل عمال الدولة وحامياتها ويقتل المضريين بخاصة قتلاً ذريعاً ، ثم تخلص من شيان الخارجي ومن ابني الكرمانى وانصارهم لأنه رآهم عقبه في طريق دعوته على ما شرحناه في نبذة الحركة العباسية .

وهكذا كانت هذه النعرة من الاسباب الهامة التي ادت الى نجاح هذه الحركة .

ولقد اثر عن نصر بن سيار ابيات من الشعر يوجه فيها التحذير للعرب ويندد بهذه النعرة ويذكر ما كان من استغلال ابي مسلم لها . غير ان الروايات التي اوردنا خلاصتها تجعله من المسؤولين عنها بدون ريب وهذه هي للعبرة والتاريخ :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم	فليغضبوا قبل ان لا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا	حرباً يحرق في حافاتها الخطب
ما بالكم تلحقون الحرب بينكم	كان اهل الحجب عن رأيكم غروب
وتتركون عدواً قد أظلمكم	مما تأشب لادين ولا حسب
قوما يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسول ولم تنزل به الكتب

فان تكن سائلي عن اصل دينهم فان دينهم ان يقتل العرب^١

ولقد لعبت هذه العصبية دوراً قوياً فيما قام من قتل بين الاسرة الاموية في سنة ١٢٦ وبعبءها وهي قتل شغلت خلفاء بني امية بعض الشيء عن الالتفات الى ما كان يجري في خراسان من نشاط الدعوة العباسية .

ولقد كان هشام بن عبد الملك اذن لوالي العراق يوسف بن عمر بتعذيب الوالي السابق خالد بن عبد الله القسري وتحصيل ما ادخله في ذمته من اموال الدولة ففعل ثم قتله باذنت الوليد الثاني بن يزيد الثاني على ما شرحناه في سيرة هشام والوليد وكان خالد يمانياً فأثار قتله اليمانيين بقيادة ابنه يزيد .

وكان والي قنسرين الوليد بن القعقاع قد ضرب يزيد بن هبيرة احد رجالات العرب مئة سوط في خلافة هشام ، وكان هذا مضرئاً ولما صارت الخلافة الى الوليد الثاني جاء اليه ابن هبيرة وجماعته وطلبوا نصرته على ابن القعقاع فأمر الوليد باعتقاله واعتقال اخيه عبد الملك والي حمص ونفر من ذويها وتسليمهم لبني هبيرة حيث عذبوهم حتى ماتوا .

وكان آل القعقاع يمانيين ايضاً فازدادت بذلك نفمة اليمانيين على الوليد الثاني وتألبوا عليه مع الناقمين عليه من بني امية وعلى رأسهم يزيد الثالث بن الوليد حتى قتلوه فانفتح بذلك باب الشر الذي شرحناه صفحاته في سيرة الوليد ويزيد ومروان .

وفي قتل الوليد يقول احد اليمانيين شامتاً متفاخراً منذراً :

لقد سكنت كلب واسباق مذبح
صدي كان يزقو ليله غير اقاد

(١) الشعر من مرويات العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠٢ وسباق النزاع المضري اليه بزعامه نصر بن سيار والكروماني مقتبس من تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٧٣-٣٧٩ و ٥٨٤-٥٨٩ و ج ٦ ص ٢-٥٦ ووجه (فان دينهم ان يقتل العرب) تتطابق مع وصية محمد بن علي وإبراهيم بن محمد الامامين العباسيين لابي مسلم على ما اردنا نصوصه في نبذة الحركة العباسية .

تركن امير المؤمنين بخالد
فان تقطعوا منا مناط قلادة
وان تشغلونا عن ندائنا فاننا
وان سافر القسري سفراً هالك
مكباً على خيشومه غير ساجد
قطعنا به منكم مناط قلادة
شغلنا الوليد عن غناء الولايد
فان ابا العباس ليس بشاهد

وبقول آخر منهم :

سائل وليداً وسائل اهل عسكره
هل جاء من مضر نفس قتمنه
من يهجننا جاهلاً بالشعر ننقضه
بالبيض انا بهما نجو ونقتد
غداة صبحه شؤبونا البرد
والخيل تحت عجاج الموت تطرد

حيث تبدو رائحة النعرة القبلية قوية .

ولقد ثارت هذه العصبية في العراق في سنة ١٢٧ هـ بين المضريين بزعامة النضر بن سعيد الحرشي وبين اليمانيين بزعامة عبد الله بن عمر الذي كان والياً للعراق في ظروف كان الحوارج ثائرين فيها فأدى ذلك الى استدعاء امر الحوارج واستيلائهم على الحكم في منطقة واسعة من العراق .

ولم يذكر الطبري الذي يسوق الحبر اسباب ذلك . وعبد الله بن عمر الوالي هو ابن عمر ابن عبد العزيز الاموي . وفي هذه صورة طريقة من صور هذه العصبية حيث يتزعم اليمانيين فيها اموي مضري !

ولقد كانت هذه الحادثة بعد مقتل الوليد الثاني الذي كان لتألب اليمانيين الاثر الاقوى في مقتله على ما ذكرناه في سيرته . فلعل هيجان هذه العصبية يمت الى ذلك بسبب ما .

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

وقد ذكر الطبري ان الفريقين اقتتلا اياماً عديدة بين الكوفة والحيرة واث الضحاك بن قيس الخارجي الذي ذكرنا كيفية بروزه في نبذة الخوارج اغتتم الفرصة فزحف على العراق وبسط سيطرته على قسم واسع منه . وان البايين والمضريين الذين ادر كوا ما جرت عصبيتهم على بنين الدولة والحكم اصطلمحوا واجتمعوا على قتال الخوارج . غير ان صلحهم لم يستمر إلا برهة يسيرة لأن بعض المضريين قتلوا عاصماً بن عمر بن عبد العزيز اخا الوالي فعادت العصبية الى الثوران واستأنف الفريقان الاقتتال ثانية . واستمرت ثائرة طيبة اربعة اشهر والاشتباكات تتكرر بين الفريقين . فكان ذلك مما مكن الخوارج من بسط حكمهم على الكوفة ومعظم السواد وجعل الوالي يعترف بحكمهم هذا مقابل اعترافهم بحكمه فيما ظل خارج حوزتهم من البلاد التابعة لوالي العراق .

واقعد كان هذا الارتباك مما شغل مروان بن محمد وواليه في العراق ابن هيرة عن التفرغ لمقاومة نشاط ابي مسلم في خراسان مضاداً الى ما شغل مروان من احداث اخرى في الشام والحجاز على ما شرحناه في سيرته ^١ .

واقعد لعبت هذه النعرة دوراً كبيراً في الاندلس ايضاً وكان من نتائجها وهن القوة العربية وانشغلتها واعتماد الافرنج الفرحة للكرة على بلاد المسلمين وكسب بعض الجولات عليهم .

واقعد كان بدء ثوران هذه النعرة الذي ادى الى الاقتتال عزل عبد الملك بن قطن الفهري المضري عن ولاية الاندلس وتعيين عقبة بن الحجاج السلوي اليافي مكانه . فقد حنق عبد الملك لعزله واستثار نكرة الجماعات المنفرعة عن القبائل المضرية حتى ثاروا بزعامته على الوالي وقتلوه سنة ١٢٣ وعاد عبد الملك الولاية نتيجة لذلك . وبدون تثبيت من الخليفة . واثار قتل عقبة البايين قناروا ضد عبد الملك وضد المضريين بقيادة بلج بن بشر القشيري وانتصروا على المضريين وقتلوا عبد الملك . وصار بلج والياً نتيجة لذلك بدوره . ولم يصبر ابنا عبد الملك

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٦١١ وبعدها .

قطن رامية على ذلك فأثارا قومهم المضربين وقاموا بجرعة تمردية ضد بلج وانصاره اليمانيين وانضم اليهم جماعات من المولدين من مسلمي الاسبان وجماعات من البربر ايضاً . وقد انتصروا على اليمانيين وقتلوا بلجاً فيمن قتلوا منهم . غير ان النصر لم يكن حاسماً حيث بقي لليمانيين قوة متمسكة فنصبوا والياً جديداً منهم مكان بلج اسمه ثعلبة بن سلامة . ولقد اقر الخليفة هشام بن عبد الملك ولاية ثعلبة ودانت له الاندلس لفترة من الزمن .

ولقد عاد المضربون الى هياجهم ونحشوا بقصد القيام بجرعة تمردية ضده . ولكنه استطاع ان يضرهم ضربة شديدة عند اسوار ماردة . ورأى الخليفة ان يستبدله فعين مكانه ابا الحظار حسام الكلبي وامره بحسم النزاع والتنافس القبليين وكان ذلك سنة ١٢٥ هـ . ولقد حاول الوالي الجديد ذلك وأجرى مصالحة بين الفريقين غير انه لم ينفع نفسه من محاباة اليمانيين الذين تنتسب قبيلته اليهم حتى اثر عنه هذه الابيات التي يذكر فيها ما كان ممن موقف قبيلته وانتصارها على القيسيين في معركة مرج راهط ويذكر بني مروان بذلك في الوقت نفسه :

افادت بنو مروان قيساً دماؤنا وفي الله ان لم يعدلوا حكم عدل
كانكم لم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر القنا بنحورنا وليس لهم خيل تعد ولا رجل^١

ومن ثم عادت الحرب الاهلية ثانية بين اليمانيين والمضربين .

وبما رواه ابن الاثير في صدد ذلك ان زعياً مريضاً اسمه الصميل بن حاتم اهين في مجلس ابي الحظار وتعتع فخرج وعمامته مائلة فقال له بعض الناس ما بال عمامتك مائلة فقال لهم ان كان لي قوم فسقيفونها . وقد غضب قومه له وثاروا على أبي الحظار بقيادة ثوبة بن سلامة وكتب لهم النصر على اليمانيين وقتلوا ابا الحظار في جملة من قتلوه منهم واقاموا ثوبة والياً فأقره والي المغرب . ولما مات حاول اليمانيون ان يكون الوالي منهم فعارضهم المضربون بزعامة الصميل وتفاقم الامر حتى كاد الصدام يتجدد بينهم ثم اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٠٠ .

الرحمن الفهري لمدة سنة فيتولاها بعده وال يمني . فلما مضت السنة اقبل اليعنيوت للمطالبة بالشرط فبيتهم المضربون بزعامة الصميل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وقد اقتتلوا بالرماح حتى تقطعت وبالسيف حتى تكسرت ثم تجاذبوا بالسقور . وعرفت هذه الوقعة بوقعة شقنده لأنها كانت عندها .

ونتيجة لذلك استتب الحكم ليوسف الفهري وطالت ولايته حتى سنة ١٣٨ هـ دون مصادقة من خلافة الشام التي كانت في ظروف ولايته مرتبكة . وقد استطاع هذا الوالي ان يضبط امور الدولة ويقمع ما قام بها من قتل .

ولقد ظل اليمانيون حانقين على المضربين وحكومتهم فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بالداخل الى المغرب فاراً من المشرق بعد سقوط الدولة الاموية وذبح معظم الامويين التفوا عليه وناصروه فتغلب نتيجة لذلك على يوسف الفهري وقتله وحل محله في حكم الاندلس سنة ١٣٨ فكان ذلك بدء الدولة الاموية الاندلسية ^١ .

وهكذا قدر للنصرة القبلية ان تلعب دورها في حياة بني امية ودولتهم . فقد كانت من العوامل التي حفزتهم على إقامة دولتهم . ثم كانت من العوامل التي وطدت دولتهم بعد ان كادت تزول حينما تنازل معاوية الثاني وقويت دعوة ابن الزبير . ثم كانت من العوامل التي وطدت دولتهم الثانية في المغرب حينما زالت دولتهم الاولى في المشرق . وقد كانت في الوقت نفسه من الاسباب التي سهلت نجاح دعوة ابي مسلم في تقويض هذه الدولة .

ومن عجائب الصدف ان اليمانيين كانوا انصارهم في توطيد دولتهم بعد تنازل معاوية الثاني . وكانوا انصارهم في توطيد دولتهم الاندلسية . وكانوا ضدهم في خراسان حيث جعلهم النزاع بينهم وبين المضربين فيها من انصار ابي مسلم ! وقد انفتح باب الفتنة بين الامراء الامويين نتيجة لتأليبهم على الوليد الثاني الناقمين عليه وقتلهم اياه .

(١) تاريخ العرب في الاندلس عبد الله عنان ص ٦٣-٦٧ والاستقصاء لدول المغرب الاقصى للسلاوي ج ١ ص ٩٤-١٠٧ واماكن متعددة من الجزء الخامس من تاريخ ابن الاثير .

١٢ - ولاية العهد

وانما لسلسلة المعكرات ننبه على ان مسألة ولاية العهد في الدولة الاموية كانت تعكر صفاء هذا العهد وتثير الاحقاد بين ابناء الاسرة الاموية . وكانت بادرتها الاولى ابي ولاية عهد يزيد بن معاوية ذريعة ادت الى حركتي خروج الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما العنيفة اللتين كانتا في حد ذاتهما وبما ادنا اليه من احداث خطيرة اخرى من أشد المعكرات وأسامها وابعدها سوء أثر ونتائج .

ولقد فصلنا هذه المسألة واوردنا شواهدا في مطلع الجزء كما ألمنا بأحداثها في سياق سيرة الخلفاء الذين كانت في عهدهم فنكتفي هنا بهذه الإشارة .

هذا وهناك احداث عديدة اخرى تمت الى هذه النبذة لأنها من معكرات صفو هذا العهد . ومنها ما كان له نتائج مشؤومة وميئة على الدولة بما ثار بسببه بين الاسرة الاموية من فتن كادت تعصف بالدولة وذهب احد الخلفاء الوليد بن يزيد ووالي عهده ضحية فيها . ومنها ما ظل ضيق المدى والاثر ومنها ما امكن معالجته بسرعة . وقد رأينا ان هذه الاحداث اتمس بسيرة الخلفاء الذين وقعت في زمنهم فأوردناها في سياق سيرتهم ونذكرها هنا لانام الصورة . وهي حادث مقتل حجر بن عدي ورفاقه في سيرة معاوية . وحادث مقتل عمرو بن سعيد بن الأشدق في سيرة عبد الملك بن مروان . وحوادث عزل واضطهاد موسى بن نصير ومقتل ابنه عبد العزيز ومقتل قتيبة بن مسلم ومحمد ابن القاسم واضطهاد عمال الحجاج في سيرة سليمان بن عبد الملك وثورة المغرب على يزيد بن عبد الملك . ومقتل خالد بن عبد الله القسري وبني القعقاع واضطهاد بني هشام بن عبد الملك في سيرة الوليد بن يزيد . وعزل يوسف بن عمر والي العراق وحجسه في سيرة يزيد بن الوليد ومقتل يوسف بن عمر والي العراق وولي عهد الوليد بن يزيد في زمن ابراهيم بن الوليد .

الفصل الرابع

فدلكة عامة

عن مختلف احوال الدولة الاموية

(١) فذلكنة عامة عن مختلف احوال الدولة الاموية

١ - رئاسة الدولة

•

اول ما توطدت رئاسة الامويين على جميع الدولة العربية الاسلامية كان بما تم من بيعة اهل الشام ومصر لمعاوية اولاً ثم بما تم من تنازل الحسن بن علي له ومبايعته له ومبايعة جميع الاقطار التي لم تكن دخلت في بيعته ثانياً .

وقد تلقب معاوية بلقب امير المؤمنين وبالحلابة وكان يخاطب بهما من جمهور المسلمين . ومن جملتهم الاحياء من اصحاب رسول الله ﷺ ومن جملتهم الحسن والحسين ومحمد ابنا علي واقاربه من بني هاشم عباسيين وطالبيين جرياً على ما كان عليه الامر في عهد الخلفاء الراشدين .

وكانت رئاسة الذين خلفوا معاوية تتم بمبايعة اهل الحل والعقد والشأن في عاصمة الدولة وعواصم الامصار ، واستمروا على التلقب بلقب امير المؤمنين والحلابة وكان الناس يخاطبونهم باللقبين .

وباستثناء مروان بن الحكم ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد تولى الخلفاء الآخرون

(١) جل ما جاء في هذه النبعة مستند الى الروايات الواردة في مختلف فصول الجزء المسند الى مصادرها . وما لم يكن كذلك فقد ذكرنا مصادره .

من بعد معاوية نتيجة لتوليتهم العهد من الخليفة السابق لهم في حياته حيث عين معاوية ابنه يزيد ولياً لعهدده واخذ له البيعة على ذلك من اهل الحل والعقد في العاصمة والامصار ثم سار الخلفاء على هذه الطريقة مع سنة اخرى حيث كانوا يعينون وولين للعهد .

وكان الذين يتولون الحكم من اولياء العهد مع اعتبار بيعتهم لازمة في اعناق المسلمين يعمدون الى اخذ البيعة لأنفسهم مجدداً حينما يموت الجالس قبلهم تأكيداً وتوثيقاً لشرعية حكمهم وسلطانهم .

والثلاثة الذين تولوا بدون تولية للعهد من خليفة سابق حصلوا على بيعة اهل الحل والعقد والشأن في العاصمة والامصار .

وكان الخليفة يعتبر نفسه ويعتبره المسلمون ممثلاً للإسلام والمسلمين ومرجعاً لهما وخليفة للنبي ﷺ في كل ذلك ، وكان هو صاحب السلطة التنفيذية النافذة في كل شأن من شؤون الدولة الخارجية والداخلية ، فيختار الولاة والقواد العامين ويعزلهم ، ونجى باسمه الاموال وتصرف باسمه وبأمره .

والمأثورات الكثيرة المروية عنهم تسوغ القول بجزم أنهم كانوا في الاسم الاغلب بلحظون اوامر الله ونواهي في كتابه وسنن رسوله ويستوحون مصلحة المسلمين العامة ويلتزمون حدود الحق والعدل والاعتدال في تصرفاتهم وعزائمهم الداخلية والخارجية والسياسية وغير السياسية ، ويحرصون على اقامة الحدود والذب عن حياض الدين والتنكيل بالمنحرفين عن كتاب الله وسنة رسوله من الولاة والعمال وغيرهم والايقاع بأصعاب المقالات والبسوع واقامة الشعائر الدينية من صلاة وحج وصوم والابتعاد عن الموبقات والكبائر وما يتنافى مع المروءة والاستماع الى المواعظ والاعتبار بها وافساح الحرية للمواعظ والناصحين ، وفتح ابوابهم للمتظلمين وانصافهم ، والرفق بالضعفاء والفقراء وذوي العاهات . واقامة المنشآت الدينية والاجتماعية ، واخذ ابنائهم وعمالهم بمثل ذلك . مع التسجيل بأن هناك مأثورات يجوز ان تكون صحيحة تفيد ان كثيراً منهم بل جلهم باستثناء عمر بن عبد العزيز كانوا يشذون احياناً عن ذلك ويسكتون عن الشذوذ عنه من عمالهم وقوادهم وابنائهم ، ويندفعون في

تصرفانهم ومواقفهم بدوافع الانانية والحقد والعاطفة او المقاصد الشخصية والاسروية التي لا مبرر لها من دين وخلق .

والمآثرات تسوغ القول انه كان لكل خليفة وزراء ومستشارون يستعين بهم في البت في الامور المعروضة والطارئة . ويدخل في ذلك تعيين الولاية والقواد والقضاة والعمال وعزلهم وتسيير الجيوش وتقدير التخصصات والمنح ونفقات الدولة المتنوعة الاخرى . وقد يكون لهؤلاء اثر فيما كان يحدث من الخلفاء من شذوذ بطبيعة الحال .

وفي ما رويناه في سيرة معاوية بن ابي سفيان من وصف عمل اليوم الكامل لمعاوية من ان وزرائه كانوا يعرضون عليه ما عندهم من امور ويؤامرونه فيها تأييد وتديد لذلك .

وقد روي ان روح بن زنباع كان يلقب بلقب وزير عبد الملك . وان زياد بن ابي سفيان كان يلقب بلقب وزير معاوية . وكلمة وزير المستشار او المساعد للرئيس الاعلى بما وصف به كل من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما في حديث نبوي اوردناه في الجزء السابق جاء فيه (لكل نبى وزيران في الارض ووزيران في السماء ووزيراي في الارض ابو بكر وعمر وفي السماء جبريل وميكائيل) .

واقصد حرص يعقوبي على تسمية اشخاص وصفهم بالغالبين على الخلفاء الامويين في عقب سيرة كل خليفة مثل عمرو بن العاص والضحاك بن قيس ويزيد بن الحر العبسي لمعاوية وحسان بن مجدل الكلبي وروح بن زنباع والنعمان بن بشير وعبد الله بن رباح ليزيد وروح لعبد الملك والغازي بن ربيعة الوليد والنصر بن يريم الحميري ورجاء بن حياة الكندي لسليمان وسعيد بن خالد ليزيد والابرس بن الوليد لهشام وابي حديد السلمي واسماعيل القسري واسحق بن مسلم وعبد الحميد بن يحيى لمروان بن محمد . ويبدو ان هذه الاسماء أسماء بعض وزراء ومستشاري الخلفاء النافذين .

والمستفاد من المآثرات انه كان في مركز الخلافة اجهزة عامة مالية وادارية تسمى دواوين .

منها ديوان للجند يصح ان يسمى بلغة اليوم وزارة الحربية ، فيه سجلات المجندين وموتباتهم ، ونهياً بواسطته مختلف الوسائل الحربية .

ومنما ما يدخل اليوم في نطاق ما يسمى وزارة المالية من ديوان للخراج الذي يشتوفى من الارضين التي اقيت في ايدي اهلها . ومن ديوان للموارد الاخرى من عشور وصدقات وغيرها . ومن ديوان للنفقات المتنوعة .

ومنما ديوان للرسائل وآخر للخاتم حيث كانت الرسائل تختم بالشمع ثم بخاتم الخلافة . ومنها رئاسة عامة للشرطة واخرى للحجاب مع ما يتبعها من اتباع واجناد .

ولقد كان الخلفاء الامويون يحرصون على اقامة الحج للناس او بتعبير آخر ترؤس موكب الحج جرياً على السنة النبوية والخلفاء الراشدين . حيث تفيد المأثورات ان معظمهم قام بهذه المهمة بنفسه وحينما كان يتعذر على احدهم في سنة من السنين كان يبعث احد ابنائيه او اخوته او بني عمه او والي الحجاز للقيام بها .

وقد حرص الطبري على ذكر اسم الذي كان يقيم الحج للناس من الخلفاء او نوابهم في اعقاب حوادث كل سنة حيث يبدو ان هذا الامر كان ذا خصوصية في الازمان وكان الرواة يحرصون على روايته .

ومن الخلفاء من اقام الحج بنفسه اكثر من مرة . وقد اثر عن هشام انه حج احدى عشرة مرة . وكانوا يحملون معهم الطيب والستور للكعبة والاموال والمعدات لاهل مكة والمدينة .

ولقد كانوا يتداولون بركة رسول الله ﷺ وقضياً منسوباً اليه وخاتماً ينعتونه بخاتم الخلافة من المحتمل ان يكون خاتم عثمان الذي صنعه بديلاً عن خاتم رسول الله الذي سقط منه حيث كانت هذه الآثار بمثابة اعلام للخلافة ترسل الى ولي العهد حينما يموت الجالس قباه على العرش اذا لم يكن موجوداً في العاصمة وتسلم اليه اذا كان موجوداً .

والمأثورات تفيد ان الخلفاء كانوا يعتبرون انفسهم القيمين على بيت المال . وهم الذين

كانوا يقدرّون التخصّصات لعمالهم وولائهم وقوادهم وقضاتهم ومستشاريهم واجنادهم وزيادتها وانقاصها أحياناً . والمنع والمبات للوافدين عليهم من شعراء وزعماء واصحاب حاجات . مع ترجيحنا ان ذلك كله كان يجري بشورة مستشاريهم ووزرائهم .

ولم نطلع على مآثرات تفيد ما كان يخصّص الخلفاء لانفسهم من رزق باستثناء ما اثر عن عمر بن عبد العزيز الذي روي انه اكتفى بثلاثة درهم شهرياً . وقد يسوغ القول بناء على ذلك انهم كانوا يتناولون من بيت المال ما يرون انهم في حاجة اليه .

والمآثرات تفيد ان معظمهم كانوا يعيشون في ابهة وبجوبة وتوف في المسكن والاثاث والملبس والمطعم والمظفر والمراكب ، ومثل ذلك .

وعناك مآثرات تفيد انه كان لبعض الخلفاء والامراء مزارع وبساتين وضياع تدر عليهم إيراداً كان يضمن لهم مزيداً من الثراء ورفاه العيش . ومن المحتمل ان يكون ذلك شاملاً او لاكثرهم وان يكون اصله اقطاعاً من الدولة او شراء بما يتوفر معهم من فضل تخصّصاتهم . وبعض المآثرات تفيد ان من ذلك ما كان يحصل بطريق الغصب والتغلب بحيث يمكن ان يقال ان منهم من كان يستغل سلطانه ونفوذه في سبيل الحصول على ما يضمن له المال والثراء ورفاه العيش .

في وصف عمل اليوم الكامل الذي أوردناه في سيرة معاوية ما يسوغ القول ان معاوية كان يقيم في بناء ضخّم مكون من اجنحة عديدة . منها جناح للحريم ، وجناح للصلاة ، وجناح للدواوين ، وجناح للوزراء والمستشارين ، وجناح لمجالس الخليفة مع وزرائه ومستشاريه وخاصة اصحابه والوافدين عليه ، وجناح لاستقبال عامة الناس ، وجناح للآداب العامة بالإضافة الى اجنحة الخدم والحشم والحجاب والمطابخ والمؤونة والمراكب .
وتذكر الروايات^١ ان معاوية أنشأ دار الاماره من اعمدة الشجر - على النمط الذي

(١) خطط الشام ج ٥ ص ٢٦٤ .

عرف في دور دمشق القديمة - ثم هدمها وبناها بالحجارة ، وكانت تسمى الخضراء ، وان ما انفق عليها كان حمل ثمانية عشر بغلا من الذهب ، وانها ظلت داراً للأمانة من بعده الى زمن سليمان وان هذا أنشأ داراً جديدة للسلطنة كانت لها قبة عالية .

ولقد روينا في سيرة هشام وصف حماد الراوية لدار هشام التي ادخل عليها في دمشق وهي دار قوراء مفروشة بالرخام وكان هو جالس في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك . وليس هناك ما يمكن ان يساعد على البيان ما اذا كان هذا قصرأ جديداً للخلافة ام هو جزء من قصر سليمان الذي بناه واتخذة هشام بعده مقرآ له .

ولقد تعددت الروايات التي تذكر اقتناء بعض الخلفاء المحظيات الجميلات المثقفات بالادب والبارعات بالغناء ودفع مبالغ كبيرة في شرائهن . والتي تذكر كذلك شربهم الخمر وعقدنهم بجالس غناء ولهو يحضرها اخضاؤهم وندماؤهم ، واحضار المغنين من الحجاز .

واكثر ما تذكر الروايات في صدد ذلك يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد ابنه . وهناك روايات تذكر سليمان وهشام ايضاً . وهناك روايات تنفي ذلك عن يزيد بن معاوية وسليمان وهشام والذي نرجحه ان الروايات في صدد المحظيات وشرب الشراب ومجالس الغناء ليست جزافاً . وان من المحتمل ان يكون لهاصل وخاصة بالنسبة ليزيد بن عبد الملك وابنه الوليد فهي واردة في حقها في مختلف المصادر وان كنا نعتقد انها شئت بمبالغة لأن ما ورد منها وبخاصة بالنسبة للوليد بن يزيد ابعد من ان تصدق ، وقد اوردنا نماذج منها في سيرته ، وروى مؤلف الاغاني كثيراً منها في المجلدين السادس والسابع ولا يمكن إلا ان يلمح فيها بمبالغة كبيرة .

ولقد كان تنقيف الجوازي الجميلات بالادب والغناء ممارسة في الحجاز وكان ابناء الاسر الرفيعة الموسرة يتنافسون في اقتنائهن فسرى ذلك على ما يتبادر لنا الى بني امية من خلفاء وامراء .

ولقد كان شرب النبيذ بما اختلف فقهاء ذلك العصر في حله وحرمته . والمأثورات تفيد

انه هو الذي كان شائعاً في الحجاز والعراق في ذلك الوقت . ونرجع انه هو الذي كان يتناوله من كان يتناوله من بني امية .

ولقد كان الغناء ومجالسه مما استفحل في الحجاز في ذلك الوقت وانغمس فيه ابناؤه المدينة ومكة على ما سوف نشرحه في نبذة اخرى فسرى ذلك ايضاً على ما يتبادر لنا الى بني امية .

٢- تعريب الدواوين والطراز والنقد

ولقد ذكرنا في سيرة عبد الملك انه تم في زمنه تعريب الدواوين والطراز والنقد، وزيادة في بيان ذلك نقول :

اولا :

ان الدواوين المروي تحويلها هي على الاغلب دواوين الضرائب اي سجلاتها حيث كانت تدون بالفارسية في العراق وما وراءها وبالرومية في الشام ومصر . مع التنبيه على ان هناك رواية تذكر ان دواوين مصر كانت تدون بالقبطية في زمن الخلفاء الراشدين والشرط الاول من الدولة الاموية لأنه لم يكن قد نشأ من العرب من يحسن ذلك فابقى هذا في عهده من يحسنونه باللغات المستعملة في زمن السلطان الفارسي والرومي السابق للسلطان العربي .

وقد ذكرت الروايات اسم سرجون الرومي ككاتب الديوان الرومي في عهد معاوية وابنه وحفيده . وزاذان فروخ ككاتب للديوان الفارسي في العراق في زمن الحجاج .

والمأثور ان التحويل بدأ بالعراق بأمر الحجاج ، وان الذي تولاه اولاً مولى اسمه صالح بن عبد الرحمن الذي كان قد استعرب وحصار بجيد العربية . ويروى ان رئيسه مرض فتولى صالح مكانه وحظي عند الحجاج فأخبره ان في امكانه نقل الديوان الى العربية فأمره بذلك ثم حولت دواوين الشام ومصر ، والذي تولى التعريب في الشام مولى اسمه سليمان بن سعيد

اما في مصر فقد نولاه ابن يربوع الفزاري الذي يدل على صراحة عروبه .

وهناك رواية تذكر ان التحويل تم في عهد الوليد، ومن المحتمل المعقول ان العمل استغرق مدة وتم تدريجياً في زمن الوليد^١ .

ثانياً :

ان الطراز المقتبس هو كلمات كانت تطرز على الستور والاعلام والقراطيس التي توضع فيها . ولقد كان الطراز بالرومية وكانت الكلمات المطرزة : (بسم الآب والابن وروح القدس) ، ولقد سأل عبد الملك عنها فلما ترجمت له قال ما اغلظ ان يكون هذا في امر الدين والاسلام ، ثم كتب الى اخيه عبد العزيز والي مصر بابطاله واستبداله بعبارة : (لا اله الا الله) ثم كتب الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاينة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل .

وبما يروى ان ملك الروم غضب من ذلك وكتب الى عبد الملك ليرجع عما فعل وارسل اليه هدية فرد الهدية ورفض الرجوع فهدده بنقش شتيمة ضد نبيه على النقود فكان ذلك سبباً لضرب نقد عربي اسلامي ، ثم صار هذا الطراز يطرز على ملابس الاجناد وشارات الخلافة وغيرهما^٢ .

وقد يفيد الكلام ان الطراز كان يستعمل في النطاق الحكومي ، ولكننا لا نستبعد ان يكون العرب الميسورين ايضاً صاروا يستعملونه على ملابسهم وستورهم وقراطيسهم .

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٣ ومعاشرات الامم الاسلامية للخضري ج ٢ ص ٣٥٧ وتاريخ الطبري

ج ٥ ص ٢٥ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي زيدان ج ١ ص ١٢٦ والمؤلف لم يذكر مصدراً ولكن المرجح انه استمعى خبره من مصدر قديم .

ثالثاً :

ان النقود التي كان المسلمون يتعاملون بها في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين هي الدنانير والدرهم الذهبية والفضية الرومية والفارسية ، وكل ما كان من تبدل هو انه صار يضرب عليها كلمات اسلامية على ما ذكرناه في الجزء السابق ، وبالإضافة الى ماروبناه من سبب اقدام عبد الملك على ضرب سكة اسلامية عربية فهناك رواية اخرى من بابها يرويها ابن خلدون جاء فيها ان عبد الملك ارسل رسالة الى ملك الروم فيها اسم الله والصلاة على رسول الله فكره ذلك وكتب اليه قائلاً انه اذا لم يدع هذا فيسحق على النقود ما يسيء الى الاسلام ونيبه ، وكانت الخطوة الاولى ان عبد الملك كتب الى الحجاج بأن يضرب دراهم على خمسة عشر قيراطاً من قراريط الدنانير ثم ضرب الدنانير الدمشقية ، ومن النقوش التي كتبت عليها (بسم الله الرحمن الرحيم و) الله احد الله الصمد) مع سنة الضرب ومكانه واسم عبد الملك .

وهناك رواية يرويها البلاذري تذكر ان اول دراهم ضربت كانت في ايام عبد الله بن الزبير ومن قبل اخيه مصعب سنة ٥٧٠ وان مصعباً ضربها على ضرب الا كسرة عليها بركة وعليها كلمة (الله) وكانت الدرهم التي ضربها قليلة فكسرت بعده .

(١) استدرأ كما لا ذكرناه في الجزء السابق فذكر منا اننا قرأنا في ذيل الصفحة ٢٦ من الجزء الثالث من تاريخ البعوي مطبعة الغرى سنة ١٣٥٨ عزوا الى المجلد السابع عشر من دائرة المعارف البريطانية ص ٩٠٤ الطبعة الثالثة عشرة ان اول من امر بضرب السكة الاسلامية على الفضة الامام علي بالبصرة سنة ٤٠ هـ وعزوا الى الجزء الاول من المجلد ٩ ص ٥٨ من مجلة المنطف ان سكة ضربت في خلافة الامام علي سنة ٣٧ وكان مكتوباً على دائرها بالخط الكوفي جملة (ولي الله) ورواية اولية ضرب النقدي عهد عبد الملك على كل حال هي المشهورة ولعل ذلك نشأ من ان النقد الاسلامي المضروب سابقاً اذا صحت الرواية لم يكن كثيراً او متداولاً .

وفي الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامي ص ١١٨ وبعدها بيانات عن نقود قديمة مشتركة بين العرب والفرس عثر عليها وهي محفوظة في المتاحف ، رأينا من المفيد ايرادها ، فهناك قطعة رومية عليها صليب وناج وعليها كنية خالد بن الوليد وتاريخ ١٥ هجرية واسم طبرية، وهناك قطعة على مثال دينار فارسي برسمه وشكله عليه اسم معاوية، وهناك قطعة على دائرها بالخط الكوفي جملة (بسم الله ربي) وسنة ٢٨ وقطعة عليها اسم عبد الله بن الزبير امير المؤمنين وسنة ٦١ .

وعلى كل حال فالطبري والبلاذري يركزان روايتهما على ان عبد الملك اول من ضربت الدرامم والدنانير العربية الاسلامية الخالصة في عهده ، ويروى ان اول من نولى العمل شخص من الموالي اسمه سمير فسميت مميّرة ، وكان وزنها اقل من وزن الدرامم والدنانير الفارسية والرومية وان العمل كان سنة ٧٤ في رواية وسنة ٧٥ في رواية اخرى ، ثم امر عبد الملك بضربها في جميع النواحي ، وكانت تسمى المكروهة ، وقيل انها سميت كذلك من قبل الاعاجم لنقص وزنها كما قيل ان الفقهاء كرهوها لانها تحمل اسم الله وتعرض للمهانة .

ومن الذي يروى تجويده للدرامم وزناً ونقشاً ولاية العراق عمر بن هبيرة في زمن يزيد بن عبد الملك وخالد القسري ويوسف بن عمر النخعي في زمن هشام . وقد اشد هذا في ملاحظة الطبايعين حتى كان يقطع ايدي المتلاعبين في الوزن او يضربهم ، وكانت النقود المنسوبة اليهم والتي كانت تسمى باسمائهم فيقال الهبيرة والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية . ومما روي ان عبد الملك اتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وان مثل هذا ايضاً في زمن عمر بن عبد العزيز . وقد اخذ هذا حديد الرجل فطرحه في النار^١ .

(١) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٠-٢٦ ؛ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٨٣ وتاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٦ ؛ وتاريخ التمدن الاسلامي لزيدان ج ١ ص ١١٨-١٢٤ .

٣ - ادارة الاقطار والولاية

تطورت تقسيمات الاقطار وصلاحيات الولاية حسب تطور حركة الفتوح واختلاف شخصيات الولاية معاً .

ولقد كان في زمن الخلفاء الراشدين للبصرة والالكوفة وال . وكان لوالي البصرة الاشراف على شؤون مناطق الخليج العربية والفارسية شرقاً وغرباً وما وراء الشرق من بلاد الفرس . ولوالي الكوفة الاشراف على مناطق بلاد الفرس الشمالية . وبقي الامر على ذلك بضع سنين في زمن معاوية . ثم جمع الولايتين لزياد بن ابي سفيان فصار له الاشراف على جميع ما كان يشرف عليه واليا الكوفة والبصرة . واستمر ولاية العراق يارسون هذا الاشراف . وكانت الاقاليم التي في نطاق هذا الاشراف هي : السواد العراقي - الاهواز - فارس - كرمان - مكران - اصبهان - سجستان - خراسان - حلوان - الكوفة - البصرة - همدان - ماسبدان - قاشان - اذربيجان - الري - قزوین - زنجان - قومس - جرجان - طبرستان - السند - كابلستان - تركستان .

وكان لوالي خراسان في اكثر الاحيان الاشراف على المناطق الواقعة وراء النهر المتضمنة بلاد الترك الى حدود الصين والهند . وكان مركز ولاية العراق العامين مدينة الكوفة على الاعم الاغلب . ثم انشأ الحجاج بن يوسف مدينة واسط بين المدينتين لتكون مركزاً متوسطاً ومن ذلك اسمها .

وكانت مصر مركز ولاية عامة لواليها العام الاشراف على مصر ثم على بلاد النوبة في

الجنوب وعلى ما كان مفتوحاً من شمال افريقية في ما كان يجري الحال عليه بالنسبة لولاية العراق . وكان مركز الوالي مدينة الفسطاط التي أنشأها عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر . وآثارها ما تزال موجودة في نواحي مصر القديمة ومن ذلك الجامع الذي لا يزال يحمل اسم عمرو رضي الله عنه .

ولما فتحت الاندلس صار اشراف ولاية مصر قاصراً على مصر والنوبة وبرقة . وصار يعين للمغرب او لما يسمى افريقية الذي كان يتضمن تونس والجزائر ايضاً ولاية عامون يكون لهم الاشراف على شؤون الاندلس . وكانت جزيرة الفرات وارمينية ومعها احياناً اذربيجان ولاية عامة يتولى امرها وال عام . وكانت مكة مركزاً لوال عام آخر يكون له الاشراف على شؤون سائر الحجاز وحياناً على شؤون اليمن . وكانت اليمن احياناً تدار بواسطة وال عام لحدتها .

وكان الولاية العامون يمثلون الخليفة وينوبون عنه في كل ما يمثله من تمثيل للاسلام والمسلمين والدفاع عنهم وحفظ مصالحهم والنظر في مختلف شؤونهم وشؤون المناطق التي تحت اشرافهم . وكان لهم تعيين ولاية وعمال هذه المناطق . وكان لكل من ولاية هذه المناطق نفس المركز والصلاحيات بالنسبة للوحدات الادارية التي هم على رأس ادارتها .

وكان عمل الولاية العامين وولاية المناطق التابعة لهم يشمل الادارة والمالية والقضاء والحرب احياناً . فيعين الوالي لكل عمل مسؤولاً عنه تجاهه . ويكون لكل مسؤول اتباع يباشرون الاعمال تحت اشراف المسؤول . وللوالي العام عزلهم وتبديلهم . وكانت الخلفاء يعينون اشخاصاً يتولون الامور المالية والحربية والقضائية في الولايات العامة فينحصر اختصاص الوالي بالشؤون الادارية . ويكون متولي الشؤون المالية والحربية مسؤولاً امام الخليفة وهو الذي يعين العمال الذين يباشرون العمل تحت اشرافه ومسؤوليته بدوره .

وكان هذا في الظروف التي لا يكون الوالي العام فيها صاحب شخصية قوية نافذة . فقد كانت الحالة في زمن ولايتي زياد والحجاج للعراق وعمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان لمصر ومحمد بن مروان للجزيرة وارمينية من النوع الاول يارسون عملهم في نطاق

لا مركزية واسعة .

ومع ذلك فان المآثرات تفيد ان هؤلاء الولاة فضلا عن هم دونهم شخصية ونفوذاً كانوا لا يتوانون عن رفع اخبار الاحداث والتصرفات الى الخلفاء واستئذانهم في مهام الامور وتلقي توجيهاتهم واوامرهم والسير عليها والحصول على رضائهم وثقتهم .

ولقد كان للولاة العاملين اجهزة ماثلة لاجهزة مركز الخلافة اي ديوان للخراج وآخر للموارد الاخرى وآخر للنفقات وآخر للرسائل . ورئاسة شرطة واتباع لها . وشيء مماثل كان لولاة الاقاليم التابعة .

وكانت الموارد تجبي من قبل عمال كل اقليم فيوزع منها اعطيات الناس المجندين حالياً وغيرهم ومرتبات العمال وينفق منها ما تمس الحاجة اليه من نفقات الترميم والمنشآت والتحصين والسلاح وغير ذلك ويرسل الفضل مع اخماس الغنائم الى مركز الولاية العام . وهذا بدوره يوزع وينفق ما ينبغي توزيعه وانفاقه ويرسل الفضل مع اخماس الغنائم الى عاصمة الخلافة . ولم نطلع على مآثرات تفيد يقيناً تفصيلاً لذلك غير ان المعقول المتبادر ان ذلك لم يكن يقع جزافاً وانما كان بتدبير وتحميد مسبقين متفق عليهما بين مركز الولاية ومركز العاصمة .

ويبدو من هذه الصورة ان اقاليم الدولة كانت تدار على طريقة اللامركزية الواسعة او الاستقلال الاداري . وقد كان هذا الاسلوب من مظاهر ودواعي اتساع رقعة الدولة من جهة . وكان في الوقت نفسه من اسباب ما قام في الاقاليم من اعمال عمرانية وانشائية من جهة . ومن مسهلات الحزم والبث في الامور الطارئة من جهة ، ومن مشجعات تسيير البعوث والسرايا للجهاد وتوسيع رقعة السلطان العربي والاسلامي ودائرة انتشار الاسلام والعروبة من جهة . كما يبدو منها شيء من التطور التقدمي بالنسبة لما كان عليه الامر في زمن دولة الخلفاء الراشدين .

اما بلاد الشام مركز الخلافة فالمآثرات تفيد : أولاً - انه كان فيها مراكز ادارية عرفت بالاجناد وهي جند دمشق وجند حمص وجند قنسرين وجند الاردن وجند فلسطين .

وثانياً - انه كان عمال في الامصار مثل عامل البلقاء وعامل الرملة وعامل حمص وعامل حلب وعامل المعرة وعامل اللاذقية الخ حيث يسوغ القول ان الاجناد الخمسة المذكورة كانت بمثابة مراكز حاميات مستعدة لتلبية الدعوة الى العمل فوراً اذا ما احتيج اليها في ظرف من الظروف . وانه كان في كل مدينة من مدن هذه المراكز وغيرها عمال اداريون للنظر في الشؤون الادارية والمالية والانضباطية المدنية وما يتبعها من القرى .

ولعل وجود الخليفة وعاصمة الخلافة في وسط هذه المراكز العسكرية والمدنية اغنى عن اقامة وال عام يشرف على هذه البلاد . ولعل عمال وقواد هذه المراكز كانوا يراجعون الخليفة رأساً في ما يطرأ عليهم من امور ويتلقون اوامره مباشرة . ولعله كان في العاصمة من يكون مرجعاً لهم من مستشاري الخليفة ورجاله .

وهناك خبران ماثوران عن مخصصات الولاة . احدهما يذكر ان مخصصات زياد بن ابي سفيان والي العراق العام في زمن معاوية كانت خمسة وعشرين الف درهم . وثانيها يذكر ان مخصصات ابن هبيرة والي العراق العام في زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية كانت (٦٠٠٠٠٠) درهم اي اربعة وعشرين ضعفاً . وهذا قد يعني انه كان للولاة مخصصات معينة وكانت تختلف باختلاف الظروف المالية والسلطانية . وكانت على كل حال وافية لتختلف حاجات المنصب وصاحبه . وقد يصح القياس على هذا بالنسبة لسائر العمال . وهناك اثر انه كان مخصصات عمال زياد الف درهم في السنة .

ومع ذلك فهناك ماثورات عديدة عجيبية في صدد ما كان دخل وثروات بعض الولاة وما كان بعضهم يتهم به من اموال طائلة كانوا يدخلونها في ذممهم تبلغ الملايين العديدة . بما ذكرنا امثلة له في سيرة معاوية ويزيد وسليمان وهشام . وبعض الماثورات قد تفيد ان من هذه الثروات ما كان نتيجة استثمار قرى ومزارع كانت في حيازة الولاة غير ان بعضها حريع الدلالة على ان ذلك كان من فضول الغنائم والجباية المحلية . وكان الخلفاء يقابلون بعض هذه الوقائع بالتسامح والاعضاء وبعضها بالامكار والمصادرة والحبس الخ .

ولقد روي ان خالد بن عبدالله القسري كان دخله ثلاثة عشر مليوناً من مزارعه ومع ذلك

حاسبه هشام وصادره حيث يسوغ القول انه قد استغل نفوذ سلطانه فيما صار له من دخل عظيم .
ولقد كان الولاة العامون بل وولاة المناطق الرئيسية الاخرى يختارون من الشخصيات
القوية المتصفة بالباس والاقدام . وكثيراً ما كانوا من ذوي العصبيات القبلية او الدالة على
الامويين لسابقة خدماتهم وخدمات آبائهم او من ذوي البلاء في الجهاد وتوسيع رقعة
السلطان وتوطيد هيبة الدولة او من اخوة وبني عمومة الخلفاء فكان ذلك مما يشجع بعضهم
على احتجاز فضول الجبايات او التصرف بمقادير كبيرة منها على رجالهم والوافدين عليهم ويجعل
الخلفاء يغضون عنهم احياناً بما مرت منه بعض الامثلة في سيرة الخلفاء .

ولقد كان لاختيار الولاة من هذه الطبقة وبخاصة من ذوي العصبيات القبلية القوية اثر
سيء آخر حيث كان بعضهم يعتدون بأنفسهم ويطمحون لاستقلال اوسع او يندمجون في
العصبية التي كانت تثور بين ابناء وزعماء القبائل فكان هذا يؤدي الى فتن وحروب اهلية .
ولقد كان عزل احدهم احياناً مما يؤدي الى مثل ذلك مما مرت منه امثلة عديدة . ويظهر
ان الاختيار من هذه الطبقة كان اضطرارياً . وقد يدل على ذلك ما روي عن هشام حينما
اراد ان يعين نصرأ بن سيار والياً لحراسان ف قيل له ليست له بها عشيرة فقال انا عشيرته ١ .

٤ - العطاء

كان العطاء من اهم منظمات شؤون الدولة وصلاتها بالجمهور العربي بنوع خاص . واصاه هو ما كان رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس من مخصصات سنوية وانشأ له ما سمي بديوان العطاء الذي كان يسجل فيه اسماء اصحاب العطاء ومقادير اعطياتهم .

ولقد كان عمر ادخل في الديوان الناس حسب سابقتهم في الاسلام ومراتبهم فيه ، ومنهم من كان تجاوز سن العمل والجهاد ومنهم من كان لا يزال في هذه السن او دونها اي الاطفال ، وكان الذين هم في سن العمل والجهاد يسمون الجند ، وهذا ما جعل بعضهم يسمي ديوان العطاء بديوان الجند مع أنه اعم من ذلك . وقد ادخل فيه الاطفال والنساء . واستثنى منه الاعراب الذين ظلوا في البادية لانهم لا يحضرون محاضرات المسلمين ولا يشهدون مشاهدتهم^١ .

واستمر الامر على هذا المنوال في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما مع زيادة في المقدار في زمن عثمان لازدياد الايراد ، ثم استمر على هذا في زمن الخلفاء الامويين على ما تفيد المأثورات التي تفيد ان الناس كانوا يعتبرون العطاء حقاً وواجباً لهم على الدولة^٢ يشغبون عليها اذا ابطأت فيه ، وان الدولة كانت تباد لهم نفس الاعتبار حتى لقد كانوا يعتبرون

(١) كتاب الاموال للامام ابي عبيد ص ٢٢٨ .

(٢) روي في نبذة الخوارج ان جماعة منهم نفوا جباية الدولة واخذوا مقدار عطائهم من الاموال التي معهم واعطوهم وصلاتها وقالوا لهم ليقدر الى رؤسائهم انما اخذنا حقنا في العطاء .

العطاء بما يورث اذا كان ورثة صاحبه لم يكونوا يتناولون العطاء .^١

وان العطاء كان يعطى للمحتاج اليه وغير المحتاج بناء على ذلك الاعتبار حتى ولو كانت له مرتبة عن عمل آخر في الدولة .^٢ وان اسماء الذين يتجاوزون سن الجهاد كانت تظل مسجلة يدفع العطاء لاصحابها كما هو الامر لمن كانوا في سن الجهاد ، وان الاطفال حينما يبلغون مبلغ الرجال ترفع رتبهم من رتبة عطاء الاطفال الى عطاء الرجال .

وكانت الدولة تطلب من الذين هم في سن الجهاد ان يبادروا الى اجابة الدعوة التي توجه اليهم بالانضمام الى اي بعث تسيره للجبهات الحربية الداخلية والخارجية على السواء وتعتبر ذلك واجباً لازماً مقابل العطاء الذي يتقاضونه وتعاقب بالحرمان منه او بعقوبة المتمرد المرتد العاصي كل من يتباطأ في الاستجابة او لا يليها حسب ما تراه الدولة وبمثلها موافقاً للمصلحة ومتسقاً مع الظروف القائمة والسلامة العامة .

وظروف احوال ونشاط الدولة الاموية تسوغ القول ان عدد الذين كانوا يأخذون العطاء كان كبيراً جداً ، فحركات الفتح والدفاع والصوائف والشواقي وقتال الخوارج وقمع الفتن كانت نشيطة في زمن الدولة لم تكفد تتوقف جهته في مختلف انحاء الشاسعة الواسعة في المشرق والمغرب .

ولم تكن الحركات تتجمد في ناحية ليتسنى نقل المجاهدين من بقعة الى اخرى ، فكان لا بد من وجود كتل المجاهدين في كل بقعة بحيث لا نكون مبالغين اذا قدرنا انه كانت

(١) كتاب الاموال ص ٢٤١ انظر فتوح البلدان للبلاذري ايضا ص ٢٦٤ .

(٢) رويانا في سيرة هشام انه كان يتقاضى عطاءه مائتي دينار ويدفعه لمولى له ليذهب ويجاهد بالنيابة عنه . وان امراء بني امية كانوا يلزمون بالجهاد مقابل العطاء الذي كانوا يأخذونه .

وفي الجزء الثاني من معاضرات الحضري في الامم الاسلامية ص ٣٥٧ رواية تفيد ان قاضي مصر عبد الرحمن بن حجبيرة كان يتقاضى مئتي دينار باسم عطاء بالاضافة الى مئتي دينار رزقه في القضاء ومئتي دينار رزقه من التخصيص .

في كل من مصر والمغرب والشام والعراق وبلاد فارس وخراسان وما وراء النهر وارمنية
والحجاز واليمن وجزيرة الفرات والاندلس ما لا يقل عن نصف مليون مجاهد مشترك في
الحرركات او متهيء للاستراك فيها . يضاف الى هذا العدد عدد الذين تجاوزوا سن الجهاد
وظلوا يأخذون عطاءهم وعدد نساء جميع هؤلاء واطفالهم الذين كان فرض لهم في زمن عمر
واستمر بعده وجرى الخلفاء الامويون عليه على ما تفيد المأثورات .

ولقد كان ترتيب عمر ٢٠٠٠ درهم سنوياً لاهل القادسية واليرموك والشام ومصر والفرس
مع زيادة ٥٠٠ لاهل البلاء منهم و ٢٠٠ لنسائهم و ١٠٠ لاطفالهم ، ومعدل ترتيب الممدد
الاول الذي ارسل للبعوث الجهادية الاولى ١٠٠٠ والممدد الثاني ٥٠٠ والممدد الثالث ٣٠٠
والممدد الرابع ٢٥٠ والممدد الخامس ٢٠٠ على ما روينا في الجزء السابق . ثم زيدت هذه
المقادير ووسع نطاقها في زمن عثمان ، ولقد روي ان عطاء الجند في زمن معاوية كان
الف درهم .

ولقد اتسعت رقعة الدولة وكثر ايرادها بعده بقياس عظيم بحيث يفرض ان العطاء
بعده زاد ضعفاً وقد يدل على هذا ما روي عن مقدار عطاء هشام وقاضي مصر عبد الرحمن
بن حبييرة اوردها قبل قليل حيث كان عطاء كل منها مئتي دينار^١

(١) مما يرويه مؤلف الاغانى ان عطاء حارثة بن بدر كان الف وسبعمائة فأجرى الوليد بن
عبد الملك سبعمائة سابقاً فقام حارثة فنهاه ودعا له وطلب رفع عطائه الى الالفين بهذين البيتين :

الى الالفين مطلع قريب	زيادة اربع لي قد بقينا
فان اهلك فنهن لكم والا	فنهن من المتاع لكم سنينا

فقال له الوليد شاطرنى الاربعة مئة ، ثم صير عطائه الفاً وثمانمائة . ثم أجرى سبعمائة ثانياً فقال فنهاه
ودعا له ثم قال :

(١) انظر اخبار الشاعر حارثة بن بدر في المجلد الحادي والعشرين .

ومع ذلك فلو عدلنا لجميع الرجال ألفاً ألفاً وللنساء ٢٠٠ وللأطفال ١٠٠ فان الحاصل قد يبلغ في السنة ستائة مليون او اكثر .

وقد يعني هذا ان معظم رجال العرب ونساءهم وأطفالهم في البلاد المفتوحة كانوا يأخذون عطاء من الدولة . وحيث يبدو من هذا خطورة هذا الترتيب في بناء الدولة وامنها وجياة الجمهور العربي الذي تقوم على اكتافه .

هما الان ادنى منها قبل ذلكا
معلق آمالي ببعض حبالكا

وما احتجب الالفان الابهين
فجد بها تفديك نفسي فانتني

فامر الوليد له بالمائتين فصار عطاؤه الفين .

حيث يبدو من هذا ان مقادير العطاء كانت متفاوتة او على درجات ، على انه يظهر من المأثورات انه كان يتراوح على الاعم الاغلب بين الالف والالفين من الدراهم سنويا .

٥ - القوة البرية



وواضح مما تقدم انه كان للدولة الاموية جيوش دائمة في كل اقليم من اقاليمها منها المشترك فعلا في الحركات الحربية ومنها المستعد للاشتراك في اي حركة يدعى اليها . وهذا هو الذي ساعد كما هو المتبادر على ما تم في زمن هذه الدولة من فتوحات عظيمة في المشرق والمغرب وعلى قمع كل تمرد ونقض مجاولها اهل البلاد المفتوحة وعلى توطيد السلطان العربي الاسلامي فيها ثم على التغلب على مختلف العناصر الاسلامية المتمردة عليها في داخل الدولة .

وليس هناك مآثورات يمكن الاستناد اليها بشيء من اليقين عن تطور الاسلحة عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين والتي كان منها في عهدهم السيوف والرماح والحراب والبلطات والقسي والنبال والدروع والمغافر والمنجنيقات والدبابات الحشبية ، ولا ريب في انه ادخل على كل ذلك تحسين متناسب مع ما كثر من التجارب الحربية في مختلف البقاع ومع مختلف الامم .

وقد ذكر جرجي زيدان في تاريخ التمدن انه كان عند العرب منجنيق لرمي الحجارة وآخر لرمي السهام وثالث لرمي النفط المشتعل او النار اليونانية دون ان يذكر مصدراً . ويفيد سياقه ان الروم رموا العرب حين حاصروا القسطنطينية بالنار اليونانية وان العرب ما لبثوا ان عرفوا سر هذه النار فاستعملوها .

وتفيد المآثورات ان جيوش كل ولاية كانت تتبع قيادة واحدة عامة يكون على رأسها الوالي احياناً او قائد عام باسم متولي الحرب احياناً ، وانها وحدات من كل جيش تستقر

وتعمل في الاقاليم التابعة لها تحت قيادات محلية ويردف بعضها بعضاً .

ولقد رويانا في نبذة الخوارج ان الحجاج لما انذر الذين كانوا مسجلين في بعث المهلب بالالتحاق به انذاره القاصم وقتل شخصاً تلكاً في الخروج او حاول الاعتذار تراحم الناس على الخروج وخرج العرفاء الى المهلب ليأخذوا منه كتباً بموافاة الناس اليه حيث يبدو من هذا انه كان للجندين سجلات وانه كان هناك عرفاء عليهم لمراقبتهم وسوقهم وتحريكهم مسؤولين عنهم امام القواد والعمال .

ولقد روي ان امرأة من اهل الشام كان لها ابن وحيد اسمه خنيس مجند بالسند فسعت في سبيل اعادته الى الشام فأعيانها ذلك فاستعانت بالشاعر المشهور الفرزدق فارسل هذا ابياتاً الى عامل الناحية التي فيها الرجل يرجوه ان يهبه له فبحث العامل عنه فقبل له انه من مرابطة التاكيان فاستحضره وكساه وحملة البريد الى الفرزدق فأرسله هذا الى امه حيث تؤيد الرواية ما قلناه من انه كان هناك تجنيد عربي عام وكان المجندون يرسلون الى الجبهات المختلفة ليقوموا بواجب الجندية فيها ^١ .

وتفيد المأثورات ان اسلوب الصف الواحد ثم اسلوب الكر والفر في زمن النبي ﷺ اخذ يتطور ليكون اسلوب كئائب وكراديس في زمن الخلفاء الراشدين ولا شك ان التجارب والاحتكاك بالامم المختلفة الجديدة كالتورك في المشرق والافرنج في المغرب جعل العرب يطورون اسلوبهم الحربي ، وهناك وصية مأثورة موجهة من مروان بن محمد الى ولي عهد بقلم كاتبه عبد الحميد بن يحيى الكاتب فيها ما يفيد انه كان للجيش طليعة سابقة ، ثم مقدمة ومؤخرة بينها جمهور الجيش مقسم الى ميمنة وميسرة وقلب بينها وانـه كان رجال موكلون بمراقبة سير الجيش وتعبئته على رأسهم رئيس يسمى صاحب التعبئة ^٢ .

(١) انظر ديوان الفرزدق شرح ونشر الصاوي ج ١ ص ٩٤ .

(٢) خطط الشام ج ٥ ص ١٣-١٥ .

٦ - القوة البحرية العربية

•

ولقد كان الى جانب القوة البرية قوة بحرية قوية نشيطة وفي نطاق نظام العطاء نفسه ، ولقد رويننا في الجزء السابق كيفية نشوء هذه القوة وتمكنها المذهل في وقت قصير من المصاولة مع الاساطيل الرومية العريقة في النشاط البحري وتفوقها عليها وفرض وجودها وسلطانها في زمن عثمان بن عفان وعلى يد واليه في الشام مصر ومعاوية بن ابي سفيان وعبد الله بن ابي سرح .

والمأثورات تفيد ان حركة الاساطيل العربية في زمن الدولة الاموية قد نشطت اكثر من زمن عثمان بمقياس واسع حيث شملت سيطرة العرب جميع سواحل افريقية الشمالية وقسم كبير من سواحل البحر الابيض المتوسط الشمالي من ناحية الاندلس ، وحيث كانت الصوائف والشواتي البحرية ضد سواحل الروم تجري موازية للصوائف والشواتي البرية على ما ذكرناه في نبذة المصاولات بين الروم والعرب .

ولقد ذكرت بعض الروايات ^١ ان عدد سفن الاسطول الشامي بلغ ١٧٠٠ ما هو معقول ومتسق مع هذا النشاط ، والمتبادر ان هذا غير عدد السفن التي كانت تنشط في سواحل مصر وشمال افريقية وسواحل الاندلس حيث يمكن ان يضاف الى ذلك العدد مثله او نصفه على الاقل .

ولقد ذكرت رواية ان اول دار لصناعة السفن انشئت في مصر كانت في جزيرة

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ص ٣٧٦ .

الروضة سنة ٤٥٥ هـ^١ وان اول دار صناعة انشئت في تونس في عهد عبد الملك ومن قبل حسان بن النعمان الذي صنع فيها مراكب غزا بها صقلية وان نصير انشأ دار صناعة سفن اخرى في تونس او القيروان صنع فيها مراكب غزا المجاهدون عليها صقلية ثم سردانية ثم منورقة وميورقة في القسم الغربي الجنوبي من البحر الابيض المتوسط على ما روينا في نبذة المصاولات مع الروم .

ولا يعقل ان يكون ماروي هو الواقع الوحيد ازاء النشاط البحري العربي العظيم في زمن عثمان ثم الدولة الاموية الذي شرحناه في الجزء السابق ثم في النبذة السالفة الذكر، ولا بد من ان يكون قد انشئ قبل سنة ٤٤٥ هـ دور صناعة عديدة في سواحل الشام ومصر ، ولا بد من ان يكون انشئ دور عديدة اخرى في هذه السواحل ثم في سواحل افريقية الشمالية .

ومن الاسماء التي كانت تسمي بها المراكب العربية اسم الشونة للمركب الكبير والحراقة للمراكب التي تقذف النار اليونانية والطرادة للمراكب السريعة الجري والمسطحة والشلندة على ما ذكره جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن^٢ مع احتمال ان تكون بعض هذه الاسماء معربة .

(١) نفس المصدر ٣٧٦ .

(٢) ج ١ ص ١٩٥ وبعدها .

٧ - موارد الدولة

•

كانت الموارد المالية في دولة الخلفاء الراشدين غنائم الحرب وخراج الاراضي في البلاد المفتوحة والزكاة من الغلات والانعام والعروض والعشور والمكوس التجارية والفيء الذي يدخل في حوزة الدولة من الاعداء بدون حرب ، وجزية الذميين غير المسلمين على ما فصلناه في الجزء السابق ، وكانت هذه الموارد بذاتها في زمن الدولة الاموية .

وليس هناك مآثورات يمكن الاستناد اليها لمعرفة مقادير اليراد العام او مقادير كل مورد الا ما رواه اليعقوبي^١ عن مقادير خراج الاقطار في ايام معاوية حيث ذكر ان خراج العراق وبما يضاف اليه ما كان في مملكة الفرس في ايام معاوية استقر على ستائة الف الف درهم وستائة وخمسة وخمسين الف درهم (٦٥٥) مليون ثم اورد ارقام خراج كل بلد من بلاد الفرس والعراق يتبادر انها تفصيل للرقم الاجمالي المذكور وان لم يكن مجموعها يبلغه وهي كما يلي :

درهم اذربيجان	٣٠٠٠٠٠٠٠
سواد العراق	١٢٠٠٠٠٠٠
فارس	٧٠٠٠٠٠٠
الاهواز وما يضاف اليها	٤٠٠٠٠٠٠٠

(١) ج ٣ ص ٢٠٧-٢٠٨ مطبعة القوي النجف .

البامة والبعرين	١٥٠٠٠٠٠٠
كور دجلة	١٠٠٠٠٠٠٠
نهاوند وماء الكوفة وماء البصرة	٤٠٠٠٠٠٠٠
الري	٣٠٠٠٠٠٠٠
حلوان	٢٠٠٠٠٠٠٠
الموصل	٤٥٠٠٠٠٠٠

ولقد انضاف الى الدولة من هذه الناحية بقاع شاسعة جديدة بعد معاوية مثل خراسان وطبرستان وجرجان وبلاد السند وما وراء النهر من بلاد الترك الخ بحيث يمكن ان يفرض ان خراجها لم يكن ليقال عن ربع الرقم الاجمالي المذكور ان لم يزد فيكون خراج المشرق في زمن الدولة الاموية نحو (٨٠٠) مليون درهم .

ولقد ذكر اليعقوبي في السياق نفسه المقادير التالية بالدنانير خراجاً لاقطار الدولة الاخرى في ايام معاوية :

دينار خراج مصر	٣٠٠٠٠٠٠٠
فلسطين	٤٥٠٠٠٠
الاردن	١٨٠٠٠٠
جند دمشق	٤٥٠٠٠٠
حمص	٣٥٠٠٠٠
قنسرين والعواصم	٤٥٠٠٠٠
الجزيرة وهي ديار ربيعة ومضر	٥٥٠٠٠٠
اليمن	١٢٠٠٠٠٠

ومجموع ذلك نحو ستة ملايين دينار او نحو سبعين مليون درهم مع التنبيه على اننا نشبه في رقم خراج مصر في ايام معاوية .

وهناك روايات، تنقص ذلك منها الرواية التي تذكر ان صلح خراج مصر كان خمسين الف

الف درهم والتي اوردناها في الجزء السابق ، وقد جبي من مصر في زمن عمر اربعة عشر مليون دينار على ما ذكرته الروايات .

وهناك رواية تذكر ان المقدار نفسه جبي في زمن عثمان ، ورواية تذكر ان خراج مصر المجبي في زمن سليمان بن عبد الملك كان اثني عشر الف الف دينار^١ فلا يعقل ابدا ان يكون الخراج المجبي في زمن معاوية دون ذلك كما هو المتبادر .

ولقد انضاف الى الدولة من هذه الناحية بعد معاوية بقاع شاسعة جديدة اخرى وهي بقية شمال افريقية ثم الاندلس بحيث يمكن ان يفرض ان خراجها لم يكن يقل عن ربع الرقم المذكور ان لم يزد فيكون خراج المغرب اكثر من مئة مليون درهم ويكون مجموع الخراج نحو (٩٠٠) مليون .

والخراج المذكور في الارقام يمثل نوعين من الموارد ، احدهما اجرة الارض في البلاد المفتوحة حيث اقيت في ايدي اهلها مقابل اجرة يؤدونها الى بيت المال ، وهذه الاجرة لا تسقط باسلامهم ولا بانتقالها الى غيرهم من المسلمين ، وهذا هو ما كان يستوفى من اراضي العراق وما وراءها ، وثانيها المقدار المقطوع الذي كان يصالح عليه اهل البلاد المفتوحة والذي كان يشمل جزية الرؤوس وخراج الارض معاً ، وهو ما كان بالنسبة الى مصر، وهذا المقدار ينخفض بنسبة اعتناق اهل البلاد للاسلام ومقابل ما يقدر على الرؤوس من الجزية .

وعلى هذا فالرقم الاجمالي (٩٠٠) مليون درهم عن الخراج لا يتعرض الا لانخفاض جزئي بالنسبة لمصر حيث تروي الروايات ان المجبي من خراج مصر في زمن هشام كانت (٣٠٠٠٠٠٠) دينار بسبب كثرة الداخلين للاسلام من اهلها .

ولقد كنا قدرنا عدد اهل الذمة الذين كان يجبي منهم جزية الرؤوس في زمن عمر بن الخطاب . وقد دخل عدد عظيم آخر من اهل البلاد المفتوحة بعده في ذمة المسلمين وصاروا تابعين للجزية

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج: ٢ ص ٣٦٥ .

بحيث يمكن ان يقال ان عددهم قد تضاعف مرتين في زمن الدولة الاموية . وتكون الجزية المجبية من الرؤوس في زمن الدولة في حدود المئة مليون على الاقل مع ملاحظة انخفاض العدد باعتراف الاسلام . حيث كان يجبى من الاغنياء ٨ درهماً ومن المتوسطين ٢٤ ومن العمال والكاسين ١٢ وهو التعديل الذي جرى في زمن عمر على ما ذكرناه في الجزء السابق واستمر بعده .

فاذا قدرنا انه كان يجبى من الزكاة على اختلاف انواعها قيمة خمسون مليون درهم ومن العشور والموارد الاخرى مثل ذلك وهو تقدير معتدل فيكون ايراد الدولة في حدود مليار ومئة مليون درهم . وهذا غير الموارد غير الثابتة من غنائم الحرب التي لم تكد تنقطع خلال ثلاثين سنة بعد انتهاء حركة ابن الزبير وفراغ بال عبد الملك ثم الوليد وسليمان وهشام ابناؤه من الفتن الداخلية العنيفة حيث كانت حركة الفتوح ناسطة وكانت اخماس الغنائم تدفق على بيت المال وكانت تبلغ عشرات الملايين .

وكل هذا كان يضمن للدولة ان تدفع العطاء على سعة مداه وتنفق على تجهيز الجيوش ومراتب العمال والترميمات والمشاريع العمرانية المتنوعة ويجعل الدولة وخلفاءها يعيشون عيشة البهجة والرفاه ويغدقون على الوافدين عليهم ما تواترت به الروايات من منح وجوائز كبيرة . وفيه تفسير لما روي من المقادير العظيمة التي انفقها عبد الملك والوليد على مساجد القدس والمدينة والشام والتي كانت ارقامها تصل الى ملايين عديدة من الدنانير ثم لما روي من اكداش الذهب والفضة التي كدسها الوليد في المسجد ليقنع الناس انه لم يستفد بيت المال على بناء مسجد الشام ولما روي من وجود سبعة واربعين مليون دينار في بيت المال بعد موت الوليد بن يزيد . ومهما كانت المبالغة محتملة فان الارقام المحتملة تظل عالية وتتضمن الدلالة المقصودة .

٨ - القضاء

•

ذكرنا في الجزء السابق ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من خصص أشخاصاً يتولون امر القضاء بين الناس وخصص لهم مرتبات ووضع لهم خطة قضائية . واستمر هذا من بعده . ثم اتسع في زمن الدولة الاموية بنسبة اتساع الرقعة وتطور الحياة وازدياد تشابك المصالح بين الناس . فصار من الامور العادية ان يكون في كل مدينة قاض ترفع اليه القضايا والمشاكل المتنوعة على ما تقيده المأثورات الكثيرة .

وكان مستند القضاء القرآن والسنة النبوية وسنة الخلفاء الراشدين والاجتهاد والقياس فيما لا نص فيه . وكانت الاحكام تختلف من بلد الى بلد ومن قاض إلى قاض نتيجة لذلك دون هرج ولاثرريب . وكان للقضاة استقلالهم وحريتهم وحصانتهم . ولم يكونوا يميزون احداً عن أحد ولو كان الخلفاء انفسهم . وقد رويناه في سيرة هشام مثلاً من ذلك .

وهناك مأثورات تفيد ان القضاة كانوا يحصلون على كفايتهم من بيت المال وكانت يصل ما يتقاضاه بعضهم الى الف دينار في السنة . حيث روي ان راتب قاضي مصر سنة ٨٨ كان الف دينار^١ . وان قاضي مصر عبد الرحمن بن حجيبة كان يتناول ٢٠٠ دينار رزق قضاء و ٢٠٠ دينار رزق نظره في القصص (الرقاع) و ٢٠٠ دينار رزقه من العطاء و ٢٠٠ دينار رزقه من بيت المال و ٢٠٠ دينار جائزة اضافية^٢ . وحيث روي^٣ نص امر صدر من

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٤٧ عزوا الى السيوطي

(٢) عاضرات الامم الاسلامية للخضري ج ٢ ص ٣٥٦-٣٥٧

(٣) الخضري ايضا نفس الصحف

متولي المال الى الخازن في عهد مروان الثاني باعطاء قاضي مصر رزقة عن شهري ربيع الاول و ربيع الآخر سنة ١٣١ هـ عشرين ديناراً . فكان هذا مما يجعلهم كما هو المتبادر يقومون بمهمتهم قياماً محموداً .

وكان يرفع اليهم قضايا الجرائم الاخلاقية وغير الاخلاقية والمشاكل المالية والاسروية من اوث ووصايا وحجر ونكاح وطلاق الخ ثم المشاكل العقارية . وكان يوكل اليهم الاشراف على اموال الايتام والاحباس (الاوقاف) ١ .

وفي المجلد العاشر من الاغاني في اخبار اسماعيل بن عمار خبر عن رجل في الكوفة كان القاضي يعهد اليه بمراقبة تصرفات اهل الريبة واللهو والخمر ورفعها اليه . بما فيه صورة من صور اعمال القضاء .

واقف رويننا في سيرة عمر بن عبد العزيز خبراً مهماً في صده صلاحية القضاة حيث شكوا اهل سمرقند اليه بأن قتيبة ظلمهم فأخرجهم من ارضهم واعطاها للعرب فأمر عمر الوالي ان يجلس اليهم القاضي فينظر في امرهم فان قضى لهم اخرج العرب من ارضهم الى معسكرهم فأجلس لهم القاضي جميع بن حاضر فقضى بخروج العرب من سمرقند ثم ينادون اهلها عني سواء فيكون صليحاً جديداً او ظفراً وغنوة . وقد حسب اهل سمرقند حساب عاقبة اسوأ فسيجوا شكواهم حيث يبدو من هذا ان ذهنية اولى الامر من المسلمين كانت تتسع لايكال مثل هذا الامر السياسي الحربي الخطير الى القضاء ايضاً ٢ .

(١) انظر محاضرات الامم الاسلامية للخضري ج ٢ ص ٣٥٦

(٢) انظر تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٢٠ .

٩ - المظالم

هذه الكلمة تطلق على ما كان يقع من الاقوياء على الضعفاء وعلى اموال الدولة واملاكها من غصب وتغلب . وقد صار لها ديوان في زمن الدول التي قامت بعد الامويين . وهي عملية قضائية . غير انها ذات خصوصية بسبب كون العدوان فيها يقع من اقوياء وليس من قبيل مشاكل وخلافات عادية . والنظر فيها واستخلاص الحق من غاصبيه لا يقوم إلا بقضاة اقوياء مرهوبين ومؤيدين من الخلفاء والملوك . ولم يكن هذا الامر مملوحاً في عهد الخلفاء الراشدين لانه لم يكن حاجة اليه لقرب عهد الناس من النبي وتأثرهم بروح الدين وغلبة التقوى حيث كان الزجر والوعظ يكفيان لرد اي معتد وغاصب على ما يقول الماوردي في الاحكام السلطانية .

مع التنبيه ان شيئاً منه كان يقع فيوضع الامر في نصابه ويستخلص الحق من غاصبه من قبل الخليفة مباشرة . وذلك ما كان يصدره عمر بن الخطاب من عماله من اموال او يقاسمهم عليها حينما يشبه انها حصلت لهم نتيجة استغلال نفوذ سلطانهم مما روينا امثلة عديدة منه في الجزء السابق .

ولقد تغيرت الحالة في زمن الدولة الاموية فاحتجب الخلفاء عن الرعية نوعاً ما واشتبكت المصالح . وصار هناك متنفذون من بني امية وغيرهم ينصرفون عن الحق ويبدون ايديهم الى ما ليس حق فيه من اموال الدولة والرعية .

ولقد روينا في وصف يوم العمل الذي اوردناه في سيرة معاوية انه كان يطلب من حاشيته

وخاصته ان يرفعوا اليه ظلمات وحوائج من لا يستطيع رفعها . وكانت يأذن للناس فيدخلون عليه برفاعهم فيجلسهم على الطعام من جهة وينظر في رفاعهم ويقضي حوائجهم من جهة ثانية . فكان هذا نواة هذا النظام . ثم قويت وتطورت في عهد عبد الملك حيث روينافي سيرته انه افرد يوماً في الاسبوع للنظر في تظلم المتظلمين وتصفح قصصهم (رفاعهم او استدعاءاتهم) فاذا وقف منها على مشكل احتجاج فيه الى حكم شرعي رده الى قضيه ابن ادريس الازدي . ثم قويت وسميت باسمها في عهد عمر بن عبد العزيز حيث روينافي سيرته انه كان يأمر منادياً ينادي الا من كانت له مظلمة فليرفعها . وانه كان ينظر في المظالم بنفسه وان اول مظلمة رفعت اليه كانت من ذمي على العباس بن الوليد باغتصاب ارض له فسأل العباس فقال اقطعنيها امير المؤمنين (يعني اياه) فقال كتاب الله اولى وامره يرد الضيعة ففعل وتتابع الناس في رفع مظالمهم اليه وكان ينظر فيما يرفع اليه ويزيل المظالم . وكان يتعقب ما في حوزة بني امية بنوع خاص من املاك الدولة فيستردعها منهم ويسميها المظالم .

واقدروينافي سيرة هشام شيئاً مماثلاً لما رويناه في يوم عمل معاوية حيث يفيد ان هذه النواة ظلت مستمرة النمو الى اواخر عهد الدولة الاموية . وقد يصح ان يكون من بابها مطالبة عمر بن عبد العزيز من يزيد بن المهلب ان يرد ما اعترف لسليمان انه دخل في ذمته من اموال الدولة وحجبه على ذلك وحبس الحجاج يزيد على مثل ذلك . وملاحقة هشام يزيد بن عبد الملك وهشام من بعده ليزيد وخالد بن عبد الله القسري ويوسف بن عمر ولالة العراق ومصادرة المبالغ الطائلة منهم على ما رويناه في سيرتهم وفي نبذة تمرد يزيد بن المهلب .

١٠ - الفتيا

٥

في النجوم الزاهرة رواية^١ تذكر ان عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا في مصر الى جعفر ابن ربيعة ويزيد بن ابي حبيب وعبد الله بن جعفر . وفي الاغاني^٢ بيتان من الشعر لشاعر اسمه جامع بن مرخية فيها عبارة (مفتي المدينة) وهما :

سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة في حب ظمياء من وزر

فقال سعيد بن المسيب انما تلام على ما تستطيع من الامر

فهذا وذاك قد يفيد انه كان في كل مصر في زمن الدولة الاموية او بعض عهودها منصب فقهي رسمي للاستفتاء يرجع اليه الناس وربما الحكام في الشؤون المختلفة من الناحية الشرعية . وواضح ان هذا هو غير القضاء . وهو ما صار وما زال أمراً مألوفاً في العهود التالية للعهد الاموي .

(١) ج ١ ص ٢٣٨

(٢) المجلد الثاني اخبار عبيد الله بن عبد الله . وتنمة الخبر تذكر ان الاغاني يروي ان البيتين بلغا سعيداً بن المسيب فقال كذب والله ما سألتني ولا افتيته بما قال .

١١ - الحسبة

ذكرنا في الجزء السابق ان عمر بن الخطاب عهد الى بعض رجاله بمراقبة الاسواق والاسعار والاوزان والنظافة وانه بذلك وضع نواة ما يسمى مهمة الحسبة او البلدية . والمعقول المتسق مع تطور الاحوال ان تكون العناية قد وجهت الى هذه المهمة بأوسع مما كان في زمن الخلفاء الراشدين .

وفي الاغاني رواية بسبيل ذلك^١ حيث ورد فيها ان شخصاً اسمه البردان كان متولياً للسوق بالمدينة وانه قدم اليه رجل خصماً يدعي عليه حقاً فوجب الحكم عليه فأمر به الى الحبس حيث ينطوي في هذا ان متولي الحسبة كان له صفة قضائية ما .

١٢ - البريد

ولقد ذكرنا في سيرة عمر في الجزء السابق ايضاً انه انشأ ما يمكن ان يسمى نواة البريد . وكان هذا يتمثل في شخص يرسل الخليفة معه او امره ورسائله الى الولاية ويرسل الولاية معه رسائلهم واخبارهم الى الخليفة . كما كان يتمثل في تكليف الشخص باستطلاع احوال العمال والرعية ونقلها الى الخليفة .

والمأثورات تفيد ان هذا استمر في زمن الدولة الاموية . وان كنا لم نطلع على بيانات وافية . والمتبادر انه تطور بدوره تطوراً متناسباً مع تطور احوال الدولة واتساع رقعتها .

(١) المجلد السابع اخبار البردان .

١٣ - المجتمع

كان المجتمع في زمن الدولة الاموية يتألف من :

- ١ - العرب المسلمين .
- ٢ - المسلمين غير العرب .
- ٣ - الذميين اي الخاضعين للسلطان الاسلامي من غير المسلمين . . هو ما كان عليه الامر في زمن دولة الخلفاء الراشدين .

١ - العرب المسلمون

لقد كان العرب بدواً وحضراً قبل الدولة الاموية وظلوا كذلك حيث ظل فريق كبير منهم على حياتهم القبلية وعاداتهم القبلية التي وصفناها في الجزء الخامس منتشرين في انحاء جزيرة العرب وبوادي الشام والعراق والجزيرة الفراتية . ومنهم من كان يشتغل في زراعة الارض ومنهم من كان يكتفي بتربية الانعام ، يأكلون لحومها ويشربون لبنها ويتنقلون وراء الماء والكلأ ويتجركون نحو الخضر ليندجوا في الحياة الحضرية تدريجياً كعادتهم الدائمة فيدخل محلهم موجات اخرى تضطرها ظروف الحياة الى الخروج من قلب الجزيرة .

ولقد كان كثير من الذين خرجوا في موجات الفتح من جزيرة العرب في زمن الخلفاء الراشدين يستصحبون نساءهم واولادهم . وكان كثير من الذين يبعثون في بعوث جهادية الى شمال افريقية وبلاد الفرس وما وراء النهر يذهبون ومعهم نساؤهم واولادهم . فكان من

هؤلاء واولئك من يبقى يعيش مدة ما حياة القبيلة في المناطق التي يذهبون اليها بعد ان ينتهوا من حركة الجهاد التي اشتركوا فيها على ما تفيد المآثرات .

اما العرب الحضرمي من كان وظل يعيش في مدن وقرى جزيرة العرب استمراراً لما كانوا عليه قبل . يشتغلون بالزراعة والتجارة والصناعات الخفيفة على النحر الذي وصفناه في الجزء الخامس . ومنهم من كان يعيش في مدن الشام والعراق وجزيرة الفرات وقراها على نفس الوتيرة . ومن هؤلاء من جاء الى هذه الانحاء قبل الاسلام بدواً ثم تحضروا ومنهم من جاء اليها في موجة الفتح . ومن هؤلاء واولئك كان يرسل الجماعات تلو الجماعات الى مختلف الجبهات التي كانت تجيش بحركة الفتح والمصاولات مع الامم المختلفة بسبيلها في البلاد ويستقرون فيها ويعيشون حياة حضرية حتى صاروا ينسبون اليها حينما كانوا يذكرون في معرض الاحداث السياسية والحربية والتيارات الفكرية والحزبية والحركات التمردية حيث كان تعبير (اهل الشام) و (اهل العراق) و (اهل مصر) و (اهل خراسان) و (اهل الاندلس) و (اهل الكوفة) و (اهل البصرة) و (اهل حمص) و (اهل فلسطين) الخ يعينهم .

ولقد كان معظم الذين هم خارج جزيرة العرب منهم يتناولون في زمن الدولة الاموية العطاء . ويشتركون في الحركات الجهادية او يكونون على اهبه الاستعداد للاشتراك فيها فكان هذا يحول دون انصرافهم الى الاعمال الحضرية من زراعة وتجارة وصناعة في زمن هذه الدولة . فظلت هذه الاعمال في الدرجة الاولى من مشاغل اهل البلاد الاولين او العرب الصرحاء الذين جاؤوا قبل الاسلام واستقروا في الشام والعراق والجزيرة وتحضروا مع التنبيه على ان هناك مآثرات تفيد ان من القادمين بعد الاسلام من اخذ ينصرف بدوره الى هذه الاعمال وان كان ذلك في نطاق غير واسع .

ومع ان بما لا شك فيه ان حياة العرب قبل الدولة الاموية قد تأثرت تأثراً غير يسير من مختلف نواحيها بالاسلام ثم بحركة الفتح وانتقال كثير منهم الى البلاد المفتوحة واحتكاكهم بأهلها غير ان هذا قد ازداد كثيراً في زمن هذه الدولة .

ولقد كانت دمشق عاصمة معاوية ابان خلافه مع علي بن ابي طالب امتداداً لولايته على

الشام نحو عشرين سنة من زمن عمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً فاستمر ذلك بعد استتباب الحكم الشامل له .

وانتقل مركز الدولة العربية الاسلامية بذلك من بيئة منعزلة وشبه بدوية الى بيئة ضاربة بسهم وافر من الحضارة واسبابها ومتصلة اتصالاً وثيقاً ببلاد كانت بدورها في مثل ذلك . فكان لهذا تأثير عظيم في حياة العرب الذين اتجهت انظارهم الى العاصمة الجديدة واشتدت رابطتهم بها وادي ذلك الى ان تغدو دمشق من كبريات عواصم الارض بكثرة سكانها وضخامة عمرائها ونشاط حركتها التجارية والصناعية والزراعية واناقة الحياة فيها . ثم الى ان تظهر الدولة بمظهر من الفخامة والابهة وعظمة السلطان لم يكن له عهد في دولة المدينة والى ان تسير في سياسة واعمال ومشاريع وتنظيمات منسقة مع ذلك كله بحيث ابتعدت بها ابتعاداً كبيراً في المظاهر والوسائل عن سيرها في العهد السابق ، وبذلك اثبت الجنس العربي في دوره الجديد ما اثبت في اطواره وادواره السابقة من قابلية التكيف والتطور والتفاعل والمرونة والنمو والتقدم والبروز في مختلف المجالات .

على ان من الحق ان نذكر ان العرب لم يكونوا قد تخلصوا من عصبية القبيلة وحمية الجاهلية ، وكانت احداث الدولة الاموية الداخلية وما انفتح امام العرب من آفاق المطامع والمناصب والمكاسب عاملاً من عوامل ثورانها من جديد فكانت نتيجة لذلك تلك الاحداث الدموية والاحقاد النائرة بين المنتسبين للقبائل المختلفة التي فصلنا صفحاتها وبواعثها في نبذة العصبية القبلية تفصيلاً يغني عن التكرار .

ولقد كان اتساع رقعة السلطان العربي وما كان بسبيل ذلك من جهد وميلة من وسائل تعاظم موارد الدولة فساعد ذلك على اقامة المشاريع العمرانية والمنشآت الدينية والاجتماعية وتنشيط حركة الزراعة والتجارة والصناعة بمقياس واسع كان للعرب في دورهم الجديد حظ فيها ، وكون كثير منهم نتيجة لذلك ثروات طائلة كما ضمن ذلك لكثير منهم موارد عيش واسعة اتاحت لهم ان يستمتعوا بالحياة الناعمة مسكناً ومطعماً وملبساً على ما تؤيده المآثورات الكثيرة .

ولقد كان رجال العرب في عهد الحلفاء الراشدين هم المضطلعون بحركة الفتح والسلطان واجهزة الحكم فاستمر ذلك في زمن الدولة الاموية فكانت جميع مناصب الدولة الهامة في ايديهم بالرغم من اندماج غير العرب بالاسلام اندماجاً تاماً وبدء اندماجهم بل واندماج كثير منهم بالعروبة . فلم يكذب يكون قائد او وال او قاض او عامل في مركز رئيسي غير عربي معروف الارومة . وكل ما كان من امر غير العرب ان يعهد اليهم بأعمال ثانوية تحت اشراف عربي كالجبابة والكتابة لانهم اقدر فنياً واقل جرأة على اموال الدولة ١ .

وقد يكون هذا من باب الاحتياط وعدم التورط في اشراك غير العرب الذين لم يكونوا رسخوا بعد في الاسلام والعروبة . غير انه على كل حال كان تعبيراً وضمناً لبقاء العرب الصرحاء متفوقين بارزين في دولتهم . واصحاب اليد النافذة العالية فيها . وكانت في الوقت نفسه مظهراً من مظاهر عمق الشعور بالتفوق الجنسي وقوة الروح القومية الذي نشأ عن كونهم هم الذين حملوا رسالة الاسلام ومشعل الهداية للناس وهم القيمون على ذلك . ثم هم الذين انجزوا المعجزة الكبرى بما تم على ايديهم من فتح عظيم . وتسنى لهم من انتصارات باهرة غلبوا فيها وتفوقوا على مختلف اجناس الارض في المشرق والمغرب من سند وهند وترك مختلفي الطوائف وخزر وديلم وفرس وكرد وارمن وروم وبربر وافرنج - وهذه الكلمة كانت تطلق على اهل اوروبا الغربية وبخاصة اهل شبه جزيرة ايبيريا التي كان منها الاندلس - بالإضافة الى اهل البلاد المصرية والشامية والعراقية الذين كان كثير منهم غير صريح العروبة والذين كانوا بالنسبة للعرب الفاتحين غرباء كالاقباط في مصر والآراميين - ومنهم السريان - والكنعانيين - ومنهم الفينيقيون - والعبرانيين والبابليين والاشوريين والكلدانيين الخ

(١) من الامثلة على ذلك ما رواه ابن الاثير حيث روى ان واحداً من رجال العرب عاتب عبيد الله بن زياد والي العراق على تكليفه الموالي والدهاقين بالجبابة دون العرب فأجاب قائلاً (كنت اذا استعملت العربي كسر الخراج فاذا اغرمته او اغرمت عشيرته او غرت صدورهم وان تركته تركت مال الله وانا اعرف مكانه فوجدت الدهاقين ابصر بالجبابة واوفى بالامانة واوهن بالمطالبة منكم وجعلتكم امناء عليهم لثلا يظلموا احداً .

واقاموا في بقاعهم الشاسعة الواسعة ملكهم الضخم الباذخ .

ولقد روينا في نبذة الخوارج هتاف قائد عربي خرج لقمع حركة من حركات الخوارج قام بها جماعة من الاعاجم حيث قال لهم (يا معشر العجم هذه العرب تقاتلنا علي الدين فما بالكم انتم)^١ حيث يفيد هذا ان هذا الشعور بلغ فيهم الى درجة اعتبار حركة الخوارج انما كانت تمثل التشاد والتجاذب على السلطان والدين العربيين وان ذلك يجب ان يبقى محصوراً بين العرب فلا يدخل فيه غيرهم !

ولقد بلغ فيهم التعصب لذلك الى حد انهم صرفوا الملك عن لم يكن عربي الام . فقد عاش خمسة ابناء لعبد الملك بعده ولي اربعة منهم الملك وهم الوليد وسليمان ويزيد وعبد الملك . ولم يله خامسهم مسلمة مع ما ظهر من قوته وهمته وبلائه الحسن في الحكم والقيادة في مواقف شتى لأن امه غير عربية . فأبوه لم يعهد اليه مع انه عهد الى الوليد وسليمان وكان هو امن منها وسليمان لم يعهد اليه بل عهد الى عمر بن عبد العزيز ثم الى اخيه يزيد بعده . ويزيد لم يعهد اليه بل عهد الى اخيه هشام وكان يتولى الحكم والقيادة في عهودهم جميعهم . ولم يرو عنه انه كان يشعر بضيق وحر ج من ذلك .

وقصارى ما كان من ابيه انه قدر مواهبه وعقله فقال لاختوته حينما حضرته الوفاة (انظروا الى اخيكم مسلمة فاستوصوا به خيراً فانه شيخكم ومجنكم الذي تستجنون وسيفكم الذي تضربون) على ما روينا في سيرة عبد الملك^٢ . وشذوذ الخلفاء الثلاثة الاخرين اي

(١) تاريخ البعقوني مطبعة العربي ج ٢ من ١٩٧

(٢) ما يروى عن عبد الملك انه امر ولديه سليمان ومسلمة بالسباق بين يديه فسبق سليمان مسلمة فقال:

ألم انهمكم ان غمّلوا هجناءكم	على خيلكم يوم الرهان فتدرك
وما يستوي المرأ هذا ابن حرة	وهذا ابن اخرى ظهرها مشترك
وتضعف عضداه ويقصر سوطه	وتلتصر رجلاه فلا يتحرك
وادرككته خالاته فتزعنه	ألا ان هرق السوء لا بد يدرك

انظر تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ١٤٤

يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد عن ذلك - حيث كانت امهاتهم غير عربيات - انما كان في اواخر ايام الدولة . وكانت قوة الموالي وحر كانهم في بلاد الاعاجم قد استشرت بتحريك العباسيين . ولعل الشعور قد ضعف مع الزمن ايضاً .

ومن الممكن ان يذكر تعريب النقد والطراز والدواوين في هذا المقام . فمهما كانت البواعث المباشرة الى تعريب النقد والطراز والدواوين فانه يعد مظهر آمن مظاهر ذلك الشعور من حيث انه كان استكمالاً لمظاهر السيادة والكرامة القومية العربية الاسلامية فضلاً عن كونه وسيلة ناجعة الى نشر اللغة العربية بين سكان الدولة وجعل الاعتبار الرسمي لها وحدها وجعلها مرنة متسعة لمختلف انواع الاعمال والاصطلاحات التي لم يكن للعرب عهد بها .

ولقد روى جرجي زيدان عن المقرئ خبراً مهماً في بابيه وهو ان الخلفاء الامويين اشتد بهم الحرص على منزلة العرب وحفظ انسابهم فجعلوا في كل ديوان من دواوينهم سجلات يقيدون فيه من يولد من العرب في البلاد المفتوحة ^١ .

ولم يكن شعور العرب بالتفوق وتعصبهم تجاه العناصر الاخرى قاصرين على الحكم ومظاهره . بل كانا منتشرين في العرب على اختلاف طبقاتهم ايضاً حيث كانوا يرون انفسهم انهم اشرف ارومة وكفاءة وابعدهم واجدر بكل عظمة . وان لهم الحق بالتفوق على غيرهم والتميز عن سواهم .

ولقد كانوا يسمونهم غيرهم بالموالي والجرعاء ولا يرونهم اكفاء لهم في الصهارة فاذا اراد احدهم ان يتزوج عربية عد ذلك جرأة ووقاحة ورد اسوأ رد واذا عقد قرانه على عربية تدخل الولاية وفسخوا العقد ^٢ . بل انهم كانوا يأنفون من تزويج بناتهم لعربي امه ليست

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٥٨

(٢) من الروايات المروية في ذلك ان احد الموالي خطب بنتاً من بني سليم في الزوجاء فزوجه اهلها إياها فوشى بعضهم ذلك الى الوالي ففرق بينها وضرب المولى مئتي سوط وحق رأسه ولحيته . فسدح شاعر الوالي قائلاً .

عربية مها علا مقامه .

حيث روي ان عبد الملك بن مروان خطب بعض بنات عقيل بن علفة احد زعماء القبائل المعروفين بالأنساب الشريفة المحفوظة فقال له جنبني هجاء بنيك . والهجين كانت كلمة تطلق على غير عربي الام في مقام اللمز والتصغير .

وهناك روايات كثيرة تروي مظاهر هذا الشعور في صور مختلفة . من ذلك ان بعض العرب لم يكن يرى الصلاة وراء المولى واذا فعلوا ذلك كان تواضعاً لله . ومن ذلك ان بعضهم كان اذا مرت جنازة عربي صاح (وا قوماه) واذا مرت به جنازة غير عربي قال مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء) .

ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عامر احد رجالات العرب . فقد دعا عليه احد الموالى قائلا (لا اكثر الله من امثالك فينا) فأجابه (بل اكثر الله من امثالك فينا) فسئل كيف يدعو عليه ويدعو له فقال (يهدون طرقنا ويخسفون نعالنا ويخيطون ثيابنا) تصغيراً لشأن غير العربي حيث كان العربي يرى نفسه انما وجد للرئاسة والقيادة والحكم والسلطان فليس

وحى حديبا لحوم بنات قوم	وم تحت التراب ابو الوليد
وفي المثنين للمولى تكلل	وفي سلب الحواجب والحدود
اذا كافأهم بينات كسرى	فهل يجد المولى من مزيد
فأي الحق انصف للموالى	من اصهار العبيد الى العبيد

ومن ذلك ان عبد الله بن عون من كرام التابعين تزوج عربية فضربه والى العراق بلال بن ابي بردة في زمن هشام . وزوج رجل من بني الفيس في البحرين بنتاً له لاحد الموالى فقال شاعر اسمه ابو بحر مؤنباً اياه على ذلك :

امن قلة صرتم الى ان قبلتم	دعارة زراع وآخر تاجر
واصحب رومي واسود فاحم	واينس جلد من سراة الاحامر
مشكولهم شتى وكل نسيكم	لقد جئتم في الناس احدي المناكر

انظر هذه الروايات في تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٨٤-٨٥

يليق به ان يشغل نفسه باليمن المعاشية الاخرى وان الموالي هم الذين يجب ان يخدموهم بها

واستقصاء هذه الامثال امر طويل وقد استفاضت بها كتب الادب والسير والتاريخ القديمة . وقد يكون بعضها موضوعاً ولكنها على الأرجح كانت تسجيلاً صادقاً لواقع انتشار هذا الشعور في العرب في تلك الحقبة من التاريخ .

ومع ان في ذلك افراطاً لا مسوغ له ومناقضة للمبادئ الاسلامية السامية التي وطدت الاخوة المتكافئة بين المسلمين على اختلاف اجناسهم وألوانهم وبلادهم والتي كانت العرب منتدبين للتبشير بها وكانوا بالتبعية اولى الناس بالتزامها . وقد جلبت على العرب الحقد والنقمة من سائر المسلمين غير العرب الذين كانوا يؤلفون كثرة اهل الدولة وادت الى ردود فعل متنوعة ضدهم . فتميزت منهم طائفة اصطلاح كتاب العرب على تسميتها بالشعوبيين انبرت لغمز العرب والتشنيع عليهم والخط من اقدارهم وهجومهم نظماً ونثراً^١ . ثم لدس الدسائس واثارة الفتنة بينهم وتدبير المكائد لهم والتأمر على سلطانهم مع كل متآمر من العرب وغير العرب بما مرت امثلة عديدة منه في فصول هذا الجزء وبما كان له اسوأ الاثار في تاريخ

(١) كثر هذا في زمن الدولة العباسية ولكنه بدأ في الدولة الاموية ومن الامثلة على ذلك الشاعر احماعيل ابن يسار الفارسي الاصل من شعراء هذه الدولة الذي رويت له هذه الابيات في الفخر بالمعجم على العرب وبذم العرب :

رب خال لي متوج لي وعم	ماجد مجتدى كريم النصاب
انما سمي الفوارس بالفرس	مضاهاة رقعة الانساب
فاتركي الفخر يا امام علينا	واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألني ان جهلت عنا وعنكم	كيف كنا في سالف الاحقاب
اذ نربي بناتنا وتدسون	سفاهاً بناقكم في الثراب

وقد ورد في سياق هذه القصة ان عربياً رد على احماعيل قائلاً له « ان حاجتنا الى بناتنا غير حاجتكم فأفحده حيث اراد بقوله ان المعجم يربون بناتهم لينكحوهن . » انظر اخبار الشاعر المذكور في المجلد الرابع من الاغاني » والجواب بقيد ان المناظرة بين انقيوميين العرب والشعوبيين كانت قائمة ومتوازية . وهو ما تفيد به بعض الروايات السابقة ايضاً .

العرب السياسي والثقافي والاجتماعي بل والديني وبما كان من العوامل القوية في القضاء على الدولة الاموية في النهاية فانه يدل دلالة واضحة على ما وصل اليه الشعور بالعزة القومية في ظل الدولة الاموية اولاً . وكان وسيلة من وسائل اندماج كثير من غير العرب بالعروبة الصريحة سواء في ذلك الغرباء عن الجنس العربي ام الذين هم من هذا الجنس ولم يكونوا قد انصهروا بعد في بوتقة العروبة الصريحة من انسال الموجات العربية السابقة ثانياً .

ولقد دخل كثير من اهل بلاد ما وراء النهر في الاسلام لأن ذلك يجعلهم عرباً - اي مساوين للعرب - حيث كانوا لا يرون فرقاً بين وصفي الاسلام والعرب على ما روينا في نبذة فتوح ما وراء النهر في عهد الوالي الاشرس . ومن المحتمل كثيراً ان ذلك كان حال غيرهم ايضاً .

ولقد اقبل هؤلاء واولئك على اللغة العربية فلم يمض إلا اجيال قليلة حتى صار بعضهم من الفطاحل والائمة فيها . وصار منهم فيها كبار الشعراء والادباء والمؤلفين والمفسرين والمحدثين والمتوجمين ، وتسموا بأسماء عربية . وانتسبوا بالولاء وغير الولاء الى القبائل العربية ومنهم من صنع لنفسه انساباً عربية او تاريخاً يصل اصله بالعروبة وبجزيرة العرب وبمن فعل ذلك ملوك صنهاجة وزناتة القبيلتين البربريتين الكبيرتين على ما تدل عليه مآثرات شعرية جاء في احداها :

واذا انتموا صنهاجة فهم هم
غلب الجيأ عليهم فتلثموا

قوم لهم درك العلا في حمير
لما حووا اطراف كل فضيلة

وجاء في إحداها :

قيس بن عيلان بنو العز الاول
جدنا الاكبر فكاك الكبل^١

ايها السائل عنا اصلنا
ولنا الفخر بقيس انه

(١) القطعة الاولى بسبيل وصل نسب قبائل صنهاجة بجمير . والقطعة الثانية بسبيل وصل نسب قبائل زناتة بقيس بن عيلان . وقد نشأ في شمال افريقية وفي الاندلس دول وامارات عديدة متفرعة عن صنهاجة وزناتة ومن جلستها دولة المرابطين او اللثمين من صنهاجة التي اشير اليها في القطعة الاولى . اقرأ الجزء السادس والسابع من تاريخ ابن خلدون .

حتى يكونوا على قدم المساواة وفي وحدة المستوى مع الجنس العربي الحاكم الهادي .

وهناك روايات كثيرة جداً مبثوثة في كتاب الاغاني وكتب التاريخ والادب عن اناس من مسلمي البلاد المفتوحة صنعوا لأنفسهم أنساباً عربية او ادعوا انهم من اصل عربي . ومن طرائف ما يرويه الاغاني من ذلك ان شخصاً من دهاقين الفرس اصاب مالملاً ورفعته وقويت احواله فادعى انه من بني تميم فهجاه شاعر اسمه علي بن الخليل بأبيات جاء فيها :

يروح بنسبة المولى	ويصبح يدعي العربا
يشم الشيع والقيصوم	كي يستوجب النسبا
أتيناه بشبوط	ترى في ظهره حذباً
فقال اما لبخلك من	طعام يذهب السعيا
فصد لأخيك يربوعاً	وضباً واترك اللعبا
وصار تشبهاً بالقوم	جلفاً جافياً جشبا ١

ونستطرد الى القول ان بعض المستشرقين والباحثين اذ رأوا العرب انما برزوا ونبغوا في مجال الحكم والسلطان والقيادة ورأوا قلة الذين برزوا ونبغوا منهم في ميادين العلوم والفنون والمهن ورأوا ان كثرة العلماء والمؤلفين والمفسرين والمترجمين والمهنيين من اطباء ومهندسين وفلكيين وكيميائيين الخ المسلمين ليسوا من العرب الصرحاء عزوا الى الجنس العربي ضعف القابلية في هذه الميادين .

وفي هذا ما فيه من الخطأ . فالجنس العربي اثبت قابليته العظمى في منبته وبخاصة في جنوب هذا المنبت - بلاد اليمن - ثم في المهاجر التي انساحت اليها موجاته اي وادي النيل والشام والعراق اثباتاً قوياً رائعاً في هذه الميادين وميادين الحكم والقيادة على ما مر شرحه في الاجزاء الاربعة الاولى من الكتاب . اما امرهم في سياق موجتهم الاسلامية الكبرى وما بعدها فانه يتحمل بعض الشرح .

(١) انظر اخبار الشاعر علي بن الخليل في المجلد الثالث عشر من الاغاني .

فهذه الموجة في مرحلتها الاولى التي يمكن ان يجدد مداها الى اواخر زمن الدولة الاموية لم تكن قد خلصت بعد من ما كان من طبع وحياة غالبية العرب الصرحاء في الجزيرة وخارجها وهما حياة البداوة والقبيلة التي قد لا تساعد على الاشتغال بالعلوم والفنون والمهن وتكتفي باعمال الفروسية خلاصاً تاماً ثم لم تلبث ان استغرقت في حركة الدعوة الاسلامية وحركات الفتح التي استتبعتها فاستقطبت نشاطها ومواهبها في ذلك ثم في مجال الحكم والسلطان والادارة والقيادة فشغلها ذلك عما سواه من المجالات .

ولقد نجحت في هذا نجاحاً عظيماً وبرز منها فيه شخصيات وابطال يعدون من شخصيات وابطال التاريخ الانساني . ومن الظلم والتجني ان يقال عن قوم نبغ رجالهم في مجال الحكم والسلطان والادارة والقيادة هذا النجاح انه ضعيف القابلية في المجالات الاخرى . لان القابلية انما تتمثل فيما استغرقه صاحبها فيه من مجال . والذي ينبغ في مجال ما لاستغراقه فيه يصح ان ينبغ في مجال آخر لو استغرق فيه ايضاً .

وحين حرص العرب في دورهم الجديد على ان يكونوا المائتين لمجال الحكم والسلطان والادارة والقيادة دون غيرهم من المسلمين انصرف هؤلاء الى المجالات الاخرى فكانت ما كان من مكائزهم للعرب في هذه المجالات في بعض المراحل ، ولا سيما هم الاكثر عدداً بالنسبة للعرب في تعداد المسلمين .

على ان العرب لم يلبثوا ان اثبتوا قابليتهم العظيمة في تلك المجالات حينما تفرغ لها من تفرغ منهم وحينما انكمشوا عن مراكز القيادة والحكم والسلطان في ادوار تغلب العناصر الاعجمية على الدولة العباسية وما بعدها مما يتمثل في مثات الشعراء والادباء والاطباء والفلكيين والرياضيين والمفسرين والمؤرخين والفقهاء والعلماء والفلاسفة من العرب الاقحاح الذين استفاضت كتب التراجم باسمائهم ونبوغهم وآثارهم .

٢ - المسلمون من غير العرب

هؤلاء هم الذين اسلموا من اهل البلاد المفتوحة في مشارق الارض ومغاربها والذين نعتوا في التاريخ العربي والاسلامي باسم الموالي ، والتسمية في اصلها مستمدة من اصطلاح عربي جاهلي . وقد كانت كلمة (مولى) مفرد الموالي تطلق على المملوك كما كانت تطلق على الذين ينتمون الى غيرهم بقصد الاحتماء والتحالف .

والمبتادر ان تسمية المسلمين غير العرب بالموالي هي بالمعنى الثاني على اعتبار انهم التحقوا بالعرب وتحالفوا معهم فصاروا مواليهم . وننبه على ان كلمة الموالي كانت تطلق على جميع المسلمين غير العرب وليس على مسلمي العجم فقط كما قد يكون استقر في بعض الازدهان .

والتسمية على كل حال تتضمن معنى من معاني الضعف والهوان لأن الضعفاء هم الذين كانوا ينتسبون الى غيرهم بالولاء . وفيما أوردناه قبل قليل من نظرة العرب اليهم دلالة على ذلك .

وليس هناك مأثورات يمكن الاستناد اليها في تقدير عددهم في زمن الامويين او نسبتهم بالنسبة لغير المسلمين من اهل بلادهم او بالنسبة للعرب غير ان هناك روايات يمكن الاستئناس بها على انهم كانوا عدداً كبيراً ، قد يفوق عدد العرب الصرحاء في البلاد المفتوحة بل وفي بعضها صاروا هم اغلبية المسلمين والاغلبية الكبرى بالنسبة لمن احتفظوا بدينهم منهم .

من ذلك ما روينا في سيرة الوليد بن عبد الملك وفي نبذة فتوحات شمال افريقية من ان قسماً عظيماً من البربر اسلموا . وما روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز من اعتناق الاسلام من قبل البربر الذين لم يكونوا قد اسلموا قبل وغدو الاسلام دين جميع البربر .

ومن ذلك ما روي من تناقص خراج مصر في زمن هشام حتى نزل الى ربع ما كانت

عليه في زمن سليمان^١ . معطلا ذلك بكثرة دخول المصريين في الاسلام وعدم العناية بالري معاً . ولا يعقل ان تكون عدم العناية بالري ذات تأثير عظيم لأن المدة كانت قصيرة بين عهد سليمان وعهد هشام من جهة وهشام معروف بحسن الادارة والحرص من جهة اخرى .

ولقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز الذي تولى بعد سليمان ان عامله في مصر كتب اليه ان دخول الناس في الاسلام قد اضر بالجزية واستأذنه في الاستمرار على اخذها منهم بعد اسلامهم فكتب اليه مندداً موجهاً قائلاً له ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً حيث يفيد هذا ان المصريين اقبلوا على الاسلام في زمن عمر بن عبد العزيز بنطاق واسع كما كان شأن البربر . بل ان رم الجباية ليسوغ القول ان اكثريتهم الكبرى اعتنقت الاسلام في زمن الدولة الاموية . والمآثورات تسوغ القول ان الاغلبية العظمى من اهل بلاد العجم قد دانوا بالاسلام في زمن هذه الدولة ولعل انتصار حركة ابي مسلم في هذه البلاد من اقوى الادلة على ذلك . والمآثورات تسوغ القول كذلك ان جمهوراً عظيماً من اهل ما وراء النهر قد اعتنقوا الاسلام .

وقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز ان عامل خراسان كان يأخذ الجزية ممن اسلموا فكتب اليه يوجبه ويأمره بوضع الجزية ممن اسلم فاستشاره بامتناعهم بالختان لأن تناقص الجزية قد اضر ببيت المال وان الناس قد اسلموا هرباً من الجزية فكتب له ان الله لم يبعث محمداً خاتناً ولا جابياً ثم امر ولاته ان يعلنوا سقوط الجزية عن كل من يسلم فكان ذلك سبباً لنشر الاسلام في ما وراء النهر . وان عمر كتب الى ملوك السند يدعومهم الى الاسلام فاستجابوا وتابعتهم قومهم على ذلك .

وروينا في سيرة هشام ثم في سياق فتوح ما وراء النهر ما كان من استجابة الناس الى الداعي الذي ارسله والي خراسان الاشروس واقبالهم على الاسلام وفزع الدهاقين الموكلين بجباية الجزية الى والي سمرقند يقولون له بمن نأخذ الجزية وقد صار الناس عرباً وبنوا المساجد .

(١) كان خراج مصر في زمن سليمان « ١٢٠٠٠٠٠٠ » دينار فهبط الى « ٣٠٠٠٠٠٠٠ » في ز .

هشام . انظر تاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج ٢ ص ٣٦٥ .

وفي كل ما تقدم دلائل على فشو الاسلام في اهل مصر وشمال افريقية وبلاد العجم وما وراء النهر والسند وغدو معظم اهل هذه البلاد مسلمين في زمن الدولة الاموية . وهذا القول يصدق في اعتقادنا على اهل العراق والشام وجزيرة الفرات من عرب صرحاء وغير صرحاء الذين كانوا يدينون بالنصرانية . فليس هناك ما يمكن ان يدل على ان كتلا كبيرة ظلت تحتفظ بدينها في هذه البلاد في زمن الدولة الاموية .

ولقد ذكرنا قبل قليل نظرة العرب الى اخوانهم المسلمين من غير العرب فلا نرى ضرورة للاعادة . وتزبد هنا على ما قلناه ان الدولة مع الاسف كانت تشاطر العرب هذه النظرة .

فقد روى الامام ابو عبيد في كتاب الاموال^١ ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرض لاهل بدر العرب وغير العرب على السواء خمسة آلاف وللانصار ومواليهم اربعة آلاف وكتب لامراء الاجناد بالحاق من يسلم من الجراء بمواليهم وجعلهم اسوة لهم في العطاء والفيء . وان قوماً قدموا على عامل لعمر فأعطى العرب وترك الموالي فكتب اليه بالتسوية بينهم بما فيه مظهر من مظاهر الاخوة الاسلامية وتكافؤ المسلمين التي كانت من مبادئ الاسلام السامية . غير ان المآثرات تنيد ان هذا قد اهل حيث زري خبر جاء فيه ان معاوية فرض للموالي (١٥) درهماً وان هذا المقدار رفع في عهد سليمان الى (٢٥) وفي عهد هشام الى (٣٠)^٢ . وقد وصف معاوية في الخبر الاول انه اول من فرض للموالي . والمبلغ المفروض مع ذلك لا يكاد يمثل جزءاً من ستين من عطاء العربي المسلم البالغ .

وقد روينا في سيرة عمر بن عبد العزيز شكوى الوفد الحراساني التي جاء فيها ان عشرين الفا من الموالي المسلمين يغزون مع العرب بلا عطاء ولا رزق حيث يؤيد ذلك ما قلناه ويبلغ الاهمال والاجفاف والانحراف عن المبادئ الاسلامية ذروته حيث يفسر ذلك من ناحية ما كان من الموالي العجم حنة من المسارعة الى الاندماج في كل حركة ضد العرب ودولتهم

(١) ص ٢٣٥-٢٣٦

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ٨٣-٨٤

الاموية واستغلال الفتن العصبية التي كانت تثور بسين العرب انفسهم بما ذكرناه في نبذ العصبية القبلية والحوارج وحرركات ابن الاشعث والمختار والمهشمين والتشيع . وقد استغل محمد بن علي العباسي منظم الدعوة العباسية ذلك فوصى دعائه بالاعتماد عليهم دون العرب . وقد استجابوا الى هؤلاء الدعاة بقياس واسع فكان ذلك من اقوى عوامل نجاح هذه الدعوة التي قضت على الدولة الاموية .

٣ - الدميون

هذا التعبير يطلق على كل من خضع للسلطان العربي الاسلامي واحتفظ بدينه على شرط اداء الجزية لهذا السلطان . ويعني انه صار في عهد المسلمين وذمتهم . وصار له حق الحماية عليهم وبممارسة طقوس دينه والتحاكم في مشاكله المتنوعة الاسرورية عند قضائه اذا جاء على ما تضمنته المبادئ القرآنية والنسبية وسار عليه الخلفاء الراشدون وشرحناه في الجزء السادس والسابع .

وخلافاً لما في الازهان العامة فان التعبير كان يشمل باء افة الى اليهود والنصارى عبدة النار والاوثن ايضاً . وهناك احاديث نبوية تتضمن صراحة ان النبي صالح المجوس على الجزية على ان يحتفظوا بدينهم على ما اوردناه في الجزء السادس .

وقد صالح المسلمون في زمن الخلفاء الراشدين عبدة اوثن في المشرق والمغرب على الجزية على ما اوردناه في الجزء السابع فصار ذلك سنة . ولا سيما وليس هناك نص من قرآن وحديث يمنع ذلك .

وقد جاء في كتاب الخراج للامام ابي يوسف (وجميع اهل الشرك من المجوس وعبدة

الاوثان وعبدة النيران والصابئين والسامرة تؤخذ منهم الجزية (١) . ولقد استثنى نصارى بني تغلب من الجزية مقابل مضاعفة الزكاة على اموالهم حيث انقوا من دفعها . وكان لهم شوكة . وكانت ارضهم متاخمة للروم فصالحهم عمر بن الخطاب على ذلك بشرط ان لا ينصروا اولادهم . ومضى الامر على ذلك الى ان انقرض الجيل النصراني وعم بني تغلب الاسلام في اواخر ايام الدولة الاموية ١ .

ولقد كان اكثر اهل البلاد المفتوحة في زمن الخلفاء الراشدين ذميين يؤيدون الجزية . وهي بلاد العراق والشام وقسم كبير من بلاد العجم ومصر والنوبة وبرقة وبعض انحاء تونس والجزائر . ثم دخل في ذمة المسلمين في زمن الدولة الاموية اهل البلاد التي فتحت في هذا الزمن وخضعت للسلطان العربي الاسلامي . ولقد اخذ هؤلاء واولئك يقبلون على اعتناق الاسلام حتى شمل اكثريتهم العظمى في زمن الدولة الاموية على ما شرحناه في النبذة السابقة . واستمر الذين لم يسلموا ذميين يؤدون الجزية .

ولقد كان مقدار الجزية قد استقر في زمن عمر بن الخطاب على ثلاث درجات ٨ ، هما :
— او اربعة دنانير — على المومنين ونصفها على المتوسطين وربعها على العمال والكاسبين .

(١) ص ٧٣ ونسبه على ان الامام ابا يوسف استثنى اهل الردة من المسلمين واهل الاوثان من العرب وقال ان الحكم فيهم ان يعرض عليهم الاسلام فان اسلموا فيها والا قتل الرجال منهم وسبي النساء والصبيان . وتعليقا على ذلك تقول ان كلام الامام بشأن اهل الردة مؤيد بالاحاديث النبوية . فالمرند يستوتب فان لم يتب يقتل . واما اهل الاوثان من العرب فقد ثبت بنص القرآن ان النبي كان يعقد معهم معاهدات . ويقبل منهم المسالمة والمواعدة . ومن هذه الاحداث ما كان قبل فتح مكه ومنها ما كان بعده . ولم يقاتل النبي من اهل الاوثان من العرب إلا الاعداء الذين كانوا يقاتلون المسلمين ويعتدون عليهم مما ورد تأييد له وتوجيه فيه آيات قرآنية عديدة . وهناك آية جاء فيها « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ولم يظهروا على اخراجكم ان تبروهم وتسلطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » سورة الممتحنة ٨ تتضمن حكما محكما . وقد شرحنا كل ذلك في الجزء السادس شرحا يغني عن التكرار . على ان الوثنية عند العرب قد انتهت بعد حروب الردة فلم يعد هذا الامر ذا موضوع .

(١) انظر كتاب الخراج ص ٦٨-٦٩

واستمر الامر على ذلك في زمن الدولة ٢٠٠ موية^١ . وكان من جملة التوجيهات العمرية ان لا تؤخذ الجزية من المساكين والفقراء الذين يعيشون على السؤال والصدقات ولا من العميان والمقعدين والشيخوخ الطاعنين واهل الصوامع ورهبان الاديار الذين لا مال لهم وان يصدق صاحب الدير ورئيسه في قوله عن ذلك . وان لا تؤخذ كذلك من تركه الذمي اذا مات قبل اداها ولا من المغلوب على عقله . وان لا يضرب احد من اهل الذمة في استيادتها ولا يناموا في الشمس ولا يجعل عليهم في ابدانهم شيء من المكاره بسبيل ذلك . وكل ما يجوز هو حبسهم مع الرفق الى ان يؤدوها ما دام الامكان المادي لذلك متوفراً .

ولقد كان من التوجيهات النبوية والراشدية عدم ظلم الذميين واذيتهم وعدم تكليفهم بما لا يطيقون ، وعدم اخذ شيء من اموالهم بغير حق ، والدفاع عنهم وحمايتهم . وبما روي من ذلك عن النبي ﷺ قوله (من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه) وعن عمر قوله (اوصي الخليفة بعدي بذمة رسول الله ان يوفي لهم بعدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم) وقد مر عمر وهو راجع من الشام بقوم اقيموا في الشمس ويصب على رؤوسهم الزيت فسأل ما بالهم فقيل له عليهم جزية لم يؤدوها فسأل وما يقولون فقيل له يقولون انا لا نجد فقال (دعوهم ، لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، فاني سمعت رسول الله يقول لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة) ثم امر باخلاء سبيلهم^٢ .

ولقد استند جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي في تجريح الامويين وعهدهم وتعقب الروايات المروية عنهم في صدد جزية الذميين ومعاملتهم لهم في جملة ما تعقبه من

(١) نبه على ان هناك فقهاء وائمة ذهبوا الى ان مقدار الجزية المذكور على درجاتها الثلاث ليس شيئاً واجباً وان تقدير الجزية يكون هنا بقدرة المستحقة عليه وحالته المالية يقدرها اولو الامر . ويستندون في ذلك الى مقدار الجزية التي فرضها النبي على اهل الكتاب في اليمن وهي دينار على كل حالم « انظر كتاب الاموال ص ٤١ »

(٢) انظر كتاب الحراج للإمام ابي يوسف ٧٠-٧٢

الروايات المروية عن مظالمهم وانحرافاتهم وما رواه عن البلاذري^١ ان معاوية امر عمر بن العاص بزيادة قيروط على ما يجبي من اهل مصر فأجى عمرو تنفيذ ذلك لخالفته لمعاهدة الصلح^٢ وعن المقرئ ان عبيد الله بن الجباب متولي خراج مصر في زمن هشام زاد قيوطاً في كل دينار فثار الاقباط فحاربهم المسلمون وقتلوا كثيراً منهم وفعل مثله اسامة بن زيد التنوخي وكثر في ايام هذا الالتجاء الى الرهينة هرباً من الجزية فأحصى الاديار والرهبان وجعل على يد كل راهب حلقة عليها اسمه واسم ديريه وصار يقطع يد كل راهب لا يحمل الحلقة . وألزم كل نصراني بحمل سند دفع ما عليه من الجزية وكان يأخذ عشرة دنانير ممن لم يوجد معه سند بالدفع . وكبس الاديار وقبض على عدد من الرهبان ليس في ايديهم حلقات ف ضرب رقاب بعضهم وضرب بافيهم حتى ماتوا تحت الضرب . ولما بلغ هشاماً هذه الاخبار لم يرض بها وكتب الى عماله باجراء النصارى على عوائدهم وعهودهم التي في ايديهم . ومن ذلك ان جزية اهل الجزيرة كانت ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلا فاستقل عبد الملك ذلك وحسب كسب عامل في السنة وطرح نفقته من الكسب فكان الباقي اربعة دنانير فألزم بها جميع الناس وجعلهم طبقة واحدة^٣ .

وواضح من هذا ان منه ما لم يقع . ومنه ما انكره الخليفة ومنعه . اما تعديل عبد الملك لجزية الجزيرة فلم تقع عليه . والبيان الذي وقعنا عليه في البلاذري واثبتناه في الذيل يجعل هذا التعديل ان صح خبره سائغاً . وعلى كل حال فالروايات ضيقة المدى وليست عامة ودائمة بحيث يسوغ القول ان الامر في زمن الامويين جرى في الاعم الاغلب على ما كان عليه في دولة الخلفاء الراشدين .

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٠ والرواية في البلاذري في الصفحة ٢٢٥ من طبعة مطبعة الموسوعات لسنة ١٣١٩ هـ

(٢) تاريخ التمدن ج ٢ ص ٢١ ولم يتسن لنا ان نرى الرواية في المقرئ

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٢٢ وقد عزا المؤلف خبره الى البلاذري ص ٧٣ ولم نجد هذا الخبر في النسخة التي في يدينا الطبعة الاولى بمطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩ هـ وفي هذه النسخة ص ١٨٥ خبر استقرار الجزية على ذممي الجزيرة في زمن عمر على ٤٨ درهما و ٢٤ درهما و ١٣ درهما حسب درجات قدرتهم مع مدي قح وقسطين زيت وقسطين خل .

وهناك مسألة اخرى ذكرتها كتب العرب القديمة ، وكانت موضوع استهجان واستنكار من بعض اعداء العرب والاسلام وهي القيود المروية في صدد ازياء الذميين وتصرفاتهم .

ولقد ذكر ذلك الامام ابو يوسف في كتابه الخراج وعدد هذه القيود والتصرفات مثل وجوب جعلهم الزناير الغليظة في اوساطهم وان تكون قلائسهم مضرية . وشراك نعالهم مشنية وان لا يركبوا على سرج بل على اكاف وان لا يلبسوا اقية ولا ثياب خز ولا يضغوا على رؤوسهم عمائم . وان لا يسمع لهم بيع الخمر والخنزير في اسواق المسلمين ولا باظهار الصليب امامهم ولا بانشاء بيع وكنائس وبيوت نار جديدة مع هدم ما كان لهم من ذلك عند الصلح وقال ان بعض هذه القيود من توجيهات عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز لاجل ان يتميز زيمهم وهيئتهم عن زي المسلمين وهيئتهم .

وكتب الصلح التي كتبها عمر بن الخطاب وقواد المسلمين للذميين اثناء حركة الفتح واوردنا نصوص كثير منها في الجزء السابق ليس فيها شيء من ذلك باستثناء نص كتاب واحد الى اهل الرها فيه شرط عدم اظهار النواقيس والصلبان ^١ .

ولقد اوردنا في الجزء السابق نص كتاب قيل ان اهل دمشق كتبوه الى ابي عبيدة نقلا عن خطط الشام للكردي علي فيه اعتراف بأنهم قبلوا شروطاً كثيرة فرضت عليهم حين الفتح وتعهد بالتزامها وبراءة المسلمين من ذمتهم إذا خالفوها . وفيها ما ذكره الامام يوسف وما لم يذكره .

وقد استبعدنا صحة صدور هذا الكتاب في الزمن المروي صدوره لان فيه من العبارات ما يجعل صحته ممتنعة ولأنه لم يرو في الكتب القديمة التي روت نصوص كتب صلح ليس فيها شيء منه والامام ابو يوسف لا يصف هذه الشروط بأنها من العهود التي

(١) البلاذري ص ١٨١ .

قُطعت في كتب الصلح على الذميين ١ .

وعلى كل حال فاننا على اعتقادنا الاول بأن هذا النص لا يمت بصلة الى زمن عمر وابي عبيدة وانه موضوع في عصر متأخر عنها . وهذا لا يمنعنا من قبول احتمال الزام نصارى الشام في زمن الامويين بالقيود والشروط التي ذكرها ابو يوسف لأسباب خاصة تتصل بما كانت من احداث سياسية بين العرب والروم .

وليس فيها مع ذلك شيء عظيم اذا ما نظر اليها بنظر الزمن كما انها ليس فيها نقض للتوجيهات النبوية والراشدية الناهية عن اذيتهم وظلمهم وحمل المكارة عليهم في ابدانهم وتحميلهم ما لا يطيقون . وقد كان لهم حرية التدين في بيعهم ومعابدهم وحق الاحتفاظ بها . وكان يسمح لهم بالسكنى في احياء المسلمين واسواقهم . ومعاطاة مختلف الاعمال الزراعية والصناعية والتجارية . وكان لهم على الدولة حق الحماية والامن .

ث - الرجل والمرأة العربيان

خاطب القرآن المرأة بكل ما خاطب به الرجل وكلفها بكل ما كلفه به ورتب عليها كل ما رتب عليه من تكاليف الدين والدنيا والثواب والعقاب . وقرر لها حقاً واهلية كاملين في مختلف الشؤون الدنيوية وجعل لها من الحقوق على الرجل مثل ما يمكن ان يكون له عليها

(١) اورد جرجي زيدان نص الكتاب الذي اوردته مؤلف خطط الشام وتقلناه عنه في الجزء السابع في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي (ج ٤ ص ٩٠ - ٩١) نقلاً عن كتاب سراج الملوكة تأليف ابي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي الذي عزاه بدوره الى عبد الرحمن بن غنم الاشعري المتوفى سنة ٧٨ هـ وعلق عليه - اي جرجي زيدان - قائلاً ان في هذا ضغطاً على النصارى وتصغيراً لهم خلافاً لما في عهد وكتب الامان الصادرة في صدر الاسلام من القواد لاهل البلاد مما يسوغ القول انه موضوع بعد عصر عمر ؛ لاحظ ان الكتاب في صدد نصارى الشام فقط دون سائر اهل الذمة ودون نصارى الامصار وان عبارته تخالف عبارة صدر الاسلام وان من المحتمل ان يكون النصارى الزموا بهذه القيود بعد عصر عمر لاسباب خاصة حيث كان الروم يتخذون نصارى الشام عيوناً لهم .

مما يدخل فيه التعفف والمحبة والرعاية والحفظ والحماية والتكريم مع درجة له عليها وقوامته في نطاق الحياة الزوجية لتفوقه ببعض الخصائص . وجعله مسؤولاً عن الاتفاق على الأسرة . مع وصف المرأة بوصف (اهل البيت) ليكون عنواناً على واجباتها الخطيرة في تدبير منزل الزوجية وانجاب الاولاد وتربيتهم . ونتيجة لذلك ظلت المبادرة في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في مختلف الشؤون الخارجة عن البيت بيد الرجل مع استثناءات هامة وهي عدم ممانعة الشرع الاسلامي القرآني والنبوي لنشاط المرأة في مختلف الشؤون وبروز الكثرات من النساء في ذلك .

وكل هذا ما ظلت حالة الرجل والمرأة العربيين عليه في زمن الدولة الاموية ايضاً . وقد حفلت كتب التاريخ والادب باسماء وقصص عدد كبير من النساء اللاتي نشطن وبرزن وشاركن الرجال في مختلف شؤون الحياة من جهادية وعلمية وادبية في هذا الزمن . وهومن الكثرة والتنوع ما يجعل ايراد بعض الامثلة عليه مقللاً من كثرته وتنوعه واتساع نطاقه . ويستطيع المتابع ان يجد نماذج لا تحصى منه في كل مجلد من مجلدات الاغانى فضلاً عن الكتب الدينية والتاريخية والادبية الكثيرة الاخرى .

١٤ - التيارات الفكرية والسياسية



كان زمن الدولة الاموية مسرحاً لتيارات فكرية وسياسية عديدة . منها ما لعب على هذا المسرح ومسارح الدول الاسلامية بعد الدولة الاموية ادواراً خطيرة كان لها آثار بعيدة المدى في حياة وتاريخ العروبة والاسلام . ومنها ما كان نواة نمت وتفرعت بعد الدولة الاموية مع التنبيه الى ان نوى كل هذه التيارات او جلها قد بدت في زمن الخلفاء الراشدين ومنها ما بدا في زمن النبي ﷺ . وفيما يلي سلسلة هذه التيارات :

١ - الخوارج

من اهم هذه التيارات تيار الخوارج الذي بدا شيء منه في زمن النبي ثم في زمن عثمان وعلي ، والذي تطور تطوراً خطيراً في مداه واحدائه وتنوع مذاهبه في زمن الدولة الاموية واستمر طيلة ابامها بقوى حياً حتى يشغل الدولة ويكاد يعصف بها ويخفت حياً نتيجة للضربات التي توجه اليه ، ثم استمر بعدها يقوى حياً ويخفت حياً في الشطر الاول من زمن الدولة العباسية . ثم تجمد ووقف عند حد جماعة من الجماعات التي تفرعت عنه والتي كانت تجنح الى جانب الاعتدال وعرفت بالاباضية وهي لا تزال قائمة متمثلة بامامة عمان في الساحل الشرقي من جزيرة العرب .

ولقد شرحنا اولية وكيفية نشوء هذا التيار والمذاهب التي تفرعت عنه والاحداث الحربية التي كانت بسببه في نبذة الخوارج شرحاً كافياً فلا نرى ضرورة للاعادة او محلاً للزيادة .

وتيار الشيعة كذلك من ايم هذه التيارات. وهو في المدي الذي تركز فيه يعني التحزب والنشيع لآل النبي عامة وعلي بن ابي طالب وابنائهم خاصة والتعلق بهم اليهم والدعوة. بل ان النشيع لعلي وابنائهم وبخاصة الحسن والحسين وذريتهما بل للحسين وذريته هو الطابع الاكثر تميزاً لهذا التيار .

وقد يصح ان يعتبر بدء ظهور هذا التيار في زمن الخلفاء الراشدين متمثلاً بمن كان وظل يتشيع لعلي بن ابي طالب ويعتبره صاحب الحق الاول في خلافة النبي في رئاسة المسلمين ، ثم بمن انحاز إليه بعد ان بايعه جمهور المسلمين في المدينة يعد مقتل عثمان وحارب معه مخالفه مثل طلحة والزبير وعائشة ثم معاوية بن ابي سفيان وحارب معه مخالفه .

ولقد رويت احاديث كثيرة معزوة الى النبي في حق علي وحبه وبغضه ومذاهب الناس فيه والنشيع له وافضلته لخلافة النبي وكونه وصيه وخليفته الخ قد يقال انها تنطوي على فكرة النشيع وكونها . سلبية منها او مرتكزة عليها .

ولقد اوردنا كثيراً من هذه الاحاديث المروية في الجزء السابق ، ونبها الى ان اكثرها غير وثيق السند والصلة برسول الله بحيث يسوغ نفى القول بأن فكرة النشيع متصلة بالتوجيه النبوي وتقرير كونها متصلة بالأحداث التي جرت في زمن الخلفاء الراشدين وبخاصة بعد بيعته علي وخلافه مع عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وما كان بسبيل ذلك من حروب ومجادلات جعلت الفكرة عقيدة او عقدة .

ولقد استمر هذا التيار بعد مقتل علي وصار ابنائه محور متمثلاً بما كان من بيعة اصحاب علي لابنه الحسن ، ولم يخفف تنازل الحسن لمعاوية لأن ما كان من حروب اثناء ذلك الخلاف ظلت تغذي الاحقاد من جهة وتغذي الفكرة من جهة اخرى .

ومن مظاهر ذلك ما روينا في الجزء السابق من استياء الشيعة من تنازل الحسن

ومراجعتهم للحسين ومن تصريح الحسين بأنه هو الآخر تمتع من ذلك ولكن الامر وقد تم فلا مناص من قبوله ما دام معاوية حياً^١ .

وكان مقتضى الفكرة ان علياً وابناءه هم الافضل والاولى من معاوية واسرته . وكان من مظاهر ذلك ان اولياء علي وابنائهم كانوا يتناولون معاوية وحكمه بالتجريح وان معاوية واوليائه وعماله كانوا يتناولون علياً وابناءه بالتجريح . وتجاوز الامر التجريح الكلامي الى العنف فكانت حادثة حجر بن عدي ورفاقه التي روينها في سيرة معاوية فأثارت لهيب الفكرة .

ولقد كان تنازل الحسن لمعاوية ، واتسام خلافة معاوية نتيجة لذلك ونتيجة للبيعة العامة التي حصل عليها بعد ذلك من جهة وسلوكه الحسن السمع الذي سلكه مع الحسن والحسين وبني هاشم من جهة مانعاً بعض الشيء من انجراف هؤلاء في التيار انجرافاً شديداً . فلما جنح معاوية الى تثبيت الملك في اسرته بأخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد وكان الحسن قد مات وآلت زعامة الفكرة الى اخيه الحسين انجراف في تيارها .

ولم يكن التأكيد المتناظر ان صح التعبير يخف في العراق بين اولياء علي وابنائهم من جهة واولياء معاوية وولاته وعماله من جهة اخرى . فلم يكد معاوية بموت حتى انفجر لهيب التيار بما كان من تثبيت الحسين امراً بنفسه وامتناعه عن مبايعة يزيد بولاية العهد ثم بالخلافة ومن الحاح اولياء علي وابنائهم في العراق على الحسين بالقدوم اليهم وبعضهم يبيعهم اليه .

وما توالى من الاحداث التي بلغت ذروتها بقتل الحسين ثم في ثارات الحسين وما اريق من دماء وثار من احقاد وعواطف وشجون ، مما شرحناه في نبذتي عمرة الحسين وثارته بحيث يمكن ان يقال ان تيار الشيعة قد تبلور بقوته ومداه بهذه الحادثة المشؤومة وثارته . واستمر يعمل عمله طيلة بقية زمن الدولة الاموية ، وكان من مظاهره الدعوة الى محمد بن علي المعروف

(١) روى هذا ابن قتيبة في الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥١ .

باب الحنفية وحركة المختار ابن ابي عبيد الذي تبناها او تستورها وحركات زيد بن علي بن الحسين ويحيى بن زيد وعبد الله بن معاوية بن جعفر ثم الدعوة العباسية التي كان من حظها النجاح والحلول محل الدولة الاموية، على ما شرحناه في نبذ سابقة وعلقنا عليه بما فيه الكفاية.

وننبه على امر هام في صدد صلة الدعوة العباسية بالتيار، فان هذا التيار انما كان ودار حول علي وابنائهم بل وابنائهم من فاطمة رضي الله عنهم اجمعين بنوع خاص، ولم يدور حول بني العباس ولم تقسم دولتهم بسمه، وكان الشيعة ضدهم، وقامت حركات عديدة في زمنهم تحت زعامة ابناء فاطمة بسبيل انتزاع السلطان منهم.

وكان العباسيون يحاجون في حقهم بالامر اكثر من بني علي لانهم ابناء عم النبي الاحق بالارث من ابناء بنته في سياق التشاد والتجاذب اللذين قاما واشتدا بينهم وبين الشيعة وابناء علي على ما سوف نشرحه في الجزء الذي سنعقده على تاريخ الدولة العباسية ان شاء الله.

ولعل ما روينا عن ابن قتيبة في نبذة الحركة العباسية من ان الشيعة قد بايعوا محمداً ابن الحنفية وان هذا استخلف ابنه ابا هشام وان هذا استخلف محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس بعده كان يساق في سياق هذا التشاد والتجاذب لاجباط دعوى الشيعة ودعوتهم الى ابناء فاطمة وانكارهم شرعية السلطان العباسي.

وانتد تفروع عن التيار فروع عديدة ومقالات متنوعة متصلة بالذاهب الكلامية. واتسم اكثرها بسمه الغاوي الذي ليس له سند من دين ومنطق وحق ونقل والذي يصل الى حد انكار نبوة محمد. ودعوى غلط جبريل في نزوله بالقرآن على محمد بدلا من علي، والوهية علي وحلول الله سبحانه في الأئمة من ابناءه، ونبوتهم وعصمتهم والوهيتهم. وتكفير ابي بكر وعمر وعثمان وسائر اصحاب رسول الله لتواطئهم على غصب حق علي بالخلافة الذي قرره النبي بأمر الله باستثناء بضعة عشر منهم كانوا شيعة علي، وعدم شرعية سلطان وامامة اي كان غير امامة علي وابنائهم. وعدم جواز تلقي الاحاديث والدين والتفسير من غير الأئمة من ابناءه، وتكفير كل من لا يعترف بذلك واختفاء الامام الثاني عشر او السابع او محمداً بن علي بن الحنفية في غار حياً مرزوقاً الى ان يحين الوقت لخروجه.

ومعظم هذه التفرعات والمقالات تبلورت في زمن الدولة العباسية. أما ما كان من مقالات قال بها الشيعة في زمن الدولة الاموية فأبرزه القول بالارادة الانسانية ومسؤولية الانسان عن عمله نتيجة لذلك . ويعزو الشيعة هذا القول الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، يروون مساجلة جرت بينه وبين احد رجاله بعد انصرافه في صدد ما وقع بين المسلمين فقال : (ان الله قد امر بتحيراً ونهى تحذيراً ، ولم يكلف جبراً ولا بعث الانبياء عبثاً) ١ .

وقد تكون رواية هذه المساجلة صحيحة ، وقد لا تكون . والكلام ما يؤيده في القرآن والاحاديث . الا انه يلمح في هذا المذهب انه معاكس لمذهب كلامي آخر يقول : ان كل اعمال الانسان مقدره من الله . وان هذا وذاك كانا متصلين بالموقف الحزبي بين الشيعة واولياء بني امية الذين كانوا يقررون وجوب الرضوخ للامر الواقع من سلطان بني امية لان ذلك تقدير رباني بينما كان الشيعة يقررون مسؤولية الامويين عما وقع ووجوب الجهاد ضدهم لتغييره بحيث يمكن ان يقال ان هذا المذهب الكلامي كان اوصار تكأة النشاط السياسي الشيعي ضد الدولة الاموية .

ونبه على ان الشيعيين يلتقون في هذا القول او المذهب وفي عامله او نظريته مع الخوارج حيث كان هؤلاء يقولون به وكان من مستندات نظرياتهم وحواجز نشاطهم ضد السلطات الاموية على ما ذكرناه في نبذتهم .

ومن فروع الشيعة التي ظهرت في زمن الدولة الاموية . (فرع الكيسانية) نسبة الى كيسان الذي قيل انه اسم مولى للامام علي كما قيل انه اسم ثان للمختار ابن ابي عبيد . ودعوة هذا الفرع هي الى امامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية . وقد حمل هذه الدعوة المختار بن ابي عبيد زاعماً انه مكلف بذلك منه ، مع ان هذا الزعم بقي مانعاً بدووث

(١) تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ عزوا الى كتاب طبقات المعتزلة .

ثبت ولا تأيد على ما شرحناه في نبذة المختار .

غير ان الامر تعدى المختار حيث يروى انه كان جماعة من الناس يعتقدون بامامة محمد مع اختلافهم فيما بينهم في سببها حيث زعم بعضهم انه الامام بعد ابيه مستدلاً على ذلك بأن اباه دفع اليه الراية يوم الجمل وقال له :

اطعن بها طعن ابيك محمد لا خير في الحرب اذا لم تربد^١

وحيث زعم بعضهم ان الامامة صارت اليه بوصية من الحسين^٢ اخيه .

وهناك الروايات التي يرويها اليعقوبي وابن قتيبة والتي اوردها في نبذة الحركة العباسية والتي تذكر أن شيعة مكة والمدينة واليمن والكوفة وخراسان اجتمعوا عليه بعد تنازل الحسن لمعاوية وباعوه وقبل منهم البيعة ثم وصى بالامامة بعده الى ابنه ابي هاشم وان هذا استخلف محمداً بن علي بن عبد الله بن عباس .

ولقد اختلف الكيسانيون ايضاً في مصير محمد ، فمنهم من ذهب الى انه لم يميت وانه حي مرزوق في جبل رضوى وانه المهدي المنتظر وسيخرج لممارسة امامته في الوقت المعين في علم الله . ومنهم من قال بما ذكره اليعقوبي وابن قتيبة من استخلافه لابنه واستخلاف هذا لمحمد بن علي العباسي . وهناك من ذهب الى انه لما استخلف ابن اخيه زين العابدين علياً .

ومن الذين نسبوا الى الكيسانية من عصر الدولة الاموية الشاعر المشهور كثير حيث يروى له هذه الابيات التي تتمثل فيها عقيدة حياة محمد بن علي ووجوده في جبل رضوى :

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق اربعة سواء
علي والثلاثة من بنيه	هم الاسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر	وسبط غيبته كربلاء

(٢-١) الفرق بين الفرق للبغدادي ٣٥ - ٣٦ .

وسبط لا تراه العين حتى يقود الحبل يتبعها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً يرضوى عنده غسل وماء

وتذكر الروايات كذلك اسم عامر وائلة الكناني كصاحب له سار بين يديه حينما فر
من ابن الزبير قاصداً عبد الملك بن مروان وقال هذه الايات :

يا اخوتي يا شعبي لا تبعدوا ووازرنا المهدي كيما تهتدوا
محمد الخيرات يا محمد انت الامام الطاهر المسدد
اسد لابن الزبير السامري الملحد ولا الذي نحن اليه نقصد

وتنعت الروايات الشاعر المعروف بالسيد الحميري بالكنيسانية على المذهب القائل بأن
محمدًا حي في جبل رضوى وتروى له هذه الايات :

ألا قل المصبي فدتك نفسي اطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا ومبرك الخليفة والاماما
وعادوا فيك اهل الارض طراً مقامك عندهم ستين عامما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له ارض عظاما
اقدامسى بجري شعب رضوى تراجع الملائكة الكلاما
وان له لورقاً من طعام واشربة تغذيه الطعاما

والشاعر الحميري توفي سنة ١٧٣ هـ اي بعد انقراض الدولة الاموية باربعين عاماً^١
ولكنه كان شاعراً معروفاً في زمن هذه الدولة على ما يستفاد من رواية رواها الاغانى
وجاء فيها قول للفرزدق عنه وهو : (ان ههنا لرجلين لو اخذا في معنى الناس لما كنا
معها في شيء وهما السيد الحميري وعمران بن حطان . ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد
منها بالقول في مذهبه) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٦١ .

وواضح اذا صحت الرواية ان السيد الحميري كان يعتنق مذهب الكيساني في زمن الدولة الاموية . وفي الاغانى قصيدة له فيها اشارة الى مذهب . ويروي المؤلف انها آخر قصيدة قالها حيث يفيد انه ظل على مذهب الى مماته^١ .

والمستفاد من سياق البغدادي ان للنحلة الكيسانية مذهباً من المذاهب الكلامية . وهو جواز البداء على الله عز وجل أي رجوع الله عن امر كان امر به ثم بدله ان يرجع عنه^٢ .

ومن فروع او تفرعات التيار الشيعي التي يرجع اصلها الى عهد الدولة الاموية (الزيدية) نسبة الى زيد بن علي بن ابي طالب الذي خرج في عهد هشام وقبض عليه وشنقه . وقد شرحنا قصته في نبذة خاصة فلا نرى ضرورة للاعادة . واصحاب هذا المذهب يشترطون في الامام الذي يدعون بامامته ان يكون من نسل علي وان يكون الى هذا عالماً مجتهداً وقادراً على الجهاد ومجاهداً . ومن مذهبهم الذي يتسم بسمه المذاهب الكلامية خلود اهل الكبار في النار^٣ .

وهناك تعبير يرادف عند السنين كلمة شيعة وهو كلمة (رافضة) حيث ينعت السنين الشيعة بها وجمعها روافض ونسبتها رافضي . واصل ذلك نعت نعت به زيد بن علي الجماعة الذين نقضوا بيعته . ورفضوه لانه لم يتبرأ من ابي بكر وعمر وقال انه لم يسمع عنها من

(١) مما جاء في هذه القصيدة :

تضمنه بطيبة بطن لحد	يغيب عنهم حتى يقولوا
بشعب بين انمار وامد	سين واشهر وأويرى برضوى
وحقان تروح خلال ربد	مقيم بين آرام وعين

انظر المجلد السابع من الاغانى والسيد الحميري الى هذا شيعي هاشمي علوي له قصائد في مدح علي والحسين وبنو العباس وذم خصومهم والتبرؤ من ابي بكر وغيرهم من اصحاب رسول الله .

(٢) انظر ما اورده عن الكيسانية وشعر الشعراء في الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٥-٥١ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٣٠-٣٢ .

آله إلا خيراً وانها وليا فعديلاً. وان قصارى امرهما انها امتانرا بالسلطان بعد النبي دون آله
وهم احق به منهم على ما روينا في نبذة خروجه . فصارت الكلمة تطلق على الشيعيين
الذين يتبرأون من ابي بكر وعمر وهم معظم الشيعيين. ومقتضى المذهب الزيدي والحالة
هذه جواز امامة المفضول وعدم التقيد بالتسلسل التولدي . وجواز اختيار اي شخص
من نسل علي للإمامة اذا كان مجتهداً مجاهداً . وهذا خلاف ما عليه الشيعة الامامية والشيعة
الاسماعيلية من التقيد بالبكر والتسلسل العمودي فيه على ما سوف نشرحه في الجزء الخاص
بالدولة العباسية لان معظم فروع ومقالات الشيعة تبلورت في عهد هذه الدولة .

ومن الفكر الشيعية فكرة (المهدوية) وهي الاعتقاد بظهور شخص من آل بيت النبي
يحكم فيملاً الارض عدلاً كما ملئت جوراً ، ومستند هذه الفكرة بعض احاديث مروية عن
النبي ﷺ منها حديث رواه الترمذي عن ابي سعيد الخدري قال : (غشنا ان يكون بعد
نبينا حدث فسالنا نبي الله فقال إن في امتي المهدي يخرج يعيش خمساً او سبعا او تسعاً قلنا
وما ذاك قال سنين ، قال فيجيء اليه الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيحشي له في ثوبه ما
استطاع ان يحمله)^١ .

وحديث رواه الترمذي وابو داود عن عبد الله عن النبي قال : (لو لم يبق من الدنيا الا
يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً مني او من اهل بيتي يواطىء اسمه اسمي وامم
ابيه اسم ابي بلاء الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً)^٢ .

وحديث رواه الحاكم وابو داود عن ابي سعيد قال : (قال النبي ﷺ المهدي مني اجلى
الجهة اقنى الأنف . يملأ الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ويملك سبع سنين)^٣ .

وحديث رواه الحاكم وابو داود ايضاً عن ام سلمة عن النبي ﷺ قال : (المهدي من
عتوتي من ولد فاطمة)^٤ .

(١-٤) كتاب اثناسيوس الجامع للاصول في احاديث الرسول ج ٣ ص ٣١١-٣١٢ .

ولقد تعدد الاشخاص الذين خرجوا في زمن الدولة العباسية باسم المهدي من نسل علي وفاطمة رضي الله عنهما مما سوف يأتي بيان عنه في الجزء المعقود على تاريخ هذه الدولة ومما يدل على ان بعض ابناء علي وفاطمة وشيعتهم كانوا يستوحون هذه الاحاديث بسبيل الدعوة المهدوية والخروج بسبيلها وعلى ان الفكرة ظلت تعمل عملها من آن لآخر. وتجد لها من من يندمج فيها دعوة واستجابة . واعمل هذا كان وسيظل حافزاً لتنقيس عن كبت او للانطلاق وراء الطموح والمغامرة ايضاً .

وقد يدل نعت محمد بن علي بالمهدي في شعر عامر بن وائلة الذي اوردها قبل قليل ثم من قبل المختار بن عبيد الله وفي الكتاب الذي ابرزه هذا لاراهيم بن الاشر من محمد والذي يصف نفسه فيه بالمهدي على ما ذكرناه في نبذة المختار على ان الفكرة اخذت تظهر في زمن الدولة الاموية .

ولقد أثر بيت من الشعر عن كثير ينعت فيه محمداً بالمهدي عزواً الى كعب الأخبار وهو :

هو المهدي خبرناه كعب
أخو الاخبار في الحقب الخوالي
بما يدعم ما قلناه .

٣ - المعتزلة

ومن نارات التي بدأ ظهورها في زمن الدولة الاموية مذهب الاعتزال المعتزلة. والتسميتان من اصحاب المذهب المعاكسة لاصحاب هذا المذهب. اما اصحاب هذا المذهب فيسمون انفسهم بأهل العدل والتوحيد اقتباساً من مضمون مقالاتهم . وينسب هذا المذهب الى عالم اسمه واصل ابن عاء الذي كان تلميذاً لعالم آخر مشهور هو الحسن البصري . وقد خالف استاذة في مسألة القدر وفي المنزلة بين المنزلتين واعتزل خلقه . وتابعه صاحب له اسمه عمرو بن عبيد فليل لها ولاتباعها معتزلة على ما ذكره البغدادي .

وكان هذا في اواسط عهد الدولة الاموية . ومن مذهبهم ان الفاسق لا هو كافر ولا هو مؤمن - وهذا معنى منوثة بين منولتين - وان مرتكب الكبائر الذين يتوتون بدوس توبة مخلدون في النار . وان الله ان قادر بعقوبة على معرفة الحسن والتيسير والاختيار بينهم وانه خالق افعاله . وان ثوابه وعقابه عليها حق وعدل . وان الله غير خالق لافعال مخلوقاته وانما تفعل افعالها بارادتها وكسبها وليس ذلك صنع الله وتقديره عليها . وقد وصف اصحاب هذا المذهب بالقدرية بسبب مقالاتهم هذه .

ومن مقالاتهم انه ليس لله صفات خارجة عن ذاته لان ذلك يعني التعدد في حق الله . ومن نتائج ذلك استحالة رؤية الله وعدم ازالة القرآن . ومنها خلافهم للحسن البصري الذي كان يقول في صدد ما وقع من خلاف وحروب بين اصحاب رسول الله (علي وطلحة والزبير وعائشة ومعوية واصحابهم) تلك دماء طهر الله منها اميافنا فلا تطلع بها السنننا في حين كانوا يقولون ان من الصحابة من اخطأ ومنهم من اصاب وان اخطئ مسؤول عن خطيئه ومعذب في النار بسببه ^١ .

ويلمح تطابق بين مقالات المعتزلة ومقالات الخوارج والشيعة معاً . ولقد كان واصل وعمر بن عبيد من الموالي ، وكان الموالي يوالون المتعديين على الدولة الاموية ويندجون معهم كعماراً الى ذلك سبيلا على ما روينا في نبذ سابقة حيث يلمح ان تبرير التمرد وتقرير مسؤولية بني امية والرغبة في تغيير واقع سلطانهم من مستندات او حوافز مقالات المعتزلة اسوة بمقالات الخوارج والشيعة المتسمة بسمة المذاهب الكلامية مقابل المقالات التي كانت تساق لتبرير واقع الامويين على اعتبار انه قدر لا مندوحة عنه .

وتروي الروايات الى جانب اسمي واصل وعمر اسماء اخرى في صدد اولوية القول بالقدر بصيغة مماثلة لقولها حيث روت ان اول من تكلم بالقدر في زمن الدولة الاموية رجل من اهل العراق كان نصرانياً فاسلم ثم تنصر . وعنه اخذ معبد الجهني الذي كان من

(١) الفرق بين الفرق ص ٩٥ - ١٠٠ وفجر الاسلام ص ٣٣٨ - ٣٤٨ .

المنضويين الى حركة ابن الاشعث وقد قتله الحجاج فيمن قتله من هؤلاء . ومن اشتهر بالقدرية في زمن الامويين غيلان الدمشقي . وقد قبض عليه هشام بن عبد الملك وامر بقطع يديه ورجليه وصلبه بعد ذلك ، وكان له اتباع آخرون ومنهم عمر بن شراحيل فنفاهم الى دمشق على ما روينا في سيرتي هشام والوليد بن يزيد . حيث يبدو ان نطاق هذا المذهب الذي كان مناقضاً لمصلحة وواقع الامويين قد اتسع وان اتساعه قد يكون نتيجة لاتساع نطاق الدعوة العباسية في زمن هشام لانه متطابق كما قلنا مع ما اعتنقه شيعة الهاشمين من عدم جواز الرضاء بالواقع الاموي ووجوب تغييره ^١ .

ولقد روينا في سيرة يزيد بن الوليد انه كان ممن يعتقدون هذا المذهب وانه اخذ بعض زعمائه مستشارين له وهم الذين الحوا عليه بتسمية وليي عهده . ويزيد هو الذي ثار على الوليد ابن يزيد وقتله حيث يلمح احتمال الصلة بين اعتناقه المذهب وثورته على الوليد . ويكرت مذوده عن سائر بني امية انسجاماً مع واقعه .

وننبه على ان مقالات المعتزلة قد تركزت حتى صارت مذهباً خطيراً من المذاهب الاسلامية في زمن الدولة العباسية . وكان من نتائجها قضية خلق القرآن وازايمته لعدة ذلك بصفات الله واضطهاد الذين لم يقولوا بخلق القرآن مما سوف نبسطه في الجزء المنقود على تاريخ هذه الدولة .

٤ - الجبرية والمرجئة

ومن التيارات التي بدأ ظهورها على مسرح الدولة الاموية كذلك الجبر والازجاء . ومع انها ذوا معنيين مختلفين بعض الشيء فان الروايات تمزج بينهما . وهذا ما جعلنا نوردهما بمترجين كذلك .

(١) فجر الاسلام ص ٣٤٠ عزوا الى سرح العميون لان نباتة وانظر الفرق بين الفرق ص ٩٧

وتاريخ الاسلام السياسي حسن ابراهيم ج ٢ ص ٣٢٧-٣٣٠ .

والجبر مذهب القائلين بأن الانسان مجبور على افعاله لا خيار له ولا قدرة . وأنه لا يستطيع ان يعمل غير ما عمل وان الله قدر عليه اعمالاً لا بد من ان تصدر منه . وان الله يخلق فيه افعاله كما يخلق حرركات الجراد .

اما الارزاء فهو مذهب القائلين بعدم التلازم بين الايمان والعمل وايسكال امر المؤمن الذي لا عمل له الى الله ان شاء عذبه وان شاء تاب عليه استناداً الى هذه الآية من سورة التوبة : (وآخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم حكيم ١٠٦) .

وينبع انسجام ما بين الجبر والارزاء ولعل هذا هو الذي جعل مؤلفي اخبار "مرف" يمزجون بينها . فإدام الانسان مجبوراً على عمله فينبغي ان يكون امر عذابه وعدم عذابه على ما يصدر منه من ذنوب موكولاً الى الله تعالى .

ولقد ذكر اسم جهنم بن صفوان الذي عاش ومات في زمن الدولة الاموية كأول من قال بالجبر والارزاء معاً ونسب المذهب اليه فسميا المذهب الجهمي . وقد كان جهنم كاتباً او وزيراً للحارث بن سريج الذي روينا خبر حركة تمردية له في نبذة الخوارج . وقد اسر وقتل سنة ١٢٨ هـ ومن ذكرتهم الروايات من القائلين بالمذهب الجهمي في زمن الدولة الاموية الجعد بن درهم الذي كان مؤدب مروان الثاني وعداه بمذهب حتى لقد لقب به فقلاً . مروان الجعدي على ما ذكرناه في سيرة مروان المذكور .

ويلحظ ان المذهب الجهمي مناقض لمذهب المعتزلة والخوارج والشيعة . وموافق لمصلحة الامويين الذين من المعقول ان يكونوا من المشجعين على بئس لاجباط ذلك المذهب المنافي لمصلحتهم . ولذلك نشك في ان يكون جهنم هو اول من قال بهذه الاقوال كما اتنا نرجح ان القائلين بها كثيرون . وانهم كانوا في مختلف ادوار بني امية .

ولقد رأينا الدكتور حسن ابراهيم في كتابه تاريخ الاسلام السياسي يلمح ذلك ويقول ان اصحاب هذه الاقوال هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني امية مخالفين

في ذلك الشيعة والخوارج وان آراءهم كانت متفقة مع آراء البلاط الاموي ومن يلوذ به ^١.
ولقد روى الاصفهاني في كتابه الاغانى ^٢ مقطوعة شعرية لشاعر اسمه ثابت بن قطنه
كان في صحبة يزيد بن المهلب في خراسان وصفها الدكتور حسن ابراهيم بأنها وثيقة تاريخية
قيمة في توضيح مذهب الارجاء والجبر وهو وصف صائب وهذه هي :

يا هند فاستمعي لي ان سيرتنا	ان نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الامور اذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار او عندا
المسلمون على الاسلام كلهم	والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا ارى ان ذنباً بالغ احداً	م الناس شر كما اذا ما وحدوا الصندا
ولا نسفك الدم الا ان يراد بنا	سفك للدماء طريقاً واحداً جددا
من يتق الله في الدنيا فان له	اجر التقى إذا وفى الحساب غدا
وما قضى الله من امر فليس له	رد وما يقض من شيء يكن رسدا
كل الخوارج مخطئ في مقالته	ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فانهما	عبدا لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا	شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزي علياً وعثماناً بسعيها	ولست ادري بحق آية وردا
الله يعلم ماذا يحضرات به	وكل عبد سيلقى الله منفردا

وقد يؤيد هذا صحة ما قلناه وما لحه الدكتور حسن ابراهيم من ان المقتضى ظهور

(١) ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) المجلد الثالث عشر اخبار ثابت بن قطنه وما يرويه مؤلف الاغانى في سياق القصيدة انه شهد مجلساً
يتجادل فيه قوم من الشراة «الخوارج» مع قوم من المرجئة قال الى المرجئة ونظم هذه القصيدة .

مقالات هذا المذهب البكر من وقت بروز جهنم بن صفوان وكون القائلين به جماعة كبيرة .
ولقد اوردنا قبل قولاً للحسن البصري عالم البصرة في صدد ما كان بين اصحاب رسول الله ،
وهو منسجم مع هذا المذهب وفي هذا تأييد آخر .

وننبه على انه ينسب الى جهنم مقالات اخرى متطابقة مع مقالات المعتزلة ايضاً مثل
نفيه ان يكون لله صفات غير ذاته وقوله ان ما ورد من هذه الصفات في القرآن يجب تأويله
لأن في اخذه على ظاهره تشبيهاً لله بالخلق . وانكاره نتيجة لذلك رؤية الله . وقدم القرآن
وكونه كلام الله في حقيقته لأن صفة الكلام على حقيقتها صفة الخلق التي لا يجوز وصف
الله بها .

والمذهب الجهمي تطور وتشعب وصار له فروع متباينة في بعض الاقوال بعد الدولة
الاموية مما سوف يكون الكلام فيه في الجزء المعقود لتاريخ الدولة العباسية ^١ .

ويلمح من سياق احمد امين في فجر الاسلام حول هذه الفرق والمقالات انه يرى انها
لا تخلو من اثر المذاهب المسيحية والفلسفة اليونانية . ويلاحظ لنا ان ذلك قد يكون صحيحاً في
المرحلة الثانية التي تركزت وتبلورت وتشعبت فيها وبعبارة اخرى في زمن الدولة العباسية
الذي تدوولت فيه وتوجمت كتب المقالات المسيحية واليونانية الى العربية .

ونرجح ان الافكار والمقاصد السياسية كانت باعث هذه المقالات الاولى في زمن الدولة
الاموية ، مع التنبيه مع ذلك الى ان نواة بعض هذه المقالات ظهرت في زمن النبي والخلفاء
الراشدين على ما تدل عليه بعض الاحاديث والاحداث التي اوردناها في الجزء السابق ، ثم
ان كل قائل لقول حاول ان يجد في القرآن ما يؤيد قوله بقطع النظر عما يمكن ان

(١) انظر لمذهب الجبر والارجاء الفرق بين الفرق ص ١٢٢-١٣٢ وفجر الاسلام ٣٤٢ - ٣٤٣
وتاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص ٣٢٧ .

يكون في المحاولة من تجوز وتمحل وبعد عن مقاصد القرآن مما نهىنا عليه في اماكن كثيرة من كتابنا التفسير الحديث .

٥ - غلاة العقائد

بالاضافة الى ما تقدم فهاك جماعات غلت في عقائدها حتى خرجت عن نطاق الاسلام ، ومعظمها بل كلها متطورة عن العقائد الشيعية . ومعظم مقالاتها تبلورت في زمن الدولة العباسية . غير ان من ذلك ما بدأ وظهر في زمن الدولة الاموية .

فمنها السبئية اتباع عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ذكرنا خبره في الجزء السابق وكان يقول بوصاية الامام علي ثم صار يقول بالوهيته وبرغم ما كان من شدة الامام ضد اصحاب هذه العقيدة فقد ظل جماعته يقولون بها بعده ايضاً . وكان من مزاعمهم انه لم يقتل وانما شبه به ثم صعد الى السماء كما كان شأن عيسى . وانه في السحاب ، وان الرعد صوته ، والبرق سوطه ^١ . وقد التفوا حول المختار بن ابي عبيد الثقفي وأيدوه في دعوى النبوة والوحي وصاروا سدنة كرسيه على ما ذكرنا في نبذته .

منهم البيانية وهم اتباع بيان بن سمعان التميمي ، وكان بيان يقول بامامة محمد بن علي ابن الحنفية ثم بامامة ابنه ابي هاشم بعده بوصية من ابيه ثم بامامته نفسه بوصية من ابي هاشم ، ووصل الامر باتباعه الى الاعتقاد بنبوته ونسخه لشريعة محمد ﷺ ، ومنهم من اعتقد بالوهيته . وقد رفع خبر بيان الى خالد بن عبد الله القسري والي العراق فأخذه وصلبه ^٢ .

ومنهم المغيرية اتباع المغيرة بن سعيد العجلي ، وكان يظهر في اول امره الولاء لاهل

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ١٤٢-١٤٤ .

(٢) المصدر السابق ذكره ص ١٤٥-١٤٦ .

البيت ويبشر بظهور المهدي في شخص محمد بن عبد الله بن الحسن الذي ادعى المهدوية وخرج فعلاً في أوائل الدولة العباسية ، ثم غلا - أي المغيرة - فادعى النبوة والعلم باسم الله الأعظم وصار يفسر القرآن بهواه فاستهوى جماعة آمنّت به ، وسمع به خالد القسري فأخذه وصلبه ايضاً ^١ .

ومنهم المنصورية اتباع ابي منصور العجلي ، وكان موالياً لعلي وابنائه . ثم غلا فأنكر اليوم الآخر وأول الجنة بنعيم الدنيا والنار بمنحها ، فاستهوى جماعة فأمنّت به . وسمع به والي العراق يوسف بن عمر فأخذه وصلبه ^٢ .

ومنهم الجناحية الحلولية وكانوا اتباع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي خرج في زمن مروان بن محمد سنة ١٢٧ على ما ذكرناه في نبذة خاصة ، وقد غلوا فقالوا ان روح الاله حلت في آدم ثم في شيث ثم في الانبياء ثم في علي وابنائه الثلاثة ثم في صاحبهم معاوية ، ولما قتل في خراسان انكروا موته وزعموا انه حي ، ومما ينسب اليهم تأويلهم القرآن وانكارهم اليوم الآخر واستحلالهم الخمر والميتة والزنا والمحرمات واسقاطهم العبادات ، وتأويلهم العبادات بوالاة اهل البيت والمحرمات ببغض ابي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم .

ومنهم التناسخية وهم القائلون بنحول الاحياء او الارواح من صورة الى صورة . ويروى ان كثيراً الشاعر كان يقول بالاضافة الى عقيدته بامامة ومهدوية محمد بن الحنفية ووجوده حياً بالتناسخ ايضاً ويستدل على ذلك بالفقرة القرآنية (في اي صورة ما شاء ركبك) ويقول الاترون انه حوله من صورة الى صورة ! ^٣ .

(١) ١٤٧-١٤٨ . (٢) ١٥٢ .

(٣) الفرق بين الفرق من ١٦٤-١٦٥ والاغاني اخبار كثير الشاعر .

٦ - مذهب السنة والجماعة

ان التيارات التي ذكرناها في هذه النبذة مضافاً إليها تيار الخوارج الذي سلكناه في سلكها وفصلناه في نبذة الخوارج هي تيارات جماعات من المسلمين ، ولا تمثل جمهورهم الاكبر ، وهذا ظاهر من سير الاحداث التي روينها في نبذة الخوارج والحركات التمردية والهاشمية .

ومؤلفو كتب الفرق الاسلامية والملل والنحل يذكرون الفرق الاسلامية التي ذكرناها وما تفرع عنها بما يفيد انها فرق شاذة بحيث يمكن القول ببناء على ذلك ان جمهور المسلمين الاكبر في زمن الدولة الاموية كان ينضوي تحت لواء الجماعة الاسلامية الكبرى دونما شذوذ ولا تمرد ولا شعب امتداداً لموقف الجمهور الاكبر في زمن الخلفاء الراشدين . وهذا الموقف هو الذي اشتهر بعنوان (اهل السنة والجماعة) وكل ما في الامر ان هذا الاسم صار يذكر بعد الدولة الاموية عنواناً ووصفاً للجمهور الاعظم من المسلمين وصار مذهب معظم علماء المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم في مختلف العصور الاسلامية .

ويتلخص هذا المذهب بالتزام الاعتدال في التأويل والاخذ بالصرح المحكم من كلام الله . رسوله وايسكال المتشابه من نصوص القرآن لعلم الله والقول : (آمنا به كل من عند ربنا) والوقوف عند ما جاء في القرآن من صفات الله تعالى وما اخبر به عن نفسه وعدم الخوض في الكيفيات والتزام السنة النبوية الصحيحة . ثم التزام جماعة المسلمين وعدم الافتراق عنها بمقالات وحركات ومواقف شاذة ، واحترام جميع اصحاب رسول الله وعدم تجريع احد منهم بسبب ما كان من خلاف بينهم لأن امره مضى وانقضى والحكم فيه لله . وهم خير قرون الاسلام بنص حديث نبوي صحيح .

والحسن البصري الذي رويناه عنه قوله عن ما كان بين اصحاب رسول الله هو من اعلام هذا المذهب في زمن الدولة الاموية ، وهناك عدد عظيم من اعلام علماء المسلمين عاشوا في زمن الدولة الاموية من اصحاب وتابعين كانوا على هذا المذهب ويصح ان يسموا بأهل السنة والجماعة منهم سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ومجاهد وفتادة ومقاتل وعكرمة وعطاء بن

يسار وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر والمسور بن مخرمة الزهري والسائب بن يزيد وعروة بن الزبير وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين وعبد الرحمن بن حاطب وإبراهيم النخعي وأبو سامة بن عبد الرحمن ومحمد بن كعب ونافع مولى عبد الله بن عمر وسعيد بن يسار ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ومكحول الدمشقي وسالم بن عبد الله بن عمر وعاصم بن عمر بن قتادة ومحمد بن أبي بكر بن حزم وعبد الملك بن عمر الليثي وصالح بن كيسان وأبو الزناد عبد الرحمن بن زكوان وإبراهيم بن ميسرة وعبد الله بن أبي نجیح وحامد بن سليمان ويزيد بن الأصم وعبد الله بن مسعود وأبو هريرة وغيرهم وغيرهم رضي الله عنهم ورحمهم^١ .

(١) حرص اليعقوبي على إيراد أسماء الفقهاء والعلماء في زمن كل خليفة من الخلفاء الأمويين ، وهذه الأسماء منقولة عنه ، وليس أحد من أصحاب هذه الأسماء مذكور في سياق أخبار أصحاب المقالات والتيارات بحيث يبدو صواب ذهائنا من أنهم من علماء أهل السنة والجماعة .

١٥ - الحركة العلمية

٢ - القراءة والكتابة والخط العربي

لقد محصنا في الجزء الخامس ماروي في صدد القراءة والكتابة والخط العربي قبل الاسلام وانهينا على ضوء ما تألم نصوص القرآن والآثار النقشية المكتشفة في اليمن ومدائن صالح والعلا والصفاء الى تقرير كون القراءة والكتابة بالخط العربي كانتا منتشرتين بقياس غير يسير بين العرب قبل الاسلام وبخاصة بين اهل المدن والقرى في مختلف انحاء الجزيرة واطرافها .

وروايات وأحداث السيرة النبوية وعهد الخلفاء الراشدين تساعد على القول ان نطاق ذلك قد اتسع كثيراً سواء أكان بين العرب في الجزيرة العربية أم بين الذين أموا منهم البلاد المجاورة في سياق حركة الفتح واستقروا فيها .

ولقد روى ابن هشام^١ ان والد الحجاج كان صاحب كتاب لتعليم الاطفال في الطائف . والحجاج ولد بعد وفاة النبي ﷺ بسنين . وهذه الرواية والحالة هذه تعني ان العرب كانوا بدأوا في زمن النبي على الاقل يعلمون اولادهم القراءة والكتابة في مدارس . والمتبادر ان نطاق ذلك قد اتسع في زمن الخلفاء الراشدين ثم اتسع اكثر في زمن الدولة الاموية لان اتساع نطاق القراءة والكتابة في الزمنين على ما تؤيده المأثورات الكثيرة لا يمكن ان يكون

(١) ج ٢ ص ٢٧-٢٨

إلا نتيجة لمثل هذه الوسيلة .

وهناك مآثرات تفيد ان خلفاء بني أمية كانوا يعينون مؤدبين لاولادهم بما مر منه أمثلة في سيرة بعضهم ^١ . غير ان هذا ليس من شأنه نفي وجود هذه الوسيلة بمقياس واسع كما هو واضح .

وهناك مآثرات تفيد ان بعض النساء في زمن النبي كن يقرأن ويكتبن . والمتبادر ان نطاق ذلك اتسع في زمن الخلفاء الراشدين ثم في زمن الدولة الاموية .

٢ - العلوم الشرعية

كان المسلمون يتلقون هذه العلوم في زمن النبي ﷺ منه ويرجعون اليه فيها . غير ان بعضهم اخذ يتميز عن بعض بحيث يسوغ ان يقال انهم صاروا اصلا او نواة للفقهاء او لعلماء الشريعة . وهناك حديث يرويه البخاري عن النبي فيه تأييد لذلك جاء فيه (ارحم امتي بأمتي ابو بكر واشدهم في دين الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم علي وأعلمهم بالحلل والحرام معاذ وأفرضهم - أي أعلم بالفرائض والمواريث - زيد بن ثابت وأقرأهم لكتاب الله ابي بن كعب ولكل أمة أمين وأمين هذه الامة ابو عبيدة بن الجراح) .

والمتبادر ان نطاق هذا التميز قد اتسع في زمن الخلفاء الراشدين ثم في زمن الدولة الاموية حيث صارت الحاجة ماسة لرواية كيفية تلاوة القرآن واحاديث رسول الله ما روي عن النبي وكبار اصحابه من تفسيرات لآيات القرآن . واستنباط الاحكام من القرآن والحديث فنشأ ما يسمى بعلوم القراءات والتفسير والحديث والفقه . وصار يتميز في كل منها بعض اصحاب رسول الله وتابعيهم الذين عاشوا في عهد الدولة الاموية .

ففي القراءات

كان بعض اصحاب رسول الله مثل أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود يتفايرون في كيفية

١ انظر رتايخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٩٢ وما بعدها

تلاوة القرآن وقراءة بعض الالفاظ والحروف . وصار لكل منهم اتباع مقلدون فأدى ذلك الى نشوء ما عرف بعلم القراءات . وقد اشتهر في هذا العلم سبعة من التابعين عاشوا في العهد الاموي وصار كل منهم إماماً في قراءة . وعرف مجموع قراءاتهم بالقراءات السبع^١ . وهم عبد الله بن كثير في مكة وعاصم بن ابي النجود في الكوفة وعبد الله بن عامر في دمشق ويزيد بن القعقاع في المدينة وحمزة بن حبيب في حلوان العراق وابو عمر بن العلاء في البصرة او الكوفة على اختلاف في الروايات ونافع بن عبد الرحمن في المدينة والثلاثة الاخرون ادرکوا الدولة العباسية^٢ .

وفي التفسير

اشتهر عبد الله بن عباس الذي حفلت كتب التفسير التي وصلت الينا بأقواله ورواياته حتى انها تعد بالآلاف . وقد رتب بها تفسير كامل شامل لجميع سور القرآن . ومع ذلك فهناك روايات كثيرة معزوة الى ابن عباس لم ترد في هذا التفسير . وابن عباس ادرك النبي ﷺ وسمع منه وروى عنه ثم عاش طيلة زمن الخلفاء الراشدين وشطراً من زمن الامويين حيث مات سنة ٦٨ هـ ومن اشتهر في التفسير من عصر الامويين مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ وقد ألف كتاباً في التفسير على ما رواه ابن النديم في الفهرست وان لم يصل الينا . وكتب التفسير التي وصلت الينا تروي عدداً كبيراً من أقواله ورواياته .

واشتهر بالتفسير بالإضافة الى ابن عباس ومجاهد عدد من علماء العصر الاموي مثل سعيد ابن جبير ومقاتل بن سليمان وعكرمة مولى ابن عباس وابن جريج السدي ونافع مولى بن عبد الله بن عمر وعطاء بن ابي رباح وطاووس وابراهيم التحفي والحسن البصري . وفي تفسير الطبري وهو من اقدم ما وصل الينا من كتب التفسير وأجمعها روايات كثيرة بأقوال وروايات كل من هؤلاء العلماء .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢١٨ وبعضهم يجعل القراءات ثمناً بالإضافة لثلاثة ائمة اشتهروا في عهد الدولة العباسية .

(٢) روايات هذا التفسير يرويها عمد بن مروان عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن حسان . وهو مطبوع . وجدنا نسخة منه مطبوعة على مطبعة حجرية .

وفي علم الحديث

اشتهر كذلك عبد الله بن عباس رضي الله عنه . وقد حفلت بأحاديثه ورواياته في الحديث كتب الحديث . ويروى عنه انه كان يتتبع احاديث رسول الله عند كبار الصحابة ويذهب اليهم لسمعها منهم ثم يرويها عنهم ^١ . ومن زملائه في هذا المضمار عبد الله بن عمرو حيث وصف بأنه كان جماعاً للحديث يتلمسه حيث كان ويتجربى ألفاظه . ويروى انه دون بعض احاديث رسول الله في مدونة عرفت بالصادقة فيكون إذا صحت أول عالم حديث دون علمه في زمن هذه الدولة .

ومن ذكرت الروايات شهرتهم في علم الحديث في زمن هذه الدولة وجمعه القاسم بن محمد ابن ابي بكر ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري وعمرة بنت عبد الرحمن الانصاري والربيع ابن صبيح وسعيد بن ابي عروبة ^٢ .

ولقد خطا عمر بن عبد العزيز خطوة هامة في هذا المضمار فأمر اولا واليه في المدينة ابا بكر بن حزم بجمع احاديث رسول الله وكتابتها ثم امر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري بمثل ذلك . فكان ما جمعه ودوناه من اول ما جمع ودون من احاديث رسول الله بالاضافة الى ما روي من مدونة عبد الله بن عمر . وكان عدد الاحاديث التي دونوها مع ذلك قليلا . وظل معظم الاحاديث تروى بدون تدوين الى زمن الدولة الاموية .

وواضح من هذا ان المقصود به هو ما يمكن ان يتسم بعلم الحديث . وهو غير رواية الحديث حيث اشتهر في ذلك عدد من اصحاب رسول الله عاشوا شطراً كبيراً من حياتهم في زمن الدولة الاموية وحفلت كتب الاحاديث التي دونت في زمن الدولة العباسية برواياتهم التي ظلت بدون تدوين الى زمن هذه الدولة والتي كان يبلغ بعضها الآلاف مثل ابي هريرة

(١) فجر الاسلام ص ١٧٧

(٢) قواعد التحديث للقاسمي ص ٤٥

رضي الله عنه الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ٥٣٤٧ والذي وصفه الشافعي بأنه أحفظ من روى الحديث في دهره . وعبد الله بن عمر الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ٢٦٣٠ وأنس بن مالك الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ٢٢٨٦ وابن عباس الذي بلغ عدد الاحاديث المروية عنه ١٦٦٠ وجابر بن عبد الله الذي روي عنه ١٥٤٠ حديثاً وأبو سعيد الخدري الذي روي عنه ١١٧٠ حديثاً وعائشة أم المؤمنين التي روي عنها ٢٢١٠ احاديث رضي الله عنهم ^١ .

يضاف الى هذه الاسماء المئات من اصحاب رسول الله الذين عاشوا شطراً من هذه الدولة ورويت عنهم المئات والعشرات والآحاد من احاديث رسول الله بمن ذكرت اسمائهم في اسانيد الحديث حين تدوينها .

ويبدو من هذا ان الاهتمام لرواية احاديث رسول الله من منابعها اي من اصحابه الذين سمعوها منه قد كان شديداً في زمن هذه الدولة وان عدد الذين نشطوا في هذا المضمار كان كبيراً . وكل ما هنالك انه لم يدون مما سمعوه من اصحاب رسول الله إلا القليل وان أكثره روي عنهم ودون في زمن الدولة العباسية .

ومن صدور التابعين الذين اشتهروا في رواية الاحاديث عن اصحاب رسول الله سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد بن ابي بكر وعروة بن الزبير واسماعيل وخارجة ابنا زيد بن ثابت وابو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن عتبة بن مسعود وسليمان بن يسار الهلالي وسالم وحمزة وزيد وعبيد الله وبلال ابنا عبد الله بن عمر وأبان بن عثمان . وقبيصة بن ذؤيب وعلقمة ومسروق وابو عثمان الهندي وقيس بن ابي حازم ^٢ .

والفقه

يرتكز بالدرجة الاولى على القرآن والحديث . وكان نبهاء الصحابة والتابعين في زمن

(١) قواعد التحديث ص ٤٧-٤٨

(٢) قواعد التحديث ص ٥٠

الخلفاء الراشدين والدولة الاموية يستفتون في ما يعرض من المشاكل فيفتون استنباطاً من آيات القرآن والحديث او قياساً على ما كان يقع من مثل ذلك في زمن النبي والخلفاء الراشدين . فكان ذلك اوليات نشوء الفقه الاسلامي والفقهاء .

وقد روي عن ابن حزم قوله (اكثر اصحاب رسول الله فتوى مطلقاً عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعائشة رضي الله عنهم حتى يمكن ان يجمع من فتيا كل منهم مجلد ضخيم . ويليهما ابو بكر وعثمان وابو موسى ومعاذ وسعد وابو هريرة وانس وعبد الله بن عمرو وسلمان وجابر وابو سعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وعبادة بن الصامت ومعاوية وعبد الله بن الزبير وام سلمة رضي الله عنهم حتى يمكن ان يجمع من فتيا كل منهم جزء صغير ^١ .

وبعض هؤلاء ممن عاش في زمن الدولة الاموية بالاضافة الى زمن الخلفاء الراشدين . والمتبادر ان هذه الاسماء هي اسماء الصدور والمشاهير وان هناك عدداً كبيراً آخر كانوا يتصدون للفتيا ويتسمون بسمه علماء الفقه . ولقد حرص اليعقوبي على ذكر مشاهير الفقهاء في عهد كل خليفة من الخلفاء الامويين . حيث يتكون من ذلك قائمة طويلة ذكرنا قبل عدداً بما احتوته وحيث يفيد ذلك ان تعبير فقهاء وعلماء فقه كان مألوفاً ومفهوم المدى .

ولقد ذكرنا قبل ان عمر بن الخطاب بدأ بسنة تعيين اشخاص للقضاء بين الناس واستمرت هذه السنة واتسع نطاقها في زمن الدولة الاموية . ولقد كان مستند القضاء في احكامهم هو القرآن والسنة النبوية القولية والفعلية والاجتهاد والقياس فيما ليس فيه نصوص محددة وبحكمة وهذا هو مفهوم الفقه . ولهذا فان القضاء في هذا العهد يدخلون في عداد علماء الفقه .

ولقد كان كما قلنا قبل في كل مدينة من مدن الدولة قاض . وهذا يعني انه وجد في عهد الدولة الاموية مئات القضاة الذين يصح تسميتهم بعلماء الفقه .

وكل هذا يسوغ القول، ان حركة الفقه او علم الفقه كانت حركة نشيطة في هذا العهد الذي تنوعت فيه المصالح والمناسك والعلاقات بين الناس بما لا يقاس عليه الامر قبله .

ومع ذلك فليس هناك مرويات عن مدونات فقهية في هذا العهد كما هو الامر بالنسبة للحديث والتفسير . غير ان هذا لا يعني في ما يتبادر لنا ان الفتاوى والاحكام القضائية لم تكن تدون بل المتبادر المعقول ان القضاة كانوا يسجلون الاحكام التي يصدرونها وان الفقهاء كانوا يكتبون فتاواهم . وكل ما هنالك انه لم يصل الينا شيء مدون او خبر عن تدوين من ذلك العهد .

وننبه على ان كتب التفسير والحديث والفقه التي كتبت في عهد الدولة العباسية احتوت اقوالاً كثيرة لعلماء وفقهاء هذا العهد . واذا كان من المحتمل ان ذلك قد تداول بواسطة الرواة مثل معظم الاحاديث فالاختمال وارد بأن منه ما كان منقولاً من مدونات ضاع اصلها وخبرها .

ت - العلوم اللسانية

١ - النحو

المستفاد من المأثورات ان النحو اول ما نشأ في البصرة والكوفة اللتين صارتا من اهم مركز الثقافة العربية في القرن الهجري الاول . ولقد اخذ العرب يختلطون بغيرهم حياة ومعاشاً ونسباً فصار يتطرق الى الفصحى شيء من الفساد فدعت الضرورة الى وضع بعض القواعد حتى لا يتعرض القرآن بنوع خاص للتحريف .

والروايات تذكر اسم ابي الاسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ كأول واضع للنحو في زمن الدولة الاموية . وانه تلقى اصول هذا العلم عن علي بن ابي طالب حيث قالت له ابنته

(١) انظر المجلد ١١ من الاغانى اخبار ابي الاسود الدؤلي

(ما اشد الحر) فظنها تسأله ثم عرف انها تتعجب من شدة الحر فأخبر الامام بالامر وقال له قد فسدت لغة العرب بمخالطة العجم فأملى عليه بعض قواعد في النحو منها (ان الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف جاء لمعنى) ، ثم راجع ابو الاسود زياد بن ابي سفيان في ما فشا على الاسنة من اللحن فأمم له حتى اذا جاء شخص الى زياد يعرض عليه قضيته فقال له (مات ابانا وخلف بنون) فاستدعى الاسود وامره ان يضع للناس قواعد النحو ففعل .

ويروي زيدان عن ابن النديم صاحب الفهرست انه شاهد خزانة كتب كان فيها قمطر كبير فيه نحو ثلاثمائة رطل جلود بينها اربع رقاع من ورق الصين احتوت ترجمتها او عنايتها جملة (كلام في الفاعل والمفعول) من ابي الاسود رحمه الله بخط يحيى بن يعمر وتحت خط عتيق لعلان النحوي وتحت خط آخر للنصر بن شميل ^١ .

واذا كان هذا هو كل ما ورد في الاخبار فملتبادر انه ليس كل ما وضع في زمن الدولة الاموية ودون من طرف ابي الاسود وغيره من بعده من قواعد النحو والصرف استنباطاً من اللغة الفصحى ، وانه لا بد من أن يكون قد وضع قواعد كثيرة اخرى . وان ما دون من ذلك في عهد الدولة العباسية لم يوضع كله في هذا العهد .

٢ - الحركات والاعجام

لقد كان القرآن يقرأ من المصاحف بلا حركات ولا اعجام ، والكلمة الاولى تعني ضبط حركة الحرف والثانية تعني تمييز الحروف المتشابهة بالنقاط . ثم مست الحاجة الى ذلك بانضمام غير العرب الى الاسلام وفساد اللهجة الفصحى وذهاب الاجيال التي كانت تتكلم بها سليقة . ويروى ان ابا الاسود الدولي هو كذلك اول من حاول ضبط حركات الحروف بأمر من زياد ايضاً . ويروى انه لما طلب منه ذلك وجاوزه بكاتب قال له إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على اعلاه . وان ضمته فانقط نقطة بين يديه ، وان كسره

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٢٢٤-٢٢٦ .

فاجعل النقطة تحته . وان النقطة كانت تكتب بلون غير لون الحرف . وهذه الرواية تفيد ان الحركات بدأت نقطاً ثم تطورت الى خطوط في الفتحة والكسرة وواو في الضمة فيما بعد .

اما الاعجام فالروايات تذكر ان الذي انتبه الى فساد الكلام وبخاصة تحريف القرآن من جراء عدم اعجام الحروف وعمل على تلافي ذلك هو الحجاج وان اول من نفذ امر الحجاج هو نصر بن عاصم حيث وضع النقط افراداً وازواجاً .

والمستفاد من المأثورات ان الاعجام لم يوضع كاملاً في المرة الاولى وانّه اقتصر على الحروف التي يكثر فيها اللحن والغلط لشدة التشابه مثل السين والشين والصاد والضاد والباء والياء ثم عمت سائر الحروف المتشابهة مثل الباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء والذال والذال والراء والفاء والقاف .

وقد ذكر جرجي زيدان انه شاهد بعض مصاحف قديمة مكتوبة على رقوق على بعض حروفها حركات ونقط دون بعض^١ .

ث - علم التاريخ

روينا في سيرة معاوية انه كان يأمر غلماناً له كل ليلة فيأتون بدفاتر يقرأون له منها سير الملوك واخبار الحروب ومكائدها وانواع السياسات . ويظن جرجي زيدان ان هذه الدفاتر يونانية او لاتينية^٢ اللغة كان يقرأها غلماناً بلغاتهم ويفسرونها له بالعربية .

ومع ترجيحنا احتمال ان تكون الدفاتر في تواريخ الدول الاجنبية فلا نستبعد ان تكون ترجمة عربية من لغات اجنبية ، ولقد روي ان عبيداً بن شربة الف لمعاوية كتاب الملوك واخبار الماضين^٣ .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٢٩-٢٣٠ .

(٢-٣) نفس المصدر ص ٢٣١ والجزء الثاني معزو الى ابن النديم صاحب الفهرست .

وهذا الخبر يفيد من جهة ان تدوين التاريخ باللغة العربية قد بدأ في وقت مبكر من زمن الامويين ويؤيد من جهة اخرى ترجيحنا الآنف الذكر .

وابن النديم يذكر في فهرسته كتباً اخرى الفت في زمن مبكر منها كتب فيها تراجم المشاهير ونحوهم الفها ابو مخنف الازدي الذي يعزو الطبري في تاريخه اليه كثيراً من الاخبار والروايات ، ويذكر اسم علاقة بن كريم الكلبي كعارف بأيام العرب واحاديثها ومدون لها في ايام يزيد بن معاوية .

ويذكر ان عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ الف كتاباً في السيرة النبوية ، وان ابا ابن عثمان المتوفى سنة ٩٥ فعل مثله . وان تلميذاً لهذا اسمه عبد الرحمن بن المغيرة جمع ما كتبه استاذه ، وان ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ كتب كتاباً في المغازي وان عوانة بن الحكم الكلبي من رجال عهد بني امية الف بعض الكتب التاريخية ومنها كتاب في سيرة معاوية ١ ، وهذا ايضاً بما يعزو الطبري اليه كثيراً من الاخبار . ون كان لوهب بن منبه كتاب في السير والاخبار .

وفي كتب التاريخ والتفسير القديمة روايات مسهبة يرويها رواة من عصر بني امية في تاريخ واحداث وقصص عربية وغير عربية عائدة الى ما قبل الاسلام لا نستبعد انها كانت مدونة في قراطيس ، ولو لم يصح هذا ايضاً فان فيها دلالة على اهتمام كثير من النبهاء في تتبع اخبار الامم السابقة وروايتها بما هو من باب علم التاريخ كما لا يخفى . ومن الاسماء المذكورة ابن عباس ووهب بن منبه وكعب الاحبار ومحمد بن كعب القرظي وغيرهم وغيرهم .

ج - العلوم الدخيلة

ذكرنا في سياق سيرة معاوية الثاني خبر اهتمام ابنه خالد لصناعة الكيمياء . والروايات تذكر انه استقدم جماعة يونانيين من الاسكندرية ليتعلمها منهم وانه لما تعلمها امر بنقلها الى العربية فنقلها له رجل اسمه اسطفان وهو اول نقل في الاسلام من لغة الى اللغة العربية

(١) المصدر السابق ٢٣١ .

وكان في زمن الدولة الاموية

وبما يروى أن خالداً كان مولعاً بعلم النجوم وبالطب وأنه انفق الاموال في طلبها واستحضار آلاتها . وقد روى ابن القفطي عن ابن سنيدي انه شاهد في خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاس مكتوب عليها هذه الجملة : (حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية) ٢ .

وبما يرويه الكرد علي انه ترجم لخالد كتب في الطب والنجوم وأنه اخذ الطب عن يحيى النحوي ، وأنه اول من جمعت له الكتب وجعلها في خزائنه في دمشق ، وأنه انشأ داراً للترجمة . وأنه كان جواداً يجمع حوله العلماء ويغدق عليهم ، وأن ابن النديم يروي أن لخالد عدة كتب ورسائل وأنه رأى خمسمائة ورقة من كتبه ومنها كتاب عنوانه : (كتاب الحرات) ٣ .

وبما يرويه ابن النديم أن طبيباً في البصرة في زمن مروان بن الحكم اسمه ماسرجويه السرياني نقل الى العربية كتاباً في الطب ألفه القس أهرون بن عيين باللغة السريانية من أفضل الكنائش ، وأن سالماً كاتب هشام بن عبد الملك نقل رسائل ارسطو الى الاسكندر الى اللغة

(١) المصدر السابق ص ٢٣٢ عزوا الى ابن النديم ، وتعليق على وصف كون هذا اول نقل في الاسلام من لغة اجنبية الى لغة عربية نقول ان هذا لا ينبغي ان يشمل ما قبل الاسلام من ذلك حيث هناك ما يفيد ان نصارى العرب كانوا يتداولون ترجمات عربية من اسفار العهد القديم والعهد الجديد قبل الاسلام .

وهو ما نرجح صحته ، فقد كان جمهور عظيم من العرب يدينون بالنصرانية قبل الاسلام في بلاد الشام والعراق وجزيرة الفرات ومشارف الشام واليمن ، ولا يعقل ان لا يكون في ايديهم نصوص عربية لهذه الاسفار .

« انظر ايضاً تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ج ٦ ص ٢٧٨ » .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٣ .

(٣) خطط الشام ج ٣ ص ٢٢ .

العربية وان لهذا رسائل في مئة ورقة ١ .

ح - العلوم الادبية

١ - الشعر

كانت بلاغة القرآن وذمه للشعراء من اسباب انكماش الشعر وضعف جيشانه وعدم الاهتمام له في زمن النبي والخلفاء الراشدين وما يروى ان ابا الفرزدق جاء بابنه الى الإمام علي وقال له ان بُني هذا من شعراء مضر فاسمع له فقال له علمه القرآن ٢ . وان عمر بن الخطاب امر المغيرة بن شعبه والي الكوفة بأن يستنشد شعراء عصره ما قالوا في الاسلام فأرسل الى ليبد - احد فحول شعراء الجاهلية ومن اصحاب المعلقات وقد ادرك الاسلام فأسلم - فكتب سورة البقرة في صحيفة ثم أتى بها وقال ان الله ابدلني هذا في الاسلام بالشعر فلما كتب المغيرة الى عمر بجوابه أمر بزيادة عطاء ليبد خمسمائة درهم ٣ . ويقال انه لم يقل في الاسلام الا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله لما ينتهي أجلي حتى كساني من الاسلام مربالا

ويروى حديث نبوي جاء فيه : (لأن يتلى جوف أحدكم قبحاً حتى يريه خير من ان يتلى شعراً) ٤ ويروى ان الطفيل بن عمرو السدوسي لما عرض النبي عليه الاسلام قال له اني رجل شاعر فاسمع ما اقول فقال هات فأنشده شيئاً من شعره فقال النبي وانا اقول فاسمع : (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو الله احد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٢٣٣ و ٣١٤ .

(٢) تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) ص ١١١ عزوا الى الاغانى .

(٤) ١٩٦ عزوا الى العمدة .

كفوؤاً احد) فأسلم الرجل .

فكان كل هذا من اسباب الانكماش والانصراف عن الشعر حتى لم يكدر يروى نبوغ شاعر جديد في زمن النبي والخلفاء الراشدين ، وجل ما يروى من شعر هو لشعراء مخضرمين وفي مدح النبي والدفاع عن المسلمين أو في هجوم من شعراء الكفار قبل اسلامهم .

ولقد تغيرت هذه الحال في زمن الدولة الاموية ، فمن جهة جاشت العصبية القبلية جيشاناً عظيماً نتيجة لما كان من تنافس ومطامح ومكاسب ومناصب ومفاخر . ومن جهة ثارت الخصومات بين الامويين والمهشميين ثوراناً شديداً . ومن جهة اشتدت الحروب بين الامويين والحوارج والزبيريين والشيعة والمتمردين . ومن جهة ان عزل شباب قريش والحجاز عن الحياة السياسية بسبب ما كان من المواقف غير الولاية التي كان يقفها اهل الحجاز من الدولة الاموية فانصرفوا الى اللهو والحياة الناعمة ، وكان خلفاء بني امية يرتاحون لذلك ويستمتعون في اجراء الاعطية عليهم ليسعدوهم ويبعدوهم إذا صح التعبير فسادهم هذا على ما انصرفوا اليه .

وكان معظم امراء بني امية بما فيهم الذين جلسوا على عرش الخلافة متأدين مثقفين يتذوقون الشعر وينظمونه ويحفظون الجيد منه ويتمثلون به ويستقبلون الشعراء بترحيب وحفاوة ويحلوهم المنازل الرفيعة ويغدقون عليهم العطايا والمنح حتى ليصل احياناً ما يعطونه للواحد منهم على مدحة واحدة مئة الف درهم وخمسون الف واربعون الف . واربعة آلاف دينار ، ومزرعة بكامل عدتها والف دينار فوقها ، ومئات من الابل مع آلاف الدراهم وعشرات من الخلل والكساوى . هذا خلاف الجوائز السنوية التي كانوا يرتبونها لمن يختص بمدحهم ، ويستخدمونهم في أغراضهم ومآربهم ، وكان ابناء الخلفاء والولاة ورجال العرب البارزون يحذون هذا الحذو كله تجاه الشعراء .

ولقد كان الشعراء وبخاصة فحولهم يتعهدون بعضهم في الشاعرية ويتعرشون ببعضهم بسبيل ذلك ، وكان الخلفاء وابنائهم ونبهاء رجال العهد يحرشون بينهم ايضاً فيؤدي ذلك الى

التهاجي والتلاحي وتنظم القصائد التي عرفت بالنقائض - اي المتأثلة في البحور والقوافي الشعرية للرد على بعضهم - بل وكان بعضهم يطلب من زميله ذلك ويقترحه عليه^١ ، وتنعقد بسبيله المجالس والتدوات ، وتسير بما يتناشدونه الركبان .

ولقد كان للغناء العربي في الحجاز في هذا العهد نهضة عجيبة في طرافتها وطاقاتها وفنونها ومجالسها وأقبال خلفاء بني أمية وأبناءهم ونبهاء العرب وموسريهم عليها، وكن قوامها الشعر، فكان في ذلك مضمار آخر للشعراء ، فكان كل هذا مما اهاج شياطين الشعر في عهد الدولة الأموية واتاح ظهور حركة قوية جياشة للشعر غنية جداً في الصور والاعراض الشعرية المتنوعة فضلاً عن ما كانت عليه من بلاغة وفصاحة وإصابة وقوة إثارة بحيث يمكن ان يقال انه كان للشعر في هذا العهد دولة بادخة سامقة الاعلام منحت الادب العربي واللغة العربية والتاريخ العربي ثروة تجل عن الوصف حتى لقد كان يمكن ان يضع شيء كثير جداً من كل ذلك لولاها من حيث ان الناس يحفظون الشعر ويتناقلونه اكثر من النثر ومن حيث ان التدوين لم يكن قد اتسع نطاقه او لأن مدونات ذلك العصر ضاع أغلبها ولم يكذب يبقى منها الا التفت او ما تداولته ألسنة الرواة مع ما دخل عليه من تحريف ومبالغة بقصد وبغير قصد .

ولقد أثر عن بعض علماء الفقه في العصر العباسي قوله : (لولا شعر الفرزدق اذهب ثلث لغة العرب)^٢ ، وليس الفرزدق الا واحداً من فحول شعراء العصر الأموي ، وليست اللغة الا ناحية من نواحي حياة العصر المذكور التي حفظ شعر هذا العصر الكثير منها .

ويبلغ عدد الفحول والنابعين من شعراء هذا العصر نحو مئة ، بالإضافة الى عدد اكبر آخر دونهم مرتبة ، وقد روي لهم ما لا يحصى يقع تحت حصر من قصائد طويلة وقصيرة في مختلف الاعراض من مدح وهجو وفخر وتشبيب وغزل واستمناع واستعطاف واعتذار

(١) انظر اخبار الشاعر كثير في المجلد الثامن من الاغانى واخبار الشاعر ابن هرمة في المجلد الرابع .

(٢) انظر شرح ديوان الفرزدق للصاوي ورسالة «الفرزدق» للدكتور ممدوح حقي .

وتحدد واستفزاز وهجوم ودفاع وسخرية ومجون وسياب وفحش السخ وبمختلف الاساليب والفنون والبحور والقوافي .

ويصنف الباحثون شعراء هذا العصر صنوفاً ، منهم صنف سموه شعراء السياسة الذين منهم انصار بني امية ومنهم انصار بني هاشم ومنهم انصار بني الزبير ومنهم انصار بني المهلب ومنهم خوارج او انصارهم . وصنف سموه شعراء الغزل وصنف سموه شعراء ادب عام . وصنف سموه شعراء المجون والحلاعة .

والمتبادر من شعر شعراء كل صنف ان التصنيف انما قام على الصفة الغالبة لشعر الشاعر . فقد أثر لكثير من شعراء السياسة مقطوعات غزلية وغنائية بليغة في بابها . وكثير ممن كانوا ينصرون بني هاشم او بني الزبير او بني المهلب من كان يفد على خلفاء بني امية وامرائهم وولائهم ويدحونهم وينالون جوائزهم ايضاً .

ولقد فكرنا في ايراد اسماء وفناذج ومجالس وصور وقصص لشعراء هذا العصر وشعرهم واقوال النبهاء والعلماء القدماء فيهم ، غير اننا رأينا ان المقام لن يتسع الا لنزير يسير لا يمكن ان يعبر عن روعة الصورة ، وان الاولى لمن يريد ان يعرف مدى ثروة دولة الشعر في العصر الاموي وقوتها وافانيتها وروعيتها وطرافتها وما اسدته لتاريخ العرب ولغتهم وفنونها من خدمة ومنحة من ثروة - وهذا واجب على كل عربي وبخاصة على ناشئة العرب لأن له دلالة قوية على مظهر من مظاهر الحياة والنبوغ العربية - ان يقرأ ما وصل اليها عنها - وهو قليل من كثير فيما نعتقد - من دواوين وكتب وبخاصة الكنز الادبي العربي الذي لا يكاد يكون له مثل ونعني به كتاب الاغانى حيث يجد فيه المعجب المطرب من كل ذلك .

واذا كان من شيء يحسن زيادته في هذا المقام فهو التنويه بأنه كان للمرأة العربية حظ غير يسير في هذه الدولة . سواء أكان في نظم الشعر ام في حفظه وتذوقه وشهود مجالسه . أم فيما كان من تعرض الحسانات لشعراء الغزل بما كان يهيج شياطين هؤلاء الشعراء من

ناحية ويثير في الحسناوات شعور الزهو والاعتداد من ناحية اخرى مما احتوى كتاب الاغاني بخاصة منه الكثير المعجب المطرب ايضاً .

وقد يكون قد دخل على الشعر المنسوب الى شعراء هذا العصر والقصص المروية في سياقه من تاريخية وحربية وقبلية ونسائية وشخصية وادبية كثير من التحريف والكذب والخيال والمبالغة حينما اخذ المدونون يدونونه في زمن الدولة العباسية لاغراض متنوعة سياسية وحزبية وادبية او نتيجة لاختلاف الرواة وذهولهم لأن في المدونات من ذلك اشياء عجيبة غريبة بعيدة عن الاحتمال والمنطق والظرف فضلاً عن ما هناك من تضارب وتداخل وتقارير في الروايات والنصوص والاسماء والتواريخ . غير ان هذا ليس من شأنه ان يدخل تعديلاً كبيراً على الصورة القوية الرائعة لدولة الشعر والشعراء في العصر الاموي وآثارها الخطيرة المدى في لغة العرب وادبهم وتاريخهم .

٢ - الخطابة

كان حظ الخطابة كبيراً في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين خلافاً لحظ الشعر . لان ذلك من مستلزمات المواقف الوعظية والجهادية التي كانت من الطوابع المميزة لهذا العهد . ولقد اثرت خطب كثيرة للنبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقواد الفتوح رضي الله عنهم في مختلف المناسبات بليغة في الفاظها ومعانيها بما اوردنا منه نماذج كثيرة في الجزئين السابقين . ولقد استمر هذا الحظ قوياً في زمن الدولة الاموية لأن مستلزماته كانت متوافرة بمقياس اوسع ، ولقد اثرت خطب كثيرة جداً للخلفاء الامويين في مختلف المواقف كما اثر مثل ذلك لكثير من قوادهم وولاتهم ولقواد الحركات المناوئة لهم معاً بما اوردنا منه نماذج كثيرة فيها مصداق ذلك .

٣ - النثر او انشاء الرسائل

وكان حظ انشاء الرسائل كبيراً كذلك في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين لتوافر مستلزماته ، وقد اوردنا نماذج كثيرة من ذلك في الجزئين السابقين .

ولقد كان هذا الحظ في زمن الدولة الاموية اقوى واوسع نطاقاً لازدياد تلك المستلزمات باتساع نطاق الدولة وطول مدتها وتنوع صور الحياة والاحداث فيها ، ولقد روى المؤرخون القدماء كثيراً من رسائل الخلفاء لولاتهم وقوادهم وكثيراً من رسائل الولاة والقواد للخلفاء بما اوردنا منه نماذج عديدة وبما تميز بعضه بطول النفس وبلاغة الاسلوب .

ولقد ذكرنا قبل انه كان للخلفاء والولاة دواوين للرسائل ، وهذا يستتبع القول انه كان موظفون متخصصون في انشاء الرسائل وتديبها يتولون الدواوين . ومن المحتمل القوي ان تكون تلك الرسائل او كثير منها من انشائهم بالاضافة الى احتمال ان يكون بعضها من املاء الخلفاء والولاة .

ولقد روبنا في نبذة تمرد عبد الرحمن بن الاشعث ان هذا كلف كاتباً في ديوان الحجاج اسمه ابن القرية بكتابة كتاب الخلع والتمرد الذي ارسله الى الحجاج فكتبه وارسل نسخته الى ابن الاشعث مما فيه تأييد لذلك .

ولقد روى الطبري رواية مؤيدة اخرى فيها ما يفيد ان الكتاب كانوا يختارون من ذوي الفصاحة والبلاغة ، حيث روي انه ورد للحجاج رسالة من يزيد بن المهلب فيها بشرى فتح قلعة نيزك وكانت قلعة هامة .

وقد جاء في الرسالة فيما جاء : (إنا لقينا العدو فمنحنا الله اكثافهم ، فقتلنا طائفة ، وامرنا طائفة ، ولحق طائفة برؤوس الجبال وعراعر الاودية واهضام الغيطان واثناء الانهار) فسأل الحجاج عمن يكتب ليزيد ف قيل له يحيى بن يعمر فأحضره فوجده افسح الناس ، وسأله عن سبب فصاحته فقال له كان ابي فصيحاً فحفظت منه ، وسأله عن اناس معروفين بالفصاحة فقال له انهم يلحنون كثيراً ، وسأله عن نفسه فقال له انه يلحن قليلا ويضع (أن) محل (إن) و (إن) محل (أن) فعظم في نفسه ولكنه امره ان يعود الى خراسان دون تريت^١ .

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٨٧ .

ومن يروي الرواة نبوغهم في فن الانشاء عبد الحميد بن يحيى الذي كان كاتباً لمروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين ، حيث يذكر في صدره انه جعل للانشاء صفة معينة وطريقة مخصوصة نسبت اليه وانه كان مضرب المثل ببلاغة رسائله فيقال فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وهذا الاخير من بلغاء كتاب القرن الخامس . وانه كان يمتاز بالاطالة واستعمال التخميدات .

وقد ذكر ابن النديم في كتابه الفهرست ان له مجموعة تبلغ الف ورقة لم يصل الى عهدنا منها الا رسالة خطية واحدة منسوبة اليه موجودة في دار الكتب المصرية . وقد اشرنا في مناسبة الكلام عن القوة البرية الى رسالة كتبها عبد الحميد الى ابن مروان بن الحكم في صدره تعبئة الجيش وحركته . وهي آية في البلاغة والجزالة بالاضافة الى حسن الادراك ودراية الامور .

وهناك نوعان آخران من فنون النثر جديران بالتنويه في هذا المقام وهما التوقيعات والمساجلات ، ونعني بالاولى ما كان يوقعه الخلفاء والولاة على ما يرد عليهم من كتب من جل وجيزة اللفظ بليغة المعنى محكمة السبك ، وقد اثر ذلك عن الخلفاء الراشدين ثم عن الدولة الاموية .

فمن التوقيعات ^١ الماثورة لعمر بن الخطاب على اسفل كتاب ورد عليه من سعد بن ابي وقاص في بنيان بينيه : (ابن ما يكتنك من المواجهر وأذى المطر) ، وعلى اسفل كتاب ورد عليه من عمرو بن العاص : (كن لرعتك كما تحب ان يكون لك اميرك) .

ولعثمان بن عفان على قصة ^٢ رجل شكاه عيلة : (قد امرنا لك بما يقيمك وليس في مال الله فضل للسرف) .

(١) انظر العقد الجديد ج ٣ ص ٣٣ - ٣٦ .

(٢) هذه الكلمة تعني ما تعنيه اليوم بكلمة استدعاء او عرض حال .

ولعلي بن ابي طالب على كتاب جاءه من ابنه الحسن في رأي يقترحه : (رأي الشيخ
خير من جلد الغلام) . وعلى كتاب جاءه من طلحة : (في بيته يؤتى الحكم) . وعلى كتاب
جاءه من الحصين بن المنذر : (بقية السيف أنهى عدداً) .

ومن التوقيعات المأثورة عن عهد بني امية توقيع لمعاوية على اسفل كتاب جاءه من زياد يخبره
فيه ان ابن عباس يطعن في خلافته : (إن ابا سفيان و ابا الفضل كانا في الجاهلية في صلاح
واحد وذلك حلف لا يحله سوء رأيك) ، وله على كتاب جاءه من ربيعة اليربوعي يطلب
منه اعانته باثني عشر الف جذع لبناء دار له في البصرة : (أدارك في البصرة ام البصرة
في دارك) .

وليزيد بن معاوية الى عبيد الله بن زياد : (انت احد اعضاء ابن عمك فاحرص ان تكون
كلها) . ولعبد الملك على كتاب جاءه من الحجاج : (جنبني دماء بني عبد المطلب فليس
فيها شفاء من الطلب) . وللوليد على كتاب لعمر بن عبد العزيز : (قد رأب الله بك الداء
وأودم بك الشفاء) . ولعمر بن عبد العزيز على كتاب عامل العراق يخبره عن سوء طاعة اهله :
(ارض لهم ما ترضى لنفسك وخذ بجرائهم بعد ذلك) ، وعلى كتاب عامله بالمدينة في بيت
يريد ان يبنيه : (كن من الموت على حذر) . وليزيد بن عبد الملك لعامله في خراسان :
(لا تترك حسن رأيي فانما تفسده عثرة) ، والى عامله في المدينة : (عثرت فاستقل) .
ولهشام بن عبد الملك على قصة منظم : (أذاك الغوث إن كنت صادقاً وحل بك النكال ان
كنت كاذباً فتقدم او تأخر) ، وعلى كتاب من عامله في صدد حروبه مع الترك : (احذر
ليالي البيات) . وليزيد بن الوليد لمروان بن محمد : (اراك تقدم رجلاً وتؤخر اخرى
فاعتمد على ايها شئت) ، ولعامله في خراسان : (نجم امر انت عنه نائم وما اراك منه او
مني بسالم) . ومروان بن محمد على كتاب من عامله في خراسان : (الحاضر يرى ما لا يراه
الغائب فاحسم الثؤلؤل) ، فكتب له : (الثؤلؤل قد استدتت اعضاؤه) . فوقع على الكتاب :
(يداك او كتنا وفوك نفخ) .

اما المساجلات فهي ما كان يجري في مجالس الخلفاء والولاة والادباء من محاورات يتميز اسلوبها على اسلوب الكلام العادي ، مما يقع المتبوع على كثير منه في مختلف كتب التاريخ والادب . من ذلك مثلاً الاعتذار المروي من الشعبي للحجاج عن اندماجه في حركة ابن الاشعث وهو : (أصلح الله الأمير ، إني أمرت بأشياء أقولها لك ارضيك واسخط الرب ، ولست افعل ، ولكنني اقول واصدقك القول وكل شيء يقع بين يديك فهو الصدق ان شاء الله ، لقد بنا بنا المنزل ، وأجذب الجنب ، واكتحلنا السهر ، واستحلنا الخوف ، وضاق بنا البلد العريض فوقعنا في حرب لم نكن فيها بررة اتقياء ولا فجرة اقوياء ، ولقد نصرك الله علينا واضفرك بنا ، فان سطوت فبذنوبنا وما جرت اليه ايدينا ، وانت عفوت فبحلمك وبعد الحجة لك علينا) .

وفي سيرة الخلفاء وفي سياق سير الاحداث المتنوعة الاخرى مرت امثلة كثيرة من ذلك فنكتفي هنا بهذا المثل للدلالة على ما قصدنا اليه .

٥ - الغناء العربي

للغناء العربي في العهد الاموي صلة وثيقة جداً بالادب والشعر العربي ، وهذا ما جعلنا نسلكه في سلك العلوم الادبية .

ولقد ذكرنا في الجزء الخامس ما كان من امر الغناء العربي قبل الاسلام ، واستدلنا بعدم ذكره في القرآن كصورة من صور النعيم الاخروي كالتغر ومجالسه على انه لم يكن له حركة قوية مثيرة .

ولقد ظل الامر كذلك في زمن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بل ازداد فتوراً وضعفاً ، ثم اخذت الحياة تدب فيه في زمن الدولة الاموية حتى بلغ شأواً بعيداً بالنسبة الى ما كانت عليه ، وكان مسرح هذه الحياة الرئيسي المدينة ومكة ، وكان الممثلون عليه خليطين من رجال ونساء كلهم من الموالي المولدين ، وكان غذاؤها شعر الشعراء الغزليين الذين كان

معظمهم ينتسبون الى المدينتين في الدرجة الاولى .

والروايات مختلفة متعددة في تاريخ وكيفية بدء هذه الحياة . فهناك ما يفيد ان اول من غنى بالحن عربي حديثة طويس وابن سريج في مكة ، والاول مولى لبني مخزوم والثاني مولى لبني الليث . وكانا ذوي صوتين جميلين جداً فكانا ينوحان في المآتم ثم اخذا يغنيان بالحن جديدة .

وقد كان بدء ظهورهما في ذلك في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ووصف اولهما بأنه اول من غنى الغناء المتقن من الحننين واول من اصطنع المزج والرميل في الغناء ، ووصف ثانيها بأنه احسن من غنى بالمزج حتى صار يضرب به المثل ، وبأنه اول من ضرب على العود الذي اخذ صنعتته عن الفرس^١

وهناك روايات متائلة في صدد مغنيين متقدمين هما ابن مسجع وابن محرز . وكلاهما من مكة ايضاً واولهما مولى لبني جمع وكان اسود اللون وقد وصف بأنه مغن متقدم ممن فحول المغنين واكابرهم وانه سمع جماعة من الفرس يغنون في مكة فاعجبه لحنهم وقلده بالعربي ثم رحل الى الشام فأخذ الحان الروم والبربطية والاسطوخوسية وانتقل الى فارس فأخذ غناء كثيراً وتعلم الضرب على الآلات ثم الغى ما استقبحه واخذ المحاسن وغنى بها فكان اول من ثبت ذلك واخذ الناس عنه .

وهذا ما يروى عن ابن محرز الذي كان فارسي الاصل ومولى لبني عبد الدار والذي وصف بأنه من فحول المغنين القدماء وانه كان يشخص الى فارس فيتعلم الحان الفرس وإلى الشام فيتعلم الحان الروم ويسقط ما لا يستحسن من نغم الفريقين ويبرز بين محاسنها فصنع غناء لم يسمع مثله حتى كان يقال له صناع العرب^٢ .

(١) انظر لبني اخبار طويس وابن سريج في كتاب الاغانى .

(٢) انظر لبني اخبار ابن مسجع وابن محرز في الكتاب نفسه .

وهناك شخص خامس ينسب إليه أولية في الغناء وهو سائب حائر الذي كان فارسي الاصل وملك ميين عبد الله بن جعفر حيث تذكر الروايات انه اول من أخذ الألحان الفارسية وغنى بها ، وكان مختصاً بسيدته الذي تروي الروايات شدة ولعه بالغناء^١ .

وعلى كل حال فيمكن ان يقال إن احتكاك العرب بالفرس والروم نبه فيما نبه اليه الى الالحان الغنائية والآلات الموسيقية الرومية والفارسية فأقبل الموالي في مكة والمدينة الذين يمتون الى اصول فارسية وربما رومية على اقتباسها وتعريبها واستعمالها .

وظهور هذه الحياة في المدينة ومكة مترافقة مع ظهور شعراء الغزل فيها يمكن بل يرجح ان يكون بسبب ما نوهنا به قبل من انعزال اهل الحجاز عن الحياة السياسية في زمن الدولة الاموية الذي جعل شباهم ينصرفون الى حياة اللهو والترف . وقد يمكن ان يكون هناك سبب آخر ايضاً ، وهو كون معظم العرب الذين كانوا في البلاد المفتوحة مجتدين في

(١) مما يروى عن ذلك ان عبد الله بن جعفر قدم على معاوية وإفداً فقال قائل لمعاوية ان ابن جعفر يشرب النبيذ ويسمع الغناء ويحرك رأسه عليه فدخل معاوية عليه مفاجأة والمغنية عزرة الملاء بين يديه كالشمس الطالعة في كواه البيت تغنيه على عودها :

نبك فؤادك في الظلام خريدة تشفي الضجيع ببارد بسام

وبين يديه عس (قدح كبير) فقال ما هذا يا ابا جعفر قال اقسمت عليك يا امير المؤمنين لشرب مني فاذا عمل مجدوح بمسك وكافور فقال هذا طيب فا هذا الغناء قال هذا شعر حسان بن ثابت في الحرث بن هشام قال فهل تقي بغير هذا ، قال نعم بالشعر الذي يأتيك به الاعرابي الجاني الادفر الفبيح المنظر فيشافئك به فتعطيه عليه ، وآخذه انا فاخترت محاسنه ورقيق كلامه فاعطيه هذه الحسنه الوجه اللينة اللبس الطيبة الريح فترنله بهذا الصوت الحسن ، قال فا تعريتك رأسك قال اريجة اجدها اذا سمعت الغناء لو سئلت عندها لاعطيت ، ولو لقيت لابلت ، فقال معاوية قبح الله قوماً عرضوني لك .

(انظر خبر غزوة بدر في كتاب الاغانى) وهذه رواية من روايات عديدة اخرى عن جعفر وولعه بالغناء .

خدمة الدولة مباشرة في الجهاد في الجبهات الخارجية وفي الحركات الداخلية وفي مختلف اعمال الدولة او مرابطين في المعسكرات والعواصم مهينين للاستجابة الى الدعوة الى الخدمة المباشرة فلم يكن لهم وقت للانصراف الى ما انصرف اليه الشباب الحجازي .

وبما قد يخطر بالبال في تعليل كون كثرة شعراء الغزل الذين كان يغني المغنون بشعرهم ان الشعراء كانوا يضعون شعرهم خصيصاً للمغنين على النحو الذي نعرفه اليوم .

رواضح ان الكلام منصرف الى الغناء العربي وليس متصلاً بالغناء في البلاد المفتوحة التي لا بد من انه كان له فيها حظ غير يسير بالالحن واللغات غير العربية لان هذه البلاد كانت تتمتع بقسط اوفر من الحضارة وحياء الترف التي يكون الغناء الراقي من مستلزماتها او مظاهرها . وهذا مما جعل موالي اهل المدينة ومكة يقبلون عليه ويطعمون او يطورون به الغناء العربي .

والآلات الموسيقية التي اقتبسها الموالي وذكرت في الروايات هي الآلات الوتية التي عرفت بالعود والطنبور والبربط .

وقد حرص مؤلف كتاب الاغاني على وصف حركة الاصابع على الاوتار والآلات عند ذكر كل اغنية بسبيل وصف لحنها فيقول مثلاً : (خفيف ثقيل مطلق في مجرى الوسطى) و (ثاني ثقيل بالوسطى) و (ثاني ثقيل بالخنصر والبصر) و (رمل بالسبابة في مجرى الوسطى) و (خفيف رمل بالوسطى في الثاني والثالث والرابع) و (ثقيل اول في الاول والثاني) الخ .

والمستفاد من الروايات ان العادة العربية القديمة اي الايقاع بالقضيب والنقر بالدف والمشي به ظلت مستمرة الى جانب الآلات والالحن الحديثة المقتبسة .

ولقد ذكرت الروايات اسماء عدد كبير من النساء والرجال الذين اتخذوا الغناء مهنة لهم في المدينة ومكة في زمن الدولة الاموية ، ومن الذين ذكروا بالاضافة الى الخمسة المتقدمين السابق ذكرهم الغرييض والدلال والمهذلي والابجر واحمد النصيبي الذي وصف بأنه أول من

غنى على الطنبور وعبادل وابن عيساء وحكم الوادي وعمر الوادي والغزبل وابي سعيد وابن مشعث وابن جامع ونافع ويونس وبديع وابن مالك ومالك ابن السمح وابن عائشة . وجميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وخليدة وربيعة وعزة الميلاء وقند ورحمة الله وهبة الله وعز وبليلة وفرعة ولذة العيش والشمسية ، وبعض هؤلاء عاشوا الى زمن الدولة العباسية وغنوا فيها مثل مالك بن السمح وحكم الوادي وابن جامع ويونس . والاخير عرف بالكاتب لأنه ألف كتاباً في الاغاني على ما جاء في اخباره في كتاب الاغاني .

ولقد كان بعض مالكي الاماء الجميلات الحسان الصوت يهتمون لتثقيف امائهن بالادب والشعر والغناء زيادة في المتعة والترف والاثارة او طلباً للكسب اذا كانوا تجاراً . وكان هذا مما يغلي امانهن ويحفز المتردين والميسورين على التنافس فيهن مما فيه صورة طريفة من صور الحياة والعهد والغناء .

وقبل قليل اوردنا خبر الجارية المغنية عند عبد الله بن جعفر التي استمع معاوية لغنائها ، واوردنا في سيرتي يزيد بن عبد الملك واخيه هشام خبر المخطيئات الجميلات اللواتي كن عندهما والتمن الباهظ الذي اشترى به يزيد حبابة وسلامة الجميلتين المدينتين المغنيتين .

وفي الاغاني قصص كثيرة عن الجوارى الجميلات المثقفات المغنيات في قصور الخلفاء الامويين وابنائهم وقصور الموسرين والاسر الرفيعة من العرب في دمشق والحجاز والعراق .

وبما ذكره مؤلف الاغاني في اخبار ابن محرز انه رحل الى العراق بقصد الغناء فيه فلما نزل القادسية لقيه حنين المغني فسأله كم منتك نفسك من العراق فقال الف دينار . فقال له هذه خمسمائة دينار فخذها وانصرف واحلف ان لا تعود فأخذها وانصرف حيث تفيد الرواية ان الحركة الغنائية الحديثة اخذت تظهر خارج الحجاز ايضاً ، وقد وصف حنين هذا بأنه كان شاعراً ومغنياً وكان نصرانياً

(١) انظر نبذة اخبار حنين في الاغاني ايضاً .

من اهل الحيرة وفحلا من فحول المغنين وله في الغناء صنعة فاضلة متقدمة ، وانت هشام بن عبد الملك مر بالكوفة فوقف امامه ومعه عوده وزامر له يرافقه وعليه قلنسوة طويلة فغنى له هذا الصوت :

أمن سلمى بظهر الكوفة	الآيات والطلل
يلوح كما تلوح على	جفون الصقل الحلل

او هذا الصوت في رواية اخرى :

صاح هل ابصرت بالحبطين	من اسماء ناراً
موهنأ سبت لعينيك	ولم توقد نهارة
كتلال البرق في المزن	اذا البرق استطارا
اذ كرتني الوصل من سجدى	واياماً قصارا

وفي كتاب الاغاني روايات عديدة عن سماع خلفاء آخرين للمغنين في الحجاز اثناء رحلاتهم الى الحج وبنوع خاص يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، وعن احضارهم المغنين من الحجاز الى دمشق مما يدل على ان الحجاز ظلت صاحبة السبق والتفوق في مضمار الغناء .

ولقد رويناه في سيرة هشام ما كان من تشدده على اهل اللهو ومصادرته لهم وروينا في سيرة سليمان ما كان من شدته على المغنين ، وروينا في سيرة يزيد بن الوليد ما كان من شدة تحذيره من الغناء ، فلعل ذلك اسباب او مظاهر لبقاء الغناء في الحجاز صاحب السبق والتفوق .

ولقد احتوى كتاب الاغاني مئات القصص عن المغنين ومجالس الغناء التي كانت تعقد في المدينة ومكة ومنتزهاتها ويشهدها الادباء والشعراء وابناء الاسر الرفيعة واحياناً الخلفاء وابناؤهم ، وبعض نساء الاسر الرفيعة المتأدبات المثقفات بما لا يتسع المقام لسرد الكثير منه وبما لا يمكن التعبير عن روعة صورته بالنزر اليسير ، وفيها المعجب المطرب من

الحيوية والظرف والطرافة والادب والذوق والتوف بما يدل على ما بلغ اليه الغناء العربي والادب العربي في الحجاز بنوع خاص من شأو وما . كانت عليه حياة شبابهم الموسرين نساء ورجالاً من توف وهناء .

خ - البصرة والكوفة ودورهما في الحركة العلمية

إن كتب الادب القديمة تنوه بمدى البصرة والكوفة كمر كثرين من مراكز النشاط العلمي في القرنين الاول والثاني من الهجرة بحيث صار من المناسب كتابة هذه التبعة ملحقة بفصل الحركة العلمية .

وهاتان المدينتان انشئتتا في سياق موجة الفتح الاولى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما ذكرناه في الجزء السابق فهما بلدان عربيتان اسلاميتان خالصتان دون سائر المدن التي كانت في البلاد المفتوحة حيث كان سكانها خليطاً من عرب صرحاء وعرب غير صرحاء اي بقايا الموجات العربية القديمة من مسلمين وغير مسلمين من الامم الاخرى . وقد توطنهما طوائف من قبائل العرب المختلفة قحطانية وعدنانية ، ومع ذلك فقد توطن مع الزمن معهما طوائف اخرى من مسلمي اهل العراق وغير اهل العراق من غير العرب ايضاً ، ولقد لعبتا ادواراً هامة في الاحداث والتيارات السياسية التي جرت في عهد الدولة الاموية على ما ذكرناه في مناسبات عديدة سابقة ، بل لقد بدأتا تلعبان مثل هذه الادوار منذ خلافة عثمان ثم في خلافة علي رضي الله عنهما على ما ذكرناه في الجزء السابق .

ولقد توطن فيهما فيمن توطن بعض اصحاب رسول الله ﷺ ونشأ فيهما تدريجياً جماعات من القراء والفقهاء والمحدثين واللغويين فصارنا كما قلنا الى جانب كونهما مركزين هامين بل رئيسيين من مراكز النشاط العلمي العربي الاسلامي ، وصارت كل منهما تتميز بمذاهب واجتهادات خاصة من مذاهب اللغة والنحو والقراءات والفقه والحديث ، وينتسب الى كل منهما مدارس او مذاهب في كل من ذلك مع التنبيه على ان هذا قد تبلور وتركز

في عهد الدولة العباسية ، ومن توطن في البصرة وكان له اثر في حركتها العلمية الاسلامية من اصحاب رسول الله انس بن مالك وابو موسى الاشعري ، ومن توطن في الكوفة منهم وكان له نفس الاثر عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ، ومن مشاهير علماء البصرة في عهد الدولة الاموية من التابعين الحسن البصري وعمرو بن عبيد وابن سيرين وواصل بن عطاء وكلهم من الموالي ، ومن مشاهير علماء الكوفة من التابعين سعيد بن جبير وعمرو بن شرحبيل وعلقمة ومسروق وعبيدة والحارث الخ .

ولقد كان يقام في كل منها اسواق ادبية كسوق عكاظ في الجاهلية فيفد اليها الشعراء والخطباء والادباء ويخطبون ويتناشدون بل ويتلاحون ويتهاجون على مشهد من المأل . وصار كل من الكوفيين والبصريين يتعصبون لمدينتهم ويغمزون بالآخرى ، وكانت السمة المميزة للبصرة انها اعرف باللغة والأدب والسمة المميزة للكوفة هي الفنون الشعرية وروايتها . وسام في كل من ذلك افراد من المسلمين غير العرب الذين توطنوا في المدينتين واندجوا في مختلف أحداثها وسماتها السياسية والعلمية . ويكثر في كتب الادب ذكر المربد في البصرة الذي كان على ما يبدو ساحة في الضاحية يقام فيها الندوات الادبية والشعرية حتى ليتمكن ان يقال انه كان المكان المفضل لها ^١ .

(١) في الاغانى قصص كثيرة عن الندوات الشعرية في المربد مختار منها واحدة طريفة رويت في اخبار الراعي في الجلد العشرين حيث روي ان هذا الشاعر الذي كان من فحول الشعراء يفضل الفرزدق على جرير فكله جرير في ذلك فقول منه ومن ابنه مقابلة مهينة اهاجته . فسر ليلة في حالة هياج واضطراب حتى كان متمعياً من ثيابه يهيمهم كالمجنون فنظم قصيدة هجاء مقذعة في الراعي في ثمانين بيتاً كان منها البيت المشهور :

ففض الطرف انك من غير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

الذي يروى أنه حينما عن له اخذ يجبو ويفرز ويقول عضضته والله ، اخزيتة والله ، فضحته والله . ثم اصبح قدما بدهن فادهن واصلح وجهه ورجل شعره ، وامر غلامه فأسرج له حصاناً ثم قصد المربد حين عرف ان الناس يجلسوا في مجالسهم فيه ، وكان يعرف مجلس الفرزدق والراعي فقصد مجلسهم فوقف عليهم دون ان يسلم وقال يا غلام قل لعبيد الراعي ابعثك نسوتك لتسكبن المال بالعراق والذي نفس جرير بيده لتؤوين اليهن بئر يسوه ولا يسر ثم اندفع فانشد القصيدة فنكس الفرزدق رأسه واطرق الراعي حتى ان لو انتشت الارض لساخ فيها ثم وثب الى بقلته فركبها بثر وعر وتفرق اهل المجلس ذاهلين .

د - الحفظ والرواية

ونرى قبل ان نختتم هذا الفصل ان ننوه بأمر على جانب عظيم من الاهمية في الحركة العلمية على اختلاف مجالاتها في الصدر الاسلامي الاول وهو الحفظ والرواية . فلقد كانت نطاق التدوين في هذا الصدر ضيقاً على كل حال . ولقد احتوت كتب الحديث والتفسير والتاريخ والفقه والادب ثروة هائلة من كل موضوع من هذه المواضيع معزوة الى الحفظ والرواية ، ويلمح في هذه الكتب اسماء الرواة ، تتكرر بأعيانها كثيراً ، وقد دأب مؤلفوها على غنعة مروياتهم عن راو عن راو الى مصدر الرواية او سامعها في عصرها بقصد التوثيق ودفع التهمة حيث يدل هذا وذاك على انه كان في كل جيل من الاجيال التي سبقت عهد التدوين الواسع أي في القرنين الهجريين الاول والثاني جماعة دأبها أو هوايتها الحفظ والرواية . وهناك شخصية ادبية مشهورة يحمل لقب (الراوية) هو حماد الراوية الذي عاش في الدولتين الاموية والعباسية بما فيه دلالة على ما نقول وإن كان هذا قد اختص برواية الشعر . وقد روي انه كان يحفظ آلاف القصائد منه حتى لقد اتهم من قبل بعض أدباء وعلماء العهد العباسي بالكذب والاختراع لأن ما كان يدعيه كان عجباً لا يكاد ان يصدق^١ . وإلى هذه الجماعة يعزى الفضل في ما وصل الى عهد التدوين

(١) يروي مؤلف الاغانى ان حماداً وفد على الوليد بن يزيد فسأله بم استحققت لقب الراوية فقال له بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا امير المؤمنين او سمعت به ثم أروي لأكثر منهم من تعرف انك لم تعرفه ولم تسمع به ثم لا انشد شعراً لقديم ولا عُدث الا ميزت القديم منه من المحدث فقال ان هذا لعلم وايبك كبير ، ثم سأله عن مقدار ما يحفظ من الشعر قال كثير ، ولكنني انشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام فقال له سأمتحنك في هذا وامره بالانشاد فأنشده حتى ضجر الوليد فوكل به من استحلفه ان يصدقه ويستوفي عليه فأنشده الفين وتسعمائة قصيدة فأمر له الوليد بمئة الف درهم . (انظر اخبار حماد في المجلد الخامس من كتاب الاغانى) ويذهب الذين يقولون بكذب حماد واختراعه الى ان الرواية كانت في زمنه أروج سوقاً فكان ينظم الشعر ويعزوه الى شعراء جاهليين فأفسد بذلك الشعر الجاهلي ، ومع ما في هذا القول من احتمال الصواب والوجهة فانه ليس من شأنه ان ينفي لقب الرواية عن الرجل ، وفيه دلالة على ما كان للرواية والحفظ من أهمية حافزة ؛

الواسع من تلك الثروة المائلة المتنوعة .

ومهما يكن من حقيقة لاشك فيها وهي تسرب كثير من الاختراع والتعريف والمبالغة
راحيال والتلفيق بقصد وبغير قصد الى المرويات المتداولة على اللسان الى عهد التدوين فانه
لا يجوز في اعتقادنا ان يشك في ان كثيراً منها يتسم بسمة الصفة والصدق .

١٦- الزراعة والتجارة والصناعة

١- الزراعة

كانت الصورة العامة في زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين من الزراعة في جزيرة العرب هي ما كانت عليه قبل الاسلام اجمالا بما شرحناه في الجزء الخامس شرحاً يغني عن التكرار مع شيء من التغيير نتيجة لانتقال مزارع اليهود وبساتينهم في ضواحي المدينة والقرى القريبة لها الى حوزة المسلمين واشتغال العرب في استغلالها بعد اجلاء من بقي من اليهود عنها في زمن عمر بن الخطاب ، على ما روينا في الجزئين السادس والسابع . وهناك مآثورات تفيد ان بعض اصحاب رسول الله وابنائهم وبعض خلفاء بني امية وابنائهم اقتنوا في المدينة ومكة والطائف مزارع وبساتين كانت تدر عليهم ايرادات كبيرة .

اما خارج الجزيرة فان الذين خرجوا منها من العرب كانوا مجتهدين ولم يشتغلوا في استثمار الارض بل لقد منعوا من ذلك في زمن عمر . وابقيت الاراضي الزراعية في البلاد المفتوحة في ايدي اهلها يستثمرونها ويدفعون خراجها الى بيت المال ، مع التنبيه على ان هناك مآثورات تفيد وقوع بعض التطورات حيث روي ان عثمان بن عفان اقطع بعض العرب بعض اراض في ما وراء النهر نزع عنها اهلها فصاروا يستثمرونها وان بعض الخلفاء وابنائهم والولاة وابنائهم وغيرهم من رجالات العرب اقتنوا في الشام والعراق مزارع وبساتين كانت تدر عليهم ايرادات ضخمة . غير ان الذي نرجعه ان العاملين في هذه

المزارع والبساتين كانوا من اهل البلاد المفتوحة الذين اسلموا او الذين بقوا في الذمة .

والى جانب هذه الصورة من الحالة الزراعية العربية فهناك صورة تدل على ان الدولة كانت تعنى عناية كبيرة بتحسين وسائل وغو الزراعة ، حيث قال الاصطخري ان بعض الرواة ذكروا انه كان في زمن ولاية ابن ابي بردة للبصرة سنة ١١٨ (في زمن هشام) في منطقة البصرة (١٢٠٠٠٠) نهراً يجري فيها الزوارق وانه انكر ذلك حتى زار البصرة فرأى في رمية سهم عدداً كبيراً من الانهار الصغيرة التي تجري فيها زوارق صغيرة فصادق ما قرأه^١ . والمتبادر ان هذه الانهار هي اقنية وترع لتنظيم الري ، وان هذه الصورة ليست فريدة . وانما كانت متكررة بالنسبة لمصر والجزيرة الفراتية وغيرها بما يتلاءم مع ذلك من البلاد . وينسب الى يزيد بن معاوية نهر من الانهار الدمشقية التي نظمت لري بساتين الغوطة . والمتبادر ان النهر قد شق في زمن يزيد للغرض نفسه فنسب اليه .

ب - الصناعة والتجارة

وما قلناه عن الزراعة بالنسبة للعرب يصح قوله بالنسبة للصناعة والتجارة ، فقد كانت للعرب في جزيرتهم قبل الاسلام بعض الصناعات التي تسد حاجاتهم المحلية كما انهم كان لهم نشاط تجاري غير يسير في الجزيرة وخارجها على ما شرحناه في الجزء الخامس . والمتبادر انهم احتفظوا بهذه الصورة في زمن النبي والخلفاء الراشدين والدولة الاموية دون ان يطرأ عليها تغيير كبير ، اما خارج الجزيرة فقد ظل العرب الذين خرجوا من الجزيرة في موجات الفتح واستقروا في البلاد المفتوحة مجتدين لهم اعطيانهم المضمونة فلم يشتغلوا في تجارة ولا صناعة وظل هذا المجال لاهل البلاد من مسلمين وموال ومن ذميين فكانت الدولة والعرب يسدون حاجاتهم من ذلك بواسطة هؤلاء ، وقد كان لليهود في

(١) انظر تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٠٠ .

مصر وبلاد الشام جاليات نشيطة في الاعمال الصناعية والتجارية على ما تفيد المآثورات .
ولقد كان التجار من الموالي والذمين يسرون القوافل التجارية بين مختلف اقطار الدولة
الواسعة دونما قيود وشروط ويتلقون فيها السلع المتنوعة من غلات الارض والمصنوعات
حسب حاجة الاقطار . ولقد ذكرنا في سيرة عمر بن الخطاب ان بعض اهل البلاد المفتوحة
كانوا يتاجرون مع البلاد المجاورة التي كانت توصف بدار الحرب فيؤخذ منهم رسوم
وان اهل هذه البلاد طلبوا من عمر ان يأذن لهم بالتجارة مع البلاد الاسلامية مقابل رسوم
بمائلة فأذن لهم واستقر الامر على ان يؤخذ منهم عشر قيمة السلع التي يدخلونها الى بلاد
الاسلام وأن يؤخذ نصف العشر اذا كان التاجر الذي يأتي بالسلع من دار الحرب ذمياً
وربع العشر . وهذا معادل لقيمة الزكاة -- اذا كان التاجر مسلماً والمآثورات تفيد ان
هذه الحالة استمرت في زمن الدولة الاموية .

١٧ - البناء



ظل العرب في جزيرتهم على الطريقة التي كانوا عليها قبل الاسلام في البناء والتي كانت اساليب متنوعة . منها ما كان طبقات ومنها ما كان مساحات مسورة مكشوفة على اطرافها غرف .

وحينا استقروا في البلاد المفتوحة بعد الاسلام اخذوا بطعمون اساليبهم باسلوب البلاد التي اقاموا فيها . ثم صار لأسلوبهم طابع خاص يصح ان يسمى الطابع العربي حيث صار يمتاز بالاعمدة والقباب والمنحنيات والأقواس ، وتزين الأبواب والجدران والشرفات بنقش آيات قرآنية زخرفية وان كان من الحق ان يقال ان ذلك قد تم تدريجياً وامتد في التدرج الى ما بعد الدولة الاموية ، وبما وصف به قصر الخلافة في دمشق^١ انه كان فيه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء باشجارها الوارفة .

وقد روي عن علوية المغني^٢ انه دخل مع المأمون حينما زار دمشق وفي سياق طوافه معه على قصور بني امية شاهد صحناً من صحنهم فاذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها وفي البركة سمك ، وبين يديها بستان على

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي لسيد امير علي تروحة رياض رافة ص ١٦٨ .

(٢) انظر اخبار علوية المغني في كتاب الاغانى .

اربعة زواياه اربع سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها فكانت أحسن ما رأى من السروات قط قدماً وقدراً . وهذه الصورة مألوفة الى اليوم في قصور دمشق الكبيرة بل وفي بيوتها العادية حيث يمكن القول ان هذا الطراز كان امتداداً لطراز البيوت في زمن الامويين . وكان اصحاب اليسار يزینون بيوتهم بالزخارف والفسيفساء على ما تقيده رواية تذكر ان الحر بن يوسف والي الموصل في عهد هشام شيد داراً من الرخام عرفت بالمنقوشة بسبب ما كان فيها من النقوش البديعة والفصوص الملونة ^١ ، وكانوا يخصصون حيطان البيوت وسقفها بالكلس الابيض ويدهنونها احياناً بطلاء اخضر على ما تقيده رواية معزوة الى يزيد بن المهلب جاء فيها انه دخل دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك فرأى جدرانها وسقفها بمحصة وانه دخل داراً اخرى فرأى جدرانها وسقفها خضراء اللون ^٢ .

ولقد كان الخلفاء الامويون وابنائهم ينتبذون في الاماكن الخلوية شمال سورية وجنوبها طلباً للاتباع والاستجمام فابتنوا قصوراً كثيرة ^٣ منها قصور ارقم والمشتى والزبراء والفدين والازرق والاغدف والقسطل والابيض وعمره في الانحاء الجنوبية والزيتونة والرصافة ودابق والجابية وحوارين وبطنان حبيب في الانحاء الشمالية ، وبعض هذه القصور قائم ، وبعضها اطلال او خرائب ، وبعضها انطمس ثم كشف عنه ، واكثرها على الطراز الرومي او الفارسي المطعم ان صح التعبير بالطابع العربي الجديد ، ومن القصور التي كانت مطهورة وكشف عنها قصر عمرة على الشاطئ الشمالي من البحر الميت ، ويتفق الاثريون على انه من عمل الوليد بن عبد الملك ، ويجمع القصر بين مزايا الصروح والحصون ، وقد هد على جدرانه نقوش يجملها لم يحفظ منها في صقيع آخر من اصقاع الشام ، تمثل

(١) انظر ابن الاثير ج ٥ ص ٤٩ -

(٢) تاريخ الاسلام للسياسة لحسن ابراهيم ج ٢ ص ٤١٥ .

(٣) خطط الشام للكردي علي ج ٥ ص ٢٨٢ .

مشاهد متنوعة ، مثل مشاهد العباب الجريد ، ومشاهد صيد انواع الطيور ، ومشاهد صيد في البحر ، ولوحات تمثل صناعات مختلفة ، وصوراً رمزية تمثل ادوار الحياة في البادية وبعض قصص تاريخية وشعرية وفلسفية ورسوم منطقة الفروج ، ورجالاً ونساء وغاراً وطيوراً من اطياف البادية وامرأة عربية محلاة باللؤلؤ . وخليفة جالساً على عرشه ومن حوله اعداء الاسلام^١ .

هذا ويحسن أن يشار في هذا المقام الى المساجد العظيمة التي انشأها الامويون وبخاصة مساجد القدس ودمشق والمدينة على ما ذكرناه ووصفناه في سيرتي عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك حيث كان يتمثل فيها عظمة العهد والطابع البنائي العربي المتطور عن الطراز الرومي والفارسي .

(١) خطط الشام للكرد علي سج ٢٨١ ولعل اسم عمرة مختزل من عمورة وهي احدى المدينتين المدمرتين بالعذاب الرباني في عهد لوط عليه السلام على ما جاء في سفر التكوين الاصحاح (١٩) .

فهرست مفصل لموا ان الجزء

•

من ص الى ص

كلمة اولى بين يدي الكتاب	٤	٣
الفصل الاول في سيرة الخلفاء الامويين		٧
تمهيد في اسماء خلفاء بني امية مدة حكمهم وفي صدد خلافتهم وما روي في ذلك وتعليق عليه	١٦	٨
ملحق بمقتطفات شعرية من فحول شعراء العصر الاموي في مدح صفات واخلاق وحكم خلفاء بني امية	٣١	١٧
١ - معاوية بن ابي سفيان ^١	٧٨	٣٢
٢ - يزيد الاول بن معاوية	٨٧	٧٩
٣ - معاوية الثاني بن يزيد	٨٩	٨٨

(١) ذكرنا في سياق سيرة كل - يفة ما هو مأثور عن سنه وصفته ونشأته وطراز حياته واخلاقه مميزات وشعره واقواله وخطبه وكتبه ووصاياه وتنظياته ومنشأته ومعالجاته لمتنلف شؤون الحكم . والاحداث الشخصية والعامة التي جرت في عهده بينه وبين عماله وقواده وغيرهم والتي لم نوردنا في نبذ اخرى ، واستطردات الى ذكر احداث واشخاص آخرين متصلين بها ، وتمحيصات وتعليقات متنوعة في صدد ما روي عنه او قيل فيه .

٩٠	٩٣	٤ - مروان بن الحكم
٩٤	١١١	٥ - عبد الملك بن مروان
١١٢	١٢٠	٦ - الوليد الاول بن عبد الملك
١٢١	١٣٤	٧ - سليمان بن عبد الملك
١٣٥	١٥٥	٨ - عمر بن عبد العزيز بن مروان
١٥٦	١٦٠	٩ - يزيد الثاني بن عبد الملك
١٦١	١٧٥	١٠ - هشام بن عبد الملك
١٧٦	١٩٢	١١ - الوليد الثاني بن يزيد الثاني
١٩٣	١٩٦	١٢ - يزيد الثالث بن الوليد الاول
١٩٧	١٩٨	١٣ - ابراهيم بن الوليد الاول
١٩٩	٢٠٦	١٤ - مروان الثاني بن محمد بن مروان بن الحكم
٢٠٧		الفصل الثاني
٢٠٨		الحركات والاحداث الخارجية وسير الفتوح في عهد الدولة الاموية
٢٠٩	٢٤٧	اولا : بين العرب والروم . وبين العرب والبربر خلال ذلك ايضا . وما ادى اليه ذلك من فتح انحاء كثيرة في الاناضول وبقية شمال افريقية ثم فتح الاندلس ^١
٢٤٨ : ٢٨٨		ثانيا : حركات الفتح في بلاد العجم والترك وارمنية والسند والهند والصين وما كان من مصادلات بين العرب وسكان هذه البلاد بسبل ذلك ^٢
٢٨٩	٢٩١	- تعقيب عام على الفصلين السابقين

(١-٢) في هاتين النبتين تفصيلات وجيزة ولكن شافية في مختلف المراحل والصور والاحداث والاسماء الاعلام .

٢٩٣	الفصل الثالث : المعكرات الداخلية في زمن الدولة الاموية ^١
٢٩٤	٢٩٨ تمهيد
٢٩٩	٣٥٤ ١ - حركة الخوارج .
٣٥٤	٣٨٦ ٢ - خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما ومقتله
٣٨٧	٣٩٨ ٣ - حركات ثارات الحسين وحركة المختار بن ابي عبيد الثقفي
٣٩٨	٤٠٣ ٤ - خروج زيد بن علي بن الحسين
٤٠٤	٤٠٨ ٥ - خروج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين
٤٠٨	٤٣٨ ٦ - الحركة العباسية
٤٣٩	٤٥٣ ٧ - ثورة المدينة على يزيد بن معاوية وخلعها اياه
٤٥٤	٤٧٣ ٨ - حركة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه
٤٧٤	٣٧٦ ٩ - حركة عبد الله بن خازم وابنه موسى في خراسان وما وراءها
٤٧٧	٥٠٤ ١٠ - تمرد عبد الرحمن بن الاسعث الكندي واستطراد الى ترجمة الحجاج
٥٠٥	٥٠٧ ١١ - تمرد يزيد بن المهلب وذويه
٥٠٨	٥٣٨ ١٢ - العصية القبلية
٥٣٩	الفصل الرابع : فذلكة عامة عن مختلف احوال الدولة الاموية
٥٤١	٥٤٧ ١ - رئاسة الدولة من مختلف جوانبها العامة والخاصة
٥٤٨	٥٥١ ٢ - تعريب الدواوين والطراز والنقد

(١) في نبذ هذا الفصل وتمهيد دراسته وتفصيلات وجيزة ولكن شافية في مختلف الاحداث والمراحل والصور والاسماء والاعلام وتمحيصات الروايات المتناقضة ووضع الامور في نصابها الحق حسب ما ادى اليه اجتهادنا وفي نبذة الخوارج خاصة عرض لنظرية الخوارج ومقالاتهم وقروعه وتنويه بما في هذه الحركة من غرابة وخطورة بالفتن .

٥٥٢	٥٥٦	٣ - ادارة الاقطار والولاة
٥٥٧	٥٦٠	٤ - العطاء
٥٦١	٥٦٢	٥ - القوة البرية
٥٦٣	٥٦٤	٦ - القوة البحرية
٥٦٥	٥٦٨	٧ - موارد الدولة
٥٦٩	٥٧٠	٨ - القضاء
٥٧١	٥٧٢	٩ - المظالم
٥٧٣	١٠ -	الفتيا
٥٧٤	١١ -	الحسبة
٥٧٥	١٢ -	البريد
٥٧٥	١٣ -	المجتمع :
٥٧٢	٥٨٥	١ - العرب المسلمون ^١
٥٨٦	٥٨٨	٢ - المسلمون من غير العرب
٥٨٩	٥٩٥	٣ - الذميون ^٢
٥٩٦	١٤ -	التيارات الفكرية والسياسية :
٥٩٦	١ -	الحوارج
٥٩٧	٦٠٥	٢ - الشيعة وتفرعاتها ومقالاتها ومذاهبها الكلامية في زمن الدولة الاموية

(١) في هذه النبعة صور عما كان عليه العرب من عصبية عنصرية واعتزاز قومي .

(٢) في هذه النبعة تمحيضات وتعليقات في صدد ما روي من سلوك واعمال الدولة ازاء الذميين

مسألة الجزية .

٦٠٥	٦٠٧	٣ - المعتزلة
٦٠٧	٦١٠	٤ - الجبرية والمرجئة
٦١١	٦١٢	٥ - غلاة العقائد : السبئية - البيانية - المغيرية - المنصورية - الجناحية الحولية - التناسخية
٦١٣	٦١٤	٦ - مذهب السنة والجماعة
٦١٥	١٥ -	الحركة العلمية :
٦١٥	٦١٦	١ - القراءة والكتابة والخط العربي
٦١٦	٦٢١	٢ - العلوم الشرعية : القراءات - الحديث - التفسير - الفقه
٦٢١	٦٢٣	ت - العلوم اللسانية : النحو - الحركات والإعجام
٦٢٣	٦٢٤	ث - علم التاريخ
٦٢٤	٦٢٥	ج - العلوم الدخيلة
٦٢٦	٦٣٩	ح - العلوم الادبية : الشعر - الخطابة - النثر والرسائل - الغناء العربي
٦٤٠	٦٤١	خ - البصرة والكوفة ودورهما في الحركة العلمية
٦٤٢	٦٤٣	د - الحفظ والرواية
٦٤٤	٦٤٦	١٦ - الزراعة والتجارة والصناعة
٦٤٧	٦٤٩	١٧ - البناء